

تأليف

الإمام الشيخ إسماعيل حقي بن مصطفى
الحنفي الخلوتي البروسوي
المتوفى ١١٢٧ هـ

ضبطه وصححه وخرج آياته

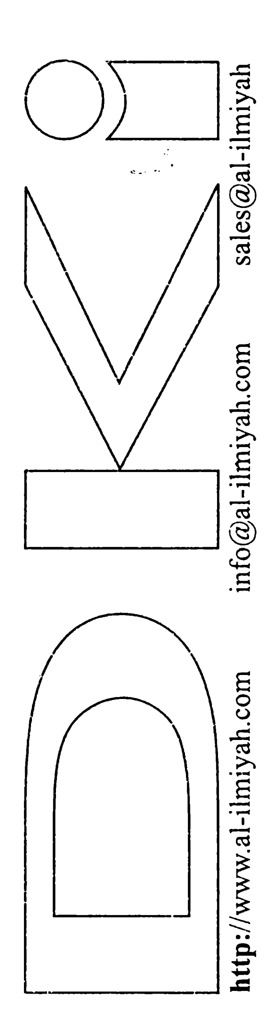
عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثاني

المحتوى:

من أول سورة آل عمران - إلى آخر سورة المائدة





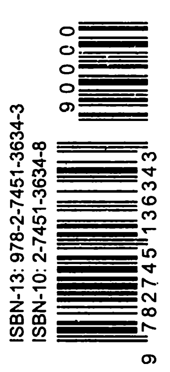
الكتاب : روح البيان في تفسير القرآن **Title : RŪḤ AL-BAYĀN FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN**	
التصنيف : تفسير قرآن **Classification:** Exegesis of the Qur'an	
المؤلف : الشيخ إسماعيل البروسوي (ت ١١٢٧ هـ) **Author :** Al-Shaykh ISmail Al-Burusawi (D. 1127 H.)	
المحقق : عبداللطيف حسن عبدالرحمن **Editor :** Abdullatif Hassan Abdulrahman	
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت **Publisher:** Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut	
Pages (10Vols./10Parts) 5344	عدد الصفحات (١٠أجزاء/١٠ مجلدات)
Size 17x24 cm	قياس الصفحات
Year 2018 A.D. - 1439 H.	سنة الطباعة
Printed in Lebanon	بلد الطباعة لبنان
Edition 4th (2 Colors)	الطبعة الرابعة (لونان)

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN-13: 978-2-7451-3634-3
ISBN-10: 2-7451-3634-8

٣ - سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾.

﴿الم﴾ الألف إشارة إلى الله واللام إلى اللطيف والميم إلى المجيد **﴿الله﴾** مبتدأ **﴿لا إله إلا هو﴾** خبره أي: هو المستحق للمعبودية لا غير **﴿الحي القيوم﴾** خبر آخر له أي: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء والدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه.

- روي - عنه ﷺ «اسم الله الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾**، وفي آل عمران: **﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾**، وفي طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: ١١١] وهذا رد على من زعم أن عيسى عليه السلام كان رباً فإنه روي أن وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا ستين راكباً: فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، ثلاثة منهم أكابر إليهم يؤول أمرهم، أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح، وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الأبهم، وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة أحد بني بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز: تعساً للأبعد، يريد به رسول الله عليه السلام فقال له أبو حارثة: بل تعست أمك فقال كرز: ولِمَ يا أخي؟ قال إنه والله النبي الذي كنا ننتظر فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا؟ قال: لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لأخذوها منا كلها فوقع ذلك في قلب كرز وأصره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله عليه السلام بعد صلاة العصر عليهم ثياب خيرات من جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي عليه السلام: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا في المسجد فقال عليه السلام: «دعوهم» فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله

ﷺ فقالوا: تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى أنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان أحداً لقال: فعلت وقلت فقال لهم رسول الله ﷺ: «أسلموا» قالوا: أسلمنا قبلك قال عليه السلام: «كذبتم يمنعكم من الإسلام ادعاؤكم لله تعالى ولداً» قالوا: إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه فقال عليه السلام: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه» فقالوا: بلى قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء» قالوا: بلى قال عليه السلام: «ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه» قالوا: بلى قال ﷺ: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً» قالوا: لا فقال عليه السلام: «ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» قالوا: بلى قال عليه السلام: «فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم» قالوا: لا قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث» قالوا: بلى قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث» قالوا: بلى قال ﷺ: «فكيف يكون هذا كما زعمتم» فسكتوا فأبوا إلا جحوداً فأنزل الله تعالى من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقاً للحق الذي فيه يمترون.

﴿**نزل عليك الكتاب**﴾أي: القرآن عبر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب. فإن قلت: لم قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل؟ قلت: لأن التنزيل للتكثير والقرآن نزل منجماً ونزل الكتابان جملة وذكر في آخر الآية الإنزال وأراد به من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة في ليلة القدر في شهر رمضان والمراد هنا هو تنزيله إلى الأرض ففي القرآن جهتا الإنزال والتنزيل ﴿**بالحق**﴾ملتبساً ذلك الكتاب بالعدل في أحكامه أو بالصدق في أخباره التي من جملتها خبر التوحيد وما يليه أو في وعده ووعيده ﴿**مصدقا لما بين يديه**﴾أي: في حال كونه مصدقاً للكتب قبله في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع قبله ﴿**وأنزل التوراة والإنجيل**﴾اسمان أعجميان: الأول عبري والثاني سرياني ﴿**من قبل**﴾أي: أنزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام من قبل تنزيل الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة في البيان ﴿**هدى للناس**﴾علة للإنزال أي: أنزلهما لهداية الناس وفيه لف بدون النشر لعدم اللبس لأن كون التوراة هدى للناس في زمان موسى وكون الإنجيل هدى لهم في زمان عيسى معلوم فاختصر لذلك ﴿**وأنزل الفرقان**﴾أي: جنس الكتب السماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل أو هو القرآن كرر ذكره تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله ﴿**إن الذين كفروا بآيات الله**﴾أي: بالقرآن ومعجزات النبي عليه السلام ﴿**لهم**﴾بسبب كفرهم بها ﴿**عذاب شديد**﴾لا يقادر قدره ﴿**والله عزيز**﴾لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿**ذو انتقام**﴾عظيم لا يقدر على مثله منتقم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي: مدرك الأشياء كلها يعني هو مطلع على كفر من كفر به وإيمان من آمن به وعلى جميع أعمالهم فيجازيهم يوم القيامة ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي: يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام أمهاتكم من ذكر وأنثى وأسود وأبيض وتام وناقص وطويل وقصير وحسن وقبيح وهو رد على الذين قالوا عيسى الله أو ابن الله لأن من صور في الرحم يمتنع أن يكون إلهاً وولداً لله لكونه مركباً وحالاً في المركب وفي عرض الفناء والزوال ﴿لا إله إلا هو﴾نزه نفسه أن يكون عيسى ابناً له ﴿العزيز الحكيم﴾المتناهي في القدرة والحكمة فربكم يخلقكم على النمط البديع قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد» قال: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» وقال عليه السلام: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتبان فيقول: أي رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص ثم يقول الملك: يا رب ما أصنع بهذا الكتاب؟ فيقول علقه في عنقه إلى قضائي عليه فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] أي عمله من خير وشر الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار إليه من وكر الغيب والقدر. قال القاضي المراد بكتبه هذه الأشياء إظهارها للملك وإلا فقضاؤه تعالى سابق على ذلك وكل ميسر لما خلق له فعلى العاقل أن لا يتكاسل عن الأعمال في جميع الأحوال ولا يفوت أيام الفرصة والليال:

خبرداری أي استخواني قفس كه جان تومر غيست نامش نفس
چو مرغ از قفس رفت وبكسست قيد دكر ره نكردد بسعى تو صيد
نكه دار فرصت كه عالم دميست دمى بيش دانا به از عالميست

والإشارة أن الله تعالى كما يصور الجنين بصورة الإنسانية على نطفة سقطت في الرحم بتدبير الأربعينات فكذلك إذا سقطت من صلب ولاية رجل من رجاله نطفة إرادة في رحم قلب مريد صادق والمريد يستسلم لتصرفات ولاية الشيخ وهي بمثابة ملك الأرحام ويضبط أحوال ظاهره وباطنه على وفق أمر الشيخ ويختار الخلوة والعزلة كيلا يصدر منه حركة عنيفة أو يجد رائحة غريبة يلزم منها سقوط النطفة وفسادها ويقعد بأمر الشيخ وتدبيره فالله تعالى يصرف ولاية الشيخ المؤيد بتأييد الحق بمرور كل أربعين عليه بشرائطها يحولها من حال إلى حال وينقلها من مقام إلى مقام إلى أن يرجع إلى حظائر القدس ورياض الأنس التي منها صدر إلى عالم الإنس بقدم الأربعينات الأولى فلما وصل إلى مقامه الأول أيضاً بقدم الأربعينات كما جاء تم خلق الجنين في رحم القلب وهو يجعل خليفة الله في أرضه فيستحق الآن أن ينفخ فيه الروح المخصوص بأبناء أوليائه وهو روح القدس الذي هو متولي إلقائه كقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] وقال: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ولهذه الفائدة العظيمة والنعمة الجسيمة أهبط الأرواح من أعلى عليين القرب إلى

أسفل سافلين البعد كما قال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] فإذا نفخ فيه الروح يكون آدم وقته فيسجد له بالخلافة الملائكة كلهم أجمعون فاحفظه تفهم إن شاء الله تعالى كذا في «تأويلات الشيخ الكامل نجم الدين الكبرى» أفاض الله علينا من سجال معارفه وحقائقه ولطائفه آمين.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي القرآن **﴿منه﴾** أي من الكتاب **﴿آيات محكمات﴾** أي قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه **﴿هن أم الكتاب﴾** أي أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها بالتأويل فالمراد بالكتاب كله والإضافة بمعنى في **﴿وأخر﴾** أي ومنه آيات أخر **﴿متشابهات﴾** أي محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها من بعض في استحقاق الإرادة بها ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه في الحقيقة وصف للمعاني وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول.

واعلم أن اللفظ إما أن لا يحتمل غير معنى واحد أو يحتمل. والأول هو النص كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [البقرة: ١٦٣]. والثاني إما أن تكون دلالته على مدلوليه أو مدلولاته متساوية أو لا والأول هو المجمل كقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وأما الثاني فهو بالنسبة إلى الراجح ظاهر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢] وبالنسبة إلى المرجوح مؤول كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠] والنص والظاهر كلاهما محكم والمجمل والمؤول متشابه وهو كقوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] قد رد إلى قوله تعالى: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ١٤٤] ثم إن الله تعالى جعل القرآن كله محكماً في قوله ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] ومعناه أن كله حق لا ريب فيه ومتقن لا تناقض فيه ومحفوظ من اعتراء الخلل أو من النسخ. وجعله كله متشابهاً في قوله: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] ومعناه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة النظم وحقيقة المدلول وجعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً في هذه الآية وقد سبق وإنما لم يجعل الله القرآن كله محكماً لما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه كابتلاء بني إسرائيل بالنهر في اتباع نبيهم ولأن النظر في المتشابه والاستدلال لكشف الحق يوجب عظم الأجر ونيل الدرجات عند الله **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾** أي ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة **﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾** معرضين عن المحكمات أي يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحرياً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل **﴿ابتغاء الفتنة﴾** أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه **﴿وابتغاء تأويله﴾** أي طلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل **﴿وما يعلم تأويله﴾** أي تأويل المتشابه **﴿إلا الله والراسخون في العلم﴾** أي لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم أي ثبتوا فيه وتمكنوا أو فوضوا فيه لنص قاطع ومنهم من يقف على

قوله: ﴿إلا الله﴾ ويبتدىء بقوله: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه وبمعرفة الحكمة فيه من آياته كعدد الزبانية في قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٣٠] ومدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة والصوم وعدد الركعات في الصلوات الخمس والأول هو الوجه فإن الله تعالى لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ويدل به على معنى أراده فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال وهل يجوز أن يقال إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته وإن لم يعرفه النبي ﷺ وصحابته والعلماء الراسخون وقالوا: علمه عند ربنا لم يكن لهم فضل على الجهال لأنهم جميعاً يقولون ذلك قالوا: ولم يزل المفسرون إلى يومنا هذا يفسرون ويؤولون كل آية ولم نرهم وقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله بل فسروا نحو حروف التهجي وغيرها ﴿يقولون آمنا به﴾ أي بالمتشابه والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين وعلى الثاني خبر لقوله والراسخون ﴿كل﴾ أي كل واحد من المحكم والمتشابه ﴿من عند ربنا﴾ منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما ﴿وما يذكر﴾ حق التذكر ﴿إلا أولو الألباب﴾ أي العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما به استعدوا للاهتداء إلى تأويله من تجرد العقل عن غواشي الحس.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ أي يقولون: لا تمل قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى الحق والتأويل الصحيح أو إلى الإيمان ﴿وهب لنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك ﴿إنك أنت الوهاب﴾ وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب. وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ بعد الموت ﴿ليوم﴾ أي لجزاء يوم وحسابه وهو يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ الوعد يعني الألوهية تنافي خلف الوعد في البعث واستجابة الدعاء وهذا حال الراسخين في الدعاء فانظر كيف لا يأمنون سوء الخاتمة وأداهم الخوف والخشية إلى الرجاء فإياك والزيغ عن الصراط المستقيم باتباع الهوى والشهوات قال رسول الله ﷺ: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أزاغه» يعني قلب المؤمن بين توفيقه وخذلانه وإنما قال من أصابع الرحمٰن ولم يقل من أصابع الله إشعاراً بأنه هو المتمكن من قلوب العباد والمتصرف فيها كيف يشاء ولم يكلها إلى أحد من ملائكته رحمة منه وفضلاً لئلا يطلع على سرائرهم غيره وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك» والميزان بيد الرحمٰن يرفع قوماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة وقال ﷺ: «مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن». قال الجنيد رحمه الله: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح في بدنه وقلبه فليعتزل الناس فإن هذا زمان وحشة

والعاقل من اختار الوحدة قال عليه السلام لأصحابه: «أين تنبت الحبة» قالوا في الأرض قال: «فكذلك الحكمة إنما تنبت في قلب مثل الأرض» فدفن حبة الفؤاد والوجود في أرض الخمول مما ينتج ويتم نتاجه جداً فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه وإن ظهر نوره وإنتاجه كالذي ثبت في حميل السيل. فعليك بتزكية النفس وإصلاح الوجود كي تدرك نور الشهود وتقبل إلى الاستقامة وتخلص من الزيغ والضلال في جميع الأحوال وكم من زائغ قلبه وهو صورة مستقيم وكم من مستقيم فؤاده وهو في الظاهر غير مستقيم، كما قيل:

بس قامت خاشاك كه برجا باشد چون باد بر آنها بوزد نا باشد

والقلب هو محل النظر لا الصورة كما قال عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم بل إلى قلوبكم وأعمالكم» فأي فائدة في القلب الزائغ عن الحق فنعوذ بالله منه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم﴾ أي لن تنفعهم **﴿أموالهم﴾** التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار قدم الأموال على الأولاد لأنها أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب **﴿ولا أولادهم﴾** الذين بهم يتناصرون في الأمور المهمة وعليهم يعولون في الخطوب الملمة وتوسيط حروف النفي لعراقة الأولاد في كشف الكروب **﴿من الله﴾** أي عذابه تعالى: **﴿شيئاً﴾** أي شيئاً من الإغناء ومعناه لا يصرف عنهم كثرة الأموال والأولاد والتناصر بهما عذابه وكانوا يقولون نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين قال تعالى في ردهم ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] **﴿وأولئك﴾** أي أولئك المتصفون بالكفر **﴿هم وقود النار﴾** حطب النار وحصبها الذي تسعر به **﴿كدأب آل فرعون﴾** الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه وتعب غلب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي دأب هؤلاء في الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون **﴿والذين من قبلهم﴾** أي آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم نوح وثمود وقوم لوط وهو عطف على ما قبله **﴿كذبوا بآياتنا﴾** بيان وتفسير لدأبهم الذي فعلوا على الاستئناف المبني على السؤال كأنه قيل: كيف كان دأبهم فقيل: كذبوا بآياتنا أي بكتبنا ورسلنا **﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾** تفسير لدأبهم الذي فعل بهم أي فأخذهم الله تعالى وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصاً فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كدأبهم والذنب في الأصل: التلو والتابع وسميت الجريمة ذنباً لأنها تتلو أي يتبع عقابها فاعلها **﴿والله شديد العقاب﴾** لمن كفر بالآيات والرسل.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

﴿قل للذين كفروا﴾ المراد بهم اليهود لما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما **«أن** يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله ﷺ على المشركين يوم بدر قالوا: والله إنه النبي **الأمي**

الذي بشرنا به موسى وفي التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت».

﴿ستغلبون﴾ البتة عن قريب في الدنيا قد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ﴿وتحشرون﴾ أي في الآخرة ﴿إلى جهنم﴾ والحشر السوق والجمع أي يغلبون في الدنيا ويساقون في الآخرة مجموعين إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس الفراش والمقر جهنم.

﴿قد كان لكم﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور به أي والله قد كان لكم أيها اليهود المغترون بعددهم وعددهم ﴿آية﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم إنكم ستغلبون ﴿في فئتين﴾ أي جماعتين فإن المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ﴿التقتا﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿فئة﴾ خبر مبتدأ محذوف أي إحداهما فئة ﴿تقاتل﴾ تجاهد ﴿في سبيل الله﴾ وهم لا كثرة فيهم ولا شوكة وهم أصحاب محمد ﷺ: ﴿وأخرى﴾ أي وفئة أخرى ﴿كافرة﴾ بالله ورسوله ﴿يرونهم﴾ أي ترى الفئة الأخيرة الكافرة الفئة الأولى المؤمنة والجملة صفة للفئة الأخيرة ﴿مثليهم﴾ أي مثلي عدد الرائين قريباً من ألف كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً رأسهم عتبة من ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى. وعن سعد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المسلمين فسألوه كم كنتم قال: ثلاثمائة وبضعة عشر قالوا: ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا أو مثلي عدد المرئيين أي ستمائة ونيفاً وعشرين حيث كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار رضي الله عنهم وكان صاحب راية النبيّ ﷺ والمهاجرين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه وكان في العسكر تسعون بعيراً وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبي مرثد وست أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذٍ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويتجنبوا عن قتالهم مدداً لهم منه سبحانه كما أمدهم بالملائكة عليهم السلام. فإن قلت فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]. قلت: قللهم أولاً في أعينهم حتى اجترأوا عليهم فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة وإظهار الآية ﴿رأي العين﴾ نصب على المصدر يعني رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات ﴿والله يؤيد﴾ أي يقوي ﴿بنصره من يشاء﴾ أي يريد من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور به ﴿إن في ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيراً المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح ﴿لعبرة﴾ من العبور كالجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فإنه نوع من العبور أي لعبرة عظيمة كائنة ﴿لأولي الأبصار﴾ لذوي العقول والبصائر. فعلى العاقل أن يعتبر بالآيات ولا يغتر

بكثرة الأعداد من الأموال والأولاد وعدم اجتهاده لمعاده فإن الله يمتعه قليلاً ثم يضطره إلى عذاب غليظ.

واعلم أن المبتلى بالكفر مغلوب الحكم الأزلي بالشقاوة ثم مغلوب الهوى والنفس والشيطان ولذات الدنيا فغلبات الهوى والنفس ترد إلى أسفل سافلين الطبيعة فيعيش فيها ثم يموت على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه في قعر جهنم وبئس المهاد فإنه مهده في معاشه والنار ناران: نار الله ونار الجحيم، فأما نار الله فهي نار حسرة القطيعة عن الله فيها يعذب قلوب المحجوبين عن الله كقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧] وأما نار الجحيم فهي نار الشهوات والمعاملات على الغفلات من المخالفات فهي تحرق قشور الجلود كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [النساء: ٥٦] ولا يتخلص من هذه النار إلا لب القلوب وإن عذاب حرقة الجلد بالنسبة إلى عذاب حرقة القلوب كنسيم الحياة وسموم الممات فلا بد من تزكية النفس فإنها سبب للخلاص من عذاب الفرقة. قيل لبعضهم: بم يتخلص العبد من نفسه؟ قال: بربه انتهى فإذا أراد الله أن ينصر عبده على ما طلب منه أمده بجنود الأنوار فكلما اعترته ظلمة قام لها نور فأذهبها وقطع عنه مواد الظلم والأغيار فلم يبق للهوى مجال ولا للشهوة والأخلاق الذميمة مقال ولا قال فالنور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس والمراد بالنور حقائق ما يستفاد من معاني الأسماء والصفات وبالظلمة معاني ما يستفاد من الهوى والعوائد الرديئة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] أي غيروا حالها عما هي عليه وكذلك إذا وردت الواردات الربانية على القلوب الممتلئة أخرجت منها كل صفة رديئة وكستها كل خلق زكية فهذه الدولة إنما تنال بترك الدنيا والعقبى فكيف يمتلىء بالأنوار قلب من خالط الأغيار وأحب المال والأولاد ولم يخف من رب العباد. وقدم على الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله فقير وعليه مسح وقلنسوة فقال له بعض أصحابه: بكم اشتريت هذا المسح على وجه المطايبة؟ فقال: اشتريته بالدنيا فطلب مني بالآخرة فلم أبعه. قال أبو بكر الوراق رحمه الله: طوبى للفقراء في الدنيا والآخرة فسألوه عنه فقال: لا يطلب السلطان منه في الدنيا الخراج ولا الجبار في الآخرة الحساب.

قناعت سر افرازد أي مرد هوش   سرير طمع برنيايد زدوش
كر آزاده برزمين خسب وبس   مكن بهر مالي زمين بوس كس

حققنا الله وإياكم بحقائق التوحيد.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾

﴿زين للناس﴾ أي حسن لهم والمزين هو الله لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] وذلك على جهة الامتحان أو هو الشيطان لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] وذلك على جهة الوسوسة **﴿حب الشهوات﴾** أي: محبة مرادات النفوس والشهوة نزوع النفس إلى ما تريده وهي مصدر أريد به المفعول أي المشتهيات لأن الأعيان التي ذكرها كلها مشتهيات وإنما عبر عنها بالمصدر مبالغة في كونها مشتهاة مرغوباً فيها كأنها نفس الشهوات والوجه أن

يقصد تخسيسها فيسميها شهوات لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. قالوا: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة والبهائم ذات شهوات بلا عقل وجعلهما في الإنسان فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة ومن غلب عليه شهوته فهو أرذل من البهائم ﴿من النساء﴾ حال من الشهوات أي حال كونها من طائفة النساء وإنما بدأ بهن لعراقتهن في معنى الشهوات فإنهن حبائل الشيطان ﴿والبنين﴾ والفتنة بهم أن الرجل يحرص بسببهم على جمع المال من الحلال والحرام ولأنهم يمنعونه عن محافظة حدود الله. قيل: أولادنا فتنة إن عاشوا فتنونا وإن ماتوا أحزنونا وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن ﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير أي الأموال الكثيرة المجتمعة أو هو مائة ألف دينار أو ملىء مسك ثور أو سبعون ألفاً أو أربعون ألف مثقال أو ثمانون ألفاً أو مائة رطل أو ألف ومائتا مثقال أو ألف دينار أو مائة منّ ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم أو دية النفس. وفي الكشاف المقنطرة مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم ألوف مؤلفة وبدر مبدرة ﴿من الذهب والفضة﴾ بيان للقناطير أي من هذين الجنسين وإنما سمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى والفضة لأنها تنفض أي تتفرق ﴿والخيل﴾ عطف على القناطير. والخيل جمع لا واحد له من لفظه واحده فرس وهو مشتق من الخيلاء لاختيالها في مشيها أو من التخيل فإنها لم يتخيل في عين صاحبها أعظم منها لتمكنها من قلبه ﴿المسومة﴾ أي المعلمة وهي التي جعلت فيها العلامة بالسيمة واللون أو بالكي أو المرعية من سامت السائمة أي رعت ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم جمع نعم ﴿والحرث﴾ أي الزرع. قيل: كل منها فتنة للناس. أما النساء والبنون ففتنة للجميع. والذهب والفضة فتنة للتجار. والخيل فتنة للملوك. والأنعام فتنة لأهل البوادي. والحرث فتنة لأهل الرساتيق ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي ما يمتنع به في الحياة الدنيا أياماً قلائل فيفنى سريعاً ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع وهو الجنة. وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وهذا تزهيد في طيبات الدنيا الفانية وترغيب فيما عند الله من النعيم المقيم فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا قدر البلغة ولا يستكثر بالاستكثار الذي يورط صاحبه في المحظور ويورثه المحذور.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد ﴿أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ الهمزة للتقرير أي أخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم ﴿للذين﴾ خبر مبتدأ قوله جنات ﴿اتقوا﴾ والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه كما ينبىء عنه النعوت الآتية ﴿عند ربهم﴾ نصب على الحالية من قوله: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ حال مقدرة ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي زوجات مبرأة من العيوب الظاهرة كالحيض والامتخاط وإتيان الخلاء ومن الباطنة كالحسد والغضب والنظر إلى غير أزواجهن.

- روي - عن النبي عليه السلام «شبر من الجنة خير من الدنيا وما فيها» ﴿ورضوان﴾ أي رضوان وأي رضوان لا يقادر قدره كائن ﴿من الله﴾ قال الحكماء: الجنات بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية والرضوان إشارة إلى الجنة الروحانية وأعلى المقامات الجنة الروحانية وهي عبارة عن تجلي نور جلال الله تعالى في روح العبد واستغراق العبد في معرفة الله ثم يصير في

أول هذه المقامات راضياً عن الله وفي آخرها مرضياً عنده تعالى وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]﴿والله بصير بالعباد﴾ وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

﴿**الذين**﴾ كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بالكرامات السنية فقيل هم الذين﴿**يقولون ربنا إننا آمنا**﴾ أي صدقنا بك وبنبيك وفي ترتيب الدعاء بقوله﴿**فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار**﴾ على مجرد الإيمان دلالة على كفايته في استحقاق المغفرة والوقاية من النار﴿**الصابرين**﴾ نصب على المدح بإضمار أعني والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس﴿**والصادقين**﴾ في أقوالهم ونياتهم وعزائمهم﴿**والقانتين**﴾ أي: المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات﴿**والمنفقين**﴾ أموالهم في سبيل الله﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾ وتوسط الواو بين الصفات المذكورة مؤذن بأن كل صفة مستقلة بالمدح ومؤذن بأن منهم صابر ومنهم صادق. ثم الصبر حبس النفس عن شهواتها المحظورة في الشرع. وجميع أجناس الصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة، والصبر على المعصية، والصبر على المكروه، قال النبي ﷺ: «من صبر على مصيبة فله ثلاثمائة درجة وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض ومن صبر على الطاعة فله ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ومن صبر على المعصية فله تسعمائة درجة بين الدرجتين كما بين العرش والكرسي». والصدق يجري في القول وهو مجانبة الكذب وفي الفعل وهو إتيانه وترك الانصراف عنه قبل تمامه وفي النية وهو العزم عليه حتى يفعل. والإنفاق يتناول الإنفاق على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفي الجهاد وسائر وجوه البر. والاستغفار سؤال المغفرة من الله وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذٍ أشق والنفس أصفى والروح أجمع لا سيما للمجتهدين. قال مجاهد في قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] أخره إلى وقت السحر فإن الدعاء فيه مستجاب وقال: إن الله تعالى لا يشغله صوت عن صوت لكن الدعاء في السحر دعوتي في الخلوة وهي أبعد من الرياء والسمعة فكانت أقرب إلى الإجابة قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حتى يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له» ومعنى ينزل محمول على نزول ملكه أو على الاستعارة فمعناه الإقبال على الداعين باللطف والإجابة ولهذا قال إلى السماء الدنيا أي القربى. وفي هذا الكلام توبيخ لهم على غفلتهم في الدعاء والسؤال منه والاستغفار. قال لقمان لابنه: يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك.

دلا بر خيز وطاعت كن كه طاعت به زهر كارست
سعادت آن كسى دار دكه وقت صبح بيدارست
خروسان در سحر كويندكه قم يا أيها الغافل
تواز مستي نمى داني كسى داندكه هشياراست

قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي إلى السماوات رأيت عجائب من عجائب الله تعالى

فمن ذلك أن في السماء الدنيا ديكاً له زغب أخضر وريش أبيض وبياض ريشه كأشد بياض رأيته وزغبة تحت ريشه كأشد خضرة رأيتها فإذا رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى وإذا رأسه عند عرش الرحمٰن ثاني عنقه تحت العرش له جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب فإذا كان بعض الليل نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول: سبحان الملك القدوس سبحان الكريم» أو قال: «الكبير المتعال لا إله إلا الله الحي القيوم فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها فإذا سكن ذلك الديك سكنت ديكة الأرض كلها ثم إذا كان بعض الليل نشر جناحيه فجاوز بهما المشرق والمغرب وخفق بهما ثم صرخ بالتسبيح لله يقول: سبحان الله العلي العظيم سبحان العزيز القهار سبحان الله رب العرش الرفيع فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض بمثل قوله وخفقت بأجنحتها وأخذت في الصراخ وإذا سكن ذلك الديك سكنت ديكة الأرض ثم إذا هاج بنحو فعله في السماء هاجت الديكة في الأرض يجاوبونه تسبيحاً لله تعالى بنحو قوله» والمقصود من هذا أن التسبيح إذا كان من فعل أهل السماء والأرض خصوصاً الحيوانات العجم بل النباتات كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فإن الإنسان أولى بأن يشتغل بالدعاء والتسبيح خصوصاً في الخلوات وأوقات الأسحار.

قال الإمام القشيري رحمه الله: الصابرين على ما أمر الله والصادقين فيما عاهدوا الله والقانتين بالاستقامة في محبة الله والمنفقين في سبيل الله والمستغفرين من جميع ما فعلوا لرؤية تقصيرهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾

﴿شهد الله أنه﴾ بأنه﴿لا إله إلا هو﴾ نزلت حين جاء رجلان من أحبار الشام فقالا للنبي عليه السلام أنت محمد قال: «نعم» فقالا: أنت أحمد قال: «أنا محمد وأحمد» قالا: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله فأخبرهما أي: أثبت الله بالحجة القطعية وأعلم بمصنوعاته الدالة على توحيده أنه واحد لا شريك له في خلقه الأشياء إذ لا يقدر أحد أن ينشىء شيئاً منها. قال ابن عباس: خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه قبل خلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال:﴿شهد الله﴾ الآية﴿والملائكة﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازي شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أي: أقرت الملائكة بذلك لما عاينت من عظم قدرته﴿وأولو العلم﴾ أي: آمنوا به واحتجوا عليه بالأدلة التكوينية والتشريعية وهم الأنبياء والمؤمنون الذين علموا توحيده وأقروا به اعتقاداً صحيحاً فشبه دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره تعالى وإقرار الملائكة وأولي العلم بذلك بشهادة الشاهد في البيان والكشف﴿قائماً بالقسط﴾ نصب على الحال المؤكدة من هو دون من ذكر معه لأمن اللبس إذ القيام بالقسط من الصفات الخاصة به تعالى ومثله جاء زيد وهند راكباً جاز لأجل التذكير ولو قلت: جاء زيد وعمرو راكباً لم يجز للبس أي: مقيماً بالعدل في قسمة الأرزاق

والآجال والإثابة والمعاقبة وما يأمر به عباده وينهاهم عنه من العدل والتسوية فيما بينهم ودفع الظلم عنهم ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ كرر المشهود به لتأكيد التوحيد ليوحدوه ولا يشركوا به شيئاً لأنه ينتقم ممن لا يوحده بما لا يقدر على مثله منتقم ويحكم ما يريد على جميع خلقه لا معقب لحكمه لغلبته عليهم ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي: لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتشرع بالشريعة الشريفة وهو الدين الحق منذ بعث الله آدم عليه السلام وما سواه من الأديان فكلها باطلة. قال شيخنا العلامة في بعض تحريراته: المقصود من إنزال الكلام مطلق الدعوة إلى الدين الحق والدين الحق من زمن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام الإسلام كما قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وحقيقة دين الإسلام التوحيد وصورته الشرائع التي هي الشروط وهذا الدين من ذلك الزمان إلى يوم القيامة واحد بحسب الحقيقة وسواء بين الكل ومختلف بحسب الصورة والشروط وهذا الاختلاف الصوري لا ينافي الاتحاد الأصلي والوحدة الحقيقة انتهى.

وعن قتادة أن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله. وعن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أحدر إلى البصرة قام من الليل متهجداً فمر بهذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة أن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً قلت: لقد سمع فيها شيئاً فصليت معه وودعته ثم قلت: آية سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة فلبثت على بابه من ذلك اليوم فأقمت سنة فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد ادخلوا عبدي الجنة» ويناسب هذا ما يقال عهدنا لله. عن أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كل صباح ومساء: «اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك وأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع» أي: ختم عليه بخاتم «ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذي لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة» فلا بد من الدعاء في الصبح والمساء لله الذي هو خالق الأرض والسماء ومن الإخلاص الذي هو ملاك الأمر كله في طاعة المرء وعمله:

عبادت بإخلاص نيت نكوست وكرنه چه آيد زبى مغز پوست

﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذي جاء به النبي عليه السلام وأنكروا نبوته ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أي: وما اختلفوا في دين الله الإسلام ونبوة محمد عليه السلام في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذي لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج والآيات الباهرة. وفيه من الدلالة

على ترامي حالهم في الضلالة ما لا مزيد عليه فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل ﴿بغياً بينهم﴾ مفعول له لقوله: اختلف أي: حسداً كائناً بينهم وطلباً للرياسة لا شبهة وخفاء في الأمر وهو تشنيع إثر تشنيع ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله الإسلام ولم يعمل بمقتضاها ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أي: ومن يكفر بآياته تعالى فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب أي: يأتي حسابه عن قريب أو سريع في محاسبة جميع الخلائق لأنه يحاسبهم في أقل من لمحة بحيث يظن كل أحد منهم أنه أي: الله يحاسب نفسه فقط.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فإن حاجوك﴾ أي: في كون الدين عند الله الإسلام ﴿فقل أسلمت وجهي﴾ أي: أخلصت نفسي وقلبي وجملتي ﴿لله﴾ وحده لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبده وأدعوه إلٰهاً معه يعني دين التوحيد وهو القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على المتصل في أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجاري مجرى التأكيد بالمنفصل أي: وأسلم من اتبعني وجوههم أيضاً ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ أي: من اليهود والنصارى ﴿والأميين﴾ الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب ﴿أأسلمتم﴾ متبعين لي كما فعل المؤمنون فإنه قد آتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها أم أنتم بعد على كفركم؟ وهو استفهام بمعنى الأمر أي: أسلموا وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: فهل فهمتها ﴿فإن أسلموا﴾ أي: كما أسلمتم وأخلصتم ﴿فقد اهتدوا﴾ أي: فازوا بالحظ الأوفر ونجوا من مهاوي الضلال ﴿وإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ قائم مقام الجواب أي: لم يضروك شيئاً إذ ما عليك إلا البلاغ أي: التبليغ بالرسالة دون الهداية وقد فعلت على أبلغ وجه.

- روي - أن رسول الله ﷺ (لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا فقال ﷺ لليهود «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله» فقالوا: معاذ الله وقال ﷺ للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً) وذلك قوله عز وجل ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ عالم بجميع أحوالهم وهو وعد ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ أي: آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الإسلام ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا حاولوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين لولا عصمهم الله

وقد أشير إليه بصيغة الاستقبال قال في سورة البقرة: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] أي: بغير الحد الذي حده الله وأذن فيه والنكرة هٰهنا على معنى أن القتل يكون بوجوه من الحق فمعناه يقتلون بغير حق من تلك الحقوق ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط﴾ أي: بالعدل ﴿من الناس﴾ عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر» ثم قرأها ثم قال: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول نهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار» ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي: وجيع دائم جعل لهم بدل البشارة وهو الاخبار السار الاخبار بالنار وهو كقول القائل تحية بينهم ضرب وجيع.

﴿أولئك﴾ المتصفون بتلك الصفات القبيحة ﴿الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ الذين بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر في الدارين بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه في إحدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ما وقع في مقابلته لا لنفي تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] ففي الآية ذم لمن قتل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فبئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالمعروف والناهين عن المنكر وبئس القوم قوم لا يقومون بالقسط بين الناس وبئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فعليك بالعدل والإنصاف وإياك الجور والظلم والاعتساف، فاصدع بأوامر الحق ونواهيه ولا تخف غير الله فيما أنت فيه وإنما عليك البلاغ:

كرچه دانى كه نشنوند بكوى ... هرچه مى دانى از نصيحت وپند
زود باشد كه خيره سر بينى ... بدو پاى او فتاده اندر بند
دست بردست مى زند كه دريغ ... نشنيدم حديث دانشمند

ولا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبداً ولكنه لا ينفع الوعظ والزجر في آخر الزمان حين تشتد القلوب قساوة وتكون الأنفس مولعة بلذات الدنيا.

ـ روي ـ أن يهودياً قال لهارون الرشيد في سيره مع عسكره: اتق الله فلما سمع هارون قول اليهودي نزل عن فرسه وكذا العسكر نزلوا تعظيماً لاسم الله العظيم. ومن أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول في جوابه عليك نفسك أأنت تأمرني بهذا؟ ومن الله العظة والتوفيق إلى سواء الطريق.

﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم أي: ألم تنظر ﴿إلى الذين أوتوا نصيباً﴾ حظاً وافراً ﴿من الكتاب﴾ أي: التوراة والمراد بما أوتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي عليه السلام وحقية الإسلام ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي أوتوا نصيباً منه وهو التوراة كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله فالجملة استئناف ﴿ليحكم﴾ ذلك الكتاب ﴿بينهم﴾ وفي الكتاب بيان الحكم فأضيف إليه الحكم كما في صفة القرآن بشيراً ونذيراً لأن فيه بيان التبشير والإنذار وذلك أن رسول الله ﷺ دخل مدارس اليهود فدعاهم إلى الإيمان فقال له رئيسهم نعيم بن عمرو: على أي دين أنت؟ قال ﷺ: «على ملة إبراهيم» قال:

إن إبراهيم كان يهودياً قال ﷺ: «إن بيننا وبينكم التوراة فهاتوها فأبوا» وقال الكلبي: نزلت الآية في الرجم فجر رجل وامرأة من أهل خيبر وكانا في شرف منهم وكان في كتابهم الرجم فأتوا رسول الله ﷺ رجاء رخصة عنده فحكم عليهم بالرجم فقالوا: جرت علينا ليس عليهما الرجم فقال ﷺ: «بيني وبينكم التوراة» قالوا: قد أنصفتنا قال: «فمن أعلمكم بالتوراة» قالوا: ابن صوريا فأرسلوا إليه فدعا النبي عليه الصلاة والسلام بشيء من التوراة فيه الرجم دله على ذلك ابن سلام فقال له: «اقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها» وقام ابن سلام فرفع أصبعه عنها ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجماً وإن كانت المرأة حبلى تربص حتى تضع ما في بطنها وأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجما فغضب اليهود لذلك ورجعوا كفاراً فأنزل الله هذه الآية.

﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ولم يصف به الكل لأنه قال في هذه السورة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقال تعالى: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ﴿وهم معرضون﴾ إما حال من فريق لتخصصه بالصفة أي: يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أي: وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ذلك﴾ أي: التولي والإعراض ﴿بأنهم﴾ أي: حاصل بسبب أنهم ﴿قالوا لن تمسنا النار﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿إلا أياماً معدودات﴾ أربعين يوماً وهي مدة الأيام التي عبدوا فيها العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا عليهم الخطوب ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو أن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح. قال ابن عباس رضي الله عنهما زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة أن ما بين طرفي جهنم أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وإنما نعذب حتى نأتي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك وأصل الجحيم سقر وفيها شجرة الزقوم فإذا اقتحموا من باب جهنم وتبادروا في العذاب حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم وملؤوا البطون قال لهم خازن سقر زعمتم أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودات قد خلت أربعون سنة وأنتم في الأبد ﴿فكيف﴾ أي: فكيف يصنعون وكيف يكون حالهم وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم وأنهم يقعون فيما لا حيلة في دفعه والمخلص منه وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون ﴿إذا جمعناهم ليوم﴾ أي: لجزاء يوم ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه.

ـ روي ـ أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفرة راية اليهود فيفضحهم الله على رؤوس الاشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أي: جزاء ما كسبت من غير نقص أصلاً كما يزعمون. وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد في النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا يكون في النار ولا قبل دخولها فإذا هي بعد الخلاص منها ﴿وهم﴾ أي: كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿لا يظلمون﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب

بل يصيب كلاً منهم مقدار ما كسبه فالله تعالى ليس من شأنه العظيم أن يظلم عباده ولو مثقال ذرة فيجازي المؤمنين بإيمانهم والكافرين بكفرهم. فعلى العاقل أن لا يقطع رجاءه من الله تعالى وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر فالله تعالى عند حسن ظن العبد به.

ـ روي ـ «أنه إذا كان يوم القيامة وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إذا بصوت حزين ينادي من داخل النار يا حنان يا منان ياذا الجلال والإكرام» فيقول الله تعالى: يا جبريل اخرج هذا العبد الذي في النار قال: فيخرجه أسود كفرخ الحمام قد تناثر لحمه وذاب جسمه فينادي يا جبريل لا توقفني بين يدي الله فأفزع فيؤتى به إلى الله فيقول له عبدي: أتذكر ذنب كذا وكذا في سنة كذا وكذا فيقول: نعم يا رب فيقول الله اذهبوا بعبدي إلى النار فيكون من العبد التفات فيقول الله: ردوا عبدي إلي فيرد إليه فيقول له: عبدي ما كان التفاتك وهو أعلم فيقول: يا رب أذنبت ولم أقطع رجائي منك وحاسبتني ولم أقطع رجائي منك وأدخلتني النار ولم أقطع رجائي منك وأخرجتني منها إليك ولم أقطع رجائي منك ثم رددتني إليها ولم أقطع رجائي منك فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني لأكونن عند ظن عبدي بي ولأحققن رجاءه فيَّ اذهبوا بعبدي إلى الجنة»

خدايا بعزت كه خوارم مكى ... بذل بزه شر مسارم مكن

قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا في قبورهم ولا في منشرهم كأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم وهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» فالواجب على من كان مؤمناً وليس من أهل البدع أن يحمد الله على ما هداه وجعله مسلماً من الأمة الشريفة. ولذا قيل: من علامات سوء العاقبة أن لا يشكر العبد على ما هدى به من الإيمان والتوحيد. وأهل الغرور في الدنيا مخدوع بهم في الآخرة فليس لهم عناية رحمانية وإنما يقبل رجاء العبد إذ قارنه العمل والكاملون بعد أن بالغوا في تزكية النفس ما زالوا يخافون من سوء العاقبة ويرجون رحمة الله فكيف بنا ونحن متورطون في آبار الأوزار لا توبة لنا ولا استغفار غير العناد والإصرار. قال الإمام الهمام محمد الغزالي رحمه الله في منهاج العابدين: مقدمات التوبة ثلاث: إحداها ذكر غاية قبح الذنوب. والثانية ذكر غاية عقوبة الله وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به. والثالثة: ذكر ضعفك وقلة حيلتك فإن من لا يحتمل حر الشمس ولطمة شرطي وقرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار في دار الغضب والبوار نعوذ بالله من سخطه وعذابه.

مرامى ببايد چو طفلان كريست ... زشرم كناهان زطفلانه زيست
نكو كفت لقمان كه نازيستن ... به ازسالها بر خطا زيستن
هم ازبامداد آن در كلبه بست ... به ازسود وسرمايه دادن زدست

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾

﴿قل اللهم﴾ أصله يا الله فالميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل وشددت لقيامها مقام حرفين. وقيل أصله يا الله أَمَّنا بخير أي: اقصدنا

به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿مالك الملك﴾ أي: مالك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث يتصرف فيه كيف ما يشاء له إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية لأنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد اللهم ﴿تؤتي الملك﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذي يستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى وكون مالكية الغير بطريق المجاز كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرد الإعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿من تشاء﴾ إيتاءه إياه ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ نزعه منه فالملك الأول حقيقي عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية ﴿وتعز من تشاء﴾ أن تعزه في الدنيا أو في الآخرة أو في فيهما بالنصر والتوفيق ﴿وتذل من تشاء﴾ أن تذله في إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة ﴿بيدك الخير﴾ وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي: بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه أو لمراعاة الأدب فإن الخطاب بأن الشر منك وبيدك ترك أدب وإن كان الكل من الله تعالى.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعاً وجميع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالفيل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره فجاء عليه السلام وأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال: «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب» ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحمر في أرض الروم» ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على الأمم كلها فأبشروا» فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ من الاعزاز والاذلال.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿تولج﴾ أي: تدخل ﴿الليل في النهار﴾ بنقص الأول وزيادة الثاني حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ﴿وتولج النهار في الليل﴾ حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ أي: تظهر الحيوان من النطفة أو الطير من البيضة أو العالم من الجاهل أو المؤمن من الكافر أو النبات من الأرض اليابسة ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ وهذا عكس الأول ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ قال أبو

العباس المقري: ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧] وبمعنى العدد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وبمعنى المطالبة قال تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] والباء متعلقة بمحذوف وقع حالاً من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذل ويؤتيه العرب ويعزهم أهون من كل هين. عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين من آل عمران شهد الله أنه لا إله إلا هو إلى قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقل اللهم إلى قوله تعالى بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب قلن: يا رب أتهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك؟ قال الله عز وجل: إني حلفت أنه لا يقرأكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته في حظيرة القدس ونظرت إليه بعيني كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم» وفي بعض الكتب [أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسبب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم] وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونون يولى عليكم» معناه إن كنتم من أهل الطاعة يول عليكم أهل الرحمة وإن كنتم من أهل المعصية يول عليكم أهل العقوبة. وجاء في الخبر أن موسى عليه السلام قال في مناجاته [يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض فما علامة سخطك من رضاك؟ فأوحى الله إليه إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضاي وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي عليهم]. قال الحجاج بن يوسف حين قيل له: لم لا تعدل مثل عمر رضي الله عنه وأنت قد أدركت خلافته أفلم تر عدله وصلاحه؟ فقال في جوابهم: تبذروا أَتَعَمَّرَ لكم، أي: كونوا كأبي ذر في الزهد والتقوى أعاملكم معاملة عمر في العدل والإنصاف. وفيه إشارة إلى أن الولاة إنما يكونوا على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحاً وفساداً فعلى كل واحد من المسلمين التضرع لله تعالى والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار عند فشوّ الظلم وشمول الجور ويظهر جور الوالي وعدله في الضرع والزرع والأشجار والأثمار والمكاسب والحرف يعني يقل لبن الضرع وتنزع بركة الزرع وتنقص ثمار الأشجار وتكسد معاملة التجار وأهل الحرف في الأمصار التي ملك فيها ذلك الملك الجائر بشؤم ظلمه وسوء فعله ويكون الأمر على العكس إذا عدل ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير فقال كفى بها موعظة.

پندم اكر بشنوى أي: پادشاه ... درهمه دفتر به ازين پند نيست
جز بخردمند مفرما عمل ... كرچه عمل كار خردمند نيست

قال النبي ﷺ: «سيأتي زمان لأمتي يكون أمراؤهم على الجور، وعلماؤهم على الطمع وعبادهم على الرياء وتجارهم على أكل الربا ونساؤهم على زينة الدنيا».

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية أو جوار ونحوها من أسباب المصادقة والمعاشرة حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم إلا لله تعالى أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية﴿من دون المؤمنين﴾ في موضع الحال أي: متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً. وفيه إشارة إلى أنهم الاحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكافرين أي: استغناء فلا تؤثروهم عليهم في الولاية﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: اتخاذهم أوليا﴿فليس من الله﴾ أي: من ولايته تعالى﴿في شيء﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان، قال:

تــود عـــدوي ثــم تــزعــم أنـــنـــي ... صـديـقـك لـيـس الـنـوك عـنـك بـعـازب

النوك الحمق. والعازب البعيد والمعنى الصديق هو من يودك ويبغض عدوك. والأعداء أيضاً ثلاثة عدوك وعدو صديقك وصديق عدوك.

بـشـوى أي خـرمـنـد ازان دوسـت دسـت ... كـه بـادشـمـنـانـت بـود هـم نـشـسـت

﴿إلا أن تتقوا﴾ استثناء من أعم الأحوال كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء ظاهراً وباطناً في حال من الأحوال إلا حال اتقائكم﴿منهم﴾ أي: من جهتهم﴿تقاة﴾ أي: اتقاء بأن تغلب الكفار أو يكون المؤمن بينهم فإن إظهار الموالاة حينئذٍ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من شق العصا وإظهار ما في الضمير كما قال عيسى عليه السلام: [كن وسطاً وامش جانباً] أي: كن فيما بينهم صورة وتجنب عنهم سيرة [ولا تخالطهم مخالطة الاوداء ولا تتسير بسيرتهم] وهذا رخصة فلو صبر حتى قتل كان أجره تعظيماً ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي: يخوفكم الله ذاته المقدسة كقوله تعالى: ﴿فاتقون﴾ [البقرة: ٤١] ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: من سخطي وعقوبتي فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه وهذا وعيد شديد ﴿وإلى الله المصير﴾ أي: إلى جزاء الله مرجع الخلق فيجزي كلاً بعمله.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ من الضمائر التي من جملتها ولاية الكفرة﴿أو تبدوه﴾ فيما بينكم﴿يعلمه الله﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سركم وعلنكم وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيداً له وتقريراً﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وهذا بيان لقوله تعالى:﴿ويحذركم الله نفسه﴾ لأن نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون المعلوم فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور فهي قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقي فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر على واجب فإن ذلك مطلع عليه لا محالة ولاحق به العذاب ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله مما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره وتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به فما بال من علم أن الله الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه

وهو آمن اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك كذا في «الكشاف». فالعاقل يخاف من الله ويكون حبه وبغضه لله يوالي المؤمنين ويعادي الكافرين قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الكبائر لبس الصوف لطلب الدنيا وادعاء محبة الصالحين وترك فعلهم وذم الأغنياء والأخذ منهم ورجل لا يرى الكسب ويأكل من كسب الناس».

كر آنهاكه ميكفتمى كردمى   نكو سيرت پارسا بودمى

والحب في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان وخلق سني والمحبة الصادقة لا تكون إلا عند المصافاة في الباطن وهي مبنية على اتفاق العقيدة والوجهة لأن القلوب تتناسب فتتصافى فإن لم يكن بينها التوافق المعنوي واتفق بين أربابها المصالحة والمؤانسة بحسب المماثلة النوعية والإلفة النفسية والجنسية الصورية أعدت الرذائل صاحب الفضائل باستغراق النفس فتشابه وتخالق كما قيل:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال علي رضي الله عنه:

[فلا تصحب أخا الجهل   وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى   حليماً حين أخاه
يقاس المرء بالمرء   إذا ما هو ماشاه
وللقلب على القلب   دليل حين يلقاه]

وإذا كان الرجل مبتلى بصحبة الفجار في سفره للحج أو للغزاء لا يترك الطاعة بصحبتهم ولكن يكره بقلبه ولا يرضى به فلعل الفاسق يتوب ببركة كراهة قلبه.

ـ حكي ـ أن حاتماً وشقيقاً خرجا في سفر فصحبهما شيخ فاسق وكان يضرب بالمعزف في الطريق ويطرب ويغني وكان حاتم ينتظر أن ينهاه شقيق فلم يفعل ذلك فلما كان في آخر الطريق وأرادوا أن يتفرقوا قال لهما ذلك الشيخ الفاسق: لم أر أثقل منكما قد طربت بين أيديكما كل الطرب فلم تنظرا إلى طربي فقال له حاتم: يا شيخ اعذرنا فإن هذا شقيق وأنا حاتم فتاب الرجل وكسر ذلك المعزف وجعل يتلمذ عندهما ويخدمهما فقال شقيق لحاتم: كيف رأيت صبر الرجال؟

نه آنكه بر در دعوى نشيند از خلقى   كه كر خلاف كنندش بجنك برخيزد
وكر زكوه فرو غلطد آسيا سنكى   نه عارفست كه از راه سنك برخيزد

وينبغي أن يعلم أن المؤمن كما يلزم له أن يقطع الموالاة عن الكفار كذلك يقطع ذلك عن الأقرباء الفجار كما قيل:

چون نبود خويش را ديانت وتقوى   قطع رحم بهتر از مودت قربى

فإن قلت: هذا مخالف للقرآن فإنه ناطق بصلة الأرحام مطلقاً، قلت: هو موافق كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥] فمن تسبب لشقاوتك يجب تقاطعك عنه وإن كان ذا قرابتك:

هزار خويش كه بيكانه از خدا باشد   فداي يك تن بيكانه كاشنا باشد

فعليك بقطع التعلق من الأغيار وبالاقتداء بهدي الأنبياء الأخيار قال خليل الله عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧] ومن موالاة الكفار المواكلة معهم

بغير عذر اقتضاها. ومن القول الشنيع أن يقال لهم جلبي كما يقول لهم سفهاء زماننا فإن معنى جلبي منسوب إلى جلب وجلب اسم الله تعالى وهم ناري دون نوري فكيف يصح نسبتهم إلى الله والعياذ بالله.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يوم﴾ منصوب بتود **﴿تجد كل نفس﴾** أي: من النفوس المكلفة **﴿ما عملت من خير محضراً﴾** عندها بأمر الله تعالى **﴿وما عملت من سوء﴾** عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه أيضاً إلا أنه خص بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مراداً بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية **﴿تود﴾** أي: تحب وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة **﴿لو أن بينها وبينه﴾** أي: بين النفس وبين ذلك اليوم وهوله أو بين العمل السوء **﴿أمداً بعيداً﴾** أي: مسافة واسعة كما بين المشرق والمغرب ولم تحضر ذلك اليوم أو لم تعمل ذلك السوء قط **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** أي: يقول الله إياكم ونفسي يعني احذروا من سخطي وهو تكرير لما سبق ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه **﴿والله رؤوف بالعباد﴾** يعني أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه فيحذرهم تحذير الوالد المشفق على ولده عما يوبقه.

قال القشيري رحمه الله: هذا للمستأنفين وقوله: **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** للعارفين أولئك أصحاب التخفيف والتسهيل وهؤلاء أصحاب التخويف والتهويل ونظيره بشر المذنبين وأنذر الصديقين فالله تعالى يمهل ولا يهمل فيجب أن لا يغتر العبد بإمهاله بل يتأهب ليوم حسابه وجزائه:

در خير بازاست وطاعت وليك ... نه هركس تواناست بر فعل نيك

واعلم أن ما يعمله الإنسان أو يقوله ينتقش في صحائف النفوس السماوية وإذا تكرر صار ملكة راسخة لكنه مشغول عن تلك الهيآت الثابتة في نفسه ونقوشها بالشواغل الحسية والوهمية والفكرية فإذا فارقت النفس الجسد وقامت قيامتها وجدت ما عملت من خير وشر محضراً لارتفاع الشواغل المانعة كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] فإن كان شراً تتمنى البعد فيما بينها وما بين ذلك اليوم أو ذلك العمل لتعذبها به فتصير تلك الهيآت صورتها إن كانت راسخة والصورة تعذبها وتعذبت بحسبها ومن الله العصمة، قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره:

هر خيالي كو كند در دل وطن ... روز محشر صورتي خواهد شدن

سيرتي كان در وجودت غالب است ... هم بر آن تصوير حشرت واجب است

فعلى العاقل أن يزكي نفسه عن الأخلاق الذميمة ويطهر قلبه عن لوث العلائق الدنيوية ويجتهد في تحصيل مرضاة الله بالأعمال الصالحة والأقوال الحقة كي يجدها عند ربه يوم احتياجه ويفوز بالسعادة قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط وأنصب ما كانوا قط فمن أطعم لله أطعمه ومن سقى لله سقاه

ومن كسا لله كساه ومن عمل لله كفاه» وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام باعد بيني وبين خطيئتي كما باعدت بين المشرق والمغرب ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس واغسلني بماء الثلج والبرد سبحان الله وبحمده أستغفر الله العظيم وأتوب إليه» ونظر رسول الله ﷺ يوماً إلى أصحابه حوله فقال: «أيها الناس لا تعجبوا بأنفسكم وبكثرة أعمالكم وبقلة ذنوبكم ولا تعجبوا بامرىء حتى تعلموا بم يختم له» قال عليه السلام: «فإنما الأعمال بخواتيمها ولو أن أحدكم جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لتمنى الزيادة لهول ما يقدم عليه يوم القيامة».

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني**﴾أثبت فيه الياء لأنه أصل ولم يثبت في فاتقون وأطيعون لأنه ختم آية ينوي بها الوقف ﴿**يحببكم الله**﴾نزلت حين دعا رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف ومن تابعه إلى الإيمان فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فقال تعالى لنبيه عليه السلام: قل لهم: إني رسول الله أدعوكم إليه فإن كنتم تحبونه فاتبعوني على دينه وامتثلوا أمري يحببكم الله ويرض عنكم والمحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في طاعته والحرص على مطاوعته ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم**﴾أي: يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جنات عزه ويبوئكم في جوار قدسه. عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿**والله غفور رحيم**﴾أي: لمن كان يتحبب للنصارى ويتبع عيسى ابن مريم فنزل قوله تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله والرسول**﴾أي: في جميع الأوامر والنواهي فيدخل في ذلك الطاعة في اتباعه ﷺ دخولاً أولياً ﴿**فإن تولوا**﴾إما من تمام مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التاءين أي: تتولوا وتعرضوا، وإما كلام متفرع مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب وفي ترك ذكر احتمال الإطاعة كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠] تلويح إلى أنه غير محتمل عنهم ﴿**فإن الله لا يحب الكافرين**﴾نفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أي: لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم. ودلت الآية على شرف النبي عليه السلام فإنه جعل متابعته متابعة حبيبه وقارن طاعته بطاعته فمن ادعى محبة الله وخالف سنة نبيه فهو كذاب بنص كتاب الله تعالى كما قيل:

تعصي الاله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وإنما كان من ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله كاذباً في دعواه لأن من أحب آخر يحب خواصه والمتصلين به من عبيده وغلمانه وبيته وبنيانه ومحله ومكانه وجداره وكلبه وحماره وغير ذلك فهذا هو قانون العشق وقاعدة المحبة وإلى هذا المعنى أشار المجنون العامري حيث قال:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

قال الإمام القشيري رحمه الله: قطع الله أطماع الكل أن يسلم لأحدهم نفسه إلا ومقتداهم سيد الأولين والآخرين.

وقال القاشاني: محبة النبي عليه السلام إنما تكون بمتابعته وسلوك سبيله قولاً وعملاً وخلقاً وحالاً وسيرة وعقيدة ولا تتمشى دعوى المحبة إلا بهذا فإنه قطب المحبة ومظهرها وطريقته ﷺ المحبة فمن لم يكن له من طريقته نصيب لم يكن له من المحبة نصيب وإذا تابعه حق المتابعة ناسب باطنه وسره وقلبه ونفسه باطن النبي وسره وقلبه ونفسه وهو مظهر المحبة فلزم بهذه المناسبة أن يكون لهذا التابع قسط من محبة الله بقدر نصيبه من المتابعة فيلقي الله محبته عليه ويسري من روح النبي نور تلك المحبة أيضاً إلى قلبه أسرع ما يكون إذ لولا محبة الله لم يكن محباً له ثم نزل عن هذا المقام لأنه أعز من الكبريت الأحمر ودعاهم إلى ما هو أعم من مقام المحبة وهو مقام الإرادة فقال: ﴿**قل أطيعوا الله والرسول**﴾ أي: إن لم تكونوا محبين ولم تستطيعوا متابعة حبيبي فلا أقل من أن تكونوا مريدين مطيعين لما أمرتم به فإن المريد يلزمه طاعة المراد وامتثال أمره ﴿**فإن تولوا**﴾ أي: إن أعرضوا عن ذلك أيضاً فهم كفار محجوبون انتهى.

وروى البخاري عن عبد الله بن هشام أنه كان مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال عمر: يا رسول الله أنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فإنه الآن والله أنت أحب إلي من نفسي فقال عليه السلام: «الآن يا عمر صار إيمانك كاملاً» وقال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا ومن يأبى قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» وعن جابر بن عبد الله أنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً فقالوا كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها له يفقهها فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس فبمتابعة النبي ﷺ تحصل الجنة والقربة والوصلة.

ـ روي ـ أن محموداً الغازي دخل على الشيخ الرباني أبي الحسن الخرقاني قدس سره لزيارته وجلس ساعة ثم قال: يا شيخ ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي قدس سره؟ فقال الشيخ: هو رجل من اتبعه اهتدى واتصل بسعادة لا تخفى فقال محمود وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله عليه السلام ولم يخلص من الشقاوة؟ فقال الشيخ في جوابه: إن أبا جهل ما رأى رسول الله إنما رأى محمد بن عبد الله حتى لو كان رأى رسول الله عليه السلام لخرج من الشقاوة ودخل في السعادة ثم قال ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فالنظر بعين الرأس لا يوجب هذه السعادة بل النظر بعين السر والقلب والمتابعة التامة تورث ذلك. وأمته ﷺ من اتبعه ولا يتبعه إلا من أعرض عن الدنيا فإنه عليه السلام ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما

أعرضت عنها وأقبلت على الله وصرفت الأوقات لأعمال الآخرة فقد سلكت سبيله الذي يسلكه وبقدر ما اتبعته صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله وأعرضت عن متابعته ولحقت بالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ [النازعات: ٣٨. ٣٩] ولو خرجت عن مكمن الغرور وأنصفت من نفسك يا رجل ـ وكلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تمسي إلى حين تصبح لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك إلا برجل الدنيا الفانية ثم تطمع في أن تكون غداً من أمته وأتباعه ويحك ما أبعد ظننا؟ وما أفحش طمعنا؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥. ٣٦].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿**إن الله اصطفى آدم**﴾ الاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء أي: اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى كما في كافة الرسل عليهم السلام أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما في مريم أو اصطفاه بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إياه وإسكانه الجنة ﴿**و**﴾ اصطفى ﴿**نوحاً**﴾ بما ذكر من الوجه الأول أو اصطفاه بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراماً وبإطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء ﴿**و**﴾ اصطفى ﴿**آل إبراهيم**﴾ وهو إسماعيل وإسحٰق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي ﷺ ويفهم من اصطفائهم اصطفاء إبراهيم بطريق الأولوية ﴿**و**﴾ اصطفى ﴿**آل عمران**﴾ وهو عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماتان بن العادر بن أبي هود بن رب بابل بن ساليان بن يوحنا بن اوشا بن أوموذر بن ميشك بن خارقا بن يونام بن غرزيا بن يوزان بن ساقط بن ايشا بن راجقيم بن سليمان بن داود عليهما السلام بن ايشا بن عويل بن سلمون بن ياعر بن ممشون بن عمياد بن دام بن حضروم بن فارض بن يهودا بن يعقوب عليه السلام. وقيل آل عمران هو موسى وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه السلام بالاندراج في آل إبراهيم والأول هو الأظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهارون عليهما السلام بالانتظام في سلك آل إبراهيم انتظاماً ظاهراً ﴿**على العالمين**﴾ جمع عالم وهو اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن خلافه من الأنواع كالملك والجن والإنس يقال عالم البر وعالم البحر وعالم الأرض وعالم السماء والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أي: اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه ﴿**ذرية**﴾ نصب على البدلية من الآلين. والذر بفتح الذال: البث والتفريق، وسمي نسل الثقلين ذرية لأن الله تعالى قد بثهم في الأرض أو لأن الله أخرج نسل آدم عليه السلام من صلبه كهيئة الذر وهو جمع ذرة وهي أصغر النمل والذرء أيضاً: الخلق والله تعالى خلقهم وأظهرهم من العدم إلى الوجود ﴿**بعضها من بعض**﴾ في محل النصب على أنه صفته لذرية يعني أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض فإن آل إبراهيم أعني إسماعيل وإسحٰق متشعبان من إبراهيم المتشعب من نوح المتشعب من آدم وأولادهما إلى آخر أنبياء بني إسرائيل وإلى خاتم الأنبياء

والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين متشعبون منهما وآل عمران وهو موسى وهارون من ذرية إبراهيم ونوح وآدم وكذا عيسى وأمه مريم عليهما السلام ﴿والله سميع﴾ لأقوال العباد ﴿عليم﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفي من بينهم لخدمته من يظهر استقامته قولاً وفعلاً على نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. ودلت الآية على صحة أنكحة الكفار حيث ثبت نسب بعضهم من بعض بها قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح».

واعلم أن الاصطفاء أعم من المحبة والخلة فيشمل الأنبياء كلهم لأنهم خيرة الله وصفوته وتتفاضل فيه مراتبهم كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأخص المراتب هو المحبة المشار إليها بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فلذلك كان أفضلهم حبيب الله محمداً عليه السلام ثم الخلة التي هي صفة إبراهيم عليه السلام وأعمها الصفاء الذي هو صفة آدم صفي الله عليه السلام ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ في الدين والحقيقة إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية فكل نبي يتبع نبياً آخر في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين فهو ولده كأولاد المشايخ في زماننا هذا وكما قيل الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب رباك، وأب علمك، وكما أن وجود البدن في الولادة الصورية يتولد في رحم أمه من نطفة أبيه فكذلك وجود القلب في الولادة الحقيقية يظهر في رحم استعداد النفس من نفخة الشيخ والمعلم وإلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السلام بقوله: [لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين].

ثم اعلم أن الولادة المعنوية أكثرها تتبع الصورية في التناسل ولذلك كان الأنبياء في الظاهر أيضاً نسلاً واحداً ثمرة شجرة واحدة وسببه أن الروح في الصفاء والكدورة يناسب المزاج في القرب من الاعتدال الحقيقي وعدمه وقت التكون فلكل روح مزاج يناسبه ويخصه إذ الفيض يصل بحسب المناسبة وتتفاوت الأرواح في الأزل بحسب صفوتها ومراتبها في القرب والبعد عن الحضرة الأحدية فتتفاوت الأمزجة بحسبها في الأبد لتتصل بها والأبدان المتناسلة بعضها من بعض متشابهة في الأمزجة على الأكثر اللهم إلا لأمور عارضة اتفاقية فكذلك الأرواح المتصلة بها متقاربة في الرتبة متناسبة في الصفة وهذا مما يقوي أن المهدي يكون من نسل محمد عليه السلام. والأغذية مؤثرة في البدن. فمن كان غذاؤه حلالاً طيباً وهيآت نفسه فاضلة نورانية ونياته صادقة حقانية جاء ولده مؤمناً صديقاً أو ولياً أو نبياً. ومن كان غذاؤه حراماً وهيآت نفسه خبيثة ظلمانية ونياته فاسدة رديئة جاء ولده فاسقاً أو كافراً أو زنديقاً إذ النطفة التي يكون الولد منها متولدة من ذلك الغذاء مرباة في تلك النفس فيناسبها ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الولد سر أبيه» وكان صدق مريم ونبوة عيسى ببركة صدق نيتها.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿إذ﴾ منصوب باذكر ﴿قالت امرأة عمران﴾ وهي امرأة عمران بن ماثان أم مريم البتول جدة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذا. فإن قلت: كان لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهارون ولعمران بن ماثان مريم البتول فما أدراك أن عمران هذا هو أبو

مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهارون. قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول لأن زكريا بن أذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد وقد تزوج زكريا بنته ايشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة.

ـ روي ـ أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل وذلك قوله تعالى: ﴿رب إني نذرت لك﴾ والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه ﴿ما في بطني﴾ عبر عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء ﴿محررا﴾ أي: معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء أو خالصاً لله ولعبادته لا يعمل عمل الدنيا ولا يتزوج فيتفرغ لعمل الآخرة وكان هذا النذر مشروعاً عندهم لأن الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد ولم يكن أحد من الأنبياء إلا ومن نسله محرر لبيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ولا تصح له الجارية لما يصيبها من الحيض والأذى فتحتاج إلى الخروج ولكن حررت حنة ما في بطنها مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على تقدير الذكورة أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر ﴿فتقبل مني﴾ أي: ما نذرته والتقبل. أخذ الشيء على وجه الرضى وهذا في الحقيقة استدعاء للولد إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الأنثى ﴿إنك أنت السميع﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي ﴿العليم﴾ بكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير ﴿فلما وضعتها﴾ أي: ولدت النسمة وهي أنثى ﴿قالت﴾ حنة وكانت ترجو أن تكون غلاماً ﴿رب إني﴾ التأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿وضعتها أنثى﴾ تحسراً على ما رأته من خيبة رجائها وعكس تقديرها والضمير المتصل عائد إلى النسمة وأنثى حال منه ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها فإنها لما تحسرت وتحزنت على أن ولدت أنثى قال الله تعالى إنها لا تعلم قدر هذا الموهوب والله هو العالم بالشيء الذي وضعته وما علق به من العجائب وعظائم الأمور فإنه تعالى سيجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم به فلذلك تحسرت وتحزنت ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ مقول لله أيضاً مبين لتعظيم موضوعها ورفع منزلته. واللام فيهما للعهد أي: ليس الذكر الذي كانت تطلبه وتتخيل فيه كمالاً قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأنثى التي وهبت لها فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور فهي أفضل من مطلوبها وهي لا تعلم وهاتان الجملتان من مقول الله تعالى اعتراضان بين قول أم مريم ﴿إني وضعتها أنثى﴾ وقولها: ﴿وإني سميتها مريم﴾ وفائدتهما التسلية لنفس حنة والتعظيم لوضعها ﴿وإني سميتها مريم﴾ من مقول حنة عطف على قولها ﴿إني وضعتها﴾ أي: إني جعلت اسمها مريم وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة وخادم الرب وإظهار أنها غير راجعة في نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وإنها لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه وظاهر هذا الكلام يدل على أن عمران كان قد مات قبل وضع حنة مريم وإلا لما تولت الأم تسمية المولود لأن العادة أن التسمية يتولاها الآباء

﴿وإني أعيذها بك﴾أي: أجيرها بحفظك ﴿وذريتها﴾عطف على الضمير المنصوب أي: أولادها ﴿من الشيطان الرجيم﴾أي: المطرود. وأصل الرجم الرمي بالحجارة وعن النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إلا مريم وابنها» ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فتقبلها﴾أي: أخذ مريم ورضي بها في النذر مكان الذكر ﴿ربها﴾مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿بقبول حسن﴾بوجه حسن يقبل به النذائر وهو قبول تلك الأنثى مع أنوثتها وصغرها فإن المعتاد في تلك الشريعة أن لا يجوز التحرير إلا في حق غلام عاقل قادر على خدمة المسجد وهنا لما علم الله تعالى تضرع حنة قبل بنتها حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها مما يصلح في جميع أحوالها ثم إن الله تعالى ذكر قبولها منها وذلك لضعفها وصدق نيتها في الابتداء وحيائها في الانتهاء وكان في ذلك الزمان أربعة آلاف محرر لم يشتهر خبر أحد منهم اشتهار خبرها. وفيه تنبيه للعبد على أن يرى من نفسه التقصير بعد جهدها ليقبل الله عملها لإظهار إفلاسها وإضمار إخلاصها رزقنا الله وإياكم:

طريقت همينست كاهل يقين   نكو كار بودند وتقصير بين

واعلم أنه سبحانه قطع السائرين له وهم المريدون والواصلين إليه وهم المرادون عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم. أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها فانقطعوا إليه برؤية تقصيرهم. وأما الواصلون فلأنه غيبهم شهوده عنها لأنه الفعال وهم آلة مسخرة.

ولما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب الشيخ أبي عثمان المغربي بم يأمركم شيخكم؟ قالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا آمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها. قال القشيري وإنما أراد الواسطي صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجاً في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. قال النهرجوري من علامة من تولاه الله في أعماله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مجاهدته وقلة المراعاة في فقره فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقراً إلى الله في فقره وسيره حتى يفني عن كل ما دونه. قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في إشارة قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] يولج المعصية في الطاعة ويولج الطاعة في المعصية يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها فهذه حسنة أحاطت بها سيئات ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويستصغر نفسه ويستعظم من لم يفعله فهذه سيئة أحاطت بها حسنات فأيتهما الطاعة وأيتهما المعصية فعلى السالك أن يجتهد في الطاعات ولا يغتر بالعبادات لعله يصل إلى غاية الغايات في روضات الجنات:

چه زرها بخاك سيه دركنند   كه باشد كه روزى مسى زركنند

يعني أن المشتغلين بتحصيل صنعة الكيمياء يجعلون دنانير كثيرة تحت التراب أي: يبذلونها لتحصيلها ويفرقونها في أسبابها كي يصير النحاس في أيديهم ذهباً بحتاً ويتشرفوا بوصولها:

زر ازبهر چيزى خريدن نكوست چه خواهي خريدن به ازوصل دوست

فالسعي في الأعمال إنما هو لطلب رضى الله ووصول جنابه وهو الذي يبذل في طريقه المال والروح لينفتح باب الفتوح. قال الشيخ الشاذلي قدس سره في «لطائف المنن»: واعلموا أن الله أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فأي من فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الموافقات جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك ولا تهملوا شيئاً عن الطاعات ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات ولا ترضوا لأنفسكم بما رضي به المدعون بحر الحقائق على ألسنتهم وخلوا أنوارها من قلوبهم انتهى، فينبغي للعبد أن يواظب على أصناف الطاعات وينساها بعدما عملها كيلا يبطلها العجب لأنه يقال حفظ الطاعة أشد من فعلها لأن مثلها كمثل الزجاج يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر وكذا الخيرات إذا أزيلت بالمخالفات **﴿وكفلها زكريا﴾** الفعل لله تعالى بمعنى وضمنها الله إلى زكريا وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها قائماً بتدابير أمورها والكافل هو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه وفي الحديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدون من أولاد سليمان عليه السلام ابن داود عليه السلام.

ـ روي ـ أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة أي: خذوها فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها عندي خالتها فقالوا لا حتى نقرع عليها فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر قيل هو نهر الأردن فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح فألقوا ثلاث مرات ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها. قال الشيخ في تفسيره وهو معنى قوله **﴿فتقبلها ربها﴾** الآية **﴿كلما﴾** أي: كل وقت **﴿دخل عليها﴾** أي: على مريم **﴿زكريا﴾** فاعل دخل **﴿المحراب﴾** أي: في المحراب قيل: بنى لها محراباً في المسجد أي: غرفة تصعد إليها بسلم أو المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس أو كانت مساجدهم تسمى المحاريب.

ـ روي ـ أنها لا يدخل عليها إلا هو وحده فإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب فكلما دخل **﴿وجد عندها رزقاً﴾** أي: نوعاً منه غير معتاد إذ كان ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء وفي الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثدياً قط **﴿قال﴾** كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه السلام عند مشاهدة هذه الآية؟ فقيل قال: **﴿يا مريم أنى لك هذا﴾** أي: من أين يجيء لك هذا الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك **﴿قالت﴾** مريم وهي صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب قيل تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد **﴿هو من عند الله﴾** فلا تعجب ولا تستبعد **﴿إن الله يرزق من يشاء﴾** أن يرزقه **﴿بغير حساب﴾** أي: بغير تقدير لكثرته أو بلا محاسبة أو من حيث لا يحتسب وهو تعليل لكونه من عند الله إما من تمام كلامها فيكون في محل النصب

وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف. وفي الآية دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا إرهاصاً وتأسيساً لرسالته عليه السلام. عن النبي ﷺ أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها فرجع بها إليها وقال: «هلمي يا بنية» فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنى لك هذا» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل» ثم جمع رسول الله ﷺ علياً والحسنين ـ رضي الله عنهم ـ وجمع أهل بيته عليه فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة رضي الله عنها على جيرانها. وقد ظهر على السلف رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين ثم على من بعدهم من الكرامات. قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك. قال الشيخ أبو العباس رحمه الله: ليس الشأن من تطوي له الأرض فإذا هو بمكة وغيرها من البلدان إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه. وقيل لأبي يزيد: إن فلاناً يمشي على الماء قال الحوت أعجب منه إذ هو شأنه، فقيل له: إن فلاناً يمشي في الهواء قال: الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله، قيل له: كان فلان يمشي إلى مكة ويرجع من يومه قال إبليس: أعجب من ذلك إذ هو حاله تطوى له الأرض كلها في لحظة وهو في لعنة الله فالطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك لأن الأرض تطوي لك فإذا أنت حيث شئت من البلاد لأن هذا ربما جر إلى الاغترار وذلك يؤدي للتعلق بالواحد القهار.

ـ وحكي ـ عن أبي عنوان الواسطي قال: انكسرت السفينة وبقيت أنا وامرأتي أياماً على لوح وقد ولدت في تلك الحالة صبية فصاحت بي فقالت: يقتلني العطش فرفعت رأسي فإذا رجل في الهواء جالس وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر وقال: هاك اشربا قال: فأخذت الكوز وشربنا منه فإذا هو أطيب من المسك وأحلى من العسل فقلت: من أنت يرحمك الله قال: أنا عبد لمولاك فقلت: بم وصلت إلى هذا فقال: تركت هواي لمرضاته فأجلسني في الهواء ثم غاب عني فلم أره. وحج سفيان الثوري مع شيبان الراعي ـ رضي الله عنهما ـ فعرض لهما سبع فقال سفيان لشيبان أما ترى هذا السبع؟ فقال: لا تخف وأخذ شيبان أذنيه فعركهما فتبصبص وحرك ذنبه فقال سفيان: ما هذه الشهرة؟ فقال: لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادي إلا على ظهره حتى آتى مكة:

توهم كردن از حكم داور مپيچ — كه كردن نه پيچدز حكم توهيچ
محالست چون دوست داردترا — كه دردست دشمن كذا رد ترا

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا
وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ
كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ
إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿هنالك﴾ أي: حيث كان قاعداً عند مريم في المحراب ولما رأى زكريا عليه السلام

حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك ﴿دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك﴾ أي: أعطني من محض قدرتك من غير وسط معتاد ﴿ذرية طيبة﴾ أي: ولداً صالحاً مباركاً تقياً رضياً مرضياً. والذرية: النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد هٰهنا ولد واحد. والطيب هو الذي تستطاب أفعاله وأخلاقه فلا يكون فيه أمر يستخبث ويعاب ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي: مجيبه كما في قولهم سمع الله لمن حمده وهذا لأن من لم يجب فكأنه لم يسمع، فإن قيل: إن زكريا كان عالماً أن في قدرة الله ذلك قبل رؤية حال مريم فهلا سأل قبل ذلك، قلنا: يزداد الإنسان رغبة في الشيء إذا عاينه وإن كان عالماً به قبله.

﴿فنادته الملائكة﴾ أي: جبرائيل وحكم الواحد من الجنس قد ينسب إلى الجنس نفسه نحو فلان يركب الخيل وإنما يركب واحداً من أفرادها ولما كان جبرائيل رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له ﴿وهو﴾ حال من مفعول النداء أي: والحال أن زكريا عليه السلام ﴿قائم يصلي في المحراب﴾ أي: في المسجد أو في غرفة مريم ﴿أن الله﴾ مفعول ثان لنادته أي: بأن الله تعالى ﴿يبشرك بيحيى﴾ أي: بولد اسمه يحيى لأنه حيي به رحم أمه ولأنه تحيي به المجالس من وعظه والتقدير بولادة ولد اسمه يحيى فإن التبشير لا يتعلق بالأعيان ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وإنما سمي كلمة لأنه وجد بكلمة كن من غير أب فشابه البديعيات التي هي عالم الأمر وهو أول من آمن بعيسى وصدق بأنه كلمة الله وروح منه ويسمى روحاً أيضاً لأنه تعالى أحيى به من الضلالة كما يحيي الإنسان بالروح. قال السدي: لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت: يا مريم أشعرت بحبلي؟ فقالت مريم: وأنا أيضاً حبلى قالت: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى: ﴿مصدقاً﴾ الخ وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى إلى السماء ﴿وسيداً﴾ عطف على مصدقاً أي: رئيساً يسود قومه ويفوقهم في الشرف وكان فائقاً للناس قاطبة فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيا لها ما أسناها ﴿وحصوراً﴾ أي: مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة.

ـ روي ـ أنه مر في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت. والحصور الممتنع من النساء مع القدرة عليهما وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره ﴿ونبيًا﴾ أي: يوحى إليه إذا بلغ هو مبلغه ﴿من الصالحين﴾ أي: ناشئاً منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم السلام. والصلاح صفة تنتظم الخير كله والمراد به هنا ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه.

﴿قال﴾ عند نداء الملائكة إياه وبشارتهم له بالولد بالاستفهام متعجباً من حيث العادة ومسروراً بالولد ﴿رب أنى يكون لي﴾ أي: كيف يحصل لي ﴿غلام﴾ وفيه دلالة على أنه خبر بكونه غلاماً عند التبشير ﴿وقد بلغني الكبر﴾ أي: أدركني كبر السن وأثر فيّ، وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه قيل: كان له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وامرأتي عاقر﴾ أي: ذات عقر وعقيم لا تلد ﴿قال﴾ أي: الله ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر يفعل في قوله تعالى: ﴿الله يفعل ما يشاء﴾ أي: ما يشاء

أن يفعله من تعاجيب الأفاعيل الخارقة للعادات. فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف في محل النصب على أنها في الأصل نعت لمصدر محذوف أي: الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلاً مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذي هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر.

﴿**قال رب اجعل لي آية**﴾ أي: علامة تدل أي تحقق المسؤول أو وقوع الحبل وإنما سألها لأن العلوق أمر خفي لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة منه حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهره ظهوراً معتاداً ﴿**قال آيتك**﴾ أي: علامة حدوث الولد ﴿**أن لا تكلم الناس**﴾ أي: أن لا تقدر على تكليمهم ﴿**ثلاثة أيام**﴾ أي: متوالية مع لياليها فإن ذكر الليالي أو الأيام يقتضي دخول الأخرى فيها لغة وعرفاً وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله وشكره قضاء لحق النعمة ﴿**إلا رمزاً**﴾ أي: إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وسمي الرمز كلاماً لأنه يؤدي ما يؤدي الكلام ويفهم منه ما يفهم من الكلام فلهذا جاز الاستثناء المتصل منه ثم أمره تعالى بذكره لعدم منعه عن ذكر الله فقال: ﴿**واذكر ربك**﴾ أي: في أيام الحبسة شكراً لحصول التفضل والإنعام ﴿**كثيرا**﴾ أي: ذكراً كثيراً ﴿**وسبح بالعشي**﴾ أي: سبحه تعالى أي: من الزوال إلى الغروب ﴿**والإبكار**﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. قال الإمام في قوله تعالى: ﴿**واذكر ربك كثيرا**﴾ فيه قولان: أحدهما أنه تعالى أمر بحبس لسانه عن أمور الدنيا إلا رمزاً فأما في الذكر والتسبيح فقد كان لسانه جيداً وكان ذلك من المعجزات الباهرة، والقول الثاني إن المراد منه الذكر بالقلب وذلك لأن المستغرقين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في أول الأمر أن يواظبوا على الذكر اللساني مدة فإذا امتلأ القلب من نور ذكر الله سكتوا باللسان وبقي الذكر بالقلب ولذلك قالوا: من عرف الله كل لسانه فكان زكريا عليه السلام أمر بالسكوت باللسان والاستحضار معاً في الذكر والمعرفة واستدامتهما انتهى.

واعلم أن الذكر على مراتب والذكر اللساني بالنسبة إلى الذكر القلبي تنزل.

ـ روي ـ أن عيسى عليه السلام حين ترقى إلى أعلى مراتب الذكر جاءه إبليس فقال: يا عيسى اذكر الله فتعجب عيسى من أمره بالذكر مع أن جبلته على المنع منه ثم ظهر أنه أراد أن يغويه وينزله من مرتبة الذكر القلبي إلى مرتبة الذكر اللساني وذلك كان تنزلاً بالنسبة إلى مقامه عليه السلام، فعلى العاقل أن يداوم على الأذكار آناء الليل وأطراف النهار فإن الذكر يدفع هوى النفس فإذا طرد ذلك من الباطن فلا سبيل للشيطان أيضاً في الظاهر فتعلق أبواب المنهيات بالكليات ويتصفى القلب ويتكدر:

پيا پي بيفشان از آيينه كرد كه صيقل نكيرد چو ژنكار خورد

قال القشيري: فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير للذكر فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه. قال سهل بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي عبدي ما أنصفتني أذكرك وتنساني وأدعوك إليّ وتذهب إلى غيري واذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني. وقال الحسين: افتقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء في الصلاة والذكر والقراءة فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق. قيل: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرخ كما يصرخ الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون ما لهذا فيقول قد مسه الإنس. قال بعضهم وصف لي ذاكر في أجمة فأتيته فبينما هو جالس إذا سبع عظيم ضربه

ضربة واستلب منه قطعة فغشي عليه وعليّ فلما أفقت قلت: ما هذا؟ فقال: قيض الله هذا السبع لي فكلما داخلتني فترة غضني كما رأيت أوصلنا الله وإياكم إلى مرتبة اليقين وشرفنا بمقام التمكين وأذاقنا حلاوة الذكر في كل حين وأدخلنا الجنة المعنوية مع عباده الصالحين أجمعين.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أي: اذكر وقت قول الملائكة وهو جبريل بدلالة قوله تعالى في سورة مريم ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧] أي: سوى الخلق لتستأنس به وإنما جمع تعظيماً له لأنه كان رئيس الملائكة **﴿يا مريم﴾** وكلام جبريل معها لم يكن وحياً إليها فإن الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧] ولا نبوة في النساء بالإجماع. فكلمها شفاهاً كرامة لها وكرامات الأولياء حق أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه السلام وهو من الرهص بالكسر وهو الصف الأسفل من الجدار وفي الاصطلاح أن يتقدم على دعوى النبوة ما يشبه المعجزة كإظلال الغمام لرسول الله ﷺ وتكلم الحجر والمدر والرمي بالشهب وقصة الفيل وغير ذلك **﴿إن الله اصطفاك﴾** أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك في حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية **﴿وطهرك﴾** من الكفر والمعصية ومن الأفعال الذميمة والعادات القبيحة ومن مسيس الرجال ومن الحيض والنفاس قالوا: كانت مريم لا تحيض ومن تهمة اليهود وكذبهم بإنطاق الطفل **﴿واصطفاك﴾** آخراً **﴿على نساء العالمين﴾** بأن وهب لك عيسى عليه السلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلكما آية للعالمين **﴿يا مريم اقنتي لربك﴾** أي: قومي في الصلاة وأطيلي القيام فيها له تعالى **﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾** أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها القنوت وهو طول القيام والسجود والركوع مبالغة في إيجاب رعايتها وإيذاناً بفضيلة كل منها وأصالته. وتقديم السجود على الركوع إما لكون الترتيب في شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضي ذلك كون الترتيب الخارجي كذلك بل اللائق به الترقي من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن اركعي بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع في صلاتهم ليسوا مصلين قيل لما أمرت بذلك قامت في الصلاة حتى تورمت قدماها وسالت دماً وقيحاً.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذلك﴾ أي: ما ذكرنا في القصص من حديث حنة ومريم وعيسى وزكريا ويحيى **﴿من أنباء الغيب﴾** أي: من أخبار الغيب التي لا يوقف عليها إلا بمشاهدة أو قراءة كتاب أو تعلم من عالم أو بوحي من عند الله تعالى وانعدمت الثلاثة الأول فتعينت الرابعة وهو الوحي **﴿نوحيه إليك﴾** أي: ننزله عليك دلالة على صحة نبوتك وإلزاماً على من يحاجونك من الكفار. والوحي في القرآن لمعان للإرسال إلى الأنبياء قال تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٩٠] وللإلهام قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وللإلقاء المعنى المراد قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٥] وللإشارة قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]

وأصل ذلك كله الإعلام في خفاء ﴿**وما كنت لديهم**﴾ أي: عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريم وهو تقرير لكونه وحياً على طريقة التهكم بمنكريه أي: أنهم عالمون لا يشكون أنك لم تقرأ كتاباً ولم تصحب من علم تلك الأنباء حتى تسمع منهم فلم يبق إلا المشاهدة وهي منتفية بالضرورة فكأنهم ادعوا هذا المحال لكونه يلزم من إنكارهم الوحي أي: إن لم يكن بالوحي كما زعموا فلا بد من دعوى المشاهدة ولم تمكن.

قال ابن الشيخ في حواشيه: كأنه قيل: أيها المنكرون لأن أوحي إليه والمتهمون في دعوى نبوته ليس لكم في سبب الاتهام سوى احتمال المشاهدة والعيان وأنه غاية السفاهة ونهاية الخذلان ومن أضل ممن عدل عن الاحتمال الثابت بالمعجزات الساطعة والبراهين القاطعة إلى احتمال لا يذهب إليه وهم أحد وأي حالة أدعى إلى الضحك والاستهزاء والسخرية من حال هؤلاء انتهى ﴿**إذ يلقون أقلامهم**﴾ التي كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها ﴿**أيهم يكفل مريم**﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أي: يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿**وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ أي: في شأنها تنافساً في كفالتها وقد ذكر فيما سبق. وفي الآية دلالة على فضيلة مريم حيث اصطفاها الله على نساء العالمين فإن جميع ما ذكر من التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها والتربية الروحانية المتعلقة بحال كبرها لم يتفق لغيرها من الإناث. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» حديث حسن يوافق الآية في الدلالة على أن مريم أفضل من جميع نساء العالمين. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» وهو يدل على أن هؤلاء الأربع أفضل من سائر النساء.

واعلم أن أهل الكمال من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير هذه الأربع ومعنى الكمال التناهي في الفضائل والبر والتقوى وحسن الخصائل والكمال في شيء ما يكون حصوله للكامل أولى من غيره والنبوة ليست أولى للنساء لأن مبناها على الظهور والدعوة وحالهن الاستتار ولا تكون النبوة في حقهن كمالاً بل الكمال في حقهن الصديقية وهي قريب من النبوة والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله فمن النساء كاملات عارفات واصلات إلى مقام الرجال فهن رجال في المعنى. وسئل بعضهم عن الأبدال فقال أربعون نفساً فقيل له لم لا تقول أربعون رجلاً قال: لأن فيهم النساء، قال بعضهم:

ولو كان النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

ويناسب هذا ما حكي أن أم محمد والدة الشيخ أبي عبد الله بن الخفيف رحمهما الله تعالى كانت من العابدات القانتات وكان ابنها أبو عبد الله يحيي العشرة الأخيرة من رمضان ليدرك ليلة القدر ومن دأبه الملازمة إلى الصلاة فوق البيت وكانت والدته متوجهة إلى الله في البيت فليلة أن أخذت تظهر أنوار ليلة القدر نادت ابنها: أن يا محمد إن الذي تطلبه هو عندنا فتعال فنزل الشيخ فرأى الأنوار فخر على قدم أمه وكان يقول: علمت قدر والدتي منذ شاهدت فهذه هي حال والدته فانظر كيف أرشدت ابنها وكيف تفوقت عليه في الفضل والشرف مع كثرة رياضته واجتهاده أيضاً فظهر أن من النساء من هي أفضل من الرجال وذلك بالوصول إلى جناب

القدس وليس ذلك إلا بحسن الاستعداد والهداية الخاصة من الله تعالى أسعدنا الله وإياكم ونعوذ بالله من نساء زماننا حيث لا يرى فيهن من هي من أهل التقوى قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما» يعني في عصره عليه السلام لطهارة ذلك العصر بل حدثا بعده «قوم معهم سياط» يعني أحدهما قوم في أيديهم سياط جمع سوط «كأذناب البقر يضربون بها الناس» وهم الذين يضربون بها السارقين عراة أو الطوافون على أبواب الظلمة كالكلاب يطردون الناس عنها بالضروب والسباب «ونساء» يعني ثانيهما نساء «كاسيات» في الحقيقة «عاريات» في المعنى من لباس التقوى «مميلات» أي: قلوب الرجال إلى الفساد «مائلات» أي: إلى الرجال «رؤوسهن كأسنمة البخت» يعني يعظمن رؤوسهن بالخمر والقلنسوة حتى تشبه اسنمة البخت «المائلة» من الميل لأن أعلى السنام يميل لكثرة شحمه «لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» أي: يوجد من مسيرة أربعين عاماً.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿**إذ قالت الملائكة**﴾ بدل من وإذ قالت الملائكة منصوب بناصبه والمراد بالملائكة جبريل وجمع تعظيماً له وقد مر ﴿**يا مريم إن الله يبشرك**﴾ أي: يفرحك ﴿**بكلمة**﴾ كائنة ﴿**منه**﴾ عز وجل وأطلق على عيسى لفظ الكلمة بطريق إطلاق السبب على المسبب لأن سبب ظهوره وحدوثه هو الكلمة الصادرة منه تعالى وهي كن وحدوث كل مخلوق وإن كان بسبب هذه الكلمة لكن السبب المتعارف للحدوث لما كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أتم وأكمل فجعل عليه السلام بهذا الاعتبار كأنه نفس الكلمة ﴿**اسمه**﴾ أي: اسم المسمى بالكلمة عبارة عن مذكر ﴿**المسيح**﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك ﴿**عيسى**﴾ بدل من المسيح معرب من ايشوع ﴿**ابن مريم**﴾ صفة لعيسى وتوجه الخطاب إلى مريم يقتضي أن يقال عيسى ابنك إلا أنه قيل: عيسى ابن مريم تنبيهاً على أن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت: لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة أشياء الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة، قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره فكأنه قيل الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة. وفي التيسر اللقب إذا عرف صار كالاسم ﴿**وجيها**﴾ حال من الكلمة وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة والوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف ﴿**في الدنيا**﴾ بالنبوة والتقدم على الناس ﴿**والآخرة**﴾ بالشفاعة وعلو الدرجة في الجنة ﴿**ومن المقربين**﴾ أي: عند ربه بارتفاعه إلى السماء وصحبة الملائكة فيها ﴿**ويكلم الناس في المهد وكهلا**﴾ أي: يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلام الأنبياء عليهم السلام من غير تفاوت يعني أن تكلمه في حالة الطفولية والكهولة على حد واحد وصفة واحدة من غير تفاوت بأن يكون كلامه في حال الطفولية مثل كلام الأنبياء والحكماء لا شك أنه من أعظم المعجزات. قال مجاهد قالت مريم: إذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحدثته فإذا شغلني عنه إنسان يسبح في بطني وأنا أسمع وتكلمه معهم دليل على حدوثه لحدوث الأصوات والحروف.

ـ روي ـ أنه لما بلغ عمره ثلاثين سنة أرسله الله إلى بني إسرائيل فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفع إلى السماء أو جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة فمكث في نبوته ثلاث سنين وأشهراً ثم رفع. والكهل من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين وقارب الشيب من اكتهل النبت قارب اليبس فعلى هذا صح أن يقال إنه بلغ سن الكهولة وكلم الناس فيه ثم رفع وأما على قول من يقول إن أول سن الكهولة أربعون سنة فلا بد أن يقال إنه رفع شاباً ولا يكلم الناس كهلاً إلا بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان فإنه حينئذٍ يكلم الناس ويقتل الدجال ﴿**ومن الصالحين**﴾ هذه الأربعة أحوال مقدرة من كلمة والمعنى يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات وذكر قوله ومن الصالحين بعد ذكر الأوصاف المتقدمة دليل على أنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون المرء كذلك إلا بأن يكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدين والدنيا في أفعال القلوب وفي أفعال الجوارح.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿**قالت**﴾ مريم متضرعة إلى ربها ﴿**رب أنى يكون**﴾ أي: كيف يكون أو من أين يكون ﴿**لي ولد**﴾ على وجه الاستبعاد العادي والتعجب من استعظام قدرة الله فإن البشرية تقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة إذ لم تجر عادة بأن يولد ولد بلا أب ﴿**ولم يمسسني بشر**﴾ آدمي وسمي بشراً لظهوره وهو كناية عن الجماع أي: والحال أني على حالة منافية للولد ﴿**قال**﴾ أي: الله عز وجل أو جبريل عليه السلام ﴿**كذلك**﴾ إشارة إلى مصدر يخلق في قوله عز وجل ﴿**الله يخلق ما يشاء**﴾ أن يخلقه أي: الله يخلق ما يشاء أن يخلقه خلقاً مثل ذلك الخلق العجيب والإحداث البديع الذي هو خلق الولد من غير أب فالكاف في محل النصب على أنها في الأصل نعت لمصدر محذوف ﴿**إذا قضى أمراً**﴾ أي: أراد شيئاً وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابه إياه البتة ﴿**فإنما يقول له كن فيكون**﴾ من غير ريث وهو تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تأتي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة حدوثها بما علم فيها من إطاعة المأمور المطيع للآمر القوي المطاع وبيان لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن مريم ـ رضي الله عنها ـ كانت في غرفة قد ضربت دونها ستراً إذا هي برجل عليه ثياب بيض وهو جبريل تمثل لها بشراً سوياً أي: تام الخلق فلما رأته قالت: أعوذ بالرحمٰن منك إن كانت تقياً ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت. قال وهب: وكان معها ذو قرابة يقال له يوسف النجار وكان يوسف هذا يستعظم ذلك فإذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر عليها فكان أول ما كلمها أن قال لها: قد دخل في صدري شيء أردت كتمانه فغلبني ذلك فرأيت الكلام أشفى لصدري قالت: قل قال: فحدثيني هل ينبت الزرع من غير بذر؟ قالت: نعم قال: فهل ينبت شجر من غير أصل؟ قالت: نعم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر

يومئذٍ إنما صار من الزرع الذي أنبت من غير بذر ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير أنثى ولا ذكر فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء أكرمها الله به.

ـ روي ـ أن عيسى عليه السلام حفظ التوراة وهو في بطن أمه وكانت مريم تسمع عيسى وهو يدرس في بطنها ثم لما شرف عالم الشهود أعطاه الله الزهادة في الدنيا فإنه كان يلبس الشعر ويتوسد الحجر ويستنير القمر وكان له قدح يشرب فيه الماء ويتوضأ فيه فرأى رجلاً يشرب بيده فقال لنفسه: يا عيسى هذا أزهد منك فرمى القدح وكسره واستظل يوماً في ظل خيمة عجوز فكان قد لحقه حر شديد فخرجت العجوز فطردته فقام وهو يضحك فقال: يا أمة الله ما أنت أقمتني وإنما أقامني الذي لم يجعل لي نعيماً في الدنيا ولما رفع إلى السماء وجد عنده إبرة كان يرقع بها ثوبه فاقتضت الحكمة الإلهية نزوله في السماء الرابعة. وفيه إشارة إلى أن السالك لا بد وأن ينقطع عن كل ما سوى الله ويتجرد عن العوائق حتى يسير مع الملأ الأعلى ويطير إلى مقام قاب قوسين أو أدنى.

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام ناجى ربه فقال: اللهم أرني ولياً من أوليائك فأوحى الله تعالى إليه أن اصعد إلى جبل كذا وأدخل زاوية كذا في كهف كذا حتى ترى وليي ففعل فرأى فيه رجلاً ميتاً توسد بلبنة وفوق عورته خرقة وليس فيه شيء غيره فقال: اللهم سألتك أن تريني وليك فأريتني هذا فقال: هذا هو وليي فوعزتي وجلالي لا أدخله الجنة حتى أحاسبه باللبنة والخرقة من أين وجدهما فحال أولياء الله الافتخار بالفقر وترك الدنيا والصبر على ما قدره الله:

صبر باشد مشتهاي زيركان هست حلوا آرزوى كودكان
هركه صبر آورد كردون بررود هركه حلوا خورداوپس تررود

فالقوة الروحانية التي بها يصير الإنسان كالملائكة إنما تحصل بالصبر عن المشتهيات فانظر إلى حال عيسى عليه السلام يكفك في هذا اعتباراً ومن الله التوفيق إلى الإعراض عن حطام الدنيا وقطع التعلق من الدارين قطعاً ﴿ويعلمه﴾ كلام مستأنف أي: ويعلم الله عيسى ﴿الكتاب﴾ أي: الكتابة والخط بالقلم بالإلهام والوحي وكان أحسن الناس خطا في زمانه ﴿والحكمة﴾ أي: العلوم العقلية والشرعية وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة ﴿والتوراة والإنجيل﴾ فيحفظهما عن ظهر القلب وهذا الكلام أعني يعلمه الخ سيق تطبيباً لقلب مريم وإزاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿و﴾ يجعله ﴿رسولا إلى بني إسرائيل﴾ أي: يكلمهم وقال بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام ﴿أني قد جئتكم﴾ معمول لرسول لما فيه من معنى النطق أي: رسولاً ناطقاً بأني قد جئتكم ملتبساً ﴿بآية﴾ عظيمة كائنة ﴿من ربكم﴾ وهي ما ذكر بعده من خلق الطير وغيره ﴿أني أخلق﴾ بدل

من أني قد جئتكم أي: أقدر وأشكل لأنه قد ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب أن يكون بمعنى التقدير والتسوية ﴿لكم﴾ أي: لأجلكم بمعنى التحصيل لإيمانكم ورفع تكذيبكم إياي ﴿من الطين﴾ شيئاً ﴿كهيئة الطير﴾ أي: مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فيكون طيراً﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿بإذن الله﴾ بأمره تعالى أشار بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى لا منه لأن الله هو الذي خلق الموت والحياة فهو يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخ عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات.

ـ روي ـ أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض. قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل الخلق من فعل الله قيل: إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الحيوان من الطيور ويكون له الضرع ويخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنما يرى في ساعتين ساعة بعد غروب الشمس وساعة بعد طلوع الفجر قبل أن يسفر جداً ويضحك كما يضحك الإنسان وله أسنان ويحيض كما تحيض المرأة ولما دل القرآن على أن عيسى عليه السلام إنما تولد من نفخ جبريل في مريم وجبريل روح محض وروحاني محض فلا جرم كانت نفخة عيسى سبباً للحياة والروح ﴿وأبرىء﴾ أي: أشفي وأصحح ﴿الأكمه﴾ أي: الذي ولد أعمى. قال الزمخشري: لم يوجد في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير ﴿والأبرص﴾ وهو الذي به برص أي: بياض في الجلد يتطير به وإذا استحكم فلا برء له ولا يزول بالعلاج ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه. وإنما خصهما بالذكر للشفاء لأنهما مما أعيى الأطباء في تداويهما وكانوا في غاية الحذاقة في زمن عيسى عليه السلام وسألوا الأطباء عنهما. فقال جالينوس وأصحابه إذا ولد أعمى لا يبرأ بالعلاج وكذا الأبرص إذا كان بحال لو غرزت الإبرة فيه لا يخرج منه الدم لا يقبل العلاج فرجعوا إلى عيسى وجاؤوا بالأكمه والأبرص فمسح يده بعد الدعاء عليهما فأبصر الأعمى وبرىء الأبرص فآمن به البعض وجحد البعض وقالوا هذا سحر.

ـ روي ـ أنه أبرأ في يوم واحد خمسين ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام وكان يداويهم بالدعاء وحده على شرط الإيمان ثم قال عيسى عليه السلام: ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ فسألوا جالينوس عنه فقال الميت لا يحيى بالعلاج فإن كان هو يحيي الموتى فهو نبي وليس بطبيب فطلبوا أن يحيي الموتى فأحيى أربعة أنفس أحيى العازر وكان صديقاً له فأرسل أخته إلى عيسى أن أخاك العازر يموت فأتِهِ فكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال أخته انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة فقال عيسى عليه السلام: اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرهم أني أحيي الموتى فأحي العازر فقام العازر وودكه يقطر فخرج من قبره وبقي وولد له، وأحيى ابن عجوز مر به ميتاً على عيسى على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له وأحيى ابنة العاشر الذي

يأخذ العشور قيل له أحيها وقد ماتت أمس فدعا الله تعالى فعاشت وبقيت وولد لها فقالوا: يحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحيي لنا سام بن نوح فقال عيسى دلوني على قبره فخرج والقوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله تعالى بالاسم الأعظم فخرج من قبره وقد شاب رأسه فقال عيسى كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب قال: يا روح الله لما دعوتني سمعت صوتاً يقول أجب روح الله فظننت أن القيامة قد قامت فمن هول ذلك شاب رأسي فسأله عن النزع فقال: يا روح الله إن مرارته لم تذهب عن حنجرتي وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة فقال للقوم صدقوه فإنه نبي فآمن به بعضهم وكذبه آخرون ثم قال له: مت قال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل ثم طلبوا آية أخرى دالة على صدقه فقال: **﴿وأنبئكم بما تأكلون﴾** من أنواع المآكل **﴿وما تدخرون﴾** أي وما تخبأون للغد **﴿في بيوتكم﴾** فكان يخبر الرجل بما أكل قبل وبما يأكل بعد ويخبر الصبيان وهو في المكتب بما يصنع أهلهم وبما يأكلون ويخبأون لهم وكان الصبي ينطلق إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ما خبأوا له ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر وجمعوهم في بيت فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا: ليسوا في هذا البيت فقال: فمن في هذا البيت؟ قالوا خنازير فقال عليه السلام: كذلك يكونون فإذا هم خنازير **﴿إن في ذلك﴾** أي: ما ذكر من الخوارق والأمور العظام **﴿لآية﴾** عظيمة **﴿لكم﴾** دالة على صحة رسالتي دلالة واضحة **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** انتفعتم بها.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿ومصدقاً﴾ أي: قد جئتكم ملتبساً بآية الخ ومصدقاً **﴿لما بين يدي﴾** أي: لما تقدمني **﴿من التوراة﴾** أي: موافقاً على ما كان قبلي **﴿و﴾** جئتكم **﴿لأحل لكم﴾** لأن أرخص لكم **﴿بعض الذي حرم عليكم﴾** أي: في شريعة موسى عليه السلام من لحوم السمك ولحوم الإبل والشحوم والثروب جمع ثرب وهو شحم رقيق يتصل بالأمعاء ولحم كل ذي ظفر فاحل لهم عيسى من السمك والطير ما لا اصطبة له وهي شوكة الحائك التي بها يسوى السد أو اللحمة **﴿وجئتكم﴾** ملتبساً **﴿بآية من ربكم﴾** ببرهان بين شاهد على صحة رسالتي **﴿فاتقوا الله﴾** في عدم قبولها ومخالفة مدلولها **﴿وأطيعون﴾** فيما آمركم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هي قوله **﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾** ولا تعصوه بالشرك **﴿هذا﴾** أي: الإيمان بالله ورسوله والطاعة **﴿صراط مستقيم﴾** طريق سوي يؤدي صاحبه إلى الجنة وهو الحق الصريح الذي أجمع عليه الرسل قاطبة فتكون آية بينة على أنه عليه السلام من جملتهم فقوله **﴿إن الله ربي وربكم﴾** إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد وقال: **﴿فاعبدوه﴾** إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه يلازم الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله ﷺ: «قل آمنت ثم استقم» فالعلم والعمل من مبادي الاستقامة فعليك بالتمسك بالحجة القوية. وسئل الجنيد كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله فقال بتوبة تزيل الإصرار وخوف يزيل التسويف ورجاء يبعث على مسالك العمل وذكر الله تعالى على اختلاف الأوقات وإهانة النفس بقربها من الأجل

وبعدها من الأمل قيل له: فبماذا يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد، وقال الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ: ما طلب رجل هذا الخير يعني الجنة إلا اجتهد ونحل وذبل واستمر واستقام حتى يلقي الله تعالى أما ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

واعلم أن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق قال رسول الله ﷺ: «لا يكونن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل» قيل: ولا يصح رفع الهمة عن الحظوظ جملة لأن ذلك مكابرة مع الربوبية وإنما المراد أن لا يطلب بالعمل فعلامة العبد الأديب أن يستمر على الطاعة في باب مولاه ولا ينظر إلى شيء سواه لا إلى الجنة ولا إلى النار فإذا جرد عمله وتوحيده عن الأغراض فقد استقام واتخذ الصراط المستقيم مذهباً والإرشاد إلى هذا الطريق إنما يفيد لمن كان له استعداد أزلي وقابلية أصلية فبالتربية يصير العبد قابل أنوار الصفات الإلهية ويخرج من الظلمات البشرية فعليك بخدمة الكاملين والاستقامة في طريق اليقين.

زخود بهتري جوى وفرصت شمار   كه باچون خودى كم كنى روز كار

وفي الاتباع شرف عظيم قال تعالى مخاطباً لحبيبه عليه السلام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وطاعة الرسول واتباعه من لوازم تقوى الله تعالى ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فإذا داوم العبد الاتباع يصل إلى الاستقامة فإنها ليست مما يحصل في أول الأمر، قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره العزيز.

سالها بايد كه اندر آفتاب   لعل يابد رنك ورخشاني وتاب

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فلما﴾ الفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل كأنه قيل: فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت ﴿أحس عيسى﴾ أحس استعارة للعلم اليقيني الذي لا شبهة فيه كالإحساس وهو وجدان الشيء بالحاسة كأنه قبل فلما علم ﴿منهم الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كما يدرك بالحواس من الضروريات منهم الكفر أي: من بني إسرائيل وأرادوا قتله وأنهم لا يزدادون على رؤية الآيات إلا الإصرار على الجحود ﴿قال﴾ لخُلص أصحابه مستنصراً على الكفار ﴿من أنصاري﴾ الأنصار جمع نصير ﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من الياء أي: من أنصاري متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه ومن أعواني على إقامة الدين ﴿قال الحواريون﴾ جمع حواري يقال فلان حواري فلان أي: صفوته وخاصته وهم اثنا عشر بعضهم من الملوك وبعضهم من صيادي السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام وأعوانه والمخلصين في محبته وطاعته ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه ورسوله قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] والله ينصر من ينصر دينه ورسله ﴿آمنا بالله﴾ استئناف جار مجرى العلة لما

قبله فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿**واشهد بأنا مسلمون**﴾ مخلصون في الإيمان منقادون لما تريد من أمر نصرتك طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم تشهد الرسل عليهم السلام لأممهم إيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية.

﴿**ربنا آمنا بما أنزلت**﴾ من الإنجيل على عيسى وهو تضرع إلى الله تعالى وعرض لهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار أمرهم ﴿**واتبعنا الرسول**﴾ أي: عيسى على دينه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع في النصرة دخولاً أولياً ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ أي: مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا.

وفيه إشارة إلى أن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: ١٨] فإذا كتب الله ذكرهم مع الشهداء المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين.

﴿**ومكروا**﴾ أي: الذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فإذا صار إليه قتله ﴿**ومكر الله**﴾ بأن رفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل ﴿**والله خير الماكرين**﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً واقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

ـ روي ـ أن ملك بني إسرائيل لما قصد قتله عليه السلام أمره أن يدخل بيتاً فيه روزنة فرفعه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة إلى السماء وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة حول العرش وكان إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً ثم قال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه السلام عليه فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم مقال عظيم ولما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله من الجنون بدعاء عيسى وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله عيسى عليه السلام فجاءهما فقال: على من تبكيان قالتا عليك فقال: إن الله رفعني ولم يصبني إلا خير وإن هذا شيء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله لعيسى اهبط إلى المجدلانية على موضع في جبلها فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن أحد حزنها ثم استجمع الحواريين فبثهم أي: فاجعلهم متفرقين في الأرض دعاة إلى الله فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً فجمعت له الحواريون فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله إليه وتلك الليلة هي الليلة التي تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله ﴿**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**﴾ والمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم فيها أيها العبد خف من وجود إحسان مولاك إليك ودوام إساءتك معه في دوام لطفه بك وعطفه عليك أن يكون ذلك استدراجاً لك حتى تقف معها وتغتر بها وتفرح بما أوتيت فتؤخذ بغتة قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. قال سهل رضي الله عنه في معنى هذه الآية نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن

المنعم أخذوا. وقال أبو العباس بن عطاء يعني كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة أو أنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ومن جهل المريد بنفسه وبحق ربه أن يسيء الأدب بإظهار دعوى أو تورط في بلوى فتؤخر العقوبة عنه إمهالاً له فيظنه إهمالاً فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد اعتباراً بالظاهر من الأمر من غير تعريج على ما وراء ذلك وما ذاك إلا لفقد نور بصيرته أو ضعف نورها وإلا فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر حتى ربما ظن أنه متوفر في عين تقصير ولو لم يكن من قطع المدد إلا منع المزيد لكان قطعاً لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان قال عليه السلام: «من استوى يوماه فهو مغبون» ولو لم يكن من الابعاد إلا أن يخليك وما تريد فيصرفك عنه بمرادك هذا والعياذ بالله مكر وخسران. وعن ابن حنبل أنه كان يوصي به أصحابه فقال: خف سطوة العدل وارج رقة الفضل ولا تأمن من مكره تعالى ولو أدخلك الجنة ففي الجنة وقع لأبيك آدم ما وقع وقد يقطع بأقوام فيها فيقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية فقطعهم بالأكل والشرب عنه وأي مكر فوق هذا وأي خسران أعظم منه.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إذ قال الله﴾ أي: اذكر وقت قول الله **﴿يا عيسى إني متوفيك﴾** أي: مستوفي أجلك ومعناه إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم **﴿ورافعك﴾** الآن **﴿إلي﴾** أي: إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي وجعل ذلك رفعاً إليه للتعظيم ومثله قوله ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام وقد يسمى الحجاج زوار الله والمجاورون جيران الله وكل ذلك للتفخيم فإنه تعالى يمتنع كونه في المكان **﴿ومطهرك﴾** أي: مبعدك ومنحيك **﴿من الذين كفروا﴾** أي: من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم. قيل: سينزل عيسى عليه السلام من السماء على عهد الدجال حكماً عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فيفيض المال حتى لا يقبله أحد ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويقتل الدجال ويتزوج بعد قتله امرأة من العرب وتلد منه ثم يموت هو بعدما يعيش أربعين سنة من نزوله فيصلي عليه المسلمون لأنه سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة فاستجاب الله دعاءه **﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾** وهم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى **﴿فوق الذين كفروا﴾** وهم الذين مكروا به عليه السلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن أهل السلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة **﴿إلى يوم القيامة﴾** غاية للجعل لا على معنى أن الجعل ينتهي حينئذٍ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد **﴿ثم إلي مرجعكم﴾** أي: رجوعكم بالبعث والضمير لعيسى عليه السلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار **﴿فأحكم بينكم﴾** يومئذٍ إثر رجوعكم إلي **﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾** من أمور الدين.

﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً في الدنيا﴾ بالسيف والسبي وأخذ الجزية وإيصال الأمراض والمصائب فإنها من العقوبات في حق الكافر ومن المثوبات في حق المؤمن لأنها ابتلاء محض له ﴿والآخرة﴾ بعذاب النار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يخلصونهم من عذاب الله في الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أي: ليس لواحد منهم ناصر واحد.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وأما الذين آمنوا﴾ بما أرسلت به ﴿وعملوا الصالحات﴾ كما هو ديدن المؤمنين ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ أي: يعطيهم أجور أعمالهم كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيذان بما بين مصدري التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي: يبغضهم ولا يرضى عنهم ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نتلوه عليك﴾ أي: نقرأه عليك يا محمد وأسند تلاوته إلى نفسه مع أن التالي هو الملك المأمور بها على طريق إسناد الفعل إلى السبب الآمر وفيه تعظيم بليغ وتشريف عظيم للملك وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل لما كانت بأمره تعالى من غير تفاوت أصلاً أضيف ذلك إليه تعالى: ﴿من الآيات﴾حال من الضمير المنصوب أي: من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك لأنها إخبار لا يعلمها إلا قارىء الكتاب أو من يوحى إليه فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ فبقي أن ذلك من الوحي ﴿والذكر﴾ أي: القرآن ﴿الحكيم﴾ أي: المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه. والإشارة أن الله تعالى قال لعيسى عليه السلام يا عيسى ﴿إني متوفيك﴾ عن الصفات النفسانية والأوصاف الحيوانية ﴿ورافعك إلي﴾ بجذبات العناية فمن لم يصر فانياً عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله فعيسى لما رفع إلى السماء صارت له حالة كحال الملائكة في زوال الشهوات والغضب والأخلاق الذميمة. فعلى السالك أن ينهى نفسه عن الهوى ويتبع طريق الهدى ويعتبر بالآيات والذكر الحكيم كي يصل إلى النعيم المقيم ويجتنب الظلم فإن الله تعالى قال: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي: الذين يظلمون على أنفسهم بانقضاء العمر في طلب غير الله:

خلاف طريقت بود كاوليا تمنا كنند ازخدا جز خدا

فأهل الطريقة هم الذين يمحون نقش الغير عن صفحات القلب ويزكون نفوسهم عن الأوصاف المذمومة فإنها مانعة من العروج إلى سماء المعرفة وعلو الوصال، قال مولانا جلال الدين رومي قدس سره.

آن يكي نحوى بكشتى درنشست روبكشتيبان نهادآن خود پرست
كفت هيچ ازنحو حواندى كفت لا كفت نيم عمر توشد در فنا
دل شكسته كشت كشتبيان زتاب ليك آن دم كشت خواموش از جواب
باد كشتى را بكردابى فكند كفت كشتيبان بدان نحوى بلند
هيچ داني آشنا كردن بكو كفت نى أي: خوش جواب خوب رو
كفت كل عمرت أي: نحوى فناست زانك كشتى غرق اين كردا بهاست
محو مى بايد نه نحو اينجابدان كرتو محوى بيخطر در آب ران

آب دريا مرده را بر سر نهد وربود زنده زدريا كي رهد
چون بمردى تو زاوصاف بشر بحر اسرارت نهد بر فرق سر

فقد ظهر أن الذين يطلبون غير الله هم غرقى في بحر الهوى والشهوات لا يقدرون على التصعد إلى الأعلى وأما الذين تخلصوا من قشر الوجود ووصلوا بالفناء عن ذواتهم إلى عالم الشهود فهم يطيرون بأجنحة أنوار حالهم مع الملائكة المقربين لتخلصهم من الأثقال الدنيوية والأشغال القالبية والبدنية قال تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمان: ٣٣] أي: بالتجرد عن الهيآت الجسمانية والتعلقات البدنية ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ لتنخرطوا في سلك الإرادة الملكوتية والنفوس الجبروتية وتصلوا إلى الحضرة العلية ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمان: ٣٣] أي: بحجة بينة هي التوحيد والتجريد والتفريد بالعلم والعمل والفناء إلى الله تعالى قال عيسى عليه السلام: [لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين] والولادة نوعان: اضطراري بخلق الله تعالى ولا دخل فيه للكسب والاختيار وذلك ظاهر، واختياري يحصل بالكسب وهو الذي أشار إليه عيسى عليه السلام وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى ويداوي بدواء أفضاله هذه النفوس المرضى إنه بكل شيء قدير وبتيسيره يسهل كل أمر عسير.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿إن مثل عيسى﴾ أي: شأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال **﴿عند الله﴾** أي: في تقديره وحكمه **﴿كمثل آدم﴾** أي: كحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع **﴿خلقه من تراب﴾** تفسير للمثل لا محل له من الأعراب أي: خلق قالب آدم من تراب. فإن قيل: الضمير في خلقه راجع إلى آدم وحين كان تراباً لم يكن آدم موجوداً. قلنا: لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم قبل ذلك تسمية لما سيقع بالواقع **﴿ثم قال له كن﴾** أي: انشأ بشراً **﴿فيكون﴾** والمقتضى أن يقال فكان أي: كان كما أمره الله إلا أنه عدل إلى المضارع حكاية للحال التي كان آدم عليها أي: تصويراً لذلك الإيجاد الكامل بصورة المشاهد الذي يقع الآن.

ـ روي ـ أن وفد نجران قدموا المدينة وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم: منهم السيد وهو كبيرهم واسمه أهيب، والعاقب الذي بعده وهو صاحب رأيهم واسمه عبد المسيح، والثالث أبو حارثة بن علقمة الأسقف وكان في شرف وخطر عظيم وكان ملك الروم بنى له الكنائس وكان يبعث له بالكرامات فأقبلوا حتى قدموا على النبي عليه السلام في مسجد المدينة بعد العصر عليهم ثياب حسان ولهم وجوه جسام فقاموا وصلوا واستقبلوا قبلتهم وأراد أصحاب النبي ﷺ أن يمنعوهم فقال ﷺ: «دعوهم» وقد كان نزل على النبي عليه السلام قبل قدومهم صدر آل عمران لمحاجتهم ثم انتهى أبو حارثة هذا وآخر معه إلى النبي عليه السلام فقال لهما ﷺ: «أسلما» فقالا: أسلمنا قبلك فقال ﷺ: «كذبتما يمنعكما عن الإسلام ثلاث: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولداً» قالوا: يا محمد فلم تشتم صاحبنا عيسى؟ قال: «وما أقول» قالوا: تقول إنه عبد قال: «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى

العذراء البتول» فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون هو الله فقال ﷺ: «إن آدم عليه السلام ما كان له أب ولا أم» ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله تعالى فكذا حال عيسى عليه السلام فالوجود من غير أب وأم أخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع لشبهة الخصم إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.

﴿الحق﴾ أي: ما قصصنا عليك من نبأ عيسى وأمه هو الحق كائناً **﴿من ربك﴾** لا قول النصارى إنه ابن الله وقولهم ولدت مريم إلهاً ونحو ذلك **﴿فلا تكن من الممترين﴾** أي: من الشاكين في ذلك الخطاب للنبي عليه السلام على طريقة الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت لأن النهي عن الشيء حقيقة يقتضي أن يتصور صدور المنهي عنه من المنهي ولا يتصور كونه عليه السلام شاكاً في صحة ما أنزل عليه والمعنى دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان على الحق والتنزه عن الشك فيه. قال الإمام أبو منصور رحمه الله: العصمة لا تزيل المحنة ولا ترفع النهي.

﴿فمن حاجك﴾ أي: من النصارى إذ هم المتصدون للمحاجة **﴿فيه﴾** أي: في شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماً منهم أنه ليس على الشأن المحكي **﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾** أي: ما يوجبه إيجاباً قطعياً من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم عليه من الضلال والغي **﴿فقل﴾** أي: فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة فقل لهم: **﴿تعالوا﴾** التعالي في الأصل: التصاعد كأن الداعي في علو والمدعو في سفل فأمره أن يتعالى إليه ثم صار ذلك لكل مدعو أين كان أي هلموا بالرأي والعزيمة لا بالأبدان لأنهم مقبلون وحاضرون عنده بأجسادهم **﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾** اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن. وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى **﴿ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾** أي: ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها **﴿ثم نبتهل﴾** أي: نتباهل بأن نلعن الكاذب ونقول لعنة الله على الكاذب منا ومنكم **﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾** عطف على نبتهل مبين لمعناه.

ـ روي ـ أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما خلا بعضهم ببعض قالوا لعبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله ﷺ وقد خرج محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها رضي الله عنه وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا» فقال أسقف نجران: أي أعلمهم بأمور دينهم وهو أبو حارثة يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن تترك على دينك ونثبت على ديننا فقال ﷺ: «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين» فأبوا فقال: «فإني أحاربكم» فقالوا: مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب

وثلاثين درعاً عادية من حديد فصالحهم على ذلك وكتب لهم كتاباً بذلك وقال: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿إن هذا﴾ أي: ما قص من نبأ عيسى عليه السلام وأمه **﴿لهو القصص الحق﴾** دون ما عداه من أكاذيب النصارى **﴿وما من إله﴾** ما إله **﴿إلا الله﴾** صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم **﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾** القادر على جميع المقدورات. الحكيم المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه في القدرة والحكمة ليشاركه في الألوهية.

﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن قبول التوحيد والحق الذي قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة **﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾** أي: فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى الله فإن الله عليم بفساد المفسدين مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة قادر على مجازاتهم.

واعلم أن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله إياهم به وهو المؤثر بإذن الله في العالم العنصري فيكون انفعال العالم العنصري منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيآت الواردة عليها كالغضب والخوف والسرور والفكر في أحوال المعشوق وغير ذلك من تحريك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم وانفعال النفوس الملكية تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالي تأثير ما يتصل به فينفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية فيه بما أراد ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام قبل المباهلة بالخوف وأحجمت عن المباهلة فطلبت الموادعة بالجزية؟ كذا في «التأويلات القاشانية». وكذا حال الولي إذا دعا على إنسان يكون له تأثير بالمرض أو الموت أو غير ذلك من البلايا.

ـ روي ـ أن الشاعر البساطي رأى يوماً الشيخ كمال الدين الخجندي في مجلس الشعراء فقال:

از كجايى از كجايى أي: لوند

فقال الشيخ في جوابه على الفور:

از خجندم از خجند

ولكنه تأذى من سوء أدبه ومعاملته معه هكذا وحمله على سكره فقال الغالب: إن هذا الشاب سكران فسمعه البساطي وقال بالبداهة:

سيه چشميست مردم كش خراب غمزه اويم

ازان در عين هشياري سخن مستانه ميكويم

ثم قال بطريق الهجو له:

اي ملحد خجندي ريش بزرك داري كزغايت بزركي ده ريش ميتوان كفت

فلما سمعه الشيخ تألم منه تألماً شديداً فدعا عليه في ذلك المجلس فمات من ساعته من تأثير نفسه الشريف في حقه فليجانب العاقل أذية الصلحاء فإن مكره يعود إليه دونهم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، قيل ونعم ما قيل:

ناي كند ناله بدين قول راست از نفس پير بترس أي: جوان

فحفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم سبب للترقي إلى المطالب العالية وباعث للاحترام والإكرام قال رسول الله ﷺ: «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه» قال المشايخ عقوق الأستاذين لا توبة منه.

ـ ويحكى ـ عن أبي الحسن الهمداني قال: كنت ليلة عند جعفر الخالدي وكنت أمرت في بيتي أن يعلق لي طير في التنور وكان قلبي معه فقال لي جعفر: أقم عندنا الليلة فتعللت بشيء ورجعت إلى منزلي فأخرج الطير من التنور ووضع بين يدي فدخل كلب من الباب وحمل الطير عند تغافل الحاضرين وأتى بالجوذاب الذي تحته فتعلق به ذيل الخادمة فانصب فلما أصبحت دخلت على جعفر فحين وقع بصره علي قال: من لم يحفظ قلوب المشايخ يسلط عليه كلب يؤذيه. قال الشيخ أبو علي الدقاق قدس سره لما نفى أهل بلخ محمد بن الفضل من البلد دعا عليهم وقال: اللهم امنعهم الصدق فلم يخرج من بلخ بعده صديق عصمنا الله وإياكم من المخالفة آمين.

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أي: اليهود والنصارى **﴿تعالوا﴾** كان عليه السلام حريصاً على إيمانهم فأمره الله تعالى بأن يعدل عن طريق المجادلة والاحتجاج إلى نهج يشهد كل عقل سليم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال لا ميل فيه إلى جانب حتى يكون فيه شائبة التعصب فهو كلام ثابت في المركز نسبته إلينا وإليكم على سواء واعتدال فقال: قل يا أهل الكتاب تعالوا أي: هلموا والمراد تعيين ما دعوا إليه والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالاً من مكان إلى مكان لأن أصل اللفظ مأخوذ من التعالي وهو الارتفاع من موضع هابط إلى مكان عال ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوالي حيث يدعى إليه **﴿إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾** لا يختلف فيها الرسل والكتب فيها إنصاف من بعضنا لبعض ولا ميل فيها لأحد على صاحبه وهي **﴿أن لا نعبد إلا الله﴾** أي: نوحده بالعبادة ونخلص فيها **﴿ولا نشرك به شيئاً﴾** ولا نجعل غيره شريكاً في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن نعبده **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحليل والتحريم لأن كلاً منهم بعضنا وبشر مثلنا. وعن الفضيل لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق أم صليت لغير القبلة **﴿فإن تولوا﴾** عما دعوتم إليه من التوحيد وترك الإشراك **﴿فقولوا﴾** أي: قل لهم أنت والمؤمنون **﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾** أي: لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك برعاية الإسلام أسلم تسلم» أي: من السبي في الدنيا ومن العذاب في الآخرة «وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و**﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾** إلى قوله: **﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**. وجاء في الخبر الصحيح أن هرقل سأل عن حال النبي عليه السلام وعرفها ممن جاء بكتابه فقال: لو كنت عنده لقبلت قدميه لمعرفته صدق

النبي عليه السلام بعلاماته المعلومة له من الكتب القديمة لكن خاف من ذهاب الرياسة. ثم إنه كتب جواب كتابه عليه السلام إنا نشهد أنك نبي ولكنا لا نستطيع أن نترك الدين القديم الذي اصطفاه الله لعيسى عليه السلام فعجب النبي عليه السلام فقال: «لقد ثبت ملكهم إلى يوم القيامة أبداً». وكتب إلى كسرى ملك فارس فمزق كتابه ورجع الرسول بعدما أراد قتله فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «خرق الله ملكهم فلا ملك لهم أبداً» فكان كذلك.

والإشارة في الآية أن أصول الأديان كلها إخلاص العبودية كما قال تعالى: **﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾** يعني كما لا نعبد إلا الله لا نطلب منه غيره **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** في طلب الرزق ورؤية الأمور من الوسائط **﴿فإن تولوا﴾** يعني من أعرض عن هذا الأصل **﴿فقولوا﴾** أنتم لهم **﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾** مستسلمون لما دعانا الله إليه من التوحيد والإخلاص في العبودية ونفي الشرك والسر في الإشهاد على الإسلام ليشهد الكفار لهم يوم القيامة على الإسلام والتوحيد كما يشهد لهم المؤمنون كما قال النبي عليه السلام لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» فيكون شهادة الكفار لهم بالتوحيد يوم القيامة حجة على أنفسهم. فالتوحيد هي العروة الوثقى وأصل الأصول يهب من جانب الغيب لمن أخلصه قبول القبول. فعلى العاقل أن لا يخالف كتاب الله بالإعراض عن فحاويه وعدم التدبر في معانيه بل يسلك سبيل العلم والأعمال ويجتنب الجهل والغي والضلال قبل أن يهال عليه التراب ويلف في الأكفان من الأثواب، قال الفاضل عبد الرحمن الجامي قدس سره:

پيش كسرى زخردمند حكيمان ميرفت ... سخن ازسخت ترين موج درين لجه غم
آن يكى كفت كه بيمارى واندوه دراز ... وإن دكر كفت كه نادارى وبيريست بهم
سبومين كفت كه قرب اجل وسوء عمل ... عاقبت رفت بترجيح سوم حكم حكم

يعني اجتمع يوماً في مجلس أنوشروان ثلاثة من الحكماء فانجر الكلام إلى أن أشد الشدائد ما هو؟ فقال الحكيم الرومي: هو الشيخوخة مع الفقر. وقال الحكيم الهندي: المرض وعلة البدن مع كثرة الغموم والهموم. وقال الحكيم بزرجمهر: هو قرب الأجل وسوء العمل فاتفقوا على قوله رزقنا الله وإياكم حلاوة الطاعات وأيدنا بتوفيقه قبل قدوم هاذم اللذات آمين.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى **﴿لم تحاجون﴾** تجادلون **﴿في﴾** ملة **﴿إبراهيم﴾** وشريعته تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام وزعم كل واحد منهما أنه عليه السلام منهم وترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم **﴿وما أنزلت التوراة﴾** على موسى عليه السلام **﴿والإنجيل﴾** على عيسى عليه السلام **﴿إلا من**

﴿بعده﴾ أي: من بعد موته وأنتم سميتم باليهودية والنصرانية بعد نزول الكتاب ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم فتجادلون بالجدال المحال لأن بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفي سنة فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟.

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتهم أي: أنتم هؤلاء الحمقى حيث ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ من التوراة والإنجيل من نبوة محمد عليه السلام ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ فيما لا ذكر له في كتابكم ولا علم لكم به من دين إبراهيم إذ لا ذكر لدينه عليه السلام في أحد الكتابين قطعاً ﴿والله يعلم﴾ ما حاججتم فيه فيعلمنا ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي: محل النزاع.

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ولكن كان حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن العقائد الزائغة كلها ﴿مسلماً﴾ أي: منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿وما كان من المشركين﴾ تعرض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملته عليه السلام.

﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ أي: إن أحق الناس بدعواه أنه على دين إبراهيم ﴿للذين اتبعوه﴾ في زمانه ﴿وهذا النبي﴾ أي: محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه اتبعه ﴿والذين آمنوا﴾ بالله وبمحمد ﷺ من هذه الأمة لموافقتهم في أكثر ما شرعه لهم على الأصالة ﴿والله ولي المؤمنين﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب﴾ أي: أحبت ﴿لو﴾ أي: أن ﴿يضلونكم﴾ يصرفونكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر وإنما قال طائفة لأن من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ جملة حالية جيء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم أي: وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا إليهم لما أنه يضاعف به عذابهم ﴿وما يشعرون﴾ أي: باختصاص وباله وضرره بهم.

اعلم أنه تعالى لمّا بَيَّنَ أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق والإعراض عن قبول الحجة بين أنهم لا يقتصرون على هذا القدر بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات. فعلى العاقل أن لا يضل عن الطريق القويم بالقاآت كل شيطان رجيم من ضلال الإنس والجان أصلحهم الله الملك المنان وماذا بعد الحق إلا الضلال. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لمّا دنا فراق رسول الله ﷺ جمعنا في بيت أُمِنّا عائشة رضي الله عنها ثم نظر إلينا فدمعت عيناه وقال: «مرحباً بكم حياكم الله رحمكم الله أوصيكم بتقوى الله وطاعته قد دنا الفراق وحان المنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى يغسلني رجال أهل بيتي ويكفنونني في ثيابي هذه إن شاؤوا أو في حلة يمانية فإذا غسلتموني وكفنتموني ضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير لحدي ثم اخرجوا عني ساعة فأول من يصلي علي حبيبي جبريل عليه السلام ثم ميكائل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنودهم ثم أدخلوا علي فوجاً فوجاً صلوا علي» فلما سمعوا فراقه صاحوا وبكوا وقالوا: يا رسول الله أنت رسول ربنا وشمع

جمعنا وسلطان أمرنا إذا ذهبت عنا فإلى من نراجع في أمورنا؟ قال: «تركتم على المحجة البيضاء» أي: على الطريق الواسع الواضح «ليلها كنهارها» في الوضوح و«لا يزيغ بعدها إلى غيرها إلا هالك وتركت لكم واعظين ناطقاً وصامتاً فالناطق القرآن والصامت الموت فإذا أشكل عليكم أمر فارجعوا إلى القرآن والسنة وإذا قسا قلبكم فلينوه بالاعتبار في أحوال الأموات».

جهان أي: پسر ملك جاويد نيست   زدنيا وفاداری اميد نيست

والناس في الاعتقاد والعمل متفاوتون. فمنهم من هو متين كالحصن الحصين لا يزول عما هو عليه وإن اتفق الناس في إضلاله وهو المرتبة القصوى في باب الدين التي نالها الأنبياء والأولياء والأفراد من المؤمنين قال علي كرم الله وجهه [لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً] ولا يطرأ الشك في المحسوس فكذا ما هو في حكمه. ومنهم من هو ضعيف لا متانة فيه تذروه رياح الهوى حيث شاءت بعد إن لم تساعد له العناية الأزلية قال رسول الله ﷺ: «الناس كمعادن الذهب والفضة» يعني: أن الناس معادن الأعمال والأخلاق والأقوال ولكن يتفاوتون فيها كما تتفاوت معادن الذهب والفضة إلى أن تنتهي إلى الأدنى فالأدنى. قال في «شرح المصباح» وفيه إشارة إلى أن ما في معادن الطباع من جواهر مكارم الأخلاق ينبغي أن تستخرج برياضة النفوس كما يستخرج الجواهر من المعادن بالمقاساة والتعب ولقد أجاد من قال:

بقدر الكد تكتسب المعالي   ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلاً   يغوص البحر من طلب اللآلي

فلا بد من الاجتهاد والاستمداد من الأبدال والأوتاد لعل الله يسهل سلوك هذا الطريق ويخلص من خطر هذا البحر العميق:

باری كه آسمان وزمين سر كشيد ازان   مشكل بود بياوریء جسم وجان كشيد
همت قوی كن ازمدد رهروان عشق   كان باررا بقوت همت توان كشيد

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي: بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ **﴿وأنتم تشهدون﴾** أي: والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله **﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون﴾** أي: تخلطون **﴿الحق بالباطل﴾** المراد بالحق كتاب الله الذي أنزله على موسى وعيسى عليهما السلام. وبالباطل ما حرفوه وكتبوه بأيديهم وبخلط أحدهما بالآخر إبراز باطلهم في صورة الحق بأن يقولوا الكل من عند الله تعالى **﴿وتكتمون الحق﴾** أي: نبوة محمد ﷺ ونعته **﴿وأنتم تعلمون﴾** أنه حق ثابت في كتابكم.

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ وهم رؤساؤهم ومقتدوهم لأعقابهم **﴿آمنوا بالذي﴾** أي: أظهروا الإيمان بالقرآن الذي **﴿أنزل على الذين آمنوا﴾** أي: على المسلمين **﴿وجه النهار﴾** أي: في أوله لأن أول النهار هو أول ما ظهر منه كما أن الوجه أول ما يظهر من أعضاء الإنسان عند الملاقاة **﴿واكفروا آخره﴾** أي: أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به في آخر النهار مرائين لهم أنكم آمنتم به بادي الرأي من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم

عنه ﴿لعلهم﴾ أي: المؤمنين ﴿يرجعون﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم. والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ولا تؤمنوا﴾ أي: لا تقروا بتصديق قلبي ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: لأهل دينكم لا لمن تبع محمداً وأسلم لما قالت الطائفة المتقدمة لاتباعهم أظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار كان من بقية كلامها لهم إنكم لا تصدقوا بحقية الإسلام والقرآن بقلوبكم لكن لا تظهروه للمسلمين ولا تقروا بذلك إلا لأهل دينكم ﴿قل﴾ يا محمد للرؤساء ﴿إن الهدى هدى الله﴾ يهدي به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه فإذا كانت الهداية والتوفيق من الله فلا يضر كيدكم وحيلكم وهو اعتراض مقيد لكون كيدهم غير مجد لطائل ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ علة بتقدير اللام لفعل محذوف أي: قلتم ذلك القول ودبرتم الكيد لأن يعطى أحد مثل ما أعطيتم من فضل الكتاب والعلم لا لشيء آخر يعني ما بكم من الحسد صار داعياً لكم إلى أن قلتم ما قلتم ﴿أو يحاجوكم﴾ عطف على أن يؤتى وضمير الجمع عائد إلى أحد لأنه في معنى الجمع أي: دبرتم ما دبرتم لذلك ولأن يحاجوكم عند كفركم بما يؤتى أحد من الكتاب مثل كتابكم ﴿عند ربكم﴾ يوم القيامة فيغلبوكم بالحجة فإن من آتاه الله الوحي لا بد أن يحاج مخالفيه عند ربه ﴿قل إن الفضل﴾ أي: الهدى والتوفيق وإيتاء العلم والكتاب ﴿بيد الله﴾ أي: بقدرته ومشيئته ﴿يؤتيه من يشاء﴾ من عباده ﴿والله واسع﴾ أي: كامل القدرة ﴿عليم﴾ أي: كامل العلم فلكمال القدرة يصح أن يتفضل على أي عبد يشاء بأي تفضل شاء ولكمال علمه لا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب.

﴿يختص برحمته﴾ أي: يجعل رحمته مقصورة على ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه.

والإشارة في تحقيق الآيات أن الحسد وإن كان مركوزاً في جبلة الإنسان ولكن له اختصاص بعالم يتعلم العلم ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويجعله وسيلة لجمع المال وحصول الجاه والقبول عند أرباب الدنيا فيحسد على كل عالم آتاه الله كلمة فهو ينشرها ويفيد الخلق كما قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» أي: لا حسد كحسد الحاسد على هذين الرجلين وكان حسد أحبار اليهود على النبي عليه السلام من هذا القبيل. قال رسول الله ﷺ: «ستة يدخلون النار قبل الحساب» قيل يا رسول الله من هم قال: «الأمراء من بعدي بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجهل وأهل العلم بالحسد» قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن إياكم والكبر فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم»، قال المولى الجامي:

لاف بي كبرى مزن كان ازنشان پاي مور درشب تاريك برسنك سيه پنهان ترست
وزدرون كردن برون انرامكير آسان كزان كوه را كندن بسوزن اززمين آسان ترست

«وإياكم والحرص فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة»، وقال أيضاً:

درهر دلى كه عزقناعت نهاد پاي ازهرچه بود حرص وطمع را ببست دست
هرجا كه عرضه كرد قناعت متاع حويش بآزار حرص ومعركة آزرا شكست

«وإياكم والحسد فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً»، قال الشيخ السعدي:

توانم انكه نيازارم اندرون كسى حسود راچه كنم كوز خودبرنج درست
بميرتا برهى أي حسود كين رنجيست كه از مشقت ان جز بمرك نتوان رست

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت: ما طول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وفي بعض الآثار أن في السماء الخامسة ملكاً يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس فيقول: قف فأنا ملك الحسد اضربوا به وجه صاحبه فإنه حاسد. وقيل: من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت وأنشدوا:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فالحسد من الأخلاق المذمومة للنفس فلا بد من إزالته عنها بكثرة التوحيد والإذكار ورؤية الآثار من الله الجبار فإن تباين مقامات أفراد الإنسان في العلم والعمل والخلق وسائر الصفات الفاضلة رحمة لهم ولم يكن ذلك إلا بتقدير العزيز العليم في الأزل فالحاسد يسفه الحق سبحانه وأنه أنعم على من لا يستحق تعالى الله عما يقول الظالمون وقد ذم الله الحاسدين في كتابه قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤] وأما الغبطة فهي محمودة نسأل الله أن يحلينا بالصفات الشريفة والأخلاق اللطيفة ويخلينا من الرذائل النفسية آمين يا رب العالمين.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿**ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار**﴾ يقال: أمنته بكذا فالباء للالصاق بالأمانة فإن من ائتمن على شيء صار ذلك الشيء في معنى الملصق به لقربه به منه واتصاله بحفظه والمراد بالقنطار هٰهنا العدد الكثير ﴿**يؤده إليك**﴾ من غير جحد ونقص كعبد الله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهبا فأداها إليه فأهل الأمانة من أهل الكتاب هم الذين أسلموا ﴿**ومنهم من إن تأمنه بدينار**﴾ والمراد بالدينار هٰهنا العدد القليل ﴿**لا يؤده إليك**﴾ وهو كعب بن الأشرف استودعه رجل من قريش ديناراً فلم يؤده وجحده فذمه تعالى فأهل الخيانة منهم هم الذين بقوا على اليهودية والنصرانية والمعنى أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن في الشيء القليل فإنه يخون ﴿**إلا ما دمت عليه قائماً**﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال والأوقات أي لا يؤده إليك في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا في حال دوام قيامك أو في وقت قيامك على

رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي وإقامة البينة **﴿ذلك﴾** أي تركهم أداء الحقوق **﴿بأنهم﴾** أي بسبب أنهم **﴿قالوا ليس علينا في الأميين﴾** أي في شأن من ليس من أهل الكتاب **﴿سبيل﴾** أي عتاب ومؤاخذة ونفي السبيل نفي المطالبة فإن المطالب لا يتمكن من المطالبة إلا إذا وجد السبيل إلى المطلوب. والأمي منسوب إلى الأم وسمي النبي عليه السلام أمياً لأنه كان لا يكتب وذلك لأن الأم أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصل حاله في أن لا يكتب. وقيل لأنه عليه السلام نسب إلى مكة وهي أم القرى **﴿ويقولون على الله الكذب﴾** بادعائهم أن ذلك في كتابهم **﴿وهم يعلمون﴾** أنهم كاذبون مفترون على الله وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل في التوراة في حقهم حرمة فقد كذبوا في ذلك على الله فإن أداء الأمانة واجب في الأديان كلها وحبس مال الغير والإضرار به والخيانة إليه حرام **﴿بلى﴾** إثبات لما نفوه أي بلى عليهم في الأميين سبيل **﴿من أوفى بعهده﴾** الضمير راجع إلى من أي من أتم بعهد الوافي أو بعهد الله الذي عهده إليهم في التوراة وأخذ ميثاقهم عليه من الإيمان بمحمد وأداء الأمانة **﴿واتقى﴾** أي الشرك والخيانة وجواب الشرط وهو من قوله **﴿فإن الله يحب المتقين﴾** عن الغدر والخيانة ونقض العهد أي فإن الله يحبه فقام عموم المتقين مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى من يعني التقوى تعم وفاء ما عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمد عليه السلام وبما جاء به مما يتعلق بتكميل القوة النظرية والعملية. ودلت الآية على تعظيم أمر الوفاء بالعهد وذلك لأن الطاعات مقصورة على أمرين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً إذ ذلك سبب لمنفعة الخلق فهو شفقة على خلق الله ولما أمر الله به كان الوفاء به تعظيماً لأمر الله قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن»، أي: جعل أميناً ووضع عنده أمانة «خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر»، أي: ترك الوفاء «وإذا خاصم فجر» أي مال عن الحق. قال صاحب «التحفة» وليس الغرض أن آية المنافق محصورة فيها بل كل من أبطن خلاف ما أظهر فهو من المنافقين فصدور العدد من خير الأنام يكون باعتبار اقتضاء المقام والوفاء بالعهد كما يمكن أن يكون في حق الغير يمكن أيضاً في حق النفس لأن الوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات لأنه عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب. فعلى العاقل أن يوفي بعهده في السراء والضراء ويجتهد في محافظته.

ـ حكي ـ أن شاباً عقد مع الله عقداً أن لا ينظر إلى شيء من مستحسنات الدنيا فمر يوماً بسوق فرأى منطقة مرصعة بالدر والجوهر فنظر إليها فأعجبته ثم مضى عنها وقد نظر إليه صاحبها فلما ذهب عنه افتقدها فلم يجدها فوثب مسرعاً حتى تعلق بالشاب وقال يا عيار أنت سارق منطقتي فحمله إلى السلطان فلما نظر إليه قال: ليس هذا من أهل السرقات فقال: بل هو سارق منطقتي وصفتها كيت كيت فأمر بتفتيشه فوجدوها على وسطه فقال له السلطان يا فتى أما تستحيي تلبس لباس الأخيار وتعمل عمل الفجار؟ فنظر الفتى إلى المنطقة فقال مولاي: الإقالة الإقالة الهي لا أعود إلى مثلها فأمر السلطان أن يضرب فجرد ليضربوه فإذا هم بصوت يسمع ولا يرى يقول: دعوه ولا تضربوه إنما أردنا تأديبه فوثب السلطان إلى الفتى وقبله بين عينيه ثم قال: أخبرني عن قصتك فأخبره فتعجب من ذلك ثم قرأ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] فقال صاحب المنطقة: سألتك بالله إلا ما قبلتها مني واجعلني في حل فقال: إليك

عني ليس هذا من صنعتك إنما الصنع لصاحب الصنع ولا مؤثر في الوجود غير الحق وليس في الدار غيره ديار.

چه خوش كفت بهلول فر خنده خوى چو بكذشت بر عارفى جنك جوى
كر اين مدعى دوست بشناختى به پيكار دشمن نپرداختى
كر از هستىء حق خبر داشتى همه خلق را نيست پنداشتى

فإذا وقفت على هذا الخبر فقم في تربية نفسك إلى أن تصل إلى الهوية المطلقة مميطاً لثام الإثنينية مشاهداً وجود الحق في كل شيء رزقنا الله وإياكم مشاهدته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿إن الذين يشترون﴾ أي يستبدلون ويأخذون ﴿بعهد الله﴾ أي بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول عليه السلام والوفاء بالأمانات ﴿وإيمانهم﴾ وبما حلفوا به من قولهم لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثمنا قليلا﴾ هو حطام الدنيا ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لا خلاق﴾ لا نصيب ﴿لهم في الآخرة﴾ ولا في نعيمها ﴿ولا يكلمهم الله﴾ وهو كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ وهو مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ﴿ولا يزكيهم﴾ أي لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه مثل ثناء المزكي للشاهد. والتزكية من الله تعالى قد تكون على ألسنة الملائكة كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وقد تكون بغير واسطة، إما في الدنيا فكقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وإما في الآخرة فكقوله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] ﴿ولهم عذاب أليم﴾ على ما فعلوه من المعاصي. والآية نزلت في اليهود الذين حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وإن منهم﴾ أي من اليهود المحرفين ﴿لفريقا﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ﴿يلوون﴾ من اللي وهو الفتل ﴿ألسنتهم بالكتاب﴾ أي يفتلونها بقراءته فيميلونها من المنزل إلى المحرف ﴿لتحسبوه﴾ أي المحرف المدلول عليه بقوله يلوون ﴿من الكتاب﴾ أي من جملته ﴿وما هو من الكتاب﴾ حال من الضمير المنصوب أي والحال أنه ليس منه في نفس الأمر وفي اعتقادهم أيضاً ﴿ويقولون﴾ مع ما ذكر من اللي والتحريف على طريقة التصريح لا بالتوراة والتعريض ﴿هو﴾ أي المحرف ﴿من عند الله﴾ أي منزل من عند الله ﴿وما هو من عند الله﴾ أي: والحال أنه ليس من عنده تعالى في اعتقادهم أيضاً ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله تعالى والتعمد فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب.

والإشارة في الآيتين ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله**﴾ الذي عاهدهم الله به يوم الميثاق في التوحيد وطلب الوحدة ﴿**وأيمانهم**﴾ التي يحلفون بها هٰهنا ﴿**ثمناً قليلاً**﴾ من متاع الدنيا وزخارفها مما يلائم الحواس الخمس والصفات النفسانية ﴿**أولئك لا خلاق لهم في الآخرة**﴾ الروحانية من نسيم روائح الأخلاق الربانية ﴿**ولا يكلمهم الله**﴾ تقريباً وتكريماً وتفهيماً ﴿**ولا ينظر إليهم يوم القيامة**﴾ بنظر العناية والرحمة فيرحمهم ويزكيهم عن الصفات التي بها يستحقون دركات جهنم ﴿**ولا يزكيهم**﴾ عن الصفات الذميمة التي هي وقود النار بالنار إلى الأبد ولا يتخلصون منها أبداً ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ فيما لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم.

﴿**وإن منهم**﴾ أي من مدعي أهل المعرفة ﴿**لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب**﴾ أي بكلمات أهل المعرفة ﴿**لتحسبوه**﴾ من المعرفة ﴿**وما هو من الكتاب**﴾ الذي كتب الله في قلوب العارفين ﴿**ويقولون هو من عند الله**﴾ يعني من العلم اللدني ﴿**وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب**﴾ بإظهار الدعاوي عند فقدان المعاني ﴿**وهم يعلمون**﴾ ولا يعلمون أنهم يقولون ما لا يفعلون، قال السعدي قدس سره:

كرا جامه پاكست وسيرت پليد در دوزخش را نبايد كليد

يعني يدخل جهنم من قبل أن يحاسب على ما فعله لأن مآله إلى النار والمحاسبة وإن كانت نوعاً من التعذيب إلا أن عذاب جهنم أشد منها.

اكر مردى از مردىء خود مكوى نه هر شهسوارى پدر برد كوى

يعني كل عابد لا يخلص إيمانه في عاقبته بل من المتعيشين بالصلاح من يموت على الطلاح والعياذ بالله:

كسى سر بزركى نباشد بچيز كدو سر بزركست وبى مغز نيز
ميفر ازكردن بدستار وريش كه دستار پنبه است وسبلت حشيش

أي النبات اليابس. فيا أرباب الدعاوي أين المعاني. ويا أرباب المعرفة أين المحبة. ويا أرباب المحبة أين الطاعة.

- روي - أن رسول الله ﷺ رأى ليلة المعراج نساء بيد كل واحدة منهن مقراض تقرض صدرها وتقطعه قطعة قطعة فسأل جبريل عليه السلام عنهن فقال: «هن اللاتي ولدن أولاداً من الزنى مع وجود أزواجهن وأولادهن» قال الشيخ الصفي قدس سره: إن الذين يدعون المعرفة وتمكنهم في مقام الإرشاد ويراؤون جلباً لحطام الدنيا عذابهم أشد من عذاب هؤلاء النساء سبعين مرة فمن جعل القرآن وسيلة لجلب زخارف الدنيا أولى منه من يجلبها بالمعازف وآلات اللهو مثلاً إذا كان في محل رفيع حيث لا تصل إليه اليد وليس هناك غير مصحف وطنبور فالأولى أن يجعل الطنبور تحت القدم للوصول دون المصحف وهكذا فيما نحن فيه، قيل:

دين فروشى مايه كردن هست خسران مبين
سودمند آنكس كه دنيا صرف كرد ودين خربد

فلو نظرت إلى شيوخ الزمان وجدت أكثرهم مدعين ما لم يتحققوا به يضلون الناس بأكاذيب ويروون أساليب ليس فيها أثر من المعاني والحقيقة. فعلى العاقل أن لا يغتر بظاهرهم ولا يخرج عن المنهاج مقتفياً بآثارهم بل يجتهد إلى أن يميز بين الحق والباطل والعارف

والجاهل وماذا بعد الحق إلا الضلال عصمنا الله وإياكم من الزيغ وسيآت الأعمال آمين يا متعال.

﴿**ما كان لبشر**﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه رباً حاشاه عليه السلام. وجاء رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله» أي ما صح وما استقام لأحد سواء كان بشراً أولا وإنما قيل لبشر إشعاراً بعلة الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم ﴿**أن يؤتيه الله الكتاب**﴾ الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهي عن الإشراك كالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿**والحكم**﴾ أي الفهم والعلم ﴿**والنبوة**﴾ وإيتاء الكتاب يستلزم إيتاء الحكم وهو الحكمة المعبر عنها بإتقان العلم والعمل فلذلك قدم الكتاب على الحكم لأن المراد بالحكم هو العلم بالشريعة وفهم مقاصد الكتاب وأحكامه فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] يعني العلم والفهم. فالكتاب السماوي ينزل أولاً ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وأسراره وبعدما حصل فهم الكتاب يبلغ النبي ذلك المفهوم إلى الخلق وهو النبوة والإخبار فما أحسن هذا الترتيب ﴿**ثم يقول**﴾ ذلك البشر بعدما شرفه تعالى بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شؤونه العالية ﴿**للناس كونوا عباداً**﴾ كائنين ﴿**لي من دون الله**﴾ من متعلق بلفظ عباداً لما فيه من معنى الفعل ﴿**ولكن**﴾ يقول لهم ﴿**كونوا ربانيين**﴾ الرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحياني إذا وصف بطول اللحية ففيه الدلالة على الكمال في هذه الصفة وإذا نسب إلى اللحية من غير قصد المبالغة يقال لحوي فالرباني هو الكامل في العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله تعالى ودينه كما يقال رجل إلَهي إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته ﴿**بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ أي بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته أي قراءته وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً**﴾ بالنصب عطف على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله تعالى: ﴿**ما كان لبشر**﴾ أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كما قال قريش والصابئون الملائكة بنات الله واليهود والنصارى عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿**أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**﴾ إنكار لما نفى عن البشر والضمير له يعني أيأمركم بعبادة الملائكة والسجدة للأنبياء بعد كونكم مخلصين بالتوحيد لله فإنه لو أمركم بذلك لكفر ونزع منه النبوة والإيمان ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس وأفضلهم فيمنعه ذلك من ادعاء الألوهية فإنه تعالى لا يؤتي الوحي والكتاب إلا نفوساً طاهرة وأرواحاً طيبة فلا يجمع بشر بين النبوة وبين دعاء الخلق إلى عبادة غير الله.

واعلم أن العلم والدراسة جعلا سبباً للربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله وكفى هو دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكدّ روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل

فكان مثل من غرس شجرة حسناء تؤنقه أي تعجبه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها فالعمل بغير العلم والعلم بغير العمل لا يثبت كل منهما بانفراده النسبة إلى الرب فعلم أن العالم الذي لا يعمل بعلمه منقطع النسبة بينه وبين ربه كالعامل الجاهل فكل منهما ليس من الله في شيء حيث لم تثبت النسبة إلا للتمسك بالعمل المبني على العلم. قال علي رضي الله عنه قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك لأن العالم ينفر الناس عن العلم بتهتكه والجاهل يرغب الناس في الجهل بتنسكه قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع» فعلى المعلم والمتعلم أن يطلب بعلمه مرضاة الله وبعمله الربانية فمن اشتغل بالتعليم والتعلم لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله.

والإشارة أن من دأب أهل الحقيقة تربية الأتباع والمريدين ليكونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الربانية العاملين بما يعلمون من الكتاب وبما كانوا يدرسون من العلوم لا يقنعون على دراستها ولا يفترون بمقالات أخذوها من أفواه القوم وبعض مدعي هذا الشأن الذين غلبت عليهم أهواؤهم وصفات بشريتهم يدعون الشيخوخة من رعونة النفس قبل أوانها ويخدعون الخلق بأنواع الحيل ويستتبعون بعض الجهلة ويصيدونهم بكلمات أخذوها من الأفواه ويمكرون ببعض أهل الصدق من الطلبة ويقطعون عليهم طريق الحق بأن يمنعوهم من صحبة أهل الحق ومشايخ الطريقة ويأمروهم بالتسليم والرضى فيما يعاملونهم ولا يعرفون غيرهم فيعبدونهم من دون الله كما هو دأب أكثر مشايخ زماننا هذا فإنه ليس من دأب من يؤتى الكتاب والحكم والنبوة، قال السعدي في ذم أمثال هؤلاء المشايخ:

دمادم بشويند چون كربه روى ... طمع كرده در صيد موشان كوى
رياضت كش ازبهر نام وغرور ... كه طبل تهى را رود بانك دور

يعني: يصل صوت الطبل إلى البعيد ويسمع من البعيد لكونه خالياً فكذلك أمثالهم يشتهر ذكرهم بين الناس وليس ذلك إلا لكونهم خالين عن الحقيقة إذ المرء الصادق في طلبه والواصل إلى ربه يحب الخمول والنفرة عن الخلق فشأنه التجنب من كل شيء سوى الله دون تشهير نفسه وجلب المال من أيدي الناس بل من الناس من يرغب عنه وهو مرغوب:

كسى راكه نزديك ظنت بداوست ... چه دانى كه صاحب ولايت خود اوست
در معرفت بر كسانيست باز ... كه درهاست برروى ايشان فرار

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ قال قوم إن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة أن يصدق بعضهم بعضاً وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بالإيمان به وبنصرته إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ومن عيسى أن يؤمن بمحمد عليه السلام وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم بذلك أولى وأحرى أي اذكر يا محمد وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء وأممهم **﴿لما آتيتكم﴾** اللام موطئة لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف وما مبتدأ موصولة وآتيتكم صلتها والعائد محذوف

تقديره للذي آتيناكموه ﴿**من كتاب وحكمة**﴾ وهي بيان أحكام الحلال والحرام والحدود حال من الموصول ﴿**ثم جاءكم رسول**﴾ عطف على الصلة والمعطوف على الصلة صلة فلا بد من الرابط فالتقدير رسول به ﴿**مصدق لما معكم**﴾ من الكتاب ﴿**لتؤمنن به ولتنصرنه**﴾ جواب قسم مقدر وهذا القسم المقدر وجوابه خبر للمبتدأ والله لتصدقنه برسالته وتنصرنه على أعدائه لإظهار دين الحق. فإن قيل: ما وجه قوله تعالى: ﴿**ثم جاءكم رسول**﴾ والرسول لا يجيء إلى النبيين وإنما يجيء إلى الأمم؟ والجواب إن حملنا قوله: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين**﴾ على أخذ ميثاق أممهم فقد اندفع الإشكال وإن حملناه على أخذ ميثاق النبيين أنفسهم كان معنى قوله: ﴿**ثم جاءكم**﴾ أي جاء في زمانكم ﴿**قال**﴾ أي الله تعالى بعدما أخذ الميثاق ﴿**أأقررتم**﴾ أي بالإيمان والنصر له والاستفهام للتقرير والتأكيد عليهم لاستحالة حقيقة الاستفهام في حقه تعالى ﴿**وأخذتم على ذلكم**﴾ الميثاق ﴿**إصري**﴾ أي عقدي الذي عقدته عليكم. والإصر الثقل الذي يلحق الإنسان لأجل ما يلازمه من العمل والإصر هٰهنا العهد الثقيل لأنه ثقل على صاحبه من حيث إنه يمنع عن مخالفته إياه ﴿**قالوا أقررنا**﴾ بذلك واكتفى به عن ذكر أخذهم الإصر ﴿**قال**﴾ سبحانه وتعالى ﴿**فاشهدوا**﴾ أيها الأنبياء والأمم بإقرار بعضكم على بعض ﴿**وأنا معكم من الشاهدين**﴾ أي وأنا أيضاً شاهد على إقراركم ذلك مصاحب لكم وإدخال مع علي المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة والمقصود منه التأكيد والتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض.

﴿**فمن تولى**﴾ أي أعرض عما ذكر ﴿**بعد ذلك**﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة ﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزاً عن الحد. قال في «التيسير» والتولي لا يقع من الأنبياء ولا يوصفون بالفسق لكن له وجهان: أحدهما أن الميثاق كان على الأنبياء وأممهم على التبعية والتولي من الأمم خاصة، والثاني أن العصمة لا تزيل المحنة انتهى وهذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد عليه السلام في النبوة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر فأعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين ديناً غير دين الله ومعبوداً سوى الله بقوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿**أفغير دين الله يبغون**﴾ عطف على مقدر أي أيتولون فيبغون غير دين الله ويطلبونه ﴿**وله أسلم**﴾ أي لله أخلص وانقاد ﴿**من في السموات والأرض**﴾ أي أهلهما ﴿**طوعاً**﴾ وهم الموحدون ﴿**وكرهاً**﴾ أي بإباء وهم الجاهدون بما فيهم من آثار الصنع ودلائل الحدوث وتصريفهم كيف يشاء إلى صحة ومرض وغنى وفقر وسرور وحزن وسائر الأحوال فلا يمكنهم دفع قضائه وقدره ﴿**وإليه يرجعون**﴾ أي من فيهما والمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه من حيث لا يملك الضر والنفع سواه وهذا وعيد عظيم لمن خالف الدين الحق. فعلى العاقل أن يطيع ربه ولا يعصيه بنقض ما عهد إليه يوم الميثاق. فعهد الله مع الأنبياء والأولياء والمؤمنين التوحيد وإقامة الدين وعدم التفرق فيه وتصديق بعضهم بعضاً ودعوة الخلق

إلى الطاعة وتخصيص العبادة بالله فالله تعالى لا يطلب من العبد إلا الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية قال الشيخ الشاذلي قدس سره: متى رزقك الله الطاعة والفناء به عنها فقد أسبغ عليك نعمة ظاهرة، إذ أراح ظاهرك من مخالفة أمره. وباطنة إذ رزقك الاستسلام لقهره، وهذا هو مطلب الحق منك. قيل لابراهيم بن أدهم قدس سره: لو جلست لنا في المسجد حتى نسمع منك شيئاً فقال: إني مشغول عنكم بأربعة أشياء فلو تفرغت منها لجلست معكم قيل وما هي يا أبا إسحاق؟ قال: أولها أني تذكرت حين أخذ الله الميثاق على آدم فقال هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فلم أدر من أي الفريقين كنت، الثاني أني تفكرت أن الولد إذا قضى الله سبحانه بخلقه في بطن أمه ونفخ فيه الروح فيقول الملك الموكل به يا رب أشقي أم سعيد؟ فلم أدر كيف خرج جوابي في ذلك الوقت، الثالث حين ينزل ملك الموت فإذا أراد أن يقبض الروح فيقول: يا رب أقبضها مع الإسلام أو مع الكفر فلا أدري كيف يخرج جوابي في ذلك الوقت، الرابع تفكرت في قوله: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: ٥٩] فلا أدري من أي الفريقين أكون؟ ففي هذا شغل شغلني عن الجلوس لكم والحديث معكم. ففي هذا الإشارة إلى أن العبد مع كونه مستسلماً لقضاء الله لا بد وأن يراعي وظيفة التكليف إذ الخير أو الشر مقضي في حقه ولكن الرسول ﷺ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» فليجاهد العاقل في تزكية نفسه أولاً ثم الوصية إلى عباد الله ولا يكلف المرء إلا بقدر وسعه والناس في المراتب مختلفون فطوبى لمن وصل إلى أعلى المطالب:

بقدر حوصله خويش دانه چيند مرغ ... بصعوه نتوان داد طعمه شبهاز

وقيل للشيخ الصفي قدس سره: إذا قطع الطالب المنازل فهل يبقى بعد ذلك مرتبة لم يصل إليها بعد؟ قال: بلى يبقى علم أنه هل كان مقبولاً للرب تعالى أو لا، وفي القشيري ما حاصله أن الولي في الحال يجوز أن يتغير حاله في المآل ويجوز أن يكون من جملة كرامات الولي أن يعلم أنه مأمون العاقبة عصمنا الله وإياكم بحسن الخاتمة.

همه عالم همي كويند هر آن ... كه يا رب عاقبت محمود كردان

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝٨٤ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾

﴿قل آمنا بالله﴾ أمر للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير في آمنا لإظهار جلالة قدره ﷺ ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك **﴿وما أنزل علينا﴾** وهو القرآن والنزول كما يعدى بإلى لانتهائه إلى الرسول يعدى بعلى لأنه من فوق **﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾** من الصحف. والأسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم عليه السلام **﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾** من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى **﴿والنبيون﴾** أي وما أوتي

النبيون من المذكورين وغيرهم **﴿من ربهم﴾** من الكتب والمعجزات **﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾** كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة كل منهم وبحقية ما أنزل إليهم في زمانهم. قال الإمام في تفسيره: اختلف العلماء في كيفية الإيمان بالأنبياء المتقدمين الذين نسخت شرائعهم وحقيقة الخلاف أن شرعه لما صار منسوخاً فهل تصير نبوته منسوخة؟ فمن قال: إن نبوته منسوخة قال: نؤمن بأنهم كانوا أنبياء ورسلاً ولا نؤمن بأنهم أنبياء ورسل في الحال ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة قال: نؤمن بأنهم أنبياء ورسل في الحال فتنبه لهذا الموضع **﴿ونحن له مسلمون﴾** أي منقادون على أن يكون الإسلام بمعنى الاستسلام وهو الانقياد أو مخلصون له تعالى أنفسنا لا نجعل له شريكاً فيها على أن يكون من السلامة. وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمعزل عن ذلك.

﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحاً والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين **﴿ديناً﴾** ينتحل إليه وهو نصب على أنه مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالاً **﴿فلن يقبل﴾** ذلك **﴿منه﴾** أبداً بل يرد أشد رد وأقبحه **﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** أي الواقعين في الخسران بحرمان الثواب وحصول العقاب ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقرير ذلك الدين الباطل. والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها.

واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً لقوله تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾** والجواب أنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره.

﴿كيف يهدي الله﴾ إلى الحق **﴿قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾** قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعدما آمنوا ولحقوا بمكة وهو استبعاد لأن يهدي قوماً هم معاندون للحق مكابرون فيه غير خاضعين له بأن يخلق فيهم الاهتداء ويوفقهم لاكتساب الاهتداء وإنما يخلق الاهتداء ويوفق على كسب ذلك ويقدرهم عليه إذا كانوا خاضعين للحق راغبين فيه فالمراد من الهداية خلق الاهتداء وقد جرت سنة الله في دار التكليف على أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإن الله تعالى يخلقه عقب قصد العبد فكأنه تعالى قال: كيف يخلق فيهم المعرفة والاهتداء وهم قصدوا تحصيل الكفر وأرادوه **﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾** أي صادق فيما يقول **﴿وجاءهم البينات﴾** أي الشاهد من القرآن على صدقه، قوله: وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية فإنه في قوة أن يقال بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان ضرورة أن المعطوف مغاير للمعطوف عليه **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** أي الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فكيف من جاء الحق وعرفه ثم أعرض عنه. فإن قيل ظاهر الآية يقتضي أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالماً لا يهديه الله وقد رأينا كثيراً من المرتدين أسلموا وهداهم وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم، فالجواب أن معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على الرغبة في الكفر وفي الثبات عليه ولا يقبلون على الإسلام وأما إذا تحروا إصابة الحق والاهتداء بالأدلة المنصوبة فحينئذٍ يهديهم الله بخلق الاهتداء فيهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿أولئك﴾ المذكورون باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة ﴿جزاؤهم أن عليهم لعنة الله﴾ وهو إبعاده من الجنة وإنزال العقوبة والعذاب ﴿والملائكة﴾ ولعنهم بالقول كالناس ﴿والناس أجمعين﴾ والمراد بالناس المؤمنون لأنه لو أريد به جميع الناس لزم أن يلعن كل واحد منهم جميع من يوافقهم ويخالفهم ولا وجه لأن يلعن الإنسان من يوافقه ويحتمل أن يراد به الجميع بناء على أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا كافر فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافراً فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك.

﴿خالدين فيها﴾ حال من الضمير في عليهم أي في اللعنة والعقوبة ومعنى الخلود في اللعن أنهم يوم القيامة لا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار ولا يخلو شيء من أحوالهم من اللعنة ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ الإنظار التأخير أي لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت فإن العذاب الملحق بالكفار مضرة خالصة من شوائب المنافع دائمة غير منقطعة نعوذ بالله من ذلك وما يؤدي إليه.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ أي من بعد الارتداد ﴿وأصلحوا﴾ أي ما أفسدوا ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وعطف قوله ﴿وأصلحوا﴾ على قوله ﴿إلا الذين تابوا﴾ يدل على أن التوبة وحدها وهي الندم على ما مضى من الارتداد والعزم على تركه في المستقبل لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح أي وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات ومع الخلق بالمعاملات وهذا الندم والتوبة إنما يحصل لمن لم ترسخ فيه بعد هيئة استيلاء النفس الأمارة على قلبه ولم تصر رينا وبقي فيه من وراء حجاب صفات النفس مسكة من نور استعداده فيتداركه الله برحمته وتوفيقه فيندم ويواظب على الرياضات من باب التزكية والتصفية.

- يحكى - عن السري السقطي؟ قدس سره أنه قال: قلت يوماً عجبت من ضعيف عصى قوياً فلما كان الغداة وصليت الغداة إذا أنا بشاب قد وافى وخلفه ركبان على دواب بين يديه غلمان وهو راكب على دابة فنزل وقال: أيكم السري السقطي فأومأ جلسائي إلي فسلم علي وجلس وقال: سمعتك تقول عجبت من ضعيف عصى قوياً فما أردت به؟ فقلت: ما ضعيف أضعف من ابن آدم ولا قوي أقوى من الله تعالى وقد تعرض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله قال: فبكى ثم قال: يا سري هل يقبل ربك غريقاً مثلي؟ قلت: ومن ينقذ الغرقى إلا الله تعالى قال: يا سري إن علي مظالم كثيرة كيف أصنع؟ قال: إذا صححت الانقطاع إلى الله أرضى عنك الخصوم بلغنا عن النبي ﷺ «إذا كان يوم القيامة واجتمع الخصوم على ولي الله تقول الملائكة لهم: لا تروّعوا ولي الله فإن الحق اليوم على الله فيهب الله لهم مقامات عالية بدل حقوقهم فيتجاوزون عن الولي» قال: فبكى ثم قال: صف لي الطريق إلى الله فقلت: إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتصل بخدمة الخالق، فعلى السالك أن يتوب من جميع الآثام ولا يشغل سره سوى مشاهدة الله العلام.

بهشت تن اساني آنكه خوري كه بردوزخ نيستي بكذري

يعني لا تصل إلى الحضور الباقي والحياة الأبدية إلا بإفناء وجودك في وجود الحق وتبديل الأخلاق الذميمة بالأخلاق الحميدة فإذا جاوزت هذا الصراط الأدق وصلت إلى الجناب المطلق. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» أي لا تركن إليها ولا تتخذها وطناً ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله «وعد نفسك من أصحاب القبور» وفيه إشارة إلى الفناء عن إضافة الوجود إلى نفسه بل الوجود كله لله تعالى فالبدن للروح بمنزلة القبر للميت فكما أن الميت في قبره يسلم لأمر مولاه ولا يتعرض إلى شيء أصلاً كذلك ينبغي أن لا يتعرض العبد لشيء من الآفات البدنية والقلبية بل يدور حيث أوقفه الله من الفطرة الأصلية والشهود التام وقل من سلم من هذه الآفات إلا أن العبد بالتوبة يتدارك ما فات فإياك أن ترخص لنفسك في فعل شر فإذا قد فتحت بابه فأول الشر الخطرة كما أن أول السيل القطرة قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يشرفون المسرفين ويستخفون بالعابدين يعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض يسعون فيما يدرك من القدر المحتوم والرزق المقسوم والأجل المكتوب ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعي من الأجر الموفور والسعي المشكور والتجارة التي لا تبور» فإذا وقفت على هذا جعلت سعيك للآخرة لا للدنيا بل لم تطلب من الله إلا الله رزقنا الله وإياكم ذلك آمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿إن الذين﴾ كاليهود **﴿كفروا﴾** بعيسى والإنجيل **﴿بعد إيمانهم﴾** بموسى والتوراة **﴿ثم ازدادوا كفراً﴾** حيث كفروا بمحمد عليه السلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار عليه والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق **﴿لن تقبل توبتهم﴾** لأنهم لا يتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك فكني عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وازديادهم كفراً وذلك لم تدخل فيه الفاء **﴿وأولئك هم الضالون﴾** على سبيل الكمال فهو من قبيل حصر الكمال وإلا فكل كافر ضال سواء كفر بعد الإيمان أو كان كافراً في الأصل ومن جملة كمالهم في الضلال ثباتهم عليه وعدم كون الاهتداء متوقعاً منهم.

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل﴾ لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية دخلت الفاء هٰهنا إيذاناً بسببية المبتدأ لخبره **﴿من أحدهم﴾** فدية **﴿ملء الأرض ذهباً﴾** تمييز أي ما يملأون من شرقها إلى غربها **﴿ولو افتدى به﴾** أي بملء الأرض ذهباً. فإن قيل نفي قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدي به وهو لا يملك فيه نقيراً ولا قطميراً فضلاً عن أن يملك ملء الأرض ذهباً. قلنا: الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة

والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغاً إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى والمقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ أي مؤلم ﴿**وما لهم من ناصرين**﴾ في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أي ليس لواحد منهم ناصر واحد. قال رسول الله ﷺ: «يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفدي به؟ فيقول: نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي». قال الإمام: اعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام: أحدها الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي ذكره الله في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور: ٥]، وثانيها الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره الله تعالى في الآية المتقدمة وقال: ﴿**لن تقبل توبتهم**﴾، وثالثها الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو المذكور في هذه الآية ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار**﴾ الآية انتهى وهم الذين رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم وتمكنت وصارت ريناً وتناهوا في الشر والغي وتمادوا في العناد والبغي فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض إذ لا يقبل هناك إلا الأمور النورانية الباقية لأن الآخرة هي عالم النور والبقاء فلا وقع ولا خطر للأمور الظلمانية الفانية فيها وهل كان سبب كفرهم واحتجابهم إلا محبة هذه العوائق الفانية فكيف تكون فداءهم وسبب نجاتهم وقربهم وقبولهم وهي بعينها سبب هلاكهم وبعدهم وخسرانهم وحرمانهم فإياك من أوصاف الكفر وهي حب الدنيا واتباع الهوى والإقبال على شهوات النفس والإعراض عن الحق.

تراشهوت وكبر وحرص وحسد ... چوخون درركند وچوجان در جسد

يعني كما أن الدم ساري في العروق وجاري فيها وكذا الروح في الجسد فكذلك هذه الصفات الذميمة محيطة بك.

كراين دشمنان تقويت يافتند ... سر ازحكم ورأى توبر تافتند

هوا وهوس را نماند ستيز ... چوبينند سرپنچة عقل تيز

يعني إذا كان المرء تابعاً للشرع وقضية العقل يكون غالباً على هواه فلا تجادله الصفات السبعية الشيطانية قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة». قال ذو النون المصري مفتاح العبادة الفكرة وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ومخالفتها ترك شهواتها. قال جعفر بن نصير دفع إلي الجنيد درهماً فقال: اشتر به التين الوزيري فاشتريته فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها وبكى وقال: احمله فقلت له في ذلك فقال: هتف في قلبي أما تستحي شهوة تركتها من أجله تعالى ثم تعود إليها. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من أحسن في ليله كوفي في نهاره ومن أحسن في نهاره كوفي في ليله، ومن صدق في ترك شهوة كفى مؤونتها والله أكرم من أن يعذب قلباً ترك شهوة لأجله.

واعلم أن النفس عين لطيفة هي معدن الأخلاق الذميمة مودعة بين جنبي الإنسان أي جميع جسده وهي أمارة بالسوء وهي مجبولة على صد الروحانية المخلوقة من الملكوت الأعلى

فإنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر وهي مخلوقة من الملكوت السفلي كالشياطين وهم لا يأمرون إلا بالشر ومن طبعهم التمرد والإباء والاستكبار ولهذا تأبى النفس من قبول الموعظة وتظهر التمرد كما قال الشيخ في قصيدة البردة:

فـإن أمـارتـي بـالـسـوء مـا اتـعـظـت   مـن جـهـلـهـا بـنـذير الـشـيـب والـهـرم

يعني أن النفس الأمارة بالسوء والعيب ما قبلت الوعظ من نذير الشيب فتمادت في غواية الجهل بعد الهرم وما كبحت عنان جماح الشهوة بأيدي الندم وقد خلق الله النفس على صورة جهنم وخلق بحسب كل دركة فيها صفة لها وهي باب من جهنم يدخل فيها من هذا الباب إلى دركة من دركاتها السبع وهي سبع صفات الكبر والحرص والشهوة والحسد والغضب والبخل والحقد فمن زكى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفلية ووصل إلى درجات الجنان العلوية كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] ومن لم يزك نفسه عن هذه الصفات بقي في دركات جهنم خائباً خاسراً كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠] عصمنا الله وإياكم من كيد النفس الأمارة وشر الشيطان وأصلح حالنا ما دامت الأرواح في الأبدان آمين يا مستعان.

ـ تم الجزء الثالث ـ

الجزء الرابع من الأجزاء الثلاثين

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلاً إذا أصابه أي لن تبلغوا أيها المؤمنون حقيقة البر الذي يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أو لن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته **﴿حتى تنفقوا﴾** أي في سبيل الله رغبة فيما عنده **﴿مما تحبون﴾** أي بعض ما تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم أو ما يعمها وغيرها من الأعمال والمهجة على أن المراد بالانفاق مطلق البذل. وفيه من الإيذان بعزة منال البر ما لا يخفى **﴿وما تنفقوا من شيء﴾** أي أي شيء تنفقوا طيب تحبونه أو خبيث تكرهونه فمحل الجار والمجرور النصب على التمييز **﴿فإن الله به عليم﴾** تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أي فمجازيكم بحسبه جيداً كان أو رديئاً فإنه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه علماً كاملاً بحيث لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته. وفيه من الترغيب في اتفاق الجيد والتحذير من إنفاق الرديء ما لا يخفى، فالوصول إلى المطلوب لا يحصل إلا بالانفاق المحبوب ولذلك كان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله ذخيرة ليوم يحتاجون إليه والإنسان لا ينفق محبوبه إلا إذا أيقن أنه يتوصل بذلك إلى وجدان محبوب أشرف من الأول فالإنسان لا ينفق محبوبه في الدنيا إلا إذا تيقن بوجود الصانع العالم القادر وتيقن بالبعث والحساب والجزاء وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ولزم منه أن الإنسان لا يمكنه إنفاق محبوبه في الدنيا إلا إذا كان مستجمعاً لجميع الخصال المحمودة في الدين فلا تقتضي الآية أن من أنفق ما أحب وصل إلى الثواب العظيم وإن لم يأت بسائر الطاعات.

ـ روي ـ أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بيرحاء وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد النبي ﷺ فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رابح أو رائج فإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقسمها في أقاربه» وفيه دلالة على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل.

ـ وروي ـ عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كانت لزوجته جارية بارعة في الجمال وكان عمر راغباً فيها وكان قد طلبها منها مراراً فلم تعطه إياها. ثم لما ولي الخلافة زينتها وأرسلتها إليه فقالت: وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال: من أين ملكتها؟ قالت: جئت بها من بيت أبي عبد الملك ففتش عن تملكه إياها فقيل: إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفي أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوى شديداً فقال: أنت حرة لوجه الله فقيل: لِمَ يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال: لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى.

ـ يحكى ـ أن الربيع ضربه الفالج فكان السائل يقوم على بابه فيسأل فيقول الربيع: أطعميه السكر فإن الربيع يحب السكر يتأول قوله **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** وطال به

وجعه فاشتهى لحم دجاج فكف نفسه أربعين يوماً فأبت فقال لزوجته: قد اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يوماً فكففت نفسي رجاء أن تكف فأبت فقالت امرأته سبحان الله وأي شيء هذا تكف نفسك عنه وقد أحله الله تعالى لك؟ فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين فذبحتها وشوتها وخبزت له خبزاً وجعلت له أصباغاً ثم جاءت بالخوان فوضعته بين يديه فقام سائل على الباب فقال تصدقوا علي بارك الله فيكم فكف عن الأكل وقال لامرأته خذي هذا وادفعيه إليه فقالت له امرأته سبحان الله قال: افعلي ما آمرك به قالت: فاصنع ما هو خير له قال: وما هو؟ قالت نعطيه ثمن هذا وتأكل أنت شهوتك قال: قد أحسنت ائتني بثمنه فجاءت بثمنه فقال: ضعيه على هذا وخذيه وادفعيه جميعاً ففعلت.

باحساني آسوده كردن دلى ... به از الف ركعت بهر منزلى

وقيل في هذا المعنى:

دل بدست آوركه حج اكبر ست ... از هزاران كعبه يك دل بهترست

كعبه بنياد خليل آزرست ... دل نظر كاه جليل اكبرست

ويقال إذا كنت لاتصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك؟ قال القشيري: من أراد البر فلينفق بعض ما يحبه ومن أراد البار تعالى فلينفق جميع ما يحبه.

قال نجم الدين الكبري في قوله تعالى: ﴿فإن الله به عليم﴾ فبقدر ما تكونون له يكون لكم كما قال: «من كان لله كان الله له فإن الفراش ما نال من بر الشمع وهو شعلته حتى أنفق مما أحبه وهو نفسه».

قال القاشاني: كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبري مما سواه فمن أحب من دون الله شيئاً فقد حجب به عن الله وأشرك شركاً خفياً لتعلق محبته بغير الله:

تراهرچه مشغول دارد زدوست ... اكر راست خواهى دلارامت اوست

فلا يزول البعد ولا يحصل القرب إلا ببذل المال والمهجة وقطع محبة غير الله وإفناء النفس بالكلية عن صفاتها الرذيلة:

اكر يارى از خويشتن دم مزن ... كه شركست باياز وباخويشتن

﴿كل الطعام﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] الآية وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أنكر اليهود وغاظهم ذلك وبرأوا ساحتهم من الظلم وجحدوا ما نطق به القرآن وقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه تلك المطعومات وما هو إلا تحريم قديم كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده وهلم جرا حتى انتهى التحريم إلينا وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وما عدد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم فقيل: كل المطعومات أو كل أنواع الطعام والطعام المطلق البر والعرف يشهد لكل ما يطعم حتى الماء ﴿كان حلا لبني إسرائيل﴾ أي حلالاً لهم والمراد أكله إذ لا يوصف بنحو الحل والحرمة إلا أفعال المكلف لا الأعيان فشرب الخمر حرام بالذات ونفسها حرام بالعرض ﴿إلا ما حرم

إسرائيل على نفسه﴾ استثناء متصل من اسم كان أي كان كل المطعومات حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل أي يعقوب عليه السلام على نفسه وهو الإبل وألبانها.

- روي - أن يعقوب عليه السلام كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة فقال له: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ثم قال: أما إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولد لك وجعل الله لك بهذه الغمزة مخرجاً من ذلك الذبح ثم إن يعقوب عليه السلام لما قدم بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي قول الملك فأتاه الملك فقال: إنما غمزتك للمخرج وقد وفى نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك ثم إنه حين ابتلي بذلك المرض لقي من ذلك بلاء وشدة وكان لا ينام الليل من الوجع فحلف لئن شفاه الله لا يأكل أحب الطعام إليه فحرم لحوم الإبل وألبانها إما حمية الدين أو حمية النفس وتحريم الحلال على نفسه جائز للكل وفيه كفارة اليمين **﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾** متعلق بقوله كان حلا ولا ضير في توسيط الاستثناء بينهما المعنى أن المطعومات كانت حلاً لهم قبل نزول التوراة ثم حرمت بسبب بغيهم وظلمهم فكيف يكون ذلك حراماً على نوح وإبراهيم وغيرهما. وظاهر الآية يدل على أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه قد حرمه الله على بني إسرائيل وهو رد على اليهود في دعواهم البراءة من الظلم وتبكيت لهم في منع النسخ والطعن في دعوى الرسول ﷺ موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾** أمره عليه السلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم تحريم حادث مرتب على ظلمهم وبغيهم ويكلفهم إخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم **﴿إن كنتم صادقين﴾** فأتوا بالتوراة فاتلوها فإن صدقكم مما يدعوكم إلى ذلك البتة.

- روي - أنهم لم يجترئوا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفي ذلك من الحجة النيرة على صدق النبي ﷺ وجواز النسخ الذي يجحدونه ما لا يخفى.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ أي اختلق عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ما ذكر قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن تقدمهم من الأمم **﴿من بعد ذلك﴾** أي من بعدما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والإلزام **﴿فأولئك﴾** المصرون على الافتراء بعد أن ظهرت حقيقة الحال وضاقت عليهم حيلة المحاجة والجدال **﴿هم الظالمون﴾** المفرطون في الظلم والعدوان المبعدون فيهما.

﴿قل صدق الله﴾ أي ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾** أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم عليه السلام فإنكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون **﴿حنيفاً﴾** حال من إبراهيم أي مائلاً عن الأديان الزائغة كلها **﴿وما كان من المشركين﴾** أي في أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعاً والغرض بيان أن النبي عليه السلام على دين

إبراهيم في الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سواه سبحانه وتعالى.

قال نجم الدين في «التأويلات»: الإشارة في تحقيق الآيات أن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة أصناف: صنف منها الملك الروحاني العلوي اللطيف النوراني وجعل غذاءهم من جنسهم الذكر وخلقهم للعبادة، وصنف منها الحيوان الجسماني السفلي الكثيف الظلماني وجعل غذاءهم من جنسهم الطعام وخلقهم للعبرة والخدمة، وصنف منها الإنسان المركب من الملكي الروحاني والحيواني الجسماني وجعل غذاءهم من جنسهم لروحانيهم الذكر ولجسمانيهم الطعام وخلقهم للعبادة والمعرفة، فمنهم ظالم لنفسه وهو الذي غلبت حيوانيته على روحانيته فبالغ في غذاء جسمانيته وقصر في غذاء روحانيته حتى مات روحه واستولت حيوانيته أولئك كالأنعام بل هم أضل:

مـرودرپـي هـرچـه دل خـواهـدت ... كـه تـمـكـيـن تـن نـورجـان كـاهـدت
زدوران بـسـي نـامـرادى بـرى ... اكـرهـرچـه بـاشـد مـرادت خـورى
كـنـدمـردرا نـفـس أمـاره خـوار ... اكـرهـو شـمـنـدى عـزيـزش مـدار
دريـغ آدمـي زادة پـر مـحـل ... كـمـكـه بـاشـد چـوانـعـام بـل هـم أضـل

ومنهم مقتصد وهو الذي تساوت روحانيته وحيوانيته، فغذي كل واحدة منهما غذاءها، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، ومنهم سابق بالخيرات وهو الذي غلبت روحانيته على حيوانيته، فبالغ في غذاء روحانيته وهو الذكر. وقصر في غذاء روحانيته وهو الطعام حتى ماتت نفسه، واستوت قوى روحه، أولئك هم خير البرية، فكان كل الطعام حلالاً لهم كما كان حلالاً للحيوان، إلا ما حرم الإنسان السابق بالخيرات على نفسه بموت النفس وحياة القلب واستيلاء الروح ﴿من قبل﴾ أن ينزل عليه الوحي والإلهام، كما قيل المجاهدات تورث المشاهدات ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك﴾ بأن يهتدي إلى الحق من غير جهاد النفس ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ الذين يضعون الشيء في غير موضعه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] قل صدق الله فيما قال: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ وكانت ملته انفاق المال على الضيفان، وبذل الروح عند الامتحان وتسليم القربان، وهذه ملة الخلة ﴿وما كان من المشركين﴾ الذين يتخذون مع الله خليلاً آخر ويجعلون الشركة في الخلة.

الـرجـز بـحـق مـيـر ودجـاده آت ... در آتـش فـشـانـنـد سـجـاده ات

فالأولياء هم الذين يحبون الله، ومن يحبه الله، فإن محبة أهل الحق محبة الله وليس فيها شرك، قال الفضيل بن عياض قدس سره: يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم أما زهدك في الدنيا فإنما طلبت الراحة لنفسك في الآخرة، وأما انقطاعك إليَّ فإنما طلبت العز لنفسك، لكن هل هاديت لي عدواً أو واليت لي ولياً في الله؟ فعلامة اتباع ملة إبراهيم هو الإطاعة للحق، والتبري من كل دين سوى دين الإسلام ومحبة الأولياء، وعداوته الأعداء ولو كان المرء آتياً بجميع الطاعات وليس في قلبه خلوص المحبة فإنما يضرب حديداً بارداً، والله تعالى لا يحب القلب المشترك بمحبة غيره من شهوة أو غيرها؛ قال محمد بن حسان ـ رحمه الله ـ: بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج علي شاب قد أحرقته السموم والرياح، فلما رآني ولى هارباً، فتبعته وقلت: عظني بكلمة أنتفع بها، قال: احذره تعالى فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب

عبد سواه؛ فعلى العاقل أن يجتهد في سلوك هذا الطريق إلى أن يصل إلى منزل التحقيق، ومن الله التوفيق، في كل أمر خفي وجلي ودقيق.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إن أول بيت﴾ البيت ما يبيت فيه أحد ثم استعمل في المكان مطلقاً **﴿وضع للناس﴾** ـ روي ـ أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته عليه السلام وقالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، ومهاجر الأنبياء وقبلتهم، والأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين، ففيها الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل فنزلت، أي **﴿إن أول بيت وضع﴾** للعباد وجعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى **﴿للذي ببكة﴾** خبر لإن، أي للبيت الذي في بكه، وهو علم للبلد الحرام، من بكة إذا زحمه الازدحام الناس فيه، ولأنها تبك أعناق الجبابرة. . . الخ.

أي تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل. وما روي أن الحجاج حبس عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ في المسجد الحرام وضرب المنجنيق على أبي قبيس ورمى به داخل المسجد وقتل عبد الله فليس ذلك إضراراً بالبيت وقصداً بالسوء لأن مقصود الحجاج كان أخذ عبد الله.

ـ روي ـ أنه ﷺ سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس» وسئل كم بينهما فقال: «أربعون سنة».

ـ روي ـ أن الله وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثاله فبنوا وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

ـ وروي ـ أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام فلما أهبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام فطاف به آدم ومن بعده إلى زمن نوح عليه السلام فلما أراد الله الطوفان حمل إلى السماء الرابعة وهو البيت المعمور بحيال الكعبة يطوف به ملائكة السموات. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أول بيت بناه آدم في الأرض فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم على هذه الروايات ليس لأنه عليه السلام بناها ابتداء بل لرفعه قواعدها وإظهاره ما درس منها فإن موضع الكعبة اندرس بعد الطوفان وبقي مختفياً إلى أن بعث الله جبريل إلى إبراهيم عليه السلام ودله على مكان البيت وأمره بعمارته ولما كان الآمر بالبناء هو الله والمبلغ والمهندس هو جبريل عليه السلام والباني هو الخليل والتلميذ المعين له إسماعيل عليهما السلام. قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة **﴿مباركاً﴾** حال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي ببكة هو أي كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف به وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب **﴿وهدى للعالمين﴾** لأنه قبلتهم ومتعبدهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته وبالغ حكمته كما قال:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿فيه آيات بينات﴾ واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار

ومخالطة ضواري السباع الطيور في الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل ﴿مقام إبراهيم﴾ إثر قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روي أنه عليه السلام جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شقي رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه وهو بدل من آيات بدل البعض من الكل ﴿ومن دخله﴾ أي حرم البيت ﴿كان آمناً﴾ من التعرض له وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وهذا في حق من جنى في الحل ثم التجأ إلى الحرم وأما إذا أصاب الحد في الحرم فيقام عليه فيه فمن سرق فيه قطع ومن قتل فيه قتل قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] أباح لهم القتل عند المسجد الحرام إذا قاتلونا فعلى ذلك يقام الحد إذا أصاب وهو فيه وإذا أصاب في غيره ثم لجأ إليه لم يقم كما لا نقاتل إذا لم يقاتلونا أو المعنى ومن دخله كان آمناً من النار. وفي الحديث «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً» وعنه ﷺ «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينشران في الجنة» وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقف رسول الله ﷺ على ثنية الحجون وليس بها يومئذٍ مقبرة فقال: «يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر» وعنه ﷺ «من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام» ﴿ولله على الناس﴾ وهم المؤمنون دون الكفار فإنهم غير مخاطبين بأداء الشرائع عندنا خلافاً للشافعي أي استقر لله عليهم ﴿حج البيت﴾ اللام للعهد والحج بالفتح لغة أهل الحجاز والكسر لغة نجد وأياماً كان فهو القصد للزيارة على الوجه المخصوص المعهود يعني أنه حق واجب لله في ذمم الناس ولا انفكاك لهم عن أدائه والخروج من عهدته ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ في محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أي من استطاع منهم وقدر وأطاق إلى البيت سبيلاً أي قدر على الذهاب إليه وأراد به قدرة سلامة الآلات والأسباب فالزاد والراحلة من أسباب الوصول وهذه القدرة تتقدم على الفعل والاستطاعة التي هي شرط لوجوب الفعل هي الاستطاعة بهذا المعنى لا الاستطاعة التي هي شرط حصول الفعل وهي لا تكون إلا مع الفعل لأنها علة وجود الفعل وسببه فلا تكون إلا معه فالاستطاعة الأولى شرط الوجوب والثانية شرط حصول الفعل ﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً لتاركه أي من لم يحج مع القدرة عليه فقد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج ﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلاً فيها دخولاً أولياً اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء قال رسول الله ﷺ: «من لم يحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» وإنما خص هذين

لأن اليهود والنصارى هم الذين لا يرون الحج ولا فضل الكعبة.

واعلم أنه لا يؤثر الإكثار من التردد إلى تلك الآثار إلا حبيب مختار.

ـ روي ـ عن علي بن الموفق ـ رحمه الله ـ أنه حج ستين حجة قال: فلما كنت بعد ذلك في الحجر أفكر في حالي وكثرة ترددادي إلى ذلك المكان ولا أدري هل قبل حجي أو لا نمت فرأيت قائلاً يقول: يا ابن الموفق هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب؟ فاستيقظت وقد سرى عني ففيه إشارة إلى أن من لم يحج مع القدرة عليه فقد ترك عن الدعوة إلى ضيافة الله تعالى ولا يترك عنها إلا من لا استحقاق له بها. وفيه تقبيح لحاله حيث لم يجتهد في تحصيل الاستعداد بل أقام على البغي والفساد واقتضت حكمة الله تعالى توقان النفس كل عام إلى تلك الأماكن النفيسة والمعاهد المقدسة المحروسة لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أي تحن قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله ثم جهاد في سبيله ثم حج مبرور» قيل مغفرة الذنوب بالحج ودخول الجنة به مترتب على كون الحج مبروراً. وإنما يكون مبروراً باجتماع أمرين فيه: الأول الاتيان فيه بأعمال البر والبر هو الإحسان للناس وإطعام الطعام وإفشاء السلام، والثاني ما يكمل به الحج وهو اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي. قال أبو جعفر الباقر: ما يعبأ من يؤم هذا البيت إذا لم يأت بثلاث ورع يحجره أي يمنعه عن محارم الله وحلم يكف به غضبه وحسن الصحابة لمن يصحبه من المسلمين فهذه الثلاث يحتاج إليها من يسافر خصوصاً إلى الحج فمن كملها فقد كمل حجه فعلى السالك أن يخالق الناس بخلق حسن:

ازمن بكوى حاجىء مردم كزايرا كاوپوستين خلق بازار مي درد
حاجى تونيستى شترست ازبراى آنك بيچاره خار ميخورد وبارميبرد

قال بعض المشايخ علامة الحج المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.

قال نجم الدين الكبرى في «تأويلاته»: والإشارة أن الله تعالى جعل البيت والحج إليه وأركان الحج والمناسك كلها إشارات إلى أركان السلوك وشرائط السير إلى الله وآدابه. فمن أركانه الإحرام وهو إشارة إلى الخروج عن الرسوم وترك المألوف والتجرد عن الدنيا وما فيها والتطهر من الأخلاق وعقد إحرام العبودية بصحة التوجه. ومنها الوقوف بعرفة وهو إشارة إلى الوقوف بعرفات المعرفة والعكوف على عقبة جبل الرحمة بصدق الالتجاء وحسن العهد والوفا. ومنها الطواف وهو إشارة إلى الخروج عن الأطوار البشرية السبعية بالأطواف السبعة حول كعبة الربوبية. ومنها السعي وهو إشارة إلى السير بين صفا الصفات ومروة الذات. ومنها الحلق وهو إشارة إلى محو آثار العبودية بموسى أنوار الإلهية وعلى هذا فقس المناسك كلها. والحج يشير إلى عين الطلب والقصد إلى الله بخلاف سائر أركان الإسلام فإن كل ركن منه يشير إلى طرف من استعداد الطلب فالله تعالى خاطب العباد بقوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ وما قال في شيء آخر من الأركان والواجبات ولله على الناس وفائدته أن المقصود المشار إليه من الحج هو الله وفي سائر العبادات المقصود هو النجاة والدرجات والقربات والمقامات والكرامات، والاستطاعة في قوله ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ هي جذبة الحق التي توازي عمل الثقلين ولا يمكن السير إلى الله والوصول إليه إلا بها ﴿ومن كفر﴾ أي لا يؤمن بوجدان الحق ولا يتعرض لنفحات ألطاف الرب لا يتقرب بجذبات الألوهية كما يشير إليها

أركان الحج ﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ بأن يستكمل بهم وإنما الاستكمال للعالمين به ولا غنى به عنه تعالى جعلنا الله وإياكم من الكاملين والواصلين إلى كعبة اليقين والتمكين.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى سموا بذلك فإن الكتاب لا يختص بالمنزل فنسبوا إلى ما كتبوا سواء كان من إلقاء الروح الأمين أو تلقاء النفس ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التي من جملتها ما تلي في شأن الحج وغيره وما في التوراة والإنجيل من شواهد نبوته ﷺ ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ حال من فاعل تكفرون والمعنى لأي سبب تكفرون بآياته عز وجل والحال أنه تعالى مبالغ في الاطلاع على جميع أعمالكم وفي مجازاتكم عليها ولا ريب في أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتونه ويقطع أسبابه بالكلية.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون﴾ أي تصرفون ﴿عن سبيل الله﴾ أي دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿من آمن﴾ مفعول تصدون كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون إن صفته ﷺ ليست في كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم ﴿تبغونها﴾ بحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير أي تبغون لها لأن البغي لا يتعدى إلا إلى مفعول يقال بغيت المال والضمير للسبيل وهو يذكر ويؤنث أي تطلبون سبيل الله التي هي أقوم السبل ﴿عوجاً﴾ اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة بأن تلبسوا على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً بقولكم إن شريعة موسى لا تنسخ وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون. والعوج بكسر العين وفتحها الميل والانحراف لكن المكسور يختص بالمعاني والمفتوح بالأعيان تقول في دينه وكلامه عوج بالكسر وفي الجدار والقناة والشجر عوج بالفتح ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار تقيده بالحال الأولى أو والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها إخلال ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي من الصد عن سبيله وكتمان الشهادة لنبيه، ولما وبخ أهل الكتاب بصد المؤمنين نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادين فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً﴾ طائفة وإنما خص فريقاً لأن منهم من آمن ﴿من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ قوله كافرين مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير. قال عكرمة نزلت في شاس بن قيس اليهودي رأى منتدى محتوياً على زخام من أوس وخزرج فغاظه الفتهم فأرسل شاباً ينشدهم أشعار يوم بغاث وكان ذلك يوماً عظيماً اقتتل فيه الحيان المذكوران وكان الظفر فيه للأوس فنعر عرق الداء الدفين فتشاجروا فأخبر النبي عليه السلام فخرج يصلح ذات بينهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وكيف تكفرون﴾ إنكار وتعجب ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ أي القرآن ﴿وفيكم

رسوله﴾ والمعنى من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن القرآن المعجز يتلى عليكم على لسان الرسول غضاً طرياً وبين أظهركم رسول الله ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم فالعدول عن الإيمان والدخول في الكفر مع تحقق هذه الأمور أبعد وأعجب ﴿**ومن يعتصم بالله**﴾ أي ومن يتمسك بدينه الحق الذي بينه بآياته على لسان رسوله عليه السلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿**فقد هدي**﴾ جواب الشرط. وقد لإفادة معنى التحقق كأن الهدى حصل فهو يخبر عنه حاصلاً ومعنى التوقع فيه ظاهر فإن المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للنداء أي وفق وأرشد ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾ موصل إلى المطلوب.

واعلم أن ظاهر الخطاب مع أهل الكتاب وباطنه مع العلماء السوء الذين يبيعون الدين بالدنيا ولا يعملون بما يعلمون فهم الذين يكفرون بما جاء به القرآن من الزهد في الدنيا والورع والتقوى ونهي النفس عن الهوى وإيثار ما يفنى على ما يبقى والإعراض عن الخلق والتوجه إلى الحق وبذل الوجود لنيل المقصود والله شهيد على ما تعملون حاضر معهم ناظر إلى نياتهم في أعمال الخير والشر فيجازيهم بها وهم يصرفون بحرصهم على الدنيا واتباعهم الهوى المؤمنين الذين يتبعونهم بحسن الظن ويحسبون أن أعمالهم وأحوالهم على قاعدة الشريعة ومنهاج الطريقة عن سبيل الله وطريق الحق الذي أمر الأنبياء بدعوة الخلق إليه وهم يطلبون اعوجاج طريق الحق بالسير في طريق الباطل وقد وصى الله المؤمنين بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ الآية حتى لا يرتدوا عن طريق الهداية بعد الإيمان بالاتباع بسيرتهم وهواهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] قال بعض المشايخ خير العلم ما كانت الخشية معه وذلك لأن الخشية إنما تنشأ عن العلم بصفات الحق فشاهد العلم الذي هو مطلوب لله الخشية وشاهد الخشية موافقة الأمر. وأما العلم الذي تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الأمل ونسيان الآخرة فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث وما مثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء إلا كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها:

ترك دنيا بمردم آموزند خويشتن سيم وغله اندوزند
عالمى راكه كفت باشد وبس چون بكويد نكيرد اندركس
عالم آنكس بود كه بد نكند نه بكويد بخلق وخود نكند

قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة بأبدانهم شر من تظل السماء يومئذٍ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود». وعن فضيل بن عياض بلغنا أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. فعلى العاقل أن لا يغتر بظاهر حالهم بل ينظر إلى وهن اعتقادهم وفساد بالهم فيعتبر كل الاعتبار ويتجنب من هذه سيرتهم ويسلك طريق الأخيار ويعتصم بالله بالانقطاع عما سواه ويتمسك بالتوحيد الحقيقي حتى يهتدي إلى الصراط المستقيم فمن انقطع إليه بالفناء في الوحدة كان صراطه صراط الله فلا يصده عنه أحد ولا يضره شيء ولا يضله كيد عدوه وشره فإن من كان مع الله كان الله معه فهو حافظه وناصره وهذا الاستمساك ليس من شأن كل السلاك لكن الله تعالى قادر على أن يأخذ بيد عبده ويوصله

إلى مراده وإذا صح الطلب من العبد فلا يحرم الإجابة البتة فإن من طلب وجدّ وجد ومن قرع باباً ولج ولج عصمنا الله وإياكم من كيد الشيطان ومكر النفس الأمارة بالسوء كل آن آمين يا مستعان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة ﴿**حق تقاته**﴾ أي حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم ونحوها فاتقوا الله ما استطعتم يريد بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً ﴿**ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ أي مخلصون نفوسكم لله عز وجل لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه فهو في الصورة نهي عن موتهم على غير هذه الحالة والمراد دوامهم على الإسلام ﴿**واعتصموا بحبل الله**﴾ أي بدين الإسلام أو بكتابه فلفظ الحبل مستعار لأحد هذين المعنيين فإن كل واحد منهما يشبه الحبل في كونه سبباً للنجاة من الردى والوصول إلى المطلوب فإن من سلك طريقاً صعباً يخاف أن تزلق رجله فيه فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف كذلك طريق السعادة الأبدية ومرضاة الرب طريق زلق ودواعي الضلال عنها متكثرة زلق رجل أكثر الخلق فيها. فمن اعتصم بالقرآن العظيم وبقوانين الشرع القويم وبينات الرب الكريم فقد هدي إلى صراط مستقيم وأمن من الغواية المؤدية إلى نار الجحيم كما يأمن المتمسك بالحبل من العذاب الأليم ﴿**جميعاً**﴾ حال من فاعل اعتصموا أي مجتمعين في الاعتصام ﴿**ولا تفرقوا**﴾ أي لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ متعلق بنعمة ﴿**إذ كنتم**﴾ ظرف له أي اذكروا إنعامه عليكم وقت كونكم ﴿**أعداء**﴾ في الجاهلية بينكم الإحن والعداوة والحروب المتواصلة. وقيل: هم الأوس والخزرج كانوا أخوين لأب وأم فوقعت بين أولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة ﴿**فألف بين قلوبكم**﴾ بتوفيقكم للإسلام ﴿**فأصبحتم**﴾ أي فصرتم ﴿**بنعمته**﴾ التي هي ذلك التألف ﴿**إخواناً**﴾ خبر أصبحتم أي إخواناً متحابين مجتمعين على الأخوة في الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق ﴿**وكنتم على شفا حفرة من النار**﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها وجانبها أي كنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها تمثيل لحياتهم التي تتوقع بعد الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشرفين على الوقوع فيها ﴿**فأنقذكم**﴾ أي خلصكم ونجاكم بأن هداكم للإسلام ﴿**منها**﴾ أي الحفرة ﴿**كذلك**﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده أي مثل ذلك التبيين الواضح ﴿**يبين الله لكم آياته**﴾ أي دلائله ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ طلباً لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

والإشارة أن أهل الاعتصام طائفتان: أحدهما أهل الصورة وهم المتعلقون بالأسباب لأن مشربهم الأعمال، والثانية أهل المعنى وهم المنقطعون عن الأسباب لأن مشربهم الأحوال فقال تعالى لهم: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨] هو مولاكم أي مقصودكم. وقال للمتعلقين بالأسباب

﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً**﴾ وهو كل سبب يتوسل به إلى الله فالمعتصم بحبل الله هو المتقرب إلى الله بأعمال البر ووسائط القربة وإذا وجد الاعتصام وجد عدم التفرق بخلاف عدم الاعتصام فإنه سبب للتفرق في الظاهر والباطن. فأما في الظاهر فيلزم منه مفارقة الجماعة فاقتلوه كائناً من كان. وأما في الباطن فيظهر منه الأهواء المختلفة التي توجب تفرق الأمة كما قال عليه السلام: «ستفترق أمتي اثنتين وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة» قالوا: يا رسول الله ومن الفرقة الناجية؟ قال: «من كانوا على ما أنا عليه وأصحابي».

واعلم أنه تعالى أمر المؤمنين أولاً بالتقوى وثانياً بالاعتصام وثالثاً بتذكر النعمة لأن فعل الإنسان لا بد وأن يكون معللاً إما بالرهبة وإما بالرغبة والرهبة متقدمة على الرغبة لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع كما أن التخلية قبل التحلية فقوله: ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾ إشارة إلى التخفيف من عقاب الله ثم جعله سبباً للأمر بالتمسك بدين الله ثم أردفه بالرغبة وهي قوله تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ فعلى العاقل الانقياد لأمر الله والطاعة لحكمه والاعتصام بحبله وعدم التفرق في الدين والتقوى حق التقى من الله سبحانه قيل ونعم ما قيل:

متقى را بود جهار نشان ... حفظ أحكام شرع أول دان
ثانياً انجه دست رس باشد ... بر فقيران وبيكسان بخشد
عهدرا با وفا كند پيوند ... هرچه باشد ازان شودخر سند

وهذا معنى قول الشيخ النصر آبادي: علامة المتقي أربعة: حفظ الحدود، وبذل المجهود، والوفاء بالعهود، والقناعة بالموجود. قال القشيري ـ رحمه الله ـ: حق التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قبل نفسه ولا ينقص. وحق التقوى أولاً اجتناب الزلة، ثم اجتناب الفضلة، ثم التوقي عن كل خلة، ثم التنقي عن كل علة فإذا اتقيت عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتقيت حق تقواك انتهى، فمن بقي فيه شيء من أثر الوجود فقد أشرك شركاً خفياً ولم يصل إلى حقيقة الشهود:

حضوری کر همی خواهی ازو غائب مشو حافظ
متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها

قال أبو مدين ـ رحمه الله ـ: شتان بين من همته الحور والقصور ومن همته رفع الستور ودوام الحضور فطوبى لمن سار إليه بالجذبات الإلهية على قدم التحقيق وطار بتجلي الصفات الربانية وجناح التوفيق. قال سهل رضي الله عنه: ليس للعبد إلا مولاه وأحسن أحواله أن يرجع إلى مولاه إذا عصى قال: يا رب استر علي فإذا ستر عليه قال: يا رب تب علي فإذا تاب عليه قال: يا رب وفقني حتى أعمل فإذا عمل قال: يا رب وفقني حتى أخلص فإذا أخلص قال: يا رب تقبل مني. فعلى العاقل أن يتمسك بهذا الحبل المتين.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿**ولتكن منكم**﴾ أي لتوجد منكم ﴿**أمة يدعون إلى الخير**﴾ جماعة داعية إلى الخير أي إلى ما فيه صلاح ديني ودنيوي فالدعاء إلى الخير عام في التكليف من الأفعال والتروك ثم عطف عليه الخاص إيذاناً بفضله فقال: ﴿**ويأمرون بالمعروف**﴾ وهو ما استحسنه الشرع والعقل

وهو الموافقة ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو ما استقبحه الشرع والعقل وهو المخالفة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الكاملة والأفراد في كاف الخطاب لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب ﴿هم المفلحون﴾ أي هم الأخصاء بكمال الفلاح. وهم ضمير فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ثم إن من في قوله منكم للتبعيض وتوجيه الخطاب إلى الكل مع اسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعاً لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن منكر وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين وكان ناقصة أي كونوا أمة يدعون الآية ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطاب للعامة، عن النبي عليه السلام أنه سئل وهو على المنبر من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم»؟ وقال عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»؟، وعن حذيفة يأتي على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن قال رسول الله ﷺ: «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» قال ﷺ: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذابه» وقال رسول الله ﷺ: «يحشر يوم القيامة ناس من أمتي من قبورهم إلى الله على صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون» فلا بد من توطين النفس على الصبر وتقليل العلائق وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة قال رسول الله ﷺ: «عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء عليهم السلام» قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال: «لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر» ثم الأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب. وأما النهي عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح وطريق الوجوب السمع والعقل وعند البعض السمع وحده وشرط النهي بعد معرفة المنهي عنه أن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأن الواقع لا يحسن النهي عنه وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن المعاودة إلى مثله أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته وأن لا يغلب على ظنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة. فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت: يبدأ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب لأن الغرض كف المنكر قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] ثم قال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ [الحجرات: ٩] والمباشر كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه وقد أجمعوا أن

من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنه معلوم قبحه لكل أحد. وأما الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت: فمن يؤمر وينهى؟ قلت: كل مكلف وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها كما يؤمرون بالصلاة ليمرنوا عليها والعاصي يجب عليه النهي عما ارتكبه إذ يجب عليه تركه والإنكار لا يجب فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيء منهما قال النبي عليه السلام: «إن الله ليؤيد هذا الدين بأهل الفسوق» والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر، وعن السلف مروا بالخير وإن لم تفعلوا، وعن بعض الصحابة أن الرجل إذا لم يستطع الإنكار على منكر رآه فليقل ثلاث مرات اللهم إن هذا منكر وإذا فعل ذلك فقد فعل ما عليه:

كرت نهي منكر بر آيد زدست نشايد چوبى دست وپايان نشست
چودست وزبانرا نماند مجال بهمت نمايند مردى رجال

يعني إذا لم يستطع أن يغير المنكر بلسانه ويده فلينكره بقلبه فإن الرجال يرون الرجولية بالهمة ويتضرعون إلى الله في دفع ما لا يقدرون على دفعه.

والإشارة في الآية أن الأمة التي يدعون إلى الخير بالأفعال دون الأقوال هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون من وعيد من يأمر بالمعروف ولا يأتيه والذي يدل عليه ما روى أسامة عن رسول الله ﷺ قال: سمعته يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتنزلق أقتابه في النار فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه» والداعي إلى الخير في الحقيقة شيوخ الطريقة فإن من لم يعرف الله لم يعرف الخير إذ الخير المطلق هو الكمال المطلق الذي يكون للإنسان بحسب النوع من معرفة الحق والوصول إليه كما كان للنبي عليه السلام والإضافي ما يتوصل به إلى المطلق فالخير المدعو إليه إما الحق وإما طريق الوصول إليه والمعروف كل ما يقرب إليه والمنكر كل ما يبعد عنه فمن لم يكن له التوحيد والاستقامة لم يكن له مقام الدعوة فغير المستقيم وإن كان موحداً ربما أمر بما هو معروف عنده منكر في نفس الأمر وربما نهى عما هو منكر عنده معروف في نفس الأمر كمن بلغ في مقام الجمع واحتجب بالحق عن الخلق فكثيراً ما يستحل محرماً ويحرم حلالاً فهم أهل الحجاب وأهل الفلاح المطلق هم الذين لم يبق لهم حجاب وهم خلفاء الله في أرضه أوصلنا الله وإياكم إلى معرفة حقيقة الحال وشرفنا بالوصول إلى جنابه المتعال.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود والنصارى فرقاً **﴿واختلفوا﴾** باستخراج التأليفات الزائغة وكتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا إليه من حطام الدنيا الدنية. قال الإمام: تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق وأن صاحبه على الباطل. وأقول:

إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فنسأل الله العفو والرحمة انتهى ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ أي الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة بسبب تفرقهم فإنه يدوم ولا ينقطع ولما أمر الله هذه الأمة بأن يكونوا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر وذلك لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغلبين ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الإلفة والمحبة بين أهل الحق والدين فلا جرم حذرهم الله عن التفرقة والاختلاف لكيلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف. فعلى المؤمنين أن لا يكونوا ناشئين بمقتضى طباعهم غير متابعين لإمام ولا متفقين على كلمة واحدة باتباع مقدم يجمعهم على طريقة واحدة فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته وتتفق كلمتهم في الآخرة على محسوس أوضح من ظهوره في الدنيا ممن دعا إلى الله على بصيرة كالرسول وأتباعه الذين ألحقهم الله بدرجات الدنيا في الدعاء إليه على بصيرة كلماتهم وعاداتهم وأهوائهم لمحبته وطاعته كانوا مهملين متفرقين فرائس للشيطان كشريدة الغنم تكون للذئب ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا بد للناس من إمام بار أو فاجر ولم يرسل نبي الله رجلين فصاعداً لشأن إلا وأمر أحدهما على الآخر وأمر الآخر بمتابعته وطاعته ليتحد الأمر وينتظم وإلا وقع الهرج والمرج واضطرب أمر الدين والدنيا واختل نظام المعاش والمعاد قال عليه السلام: «من فارق الجماعة قيد شبر لم ير بحبوحة الجنة» وقال: «يد الله مع الجماعة» فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» ألا يرى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برياسة القلب وطاعة العقل كيف اختل نظامها وآلت إلى الفساد والتفرق الموجب لخسارة الدنيا والآخرة ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] خط رسول الله ﷺ خطاً فقال: «هذا سبيل الرشاد» ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» فعلى العاقل أن يسلك إلى صراط التوحيد ولوازمه وحقوقه ويجتنب عن سبل الشيطان وأسباب الدخول فيها قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس» إلى أن قال: «وحسابهم على الله» أراد بقوله وحسابهم على الله أنه لا يعلم أنهم قالوها معتقدين لها فالمشرك لا قدم له على صراط التوحيد وله قدم على صراط الوجود والمعطل لا قدم له على صراط الوجود فالمشرك ما وحد الله هنا فهو من الموقف إلى النار مع المعطلة ومن هو من أهل النار إلا المنافقين فلا بد لهم أن ينظروا إلى الجنة وما فيها من النعيم فيطمعون فذلك نصيبهم من الجنان ثم يصرفون إلى النار وهذا من عدل الله فقوبلوا بأعمالهم فالشرع هنا هو الصراط المستقيم ولا تزال في كل ركعة من الصلاة نقول: اهدنا الصراط المستقيم فهو أحدّ من السيف وأدق من الشعر وظهوره على علم وكشف. قال علي كرم الله وجهه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فمن تمسك بالشرع المتين والقرآن المبين واهتدى إلى هذا الصراط المستقيم وتخلص من التفرق الموجب للعذاب الأليم فليس عليه حساب ولا صراط في الآخرة بل هو مع الأنبياء والأولياء في النعيم المقيم ومن زلت قدمه عن الشرع في الدنيا بارتكاب المحظورات زلت في الآخرة أيضاً إذ من كان في الدنيا أعمى محجوباً غير واصل كان في الآخرة أيضاً كذلك والعياذ بالله قال رسول الله ﷺ: «الزالون على الصراط كثير وأكثر من يزل عنه النساء» وقال: «رأيت النار وأكثر أهلها

النساء فإنهن يكثرن اللعن ويكفرن العشير فلو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم إذا رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط» فانظر كيف زلت أقدامهن عن الصراط في الآخرة وما ذلك إلا لكونها زالة عن صراط الشرع في الدنيا بالاعتقاد والأعمال، ونعم ما قال الجامي:

عقل زن ناقص است ودينش نيز — هر كزش كامل اعتقاد مكن
كر بدست ازوى اعتبار مكير — ورنكو بروى اعتماد مكن

فإذا وقفت على هذا التفصيل فاجتهد أيها العبد الذليل في طريق المتابعة والموافقة للأنبياء والكاملين وتمسك بذيل شيخ واصل إلى اليقين لعله يجمع بإذن الله شملك بعدما تبدد وصلك وتفرق حالك فإن الطريق المجهول لا بد له من مرشد وإلا فالهلاك عصمنا الله وإياكم من الخلاف والاختلاف وأسلكنا طريق الأخيار من الأسلاف وثبتنا فيه إلى آخر الآجال وحشرنا بأهل الفضل والكمال.

﴿**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون يوم تبيض وجوه كثيرة وتسود وجوه كثيرة. وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكمون الخوف فيه يقال لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه ابيض وجهه أي استبشر ولمن وصل إليه مكروه اغبر لونه وتبدلت صورته. فمعنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات استبشر بنعم الله وفضله وإذا رأى الكافر أعماله القبيحة اشتد حزنه وغمه. وقيل: بياض الوجه وسواده حقيقتان فيوسم أهل الحق ببياض الوجوه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه ويمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك والحكمة في ظهورهما في الوجوه حقيقة أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة قال تعالى مخبراً عنه: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦- ٢٧] والشقي يغتم بعكس ذلك.

﴿**فأما الذين اسودت وجوههم**﴾ فيقال لهم: ﴿**أكفرتم بعد إيمانكم**﴾ الهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه عليه السلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعدما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق ﴿**فذوقوا العذاب**﴾ المعهود الموصوف بالعظم ﴿**بما كنتم تكفرون**﴾ بالقرآن ومحمد عليه السلام.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٨﴾

﴿**وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله**﴾ أي الجنة والنعيم المقيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى ﴿**هم فيها خالدون**﴾ كأنه قيل: كيف يكونون فيها فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون ﴿**تلك**﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفار وهو مبتدأ ﴿**آيات الله**﴾ خبره ﴿**نتلوها**﴾ جملة حالية من الآيات ﴿**عليك**﴾ أي نقرأها عليك يا محمد بواسطة جبريل ﴿**بالحق**﴾ حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أي ملتبسين أو ملتبسة بالحق والعدل ليس في حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسيء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد ﴿**وما الله يريد ظلماً**﴾ أي شيئاً من الظلم ﴿**للعالمين**﴾ لأحد من خلقه كيف

والظلم تصرف في ملك الغير وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه أو أنه وضع الشيء في غير موضعه وذلك قد يكون بمنع حق المستحق منه وقد يكون بفعل ما منع منه ولا ينبغي له أن يفعله وكل ذلك لا يتصور في حقه تعالى فيستحيل تصور الظلم من الله فإنه لا حق لأحد فيظلم بمنعه ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله بل هو المالك على الإطلاق وأفعاله محض حكمة وعدل.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝١٠٩ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١١٠ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١١١﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي له تعالى وحده من غير شركة أصلاً ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكاً وخلقاً إحياء واماتة إثابة وتعذيباً وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى ﴿وإلى الله﴾ أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة واستقلالاً ﴿ترجع الأمور﴾ أي أمورهم فيجازي كلاً منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل في ذلك لأحد قط. فإن قيل: الرجوع إليه يكون بعد الذهاب عنه ولم يكن فلم قال ذلك؟ قلنا: كانت كالذاهبة بهلاكها ثم إعادتها لأن في الدنيا يملك بعض الخلق بالتدبير وفي القيامة يكون كل ذلك لله تعالى.

والإشارة أن الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم الذين ابيضت قلوبهم اليوم بنور الإيمان والجمعية والوفاق مع الله والذين تسود وجوههم يومئذٍ هم الذين اسودت قلوبهم بالكفر والتفرق والاختلاف من الله وذلك لأن الوجوه تحشر بلون القلوب كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩] أي يجعل ما في الضمائر على الظواهر:

زر اندود كانرا بآتش برند بديد آيد آنكه كه مس يازرند

﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ وهم أرباب الطلب السائرون إلى الله الذين انقطعوا في بادية النفس واتبعوا غول الهوى وارتدوا على أعقابهم القهقرى ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ تسترون الحق بالباطل وتعرضون عن الحق في طلب الباطل وكنتم معذبين بنار الهجران والقطيعة في الدنيا ولكن ما كنتم تذوقون عذابها لأن الناس نيام والنائم لا يذوق ألم الجراحات حتى ينتبه فإذا ماتوا انتبهوا فيذوقوا ألم جراحات الانقطاع والإعراض عن الله ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم فـ﴾هم ﴿في رحمة﴾ الجمعية والوفاق مع ﴿الله﴾ في الدنيا و﴿هم فيها خالدون﴾ في الآخرة لأنه يموت المرء على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه قال رسول الله ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» وقال: «من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ويعاين منكر ونكير سكران ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق في وسط جهنم يسمى السكران فيه عين يجري ماؤها دماً لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه» وقال رسول الله ﷺ: «أخبرني جبريل عليه السلام أن لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يمرقون من قبورهم وينفضون عن رؤوسهم التراب هذا يقول لا إله إلا الله والحمد لله فيبيض وجهه وهذا ينادي

يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله مسودة وجوههم» قال رسول الله ﷺ: «النياحة على الميت من أمر الجاهلية وأن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار» وفي التنزيل ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قال أهل التأويل: كلهم يبعث كالمجنون عقوبة لهم وتمقيتاً عند أهل الحشر فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون لعظم بطونهم وثقلها عليهم نسأل الله الستر في الدنيا والآخرة وهو الموفق للصالحات من الأعمال والأفعال.

﴿كنتم خير أمة﴾ كنتم من كان الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق ويحمل على الدوام أو الانقطاع بحسب معونة المقام ودلالة القرائن فقولك: كان زيد قائماً محمول على الانقطاع وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠] محمول على الدوام ومنه قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾ ﴿أخرجت للناس﴾ صفة لأمة أظهرت لأجلهم ومصلحتهم ونفعهم ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ جملة مستأنفة بين بها كونهم خير أمة كأنه قيل: السبب في كونهم خير الأمم هذه الخصال الحميدة والمقصود بيان علة تلك الخيرية كقولك زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم لأن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يشعر بالعلية ﴿وتؤمنون بالله﴾ أي إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ أي لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيراً لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين ﴿منهم المؤمنون﴾ كأنه قيل: هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل: منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أي لن يضروكم أبداً ضرراً ما إلا ضرر أذى لا يبالي به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿وإن يقاتلوكم﴾ أي إن خرجوا إلى قتالكم ﴿يولوكم الأدبار﴾ مفعول ثان ليولوكم أي يجعلوا ظهورهم ما يليكم ويرجعوا إلى أدبارهم منهزمين من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر ﴿ثم لا ينصرون﴾ عطف على الشرطية وثم للتراخي في المرتبة أي لا ينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلاً وأخذاً وفيه تثبيت لمن آمن منهم فإنهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لا يقدرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرب يعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل فلا ينهضون بجناح ولا ترجع إليهم قوة ونجاح كما كان من حال بني قريظة والنضير وقينقاع ويهود خيبر.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾ أي في أي مكان وأي زمان وجدوا في دار الإسلام الزموا الذل أي هدر النفس والمال والأهل بحيث صار كشيء يضرب على الشيء فيحيط به

﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ استثناء من أعم الأحوال أي ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هي عليه في جميع الأحوال إلا حال كونهم معتصمين بذمة الله وذمة المسلمين واستعير الحبل للعهد لأنه سبب للنجاة والفوز بالمراد. وعطف قوله ﴿وحبل من الناس﴾ على قوله: ﴿بحبل من الله﴾ يقتضي المغايرة.

قال الإمام في وجهه الأمان الحاصل للذمي قسمان: أحدهما الذي نص الله عليه وهو الأمان الحاصل له بإعطاء الجزية عن يد وقبوله إياها، والثاني الأمان الذي فوض إلى رأي الإمام واجتهاده فيعطيهم الأمان مجاناً تارة وببدل زائد أو ناقص أخرى على حسب اجتهاده فالأول هو المسمى بحبل الله والثاني هو المسمى بحبل المؤمنين فالأمانان واقعان بمباشرة المسلمين إلا أنهما متغايران بالاعتبار ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا بغضب كائن منه تعالى مستوجبين له ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أي زي الافتقار فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود في غالب الأمر فقراء إما في نفس الأمر وإما أنهم يظهرون من أنفسهم الفقر وإن كانوا أغنياء موسرين في الواقع ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ أي ذلك الذي ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه السلام وتحريفهم لها ولسائر الآيات القرآنية ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي في اعتقادهم أيضاً وهؤلاء المتأخرون وإن لم يصدر عنهم قتل الأنبياء لكنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم مصوبين لهم في تلك الأفعال القبيحة وطالبين للقتل لو ظفروا به فكانوا بذلك كأنهم فعلوه بأنفسهم فلذا أسند القتل إليهم ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي كان بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر فإن من توغل في المعاصي والذنوب واستمر عليها لا جرم تتزايد ظلمات المعاصي على قلبه حالاً فحال ويضعف نور الإيمان في قلبه حالاً فحال ولم يزل الأمر كذلك إلى أن يبطل نور الإيمان وتحصل ظلمة الكفر نعوذ بالله من ذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] فقوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا﴾ إشارة إلى علة العلة ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات: من ابتلي بترك الأدب وقع في ترك السنن ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر. فعلى المؤمن أن لا يفتح باب المعصية على نفسه خوفاً مما يؤدي إليه بل ويترك أيضاً بعض ما أبيح له في الشرع وذلك هو كمال التقوى قال عليه السلام: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس» وقال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه» الحديث فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وذلك سد للذريعة والعارف متى قصد مخالفة أمره تعالى يجد من قلبه استحياء منه تعالى فينتهي عما نوى وعزم ويجتهد في عبادة ربه. قال الجنيد رحمه الله: العبادة على رؤوس العارفين كالتيجان على رؤوس الملوك ورؤي في يده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة فقال طريق وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً. قال الشيخ أبو طالب رحمه الله: مداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطريق

العابدين وهي مزيد الإيمان وعلامة الإيقان.

قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: سألت أستاذي عن ورد المحققين فقال: إسقاط الهوى ومحبة المولى أبت المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه وقال الورد ردّ النفس بالحق عن الباطل في عموم الأوقات فليواظب العبد على الأوراد والطاعات وليجانب المعاصي والسيآت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي يا رسول الله والحمد لله قال: «ليس ذلك ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى وليحفظ البطن وما وعى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»

مبر طاعت نفس شهوت پرست كه هر ساعتى قبله ديكر ست

قال بعض المشايخ: لو أن رجلاً عاش مائتي سنة ولا يعرف هذه الأربعة فليس شيء أحق به من النار أحدها معرفة الله تعالى في السر والعلانية وأن لا معطى ولا مانع غيره، والثاني معرفة عمل الله بأن يعرف أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لرضى الله تعالى، والثالث معرفة نفسه بأن يعرف ضعفه أنه لا يستطيع أن يرد شيئاً مما قضى الله عليه، والرابع معرفة عدو الله وعدو نفسه فيحاربه بالمعرفة حتى يكسره فإن المعرفة سلاح العارف فمن كان عنده المعرفة الحقيقية كان غالباً على أعدائه الظاهرة والباطنة ووصل إلى مراده والنفس عين العدو فعليك بالاحتراز من شره ومحاربته كل آن بالذكر والفكر والعمل الصالح عصمنا الله وإياكم من الشرور.

﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿**ليسوا سواء**﴾ أي ليس أهل الكتاب جميعاً مستوين متعادلين في المساوي والقبائح والمراد بنفي المساواة نفي المشاركة في أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفي المساواة في مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة في أصل الاتصاف بها ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة**﴾ كلام مستأنف لبيان عدم استوائهم وتمام الكلام يقتضي أن يقال ومنهم أمة مذمومة إلا أنه أضمر بناء على أن ذكر أحد الضدين يغني عن الآخر أي من أهل الكتاب جماعة قائمة أي مستقيمة عادلة من أقمت العود فقام بمعنى استقاموا وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وغيره. نزلت حين قالت أحبار اليهود لعبد الله بن سلام وغيره من الذين أسلموا من اليهود ما آمن بمحمد الا شرارنا فلو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم أو نزلت في قوم يصلون صلاة الأوابين وهي اثنتا عشرة ركعة بعد صلاة المغرب ﴿**يتلون آيات الله**﴾ أي القرآن صفة أخرى لأمة ﴿**آناء الليل**﴾ ظرف ليتلون أي في ساعاته جمع أنى كعصا ﴿**وهم يسجدون**﴾ الجملة حال من فاعل يتلون أي يصلون إذ لا تلاوة في السجود وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً وساجداً» وتخصيص السجود بالذكر من سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والمراد بصلاتهم التهجد إذ هو أدخل في مدحهم وفيه يتسنى لهم التلاوة فإنها في المكتوبة وظيفة للإمام واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح.

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ على الوجه الذي نطق به الشرع تعريض بأن إيمان اليهود به مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما في شيء أصلاً ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ تعريض بمداهنتهم في الاحتساب بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فإنه أمر بالمنكر ونهي عن المعروف ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي أي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية تعريض بتباطىء اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشر ﴿وأولئك﴾ المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿من الصالحين﴾ أي من جملة من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه وثناءه.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وما يفعلوا من خير﴾ كائناً ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿فلن يكفروه﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه البتة وسمي منع الثواب ونقصه كفراناً مع أنه لا يجوز أن يضاف الكفران إلى الله تعالى إذ ليس لأحد عليه تعالى نعمة حتى يكفرها نظراً إلى أنه تعالى سمى إيصال الجزاء والثواب شكراً حيث قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] فلما جعل الشكران مجازاً عن توفية الثواب جعل الكفران مجازاً عن منعه وتعديته إلى مفعولين وهما ما قام مقام الفاعل والهاء لتضمنه معنى الحرمان ﴿والله عليم بالمتقين﴾ بشارة لهم بجزيل الثواب وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى.

والإشارة في قوله: ﴿وما يفعلوا من خير﴾ أي من خير يقربهم إليه فالله يشكره بتقربه إليهم أكثر من تقربهم إليه كما قال: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه باعاً» وقال: «أنا جليس من ذكرني وأنيس من شكرني ومطيع من أطاعني» أي كما أطعتموني بتصفية الاستعداد والتوجه نحوي أطعتكم بإفاضة الفيض على حسبه والإقبال إليكم ﴿والله عليم بالمتقين﴾ بالذين اتقوا ما يحجبهم عنه فتجلى لهم بقدر زوال الحجاب. قال أبو بكر الكتاني: رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه فقلت: من أنت؟ فقال: التقوى قلت: فأين تسكن؟ قال: في كل قلب حزين ثم التفت إليّ فإذا امرأة سوداء أوحش ما يكون فقلت: من أنت؟ فقالت: الضحك فقلت: أين تسكنين؟ فقالت: في كل قلب فرح مرح قال: فانتبهت واعتقدت أن لا أضحك إلا غلبة فعلى السالك أن يتمسك بحبل التقوى ويأنس به في الدنيا لعل الله يجعله أنيساً له في قبره وحشره فالتقوى من ديدن الصلحاء وهم الذين يسارعون إلى الخيرات ما داموا في الحياة. قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: أفضل ما يسأل العبد من الله خيرات الدين ففي خيرات الدين خيرات الآخرة وفي خيرات الآخرة خيرات الدنيا وفي خيرات الدنيا ظهور خصائص الأولياء وهي أربعة أوصاف: العبودية، ونعوت الربوبية، والإشراف على ما كان ويكون، والدخول على الله في كل يوم سبعين مرة والخروج كذلك قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» واستغفاره عليه الصلاة والسلام من نقص ما رقي عنه باعتبار ما ترقى إليه إذ ذلك الاستغفار من مقتضى البشرية التي لا يمكن دفعها ووجه الاستغفار منه عليه السلام التفريق بين حالين كان فيهما بالعبودية إذ لا يلحق النبي نقص بوجه ولا فتور بحال لثبوت عصمته ولكن حسنات الأبرار سيآت المقربين فينبغي

للإنسان أن يأخذ على نفسه أن لا يضيع لحظة حتى يأخذها بالذكر والشكر ومتى رأى خللاً رفعه بالاستغفار وذكر الله تعالى علم الإيمان وبراءة من النفاق وحصن من الشيطان وحرز من النار قال رسول الله ﷺ: «لما بعث الله يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى بني إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خصال ويضرب لكل خصلة مثلاً. أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وضرب لهم مثل الشرك كرجل اشترى عبداً من ماله ثم أسكنه داراً وزوجه ودفع إليه مالاً وأمره أن يتجر فيه ويأكل منه ما يكفيه ويؤدي إليه فضل الربح فعمد العبد إلى فضل الربح فجعل يعطيه لعدو سيده ويعطي لسيده منه شيئاً يسيراً فأيكم يرضى بفعال هذا العبد؟ وأمرهم بالصلاة وضرب لهم مثلاً للصلاة كمثل رجل استأذن على ملك من الملوك فأذن له فدخل عليه فأقبل عليه الملك بوجهه ليستمع مقالته ويقضي حاجته فالتفت يميناً وشمالاً ولم يهتم لقضاء حاجته فأعرض عنه الملك فلم يقض حاجته. وأمرهم بالصيام وضرب لهم مثلاً فقال: مثل الصائم كمثل رجل لبس جبة للقتال وأخذ سلاحه فلم يصل إليه عدوه ولم يعمل فيه سلاح عدوه. وأمرهم بالصدقة وضرب لهم مثلاً للمتصدق فقال مثل المتصدق كمثل رجل أسره عدوه فاشترى منهم نفسه بثمن معلوم فجعل يعمل في بلادهم ويؤدي إليهم من كسبه القليل والكثير حتى يفتدي منهم نفسه فعتق وفك رقبته. وأمرهم بذكر الله تعالى وضرب لهم مثلاً للذكر فقال: مثل الذكر كمثل قوم لهم حصن وبقربهم عدو لهم فدخلوا حصنهم وأغلقوا بابه وحصنوا أنفسهم من العدو» ثم قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بالخصال الخمس التي أمر بها يحيى عليه السلام وآمركم بخمس أخرى: أمرني الله بها عليكم بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد» فليسارع العبد إلى الخيرات والحسنات وجميع الحالات ولا يتيسر ذلك إلا لأرباب الإرادات وأصحاب المجاهدات:

نيايد نكوكارى از بدركان محالست دوزند كى از سكان
توان پاك كردن ز زنك آينه وليكن نيايد ز سنك آينه
بكوشش نرويد كل از شاخ بيد نه زنكى بكرما به كردد سفيد

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿**إن الذين كفروا**﴾ أي بما يجب أن يؤمن به ﴿**لن تغني عنهم**﴾ أي لن تدفع عنهم ﴿**أموالهم ولا أولادهم من الله**﴾ أي من عذابه تعالى ﴿**شيئاً**﴾ أي شيئاً يسيراً منه أو شيئاً من الإغناء رد للكفار كافة حيث فاخروا بالأموال والأولاد قائلين: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين وكانوا يعيرون رسول الله ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون: لو كان محمد على الحق لما تركه ربه في الفقر والشدة. وخص الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد فأنفع الجمادات هو المال وأنفع الحيوانات هو الولد فالكافر إذا لم ينتفع بهما في الآخرة البتة دل ذلك على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بالطريق الأولى ﴿**وأولئك أصحاب النار**﴾ أي مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿**هم فيها خالدون**﴾ أبدا ولما بين أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك فأزال الله بهذه الآية تلك الشبهة وبين أنهم لا

ينتفعون بتلك الإنفاقات وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله فقال: ﴿**مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا**﴾ أي حال ما ينفقه الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة وطلباً لحسن الذكر بين الناس وعداوة لأهل الإسلام كما أنفق أبو سفيان وأصحابه مالاً كثيراً على الكفار يوم بدر واحد ﴿**كمثل ريح فيها صر**﴾ أي برد شديد مهلك فإنه في الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح البارد كالصرصر ﴿**أصابت حرث قوم**﴾ أي زرع قوم ﴿**ظلموا أنفسهم**﴾ بالكفر والمعاصي فباؤوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿**فأهلكته**﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثراً ولا عثيراً والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع مّا بحرث كفار ضربته صرّ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة بوجه من الوجوه فهو من التشبيه المركب ﴿**وما ظلمهم الله**﴾ بما بين من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿**ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ لما أنهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص.

واعلم أن إنفاق الكفار إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبق منه أثر البتة في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة ولعلهم أنفقوا أموالهم في الخيرات ببناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيراً كثيراً فإذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات وكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كثيراً فأصابه ريح فأحرقه ولا يبقى معه إلا الحزن والأسف هذا إذا أنفقوا الأموال في وجوه الخيرات. أما إذا أنفقوها فيما ظنوا أنه من الخيرات لكنه كان من المعاصي مثل إنفاق الأموال في إيذاء الرسول وفي قتل المؤمنين وتخريب ديارهم فالذي قلنا فيه أشد وأشد ونظير هذه الآية ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] ويدخل فيه ما ينفقه بعض صاحبي الغرض لنفي رجل صالح من بلده أو قتله أو إيذائه ونعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن جسده فيم أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» فليبادر العاقل إلى الإنفاق من ماله والإخلاص في عمله قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء يوم القيامة بصحف مختومة فتنصب بين يدي الله عز وجل فيقول الله تعالى للملائكة ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول وهو أعلم: إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أبتغي به وجهي».

ز عمرو اي پسر چشم أجرت مدار چو در خانه زيد باشى بكار
چه قدر آورد بنده حورديس كه زير قبا دارد اندام پيس

قال منصور بن عمار رحمه الله: كان لي أخ في الله يعتقدني ويزورني في شدتي ورخائي وكان كثير العبادة والتهجد والبكاء ففقدته أياماً فقيل لي هو ضعيف مريض فأتيت بابه فطرقته فخرجت ابنته فدخلت فوجدته في وسط الدار وهو مضطجع على فراشه وقد اسود وجهه وازرقت عيناه وغلظت شفتاه فقلت له: يا أخي أكثر من قول لا إله إلا الله ففتح عينيه ونظر إليّ شزرا ثم وثم حتى قلت له: لئن لم تقلها لا غسلتك ولا كفنتك ولا صليت عليك فقال: يا أخي منصور هذه كلمة قد حيل بيني وبينها فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام؟ فقال: يا أخي كل ذلك كان لغير وجه الله إنما كنت أفعل ذلك ليقال وأذكر به وإذا خلوت بنفسي غلقت الأبواب وأرخيت الستور وبارزت ربي بالمعاصي:

ور آوازه خـواهـى در إقـلـيـم فـاش بـرون حـلـه كـن درون حـشـو بـاش

فلا غرور للعاقل بكثرة الأعمال والأولاد والأموال إذا لم تكن نيته صحيحة فيما يجري عليه من الأحوال فأين الذين آثروا العقبى بل المولى على كل ما سواه فوجدوا الفقر أعز من الغنى والذل ألذ من العزة وبذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل الله لعمري قوم عزيز الوجود وقليل ما هم وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١-٢] ثم قال: «يقول ابن آدم: مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» قال عليه الصلاة والسلام: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه» وقال عليه السلام: «اللهم من أحبني فارزقه العفاف والكفاف ومن أبغضني فأكثر ماله وولده» فقد وقفت أيها العبد على حقيقة الحال وأن المال لا يغني عن المرء شيئاً فعليك بالقناعة وتقليل الدنيا ولا تغتر بأصحاب الأموال والجاه.

از پـي ذكـر وشـوق حـق مـارا در دو عـالـم دل وز بـانـى بـس
وز طـعـام ولـبـاس أهـل جـهـان كـهـنـه دلـقـى ونـيـم نـانـى بـس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهاهم الله عن ذلك بقوله: **﴿لا تتخذوا بطانة﴾** بطانة الرجل صاحب وليجته من يعرف أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب التي تلي بطنه كما شبه بالشعار قال عليه السلام: «الأنصار شعار والناس دثار» **﴿من دونكم﴾** أي: من دون المسلمين متعلق بلا تتخذوا **﴿لا يألونكم خبالا﴾** يقال: ألا في الأمر إذا قصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم لا آلوك نصحاً على تضمين معنى المنع أي لا أمنعك نصحاً والخبال الفساد أي لا يقصرون لكم في الفساد بالمكر والخديعة ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر **﴿ودوا ما عنتم﴾** أي تمنوا عنتكم أي مشقتكم وشدة ضرركم في دينكم ودنياكم والفرق بين الجملة الأولى وبين هذه أن معناهما أنهم لا يقصرون ضرراً في أمور دينكم ودنياكم فإن عجزوا عن ذلك فحب ذلك وتمنيه غير زائل من قلوبهم **﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾** البغضاء شدة البغض أي قد ظهرت علامة العداوة في كلامهم الخارج من أفواههم لما أنهم يتمالكون مع مبالغتهم في ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين **﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾** مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار **﴿قد بينا لكم الآيات﴾** الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين **﴿إن كنتم تعقلون﴾** ما بينا لكم فتعملون به والظاهر أن الجمل من قوله لا يألونكم إلى هنا تكون مستأنفات على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة.

﴿ها أنتم أولاء﴾ أي أنتم أيها المؤمنون أولاء المخطئون في موالاتهم **﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾** لما بينكم من مخالفة الدين **﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾** أي بجنس الكتاب جميعاً وهو حال من الضمير المفعول في لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم

فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا﴾ نفاقاً ﴿وإذا خلوا﴾ فكان بعضهم مكان بعض ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ أي: من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً. والأنامل جمع أنملة بضم الميم وهو الطرف الأعلى من الأصبع. والغيظ شدة الغضب. قال الإمام: والمعنى أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة على عض الأنامل كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان إنه يعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عض وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكهم فالمراد اللعن والطرد لا على وجه الإيجاب وإلا لماتوا من ساعتهم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: قل لهم إن الله عليم بعداوة الصدور فيعلم ما في صدوركم من البغضاء والحنق.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

﴿إن تمسسكم حسنة﴾ أي تصبكم أيها المؤمنون حسنة بظهوركم على عدو لكم وغنيمة تنالونها وتتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب في معاشكم ﴿تسؤهم﴾ أي تحزنهم حسداً إلى ما نلتم من خير ومنفعة ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ مساءة بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم أو اختلاف يكون بينكم أو جدب ونكبة ﴿يفرحوا بها﴾ يشمتون مما أصابكم من ضرر وشدة وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة ﴿وإن تصبروا﴾ على عداوتهم أو على مشاق التكاليف ﴿وتتقوا﴾ ما حرم الله عليكم ونهاكم عنه ﴿لا يضركم كيدهم﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم. والكيد حيلة لطيفة تقرب وقوع المكيد به فيها ﴿شيئاً﴾ نصب على المصدرية أي لا يضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المجد في الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئاً على الخصم ﴿إن الله بما يعملون﴾ في عداوتكم من الكيد ﴿محيط﴾ علماً فيعاقبهم على ذلك. والإحاطة إدراك الشيء بكماله، فينبغي للمرء أن يجانب أعداء الله ويصبر على أذاهم فإنه امتحان له من الله مع أنهم لا يقدرون على غير القدح باللسان كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] والطعن لم يتخلص منه الأنبياء والأولياء فكيف أنت يا رجل وكلنا ذلك الرجل:

تورُوى ازپر ستيدن حق مپيچ ... مهل تانكيرند خلقت بهيچ

رهايى نيابدكس ازدست كس ... كرفتاررا چاره صبرست وبس

وفي قوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ إشارة إلى أن الحامل لأسرار الرجل ينبغي أن يكون من جنسه معتمداً عليه مؤتمناً وربما يفشي الرجل سره إلى من لم يجربه في كل حاله فيفتضح عند الناس:

إن الـرجـال صـنـاديـق مـقـفـلـة وما مـفـاتـيـحـهـا إلا الـتـجـاريـب

فلا تغتر بظاهر إنسان حتى تعرف سريرته، قال الإمام الغزالي: ولا تعول على مودة من لم تختبره حق الخبرة بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه فإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً إن كان صغيراً أو أخاً إن كان مثلاً لك وإذا بلغك من الإخوان غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوؤك فكل أمرهم إلى الله ولا تشغل نفسك بالمكافاة فيزيد الضرر ويضيع العمر لشغله، ومن بلاغات الزمخشري ما قدع السفيه بمثل الإعراض وما أطلق عنانه بمثل العراض أي المعارضة، ونعم ما قيل:

اصـبـر عـلـى مـضـض الـحـسـو د فـإن صـبـرك قـاتـلـه

والـنـار تـأكـل نـفـسـهـا إن لـم تـجـد مـا تـأكـلـه

فالمجاملة من سير الصالحين.

وكان إبراهيم بن أدهم في جماعة من أصحابه فكان يعمل بالنهار وينفق عليهم ويجتمعون بالليل في موضع وهم صيام فكان يبطىء في الرجوع من العمل فقالوا ليلة: تعالوا بنا نجعل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا أسرع فأفطروا وناموا فلما رجع إبراهيم وجدهم نياماً فقال: مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق هناك فعجنه وأوقد النار وطرح الملة فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعاً محاسنه على التراب فقالوا له في ذلك فقال: قلت لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم فأحببت أن تستيقظوا والملة قد أدركت فقال بعضهم لبعض: أبصروا أيّ شيء عملنا وما الذي به يعاملنا:

بـدى را بـدى سـهـل بـاشـد جـزا اكـر مـردى أحـسـن إلـى مـن أسـاء

قال ذو النون رحمه الله: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة فليسارع العبد إلى تحصيل حسن الخلق وتوطين النفس على الصبر على المكاره حتى يفوز مع الفائزين. قال بعضهم: كنت بمكة فرأيت فقيراً طاف بالبيت وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومر فلما كان بالغد فعل مثل ذلك فترقبته أياماً وهو يفعل مثله فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة وتباعد قليلاً وسقط ميتاً فأخرجت الرقعة من جيبه وإذا فيها ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في وصيته لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضى في اليقين فافعل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير» ومقاساة المجاهدات ومخالفة النفس وترك الشهوات واللذات والتزام الفقر والصبر على المكروهات من ديدن السلف الصالحين وأهل النفس الأمارة وإن كان يبدو من فمه علامات البغض لأمثال هؤلاء الأخيار لكنه في الحقيقة يعود ضرره إلى نفسه والمرء بالصبر على ما جاء به من مكاره اعتراضه الفاسد يكون مأجوراً ومثاباً عند الله تعالى وتباين الناس بالصلاح والفساد وغير ذلك خير محض يعتبره العاقل ويزكي نفسه به فيا أيها الصلحاء إن الأشرار متسلطون على الأخيار بالطعن وقصد الأضرار ولكن المتقي في حصن الله الملك الجبار.

﴿وإذ غدوت﴾ أي اذكر لهم يا محمد وقت خروجك غدوة أي أول النهار إلى أحد ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى لا

يضرهم كيد الكفرة ﴿من أهلك﴾ من منزل عائشة رضي الله عنها في المدينة وهذا نص على أن عائشة رضي الله عنها كانت أهلاً للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦] فدل هذا على أنها كانت مطهرة مبرأة من كل قبيح ألا يرى أن ولد نوح لما كان كافراً قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦] وكذا امرأة لوط ﴿تبوىء المؤمنين﴾ أي تنزلهم ﴿مقاعد﴾ كائنة ومهيئة ﴿للقتال﴾ أو متعلق بقوله: تبوىء أي لأجل القتال. والمقاعد جمع مقعد وهو اسم لمكان القعود عبر عن تلك الأماكن التي عينت لكل واحد من الصحابة أن يبيت في ما عين له من تلك الأماكن إما بأن يتسع في استعمال القعود لمجرد المكان مع قطع النظر عن كونه مكان القعود كما في قوله تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [القمر: ٥٥] وإما لأن كل مكان إنما عين لصاحبه لأن يقعد وينتظر فيه إلى أن يجيء العدو فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسميت تلك الأماكن بالمقاعد لهذا الوجه.

ـ روي ـ أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله ابن أبي ابن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم وقال عليه السلام: «إني رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي» أي قطيعاً منها «فأولتها خيراً ورأيت في ذبان سيفي ثلماً» أي كسرا «فأولته هزيمة ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم» فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: أخرج بنا إلى أعدائنا طلباً لسعادة الشهادة وطمعاً في الحسنى والزيادة فلم يزالوا به عليه الصلاة والسلام حتى دخل وليس لأمته أي درعه فلما رأوا ذلك ندموا وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحي يأتيه وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال: «ما ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل» وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس فخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة بعد ما صلى الجمعة وصلى على رجل من الأنصار مات فيه فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة فمشى على راحلته فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدراً خارجاً قال تأخر وكان نزوله في عدوة الوادي أي طرفه وجانبه وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل» أي ادفعوا العدو عنا بالسهم حتى لا يأتونا من ورائنا «ولا تبرحوا مكانكم فإذا عاينوكم وولوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين» ثم إن الرسول ﷺ لما خالف رأى عبد الله بن أبي وكان من قدماء أهل المدينة ورئيس المنافقين شق عليه ذلك وقال: أطاع الولدان وعصاني ثم قال لأصحابه إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا فسيتبعونكم ويصير الأمر على خلاف ما قاله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين وكان عليه السلام قد خرج في ألف رجل أو تسعمائة وخمسين رجلاً فلما بلغوا الشوط رجع ابن أبيّ بثلاثمائة وبقيت سبعمائة فقال لقومه: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟

فتبعهم أبو جابر السلمي وقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم وكان الحيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس جناحي عسكر رسول الله ﷺ فهمَّا باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وقواهم الله تعالى حتى هزموا المشركين فلما رأى المؤمنون انهزام القوم طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر فطلبوا المدبرين فتركوا الموضع الذي أمرهم النبي عليه السلام بالثبات فيه ثم اشتغلوا بطلب الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ فأراد الله أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على مخالفة الرسول ﷺ وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله ومتى تركهم الله مع عدوهم لم يقوموا لهم فنزع الله الرعب من قلوب المشركين وكانوا ثلاثة آلاف رجل فحملوا على المؤمنين وتفرق العسكر عن رسول الله عليه السلام حتى بقي معه سبعة من الأنصار ورجلان من قريش فلما قصد الكفار النبي عليه الصلاة والسلام شجوا رأسه وكسروا رباعيته وثبت معه عليه السلام يومئذٍ طلحة ووقاه بيده فشلت أصبعاه وصار مجروحاً في أربعة وعشرين موضعاً ولما أصابه عليه السلام ما أصاب من الشجة وكسر الرباعية وغلب عليه الغشي احتمله طلحة ورجع القهقرى وكلما أدركه واحد من المشركين كان يضعه عليه السلام ويقاتله حتى أوصله إلى الصيحة وكان عليه السلام يقول: «أوجب طلحة» ووقعت الصيحة في العسكر أن محمداً قد قتل وكان في جملة الصحابة رجل من الأنصار يكنى أبا سفيان نادى الأنصار وقال: هذا رسول الله فرجع إليه المهاجرون والأنصار فشمل عز الشهادة اثنين وسبعين من المؤمنين واختص بشرائف نعم الله وجلائل كرمه حمزة سيد الشهداء وهنيئاً له إذ مثل به وكثر فيهم الجراح فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله رجلاً ذب عن إخوانه وشد على المشركين بمن معه حتى كشفهم عن القتلى والجرحى وأعانهم الله حتى هزموا الكفار» ثم إن كل ذلك يؤكد قوله تعالى: ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً**﴾ وأن المقبل من أعانه الله والمدبر من خذله الله ومن الله العصمة ﴿**والله سميع عليم**﴾ لما شاور النبي عليه السلام أصحابه في ذلك الحرب وقال بعضهم: أقم بالمدينة وقال آخرون: اخرج إليهم وكان لكل أحد غرض في قوله فمن موافق ومن منافق قال تعالى: أنا سميع لما يقولون عليم بما يسرون.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿**إذ همت**﴾ بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير. والهم تعلق الخاطر بما له قدر ﴿**طائفتان منكم**﴾ أيها المؤمنون وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ﴿**أن تفشلا**﴾ أي بأن تجبنا وتضعفا وترجعا لظنهما الصواب فيه. والفشل الضعف والظاهر أن همهما ليس بمعنى العزم والقصد المصمم وإنما هو خطرات وحديث نفس كما لا تخلو النفس عند الشدائد من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه ﴿**والله وليهما**﴾ أي عاصمهما من اتباع تلك الخطرات والجملة اعتراض ﴿**وعلى الله**﴾ وحده دون ما عداه مطلقاً استقلالاً واشتراكاً ﴿**فليتوكل المؤمنون**﴾ في جميع أمورهم فإنه حسبهم وفيه إشعار بأن

وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته والتوكل الاعتماد على الغير وإظهار العجز.

قال الإمام: وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل. قال سهل بن عبد الله التستري: جملة العلوم أدنى باب من التعبد وجملة التعبد أدنى باب من الورع وجملة الورع أدنى باب من الزهد وجملة الزهد أدنى باب من التوكل. وقال أيضاً علامة المتوكل ثلاث لا يسأل ولا يرد ولا يحبس. وكان إبراهيم الخواص رحمه الله مجرداً في التوكل وكان لا يفارقه إبرة وخيوط وركوة ومقراض فقيل له: يا أبا إسحٰق لم تحمل هذا وأنت ممتنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقص التوكل لأن لله علينا فرائض والفقير لا يكون عليه غير ثوب واحد فربما يتمزق ثوبه فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته. قال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت: لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسدّ رأس هذا البئر لئلا يقع فيها أحد فأتوا بقصب وطمسوا البئر فهممت أن أصيح ثم قلت في نفسي أشكو إلى من هو أقرب منهما فسكت فبينما أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء قد جاء وكشف عن رأس البئر وأدخل رجله وكأنه يقول لي: تعلق بي في هينمة له كنت أعرف ذلك منها فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن؟ نجيناك من التلف بالتلف فمشيت. قال بعضهم: من وقع في ميدان التفويض يزف إليه المراد كما تزف العروس إلى أهلها، ولما زج بإبراهيم عليه السلام في المنجنيق وأتاه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: إما إليك فلا وإما إلى الله فبلى قال: سله قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي وقد قال نبينا عليه السلام: «يقول الله تعالى فمن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» فعلى السالك أن يتوكل على الله ويفوض أمره إليه فإن كل ما قضى وقدر لا يرد ألبتة وإن تعدت نفسك في ذلك.

قضا كشتى آنجا كه خواهد برد   وكرنا خدا جامه برتن درد

يكفيك علم الله بحالك فاقطع نظرك عن الأسباب والفتح ليس إلا من مفتح الأبواب.

مكن سعديا ديده بردست كس   كه بخشنده بروردكارست وبس

اكر حق پرستى زدرها بسست   كه كروى بداند نخواند كسست

﴿**ولقد نصركم الله ببدر**﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبدر بئر ماء بين مكة والمدينة حافرها رجل اسمه بدر فسمي به وكانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿**وأنتم أذلة**﴾ حال من الضمير جمع ذليل وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائل بجمع الكثرة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد للمقداد بن الأسود وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله وتسعون بعيراً وست أدرع وثمانية سيوف وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ستة وسبعون من المهاجرين وبقيتهم من الأنصار وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة وكان صاحب راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ

﴿فاتقوا الله﴾ في الثبات مع رسوله كما اتقيتم يومئذٍ ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي راجين أن تشكروا بما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة ﴿إذ تقول﴾ ظرف لنصركم وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر. والإمداد إعانة الجيش بالجيش والمعنى إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة أن للاشعار بأنهم كانوا حينئذٍ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرته ﴿منزلين﴾ أي حال كونهم نازلين من السماء بإذنه تعالى. قيل: أمدهم الله أولاً بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقووا بنصر الله.

﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد أن وتحقيق له أي بلى يكفيكم ذلك ثم وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إن تصبروا﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿وتتقوا﴾ معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ﴿ويأتوكم﴾ أي إن يجيئكم المشركون ﴿من فورهم هذا﴾ أي من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم يريد أن الله يعجل نصرتكم ويسهل فتحكم إن صبرتم واتقيتم ﴿مسومين﴾ من التسويم الذي هو إظهار سيما الشيء أي معلمين أنفسهم أو خيلهم في أذنابها ونواصيها بالصوف الأبيض قال عليه السلام لأصحابه: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت».

- روي - أن الملائكة كانوا بعمائم بيض إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام ونزلوا على الخيل البلق موافقة لفرس المقداد وإكراماً له.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وما جعله الله﴾ عطف على مقدر أي فأمدكم به وما جعل الله ذلك الإمداد بإنزال الملائكة عياناً بشيء من الأشياء ﴿إلا بشرى لكم﴾ بأنكم تنصرون ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أي بالإمداد وتسكن إليه من الخوف كما كانت السكينة لبني إسرائيل ﴿وما النصر إلا﴾ كائن ﴿من عند الله﴾ لا من العدة والعدد وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مدد وإنما أمدهم بشارة لهم وربطاً على قلوبهم من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر فينبغي للمؤمن أن لا يركن إلى شيء من ذلك فإن ترتب النصر عليها ليس إلا بطريق جري العادة ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب في حكمه وقضيته ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿ليقطع﴾ متعلق بنصركم أي نصركم الله يوم بدر ليهلك وينقص ﴿طرفاً من الذين كفروا﴾ أي طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿أو يكبتهم﴾ أي يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فإن الكبت شدة غيظ أو وهن يقع في القلب من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وأو للتنويع دون الترديد ﴿فينقلبوا خائبين﴾ غير ظافرين بمبتغاهم وينهزموا منقطعي الآمال. والخيبة هو الحرمان من المطلوب

والفرق بينها وبين اليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد التوقع وأما اليأس فإنه قد يكون بعد التوقع وقبله فنقيض اليأس الرجاء ونقيض الخيبة الظفر **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾** اعتراض **﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾** عطف على قوله أو يكبتهم والمعنى أن الله مالك أمرهم على الإطلاق فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم تعذيباً شديداً أخروياً إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم **﴿فإنهم ظالمون﴾** قد استحقوا التعذيب بظلمهم **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾** من الموجودات خلقاً وملكاً لا مدخل فيه لأحد أصلاً فله الأمر كله **﴿يغفر لمن يشاء﴾** أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكم والمصالح **﴿ويعذب من يشاء﴾** أن يعذبه وقدم المغفرة لسبق رحمته تعالى غضبه وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له **﴿والله غفور رحيم﴾** لعباده والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفضل والإحسان، فليبادر العاقل إلى الأعمال التي يستوجب بها رحمة الله تعالى ولا ييأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام [يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين] قال: يا رب فكيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين قال: [بشر المذنبين بأني لا يتعاظمني ذنب إلا أغفره وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم وإني لا أضع عدلي وحسابي على أحد إلا أهلكه] وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه دخل على النبي عليه السلام فوجده يبكي فقال: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «جاءني جبريل فقال: إن الله يستحيي أن يعذب أحداً قد شاب في الإسلام فكيف لا يستحي من شاب في الإسلام أن يعصي الله» فالواجب على الشيخ أن يعرف هذه الكرامة ويشكر الله ويستحي منه ومن الكرام الكاتبين ويمتنع من المعاصي ويكون مقبلاً على طاعة ربه فإنه في ساحل بحر المنون.

ـ روي ـ أن الحجاج لما أقام بالعراق يرهب ويفتك حتى استوثقت له الأمور خرج عليه عبد الرحمٰن بن الأشعث بأهل العراق فأمده عبد الملك بأهل الشام فكانوا شيعته واستمرت بينه وبين ابن الأشعث الوقائع حتى هزمه الحجاج بدير الجماجم بعد ثمانين وقعة في ستة أشهر وكان مع ابن الأشعث أكثر من مائتي ألف فلما هزموا قال الحجاج لأصحابه: اتركوهم فليتبددوا ولا تتبعوهم ثم نادى مناديه من رجع فهو آمن ودخل الكوفة وجاء الناس من المنهزمين يبايعونه فكان يقول لمن جاء يبايعه اشهد على نفسك بالكفر وخروجك عن الجماعة ثم تب فإن شهد وإلا قتله فأتاه رجل من خثعم فقال: اشهد على نفسك بالكفر فقال: إن كنت عبدت ربي ثمانين سنة ثم اشهد على نفسي بالكفر لبئس العبد أنا والله ما بقي من عمري إلا ظمىء حمار وإنني أنتظر الموت صباحاً ومساءاً فأمر به فضرب عنقه وقدم بعده شيخ فقال الحجاج: ما أظن الشيخ يشهد على نفسه بالكفر فقال: يا حجاج أخادعي أنت عن نفسي أنا أعرف بها منك وأني لأكفر من فرعون وهامان فضحك الحجاج وخلى سبيله فانظر إلى ضعف إيمانه كيف ارتكب هذا القبح بعدما جاوز حد الشباب الذي ليس بعده إلا انتظار الموت صباحاً ومساءً من إقراره بالكفر مع غاية شيبه ومن لم تتداركه العناية الأزلية لم يجىء منه شيء. فعلى السالك أن يطمئن قلبه بالإيمان ويجتهد إلى أن يصل إلى قوة اليقين ومن قوة اليقين التوحيد وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ويرى الوسائط مسخرة لحكمه ولا ريب أن قوة

اليقين بتصفية القلب عن كدورات النفس.

چو پاك آفريدت بهش باش پاك كه ننكست نا پاك رفتن بخاك

پياپي بيفشان از آيينه كرد كه صيقل نكيرد چو زينكار خورد

وجلاء القلب إنما يحصل بذكر الله وتلاوة القرآن والصلاة على النبي عليه السلام وخير الأذكار كلمة التوحيد وهي العروة الوثقى، قال إبراهيم الخواص قدس سره: دواء القلب خمسة: تلاوة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع إلى الله تعالى عند السحر، ومجالسة الصالحين. فعليك بالمواظبة لهذه الخصال لعلك تصل إلى التزكية ودرجة الكمال بعون الله الملك العزيز المتعال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا﴾ والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع **﴿أضعافاً مضاعفة﴾** زيادات مكررة كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ولم يكن المديون واجداً لذلك المال قال: زدني في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها. وأضعافاً جمع ضعف حال من الربا أي متضاعفاً ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة اتبعه بما يدل على الكثرة حيث وصفه بقوله مضاعفة وهي اسم مفعول لا مصدر وهذه الحال ليست لتقييد النهي بها حيث تنتفي الحرمة عند انتفائها بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخاً لهم على ذلك **﴿واتقوا الله﴾** فيما نهيتم عنه خصوصاً الربا وعمله **﴿لعلكم تفلحون﴾** راجين الفلاح.

﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونه وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار وبالعرض للعصاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في أصناف محارمه.

﴿وأطيعوا الله﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه **﴿والرسول﴾** الذي يبلغكم أوامره ونواهيه **﴿لعلكم ترحمون﴾** راجين لرحمته ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل عزة التوصل إلى ما جعل خبراً له.

قال القاشاني: ولا يخفى على الفطن ما فيه من المبالغة في التهديد على الربا حيث أتى بلعل في فلاح من اتقاه واجتنبه لأن تعليق إمكان الفلاح ورجاءه بالاجتناب منه يستلزم امتناع الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه ويتقوه مع إيمانهم. ثم أوعد عليه بالنار التي أعدت للكافرين مع كونهم مؤمنين فما أعظمها من مصيبة توجب عقاب الكفار للمؤمنين وما أشده من تغليظ عليه ثم أمد التغليظ بالأمر بطاعة الله ورسوله تعريضاً بأن آكل الربا منهمك في المعصية لا طاعة له ثم علق رجاء المؤمنين بطاعة الله ورسوله إشعاراً بأنه لا رجاء للرحمة مع هذا النوع من العصيان فهو يوجب اليأس من رحمته للمؤمنين لامتناعها لهم معه فانظر كيف درج التغليظ في التهديد حتى ألحقه بالكفار في الجزاء والعقاب انتهى بعبارته. قال رسول الله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل» والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال على الوجه

الذي نهى الله عنه وهو قسمان: ربا النسيئة، وربا الفضل. أما ربا النسيئة فهو ما كان يتعارفه أهل الجاهلية ويتعاملون به وقد سبق آنفاً. وأما ربا الفضل أي أخذ الفضل عند مقابلة الجنس بالجنس نقداً فهو أن يباع منّ من الحنطة بمنين منها وما أشبه ذلك وقد اتفق جمهور العلماء على تحريم الربا في القسمين.

واعلم أن الربا يؤدي إلى الحرص على طلب الدنيا أضعافاً مضاعفة إلى ما لا يتناهى كما قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» والحرص درك من دركات النيران فلذا قال: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾.

قناعت كن اي نفس بد اند كي كه سلطان ودرويش بيني يكى

فالحرص على الدنيا وسعيها وجمعها مذموم منهي عنه والبذل والإيثار وترك الدنيا والقناعة فيها محمود مأمور به يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦] فمن أخذ الربا لتكثير المال بلا احتياج كان كمن يقع على أمه نعوذ بالله.

ـ روي ـ عن عبد الله بن سلام للربا اثنان وسبعون حوباً أصغرها كمن أتى أمه في الإسلام كذا في «تنبيه الغافلين». وإذا أخذه بوجه شرعي مع الاحتياج يجوز في الفتوى ولكن التقوى فوق أمر الفتوى والحيلة الشرعية فيه ذكرها قاضيخان حيث قال رجل له على رجل عشرة دراهم فأراد أن يجعلها ثلاثة عشر قالوا: يشتري من المديون شيئاً بتلك العشرة ويقبض المبيع ثم يبيعه من المديون بثلاثة عشر إلى سنة فيقع التحرز عن الحرام ومثل هذا مروي عن رسول الله ﷺ وإذا احتاج إلى الاستقراض فاستقرض من رجل فلم يعطه إلا بالربا فالإثم على آخذ الربا دون معطيه لأن له فيه ضرورة وهذا إذا كان الآخذ غنياً كما عرفت فالمرء الصالح يتباعد عن مثل هذه المعاملات فإن الربا يضر بإيمان المؤمنين وهو وإن كان زيادة في الحال لكنه نقصان في الحقيقة فإن الفقراء الذين يشاهدون أن المرابي يأخذ أموالهم بسبب الربا يلعنونه ويدعون عليه وذلك يكون سبباً لزوال الخير والبركة عنه في نفسه وماله بل عما يتفرع من نقص عرضه وقدره وتوجه مذمة الناس إليه وسقوط عدالته وزوال أمانته وفسق القلب وغلظته. وآخذ الربا لا يقبل الله منه صدقة ولا جهاداً ولا حجاً ولا صلاة وقد ثبت في الحديث «أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام» فإذا كان الغني من الوجه الشرعي الحلال كذلك فما ظنك بالغني من الوجه الحرام؟ فالإنسان مع فقره وحاجته إذا توكل على الله وأحسن إلى عبيده فالله تعالى لا يتركه ضائعاً جائعاً في الدنيا بل يزيد كل يوم في جاهه وذكره الجميل ويميل قلوب الناس إليه. وأما إذا كان بخلاف ذلك فيكون أمره عسيراً في الدنيا والآخرة والعمل السوء ينزع به الإيمان عند الموت فيستحق به صاحبه الخلود في النار كالكفار نعوذ بالله من ذلك. وروى أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة رحمه الله أكثر ما ينزع الإيمان لأجل الذنوب من العبد عند الموت وأسرعها نزعاً للإيمان ظلم العباد فاتق أيها المؤمن من الله ولا تظلم عباد الله بأخذ أموالهم من أيديهم بغير حق فإنه حوب كبير عصمنا الله وإياكم من سوء الحال.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿وسارعوا﴾ أي بادروا وأقبلوا ﴿إلى مغفرة﴾ كائنة ﴿من ربكم وجنة﴾ إلى ما يستحقان به كالإسلام والتوبة والإخلاص وأداء الواجبات وترك المنهيات ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي كعرضهما صفة لجنة وذكر العرض للمبالغة في وضعها بالسعة على طريقة التمثيل فإن العرض في العادة أدنى من الطول ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت لهم صفة أخرى الجنة. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم. أما الأول فلدلالة لفظ الماضي. وأما الثاني فلأن ما يكون عرضه كعرض جميع هذا العالم لا يكون داخلاً فيه.

ـ روي ـ أن رسول هرقل سأل رسول الله ﷺ فقال: إنك تدعو إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار» والمعنى والله أعلم إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل.

﴿الذين ينفقون﴾ كل ما يصلح للإنفاق وهو صفة مادحة للمتقين ﴿في السراء والضراء﴾ أي في حالتي الرخاء والشدة أي الغنى والفقر واليسر والعسر وفي الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أي لا يخلون في حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير ﴿والكاظمين الغيظ﴾ عطف على الموصول والكظم الحبس والغيظ توقد حرارة القلب من الغضب أي الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ﴿والعافين عن الناس﴾ أي التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته ﴿والله يحب المحسنين﴾ الذين عمت فواضلهم وتمت فضائلهم. ولامه يصلح للجنس فيدخل تحته هؤلاء والعهد فتكون الإشارة إليهم.

واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه أو بدفع الضرر عنه. أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين. ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات قال عليه الصلاة والسلام: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار» وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى وهو المراد بكظم الغيظ قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» وأما في الآخرة وهو أن يبرىء ذمته من التبعات والمطالبات في الآخرة وهو المراد بقوله: ﴿والعافين عن الناس﴾.

ـ روي ـ أنه ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت» فهذه الآية دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فإن محبة الله العبد أعظم درجات الثواب. قال الفضيل بن عياض: الإحسان بعد الإحسان مكافأة والإساءة بعد الإساءة مجازاة والإحسان بعد الإساءة كرم وجود والإساءة بعد الإحسان لؤم وشؤم.

ـ حكي ـ أن خادماً كان قائماً على رأس الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو مع أضيافه في المائدة فانحرفت قصعة كانت في يد الخادم فسقط منها شيء على الحسن فقال: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوت عنك فقال: ﴿والله يحب المحسنين﴾

قال: أنت حر لوجه الله وقد زوجتك فلانة فتاتي وعليّ ما يصلحكما، قال الفاضل الجامي:

جوانمردا جوانمردى بياموز | زمردان جهان مردى بياموز
درون ازكين كين جويان نكه دار | زبان از طعن بدكويان نكه دار
نكويى كن بآن كوبا تو بد كرد | كزان بدرخنه در اقبال خودكرد
چو آيين نكو كارى كنى ساز | نكردد جزبتو آن نكويى باز

فعلى العاقل أن يسارع إلى العمل بالحسنات من الإحسان وأنواع الخيرات سريعاً قبل الفوات لأن في التأخير آفات:

كنون وقت تخمست اكر پروري | كراميد دارى كه خرمن برى

يعني إن كنت تأمل الجنة فاعبد ربك بأنواع العبادات ما دمت في الحياة فإن الفرصة غنيمة والمتأخر عن السير إلى الله مغبون قيل:

بيا ساقي كه في التأخير آفات

ومن أضاع عمره في الهوى فلا يلحقه يوم القيامة إلا الحسرة والندامة.

بمايه توان اى پسر سود كرد | چه سود آيد آنراكه سرمايه خورد

والله تعالى خلق الإنسان لدخول الجنة ودرجاتها والنار ودركاتها ثم أرسل المرسلين مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار وحث بالاتقاء والحذر عن النار كما قال: **﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾** وحرض على المسارعة إلى الجنة بقوله: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾** أي سارعوا بقدم التقوى إلى مقام من مقامات قرب ربكم **﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾** يعني طولها فوق السموات والأرض. والإشارة فيه أن الوصول إليها بعد العبور من ملك السموات والأرض وهو المحسوسات التي تدركها الحواس الخمس والعبور عنها إنما يكون بقدم التقوى الذي هو تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة كما قال: **﴿أعدت للمتقين﴾** فإن قدم التقوى الذي يولج به في عالم الملكوت هو التزكية ويدل عليه ما قال عيسى عليه الصلاة والسلام: [لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين] فالولادة الثانية هي الخروج عن الصفات الحيوانية بتزكية النفس عنها وولوج الملكوت وهو التحلية بالصفات الروحانية وقوله: **﴿أعدت للمتقين﴾** أي هم مخصوصون بها ومراتبهم في الدرجات العلى وهو بقدر تقوى النفوس وتزكيتها عصمنا الله وإياكم من الشرور والأوزار وشرفنا بمقامات الأبرار والأخيار.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي فعلة بالغة في القبح كالزنى **﴿أو ظلموا أنفسهم﴾** بأن أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذ به الإنسان أو الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك **﴿ذكروا الله﴾** تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده **﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾** بأن يندموا على ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل وأما مجرد الاستغفار باللسان فلا أثر له في إزالة الذنب وإنما هو حظ اللسان من الاستغفار وهو توبة الكذابين **﴿ومن﴾** استفهام إنكاري أي لا **﴿يغفر الذنوب﴾**

أي جنس الذنوب أحد ﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير المستكن في يغفر وهو اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه تصويباً للتائبين وتطييباً لقلوبهم وبشارة لهم بوصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإجلالاً لهم وإعلاء لقدرهم بأنهم علموا أن لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه وأن من كرمه أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له وأن العبد إذا التجأ إليه في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه عفا عنه وتجاوز عن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم وتحريضاً للعباد على التوبة وبعثاً عليها وعلى الرجاء وردعاً عن اليأس والقنوط ﴿ولم يصروا﴾ عطف على فاستغفروا أي لم يقيموا ﴿على ما فعلوا﴾ من الذنوب فاحشة كانت أو ظلماً غير مستغفرين لقوله عليه السلام: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» و«لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» أي الصغيرة مع الإصرار كبيرة ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فاعل يصروا أي لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه وبالنهي عنه والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به.

﴿أولئك﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿جزاؤهم﴾ أي ثوابهم ﴿مغفرة﴾ كائنة ﴿من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي لهم ذخر لا يبخس وأجر لا يوكس وجنات لا تنقضي ولذات لا تمضي ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك أي ما ذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالأجر المشعر بأنهما تستحقان بمقابلة العمل وإن كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر عن المعاصي قال رسول الله ﷺ عن ربه تبارك قال: «ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك. ابن آدم إنك إن تلقني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئاً. ابن آدم إنك إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرني أغفر لك» قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية وهي قوله: ﴿والذين﴾ الآية وقال ﷺ: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له».

- روي - أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام [ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل يا موسى كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي]. وعن شهر بن حوشب طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة، وعن رابعة البصرية أنها كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس

قال القشيري رحمه الله: أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام: [قل للظلمة حتى لا يذكروني فإني أوجبت أن أذكر من يذكرني وذكري للظلمة باللعنة].

واعلم أن العمدة هي الإيمان وذلك إنما يحصل بالتوحيد المنافي للشرك وهو المؤدي إلى التوبة والاستغفار ولكونه عمدة عد المؤمن الموحد من المتقين وصار سبباً لدخول الجنة، فينبغي للعبد أن يصرف اختياره إلى جانب الامتثال للأمر والاجتناب عن النهي فالله تعالى خالقه وإن كان التوفيق إلى جانب العمل أيضاً من عنايته تعالى.

نخست أو أرادت بدل درنهاد   پس اين بنده برآستان سرنهاد

وفقني الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى ويداوي بلطفه وكرمه هذه القلوب المرضى فإن

بيده مفاتيح الإصلاح والفوز بالبغية والظفر بالفلاح.

شنيدستم كه إبراهيم ادهم شبى بر تخت دولت خفت خرم
زسقف خود شنيد آواز پايى زجا برجست چون آشفته رايى
بتندى كفت أوكين كيست بربام كه دارد بر سپهر قصر ما كام
جواب آمد كه أي شاه جهانكير شتركم كرده مرد مفلسم پير
زخنده كشت شه برجاي خودست كه بربام آدمى هركز شترجست
دكربار پاسخ آمد كاى جوان بخت خدا جويى كسى كردست برتخت
خدا جويى وخورد وخواب وآرام شتر جويى بود بر كوشه بام
چو بشنيد اين پيام از هاتف غيب فراغت كرد ازدنيا بلا ريب
رسيد ازراه تجريدى بمنزل پس از ادبارشد مقبول ومقبل

فالواجب على طالب الحق أن يحفظ الأدب حتى يرتقي بذلك إلى أعلى الرتب ألا ترى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف كان يستغفر كل يوم سبعين مرة مع أن ذنبه كان مغفوراً وبكمال أدبه وصل إلى ما وصل حتى صار أتباعه سبباً لمحبة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومع ذلك كان خوفه وإجلاله في غاية الكمال وهكذا ينبغي لمن اقتدي به. ورتبة المحسن وإن كانت أولى لكن التدارك أحسن من الإصرار فطوبى لمتدارك وصل إلى الإحسان وأجير نال إلى المحبوبية عند الله الرحمٰن.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أصل الخلو الانفراد والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه ويستعمل أيضاً في الزمان الماضي لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه وكذا الأمم الخالية والسنن الوقائع أي قد مضت من قبل زمانكم وقائع سنها الله في الأمم المكذبة أي وضعها طريقة يسلكها على وفق الحكمة فالمراد بسنن الله تعالى معاملات الله في الأمم بالهلاك والاستئصال بدليل قوله تعالى: **﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** **﴿فسيروا في الأرض﴾** أي إن شككتم في ذلك فسيروا وليس المراد الأمر بالمسافرة في الأرض بسير الاقدام لا محالة بل المقصود تعرف أحوالهم فإن حصلت المعرفة بغير السير حصل المقصود ولعل اختيار لفظ سيروا مبني على أن أثر المشاهدة أقوى من أثر السماع كما قيل ليس الخبر كالمعاينة وفي هذا المعنى قيل:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

﴿فانظروا﴾ بنظر العين والمشاهدة **﴿كيف﴾** خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر والجملة في محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار **﴿كان عاقبة المكذبين﴾** رسلي وأوليائي.

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله قد خلت الخ **﴿بيان للناس﴾** وهم المكذبون أي إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصاً بالمؤمنين

لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا إلى عواقب ما قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعاينون من آثار دمارهم وإن لم يكن الكلام مسوقاً لهم والبيان هو الدلالة على الحق في أي معنى كان بإزالة ما فيه من الشبهة **﴿وهدى﴾** أي زيادة بصيرة وهو مختص بالدلالة والإرشاد إلى طريق الدين القويم والصراط المستقيم ليتدين به ويسلك **﴿وموعظة﴾** وهو الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في الدين **﴿للمتقين﴾** أي لكم والإظهار للإيذان بعلة الحكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم.

واعلم أن الأمم الماضية خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر وبقي عليهم اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة فرغب الله تعالى أمة محمد ﷺ المصدقين في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإنابة والإعراض عن الاغترار بالحظوظ الفانية واللذات المقتضية فإن الدنيا لا تبقى مع المؤمن ولا مع الكافر فالمؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى والكافر بخلافه فاللائق أن يجتهد فيما هو خير وأبقى ولا ينظر إلى زخارف الدنيا. ثم في هذا تسلية للمؤمنين فيما أصابهم يوم أحد فإن الكفار وإن نالوا من المؤمنين بعض النيل لحكمة اقتضته فالعاقبة للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، و﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ولو كانت الغلبة كل مرة للمؤمنين لصار الإيمان ضرورياً وهو خلاف ما تقتضيه الحكمة الإلهية. فعلى العاقل أن يفوض الأمر إلى الله ويعتبر بعين البصيرة في الأمور الخفية والجلية وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

نرود مرغ سوى دانه فراز ... چون دكر مرغ بيند اندر بند

پندكير از مصائب دكران ... تانكيرند ديكران زتو پند

والخوف من العاقبة من الصفات السنية للصلحاء.

ـ روي ـ أنه يعذب الرجل في النار ألف سنة ثم يخرج منها إلى الجنة قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: يا ليتني كنت ذلك الرجل وإنما قال الحسن ذلك لأنه يخاف عاقبة أمره وهكذا كان الصالحون يخافون عاقبة أمرهم وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك» قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إنك لتكثر القول بهذا الدعاء فهل تخشى؟ قال رسول الله ﷺ: «ما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن فإذا أراد أن يقلب قلباً قلبه». قال السدي إني لأنظر في المرآة كل يوم مراراً مخافة أن يكون قد اسود وجهي.

والإشارة في الآيتين أن الله خص السائرين إلى الله بالمهاجرة عن الأوطان والمسافرة إلى البلدان بمفارقة الخلان والأخدان ومصاحبة الإخوان غير الخوّان ليعتبروا من سنن أهل السنن فقال تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾** أي أمم لهم سنن **﴿فسيروا﴾** على سنن أهل السنة **﴿في الأرض﴾** في أرض نفوسكم الحيوانية بالعبور عن أوصافها الدنية وأخلاقها الردية لتبلغوا سماء قلوبكم الروحانية وتتخلقوا بالأخلاق الربانية **﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** أي كيف صار حاصل أمر النفوس الكذبة بهذه المقامات الروحانية والمكاشفات الربانية عند الوصول إليها **﴿هذا بيان للناس﴾** أي لأهل الغفلة والغيبة الناسين عهد الميثاق **﴿وهدى وموعظة**

للمتقين﴾ أي وعيان لأهل الهداية والشهود الذاكرين للعهود الذين اتعظوا بالتجارب والتقوى عما سوى الله تعالى. قال بعض العلماء: يا مغرور امسك وقس يومك بأمسك واتعظ بمن مضى من أبناء جنسك فإنك بك قد خللت في رمسك أين من أسخط مولاه بنيل ما يهواه أين من أفنى عمره في خطاياه فتذكر أنت أيها الغافل مصارعهم وانظر مواضعهم هل نفعهم رفيق رافقوه أو منعهم أما خلوا بخلالهم أما انفردوا بأعمالهم فستصير في مصيرهم فتدبر أمرك وستسكن في مثل مساكنهم فاعمر قبرك يا مسروراً بمنزله الرحب الأنيق ستفارقه يا مشمئزاً من التراب ستعانقه اعتبر بمن سبقك فأنت لاحقه واذكر العهد الأزلي فزك نفسك حياء من الله لعلك تصل إلى ما تهواه من جنات وعيون ومقام كريم ووصال إلى رب رحيم قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] فما ذا يقعدك عن رفقة الصالحين وهل ترضى لنفسك يا مسكين أن تقف في مقام الجهال المعتدين أما علمت أنك غداً تدان كما تدين أصلح الله أحوالنا وصحح أقوالنا وأفعالنا وأعطانا آمالنا وختمنا بالخير إذا بلغنا آجالنا.

﴿ولا تهنوا﴾ من الوهن وهو الضعف أي لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم من الجراح يوم أحد ﴿ولا تحزنوا﴾ على من قتل منكم وهي صيغة نهي ورد للتسكين والتصبير لا النهي عن الحزن ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم في أحوال أسلافهم لأن الباطل يكون زهوقا وأصله أعليون فكرهوا الجمع بين أخت الكسرة والضمة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ والجواب محذوف دل عليه المذكور أي إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه ولا يتعلق بالنهي المذكور لأن الجزاء لا يتقدم على الشرط لكونهما كالكلمة الواحدة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿إن يمسسكم﴾ أي يصبكم ﴿قرح﴾ فتحاً وضماً أي جراحة ﴿فقد مس القوم﴾ أي الكفار ببدر ﴿قرح مثله﴾ قيل قتل المسلمون من الكافرين ببدر سبعين وأسروا سبعين وقتل الكافرون من المسلمين بأحد سبعين وأسروا سبعين والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى بأن لا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون ﴿وتلك الأيام﴾ إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هي داخلة فيها دخولاً أولياً والمراد بها أوقات الظفر والغلبة ﴿نداولها بين الناس﴾ ونصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال:

فيوماً علينا ويوماً لنا ويوماً نساء ويوماً نسرّ

والمداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد وقالوا تداولته الأيدي أي تناقلته وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين وذلك لأن نصره تعالى منصب شريف فلا يليق بالكافر بل المراد أنه تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين وأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في

جميع الأوقات لحصل العلم الضروري والاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي فيكون إما تشديد المحنة عليه في الدنيا أدباً له وإما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله ﴿**وليعلم الله الذين آمنوا**﴾ عطف على علة محذوفة أي نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الله إيذاناً بأن العلة فيما فعل غير واحدة وإنما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم وهو إما من باب التمثيل أي ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم أو هو على حقيقة معتبرة من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث إنه موجود بالفعل إذ هو الذي يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث إنه موجود بالقوة فالمعنى ليعلم الله الذين آمنوا علماً يتعلق به الجزاء ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾ جمع شهيد أي ويكرم ناساً منكم بالشهادة وهم شهداء أحد ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ ونفي المحبة كناية عن البغض أي يبغض الذين يضمرون خلاف ما يظهرون أو الكافرين وهو اعتراض. وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿**وليمحص الله الذين آمنوا**﴾ عطف على يتخذ أي ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿**ويمحق الكافرين**﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم. والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعاً. قال القاشاني: ومن فوائد الابتلاء خروج ما في استعداداتهم من الكمالات إلى الفعل كالصبر والشجاعة وقوة اليقين وقلة المبالاة بالنفس واستيلاء القلب عليها والتسليم لأمر الله وأمثالها.

قال نجم الدين الكبرى ﴿**ولا تهنوا**﴾ يا سائرين إلى الله في السير إليه ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما فاتكم من التنعمات الدنيوية والكرامات الأخروية ﴿**وأنتم الأعلون**﴾ من أهل الدنيا والآخرة في المقام عند ربكم ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ مصدقين بهذه الأخبار تصديق الائتمار به ﴿**إن يمسسكم قرح**﴾ في أثناء السير من المجاهدات وأنواع البلاء والابتلاء ﴿**فقد مس القوم**﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿**قرح**﴾ من المحن ﴿**مثله وتلك الأيام**﴾ وأيام المحن والبلاء والابتلاء والامتحان ﴿**نداولها بين الناس**﴾ بين السائرين يوماً نعمة ويوماً نقمة ويوماً منحة ويوماً محنة ﴿**وليعلم الله الذين آمنوا**﴾ وليختبرهم الله بالامتحان ويجعلهم مستعدين لمقام الشهادة ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾ يا مبتلين بالنعمة والنقمة في أثناء السير أرباب الشهود والمشاهدة ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ الذين يصرفون استعدادهم في طلب غير الحق والسير إليه ﴿**وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾ يعني أن كل غم وهم ومصيبة تصيب المؤمنين في الله يكون تكفيراً لذنوبهم وتطهيراً لقلوبهم وتخليصاً لأرواحهم وتمحيصاً لأسرارهم وما يصيب الكافرين من نعمة

ودولة وحبور يكون سبباً لكفرانهم ومزيداً لطغيانهم وعمى لقلوبهم وتمردا لنفوسهم ومحقاً لأرواحهم وسحقاً لأسرارهم فأهل المحبة والمعرفة لا يخلون عن الابتلاء بقلة أو ذلة أو علة فإن مقتضى الحكمة ذلك ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أشد البلاء على الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

ـ حكي ـ أن عيسى عليه السلام اجتاز جبلاً فيه عابد يعبد الله عند عين من ماء لطهارته وشربه وبستان ينبت له الهندباء لقوته فسلم عليه المسيح فرد السلام عليه فقال له: منذ كم أنت هٰهنا تعبد الله؟ قال: منذ ثمانين سنة أسأل حاجة من الله فلم يقضها لي فقال عيسى: وما هي؟ قال: أن يسكن قلبي ذرة من معرفته ومحبته فلا يفعل وأنت نبيه فسل لي هذه الحاجة فتوضأ عيسى من العين وصلى ركعتين وسأل حاجته ثم مضى وبقي ما بقي في سفره فلما رجع إلى ذلك المكان رآه خالياً والعين غائرة والبستان خراب فقال: يا رب سألتك له المعرفة والمحبة قبضت روحه فأوحى الله إليه يا عيسى أما علمت أن خراب الدنيا في محبتي ومعرفتي ومن عرفني وأحبني لا يسكن إلا إليّ ولا يقر قراراً فإن أحببت أن تراه فأشرف عليه في هذا الوادي فأشرف عليه فإذا هو جالس قد ذهل وتحير وخرج لسانه على صدره شاخصاً ببصره نحو السماء فناداه عيسى والعابد لا يسمع فناداه وحركه فلم يشعر فأوحى الله إلى عيسى فوعزتي وجلالي لو قطعته بالسيف ما شعر به لأني أسكنت قلبه معرفتي ومحبتي وهو أقل من ذرة ولو زدته أدنى شيء لطار بين السماء والأرض وطاش فانظر إلى أهل الله كيف تكون دنياهم خراباً لا يخلون من البلايا فاجتهد أنت أيضاً أيها العبد في تصحيح الدين لعلك تصل إلى مقام اليقين والتمكين والمجاهدة تورث المشاهدة.

چو يوسف كسى در صلاح وتميز   بسى سال بايدكه كردد عزيز

﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار والاستبعاد والحسبان الظن والخطاب للذين انهزموا يوم أحد أي بل أظننتم ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ وتفوزوا بنعيمها ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للإنكار فإن رجاء الأجر بغير عمل بعيد ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم أي لما تجاهدوا لأن وقوع الشيء يستلزم كونه معلوماً لله ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم فنزل نفي العلم منزلة نفي الجهاد للتأكيد والمبالغة لأن انتفاء اللازم برهان على انتفاء الملزوم وفيه إشعار بأن علمه بالأشياء على ما هي عليه ضروري يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً يريد ما فيه خير حتى يعلمه ولما بمعنى لم إلا أن فيه ضرباً من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل تقول وعدني أن يفعل كذا ولما يفعل أي لم يفعل وأنا أتوقع فعله ﴿ويعلم الصابرين﴾ نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر على الشدائد أي الجمع بينهما فلا ينبغي أن تحسبوا دخولها كما دخل الذين قتلوا وبذلوا مهجتهم وثبتوا على ألم الجراح والضرب من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم ومن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع عدم أعمال هذه الطاعة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أي الحرب فإنها من مبادي الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته ﴿فقد رأيتموه﴾ أي ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه ﴿وأنتم تنظرون﴾ معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمني الشهادة بناء على أن في تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم لأن قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شيء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني يقصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة وإحساناً إلى عدو الله وتنفيقاً لصناعته.

واعلم أن حاصل الكلام أن حب الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر وذلك لأن سعادة الدنيا لا تحصل إلا باشتغال القلب بطلب الدنيا وسعادة الآخرة لا تحصل إلا بفراغ القلب من كل ما سوى الله وامتلائه من حب الله وهذان الأمران مما لا يجتمعان فلهذا السر وقع الاستبعاد الشديد في هذه الآية من اجتماعهما. وأيضاً حب الله وحب الآخرة لا يتم بالدعوى فليس كل من أقر بدين الله كان صادقاً ولكن الفصل فيه تسليط المكروهات والمحرمات فإن الحب هو الذي لا ينتقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء فإن بقي الحب عند تسلط أسباب البلاء ظهر أن ذلك الحق كان حقيقياً فلهذه الحكمة قال: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة. قال القشيري رحمه الله: من ظن أنه يصل إلى محل عظيم دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك وأن من عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده قال الشاعر:

وما جاد دهر بلذاته على من يضن بخلع العذار

فالدولة العظمى هي سعادة الآخرة فإنها باقية ودولة الدنيا فانية كما قيل:

جهان مثال چراغيست در كذركه باد غلام همت آنم كه دل برو ننهاد

وسئل الشبلي عن نعت العارف فقال: لسانه بذكر الله ناطق وقلبه بحجة الله صادق وسره بوعد الله واثق وروحه إلى سبيل الله سابق وهو أبداً على الله عاشق فلا بد لأن يكون المرء من العارفين من ترك الدعوى والإقبال إلى المولى وبذل الروح في طريقه.

ـ حكي ـ عن حاتم الأصم أنه قال: لقينا الترك وكان بيننا صولة فرماني تركي بوهق فأقبلني عن فرسي ونزل عن دابته وقعد على صدري وأخذ بلحيتي هذه الوافرة وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني قال: فوحق سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه وأنا ساكت متحير أقول سيدي أسلمت نفسي إليك إن قضيت على أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين أما أنا لك وملكك فبينا أنا أخاطب سيدي وهو قاعد على صدري إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ

حلقه فسقط عني فقمت أنا إليه فأخذت السكين من يده فذبحته بها فيا هؤلاء لتكن قلوبكم عند السيد حتى ترون من عجائب لطفه ما لا ترون من الآباء والأمهات واعلموا أن من صبر واستسلم ظفر ومن فرّ اتبع فلم يتخلص ونعم العون الصبر عند الشدائد:

تحمل چو زهرت نمايد نخست ولى شهد كردد چو در طبع رست
زعلت مدار أي خردمند بيم چو داروى تلخت فرستد حكم

ثبتنا الله وإياكم.

﴿وما محمد﴾ هو المستغرق لجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولي على الأمد في الكمال وأكرم الله نبيه وصفيه باسمين مشتقين من اسمه جل جلاله محمد وأحمد ﴿إلا رسول﴾.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى الشعب من أحد في سبعمائة رجل جعل عبد الله بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين راجلاً وقال: «أقيموا بأصل الجبل وادفعوا عنا بالنبل لا يأتوننا من خلفنا ولا تنتقلوا من مكانكم حتى أرسل إليكم فلا نزال غالبين ما دمتم في مكانكم» فجاء المشركون ودخلوا في الحرب مع النبي عليه السلام وأصحابه حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله ﷺ سيفاً وقال: «من يأخذه بحقه» فأخذه أبو دجانة فقاتل في نفر من المسلمين قتالاً شديداً وقاتل علي بن أبي طالب حتى التوى سيفه وقاتل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان النبي عليه السلام يقول لسعد «ارم فداك أبي وأمي» فحمل هو وأصحابه على المشركين فأنزل الله نصره عليهم فهزموا المشركين فلما نظر الرماة إلى قوم هاربين أقبلوا على النهب بترك مركزهم فقال لهم عبد الله بن جبير: لا تبرحوا مكانكم فقد عهد إليكم نبيكم فلم يلتفتوا إلى قوله فجاؤوا لأجل الغنيمة فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين فهزموهم ورمي ابن قميئة النبي عليه السلام بحجر فكسر رباعيته وشجه وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وتفرق عنه أصحابه وحمل ابن قميئة لقتل النبي عليه السلام فذب عنه مصعب بن عمير صاحب الراية يومئذٍ فقتله ابن قميئة ورجع فظن أنه كان قتل النبي عليه السلام فقال: قتلت محمداً وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل وكان ذلك إبليس فرجع أصحابه منهزمين متحيرين فأقبل أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين والأنصار فقال لهم ما يحبسكم قالوا: قتل محمد ﷺ فقال ما تصنعون في الحياة بعده موتوا كراماً على ما مات عليه نبيكم ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قتل قال كعب بن مالك أنا أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران ينادي بأعلى صوته «إليّ عباد الله إليّ عباد الله» فاجتمعوا إليه فلامهم رسول الله على هزيمتهم فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر سوء فرعبت قلوبنا له فولينا مدبرين فوبخهم الله تعالى بقوله: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ كسائر الرسل ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ فسيخلوا كما خلوا وكما أن أتباعهم بقوا متمكسين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن

تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعثة الرسول الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه عليه السلام بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به **﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾** بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله ﷺ من أمر الجهاد وغيره **﴿فلن يضر الله﴾** بما فعل من الانقلاب **﴿شيئا﴾** أي شيئاً من الضرر وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب والله منزه عن النفع والضرر **﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾** أي الثابتين على دين الإسلام الذي هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وإيفاء لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين. ولما توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطرب المسلمون فمنهم من دهش ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية حتى غفل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته ﷺ وقام في الناس فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أنه عليه السلام توفي إن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله ﷺ ولأقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمونه أن رسول الله ﷺ مات ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا **﴿وما محمد إلا رسول﴾** قال الراوي: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه فاستيقن الناس كلهم بموته ﷺ وكانت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول فكيف بقلوب المؤمنين ولما فقده الجذع الذي يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر حن إليه وصاح كما يصيح الصبي فنزل إليه فاعتنقه فجعل يهدي كما يهدي الصبي الذي يسكن عند بكائه وقال: «لو لم أعتنقه لحن إلى يوم القيامة» ما أمرّ عيش من فارق الأحباب خصوصاً من كانت رؤيته حياة الألباب ولما ثقل النبي عليه السلام جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضي الله عنها واكرب أبتاه فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربا دعاه يا أبتاه جنة الفردوس مأواه فلما دفن قالت فاطمة يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على نبيكم التراب» وعاشت فاطمة بعد موته ﷺ ستة أشهر ثم ماتت.

جهان اى برادر نماند بكس دل اندر جهان آفرين بندوبس

فعلى العاقل أن يتدارك حاله قبل منيته حتى لا يفتضح عند رؤوس الخلائق يوم القيامة وكيف لا يسارع إلى الأعمال الصالحة من يعلم أن يوم القيامة يوم يفزع فيه الأنبياء والأولياء.

دران روز كز فعل پرسند وقول أولو العزم راتن بلرزد زهول
بجايى كه وحشت خورد انبيا توعذر كنه را چه داري بيا

يعني بأي عذر ترتكب الآثام ولا تبالي بحالك ثم إن الخلاص والفوز بالمرام في الإيمان التحقيقي.

قال الشيخ نجم الدين الكبرى: الإشارة في الآية أن الإيمان التقليدي لا اعتبار له فينقلب المقلد عن إيمانه عند عدم المقلد به فمن كان إيمانه بتقليد الوالدين أو الأستاذ أو أهل البلد ولما يدخل الإيمان في قلبه ولم ينشرح صدره بنور الإسلام فعند انقطاعه بالموت عن هذه الأسباب المقلدة يعجز عن جواب سؤال الملكين في قولهما من ربك فيقول هاه لا أدري وإذ

يقولان ما تقول في هذا الرجل فيقول هاه لا أدري كنت أقول فيه ما قال الناس فيقولان له لا دريت ولا تليت:

زدانند كان بشنو امروز قول — كه فردا نكيرت بپرسد بهول
غنيمت شمار اين كرامى نفس — كه بيمرغ قيمت ندارد قفس

يعني البدن ليس له قدر بدون الروح فلا بد أن يغنم العاقل أنفاسه قبل أن يخرج الروح من قفصه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أي وما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى أو إلا بإذنه لملك الموت في قبض روحها والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون بالإحجام عن القتال والإقدام عليه. وفيه تحريض وتشجيع على القتال ووعد الرسول بالحفظ وتأخير الأجل ورد على المنافقين قولهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فالمجاهد لا يموت بغير أجله والمتخلف عنه لا يسلم مع حضور أجله:

بروز أجل نيزه جوشن درد — ز پيراهن بى أجل نكذرد

﴿كتاباً﴾ مصدر مؤكد لما قبله إذ المعنى كتب الموت كتاباً **﴿مؤجلا﴾** موقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وبعد تحقيق أن مدار الموت والحياة على محض مشيئة الله من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلاً أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على إرادتهم ليصرفوها عن الأعراض الدنية إلى المطالب السنية فقيل: **﴿ومن يرد﴾** أي بعمله **﴿ثواب الدنيا نؤته منها﴾** أي من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه. وفيه تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد **﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾** أي من ثوابها ما نشاء من الأصناف حسبما جرى به الوعد الكريم **﴿وسنجزي الشاكرين﴾** نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين ما آتاهم الله من القوى والقدر إلى ما خلقت هي لأجله من طاعة الله لا يلويهم عن ذلك صارف أصلاً. ويدخل في جنس الشاكرين المجاهدون المعهودون من الشهداء في أحد وغيرهم والآية وإن وردت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال وذلك لأن المؤثر في طلب الثواب والعقاب المقصود والدواعي لا ظواهر الأعمال فإن من وضع الجبهة على الأرض في صلاة الظهر والشمس قدامه فإن قصد بذلك السجود عبادة الله كان ذلك من أشرف دعائم الإسلام وإن قصد به عبادة الشمس كان ذلك من أعظم دعائم الكفر. وروى أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام «أن الله تعالى يقول يوم القيامة لمن قتل في سبيل الله فيماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان محارب وقد قيل ذلك ثم إن الله تعالى يأمر به إلى النار» فالمقاتل في سبيل الله تحقيقاً هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للذكر الجميل وإراءة المكان وإصابة الغنيمة.

عبادت بإخلاص نيت نكوست — وكرنه چه آيد زبى مغز پوست
بروى ريا خرقه سهلست دوخت — كرش باخدا درتواني فروخت

قال رسول الله ﷺ: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه شمله ولا يأتيه منها إلا ما كتب له» وقال أيضاً: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» فمن عمل شوقاً إلى الجنة فقد رأى نعمة الجنة فثوابه في الآخرة ومن عمل شوقاً إلى الحق فقد رأى نعمة وجود المنعم فثوابه في الدنيا لأنه حاضر لا غيبة له قريب لا يبعد وهو معكم أينما كنتم وقال: «ألا من طلبني وجدني ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً».

خليليّ هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى تمشى إلى عبد
أتى زائراً من غير وعد وقال لي ... أجلك عن تعذيب قلبك بالوعد

فعلى السالك أن يهاجر إلى الله ويجاهد من غير أن يخاف لومة لائم حتى يصل إلى الله ويتخلص من الاضطرار.

قال القاشاني في تأويلاته: من كان موقناً لسر القدر شاهداً لمعنى قوله تعالى: ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله**﴾ كان من أشجع الناس.

ـ حكي ـ عن حاتم الأصم أنه شهد مع شقيق البلخي بعض غزوات خراسان قال: فلقيني شقيق وقد حمي الحرب فقال: كيف تجد قلبك يا حاتم قلت: كليلة الزفاف لا أفرق بين الحالتين فوضع سلاحه وقال: أما أنا فهكذا ووضع رأسه على ترسه ونام بين المعركة حتى سمع غطيطه وهذا غاية في سكون القلب إلى الله تعالى ووثوقه به انتهى فإذا صحح العبد باطنه يسهل الله عليه كل عسير ويسخر له كل ما يخاف منه.

ـ حكي ـ عن إبراهيم الرقي أنه قال: قصدت أبا الخير الخراساني مسلماً عليه فصلى صلاة المغرب فلم يقرأ الفاتحة مستوياً فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدني السبع فعدت إليه وقلت: إن الأسد قصدني فخرج وصاح على الأسد وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لأضيافي فتنحى فتطهرت فلما رجعت قال: اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد.

أوليا محبوب الله است دان ... كس نيازارد حبيبش درجهان

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿**وكأين**﴾ أصله: أي دخلت الكاف عليها فحدث فيها معنى التكثير فهي بمعنى كم الخبرية ﴿**من نبي**﴾ تمييز لها والغالب في تمييزها أن يكون مجروراً بمن ولم يجىء في التنزيل إلا كذا وجره ممتنع لأن آخره تنوين وهو لا يثبت مع الإضافة ﴿**قاتل معه ربيون كثير**﴾ خبر لقوله: كأين لأنها مبتدأ والفعل مسند إلى ظاهره. والربي منسوب إلى الرب كالرباني وكسر الراء من تغييرات النسب فإن العرب إذا نسبت شيئاً إلى شيء غيرت كما قالوا بصري في النسبة إلى بصرة أو منسوب إلى الربة وهي الجماعة والمعنى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه علماء أتقياء أو جماعات كثيرة ﴿**فما وهنوا**﴾ عطف على قاتل أي فما فتروا وما

انكسرت همتهم ﴿لما أصابهم﴾ في أثناء القتال وهو علة للمنفي دون النفي ﴿في سبيل الله﴾ إن جعل الضميران لجميع الربيين فما في ما أصابهم عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره اللاحقة للكل وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قتل الآخرون فهي عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل إخوانهم والخوف والحزن وغير ذلك ﴿وما ضعفوا﴾ عن العدو أو الجهاد أو في الدين ﴿وما استكانوا﴾ أي وما خضعوا للعدو. وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والألف لإشباع الفتحة. أو استكون من الكون لأنه يطلب أن يكون لم يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والإرجاف بقتل النبي عليه السلام وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن أبي المنافق في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿والله يحب الصابرين﴾ أي على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره في سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْـَٔاخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وما كان قولهم﴾ بالنصب خبر لكان واسمها أن وما بعدها في قوله تعالى: ﴿إلا أن قالوا﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي ما كان قولاً لهم عند لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شيء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أي صغائرنا ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي تجاوزنا الحد في ارتكاب الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله هضماً لها واستقصاراً لهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي في مواطن الحرب بالتقوى والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ تقريباً له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدين. وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

﴿فآتاهم الله﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ثواب الدنيا﴾ أي النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أي وثواب آخرة الحسن وهي الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للإيذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ ومحبة الله للعبد عبارة عن رضاه عنه وإرادة الخير به فهي مبدأ لكل سعادة.

والإشارة أن الله تعالى لما زاد لخواص عباده كرامة التخلق بأخلاقه ابتلاهم بقتال العدو وثبتهم عند الملاقاة فاستخرج من معادن ذواتهم جواهر صفاته المكنونة فيها المكرمة بها بنو آدم والصبر والإحسان من صفات الله والله تعالى يحب من تخلق بصفاته ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال الإمام في قوله تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فيه لطيفة دقيقة وهي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين كأنه تعالى يقول لهم: إذا عرفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسي حتى يعلم أنه لا سبيل

للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز:

كنون بايدت عذر تقصير كفت نه چون نفس ناطق ز كفتن بخفت
توپيش ازعقوبت درعفو كوب كه سودى ندارد فغان زير چوب

- حكي - أن آصف بن برخيا أذنب ذنباً يوماً من الأيام فأتى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فقال له: ادع الله أن يغفر لي فدعا فغفر له ثم فعل ثانياً فغفر له بدعائه ثانياً ثم وثم إلى أن أوحى الله إلى سليمان عليه السلام أن لا أجيب دعوتك في حقه إن عاد بعد فلم يمكث أن فعل مرة أخرى فجاء إلى سليمان عليه السلام لكي يدعو فأخبره بأن الله لا يغفر له فرفع الرجل العصا وخرج إلى الصحراء وضرب العصا إلى الأرض ورفع يده وقال: يا رب أنت أنت وأنا أنا أنت العائد بالمغفرة وأنا العائد بالمعصية أنا الضعيف المجرم وأنت الغفور الرحيم إن لم تعصمني من الذنوب فلأعودن ثم لأعودن كررها حتى غشي عليه فأوحى الله إلى سليمان عليه السلام أن قل لابن خالتك إن عدت فأغفر لك ثم أغفر لك وأنا الغفار.

كنونت كه چشمست اشكى ببار زبان دردهانست عذرى بيار
فراشو چوبينى در صلح باز كه ناكه درتوبه كردد فراز
مرو زير باركنه اي پسر كه حمال عاجز بودر سفر

فلا يغرنك الشيطان بتزيين الدنيا عليك فإنك تعلم فناءها. وأوحى الله إلى داود عليه السلام [إني منزلك وذريتك إلى دار بنيتها على أربعة أركان: أحدها أن أخرب ما تعمرون. والثاني أن أقطع ما تصلون. والثالث أن أميت ما تلدون. والرابع أن أفرق ما تجمعون] ومن الله العصمة والتوفيق إلى سواء الطريق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان نبياً لما غلب وقتل فقال تعالى: يا أيها المؤمنون **﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾** وهم المنافقون وصفوا بالكفر قصداً إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير من طاعتهم **﴿يردوكم على أعقابكم﴾** يدخلوكم في دينهم أضاف الرد إليهم لدعائهم إليه والارتداد على العقب علم في انتكاس الأمر ومثل في الحور بعد الكور **﴿فتنقلبوا خاسرين﴾** كرامة الدنيا وسعادة الآخرة أما الأولى فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد للعدو والتذلل له وإظهار الحاجة إليه وأما الثانية فلأنه يحرم من الثواب المؤيد ويقع في العذاب المخلد.

﴿بل الله مولاكم﴾ أي ليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فأطيعوه واستغنوا به عن موالاتهم **﴿وهو خير الناصرين﴾** فخصوه بالطاعة والاستعانة.

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ وهو ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة. والرعب خوف يملأ القلب **﴿بما**

أشركوا بالله﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم ﴿ما لم ينزل به﴾ أي بإشراكه ﴿سلطاناً﴾ أي حجة وبرهاناً وما مفعول بوقوع أشركوا عليه أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وأصل السلطان القوة فسلطان الملك قوته وسلطان المدعي حجته وبها يقوى على دفع المبطل. وفيه إيذان بأن المتبع في الباب هو البرهان السماوي دون الآراء والأهواء الباطلة ﴿ومأواهم﴾ أي ما يأوون إليه في الآخرة ﴿النار﴾ لا ملجأ لهم غيرها ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي النار وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان.

والإشارة أن الله تعالى هو الذي يلقي الرعب والأمن والرغبة والرهبة وغير ذلك في قلوب العباد كما قال عليه السلام: «قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء» وقال: «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمان إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» فعلى العبد أن يتضرع إلى الله ويسأل منه الغلبة على النفوس الكافرة خصوصاً النفس الأمارة فإنه إن اتبع هواها وأطاعها في مشتهاها ترده إلى أسفل سافلين البشرية فينقلب خاسراً.

نمى تازد اين نفس سركش چنان ... كه عقلش تواند كرفتن عنان
كه بانفس وشيطان بر آيد بزور ... مصاف پلنكان نيايد زمور

قال الشيخ أبو علي الروذبادي قدس سره: دخلت الآفة من ثلاثة: سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة. فقيل له ما سقم الطبيعة؟ قال: أكل الحرام. فقيل: وما ملازمة العادة؟ قال: النظر والاستماع بالحرام والغيبة. فقيل: فما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاج في النفس شهوة تتبعها ومن لم يصحبه في هذا الباب توفيق من ربه كان متروكاً في ظلمة نفسه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بل الله مولاكم﴾ أي يخرجكم من ظلمات البشرية إلى أنوار الربوبية فمن اتبع هواه وجعله مولى لنفسه فكيف يصاحبه الخروج من الظلمات وإنما سببه أن ينقطع العبد إلى مولاه الحقيقي ولا يعبد إلا إياه.

ـ حكي ـ عن الأصمعي أنه قال: إن فتى جميلاً خرج في سفر له فوقع في فلاة من الأرض وصاحبته امرأة فعشقته فقالت: أيها الفتى هل تحسن شيئاً من الشعر؟ قال: نعم قالت: قل فأنشد:

ولست من النساء ولسن مني ... ولا أبغي الفجور إلى الممات
فلا لا تطمعي فيما لدينا ... ولو قد طال سير في الفلاة
فإن الله يبصر فوق عرش ... ويغضب للفعال الموبقات

قالت: دعنا من شعرك هل تقرأ شيئاً من القرآن؟ قال: نعم قالت: قل فقرأ قول الله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] قالت دعني من قراءتك هذه فرجعت وهي خائبة فانظر إلى حال الفتى وتوقيه عن شهوته كيف صبر عن المعصية والله يحب الصابرين [جوان چست مي بايدكه از شهوت بپرهيزر كه پيرسست رغبت را خود آلت برنمي خيزد] ولذلك قال بعض المشايخ: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة وذلك لأن الزهد بعد الأربعين بارد لا يثمر نفعاً كثيراً ولا يغرنك هذا الخبر ويحملك على التكاسل فإن المرء لا يصل إلى حيث يسقط عنه الأمر والنهي والغرض هو العبادة إلى أن يأتي

اليقين فالشبان والشيوخ في باب التكليف متساوون وربما يتدارك في الشيخوخة ما لا يتدارك في الشاب، قال الحافظ الشيرازي:

اي دل شباب رفت ونچيدي كلى زعمر پيرانه سربكن هنرى ننك ونام را

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحاً أو بنزع الجار أي في وعده. نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ وهو ما وعدهم على لسان نبيه ﷺ من النصر حيث قال للرماة لا تبرحوا مكانكم فإنا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقون نبلهم والباقون يضربون بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً وذلك قوله تعالى: **﴿إذ تحسونهم﴾** أي تقتلونهم قتلاً كثيراً فاشياً من حسه إذا أبطل حسه وذلك يكون بالقتل وهو ظرف لصدقكم **﴿بإذنه﴾** ملتبسين بمشيئته وتيسيره وتوفيقه حال من فاعل تحسونهم **﴿حتى﴾** ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية **﴿إذا فشلتم﴾** أي جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب **﴿وتنازعتم في الأمر﴾** أي في أمر الرسول ﷺ فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلاً وضرباً: فما موقفنا هذا؟ وقال رئيسهم عبد الله بن جبير: لا نخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى: **﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾** أي من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه وقد سبق وقيد العصيان بما بعده تنبيهاً على عظم المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية وجواب إذا محذوف وهو منعكم نصره **﴿منكم من يريد الدنيا﴾** وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب قال ابن مسعود رضي الله عنه ما علمت أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية **﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾** وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة **﴿ثم صرفكم عنهم﴾** عطف على الجواب المحذوف كما أشير إليه أي ردكم عن الكفار وكفكم بالهزيمة بعد أن أظفركم عليهم فحالت الريح دبوراً بعدما كانت صبا **﴿ليبتليكم﴾** أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم ليظهر ثباتكم على الإيمان عندها **﴿ولقد عفا عنكم﴾** تفضلاً أو لما علم من ندمكم على المخالفة **﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾** أي شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال أديل لهم أو أديل عليهم إذ الابتلاء أيضاً رحمة بحسب اقتضاء أحوالهم ذلك.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿إذ تصعدون﴾ متعلق بصرفكم. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض **﴿ولا تلوون**

على أحد﴾ أي: لا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد **﴿والرسول يدعوكم﴾** كان ﷺ يدعوهم إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وهو الانهزام وترك قتال الكفار لا استعانة بهم **﴿في أخراكم﴾** في ساقتكم وجماعتكم الأخرى والمعنى أنه عليه السلام كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه **﴿فأثابكم﴾** عطف على صرفكم أي فجازاكم الله بما صنعتم **﴿غما﴾** موصولاً **﴿بغم﴾** من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له **﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾** أي لتتمرنوا على الصبر في الشدائد وتعتادوا تجرع الغموم فلا تحزنوا على نفع فات أو ضرّ آت **﴿والله خبير بما تعملون﴾** أي عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

واعلم أن الصبر واليقين والتوكل على الله والاتقاء عن ميل الدنيا وزخارفها ومخالفة الرسول مستلزم لامداد النصر والظفر والفشل والتنازع والميل إلى الدنيا وعصيان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم موجب للابتلاء والصرف عن العدو فمن أراد النصرة على الأعداء الظاهرة والباطنة لا يسلك طريقاً غير ما عينه الشارع ويرضى بالابتلاء ولا يغتم لآخرته بل يجد غم طلب الحق ألذ من نعيم الدنيا والآخرة ويصبر على مقاساة الشدائد في باب الدين.

صـــبـــر آرد آرزوراني شـــتـــاب صـبـركـن والله أعـلـم بـالـصـواب

قال ذو النون قدس سره العزيز: إن أدنى منازل المريد أن الله تعالى لو أدخله النار وأحاط به عذابه مع هذه الإرادة لم يزدد قلبه إلا حباً له وأنساً به وشوقاً إليه وكانت الجنة عنده أصغر في جنب إرادته من خردلة بين السماء والأرض فعلى السالك أن يذيق نفسه مرارة الطاعة ويدخلها في باب التسليم ليكون عند الله مما له قدر وسبق.

ـ حكي ـ عن علي كرم الله وجهه أنه قال: قلت لخليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه يا خليفة رسول الله بم بلغت هذه المنزلة حتى سبقتنا سبقاً فقال: بخمسة أشياء: أولها وجدت الناس صنفين مريد الدنيا ومريد العقبى فكنت أنا مريد المولى. والثاني مذ دخلت في الإسلام ما شبعت من طعام الدنيا لأن لذة معرفة الله شغلتني عن لذائذ طعام الدنيا. والثالث مذ دخلت في الإسلام ما رويت من شراب الدنيا لأن محبة الله شغلتني عن شراب الدنيا. والرابع كلما استقبلني عملان عمل الدنيا وعمل الآخرة اخترت عمل الآخرة على عمل الدنيا. والخامس صحبت النبي ﷺ فأحسنت صحبته أقول ولذلك لم ينفك عن ملازمة صحبته ساعة حتى دخل معه في الغار وقاسى ما قاسى من الشدائد في حقه ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ ومع ذلك لم يزغ قلبه عن مواصلته قط ولم يهم بمخالفته أصلاً كما وقع ذلك من بعض الصحابة كما في المنهزمين.

كيست دانى صوفى صافى زرنك تفرقه آنكه دارد روبيك رنكى درين كاخ دورنك
نكسلد سررشته سرش زجانان كر بفرض روبرو كيرد زيك سوشير وديكر سوپلنك

أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم أنت خليلي وأنا خليلك فانظر في أن لا تشغل سرك بغيري وأنا أنظر في سرك فأراه مشتغلاً بغيري فتقطع خلتي منك لأن الصادق في دعوى خلتي من لو أحرق بالنار لم يجعل سره إلى غيري إجلالاً لحرمتي لأن كل سر انفصل ساعة عن مشاهدتي لا يصلح لمحادثتي ونظري ثم قال له أسلم قال: أسلمت لرب العالمين ثم

ابتلاه حين رمى بالمنجنيق في النار ولم يجزع على ما أصابه بل فوض أمره إلى الله حتى شرفه الله بالخلة وجعل النار له برداً وسلاماً فحسن الرضى على ما جاء من عند الله يوصل العبد إلى المقامات العلية والحالات السنية والعمدة هو التوحيد وبه تسهل قوة اليقين والوصول إلى مقام الولاية. وسئل يحيى بن معاذ عن صفة الولي فقال: الصبر شعاره والشكر دثاره والقرآن معينه والحكمة علمه والتوكل صابونه والفقر منيته والتقوى مطيته والغربة ملازمته والحزن رفيقه والذكر جليسه والله تعالى أنيسه.

قوت روح أوليا ذكر حقست   پيشه ايشان شكر مطلقست
كر خبر داری زاسرار خدا   روبراه ذكر وطاعت حقيا

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿ثم أنزل عليكم﴾ عطف على قوله فأثابكم وأنزل مجاز أي أعطى ووهب لكم أيها المؤمنون **﴿من بعد الغم﴾** المذكور **﴿أمنة﴾** أي: أمناً نصب على المفعولية **﴿نعاسا﴾** بدل منها وهو الوسن. قال أبو طلحة رفعت رأسي يوم أحد فجعلت لا أرى أحداً من القوم إلا وهو يميد تحت جحفته من النعاس وكنت ممن ألقي عليه النعاس يومئذٍ فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ثم يسقط السوط فآخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبيء عنه قوله تعالى: **﴿يغشى طائفة منكم﴾** وهم المهاجرون وعامة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكل والجملة في محل النصب على أنها صفة لنعاساً **﴿وطائفة﴾** مبتدأ وهم المنافقون **﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾** أي أوقعتهم في الهموم والأحزان أو ما بهم إلا همّ أنفسهم وقصد خلاصها **﴿يظنون بالله﴾** حال من ضمير أهمتهم **﴿غير الحق﴾** غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه **﴿ظن الجاهلية﴾** بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها **﴿يقولون﴾** بدل من يظنون أي لرسول الله ﷺ على صورة الاسترشاد **﴿هل لنا من الأمر﴾** أي: من أمر الله تعالى ووعده من النصر والظفر **﴿من شيء﴾** من نصيب قط **﴿قل إن الأمر كله لله﴾** أي: الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون **﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾** حال من ضمير يقولون أي مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب **﴿يقولون﴾** كأنه قيل أي شيء يخفون فقيل: يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية **﴿لو كان لنا من الأمر شيء﴾** كما وعد محمد ﷺ من أن الغلبة لله ولأوليائه وأن الأمر كله لله **﴿ما قتلنا هٰهنا﴾** ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا في هذه المعركة على أن النفي راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط أو لو كان لنا اختيار في الخروج وتدبير لم نبرح كما كان رأى ابن أبي وغيره **﴿قل﴾** يا محمد تكذيباً لهم وإبطالاً لمعاملتهم **﴿لو كنتم في بيوتكم﴾** أي لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون **﴿لبرز﴾** أي لخرج **﴿الذين كتب عليهم القتل﴾** أي في اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز **﴿إلى**

مضاجعهم﴾ إلى مصارعهم التي قدره الله تعالى فيها وقتلوا هناك البتة ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعاً فإن قضاء الله لا يرد وحكمه لا يعقب **﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾** علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلي أي ليعاملكم معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر **﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾** من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوساوس **﴿والله عليم بذات الصدور﴾** أي السرائر والضمائر التي لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿إن الذين تولوا﴾ اعرضوا **﴿منكم يوم التقى الجمعان﴾** من المسلمين والكافرين وهم الذين انهزموا يوم أحد **﴿إنما استزلهم الشيطان﴾** أي إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ودعاهم إليه **﴿ببعض ما كسبوا﴾** من الذنوب والمعاصي التي هي مخالفة أمر النبي عليه السلام وترك المركز والحرص على الغنيمة والحياة فحرموا التأييد وقوة القلب **﴿ولقد عفا الله عنهم﴾** لتوبتهم واعتذارهم **﴿إن الله غفور﴾** للذنوب **﴿حليم﴾** لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والنكتة فيه أن الشيطان خلق من النار فبالشيطان ونار وسوسته استخرج من معدن الإنسان حديد ما كسبوا من التولي ليجعله مرآة ظهور صفاته العفو والمغفرة والحلم وهذا قوله عليه الصلاة والسلام: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» ليعلم أن لله تعالى في كل شيء من الخير والشر أسراراً لا يبلغ كنهها إلا هو ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء والشيطان لا يقدر على إغواء المخلصين من أهل اليقين والنورانيين وما لم يكن في القلب ظلمة وشوب من الهوى بسبب ارتكاب الذنوب لم يكن له مجال للوسوسة فالسالكون الذين نجوا من ظلمات النفس لا يقدر الشيطان أن يقرب منهم فضلاً عن وسوستهم.

ـ قيل ـ رأى الجنيد إبليس في منامه عرياناً فقال: ألا تستحيي من الناس فقال: هؤلاء ناس؟ الناس أقوام في مسجد الشونيزية افنوا جسدي وأحرقوا كبدي قال الجنيد: فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة وضعوا رؤوسهم على ركبهم متفكرين فلما رأوني: قالوا لا يغرنك حديث الخبيث فإذا تنور القلب بنور المعرفة لا يحوم حوله بالوسوسة الشيطان الناري. وعن أبي سعيد الخراز قدس سره قال: رأيت إبليس في المنام فأخذت عصاي لأضربه فقيل لي: إنه لا يفزع من هذا إنما يخاف من نور يكون في القلب. قال: حجة الإسلام الغزالي في الإحياء حكي أن إبليس بث جنوده في وقت الصحابة فرجعوا إليه مخسورين فقال: ما شأنكم قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئاً وقد أتعبونا فقال: إنكم لا تقدرون عليهم وقد صحبوا نبيهم وشهدوا نزول الوحي ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسرين فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا آن آخر النهار أخذوا في الاستغفار فتبدل سيآتهم حسنات فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئاً لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم

كيف شئتم لا يستغفرون فيغفر لهم فلا يتوبون فتبدل سيآتهم حسنات قال: فجاء قوم بعد القرون الأولى فبث فيهم الاهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون منها ولا يتوبون عنها فسلط إبليس عليهم الأعداء وقادوهم حيث شاؤوا.

نه ابليس در حق ما طعنه زد ... كزينان نيايد بجز كار بد
فغان ازبديها كه در نفس ماست ... كه ترسم شود ظن إبليس راست
چو ملعون پسند آمدش قهرما ... خدايش بر انداخت ازبهرما
كجا بر سر آريم ازين عارو ننك ... كه با أو بصلحيم وباحق بجنك

(من بستان السعدي).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا**﴾ وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا ﴿**وقالوا لإخوانهم**﴾ لأجل إخوانهم وفي حقهم ومعنى الإخوة اتفاقهم نسباً أو مذهباً وعقيدة ﴿**إذا ضربوا في الأرض**﴾ أي سافروا فيها وأبعدوا للتجارة وسائر المهام فماتوا في سفرهم ﴿**أو كانوا**﴾ أي إخوانهم ﴿**غزى**﴾ جمع غازي كعفى جمع عافي وسجد جمع ساجد أي إذا خرجوا إلى الغزو فقتلوا ﴿**لو كانوا عندنا**﴾ أي مقيمين بالمدينة ﴿**ما ماتوا**﴾ في سفرهم ﴿**وما قتلوا**﴾ في الغزو وليس المقصود بالنهي عدم مماثلتهم في النطق بهذا القول بل في الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه ﴿**ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم**﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لام العاقبة كما في قوله ربيته ليؤذيني وليست لام العلة والغرض لأنهم لم يقولوه لذلك وإنما قالوه لتثبيط المؤمنين عن الجهاد والمعنى أنهم قالوا ذلك القول واعتقدوه لغرض من أغراضهم فكان عاقبة ذلك القول ومصيره إلى الحسرة وهي أشد الندامة التي تقطع القوة والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلاً ووجه كون تكلم ذلك الكلام حسرة في قلوبهم زاعمين أن من مات أو قتل منهم إنما مات أو قتل بسبب تقصيرهم في منع هؤلاء القتلى عن السفر والغزو ومن اعتقد ذلك لا شك أنه تزداد حسرته وتلهفه وأما المسلم الذي يعتقد أن الموت والحياة لا يكون إلا بتقدير الله وقضائه لا يحصل في قلبه هذه الحسرة ﴿**والله يحيي ويميت**﴾ ردٌّ لقولهم الباطل أي هو المؤثر في الحياة والممات وحده من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة.

أي بسا اسب تيزروكه بماند ... كه خرلنك جان بمنزل برد
بس كه درخاك تن درستان را ... دفن كردندو زحم خورده نمرد

﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ فلا تكونوا مثل هؤلاء المنافقين.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿**ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم**﴾ في سبيله وأنتم مؤمنون واللام هي الموطئة للقسم

المحذوف وجوابه قوله تعالى: ﴿لمغفرة من الله ورحمة﴾ وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده لكونه دالاً عليه والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلاً ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿خير مما يجمعون﴾ أي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم. فإن قيل كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلاً. قلنا إن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من باب الحلال الذي يعد خيراً وأيضاً هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات ﴿ولئن متم أو قتلتم﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الإرادة الإلٓهية ﴿لإلى الله﴾ أي إلى المعبود بالحق العظيم الشان الواسع الرحمة الجزيل الإحسان ﴿تحشرون﴾ لا إلى غيره فيوفي أجوركم ويجزل لكم عطاياكم.

واعلم أن هذه الآيات على ترتيب أنيق فإنه قال في الآية الأولى ﴿لمغفرة من الله﴾ وهي التجاوز عن السيآت وذلك إشارة إلى من يعبد الله خوفاً من عقابه ثم قال ﴿ورحمة﴾ وهي التفضل بالمثوبات وهو إشارة إلى من يعبده ثوابه ثم قال في آخر الآية ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وهو إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية وهذا أعلى المقامات، قال عبد الرحمٰن الجامي:

جانا زدرتو دور نتوانم بود قانع ببهشت وحور نتوانم بود
سربر در توبحكم عشقم نه بمزد زين درجه كنم صبور نتوانم بود

فبين الحشر إلى مغفرة الله والحشر إلى الله فرق كثير.

ـ روي ـ أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام مر بأقوام نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم ورأى عليهم آثار العبادة فقال: ماذا تطلبون فقالوا: نخشى عذاب الله فقال: هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه ثم مر بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا: نطلب الجنة والرحمة فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ثم مر بقوم ثالث ورأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا: نعبده لأنه الهنا ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة فقال: أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحقون.

كركند جاي بدل عشق جمال ازلت چشم اميد بحوران بهشتى ننهى
كى مسلم شودت عشق جمال ازلى تابر آفاق همه تهمت زشتى ننهى

ـ حكي ـ أن امرأة قالت لجماعة: ما السخاء عندكم قالوا: بذل المال قالت هو سخاء أهل الدنيا والعوام فما سخاء الخواص قالوا: بذل المجهود في الطاعة قالت: ترجون الثواب قالوا: نعم قالت: تأخذون العشرة بواحد لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأين السخاء؟ قالوا: فما عندك؟ قالت: العمل لله لا للجنة ولا للنار ولا للثواب وخوف العقاب وذلك لا يمكن إلا بالتجريد والتفريد والوصول إلى حقيقة الوجود. فعلى السالك أن يعرض عن الدنيا والآخرة ويقبل على الله حتى يكشف عن وجهه الحجاب ويصل إلى رب الأرباب. قال الإمام في تفسيره: الإنسان إذا توجه إلى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة فإذا مات فكأنه تخلص من العدو ووصل إلى المحبوب وإذا جلس في بيته خائفاً من الموت حريصاً على جمع الدنيا فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار

الغربة ولا شك في كمال سعادة الأول وكمال شقاوة الثاني انتهى فحشر الغافلين بالحجاب وحشر الواصلين بإظهار الجناب فمن كان في هذه الدنيا أعمى بحب المال والمنال كان في الآخرة محجوباً عن مشاهدة الجمال.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم**﴾ ما مزيدة للتأكيد أي فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهي ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بعدما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو ﴿**ولو**﴾ لم تكن كذلك بل ﴿**كنت فظًا**﴾ جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً ﴿**غليظ القلب**﴾ قاسيه غير رقيق. فالفظ سيىء الخلق وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه من شيء فقد لا يكون الإنسان سيىء الخلق ولا يؤذي أحداً ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم فظهر الفرق بينهما ﴿**لانفضوا من حولك**﴾ أي لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وترددوا في مهاوي الردى ﴿**فاعف عنهم**﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم ﴿**واستغفر لهم**﴾ فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماماً للشفقة عليهم وإكمالاً للبرّ بهم ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾ أي استخرج آراءهم واعلم ما عندهم في أمر الحرب إذ هو المعهود أو فيه وفي أمثاله مما تجري فيه المشاورة عادة استظهاراً بآرائهم وتطييباً لقلوبهم ورفعاً لأقدارهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة ﴿**فإذا عزمت**﴾ أي عقيب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك ﴿**فتوكل على الله**﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أرشد وأصلح فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت ولا من تشاور ﴿**إن الله يحب المتوكلين**﴾ عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه خير لهم وصلاح والتوكل تفويض الأمر إلى الله والاعتماد على كفايته. قال الإمام: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقوله بعض الجهال وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للأمر بالتوكل بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحكمة.

واعلم أن الله تعالى بين أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يتفرقون عنه لو كان فظاً غليظاً مع أن اتباعه دين وفراقه كفر فكيف يتوقع من يعامل الناس على خشونة اللفظ مع قسوة القلب أن ينقاد الناس كلهم له ويتابعوه ويطاوعوه فاللين في القول أنفذ في القلوب وأسرع إلى الإجابة وادعى إلى الطاعة ولذلك أمر الله موسى وهارون به فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

بنرمى زدشمن توان كند پوست چو بادوست سختى كنى دشمن اوست
چو سندان كسى سخت رويى نبرد كه خايسك تأديب بر سر نخورد

قال الإمام في تفسيره: اللين والرفق إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال للمؤمنين في إقامة حد الزنى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]

والتحقيق أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان والفضيلة في الوسط فورود الأمر بالتغليظ مرة وأخرى بالنهي عنه إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم ولهذا السر مدح الله تعالى الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال عليه السلام: «لا تكن مرّاً فتعقى ولا حلواً فتسترط».

چو نرمى كنى خصم كردد دلير وكر خشم كيرى شوند ازتو سير
درشتى ونرمى بهم در بهست چورك زن كه جراح ومرهم نهست

واعلم أن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكليف الله إلى الخلق وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه وهذا لا يتم إلا إذا كان كريماً رحيماً يتجاوز عن ذنبهم ويعفو عن إساءتهم ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول متبرئاً من سوء الخلق وحيث يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء كثير القيام بإعانة الفقراء كثير التجاوز عن سيآتهم كثير الصفح عن زلاتهم فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة وهكذا ينبغي أن يكون علماء الآخرة الوارثون والمشايخ فإن الناس على دين متبوعهم في الظاهر والباطن وقلما يوجد من يتصف بالأخلاق الحسنة من المشايخ والعلماء في هذا الزمان، إلا من عصمه الله وهداه إلى التمسك بالشريعة والتحقق بآداب الحقيقة وهذه الحال ليست إلا لواحد بعد واحد.

ـ روي ـ أنه خلا بأحنف المضروب به المثل في الحلم رجل فسبه سباً قبيحاً فقام الأحنف وهو يتبعه فلما وصل إلى قومه وقف وقال: يا أخي إن كان قد بقي من قولك فضلة فقل الآن ولا يسمعك قومي فتؤذى فانظر إلى خلق الأحنف كيف عامل مع الرجل وجامل وقال له رجل دلني على المروة فقال: عليك بالخلق الفسيح والكف عن القبيح.

قال نجم الدين الكبرى في «تأويلاته»: كل لين يظهر في قلوب المؤمنين بعضهم على بعض فهو رحمة الله ونتيجة لطفه مع عباده لا من خصوصية أنفسهم فإن النفس لأمارة بالسوء وإن كانت نفس الأنبياء عليهم السلام انتهى.

وفي هذا الكلام تنبيه على أن الأنبياء وإن كان سلوكهم من النفس المطمئنة إلى الراضية والمرضية والصافية إلى أن بلغوا مبلغ النبوة والرسالة لكن نفوسهم متصفة بالأمارية كسائر الناس ولكن الله يعصمهم من مقتضاها فافهم فإنه محل اعتبار وإمعان.

﴿إن ينصركم الله﴾ النصر نوعان: معونة ومنع أي إن يعنكم الله ويمنعكم من عدوكم كما فعل ذلك يوم بدر **﴿فلا غالب لكم﴾** فلا أحد يغلبكم **﴿وإن يخذلكم﴾** الخذلان القعود عن النصرة والإسلام للهلكة أي إن يترككم فلم ينصركم كما فعله يوم أحد **﴿فمن ذا الذي ينصركم﴾** استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر ذاتاً وصفة بطريق المبالغة **﴿من بعده﴾** أي من بعد خذلانه وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله ولذا أمر بالتوكل عليه فقال: **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه وآمنوا به من قبل ومن التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله تعالى ولا لرزقك خازناً غيره ولا لعلمك شاهداً غيره. وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب» قيل: يا رسول الله من هم قال: «هم الذين لا يكتدون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم

يتوكلون» فقال عكاشة بن محصن: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم» ثم قام آخر فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «سبقك بها عكاشة» وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وعن بعضهم قال: كنت في البادية فتقدمت القافلة فرأيت قدّامي واحداً فسارعت حتى أدركته فإذا هو امرأة بيدها ركوة وعكازة تمشي على الرعدة فظننت أنها أعيت فأدخلت يدي في جيبي فأخرجت عشرين درهماً فقلت: خذي هذه وامكثي حتى تلحقك القافلة فتكتري بها ثم ائتني الليلة حتى أصلح أمرك فقالت: بيدها هكذا في الهواء فإذا في كفها دنانير فقالت: أنت أخذت الدراهم من الجيب وأنا أخذت الدنانير من الغيب، قال الحافظ الشيرازي:

برو ازخانه كردون بدرونان مطلب   كاين سيه كاسه در آخر بكشد مهما نرا

قال القشيري: حقيقة النصر أن ينصرك على نفسك فإنها أعدى عدوك وهي أن يهدم عنك دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى ينفض جنود الشهوات بهجوم وفور المنازلات فتبقى الولاية لله تعالى خالصة من رعونات الدواعي التي هي أوصاف البشرية وشهوات النفوس وإن يخذلكم فالخذلان التخلية بينه وبين المعاصي فمن نصره قبض على يده عند الهم بتعاطي المكروه ومن خذله ألقى حبله على غاربه ووكله إلى سوء اختياره فيهيم على وجهه في فيافي البعد فتارة يشرق غير محتشم وتارة يغرب غير محترم ومن سيبه الحق فلا آخذ ليده ولا جابر لكسره وعلى الله فليتوكل المؤمنون في وجدان الأمان من هذه الأخطار عند صدق الابتهال وإسبال ثوب العفو على الإجرام عند خلوص الالتجاء بالتبري من الحول والقوة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

جهان آفرين كر نه يارى كند   كجابنده پرهيز كاري بود

﴿وما كان لنبي﴾ أي وما صح لنبي من الأنبياء عليهم السلام وما استقام له ﴿أن يغلّ﴾ أي يخون في المغنم فإن الغلول هو أخذ شيء من مال الغنيمة خفية وخيانة لكونها سبباً للعار في الدنيا وللنار في العقبى تنافي منصب النبوة التي هي أعلى المناصب الإنسانية والمراد إما تنزيه ساحة رسول الله عليه السلام عما ظن به الرماة يوم أحد حتى تركوا المركز وأفاضوا في الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم» وأما المبالغة في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع فغنم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعدهم فقسمها بين الحاضر ولم يترك للطلائع شيئاً فنزلت والمعنى ما كان لنبي أن يعطي قوماً من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي يأت بالذي غل بعينه يحمله على عنقه فيفتضح به على رؤوس الأشهاد وهو كقوله عليه السلام: «من غصب قدر شبر من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين» قال عليه السلام: «من بعثناه على عمل فغل شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه» وقال ﷺ: «هدايا الولاة غلول» أي قبول الولاة الهدايا غلول لأنه في معنى الرشوة. وروي أنه ﷺ قال: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء وببقر له خوار وشاة لها ثغاء فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئاً فقد

بلغتك» وقيل لأبي هريرة رضي الله عنه: كيف يأتي بما غل وهو كثير كبير بأن غل أموالاً جمة فقال: أرأيت من كان ضرسه مثل أحد وفخذه مثل ودقان وساقه مثل جبل ومجلسه ما بين المدينة وريدان يحمل مثل هذا ويجوز أن يراد بما احتمل من وباله وإثمه ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت**﴾ أي تعطى وافياً جزاء ما كسبت خيراً أو شراً كثيراً أو يسيراً وكان اللائق بما قبله أن يقال: ثم يوفى ما كسب لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى ﴿**وهم**﴾ أي كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿**لا يظلمون**﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿**أفمن اتبع رضوان الله**﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف والتقدير أمن اتقى فاتبع رضوان الله أي سعى في تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان يفعل الطاعات ويترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته ﴿**كمن باء**﴾ أي رجع ﴿**بسخط**﴾ غضب عظيم لا يقادر قدره كائن ﴿**من الله**﴾ بسبب معاصيه كالغال ومن تدين بدينه والمراد أنهما لا يستويان ﴿**ومأواه**﴾ أي مأوى من باء بسخط من الله ﴿**جهنم وبئس المصير**﴾ والفرق بينه وبين المرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع.

﴿**هم**﴾ راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى ﴿**درجات عند الله**﴾ أي طبقات مختلفة متفاوتة في علمه وحكمه تعالى شبهوا في تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وإيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ومراتب الخلق في أعمال المعاصي والطاعات متفاوتة فوجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨] والمعنى ذو درجات ﴿**والله بصير بما يعملون**﴾ من الأعمال ودرجاتها فمجازيهم بحسبها.

واعلم أن الغلول من الكبائر والغال خائن ومن حاله أن يكون الغالب عليه النفس وهواها والأنبياء منسلخون عن صفات البشرية متصفون بصفات الربوبية معصومون من الرذائل وصفات النفس ودواعي الشيطان قائمون بالله فلا يمكن صدور أمثال ذلك منهم فالنبي في جنة الصفات ومقام الرضوان والغال في جحيم النفس وهاوية الهوى فلا يساوي حال الغال أحوال الأنبياء ولذلك قال: ﴿**هم درجات عند الله**﴾. فعلى العاقل أن يسارع إلى تكميل الدرجات والوصول إلى أحسن الحالات. قالوا أهل الجنة أربعة أصناف: الرسل والأنبياء، ثم الأولياء وهم أتباع الرسل على بصيرة وبينة من ربهم، ثم المؤمنون وهم المصدقون بهم عليهم السلام، ثم العلماء بتوحيد الله أنه لا إله إلا هو من حيث الأدلة العقلية وهم المراد بأولي العلم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] وفيهم يقول الله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١] وهؤلاء الطوائف الأربع يتميزون في جنات عدن عند رؤية الحق في الكثيب الأبيض وهم فيه على أربعة مقامات: طائفة منهم أصحاب منابر وهي الطبقة العليا الرسل والأنبياء، والطائفة الثانية هم الأولياء ورثة الأنبياء قولاً وعملاً وحالاً وهم أصحاب الأسرة والعرش، والطبقة الثالثة العلماء بالله من طريق النظر البرهاني العقلي وهم أصحاب

الكرسي، والطبقة الرابعة هم المؤمنون المقلدون في توحيدهم ولهم المراتب وهم في المحشر مقدمون على أصحاب النظر العقلي وهم في الكثيب يتقدمون على المقلدين:

قيامت كه نيكان باعلى رسند زقعر ثرا بر ثريا رسند
تراخود بما ندسر ازننك پيش كه كردت بر آيد عملهاى خويش
قيامت كه بازار مينونهند منازل بأعمال نيكونهد

والخلق متفاوتون في الأعمال وتفاضلهم على مراتب: فمنها بالسن ولكن في الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السن على الصغير السن إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل. ومنها بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة في عاشوراء أعظم من سائر الأيام والأزمان. ومنها بالمكان فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة وهي من الصلاة في المسجد الأقصى وهي منها في سائر المساجد. ومنها بالأحوال فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده. ومنها بنفس الأعمال فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى. ومنها في العمل الواحد فالمتصدق على رحمه صاحب صلة رحم وصدقة وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل من أن يهدي لغيره وأحسن إليه ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة فيصرف سمعه وبصره ويده فيما ينبغي في زمان صومه وصدقته بل في زمان صلاته في زمان ذكره في زمان نيته من فعل وترك فيؤجر في الزمان الواحد من وجوه كثيرة فيفضل غيره ممن ليس كذلك.

بضاعت بچندانكه آرى برى اكر مفلسى شر مسارى برى

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيد فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً فإني لوقد مضيت لم ترني أبداً ويقول الليل مثل ذلك» فاعمل يا أخي عمل من يعلم أنه راجع إلى الله وقادم عليه يجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير وقد قال تعالى: ﴿**والله بصير بما يعملون**﴾ فينبغي أن لا يغفل الإنسان في كل ساعاته.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿**لقد منّ الله على المؤمنين**﴾ جواب قسم محذوف أي والله لقد أنعم الله على من آمن مع الرسول عليه السلام من قومه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لزيادة انتفاعهم بها ﴿**إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم**﴾ أي من نسبهم أو من جنسهم عربياً مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به وفي ذلك شرف عظيم لهم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقرىء من أنفسهم أي أشرفهم فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونها ﴿**يتلو عليهم آياته**﴾ أي القرآن بعدما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي ﴿**ويزكيهم**﴾ أي يطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والأعمال وأوضار الأوزار ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ أي القرآن والسنة ﴿**وإن كانوا من قبل**﴾ أي من قبل بعثته ﷺ وتزكيته وتعليمه ﴿**لفي ضلال مبين**﴾ بين لا ريب في كونه

ضلالاً. وإن هي المخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية.

واعلم أن الله تعالى أرسل محمداً إلى أقوام عتاة أشراس فذلل منهم كل من عتا وعاس ونكس بمولده الأصنام على الرأس وانشق إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة بعدد من سيملك من الناس وخمدت نار فارس وبحيرة ساوة غاضت على غير القياس واختاره مولاه وقدمه على الخلق فهو بمنزلة العين من الرأس وأيام دولته كأيام التشريق وليلات الأعراس فتعجبت قريش من غنى بالفضل بعد فقر الإفلاس فرماهم القرآن بسهام الجدل لا عن أقواس أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس فهو رحمة عامة للأنام وله خطر جليل عند الخواص والعوام وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معدّ وعنصر مضر وجعلنا خضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل» وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «قال لي جبريل يا محمد قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ولم أجد بني أب أفضل من بني هاشم» آدم ومن دونه تحت اللواء.

زانكه بهر اوست خلق ما سوا

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق آدم بألفي عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في طلبه.

نور بهار عالم نور بهار آدم

وذكر أن عبد المطلب جد النبي ﷺ بينا هو نائم في الحجر انتبه مذعوراً قال العباس فتبعته وأنا يومئذٍ غلام أعقل ما يقال فأتى كهنة قريش فقال: رأيت كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهري ولها أربعة أطراف: طرف قد بلغ مشارق الأرض، وطرف قد بلغ مغاربها، وطرف قد بلغ عنان السماء، وطرف قد جاوز الثرى، فبينا أنا أنظر عادت شجرة خضراء لها نور فبينا أنا كذلك قام علي شيخان فقلت لأحدهما: من أنت؟ قال: أنا نوح نبي رب العالمين وقلت للآخر: من أنت؟ قال إبراهيم خليل رب العالمين ثم انتبهت قالوا: إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك نبي ويؤمن به أهل السموات وأهل الأرض ودلت السلسلة على كثرة أتباعه وأنصاره وقوتهم لتداخل حلق السلسلة ورجوعها شجرة تدل على ثبات أمره وعلو ذكره وسيهلك من لم يؤمن به كما هلك قوم نوح وستظهر به ملة إبراهيم وإلى هذا وقعت إشارة النبي عليه الصلاة والسلام يوم حنين حيث قال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

كأنه يقول: أنا ابن صاحب تلك الرؤيا مفتخراً بها لما فيها من علم نبوته وعلو كلمته ثم إنه لا نهاية لأوصافه الشريفة وأخلاقه الحميدة وإنما الكلام في أن يكون المرء ممتلئاً بمحبته مقتفياً بآثار سنته حتى يكون من أمته حقيقة والخدمة في عتبة بابه من جهة الشريعة والطريقة من أقوى الوسائل إلى الوصول.

ـ حكي ـ أن مريداً مدعياً قال: إن شيخي يعرف مقامي في هذه الطريقة واستحقاقي

للخلافة والنصب في مقام الإرشاد فما له لا يجيزني بالخلافة فسمع ذلك شيخه فاستخدمه أياماً فأظهر ذلك الصوفي الكسل في خدمته ولم يخدمه بالشوق والاجتهاد فرأى حاله الشيخ فقال منكراً لما ادعاه من لا يقدر على خدمة الخلق كيف يقدر على خدمة الخالق؟ فانظر كيف جعل خدمة الخلق من أسباب خدمة الخالق والوصول إليه وهكذا من كان في قلبه ميل إلى وصول الحق فلا بد له أن يرجع أولاً إلى خدمة شريعة النبي ﷺ وسننه حتى يحبه النبي عليه الصلاة والسلام فيحبه الله تعالى.

محالست سعدى كه راه صفا تـوان رفـت جـز دربـى مـصـطـفـا

شرفنا الله وإياكم برعاية سننه وآدابه والاقتفاء بآثار آله وأصحابه إنه المنان جزيل الإحسان واسع الغفران في كل زمان **﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾** الواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف إلى ما بعده وقد أصبتم في محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وبمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا فالهمزة للتقرير والتقريع على قولهم لو كان رسولاً من عند الله لما انهزم عسكره من الكفار يوم أحد وأدى ذلك إلى أن قالوا: من أين هذه المغلوبية للمشركين فكيف صاروا منصورين علينا مع شركهم وكفرهم بالله ونحن ننصر رسول الله ودين الإسلام وهو استفهام على سبيل الإنكار فأمر الله تعالى ورسوله عليه السلام بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد فقال: **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** أي هذا الانهزام إنما حصل بشؤم عصيانكم حيث خالفتم الأمر بترك المركز والحرص على الغنيمة **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان﴾ أي جمعكم وجمع المشركين يريد يوم أحد **﴿فبإذن الله﴾** أي فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سماها إذناً لأنها من لوازمه **﴿وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾** أي: وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء **﴿وقيل لهم﴾** عطف على نافقوا داخل معه في هذه الصلة وهم عبد الله بن أبي وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ فقال لهم عبد الله بن حرام أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم إلى القتال وذلك قوله تعالى: **﴿تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾** عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه **﴿قالوا﴾** حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين **﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾** أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء النفس إلى التهلكة أو ولو نحسن قتالاً لاتبعناكم وإنما قالوه دخلاً واستهزاء **﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾** ومعنى كون قربهم إلى الكفر أزيد يومئذٍ من قربهم إلى الإيمان أنهم كانوا قبل ذلك الوقت كاتمين للنفاق فكانوا في الظاهر أبعد

من الكفر فلما ظهر منهم ما كانوا يكتمون صاروا أقرب للكفر فإن كل واحد من انخذالهم برجوعهم عن معاونة المسلمين وكلامهم المحكي عنهم يدل على أنهم ليسوا من المسلمين ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾ يظهرون خلاف ما يضمرون لا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير فإن الكلام وإن كان يطلق على اللسان والنفساني إلا أن القول لا يطلق إلا على ما يكون باللسان والفم فذكر الأفواه بعده تأكيد كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وتصوير لحقيقة لقول بصورة فرده الصادر عن آلته التي هي الفرد ﴿**والله أعلم بما يكتمون**﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿**الذين قالوا**﴾ مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون ﴿**لإخوانهم**﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار فيندرج فيهم بعض الشهداء ﴿**وقعدوا**﴾ حال من ضمير قالوا بتقدير قد أي قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال ﴿**لو أطاعونا**﴾ أي فيما أمرناهم ووافقونا في ذلك ﴿**ما قتلوا**﴾ كما لم نقتل وفيه إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا وأغووهم كما غووا ﴿**قل**﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم ﴿**فادرأوا**﴾ أي ارفعوا ﴿**عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أي إن كنتم صادقين فيما ينبىء عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت الذي كتب عليكم معلقاً بسبب خاص موقتاً بوقت معين بدفع سببه فإن أسباب الموت في إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من إخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوباً لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فإن ذلك مما لا سبيل إليه بل قد يكون القتال سبباً للنجاة والقعود مؤدياً إلى الموت.

زپيش خطر تاتواني كريز ... وليكن مكن باقضا پنچه تبز
كرت زندكاني نبشتست دير ... نه مارت كر آيدنه شمشيروتير

واعلم أن الموت ليس له سن معلوم ولا أجل معلوم ولا مرض معلوم وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعداً لذلك وكان بعض الصالحين ينادي بالليل على سور المدينة الرحيل الرحيل فلما توفي فقد صوته أمير تلك المدينة فسأل عنه فقيل: إنه مات فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً متشمراً ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

ـ روي ـ أنه مر دانيال عليه السلام ببرية فسمع منادياً يا دانيال قف ساعة تر عجباً فلم ير شيئاً ثم نادى الثانية قال: فوقفت فإذا بيت يدعوني إلى نفسه فدخلت فإذا سرير مرصع بالدر والياقوت فإذا النداء من السرير اصعد يا دانيال تر عجباً فارتقيت السرير فإذا فراش من ذهب

مشحون بالمسك والعنبر فإذا عليه شاب ميت كأنه نائم وإذا عليه من الحلي والحلل ما لا يوصف وفي يده اليسرى خاتم من ذهب وفوق رأسه تاج من ذهب وعلى منطقته سيف أشد خضرة من البقل فإذا النداء من السرير أن احمل هذا السيف واقرأ ما عليه قال: فإذا مكتوب عليه هذا سيف صمصام بن عوج بن عنق بن عاد بن ارم وأني عشت ألف عام وسبعمائة وافتضضت اثني عشر ألف جارية وبنيت أربعين ألف مدينة وهزمت سبعين ألف جيش وفي كل جيش قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل وباعدت الحكيم وقربت السفيه وخرجت بالجور والعنف والحمق عن حد الإنصاف وكان يحمل مفاتيح الخزائن أربعمائة بغل وكان يحمل إلي خراج الدنيا فلم ينازعني أحد من أهل الدنيا فادعيت الربوبية فأصابني الجوع حتى طلبت كفاً من ذرة بألف قفيز من درّ فلم أقدر عليه فمت جوعاً يا أهل الدنيا اذكروا أمواتكم ذكراً كثيراً واعتبروا بي ولا تغرنكم الدنيا كما غرتني فإن أهلي لم يحملوا من وزري شيئاً. فعلى العاقل أن لا يركن إلى الدنيا ويتذكر مرجعه ويتجنب عن المنافقة والظلم والجور ويتصف بالإخلاص والعدل والإحسان فإنه هو المفيد، قال ابن الكمال:

پرده داری ميكند در طاق كسرى عنكبوت
بوم نوبت ميزند بر قلعة افراسياب
تخم احسانرا چه داری برفشان اي بی خبر
چونكه دانی دانه عمرت خوردايِن آسياب

جعلنا الله وإياكم من المتيقظين الواصلين إلى ذروة اليقين قبل حلول الأجل والحين.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾ المراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمرو وعثمان بن شهاب وعبد الله بن جحش وباقيهم من الأنصار.

قال القاشاني: الأفصح الأبلغ أن يجعل الخطاب في ﴿ولا تحسبن﴾ لكل أحد لأنه أمر خطير يجب أن يبشر به كل واحد لتتوفر دواعيهم إلى الجهاد وليتيقنوا بحسن الجزاء وإن كان للرسول ﷺ فالمراد به نهي الأمة وتنبيههم على حالهم وإلا فرسول الله أجل مرتبة من ذلك الحسبان ﴿بل أحياء﴾ أي بل هم أحياء ﴿عند ربهم﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر والعندية المكانية مستحيلة فتعين حملها على أنهم مقربون منه تعالى قرب التكريم والتعظيم ﴿يرزقون﴾ من ثمار الجنة وتحفها وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله تعالى والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً ﴿ويستبشرون﴾ معطوف على قوله فرحين عطف الفعل على الاسم لكون الفعل في تأويل الاسم كأنه قيل: فرحين ومستبشرين وبناء استفعل ليس للطلب بل هو بمعنى المجرد نحو استغنى الله أي غنى وقد سمع بشر الرجل بكسر العين فيكون استبشر بمعناه وقيل هو مطاوع ابشر نحو أراحه فاستراح فإن البشرى حصلت لهم بإبشار الله تعالى وإليه أشار الزمخشري في الكشاف بقوله: بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به والبيضاوي بقوله: يسرون بالبشارة ﴿بالذين لم يلحقوا بهم﴾ أي بإخوانهم الذين لم يقتلوا بعده في سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿من خلفهم﴾ متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أن لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون﴾ بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم وإن هي المخففة أي يفرحون بما بشر لهم وبين من حيث حال إخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا يفوزون بحياة أبدية لا يدركها خوف وقوع محذور ولا حزن فوت مطلوب والخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل في المستقبل والحزن يكون بسبب فوت المنافع التي كانت موجودة في الماضي فبين الله أنه لا خوف عليهم مما سيأتيهم من أهوال القيامة وأحوالها ولا حزن لهم مما فاتهم من نعم الدنيا ولذاتها.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿يستبشرون بنعمة﴾ كائنة **﴿من الله﴾** كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم **﴿وفضل﴾** أي زيادة عظيمة كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] **﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾** كافة سواء كانوا شهداء أو غيرهم وهو بفتح أن عطف على فضل منتظم معه في سلك المستبشر به. قال الإمام: الآية تدل على أن استبشارهم بسعادة إخوانهم من استبشارهم بسعادة أنفسهم لأن الاستبشار الأول في الذكر هو بأحوال الإخوان وهذا تنبيه من الله على أن فرح الإنسان بصلاح حال إخوانه ومتعلقه يجب أن يكون أتم وأكمل من فرحه وصلاح أحوال نفسه.

واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن هؤلاء المقتولين وإن فارقت أرواحهم من أجسادهم إلا أنهم أحياء في الحال. واختلف القائلون بحياتهم في الحال أنها للروح أو للبدن ولا بد هٰهنا من تقديم مقدمة ليتضح بها المقام وهي أن الإنسان المخصوص ليس عبارة عن مجموع هذه البنية المخصوصة بل هو شيء مغاير لها وذلك لأن أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال والتبدل والتغير بالسمن وضده والصغر وخلافه والإنسان المخصوص شيء واحد باق من أول عمره إلى آخره والباقي مغاير للمتبدل فثبت أن الإنسان مغاير لهذا البدن المخصوص ثم بعد هذا يحتمل أن يكون جسماً مخصوصاً سارياً في هذه الجثة سريان النار في الفحم والدهن في السمسم وماء الورد في الورد ويحتمل أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ليس بجسم ولا حال في الجسم وعلى كلا المذهبين لا يبعد أن ينفصل ذلك الشيء حياً عند موت البدن فيثاب ويعذب على حسب أعماله والدلائل العقلية والنقلية الدالة على بقاء النفوس بعد موت الأجساد كثيرة متعاضدة فوجب المصير إليه وبه تزول الشبهات الواردة على القول بثواب القبر كما في هذه الآية وعلى القول بعذاب القبر كما في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] إذا لم تمت النفوس بموت الأبدان أو قلنا بأنه تعالى أماتها ثم أعاد الحياة إليها كما يدل عليه ما روي في بعض الأخبار أنه قال ﷺ في صفة الشهداء «إن أرواحهم في أجواف طير خضر وإنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مطعمهم ومسكنهم ومشربهم قالوا: يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد فقال الله تعالى: أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا» فأنزل الله هذه الآية. والذين أثبتوا هذه الحياة للأجساد اختلفوا. فقال بعضهم: إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات إلى قناديل تحت العرش ويوصل أنواع

السعادات والكرامات إليها. ومنهم من قال: يتركها في الأرض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها كذا في «تفسير الإمام» ولابن سينا رسالة في علم النفس ولعمري قد بلغ القصوى في التحقيق فليطلبها من أراد، وفضائل الشهداء لا نهاية لها قال رسول الله ﷺ: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة وله سبع خصال يغفر له في أول قطرة قطرت من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج بثلاث وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقربائه».

ـ ويروى ـ أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى ادعوا إلي خيرتي من خلقي فيقولون: يا رب من هم فيقول الشهداء الذين بذلوا دماءهم وأموالهم وأنفسهم فيمرون على رب العزة وسيوفهم على أعناقهم فيدخلون مساكنهم في الجنة وينصب يوم القيامة لواء الصدق لأبي بكر وكل صديق يكون تحت لوائه ولواء العدل لعمر وكل عادل يكون تحت لوائه ولواء السخاوة لعثمان وكل سخي يكون تحت لوائه ولواء الشهداء لعلي وكل شهيد يكون تحت لوائه وكل فقيه تحت لواء معاذ بن جبل وكل زاهد تحت لواء أبي ذر وكل فقير تحت لواء أبي الدرداء وكل مقرىء تحت لواء أبي بن كعب وكل مؤذن تحت لواء بلال وكل مقتول ظلماً تحت لواء الحسين بن علي رضي الله عنهما فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قيل: أرواح الشهداء وإن كانت في عليين إلا أنها تزور قبورها كل جمعة على الدوام ولذلك يستحب زيارة القبور ليلة الجمعة ويوم الجمعة قال عليه السلام: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه». قال الجنيد قدس سره: من كانت حياته بنفسه يكون مماته بذهاب روحه ومن كانت حياته بربه فإنه ينتقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل وهي الحياة الحقيقة وإذا كان القتيل بسيف الشريعة حياً مرزوقاً فكيف من قتل بسيف الصدق والحقيقة.

هر كز نميرد آنكه دلش زنده شد بعشق ثبتست بر جريدة عالم دوام ما

قال القاشاني المقتول في سبيل الله صنفان: مقتول بالجهاد الأصغر وبذل النفس طلباً لرضى الله كما هو الظاهر. ومقتول بالجهاد الأكبر وكسر النفس وقتلها بسفرة الحب وقمع الهوى كما روي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال عند رجوعه من بعض الغزو: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وكلا الصنفين ليسوا بأموات بل أحياء عند ربهم بالحياة الحقيقة مجردين من دنس الطبائع مقربين في حضرة القدس يرزقون في الجنة المعنوية من الأرزاق المعنوية أي المعارف والحقائق واستشراق الأنوار ويرزقون في الجنة الصورية كما يرزق الأحياء أو من كليهما فإن للجنان مراتب بعضها معنوية وبعضها صورية ولكل منهما درجات على حسب المعارف والعلوم والمكاسب والأعمال فالمعنوية جنة الذات وجنة الصفات وتفاضل درجاتها بحسب تفاضل المعارف والترقي في الملكوت والجبروت والصورية جنة الأفعال وتفاوت درجاتها بحسب تفاوت الأعمال والتدرج في مراتب عالم الملك من السموات العلى والجنات المحتوية على جميع المنى وما روي من الحديث في شهداء أحد فالطير الخضر فيه إشارة إلى الأجرام السماوية والقناديل هي الكواكب أي تعلقت بالنيرات من الأجرام السماوية لنزاهتها وأنهار الجنة منابع العلوم ومشارعها ثمارها الأحوال والكشوف

والمعارف أو الأنهار والثمار الصورية على حسب جنتهم المعنوية أو الصورية فإن كل ما وجد في الدنيا من المطاعم والمشارب والمناكح والملابس وسائر الملاذ والمشتهيات موجود في الآخرة في عالم المثال وفي طبقات السماء ألذ وأصفى مما في الدنيا يستبشرون بنعمة الأمن من العقاب اللازم للنقص والتقصير والنجاة من الحزن على فوات نعمة الدنيا لحصول ما هو أشرف وأصفى وألذ وأبقى من جنات الأفعال وفضل هو زيادة جنات الصفات المشار إليها بالرضوان أو نعمة جنة الصفات وفضل جنة الذوات وأن أجر إيمانهم من جنة الأفعال لا يضيع مع ذلك انتهى كلامه فلا بد للسالك من بذل المال والبدن والروح حتى يحصل لهم أنواع الفتوح.

دلا طمع مبراز لطف بى نهايت دوست چولاف عشق زدى سرباز چابك وچست

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ أي أجابوا وأطاعوا فيما أمروا به ونهوا عنه كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي الجرح في غزوة أحد ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ يدخل تحته الإتيان بجميع المأمورات ﴿واتقوا﴾ يدخل تحته الانتهاء عن جميع المنهيات ﴿أجر عظيم﴾ ثواب عظيم وجملة قوله للذين خبر مقدم مبتدأه أجر عظيم والجملة في محل الرفع خبر الذين استجابوا وكلمة من في قوله منهم ليست للتبعيض لأن الذين استجابوا لله والرسول كلهم قد أحسنوا لا بعضهم بل هي لبيان الجنس ومحصل المعنى حينئذٍ الذين استجابوا لله والرسول لهم أجر عظيم إلا أنهم وصفوا بوصفي الإحسان والتقوى مدحاً لهم وتعليلاً لعظم أجرهم بحسن فعالهم لا تقييداً.

ـ روي ـ أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء وهو موضع بين مكة والمدينة ندموا وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا ما بقي من المؤمنين فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال: لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس أي وقعتنا والعرب تسمي الوقائع أياماً ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] فخرج رسول الله عليه السلام إراءة من نفسه ومن أصحابه جلداً وقوة ومعه جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم أي حملوا المشقة على أنفسهم كيلا يفوتهم الأجر وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت، فهذه هي غزوة حمراء الأسد متصلة بغزوة أحد، وأما غزوة بدر الصغرى فقد وقعت بعدها بسنة وإليها الإشارة بقوله تعالى:

﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعني الركب استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي وإطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه ﴿إن الناس﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿قد جمعوا لكم﴾ أي اجتمعوا ﴿فاخشوهم﴾.

ـ روي ـ أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة نادى: يا محمد

موعدنا موسم بدر الصغرى لقابل نقتتل بها إن شئت فقال ﷺ: «إن شاء الله» فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله في قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فمر به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب أن ثبطوا المسلمين أو لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر إلا أن هذا العام عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي أن ارجع ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل وضمنها سهيل بن عمرو فجاء نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم: ما هذا بالرأي أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد أي لم يتخلص إلا شريد وهو الفار النافر المبعد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد فأثر هذا الكلام في قلوب قوم منهم فلما عرف رسول الله ﷺ ذلك منهم قال: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد فخرج في سبعين راكباً كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل» ﴿فزادهم﴾ القول ﴿إيمانا﴾ والمعنى لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي محسبنا وكافينا من أحسبه إذا كفاه ﴿ونعم الوكيل﴾ أي: الموكول إليه هو أي الله.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤
إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ١٧٦﴾

﴿فانقلبوا بنعمة من الله﴾ الفاء فصيحة، أي: خرجوا إليهم ووافوا الموعد فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقادر قدرها كائنة من الله تعالى وهي العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم ﴿وفضل﴾ أي: ربح في التجارة عظيم ﴿لم يمسسهم سوء﴾ سالمين من السوء أي لم يصبهم أذى ولا مكروه.

ـ روي ـ أنه ﷺ وافى بجيشه بدراً الصغرى وكانت موضع سوق لبني كنانة يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام ولم يلق صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه هناك أحداً من المشركين وأتوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا ارياً وزبيباً وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق ﴿واتبعوا﴾ في كل ما أتوا من قول وفعل وهو عطف على انقلبوا ﴿رضوان الله﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجرأتهم وخروجهم ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ حيث تفضل بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب في الدين وإظهار الجرأة على العدو وحفظهم من كل ما يسوؤهم مع إصابة النفع الجليل. وفيه تحسير لمن تخلف عنهم وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

﴿إنما ذلكم﴾ أي المثبط أيها المؤمنون وهو مبتدأ ﴿الشيطان﴾ خبره ﴿يخوف أولياءه﴾ المنافقين غلبة المشركين وقهرهم ليقعدوا عن قتالهم فهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض وقد

تخلفوا عن رسول الله في الخروج والمعنى أن تخويفه بالكفار إنما يتعلق بالمنافقين الذين هم أولياؤه وأما أنتم أيها المؤمنون فأولياء الله وحزبه الغالبون لا يتعلق بكم تخويفه ﴿**فلا تخافوهم**﴾ أي الشيطان وأولياءه من أبي سفيان وغيره ﴿**وخافون**﴾ في مخالفة أمري ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله عز وجل على خوف غيره ويستدعي الأمن من شر الشيطان وأوليائه. والخوف على ثلاثة أقسام: خوف العام وهو من عقوبة الله، وخوف الخاص وهو من بعد الله، وخوف الأخص وهو من الله وإلى هذه المراتب أشار النبي عليه السلام بقوله: «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك» فعلى السالك أن يفنى عن نفسه وصفاتها ولا يرى في الكون وجوداً غير وجوده فلا يخاف إلا منه فإنه هو القاهر فوق عباده وهو الكافي جميع الأمور. قال نجم الدين الكبرى قدس سره آخر مقام الخلة أن يكبر على نفسه وجميع المكونات أربع تكبيرات ويتحقق له أن الله حسبه من كل شيء وهو نعم الوكيل عن نفسه وما سواه، قال الحافظ الشيرازي:

من همان دمكه وضو ساختم ازچشمه عشق

چار تكبير زدم يكسره بر هرچه كه هست

يشير إلى أنه وقت قيامه بالعشق رأى وجود غير الله ميتاً بمنزلة الجماد وقد قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وصلاة الميت بأربع تكبيرات لا غير وهذا هو الفناء عن نفسه وعن المكونات حققنا الله تعالى بحقيقة التوحيد. قال أبو يزيد: كنت اثنتي عشرة سنة حداداً لنفسي وخمسين سنة مرآة قلبي وسنة انظر فيها فإذا في وسطي زنار ظاهر فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة ثم نظرت فإذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين انظر كيف أقطع فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات، وقيل لأبي يزيد البسطامي بعد وفاته كيف كان حالك مع منكر ونكير فقال: لما قالا لي من ربك قلت لهما اسألا ربي فإن قال: هو عبدي يكفي وإلا فلو قلت: أنا عبده مراراً لا يفيد بلا قبوله وحقيقة العبودية بالتبري من جميع ما سوى الله ولو من صومه وصلاته وسائر عباداته.

ـ روي ـ أن أبا يزيد في آخر عمره دخل محرابه وقال: إلهي لا أذكر صومي ولا صلاتي ولا غيرهما بل أقول أفنيت عمري في الضلالة فالآن قطعت زناري وجئت بابك بالاستسلام وهو الإسلام وهذا هو الإنصاف من نفسه حقيقة. قال الشيخ السعدي في حق شيخه السهروردي:

شبى دائم ازهول دوزخ نخفت بكوش آمدم صبحكاهى كه كفت

چه بودى كه دوزخ زمن پرشدى مكر ديكرانرا رهايى بدى

فالعاقل لا يزكي نفسه ولا يراها محلاً لكرامة الله بل يتواضع بحيث يرى أعماله السيئة كثيرة بالنسبة إلى أعماله الصالحة بل ولا يرى في نفسه إلا العدم المحض.

واعلم أن من شعار المسلمين وعادة المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله ولا يخافوا لومة اللائمين ألا يرى أن الله تعالى كيف مدح قوماً حالهم كذلك بقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] فمن كان مع الله فهو يعصمه وينصره على أعدائه خصوصاً عدو النفس الأمارة:

كسى رادانم أهل استقامت | كه باشد برسر كوى ملامت
زاوصاف طبيعت پاك مرده | باطلاق هويت جان سپرده
برفته سايه وخرشيد مانده | تمام ازكرد خوددا من فشانده

أوصلنا الله وإياكم إلى الخلوص واليقين والتمكين آمين ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ أي يقعون فيه سريعاً لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وهم المنافقون المتخلفون الذين يسارعون إلى ما أبطنوه من الكفر مظاهرة للكفار وسعياً في إطفاء نور الله ﴿**إنهم لن يضروا الله شيئاً**﴾ أي لن يضروا بذلك أولياء الله ودينه البتة شيئاً من الضرر ﴿**يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة**﴾ أي يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم في الآخرة نصيباً ما من الثواب ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلكوا على الكفر. وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ النهاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته وأن مسارعتهم إلى الكفر لأنه تعالى لم يرد لهم أن يكون لهم حظ في الآخرة ﴿**ولهم**﴾ مع ذلك الحرمان الكلي بدل الثواب ﴿**عذاب عظيم**﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿**إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان**﴾ أي أخذوه بدلاً منه رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه ﴿**لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم**﴾ ولما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتأمله عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك.

﴿**ولا يحسبن الذين كفروا**﴾ الموصول مع صلته فاعل لا يحسبن ﴿**أنما**﴾ بما في حيزها سادة مسد مفعوليه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدأ والخبر وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ولكنها وقعت في مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه متصلة فلا يخالف وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف ﴿**نملي لهم**﴾ الإملاء الإمهال وإطالة المدة والملي مقصوراً الدهر والملوان الليل والنهار لتعاقبهما أي أن إملاءنا لهم أو أن ما نمليه لهم ﴿**خير لأنفسهم**﴾ من منعهم عن إرادتهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم ﴿**إنما**﴾ كافة حقها الاتصال ﴿**نملي لهم ليزدادوا إثماً**﴾ اللام لام الإرادة عند أهل السنة القائلين بأنه تعالى فاعل الخير والشر مريد لهما فإن الإملاء الذي هو إطالة العمر لا شك أنه من أفعاله تعالى وأنه ليس بخير لهم لأنهم يتوسلون به إلى ازدياد الإثم والطغيان فهو تعالى لما أمهلهم وأطال عمرهم بإرادته واكتسبوا بذلك مآثم من الكفر والطغيان كان خالقاً لتلك المآثم أيضاً ولا تخلق إلا بالإرادة فهو مريد لها كما أنه مريد لأسبابها المؤدية إليها وليست لام العلة لأن أفعاله تعالى ليست معللة بالأغراض وعند المعتزلة لام العاقبة ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾ أي يهانون به في الآخرة قال عليه السلام: «خير الناس من طال عمره وحسن

عمله وشر الناس من طال عمره وساء عمله». ودلت الآية على أن إطالة عمر الكافر والفاسق وإيصاله إلى مراداته في الدنيا ليس بخير بل هي نعمة في الصورة ونقمة في الحقيقة ألا يرى أن من أطعم إنساناً خبيصاً مسموماً لا يعد ذلك نعمة عند الحقيقة لإفضائه إلى الهلاك والعقوبة فينبغي للعبد أن لا يغتر بطول العمر وامتداده ولا بكثرة أمواله ولا أولاده:

غره مشو بآن كه جهانت عزيز كرد ... اي بس عزيز راكه جهان كردزود خوار
مارست اين جهان وجها نجوى ماركير ... وزماركير مار برآرد كهى دمار

قال الله لرسول الله ﷺ ليلة المعراج: «إن من نعمي على أمتك أني قصرت أعمارهم كيلا تكثر ذنوبهم وأقللت أموالهم كيلا يشتد في القيامة حسابهم وأخرت زمانهم كيلا يطول في القبور حبسهم» وقال أيضاً: «يا أحمد لا تتزين بلين اللباس وطيب الطعام ولين الوطاء فإن النفس مأوى كل شر وهي رفيق سوء كلما تجرها إلى طاعة تجرك إلى معصية وتخالفك في الطاعة وتطيع لك في المعصية وتطغى إذا شبعت وتتكبر إذا استغنت وتنسى إذا ذكرت وتغفل إذا أمنت وهي قرينة للشيطان» وقيل مثل النفس كمثل النعامة تأكل الكثير وإذا حملت عليها لا تطير وإذا قيل أنت طائر قالت أنا بعير وهذه رجلي وإذا حملت عليها شيئاً قالت أنا طائر وهذا جناحي فكثرة المال وكمال الاستغناء تغر النفس قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ـ ٧].

مبر طاعت نفس شهوت پرست ... كه هر ساعتش قبله ديكر ست

قال السعدي قدس سره:

شنيده ام كه بقصاب كوسفندى كفت ... دران زمانكه بخنجر سرش زتن ببريد
جزاي هر بن خارى كه خورده ام ديدم ... كسى كه بهلوى چر بم خورد چه خواهد ديد

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع وشد الحجر من السغب فقال: «يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها. يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد» قال عليه السلام: «الدنيا والآخرة ضرتان فمن يطلب الجمع بينهما فهو ممكور ومن يدعي الجمع بينهما فهو مغرور» فمن رام مع متابعة الهوى البلوغ إلى الدرجات العلى فهو غريق في الغفلة فالله تعالى يمهله في طغيان النفس بالحرص على الدنيا حتى يتجاوز في طلبها حد الاحتياج إليها ويفتح أبواب المقاصد الدنيوية عليه ليستغني بها وبقدر الاستغناء يزيد طغيانه:

بناز ونعمت دنيا منه دل ... كه دل بر داشتن كاريست مشكل

فيا أيها الإخوان الذين مضوا قبلنا من الأمم قد عاشوا طويلاً وجمعوا كثيراً فتذكروا موتهم ومصارعهم تحت التراب وتأملوا كيف تبددت أجزاؤهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وهلكت بعدهم صغارهم وكبارهم وانقطعت آثارهم وديارهم فلم يرجع من كفر بنعمة الله إلا إلى العذاب والخسران ولم يصر إلا إلى دركات النيران فمن كانت غفلته كغفلتهم فسيصير إلى ما صاروا إليه وإن عاش طويلاً فإن الله يمهل ولا يهمل قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [لقمان: ٢٤] وما الحياة والتمتع بها إلا قليل.

فالدنيا ساعة فاجعلها طاعة لعلك تلحق بالجماعة من أهل الوصول وأرباب القبول. وجميع الطاعات من أسباب الفلاح خصوصاً الصلاة أفضل العبادات وأعلاها وأشرف الطاعات وأسناها. والصوم سبب الولوج في ملكوت السموات وواسطة الخروج من رحم مضايق الجسمانيات المعبر عنه بالنشأة الثانية كما أشير إليه بقول عيسى عليه السلام: [لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين] بل مجاهدة الصوم رابطة مشاهدة اللقاء وإليه يشير الحديث القدسي وهو قوله جل شأنه «الصوم لي وأنا أجزي به» يعني أنا جزاؤه ولهذا علق سبحانه نيل سعادة الرؤية بالجوع حيث قال في مخاطبة عيسى عليه السلام: [تجوع تراني].

هـمـي آيـد ازحـق نـدا مـتـصـل ... تـجـوع تـرانـي تـجـرد تـصـل

رزقنا الله وإياكم.

﴿ما كان الله﴾ مريداً ﴿ليذر﴾ لأن يترك ﴿المؤمنين﴾ المخلصين ﴿على ما أنتم عليه﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ ماز الشيء يميزه ميزاً عزله وأفرزه والمعنى ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم أو بالجهاد أو بالهجرة ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أي وما كان الله ليؤتى أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر وإيمان ﴿ولكن الله يجتبي﴾ يصطفي ﴿من رسله من يشاء﴾ فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ بصفة الإخلاص أو بأن تعلموه وحده مطلعاً على الغيب وتعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يعلمون إلا ما أوحى إليهم ﴿وإن تؤمنوا﴾ حق الإيمان ﴿وتتقوا﴾ النفاق ﴿فلكم﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿أجر عظيم﴾ لا يبلغ كنهه وهذا الأجر على قدر عظم التقوى فإن السير إلى المقصد الأعلى والوصول إلى منازل الاجتباء لا يتهيأ إلا بقدمي التقى:

قـدم بـايـد انـدر طـريـقـت نـه دم ... كـه أصـلـي نـدارد دم بـي قـدم

قال إبراهيم بن أدهم: بت ليلة تحت صخرة بيت المقدس فلما كان بعض الليل نزل ملكان فقال أحدهما لصاحبه: من هٰهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم فقال ذلك الذي حط الله درجة من درجاته فقال: لم؟ قال: لأنه اشترى بالبصرة التمر فوقعت تمرة على تمره من تمر البقال قال إبراهيم: فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره ورجعت إلى بيت المقدس وبت في الصخرة فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: من هٰهنا؟ فقال أحدهما: ذلك الذي رد التمرة إلى مكانه فرفعت درجته فهذا هو التقوى على الحقيقة ومراعاة الحقوق على الوجه اللائق ولا يتيسر ذلك إلا بالتوسل إلى جناب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإن غيب الحقائق والأحوال لا ينكشف بلا واسطة الرسول وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن﴾ الخ وكيف يترقى إلى حقيقة التقوى وعالم الاطلاق من تقيد برأيه واختياره قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] فلا بد من متابعة النبي عليه السلام.

حـقـا كـه بـي مـتـابـعـت سـيـد رسـل ... هر كز كسى بمنزل مقصود ره نيافت

ازهـيـچ أو بـهـيـچ درى ره نـمـى دهـنـد ... انـرا كـه زآسـتـانـه او روى دل بـتـافـت

فالإيمان بالله وبرسوله هو التصديق القلبي والإرادة والتمسك بالشريعة والنجاة فيه لا في غيره.

- روي - أن المؤمن إذا ورد النار بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] يصير الله ثواب التوحيد سفينة والقرآن حبلها والصلاة شراعها ويكون المصطفى عليه السلام ملاحها والمؤمنون يجلسون عليها ويكبرون الله وتجري السفينة على بحر نار جهنم بريح طيبة فيعبرون عنها سالمين. فيا أخي لا تضيع أيامك فإن أيامك رأس مالك وإنك ما دمت قابضاً على رأس مالك فإنك قادر على طلب الربح فاجتهد في تحصيله بالتوغل في الطاعات والعبادات وإحياء سنة رسول الله ﷺ والصلاة عليه قبل الموت والفوت فإن الموتى يتمنون أن يؤذن لهم بأن يصلوا ركعتين أو يقولوا مرة لا إله إلا الله أو يسبحوا مرة فلا يؤذن لهم ويتعجبون من الأحياء كيف يضيعون أيامهم في الغفلة.

اكر مرده مسكين زبان داشتى بفرياد وزارى فغان داشتى
كه اي زنده هست إمكان كفت لب ازذ كرچون مرده برهم مخفت
چومارا بغفلت بشد روز كار توبارى دمى چند فرصت شمار

قال عليه السلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» فتميز المنافق من المخلص كما يكون في الدنيا بالأقوال والأفعال وغيرهما كذلك يكون في الآخرة ببياض وجه هذا وسواد وجه ذلك كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فعلى العاقل أن يتحمل مشاق الطاعات والتكاليف والامتحانات الإلٓهية لعله يفوز بالمرام ويظفر بالبغية يوم يخيب المعرضون والمنافقون ويخسرون.

خوش بود كر محك تجربه آيدبميان باسيه روى شود هر كه دروغش باشد

قال بعض الكبار: وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان عصمنا الله وإياكم من المخالفة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ الموصول فاعل لا يحسبن والمفعول الأول محذوف لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلهم **﴿هو﴾** ضمير فصل لا محل له من الإعراب **﴿خيراً لهم﴾** من إنفاقهم مفعول ثانٍ للفعل المذكور **﴿بل هو﴾** أي البخل **﴿شر لهم﴾** لاستجلاب العقاب عليهم **﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾** بيان لقوله هو شر لهم أي سيلزمون وبال ما بخلوا به الزام الطوق إذ لا طوق ثمة فيكون من قبيل الاستعارة التمثيلية شبه لزوم وبال البخل وإثمه بهم بلزوم طوق نحو الحمامة بها في عدم زوال كل واحد منهما عن صاحبه فعبر عن لزوم الوبال بهم بالتطويق واشتق منه يطوقون كما يقال منة فلان طوق في رقبة فلان وقيل: هو على حقيقته وأنهم يطوقون حية أو طوقاً من نار استدلالاً بالحديث وسيجيء **﴿ولله﴾** وحده لا لأحد غيره استقلالاً واشتراكا **﴿ميراث السموات والأرض﴾** أي ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات التي يتوارثها أهل السموات فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله أو أنه يورث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والندامة **﴿والله بما تعملون﴾**

من المنع والإعطاء ﴿خبير﴾ فيجازيكم على ذلك.

واعلم أن البخل عبارة عن امتناع أداء الواجب والامتناع عن التطوع لا يكون بخلاً ولذلك قرن به الوعيد والذم والواجب كثير كالإنفاق على النفس والأقارب الذين يلزمه مؤونتهم والصدقة على الغير حال المخمصة وفي حال الجهاد عند الاحتياج إلى التقوية بالمال.

ثم إن في الآية إشارة إلى أن البخل إكسير الشقاوة كما أن السخاء إكسير السعادة وذلك لأن الله تعالى سمى المال فضله كما قال: ﴿من فضله﴾ والفضل لأهل السعادة فبإكسير البخل يصير الفضل قهراً والسعادة شقاوة كما قال: ﴿هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ يعني بإكسير البخل يجعلون خيرية ما آتاهم الله من فضله شراً لهم ولو أنهم طرحوا على ما هو فضله إكسير السخاء لجعلوه خيراً لهم فصيروه سعادة ولصاروا بها أهل الجنة ولن يلج الجنة الشحيح ثم عبر عن آفة حب الدنيا والمال بالطوق لأنها تحيط بالقلب ومنها تنشأ معظم الصفات الذميمة مثل البخل والحرص والحسد والحقد والعداوة والكبر والغضب وغير ذلك ولهذا قال النبي عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فبمنع الزكاة يصير الروح الشريف العلوي النوراني محفوفاً بهذه الصفات الخسيسة السفلية الظلمانية مطوقاً بآفاتها وحجبها وعذابها يوم القيامة وبعد المفارقة فإنه من مات فقد قامت قيامته:

نه منعم بمال ازكسى بهترست خررا جل اطلس بپوشد خرست
هنر بايد وفضل ودين وكمال كه كه آيد وكه رود جاه ومال
پسنديده رأيى كه بخشيد وخورد جهان ازپى خويشتن كرد كرد

قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه» يعني بشدقيه «ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ الآية» في رواية «يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك» وقال ﷺ: «ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون واسمنه تطأه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس». قال أبو حامد: مانع زكاة الإبل يحمل بعيراً على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم. ومانع زكاة البقر يحمل ثوراً على كاهله له خوار وثقل يعدل الجبل العظيم. ومانع زكاة الغنم يحمل شاة لها ثغاء وثقل يعدل الجبل العظيم والرغاء والخوار والثغاء كالرعد القاصف. ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله اعدالا قد ملئت من الجنس الذي كان يبخل به براً كان أو شعيراً أثقل ما يكون ينادي تحته بالويل والثبور. ومانع زكاة المال يحمل شجاعاً أقرع له زبيبتان وذنبه قد انساب في منخريه واستدار بجيده وثقل على كاهله كأنه طوق بكل رحى في الأرض وكل واحد ينادي ما هذا فيقول الملائكة: هذا ما بخلتم به في الدنيا رغبة فيه وشحاً عليه فمنع الزكاة سبب للعقاب في العقبى كما أن إيتاءها سبب للثواب في الأخرى وحصن لماله في الدنيا قال ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا البلايا بالدعاء» قال عليه السلام: «لا صلاة لمن لا زكاة له».

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام مرّ برجل وهو يصلي مع حضور وخشوع فقال: يا رب ما أحسن صلاته قال الله تعالى: «لو صلى في كل يوم وليلة ألف ركعة وأعتق ألف رقبة وصلى

على ألف جنازة وحج ألف حجة وغزا ألف غزوة لم ينفعه حتى يؤدي زكاة ماله» وقال عليه الصلاة والسلام: «ملعون مال لا يزكى كل عام وملعون بدن لا يبتلى في كل أربعين ليلة ومن البلاء العثرة والنكبة والمرضة والخدشة واختلاج العين فما فوق ذلك» فإذا سمعت هذه الأخبار وقفت على وزر من وقف على الإصرار ولم يؤد زكاة ماله بطيبة النفس وصفاء البال إلى أن يرجع فقيراً ميتاً بعدما ساعدته الأحوال والأموال.

پريشان كن امروز كنجينه چست | كه فردا كليدش نه دردست تست
تو باخود ببر توشه خويشتن | كه شفقت نيايد ز فرزند وزن
بخيل توانكر بدينار وسيم | طلسمست بالاى كنجى مقيم
ازان سالها مى بماند زرش | كه لرزد طلسمى چنين بر سرش
بسنك أجل ناكهان بشكنند | بآسودكي كنج قسمت كنند
چو در زندكاني بدي باعيال | كرت مرك خواهند از ايشان منال
تو غافل در انديشه سود مال | كه سر ماية عمر شد بإيمال
بكن سرمة غفلت از چشم پاك | كه فردا شوى سرمه درچشم خاك

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

- روي - أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فدخل أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارسهم فوجد ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له اشيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال: فنحاص يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكاه وجحد ما قاله فنزلت رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر، والجمع حينئذٍ مع كون القائل واحداً لرضى الباقين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العقاب كفاءه والتعبير عنه بالسماع للإيذان بأنه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع. ﴿سنكتب ما قالوا﴾ أي سنكتب ما قالوه من الخطة الشنعاء في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب. والسين للتأكيد أي لن يفوتنا أبداً تدوينه وإثباته لكونه في غاية العظم والهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم عليه

السلام. ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ عطف عليه إيذاناً بأنهما في العظم إخوان وتنبيهاً على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يبعد منه أمثال هذه العظائم والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿بغير حق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من قتلهم أي كائناً بغير حق وجرم في اعتقادهم أيضاً كما هو في نفس الأمر ﴿ونقول﴾ عند الموت أو عند الحشر أو عند قراءة الكتاب ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي وننتقم منهم بعد الكتبة بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المحرق كما أذقتم المرسلين الغصص ﴿ذلك﴾ إشارة إلى العذاب المذكور ﴿بما قدمت أيديكم﴾ بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصي والتعبير عن الأنفس بالأيدي لأن أكثر الأعمال يزاول بهن فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب. ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلي مقررة لمضمون ما قبلها أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم.

والإشارة في تحقيق الآيتين أن العبد إذا غلبت عليه الصفات الذميمة واستولى عليه الهوى والشيطان ومات قلبه تكاملت الصفة الأمارية لنفسه فما ينطق إلا عن الهوى إن هو إلا وحي يوحيه إليه الشيطان كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١] والنفس إذا تكملت بالهوى تدعي الربوبية كما ادعى فرعون وقال: أنا ربكم الأعلى فيكون كلامها من صفات الربوبية وأن من صفات الربوبية قوله: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ فإذا تم فساد حال النفس الأمارة بالسوء أثبتت صفات الربوبية لنفسها وصفات العبودية لربها كقوله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ أثبتوا لنفسهم صفات الربوبية وهي الغنى وأثبتوا لله صفة العبودية وهي الفقر ﴿سنكتب ما قالوا﴾ أي سنميت قلوبهم بأقوالهم هذه كما امتناها بأفعالهم ﴿و﴾ هي ﴿قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ يشير إلى أن جزاء هذه الأقوال في حق الله مثل جزاء هذه الأفعال في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ونقول ذوقوا عذاب﴾ القلب الميت ﴿الحريق﴾ بنار القهر والقطيعة ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي بشؤم معاملاتكم القولية والفعلية على وفق الهوى والطبيعة وخلاف الرضى والشريعة ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ بأن يضع الشيء في غير موضعه يعني لا يجعل المصلح منهم مظهر صفة قهره ولا المفسد منهم مظهر صفة لطفه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢٤] وهذا كما يقال:

ندهد هوشمند روشن رأى بفرومايه كارهاى خطير
بوريا باف اكرچه بافنده است نبرندش بكار كاه حرير

وإذا كان للعبد حسن الاستعداد يتحول القهر في حقه إلى اللطف بشرط أن يجتهد ويبذل ما في وسعه وطاقته وكم من مؤمن يصير في مآله كافراً وكم من عكسه فإذا جاء حين السعادة انقلب الحال وكذا الشقاوة. قال بعض المشايخ العباد على قسمين في أعمارهم فرب عمر اتسعت آماده وقلّت امداده كأعمار بني إسرائيل إذ كان الواحد منهم يعيش الألف ونحوها ولم

يحصل على شيء مما تحصل لهذه الأمة مع قصر أعمارها ورب عمر قليلة آماده كثيرة امداده كعمر من فتح عليه من هذه الأمة فوصل إلى عناية الله بلمحة. فقد قال أحمد بن الحواري رحمه الله: قلت لأبي سليمان الداراني إني قد غبطت بني إسرائيل قال: بأي شيء؟ قلت بثمانمائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالأوتار قال: ما ظننت إلا وقد جئت بشيء والله ما يريد الله منا أن ييبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما ناله ذلك في عمره الطويل فإن من بورك له في عمره أدرك في يسير من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة لكثرته وعظمه ودقته ورفعته. وقد قال الشيخ الشاذلي رحمه الله في كتاب «تاج العروس» من قصر عمره فليذكر بالأذكار الجامعة مثل سبحان الله عدد خلقه ونحو ذلك ويعني بقصر العمر والله أعلم أن يكون رجوعه إلى الله في معترك المنايا ونحوها من الأمراض المخوفة والأعراض المهولة وإذا كان الأمر على ما ذكر فالخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه بصدق النية حتى يفتح عليك بما لا تصل الهمم إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه عن عوالم نفسك والاستئناس بيومك وأمسك فقد جاء خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ومعناه ـ والله أعلم ـ أن الصحيح ينبغي أن يكون مشغولاً بدين أو دنيا وإلا فهو مغبون فيهما عصمنا الله وإياكم من الغبن والخذلان والخسران.

مهل كه عمر به بيهوده بكذرد حافظ   بكوش وحاصل عمر عزيزرا درياب

قيل: الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿الذين﴾ أي الذين **﴿قالوا﴾** وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وفنحاس بن عازوراء ووهب بن يهودا **﴿إن الله عهد إلينا﴾** أي أمرنا في التوراة وأوصانا **﴿أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾** فيكون دليلاً على صدقه. والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح وهو فعلان من القربة. قال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله تعالى فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها وسط البيت والسقف مكشوف فيقوم النبي عليه السلام في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل خارجون واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء لا دخان لها ولها دويّ وهفيف حين تنزل من السماء فتأكل ذلك القربان أي تحيله إلى طبعها بالإحراق فيكون ذلك علامة القبول وإذا لم يقبل بقي على حاله وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل القربان النار لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم إيمانهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعدم إتيانه بما قالوا ولو تحقق الإتيان به لتحقق الإيمان رد عليهم بقوله تعالى: **﴿قل﴾** أي: تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم. **﴿قد جاءكم﴾** أي: جاء أسلافكم وآباءكم **﴿رسل﴾** كثيرة العدد كبيرة المقدار **﴿من قبلي بالبينات﴾** أي المعجزات الواضحة **﴿وبالذي قلتم﴾** بعينه من القربان الذي تأكله النار فقتلتموهم **﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾** أي فيما يدل عليه

كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فإن زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام قد جاؤوكم بما قلتم في معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا حتى اجترأتم على قتلهم. ﴿**فإن كذبوك**﴾ شروع في تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. ﴿**فقد كذب رسل من قبلك**﴾ تعليل لجواب الشرط أي فتسل واصبر فقد كذب الخ ﴿**جاؤوا بالبينات**﴾ المعجزات الواضحات صفة لرسل ﴿**والزبر**﴾ جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته إذا حسنته أو الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿**والكتاب المنير**﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور. والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة المواقع. والمنير أي المضيء البين بالأمر والنهي.

والإشارة أن الله تعالى كما قدر أن بعض الأمم يغلبون بعض أنبيائهم ويقتلونهم قبل الإيمان أو بعد الإيمان بهم كذلك قدر أن بعض الصفات النفسانية يغلب على بعض الإلهامات الربانية والواردات الرحمانية فيمحوها كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] قبل انقيادها لها أو بعدما انقادت لها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وبالجملة أن الروح يصير بمجاورة الصفات النفسانية كالنفس في الدناءة فتصير الصفات الذميمة غالبة عليه كما تغلب على الإلهامات فعلى السالك أن يتجنب عن مصاحبة المفسدين ومجاورة صفات النفس.

نفس ازهم نفس بكيرد خوى   بر حذر باش ازلقاى خبيث
باد چون بر فضاى بد كذرد   بوي بدكيرد ازهواى خبيث

فطوبى لعبد طهر نفسه من الصفات الرذيلة والعناد والإصرار ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً وانقطع عن ميل الدنيا واتباع الهوى وموافقة غير الله.

ـ روي ـ أن عيسى عليه السلام مر بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال: يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا على سخط ولو ماتوا على غير ذلك لتدافنوا فقالوا: يا روح الله وددنا أنا علمنا خبرهم فسأل ربه فأوحى الله إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك فلما كان الليل أشرف على الموتى ثم نادى يا أهل القرية فأجابه مجيب لبيك يا روح الله فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قال: بتنا في عافية وأصبحنا في هاوية قال: وكيف ذلك؟ قال: لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي قال: وكيف كان حبكم الدنيا؟ قال: كحال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا وإذا أدبرت حزنا قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال: كيف أجبتني من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابني فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها؟!.

واعلم أن الإنكار والتكذيب من حب الدنيا والميل إليها لأن الأنبياء والأولياء يدعون إلى الجنة والمولى وحفت الجنة بالمكاره والإنسان إذا رأى ما يكرهه يتنفر عنه ثم إذا أقدم على الإتيان به وأكره يأخذ بالإنكار قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقد وصى الحكماء الإلَهية أن لا يجالس المريد أهل الإنكار بل لا يلتفت إليهم أصلاً إذ للمجاورة تأثير عظيم كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة   والجمر يوضع في الرماد فيخمد
بابدان يار كشت همسر لوط   خاندان نبوتش كم شد
سك أصحاب كهف روزي چند   پي مردم كرفت ومردم شد

قال مولانا جلال الدين قدس سره في هذا المعنى:

كرتوسنك وصخره ومرمر شوى   چون بصاحب دل رسى كوهر شوى

ساقنا الله وإياكم إلى طريقة أوليائه ومجالسة أحبائه آمين.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي تخرج وتنفك من البدن بأدنى شيء من الموت فكنى بالذوق عن القلة وهو وعد ووعيد للمصدق والمكذب من حيث إنه كناية عن أن هذه الدار بعدها دار أخرى يتميز فيها المحسن من المسيء ويتوفر على كل أحد ما يليق به من الجزاء وفي الحديث: «لما خلق الله آدم اشتكت الأرض إلى ربها لما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها» **﴿وإنما توفون أجوركم﴾** أي تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً **﴿يوم القيامة﴾** أي يوم قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه السلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» **﴿فمن زحزح عن النار﴾** أي بعد عنها يومئذٍ ونحي. والزحزحة في الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة **﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾** بالنجاة ونيل المراد. والفوز الظفر بالبغية وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس بما يحب أن يؤتى به إليه» **﴿وما الحياة الدنيا﴾** أي لذاتها وزخارفها **﴿إلا متاع الغرور﴾** شبهها بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة ومن آثر الآخرة عليها فهي له متاع بلاغ أي تبليغ إلى الآخرة وإيصال إليها فلذلك سماه الله خيراً حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٨] فالعاقل لا يغتر بالدنيا فإنها لين مسها قاتل سمها ظاهرها مطية السرور وباطنها مطية الشرور:

ترا دنيا همي كويد شب وروز   كه هان از صحبتم پرهيز وپرهيز

مده خودرا فريب از رنك وبويم   كه هست اين خنده من كريه آميز

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وإن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما عليها واقرأوا إن شئتم: **﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾**.

بناز ونعمت دنيا منه دل   كه دل بر داشتن كاريست مشكل

فمن أتى بالطاعات واجتنب عن السيئات وأعرض عن الدنيا ولذاتها فاز بالجنة ودرجاتها ومن عكس الأمر عوقب بالحرمان في دركات النيران.

ـ روي ـ أن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ متغير اللون فسأله النبي ﷺ عن تغير لونه

فقال: جئتك وقد أمر الله أن ينفخ في نار جهنم فقال عليه السلام: «صف لي جهنم فقال: لما خلق الله جهنم أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت والذي بعثك بالحق نبياً لو أن جمرة منها وقعت لاحترقت أهل الدنيا ولو أن ثوباً من أثوابها علق بين السماء والأرض لماتوا من نتن رائحته لها سبعة أبواب بعضها أسفل من بعض فقال صلى الله تعالى عليه وسلم من سكان هذه الأبواب فقال: الباب الأول فيه المنافقون واسمه الهاوية والباب الثاني فيه المشركون واسمه الجحيم والباب الثالث فيه الصابئون واسمه سقر والباب الرابع فيه إبليس وأتباعه والمجوس واسمه لظى والباب الخامس فيه اليهود واسمه الحطمة والباب السادس فيه النصارى واسمه السعير والباب السابع فيه عصاة الموحدين واسمه النار يدخلونها ثلاثة أيام فأخبر سلمان حال النبي عليه السلام لفاطمة فسألت النبي فأخبرها النبي عليه السلام فقالت فاطمة رضي الله عنها كيف يدخلونها فقال ﷺ: أما الرجال فباللحى وأما النساء فبالذوائب ثم إنهم يخرجون من النار بشفاعة النبي عليه السلام» فتبين أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وأنزل الله على بعض أنبيائه يا ابن آدم تشتري النار بثمن غال ولا تشتري الجنة بثمن رخيص قيل في معناه إن فاسقاً يتخذ ضيافة للفساق بمائة درهم أو مائتين فيشتري النار ولو اتخذ ضيافة للفقراء بدرهم أو درهمين يكون ثمن الجنة.

غم وشادمانى نماند وليك جزاى عمل ماند ونام نيك
كرم پاي دارد نه ديهيم وتخت بده كزتو اين ماند اي نيكبخت
مكن تكيه برملك وجاه وحشم كه پيش ازتوبودست وبعد ازتوهم

واعلم أن البعد عن النار ودخول الجنة بالاجتناب عن المعاصي والمسارعة إلى الطاعة وذلك بالهرب عن مقام النفس والدخول في مقام القلب فإن من دخل حرم القلب كان آمناً كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فمن وصل إلى ذلك الحرم فقد خلص من أنواع الألم فهو جنة عاجلة. قال بعضهم للعارف: جنة عاجلة وهي جنة المعرفة. ثم إن أعظم أسباب دخول الجنة كلمة الإخلاص والتوحيد وفقنا الله وإياكم. ثم اعلم أن النفوس على ثلاثة أقسام: قسم منها يموت ولا حشر له للبقاء كسائر الحيوانات، وقسم يموت في الدنيا ويحشر في الآخرة كنفوس الإنسان والملائكة والجن والشياطين، وقسم منها يموت في الدنيا ويحشر في الدنيا والآخرة جميعاً وهي نفوس خواص الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن حي في الدارين» على أن لها موتاً معنوياً في الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهو البقاء بنور الله ففي قوله: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾** إشارة إلى أن كل نفس مستعدة للفناء في الله فلا بد لها من موت فمن كان موته بالأسباب تكون حياته بالأسباب ومن كان فناؤه في الله يكون بقاؤه بالله **﴿وإنما توفون أجوركم﴾** على قدر تقواكم وفجوركم **﴿فمن زحزح عن النار﴾** أي عن نار القطيعة وأخرج من جحيم الطبيعة على قدمي الشريعة والطريقة **﴿وأدخل الجنة﴾** الحقيقية **﴿فقد فاز فوزاً عظيماً وما الحياة الدنيا﴾** ونعيمها **﴿إلا متاع الغرور﴾** أي متاع يغتر به المغرور والممكور **﴿لتبلون﴾** أصل الابتلاء الاختبار أي تطلب الخبرة بحاله المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالباً ملابسة أو مفارقة وذلك إنما يتصور ممن لا وقوف له على عواقب الأمور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون

إلا مجازاً من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتب عليه شيئاً هو من مباديه العادية. والجملة جواب قسم محذوف أي والله لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة **﴿في أموالكم﴾** بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية إلى الهلاك **﴿وأنفسكم﴾** بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك **﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** أي من قبل إيتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى **﴿ومن الذين أشركوا﴾** من العرب كأبي جهل والوليد وأبي سفيان وغيرهم **﴿أذى كثيراً﴾** من الطعن في الدين الحنيف والقدح في أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الأشرف وأصحابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضادة رسول الله ﷺ ونحو ذلك مما لا خير فيه أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال على المكروه ويستعدوا للقائها فإن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب **﴿وإن تصبروا﴾** على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التقابل. **﴿وتتقوا﴾** أي: تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه **﴿فإن ذلك﴾** يعني: الصبر والتقوى **﴿من عزم الأمور﴾** من معزوماتها التي تنافس فيها المتنافسون أي مما يجب أن يعزم عليه كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعني أن ذلك عزمة من عزمات الله لا بد أن تصبروا وتتقوا.

واعلم أن مقابلة الإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة فأمر بالصبر تقليلاً لمضار الدنيا وأمر بالتقوى تقليلاً لمضار الآخرة فالآية جامعة لآداب الدنيا والآخرة. فعلى العاقل أن يتخلق بأخلاق الأنبياء والأولياء ويتأدب بآدابهم فإنهم كانوا يصبرون على الأذى ولا يقابلون السفيه بمثل مقابلته وإذا مروا باللغو مروا كراماً.

بدى را بدى سهل باشد جزا ... اكر مردى احسن الى من أساء

وقد مدح الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلق النبي ﷺ القرآن، يعني تأدب بآداب القرآن قيل مدار عظم الخلق بذل المعروف وكف الأذى أي احتماله ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان موصوفاً بها وقد أنزل الله في معروفه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وتحمل الأذى إنما يكون بصبر قوي وهو عليه السلام كان صبوراً لتحمل الأذى أكثر من أن يحصى قال عليه السلام: «صل من قطعك واعف عمن ظلمك وأحسن إلى من أساء إليك» وما أمر عليه السلام غيره بها إلا بعد أن تخلق بها وأمته لا بد أن تتبعه في تحمل الأذى وغيرها لا تسمع بدون الحجة القوية والابتلاآت التي ترد من طرف الحق كلها لتصفية النفس وتوجيهها من الخلق إلى الخالق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت» كأنه قال ما صفي نبي مثل ما صفيت وقيل لرسول الله ﷺ ادع الله على المشركين فقال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً» فالابتلاء رحمة ونعمة، قال جلال الدين قدس سره:

درد پشتم داد حق تامن زخواب ... بر جهم درنيم شب باسوز وتاب
تانخسبم جمله شب چون كاوميش ... دردها بخشيد حق از لطف خويش

والإشارة في الآية **﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾** بالجهاد الأصغر هل تجاهدون بها

وتنفقونها في سبيل الله وبالجهاد الأكبر أما الأموال فهل تؤثرون على أنفسكم ولو كان بكم خصاصة وأما الأنفس فهل تجاهدون في الله حق جهاده أو لا ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ يعني أهل العلم الظاهر ﴿**ومن الذين أشركوا**﴾ أي أهل الرياء من القراء والزهاد ﴿**أذى كثيرا**﴾ بالغيبة والملامة والإنكار والاعتراض ﴿**وإن تصبروا**﴾ على جهاد النفس وبذل المال وأذية الخلق ﴿**وتتقوا**﴾ بالله عما سواه ﴿**فإن ذلك من عزم الأمور**﴾ الذي هو من أمور أولي العزم كما قال ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومن لم يحافظ على هذه الأمور كان من المدعين.

مشكل آيد خلق را تغيير خلق   آنكه بالذات است كى زائل شود
أصل طبع است وهمه أخلاق فرع   فرع لا بد أصل را مائل شود

فظهر أن من لم يهد الله لا يهتدي إلى مكارم الأخلاق وحسان الخصال وسنيات الأحوال.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿**وإذ أخذ الله**﴾ أي: اذكر يا محمد وقت أخذه تعالى ﴿**ميثاق الذين أوتوا الكتاب**﴾ وهم علماء اليهود والنصارى وذلك أخذ على لسان الأنبياء عليهم السلام ﴿**لتبيننه**﴾ حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب قسم ينبىء عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبيننه ﴿**للناس**﴾ وتظهرنّ جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوته ﷺ وهو المقصود بالحكاية ﴿**ولا تكتمونه**﴾ عطف على الجواب وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفياً كما في قولك: والله لا يقوم زيد. ﴿**فنبذوه**﴾ النبذ الرمي والإبعاد أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثوق بفنون التأكيد وألقوه ﴿**وراء ظهورهم**﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً فإن نبذ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلية كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية ﴿**واشتروا به**﴾ أي: بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموا أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله. ﴿**ثمنا قليلا**﴾ أي شيئاً تافهاً حقيراً من حطام الدنيا وأعراضها، وهو ما تناولوه من سفلتهم فلما كرهوا أن يؤمنوا فينقطع ذلك عنهم كتموا ما علموا من ذلك وأمروهم أن يكذبوه ﴿**فبئس ما يشترون**﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفة والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن وظاهر الآية وإن دل على نزولها في حق اليهود والنصارى الذين كانوا يخفون الحق ليتوسلوا بذلك إلى وجدان شيء من الدنيا إلا أن حكمهما يعم من كتم من المسلمين أحكام القرآن الذي هو أشرف الكتب وأنهم أشراف أهل الكتاب. قال صاحب الكشاف وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارهم أو لجر منفعة من حطام الدنيا لنفسه مما لا دليل عليه ولا أمارة أو لبخل بالعلم وغيرة أن ينسب إلى غيرهم انتهى بعبارته فكل من لم يبين الحق للناس وكتم شيئاً من هذه الأمور دخل تحت وعيد الآية كذا في «تفسير الإمام». فعلى المرء أن يحسن نيته حال الإضمار والإظهار ويطهر سريرته من لوث الإعراض والأوزار والإنكار:

زيـان مـى كـنـد مـرد تـفـسـيـر دان　　كـه عـلـم وأدب مـيـفـروشـد بـنـان
بـديـن اي فـرومـايـه دنـى مـخـر　　چوخـر بـانـجـيـل عـيـسـى مـخـر

يعني لا تشتر بالعلم والقرآن ما تربي به نفسك من شهواتك ولا تخف من الخلق في إظهار الأحكام واصدع بما أمرت به.

ـ حكي ـ أن الحجاج أرسل إلى الحسن وقال: ما الذي بلغني عنك؟ فقال: ما كل الذي بلغك قلته ولا كل ما قلته بلغك قال: أنت الذي قلت إن النفاق كان مقموعاً فأصبح قد تعمم وتقلد سيفاً فقال: نعم فقال: وما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه قال: لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه. قال قتادة مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب وكان يقول: طوبى لعالم ناطق ولمستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خبراً فوعاه قال ﷺ: «من كتم علماً على أهله ألجم بلجام من نار». قال الفضيل ـ رحمه الله ـ: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم وأعزوا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعاً وعز الإسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يسألوا ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما في أيدي الناس فذلوا وهانوا على الناس. وعن الفضيل أيضاً قال: بلغني أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأصنام فيقولون: ربنا ما بالنا فيقول الله ليس من يعلم كمن لا يعلم فمن اشترى الدنيا بالدين فقد وقع في خسران مبين ولا يخفى أن مداره على حب الدنيا ساقنا الله وإياكم إلى طريق القناعة.

ـ حكي ـ أن ذا القرنين اجتاز على قوم تركوا الدنيا وجعلوا قبور موتاهم على أبوابهم يقتاتون بنبات الأرض ويشتغلون بالطاعة فأرسل ذو القرنين إلى رئيسهم فقال: ما لي حاجة إلى صحبة ذي القرنين فجاء ذو القرنين فقال: ما سبب قلة الذهب والفضة عندكم؟ قال: ليس للدنيا طالب عندنا لأنها لا تشبع أحداً فجعلنا القبور عندنا حتى لا ننسى الموت ثم أخذ قحف إنسان وقال: هذا رأس ملك من الملوك كان يظلم الرعية ويجمع حطام الدنيا فقبضه الله تعالى وبقي عليه السيآت ثم أخرج آخر وقال هذا أيضاً رأس ملك عادل مشفق فقبضه وأسكنه جنته ورفع درجته ثم وضع يده على رأس ذي القرنين وقال: من أي الرأسين يكون رأسك؟ فبكى ذو القرنين وقال: إن رغبت في صحبتي شاطرتك مملكتي وسلمت إليك وزارتي فقال: هيهات فقال ذو القرنين: ولم؟ قال: لأن الناس أعداؤك بسبب المال والمملكة وجميعهم أحبابي بسبب القناعة.

نـيـرزد عـسـل جـان مـن زخـم نـيـش　　قـنـاعـت نـكـوتـر بـدو شـاب خـويـش
كـدايـى كـه هـر خـاطـرش بـنـدنـيـسـت　　بـه ازيـاد شـاهـى كـه خـرسـنـد نـيـسـت
اكـرپـادشـا هـسـت اكـر بـيـنـه دوز　　چـو خـفـتـنـد كـرددشـب هـردوروز

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿لا تحسبن﴾ يا محمد أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له **﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾**

أي: بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق. **﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾** من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق **﴿فلا تحسبنهم﴾** تأكيد لقوله لا تحسبن والمفعول الثاني له قوله: **﴿بمفازة من العذاب﴾** أي ملتبسين بنجاة منه **﴿ولهم عذاب أليم﴾** بكفرهم وتدليسهم **﴿ولله﴾** أي: خاصة **﴿ملك السموات والأرض﴾** أي السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيف يشاء ويريد إيجاداً وإعداماً إحياء وإماتة تعذيباً وإثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل في شيء من ذلك بوجه من الوجوه وهو يملك أمرهم ويعذبهم بما فعلوا لا يخرجون عن قبضة قدرته ولا ينجون من عذابه يأخذهم متى شاء **﴿والله على كل شيء قدير﴾** فيقدر على عقابهم وكيف يرجو النجاة من كان معذبه هذا المالك القادر.

ـ روي ـ أنه عليه السلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيه وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فنزلت وقيل: هم المنافقون كافة وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى: **﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾** فإنهم كانوا يفرحون بما فعلوه من إظهار الإيمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم في الغاية القاصية من العداوة والأولى إجراء الموصول على عمومه شاملاً لكل من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار من الفضائل وأنواع البر وكون السبب خاصاً لا يقدح في عمومية حكم الآية.

واعلم أن الفرح بمتاع الدنيا وحب مدح الناس من صفات أرباب النفس الأمارة المغرورين بالحياة الدنيا وتمويهات الشيطان المحجوبين عن السعادات الأخروية والقربات المعنوية. قال الإمام في تفسيره وأنت إذا أنصفت عرفت أن أحوال أكثر الخلق كذلك فإنهم يأتون بجميع وجوه الحيل في تحصيل الدنيا ويفرحون بوجدان مطلوبهم ثم يحبون أن يحمدوا بأنهم من أهل العفاف والصدق والدين.

اي برادر ازتو بهتر هيچ كس نشناسدت
زانجه هستى يك سرمو خويش را افزون منه
كرفزون از قدرتو بشناسدت تابخردى
قدر خود بشناس وپاى ازحد خود بيرون منه

فعلى العاقل أن لا يتعدى طوره ولا يفرح بما ليس فيه فإنه لا يغني عنه شيئاً. قال بعض المشايخ: الناس يمدحونك لما يظنون فيك من الخير والصلاح اعتباراً بما يظهر من ستر الله عليك فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها من القبائح والمؤمن إذا مدح استحيى من الله أن يثني عليه بوصف لا يشهده من نفسه وأجهل الناس من يترك يقين ما عنده من صفات نفسه التي لا شك فيها لظن ما عند الناس من صلاحية حاله. قال الحارث بن المحاسبي رحمه الله: الراضي بالمدح بالباطل كمن يهزأ به ويقال إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك ويفرح بذلك ويرضى بالسخرية به:

بحبل ستايش فراچه مشو چو حاتم اصم باش وعيبت شنو

يعني لا تغتر بالمدح حتى لا تقع في بئر الهلاك وكن كالشيخ حاتم الأصم صورة فإن الخلق إذا ظنوك يتكلمون في حقك ما لا ترضى به من القول لو سمعت فأذن تسمع عيوبك

منهم وفي ذلك فائدة عظيمة لك لأن المرء إذا عرف عيبه يجتهد في قمعه والتحلي بالأوصاف الجميلة والعارف هو الذي يستوي قلبه في المدح والذم لا ينقبض من الذم ولا ينبسط من المدح وكيف ينبسط بما يتحقق به مما يقوله الخلق من هو أعرف بحال نفسه وإن انبسط فهو المغرور والمدعي هو الذي يرى نفسه صادقاً في الأحوال والمعاملات وكل الحالات كأنه لا يتعرض لشيء من الدنيا أصلاً وحاله شاهدة عليه في هذا الباب فإن المرء له محك في أقواله وأفعاله وأحواله قال عليه السلام: «إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبل قدماه فمن هذا يعرف جهالة الذين يزعمون أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم عنها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة الشيطان بل هم لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا أعظم المتفجعين بفراقها فكما أن المشي في الماء يقتضي بللا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب بل علاقة القلب مع الدنيا تمنع حلاوة العبادة». قال الشيخ أبو عبد الله القرشي ـ رحمه الله ـ: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل البر ولا يجد حلاوته في القلب فقال: لأن عندك ابنة إبليس في قلبك وهي الدنيا ولا بد للأب أن يزور ابنته في بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فساداً قال الله تعالى: [يا داود إن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب أبداً]. وروي أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قالوا: ومن الموتى؟ قال: الراغبون في الدنيا المحبون لها.

برمرد هشيار دنيا خسست — كه هرمدتي جاى ديكر كسست
منه برجهان دل كه بيكانه ايست — چو مطرب كه هرروزدر خانه ايست
نه لايق بود عشق بادلبرى — كه هر بامدادش بود شو هرى

عصمنا الله وإياكم. ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بآية لصحة دعواه لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده فنزل ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ خلقين عظيمين ويقال فيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم وما خلق الله في الأرض من الجبال والبحار والأشجار والوحوش والطيور ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ يعني ذهاب الليل ومجيء النهار ويقال في اختلاف لونيهما أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ لعبرات كثيرة لذوي العقل الخالص من شوائب الأوهام والخيالات. واللب خالص العقل فإن العقل له ظاهر وله لب ففي أول الأمر يكون عقلاً وفي حال كماله ونهاية أمره يكون لباً.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ نعت لأولي الألباب أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين فإن الإنسان لا يخلو عن هذه الهيآت غالباً. ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ يعني: يعتبرون في خلقهما، وإنما خصص التفكر بالخلق لقوله عليه السلام: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق» وإنما نهى عن التفكر في

الخالق لأن معرفة حقيقته المخصوصة غير ممكنة للبشر فلا فائدة في التفكر في ذات الخالق. ولما كان الإنسان مركباً من النفس والبدن كانت العبودية بحسب النفس وبحسب البدن فأشار إلى عبودية البدن بقوله: ﴿**الذين يذكرون الله**﴾ الخ فإن ذلك لا يتم إلا باستعمال الجوارح والأعضاء وأشار إلى عبودية القلب والروح بقوله: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض**﴾. وعن عطاء بن أبي رباح قال: دخلت مع ابن عمر وعبيد الله بن عمر على عائشة رضي الله عنها فسلمت عليها فقالت: من هؤلاء؟ فقلت: عبيد الله بن عمر فقالت: مرحباً بك يا عبيد الله بن عمر ما لك لا تزورنا؟ فقال عبيد الله: زر غباً تزدد حباً قال ابن عمر: دعونا من هذا حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله عليه السلام فبكت بكاء شديداً فقالت: كل أمره عجيب أتاني في ليلتي فدخل في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي فقال: «يا عائشة أتأذنين لي أن أتعبد لربي» فقلت: والله إني لأحب قربك وهواك قد أذنت لك فقام إلى قربة من ماء فتوضأ منها ثم قام فبكى وهو قائم حتى بلغ الدموع حقويه حتى اتكأ على شقه الأيمن ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن فبكى حتى ادرّت الدموع وبلغت الأرض ثم أتاه بلال بعدما أذن للفجر فلما رآه يبكي قال: لم تبكي يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً وما لي لا أبكي وقد أنزلت علي الليلة ﴿**إن في خلق السموات والأرض**﴾ إلى قوله: ﴿**فقنا عذاب النار**﴾ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وفي الحديث «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة». وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أن التفكر يوصلك إلى الله، والعبادة توصلك إلى ثواب الله والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله.

والثاني: أن التفكر عمل القلب والطاعة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح. ثم شرع في تعليم الدعاء تنبيهاً على أن الدعاء إنما يجدي ويستحق الإجابة إذا كان بعد تقديم الوسيلة وهي إقامة وظائف العبودية من الذكر والفكر فقال: ﴿**ربنا**﴾ يعني يتفكرون ويقولون ربنا ﴿**ما خلقت هذا**﴾ أي السموات والأرض وتذكير الضمير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما في معنى المخلوق ﴿**باطلا**﴾ أي خلقاً باطلاً عبثاً ضائعاً عن الحكمة خالياً عن المصلحة كما ينبىء عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظماً لحكم جليلة ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مداراً لمعايش العباد ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الإلّهية ﴿**سبحانك**﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه ﴿**فقنا عذاب النار**﴾ أي من عذاب النار الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم على الاستعاذة. وفيه إشارة إلى عظم ذكر الله وإشارة إلى ثلاث مراتب: أولاها الذكر باللسان، وثانيتها التفكر بالقلب، وثالثتها المعرفة بالروح لأن ذكر اللسان يوصل صاحبه إلى ذكر القلب فهو التفكر في قدرة الله وذكر القلب يوصل إلى مقام الروح فيعرف في ذلك حقائق الأشياء ويشاهد الحكم الإلّهية في خلق الله فيقول بعد المشاهدة ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلا**﴾ فينبغي للمؤمن أن يلازم ذكر الله بلسانه في جميع الأحوال حتى يصل بسبب الذكر باللسان إلى ذكر القلب ثم إلى ذكر الروح ويحصل له اليقين والمعرفة ويخلص من ظلمة الجهل ويتنور بنور المعرفة. قال بعضهم: معنى لا إله إلا

الله للعوام لا معبود إلا الله. ومعناها للخواص لا محبوب ولا مقصود إلا الله. ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله فإنه يكون في تلك الحالة مستهلكاً في بحر الشهود فلا يشعر بشيء سوى الله ولا يرى موجوداً. وفي «تفسير الحنفي» منقول في التوحيد أربع مراتب وهو ينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر. وتمثيل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرتيه العليا والسفلى فإن له قشرتين وله لب وللب دهن وهو لب اللب. فالمرتبة الأولى من التوحيد أن يقول الإنسان باللسان لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافق. والثانية أن يصدق بمعناه قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد. والثالثة أن يشاهد ذلك بواسطة نور إلّهي وذلك أن يرى الأشياء صادرة من الواحد القهار. والرابعة أنه لا يرى في الوجود إلا وجوداً وهو مشاهدة الصديقين وهو الفناء في التوحيد بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه. فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا من السيف والسنان. والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال من التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقد على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ولكنها تحفظ صاحبها من العذاب في الآخرة إن توفي عليها ولم يضعف بالمعاصي عقدتها ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة. والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له لا فاعل بالحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن ذلك رتبة العوام والمتكلمين إذ لا فرق بينهما في الاعتقاد بل فيه صفة تلفيق الكلام. والرابع موحد بمعنى أنه لا يرى غير الواحد وهذه الغاية القصوى في التوحيد. فالأول كالقشرة العليا من الجوز. والثاني كالقشرة السفلى. والثالث كاللب. والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا لا خير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر وإن أخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان وإن ترك في البيت ضيق المكان ولا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي البدن فيصون من السيف وإنما يتجرد عند الموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنه يصون اللب ويحرسه من الفساد عند الادخار وإذا فصل أمكن أن ينتفع به حطباً لكونه لا قدر له بالنسبة إلى اللب فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمجاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفتاحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وكما أن اللب نفيس بالإضافة إلى القشرة لأنه المقصود لكن لا يخلو عن شوب بالنسبة إلى الدهن كذلك هذا التوحيد لا يخلو عن ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لم ير سوى الواحد الحق انتهى ما في الحنفي.

واعلم أن الآية تدل على جواز ذكر الله تعالى قائماً ولهذا قال المشايخ ولا بأس أن يقوموا ترويحاً لقلوبهم ولا يتحركوا في ذلك ولا يستظهروا بحال ليس عندهم منه حقيقة. والحاصل أن التوحيد إذا قرن بالآداب فليس له وضع مخصوص يجوز قائماً وقاعداً ومضطجعاً ولكن ورد في الأحاديث ما يدل على استحباب الإخفاء في ذكر الله وذكر شارح الكشاف أن

هذا بحسب المقام والشيخ المرشد يأمر المبدأ برفع الصوت لتنقلع عن قلبه الخواطر الراسخة فيه كذا في «شرح المشارق» ويوافقه ما ذكر في «المظهر» حيث قال: الذكر برفع الصوت جائز بل مستحب إذا لم يكن عن رياء ليغتنم الناس بإظهار الدين ووصول بركة الذكر إلى السامعين في الدور والبيوت والحوانيت ويوافق الذاكر من سمع صوته ويشهد له يوم القيامة كل رطب ويابس سمع صوته وبعض المشايخ اختار الإخفاء لأنه أبعد عن الرياء وهذا يتعلق بالنية فمن كانت نيته صادقة فرفع صوته بقراءة القرآن والذكر أولى لما ذكرنا ومن خاف من نفسه الرياء فالأولى له إخفاء الذكر لئلا يقع في الرياء انتهى قيل: إذا كان وحده فإن كان من الخواص فالإخفاء في حقه أولى وإن كان من العوام فالجهر في حقه أولى وإذا كانوا مجتمعين على الذكر فالأولى في حقهم رفع الصوت بالذكر والقوة فإنه أكثر تأثيراً في رفع الحجب ومن حيث الثواب فلكل واحد ثواب ذكر نفسه وسماع ذكر رفقائه قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] شبه القلوب بالحجارة ومعلوم أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة فقوة ذكر جماعة مجتمعين على قلب واحد أشد من قوة ذكر شخص واحد كذا في «ذخرة العابدين»، قال حسين الواعظ الملقب بالكاشفي:

كفت وكوى عاشقان دركار رب ... جوشس عشقست نه ترك ادب
هركه كرد ازجام حق يك جرعه نوش ... نه ادب ماند درو نه عقل وهوش

والمقصود أن السالك إذا سلب اختياره عند التوحيد بغلبة الوجد فلا دخل لشيء من أوضاعه وحركاته فإنه إذاً ليس في يده فلا يرد ما قيل:

كار نادان كوته انديشست ... ياد كردن كسى كه درپيشست

فإن الجهر وحركات الموحد بالنسبة إلى مقامه وحاله ممدوحة جداً وأما المتصلفون المتكلفون فحركاتهم وأفعالهم من عند أنفسهم وقد نهى المشايخ في كتبهم عن أمثال هؤلاء وأفعالهم وأقوالهم. فعلى العاقل أن يراعي الآداب والأطوار ولا ينفك لحظة عن ذكر الملك الغفار.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿**ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته**﴾ غاية الإخزاء ونظيره قولهم: «من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك» أي المرعى الذي لا مرعى بعده والمراد به تهويل المستعاذ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع. ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾ أراد بهم المدخلين وجمع الأنصار بالنظر إلى جمع الظالمين أي وما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة لأنها هي الدفع بطريق اللين والمسألة فنفي النصرة لا يستلزم نفي الشفاعة ﴿**ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان**﴾ أوقع الفعل على المسمع وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه والمراد به الرسول عليه السلام فإنه ينادي ويدعو إلى الإيمان حقيقة قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿**أن آمنوا**﴾ أي آمنوا على أن أن تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية

﴿بربكم﴾ بمالككم ومتولي أموركم ومبلغكم إلى الكمال ﴿فآمنا﴾ أي فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي: كبائرنا فإن الإيمان يجب ما قبله ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أي: صغائرنا فإنها مكفرة عن مجتنب الكبائر ﴿وتوفنا﴾ أي: اقبض أرواحنا ﴿مع الأبرار﴾ أي: مخصوصين بصحبتهم مغتنمين بجوارهم معدودين من زمرتهم فالمراد من المعية ليس المعية الزمانية لأن ذلك محال ضرورة أن توفيهم إنما هو على سبيل التعاقب بل المراد المعية في الاتصاف بصفة الأبرار حال التوفي. وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فمن جعل الله ممن آمن بداعي الإيمان فقد أكرمه مع أوليائه في الجنان فطوبى للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وطوبى لمن اتعظ بالموعظة الحسنة، قال الحافظ:

نصيحت كوش كن جانا كه ازجان دوست تردارند جـوانـان سـعـاد تـمـنـد پـنـد پـيـردانـارا

قال الشيخ السعدي:

بـكـوى آنـچـه دانـى سـخـن سـود مـنـد وكـر هـيـچ كـس را نـيـايـد پـسـنـد
كـه فـردا پـشـيـمـان بـر آرد خـروش كـه أوخ چـراحـق نـكـردم بـكـوش

قال أبو عامر الواعظ: بينما أنا جالس بمسجد رسول الله ﷺ إذ جاءني غلام وأعطاني رقعة فإذا فيها أسعدك الله يا أخي أبا عامر بلغني قدومك واشتقت إلى رؤيتك فذهبت مع الغلام فوصلنا إلى بيت في خربة له باب من جريد النخل وإذا فيه شيخ مقعد مستقبل القبلة محزون من الخشية قد ذهبت عيناه من البكاء فسلمت عليه فرد علي السلام فقال: يا أبا عامر لم يزل قلبي إلى استماع موعظتك مشتاقاً وبي داء قد أعيى الواعظين علاجه فقلت: أيها الشيخ ارم ببصر قلبك في ملكوت السماء وتنقل بحقيقة إيمانك إلى جنة المأوى تر ما أعد الله فيها للأولياء ثم انظر في نار لظى تر ما أعد الله للأشقياء فشتان ما بين الدارين وليس الفريقان على السواء فلما سمع قولي أنّ وصاح صيحة ثم قال: والله لقد وقع دواؤك على الداء زدني رحمك الله فقلت: إن الله عالم بسريرتك فيطلع عليك عند استتارك ومبارزتك فلما سمع صاح صيحة أعظم من الأولى فخر ميتاً فعند ذلك خرجت جارية عليها مدرعة وخمار من صوف قد ذهب السجود بجبهتها فقالت: أحسنت يا مداوي قلوب العارفين إن هذا الشيخ كان والدي وهو مبتلى بالسقم منذ عشرين سنة وكان يتمناك من الله ويقول: حضرت مجلس أبي عامر فأحي قلبي وطر عني غفلتي وإن سمعته ثانياً قتلني فجزاك الله خيراً ثم أكبت على والدها وجعلت تقبل بين عينيه وتبكي فقلت لها: يا أيتها الباكية إن أباك نحبه قد مضى وورد دار الجزاء فإن كان محسناً فله الزلفى فإن كان مسيئاً فوارد دار من أساء فصاحت ثم ماتت فبقيت حزيناً عليهما فرأيتهما في المنام في أحسن مقام عليهما حلتان خضراوتان فسألت عن حاليهما فقال الشيخ:

أنـت شـريـكـي فـي الـذي نـلـتـه فـقـم وشـاهـد يـا أبـا عـامـر
وكـل مـن أيـقـظ ذا غـفـلـة فـنـصـف مـا يـعـطـاه لـلآمـر

ثم قال: قدمت على رب كريم غير غضبان فأسكنني الجنان وزوجني من الحور الحسان فاحرص يا أبا عامر على كثرة الدعاء والاستغفار إلى الله الملك الغفار وطلب المغفرة آناء الليل وأطراف النهار من شيم الأخيار والأبرار.

واعلم أن من تنصح بكلمة فقد آمن بمنادي الحق على لسان عبده فنجا من نيرانه ووصل إلى المغفرة والرحمة في جنانه.

- روي - أن حداداً كان يمسك الحديد المحمي بيده فسئل عنه فقال: عشقت امرأة فراودتها وعرضت عليها مالاً فقالت: إن لي زوجاً لا أحتاج إلى المال ثم مات زوجها فطلبت أن أتزوجها فامتنعت وقالت: لا أريد إذلال أولادي ثم بعد زمان احتاجت فأرسلت إلي فقلت: لا أعطيك شيئاً حتى تعطيني مرادي فلما دخلت معها موضعاً ارتعدت فقلت: ما لك؟ فقالت: أخاف الله السميع البصير فتركتها فقالت: أنجاك الله من النار فمن ذلك الوقت لا تحرقني نار الدنيا وأرجو من الله تعالى أن لا تحرقني نار الآخرة فمن خشي الرحمٰن وذكر أنه بمحضر من الله فهو لا يجترىء على الذنب والآثام فيسلم من عذاب النار ويتنعم في دار السلام عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» وأما الدعاء فهو مخ العبادة وينفع في الدنيا فيدفع الآفات وأما في الآخرة فإن الله يعطيه هدايا على أيدي الملائكة ويقول: إن هذه في مقابلة دعائك في الدنيا:

از آستان حضرت حق سرچرا كشم   دولت درين سرا وكشايش درين درست

قال الحافظ:

هركه خواهد كوبيا وهرچه خواهد كوبكو

كبروناز وحاجب ودربان درين دركاه نيست

حقق الله رجاءنا وقبل دعاءنا وأعطانا ما هو خير لنا في الدنيا والآخرة.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿ربنا وآتنا﴾ أعطنا **﴿ما وعدتنا على رسلك﴾** على تصديق رسلك أو على ألسنة رسلك من الثواب والكرامة **﴿ولا تخزنا﴾** لاتهنا **﴿يوم القيامة﴾** بأن تعصمنا مما يقتضيه **﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾** اسم مصدر بمعنى الوعد وهذه الدعوات وما في تضاعيفها من كمال الضراعة والابتهال ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد بل لخوفهم أن لا يكونوا من جملة الموعودين لسوء عاقبة. أو قصور في الامتثال فمرجعها إلى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة في التعبد والخشوع. ثم قوله: **﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾** شبيه بقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فإنه ربما ظن الإنسان أنه على الاعتقاد الحق والعمل الصالح ثم إنه يوم القيامة يظهر له أن اعتقاده كان ضالاً وعمله كان ذنباً فهناك تحصل الحجالة العظيمة والحسرة الكاملة والأسف الشديد وذلك هو العذاب الروحاني وهو أشد من العذاب الجسماني ومما يدل على هذا أنه سبحانه حكى عن هؤلاء العباد المؤمنين أنهم طلبوا في هذه الأنواع الخمسة من الدعاء أشياء فأول مطالبهم الاحتراز عن العذاب الجسماني وهو قوله: **﴿فقنا عذاب النار﴾** وآخرها الاحتراز عن العقاب الروحاني وهو قوله: **﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾** ذلك يدل على ما قلنا ولذلك قالوا: الفرقة أشد من الحرقة، قال مولانا جلال الدين رومي قدس سره:

جور دوران وهرآن رنجي كه هست   سهلتر از بعد حق وغفلتست

كر جهاد وصوم سختست وخشن ليك اين بهتر زبعد اي ممتحن

فليسارع المؤمن إلى الطاعات ليدخل في زمرة من وعد الله لهم من الكرامات. عن جابر رضي الله عنه كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أحدثكم بغرف الجنة» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت» قلت: يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام». وعن أبي بكر الوراق رحمه الله: طلبنا أربعة فوجدناها في أربعة. وجدنا رضى الله في طاعته. وسعة الرزق في صلاة الضحى وسلامة الدين في حفظ اللسان. ونور القبر في صلاة الليل.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل يمشي مرة ويسقط أخرى، وتأخذه النار فإذا جاوزها التفت إليها، ويقول: سبحان من نجاني منك قد أعطاني شيئاً ما أعطاه لأحد من الأولين والآخرين فيرفع له شجرة عظيمة الظل فيشتاق إلى ظلها فيقول: أي رب ادنني منها ولا أسألك غيرها فيدنيه منها ويشرب من مائها ثم يرفع له شجرة أعظم من الأولى فيقول: أي رب ادنني منها ويعاهد أن لا يسأل غيرها فيدنيه منها فيرفع له شجرة أعظم مما تقدم فيسأله أن يدنيه فإذا أدنى سمع أصوات أهل الجنة ويقول: أي رب لو أوصلتها لا أسألك فيقول الله: يا ابن آدم ما أغدرك كم تعاهد وتكذب أترضى أن أعطيك مثل الدنيا ومثلها؟ فيقول: أتستهزىء بي وأنت رب العالمين» ثم ضحك ابن مسعود فقالوا: مم تضحك؟ فقال: ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم ضحك رسول الله قال: من ضحك رب العالمين «فيقول الله لا أستهزىء ولكني على ما أشاء قدر.

ـ حكي ـ أن والدي معروف الكرخي كانا من النصارى وكان معلم النصارى يقول لمعروف: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الأحد الصمد، فيضربه المعلم. فهرب يوماً فقال والداه: لو جاء معروف فعلي أي دين وجدناه تبعناه، فجاء على دين الإسلام فأسلما، قال النبي عليه السلام: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا شيئاً قدمه ثم ينظر عن يساره فلا يرى إلا شيئاً قدمه، فيستقبله الناس فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل».

ـ حكي ـ أن عجوزاً كافرة كانت تطعم الطير ذرة في أيام الشتاء، فرآها ذو النون المصري فقال: إن الله تعالى لا يقبل من عدو. ثم رآها في الكعبة قد أسلمت فقالت: يا ذا النون إنه أعطاني الإسلام بما رأيته.

بى كرم آدمى نه از بشرست از شجر بلكه از حجر بترست
شجرى كان نمى دهد ثمرى معتبر نيست لائق تبراست

عصمنا الله تعالى وإياكم من النار وأدخلنا الجنة مع الأسخياء والأبرار **﴿فاستجاب لهم ربهم﴾** إلى طلبتهم وهو أخص من أجاب فإن إجاب أعطاه الجواب وهو قد يكون بتحصيل المطلوب وبدونه واستجاب إنما يقال لتحصيل المطلوب ويعدى بنفسه وباللام **﴿أني﴾** أي بأني **﴿لا أضيع عمل عامل منكم﴾** وهو ما حكي عنهم من المواظبة على ذكر الله تعالى في جميع حالاتهم والتفكر في مصنوعاته استدلالاً واعتباراً والثناء على الله بالاعتراف بربوبيته وتنزيهه عن العبث وخلق الباطل والاشتغال بالدعاء وجعل هذه الأعمال سبباً للاستجابة يدل على أن

استجابة الدعاء مشروطة بهذه الشروط وبهذه الأمور فلما كان حصول هذه الشرائط عزيزاً لا جرم كان الشخص الذي يكون مجاب الدعاء عزيزاً ﴿**من ذكر أو أنثى**﴾ بيان لعامل وتأكيد لعمومه وهذا يدل على أنه لا تفاوت في الإجابة وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا جميعاً في التمسك بالطاعة على التوبة والفضل في باب الدين بالأعمال لا بسائر صفات العالمين لأن كون بعضهم ذكراً أو أنثى أو من نسب خسيس أو شريف لا تأثير له في هذا الباب ﴿**بعضكم من بعض**﴾ لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر. قال الإمام: فيه وجوه أحسنها أن يقال من بمعنى الكاف أي بعضكم كبعض الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. قال القفال: هذا من قولهم فلان مني أي على خلقي وسيرتي وهي معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال.

ـ روت ـ أم سلمة قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزل قوله تعالى: ﴿**أني لا أضيع**﴾ إلى آخره، أي كما أن بعضكم من بعض كذلك أنتم في ثواب العمل تثاب المرأة العاملة كما يثاب الرجل العامل وبالعكس فلا أثيب بعضاً وأحرم آخر ﴿**فالذين هاجروا**﴾ تفصيل لأعمال العمال منهم وما أعدلهم.

من الثواب على المدح والتعظيم كأنه قال فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة من مبتدأ أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة ﴿**وأخرجوا من ديارهم**﴾ أي اضطروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشأوا بإيذاء المشركين. قال الإمام المراد من قوله ﴿**فالذين هاجروا**﴾ الذين اختاروا المهاجرة من أوطانهم في خدمة الرسول والمراد من الذين أخرجوا من ديارهم الذين ألجأهم الكفار ولا شك أن رتبة الأولين أفضل لأنهم اختاروا خدمة الرسول وملازمته على الاختيار فكانوا أفضل ﴿**وأوذوا في سبيلي**﴾ في سبيل الحق ودين التوحيد بسبب إيمانهم بالله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل المشركين ﴿**وقاتلوا**﴾ أي الكفار في سبيل الله ﴿**وقتلوا**﴾ استشهدوا في القتال ﴿**لأكفرن عنهم سيآتهم**﴾ أي والله لأمحوّن عنهم سيآتهم ﴿**ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً**﴾ الثواب في الأصل اسم لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى إلا أنه قد يوضع موضع المصدر فهو مصدر مؤكد بمعنى إثابة لأن تكفير السيآت وإدخال الجنة في معنى الإثابة أي لأثيبنهم بذلك إثابة ﴿**من عند الله**﴾ صفة له أي كائنة من عند الله قصد بتوصيفه به تعظيم شأنه فإن السلطان العظيم الشأن إذا قال لعبده ألبسك خلعة من عندي دل ذلك على كون تلك الخلعة في غاية الشرف وأكد كون ذلك الثواب في غاية الشرف بقوله: ﴿**والله عنده حسن الثواب**﴾ أي حسن الجزاء على الطاعات قادر عليه وهو نعيم الجنة الباقي لا كنعيم الدنيا الفاني:

نعيم آخرت باقيست اي دل خنك آنكس كه باشد عبد مقبل

ولا يخفى أن هذا الجزاء العظيم والأجر الجسيم للذين جمعوا بين المهاجرة والإخراج من الأوطان والتأذي في سبيل الله والقتال والمقتولية. فعلى السالك أن يهاجر من وطن النفس والعمل السيىء والخلق الذميم ويخرج من ديار الطبيعة إلى عالم الحقيقة حتى يدخل مقام العندية الخاصة فإن ثمرات المجاهدات المشاهدات والعمل الصالح يستدل به على حسن العاقبة.

ـ روي ـ أن صفوان بن سليم كان يجتهد في العبادة والقيام وكان يبيت على السطح في

أيام الشتاء لئلا يستريح من البرد وفي الصيف ينزل إلى بيته ليعذب نفسه بحر الهواء وكان عادته ذلك إلى أن مات في سجدته ووصل إلى رحمة الله وجنته فهذا هو الاجتهاد فعليك به فإن احتالت نفسك عليك في ذلك فحدثها بأخبار السلف وأحوالهم وحكاياتهم كي ترغب في الطاعة والاجتهاد فإن في ذلك نفعاً كلياً وتأثيراً عظيماً، قال الفاضل الجامي قدس سره:

هجوم نفس وهوا كز سپاه شيطانند   چو زور بردل مرد خدا پرست آرد
بجز جنود حكايات رهنمايا خود   چه تاب آنكه بران رهزنان شكست آرد

فإن قالت النفس إنهم كانوا رجالاً أقوياء كيف يداني بهم في الطاعة من خلفهم فحدثها بأخبار النساء كيف كن إناثاً ومع ذلك لم يتخلفن عن مجاهدات الرجال حتى وصلن إلى ما وصلوا إليه كرابعة العدوية وغيرها، قال بعضهم:

ولو كان النساء كمن ذكرنا   لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

قال الشيخ السعدي قدس سره:

زناني كى طاعت برغبت برند   زمردان نا پارسا بكذرند
تراشرم نايد زمردىء خويش   كه باشد زنانرا قبول ازتوبيش

قال الحسن البصري رحمه الله يا عجباً لأقوام بلا زاد وقد نودوا بالرحيل وحبس أولهم لآخرهم وهم قعود يلعبون.

ـ حكي ـ أن ملك الموت دخل على بعض الصالحين ليقبض روحه فقال مرحباً أنا والله منذ خمسين سنة أتأهب لك. ولما بلغ عبد الله بن المبارك النزع فتح عينه ثم ضحك فقال لمثل هذا فليعمل العاملون. قال بعض العلماء: من أراد أن ينال الجنة فعليه أن يداوم على خمسة أشياء. الأول أن يمنع نفسه من المعاصي قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] والثاني أن يرضى باليسير من الدنيا لأنه روي في الخبر «إن ثمن الجنة الطاعة وترك الدنيا». والثالث أن يكون حريصاً على الطاعات ويتعلق بكل طاعة فلعل تلك الطاعة تكون سبب المغفرة ووجوب الجنة قال الله تعالى ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. والرابع أن يحب الصالحين وأهل الخير ويخالطهم ويجالسهم فإن الصالح إذا غفر له يشفع لإخوانه وأصحابه. والخامس أن يكثر الدعاء ويسأل الله تعالى أن يرزقه ويختم له بخير والحاصل أنه لا بد للعاقل من التأهب لمعاده بتزكية النفس وإصلاح القلب.

قال القاشاني في تأويلاته ﴿**أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر**﴾ القلب من الأعمال القلبية كالإخلاص واليقين والمكاشفة ﴿**أو أنثى**﴾ النفس من الأعمال القالبية كالطاعات والمجاهدات والرياضيات ﴿**بعضكم من بعض**﴾ يجمعكم أصل واحد وحقيقة واحدة هي الروح أن بعضكم منشأ من بعد فلا أثيب بعضاً وأحرم آخر ﴿**فالذين هاجروا**﴾ من أوطان مألوفات النفس ﴿**وأخرجوا من ديارهم**﴾ من ديار صفاتها أو هاجروا من أحوالهم التي التذوا بها وأخرجوا من مقاماتهم التي يسكنون إليها ﴿**وأوذوا في سبيلي**﴾ أي ابتلوا في سلوك سبيل أفعالي بالبلاء والمحن والشدائد والفتن ليتمرنوا بالصبر ويفوزوا بالتوكل أو في سلوك سبيل صفاتي بسطوات تجليات الجلال والعظمة والكبرياء ليصلوا إلى مقام الرضى ﴿**وقاتلوا**﴾ البقية بالجهاد

في ﴿وقتلوا﴾ في الحب في بالكلية ﴿لأكفرن عنهم سيآتهم﴾ كلها من صغائر ظهور أفعالهم وصفاتهم وكبائر بقايا ذواتهم في تلويثاتهم ﴿فلأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الجنات الثلاث المذكورة ﴿ثواباً من عند الله﴾ أي عوضاً عما أخذت منهم من الوجودات الثلاثة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ ولا يكون عند غيره الثواب المطلق الذي لا ثواب وراءه ولهذا قال: والله لأنه اسم الذات الجامع لجميع الصفات فلم يحسن أن يقع غيره من الرحمٰن أو الرحيم أو سائر الأسماء موقعه.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿لا يغرنك﴾ الخطاب للنبي عليه السلام لأن العصمة لا تزيل النهي فإنه لو زال النهي عنه بذلك لبطلت العصمة فإن العصمة هي الحفظ من الخلاف وإذا زال النهي لم يكن خلاف فلا تكون عصمة فالمراد تثبيته على ما هو عليه من عدم التفاته إلى الدنيا أو الخطاب له والمراد أمته كما يخاطب سيد القوم ومقدمهم والمراد به كلهم كأنه قيل: لا يغرنكم ﴿تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب وهو التقلب منزلة المسبب وهو اغترار المخاطب للمبالغة والمعنى لا تمدن عينيك ولا تستشرف نفسك إلى ما هم عليه من سعة الرزق وإصابة حظوظ الدنيا ولا تغتر بظاهر حالهم من التبسط في الأرض والتصرف في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون.

ـ روي ـ أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش فيقولون إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت ﴿متاع قليل﴾ أي ذلك التقلب متاع قليل لا قدر له في جنب ما أعد الله للمؤمنين قال عليه السلام: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع» فإذا لا يجدي وجوده لواجديه ولا يضر فقدانه لفاقديه ﴿ثم مأواهم﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه لا يبرحونه ﴿جهنم﴾ التي لا يوصف عذابها يعني أنه مع قلته سبب الوقوع في نار جهنم أبد الآباد والنعمة القليلة إذا كانت سبباً للمضرة العظيمة لم يعد ذلك نعمة ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس ما يمهدون لأنفسهم جهنم ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ أي خافوه فلم يخالفوا أمره ولا نهيه ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ وجه الاستدراك أنه تعالى لما وصف الكفار بقلة نفع تقلبهم في البلاد لأجل التجارة وجاز أن يتوهم متوهم أن قلة النفع من لوازم التقلب من حيث هو استدرك أن المتقين وإن تقلبوا وأصابوا ما أصابه الكفار أو لم يصيبوا لهم مثوبات حسنى لا يقادر قدرها ﴿نزلاً من عند الله﴾ حال من جنات لتخصصها بالوصف. والنزل ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما ﴿وما عند الله﴾ لكثرته ودوامه ﴿خير للأبرار﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله. وعن ابن مسعود رضي الله عنه ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها أما البرة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وأما الفاجرة فإنه يقول: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة وأنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وأن عند رجليه قرظاً

مصبوراً وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال: «ما يبكيك» فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله ﷺ فقال: «أما ترضى أن يكون لهما الدنيا ولنا الآخرة».

ازپى ذكر وشوق حق مارا دردو عالم دل وزبانى بس
وزطعام ولباس أهل جهان كهنه دلقى ونيم نانى بس

ومما وجد في خزائن الإسكندر مكتوباً بالذهب الأحمر حركات الأفلاك لا تبقى على أحد نعمة فإذا أعطى العبد مالاً أو جاهاً أو رفعة فلتكن همته في انتهاز الفرصة وتقليد المنن أعناق الرجال فإن الدنيا والجاه والرفعة تزول إما ندم طويل أو مدح جزيل فأكرموا من له حسب في الأصل أو قدم في المروءة ولا يغرنكم تقلب الزمان بأهله فإن للدهر عثرات يجبر كما يكسر ويكسر كما يجبر والأمر إلى الله تعالى، قال جلال الدين الرومي قدس سره:

چند كويى من بكيرم عالمى اين جهانرا پركنم ازخود همى
كرجهان پربرف كردد سربسر تاب خور بكدازدش ازيك نظر

وعن الحسن قال خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً. ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصر أمله أعطاه الله تعالى علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية. ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ولا المحبة إلا باتباع الهوى. ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقاً» قال ابن عباس رضي الله عنهما يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء وأنيابها بادية مشوهة خلقها وتشرف على الخلائق فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي، فيقول الله تعالى: ألحقوا بها أتباعها، قال عليه السلام: «يحشر أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة ويؤمر بهم إلى النار» قالوا: يا رسول الله مصلين قال: «نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون سنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه» قالت عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع وشد الحجر على بطنه من السغب فقال: «يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد».

ـ وروي ـ أنه عليه السلام عرض عليه عشار من النوق وهي الحوامل منها فأعرض عنها وغض بصره مع أنها من أحب الأموال إليهم وأنفسها عندهم لأنها كانت تجمع الظهر واللحم واللبن ولعظمتها في قلوبهم قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾ [التكوير: ٤] فلما لم يلتفت إليها قيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا فلم لم تنظر إليها قال: «قد نهى الله عن ذلك» ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ [الحجر: ٧] الآية هذا معاملته مع

الدنيا. وفي التوجه إلى الآخرة ما كان يريد إلا الرفيق الأعلى قال ﷺ: «أنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم ومن دونه ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر» والمقصود أن في الفقر والقناعة فضيلة وأن الفقراء يدخلون الجنة مع رسول الله ﷺ قبل الأغنياء:

أي قناعت توانكرم كردان كه وراى توهيچ نعمت نيست
كنج صبر اختيار لقما نست هركرا صبر نيست حكمت نيست

فعلى العبد العاقل أن يجتنب عن الدنيا وإخوانها ويرغب في الآخرة وجنانها بل يترقى إلى الوصول إلى الله تعالى. قال أبو يزيد البسطامي قدس سره في عباد الله عبد لو أعطى الجنات بزينتها لهرب كما يهرب أهل النار من النار وهو الذي غلب عليه محبة الله فلا يميل إلى غيره ومن ذلك المقام قال أبو يزيد غاب قلبي عني ثمانين سنة فلما أردت أن آخذه قيل: أتطلب غيرنا.

ـ وحكي ـ عن بعض الصالحين أنه رأى في المنام معروف الكرخي شاخصاً بصره نحو العرش قد اشتغل عن الحور العين وقصور الجنة فسأل رضوان من هذا قال معروف الكرخي مات مشتاقاً إلى الله فأباح له أن ينظر إليه فمطمح نظر العارف الجنة المعنوية وهي جنة معرفة الله ووصوله التي هي خير من جنة الفردوس وأعلى عليين فليسارع السالك إلى وصول هذه الجنة ودخولها قبل إدراك منيته وانقضاء عمره ومجيء أجله:

حضورى كرهمى خواهى ازوغائب مشو حافظ
متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها

أوصلنا الله وإياكم إلى الحضور واليقين.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله**﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل في أربعين من نجران واثنين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل في أصحمة النجاشي فإنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه فقال ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» فقالوا: من هو؟ قال: «النجاشي» فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني حبشي لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله هذه الآية ﴿**وما أنزل إليكم**﴾ من القرآن ﴿**وما أنزل إليهم**﴾ من الكتابين ﴿**خاشعين لله**﴾ أي متواضعين له من خوف عذابه ورجاء ثوابه وهو حال من فاعل يؤمن لأن من في معنى الجمع ﴿**لا يشترون**﴾ لا يأخذون ﴿**بآيات الله**﴾ المكتوبة في التوراة والإنجيل من نعت النبي عليه السلام ﴿**ثمناً قليلاً**﴾ أي عرضاً يسيراً من حطام الدنيا خوفاً على الرسالة كفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم والجملة حال مما قبله ﴿**أولئك**﴾ أي أهل هذه الصفة ﴿**لهم أجرهم**﴾ أي المختص بهم الموعود لهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:

[٥٤] ﴿عند ربهم﴾ نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف ﴿إن الله سريع الحساب﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر من غير حاجة إلى تأمل ووعي صدر وكتب يد والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول إليهم فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

والإشارة في قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ إلى أن العلماء المتقين الذين يؤمنون بالواردات والإلهامات والكشوف بأرباب القلوب والخواطر الرحمانية وهم الحكماء الإلٓهية يعجل الله في جزاء أعمالهم بحسب نياتهم لتبليغهم إلى مقاماتهم في القرب قبل وفاتهم ولا يؤجل إلى ما بعد وفاتهم فإن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى والإنسان يموت كما يعيش ويبعث على ما مات عليه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام وهو يقول: ما لي أراك مغموماً حزيناً قال عليه السلام: «يا جبريل طال تفكري في أمتي يوم القيامة» قال في أمر أهل الكفر أم في أهل الإسلام فقال: «يا جبريل في أمر أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله» فأخذ بيده حتى أقامه إلى مقبرة بني سلمة ثم ضرب بجناحه الأيمن على قبر ميت فقال: قم بإذن الله فقام رجل مبيض الوجه وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال جبريل عد إلى مكانك فعاد كما كان ثم ضرب بجناحه الأيسر فقال: قم بإذن الله فخرج رجل مسود الوجه أزرق العينين وهو يقول: واحسرتاه واندامتاه فقال له جبريل: عد إلى مكانك فعاد كما كان ثم قال: يا محمد على هذا يبعثون يوم القيامة وعند ذلك قال رسول الله ﷺ: «تموتون كما تعيشون وتبعثون كما تموتون» فظهر أن الله سريع الحساب يوصل إلى كل جزاء عمله. فأما الواصلون فهم في الجنة المعنوية في الدنيا يتنعمون. وأما الغافلون فهم في نار البعد والفراق ولكنهم لا يحسون الألم قبل وفاتهم فإذا ماتوا انقلب الحال من المعنى إلى الحس عصمنا الله وإياكم من نار البعد وعذاب السعير وشرفنا بنعيم وصاله ورؤية جماله المنير:

كنون بايد أي خفته بيدار بود ... چومرك اندر آرد زخوابت چه سود
تو پاك آمدي بر حذر باش وپاك ... كه ننكست نا پاك رفتن بخاك
كنون بايد اين مرغ را پاي بست ... نه آنكه كه سر رشته بردت زدست

وذكر أن إبراهيم بن أدهم رحمة الله أراد أن يدخل الحمام فمنعه الحمامي وقال: لا تدخل إلا بأجرة فبكى إبراهيم وقال: لا يؤذن لي أن أدخل بيت الشياطين مجاناً فكيف بالدخول إلى بيت النبيين والصديقين مجاناً فظهر أن من كان في الدنيا غافلاً فهو في الآخرة مع الغافلين وحسابه في الآخرة على مقدار عمله فمن لم يعمل صالحاً كان هناك خالياً عن المثوبات:

برفتند وهركس درود آنچه كشت ... نماند بجز نام نيكو وزشت

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة حوراء يقال لها لعبة لو بصقت في البحر بصقة لعذب البحر مكتوب على نحرها من أحب أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربي» ونعم ما قيل:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلا ... يغوص البحر من طلب اللآلي

فلا بد من تدارك أمر الآخرة. وتوفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه أهل البصرة وخرج فيها الحسن البصري فقال الحسن للفرزدق يا أبا فراس ما أعددت لهذا اليوم قال شهادة أن لا

إله إلا الله منذ ثمانين سنة فلما دفنت قام الفرزدق على قبرها وأنشد هذه الأبيات:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني أشد من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار» فنسأل الله سبحانه أن يجيرنا من النار ويدخلنا الجنة مع الأبرار ويوفقنا للأعمال الصالحة المنجية ويجعلنا من الفرقة الناجية بحق النبي الذي به وصل من وصل إلى الله عز وجل في المشارق والمغارب وانتهى إلى منازل المقاصد والمآرب ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا**﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد كالمرض والفقر والقحط والخوف وغير ذلك من المشاق ﴿**وصابروا**﴾ وغالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى. والمصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته وكونه أكمل وأفضل من الصبر على ما سواه والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله وأوله التصبر وهو التكلف لذلك ثم المصابرة وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار والاعتبار والالتزام ثم الصبر وهو كماله وحصوله من غير كلفة ﴿**ورابطوا**﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه السلام: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط» ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ واتقوه بالتبري مما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح أو اتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة فعلم من هذا أن الصبر دون المصابرة والمصابرة دون المرابطة قيل:

توكز سراي طبيعت نميروي بيرون كجا بكوى طريقت كذر تواني كرد

ولا بد من السلوك حتى يتجاوز العبد عن الأحوال والمقامات إلى أقصى النهايات.

ـ وحكي ـ عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يسير إلى بيت الله راجلاً فإذا أعرابي على ناقة فقال: يا شيخ إلى أين؟ فقال إبراهيم إلى بيت الله قال: كيف وأنت راجل لا راحلة لك فقال: إن لي مراكب كثيرة فقال: ما هي قال: إذا نزلت عليّ بلية ركبت مركب الصبر وإذا نزلت عليّ نعمة ركبت مركب الشكر وإذا نزل بي القضاء ركبت مركب الرضى وإذا دعتني النفس إلى شيء علمت أن ما بقي من العمر أقل مما مضى فقال الأعرابي: أنت الراكب وأنا الراجل سر في بلاد الله فالاشتغال طول العمر بالمجاهدة لازم حتى تنقلع الأخلاق الذميمة من النفس وتتبدل بالأوصاف الشريفة من الصبر وغيره ومثل هذه المجاهدة هي المرابطة.

ـ روي ـ أن واحداً من الصلحاء كان يختم كل ليلة ويجتهد في العبادة فقيل له: إنك تتعب نفسك وتوقعها في المشقة فقال: كم عمر الدنيا فقيل: سبعة آلاف سنة فقال: وكم مقدار يوم القيامة فقيل: خمسون ألف سنة فقال: لو عمر المرء بعمر الدنيا لحق له أن يجتهد في العبادة لهذا اليوم الطويل فإنه أسهل بالنسبة إليه. وكانت معاذة العدوية امرأة صالحة كانت إذا

جاء النهار تقول: هذا اليوم يوم موتي فتشتغل بالعبادة إلى المساء فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة ليلة موتي فتحييها إلى الصباح إلى أن ماتت على هذه النمط قال رسول الله ﷺ: «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة» فهذا في الجهاد الأصغر فكيف الحال في الجهاد الأكبر يعني أن المثوبات والدرجات أكثر في حفظ النفس ومراقبتها وحبسها على الطاعات والعبادات:

نكه دار فرصت كه عالم دميست دمى پيش دانابه ازعالميست
سراز جيب غفلت بر آور كنون كه فردا نمانى بخجلت نكون

قال الحافظ:

داناكه زد تفرج اين چرخ حقه باز هنكامه بازچيد ودر كفت وكوببست

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله العارف من كان همه هماً واحداً ولم ينتقل قلبه إلى ما رأت عيناه وسمعت أذناه.

ـ روي ـ أن زاهداً كان يجتهد في العبادة فرآه رجل قد صار لباسه ذا وسخ فقال: أيها العابد لم لا تغسل ثوبك قال العابد لأنه إن غسلته يتوسخ ثانياً قال الرجل فاغسله مرة أخرى قال العابد إن الله لم يخلقنا لأن نغسل ثيابنا ويذهب عمرنا بهذا العمل بل للطاعة والعبادة، قال مولانا جلال الدين قدس سره:

أول استعداد جنت بايدت تا زجنت زندكاني زايدت

تداركنا الله تعالى بلطفه، وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إني أصوم شهر رمضان وأصلي كل يوم خمس صلوات ولا أزيد على هذا لأني فقير ليس عليّ زكاة ولا حج فإذا قامت القيامة ففي أي دار أكون أنا؟ فضحك النبي ﷺ وقال: «إذا حفظت عينيك عن اثنين عن النظر إلى المحرمات والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار وحفظت قلبك عن اثنين عن الغل والحسد وحفظت لسانك عن اثنين عن الكذب والغيبة تكون معي في الجنة».

٤ - سورة النساء

وهي مائة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

﴿يا أيها الناس﴾ خطاب عام يتناول الموجودين في زمان الخطاب ومن بعدهم دون المنقرضين بدليل أنهم ما كانوا متعبدين بشرعنا فلو كان عاماً لجميع بني آدم لزم أن يتعبدوا بشرعنا وهو محال **﴿اتقوا ربكم﴾** في حفظ ما بينكم من الحقوق وما يجب وصله ومراعاته ولا تضيعوه ولا تقطعوا ما أمرتم بوصله **﴿الذي خلقكم﴾** أي قدر خلقكم حالاً بعد حال على اختلاف صوركم وألوانكم **﴿من نفس واحدة﴾** أي من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم وعقب الاتقاء بمنة الخلق كيلا يتقي إلا الخالق وبين اتحاد الأب فإن في قطع التزاحم حضاً على التراحم **﴿وخلق منها﴾** أي من تلك النفس يعني من بعضها **﴿زوجها﴾** أمكم حواء بالمد من ضلع من أضلاعه اليسرى.

ـ روي ـ أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من قصيراه فلما انتبه وجدها عنده فمال إليها وألفها لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه وأخرت حواء في الذكر وإن كانت مقدمة في الخلق لأن الواو لا ترتيب فيها **﴿وبث﴾** أي فرق ونشر **﴿منهما﴾** من تلك النفس وزوجها المخلوقة بطريق التوالد والتناسل **﴿رجالاً كثيراً﴾** تذكيره للحمل على الجمع والعدد **﴿ونساء﴾** أي بنين وبنات كثيرة. واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها إذ الحكمة تقتضي أن يكون أكثر. وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لأن المراد به تمهيد للأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها فكأنه قيل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنواناً متفرعة من أرومة واحدة فيما يجب لبعضكم على بعض من حقوق المواصلة التي بينكم فحافظوا عليها ولا تغفلوا عنها **﴿واتقوا الله﴾** أي لا تقطعوا في الدين والنسب أغصاناً تتشعب من جرثومة واحدة **﴿الذي تساءلون به﴾** فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض اسألك بالله **﴿والأرحام﴾** أي يسأل بعضكم بعضاً بالله فيقول: بالله وبالرحم وأناشدك الله

والرحم افعل كذا على سبيل الاستعطاف وجرت عادة العرب على أن أحدهم إذا استعطف غيره يقرن الرحم في السؤال والمناشدة بالله ويستعطف به. فقوله والأرحام بالنصب عطف على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمراً أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه وعنه ﷺ «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» وقال ﷺ: «ما من عمل حسن أسرع ثواباً من صلة الرحم وما من عمل سيئة أسرع عقوبة من البغي» فينبغي للعباد مراعاة الحقوق لأن الكل أخ لأب وأم هما آدم وحواء سيما المؤمنين لأن فيهم قرابة الإيمان والدين وكذا الحال في قرابة الطين **﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾** الرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك أي حافظاً مطلعاً على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلى ما في ضمائركم من النيات مريداً لمجازاتكم بذلك فبين الله تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه إذا كان كذلك فيجب أن يكون المرء حذراً خائفاً فيما يأتي ويذر.

واعلم أن التقوى هي العمدة وهي سبب الكرامة العظمى في الدنيا والعقبى.

ـ حكي ـ أنه كان بالبصرة رجل معروف بالمسكى لأنه كان يفوح منه رائحة المسك فسئل عنه فقال: كنت من أحسن الناس وجهاً وكان لي حياء فقيل لأبي: لو أجلسته في السوق لانبسط مع الناس فأجلسني في حانوت بزاز فجازت عجوز وطلبت متاعاً فأخرجت لها ما طلبت فقالت: لو توجهت معي لثمنه فمضيت معها حتى أدخلتني في قصر عظيم فيه قبة عظيمة فإذا فيها جارية على سرير عليه فرش مذهبة فجذبتني إلى صدرها فقلت: الله الله فقالت: لا بأس فقلت: إني حازق فدخلت الخلاء وتغوطت ومسحت به وجهي وبدني فقيل: إنه مجنون فخلصت ورأيت الليلة رجلاً قال لي: أين أنت من يوسف بن يعقوب ثم قال: أتعرفني؟ قلت: لا قال: أنا جبريل ثم مسح بيده على وجهي وبدني فمن ذلك الوقت يفوح المسك علي من رائحة جبريل عليه السلام وذلك ببركة التقوى. والتقوى في عرف الشرع وقاية النفس عما يضرها في الآخرة وهي على مراتب: الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، والثانية التجنب عن كل إثم وهو المتعارف باسم التقوى وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا﴾ [المائدة: ٦٥]، والثالثة التنزه عن جميع ما يشغله وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ومن هذا القبيل ما حكي عن ذي النون المصري أنه لما جاء إليه بعض الوزراء وطلب الهمة وأظهر الخشية من السلطان قال له: لو خشيت أنا من الله كما تخشى أنت من السلطان لكنت من جملة الصديقين:

كرنبودى اميد راحت ورنج ... پاي درويش بر فلك بودى
ورزوير ازخدا بترسيدى ... همچنان كزملك ملك بودى

فينبغي للسالك أن يتقي ربه ويراقب الله في جميع أحواله كما قال تعالى: **﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾** والمراقبة: علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه وهذا أصل كل خير ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق وأحسن ما بينه وبين الله من مراعاة القلب وحفظه مع الله الأنفاس وراقب الله سبحانه في عموم أحواله فيعلم أنه عليه رقيب ومن

قلبه قريب يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة؟ قال سليمان بن علي لحميد الطويل: عظني قال: لئن كنت عصيت الله خالياً وظننت أنه يراك فقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت لقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾. وكان بعض الصالحين له تلامذة وكان يخص واحداً منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره فقالوا له في ذلك فقال: أبين لكم فدفع لكل واحد من تلامذته طائراً وقال له: اذبحه بحيث لا يراك أحد ودفع إلى هذا أيضاً فمضوا ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طيره وجاء هذا بالطير حياً فقال له: هلا ذبحته؟ فقال: أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ولم أجد موضعاً لا يراه أحد فقال: لهذا أخصه بإقبالي عليه.

جهان مرآت حسن شاهد ماست فشاهد وجهه في كل ذرات

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ اليتامى جمع يتيم وهو من الناس المنفرد عن الأب بموته ومن سائر الحيوانات عن الأم وحق هذا الاسم أن يقع على الصغير والكبير لبقاء معنى الانفراد عن الأب إلا أنه غلب استعماله في الصغير لاستغناء الكبير بنفسه عن الكافل فكأنه خرج عن معنى اليتم وهو الانفراد والمراد بإيتاء أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة لا الإعطاء بالفعل فإنه مشروط بالبلوغ وإيناس الرشد وإنما عبر عما ذكر بالإيتاء مجازاً للإيذان بأنه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها والمعنى أيها الأولياء والأوصياء احفظوا أموال اليتامى ولا تتعرضوا لها بسوء وسلموها إليهم وقت استحقاقهم تسليمها إليهم ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ تبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له أو في شرف الحصول أي لا تستبدلوا الحلال المكتسب بالحرام المغتصب يعني لا تستبدلوا مال اليتامى وهو حرام بالحلال وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبعوث في الأرض فتأكلوه مكانه ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ المراد من الأكل التصرف لأن أكل مال اليتيم كما يحرم فكذا سائر التصرفات المهلكة لتلك الأموال محرمة والدليل عليه أن في المال ما لا يصح أن يؤكل وإنما ذكر الأكل لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف وإلى بمعنى مع قال تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧] أي مع الله والأصح أن المعنى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم ولا تسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيراً وإذا أكل مال اليتيم وله مال كان ذلك أقبح ولذا ورد النهي عن أكله مع مال نفسه بعد أن قال: ولا تتبدلوا الخ ﴿إنه﴾ أي الأكل المفهوم من النهي ﴿كان حوبا كبيرا﴾ أي ذنباً عظيماً عند الله فاجتنبوه.

ـ روي ـ أن رجلاً من بني غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبي عليه السلام فنزلت هذه الآية فلما سمع العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه

ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره» يعني: جنته فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله فقال عليه السلام: «ثبت الأجر وبقي الوزر» فقالوا: كيف بقي الوزر؟ فقال: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده»، قال الشيخ السعدي قدس سره:

از زر وسيم راحتى برسان خويشتن هم تمتعى بر كير
چونكه اين خانه ازتو خواهد ماند خشتى ازسيم وخشتى از زركير

قال تعالى: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ تزكية من آفة الحرص والحسد والدناءة والخسة والطمع وتحلية بالأمانة والديانة وسلامة الصدر وقال: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ تزكية من الجور والحيف والظلم وتحلية بالعدل والإنصاف فإن اجتماع هذه الرذائل ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ أي حجاباً عظيماً. فعلى العاقل أن يزكي نفسه من الأخلاق الرديئة ولا يطمع في حق أحد جل أو قل بل يكون سخياً باذلاً ماله على الأرامل والأيتام ويراعي حقوقهم بقدر الإمكان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ست موبقات ليس لهن توبة: أكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والسحر، والشرك بالله، وقتل نبي من الأنبياء. ويقال: طوبى للبيت الذي فيه يتيم. وويل للبيت الذي فيه يتيم يعني ويل لأهل البيت الذين لم يعرفوا حق اليتيم وطوبى لهم إذا عرفوا حقه.

يكى خار پاي يتيمى بكند بحواب اندرش ديد صدر خجند
كه ميكفت ودر روضها مى چميد كزان خار بر من چه كلها دميد

- وروي - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: عندي يتيم مما ضربه قال: «مما تضرب ولدك» يعني لا بأس أن تضربه للتأديب ضرباً غير مبرح مثل ما يضرب الوالد ولده.

- وروي - عن الفضيل بن عياض أنه قال: رب لطمة انفع لليتيم من أكلة خبيص. قال الفقيه في «تنبيه الغافلين» إن كان هذا يقدر أن يؤدبه بغير ضرب ينبغي له أن يفعل ذلك ولا يضربه فإن ضرب اليتيم أمر شديد قال رسول الله ﷺ: «إن اليتيم إذا ضرب اهتز عرش الرحمٰن لبكائه فيقول الله: يا ملائكتي من أبكى الذي غيبت أباه في التراب وهو أعلم به قال: تقول الملائكة: ربنا لا علم لنا قال: فإني أشهدكم أن من أرضاه أرضِه من عندي يوم القيامة».

چوبينى يتيمى سرافكند پيش مده بوسه برروى فرزند خويش
يتيم اربكريد كه بارش برد وكر خشم كيرد كه نازش خرد
ألا تانكريد كه عرش عظيم بلرزد همى چون بكريد يتيم
اكرسايه خودبرفت ازسرش تو درسايه خويشتن پرورش

قال الله تعالى لداود النبي عليه السلام: [كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد].

واعلم أن المرأة الصالحة لزوجها كالملك المتوّج بالذهب كلما رآها قرت عينه والمرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير:

كراخانه آباد وهمخوابه دوست خدارا برحمت نظر سوى اوست
دلارام باشد زن نيك خواه وليك از زن بدخدايا پناه
تهى پاى رفتن به از كفش تنك بلاى سفر به كه درخانه جنك

﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ الإقساط العدل والمراد بالخوف العلم عبر عنه

بذلك إيذاناً بكون المعلوم مخوفاً محذوراً لا معناه الحقيقي لأن الذي علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الأمر شاملاً لمن يصبر على الجور ولا يخافه وسبب النزول أنهم كانوا يتزوجون من يحل لهم من اليتامى اللاتي يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل في مالهن ويسيئون في الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وقيل: هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا من سواهن من النساء والمعنى وإن خفتم أن لا تعدلوا في حق اليتامى إذا تزوجتم بهن بإساءة العشرة أو بنقص الصداق ﴿**فانكحوا ما**﴾ موصولة أو موصوفة أوثرت على من ذهاباً بها إلى الوصف أي نكاحاً ﴿**طاب لكم من النساء**﴾ أي غير اليتامى بشهادة قرينة المقام أي فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الأجنبيات ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾ حال من فاعل طاب أي فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثاً وثلاثاً وأربعاً وأربعاً حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أي عدد شاء من الأعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض آخر. ﴿**فإن خفتم أن لا تعدلوا**﴾ أي فيما بينهن ولو في أقل الأعداد المذكورة كما خفتموه في حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الأعداد ﴿**فواحدة**﴾ فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية ﴿**أو ما**﴾ ولم يقل من إيذاناً بقصور رتبة الإماء عن رتبة العقلاء ﴿**ملكت أيمانكم**﴾ أي من السراري بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسري لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين في الموضعين وإنما سوي في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السراري من غير حصر في عدد لقلة تبعيتهن وخفة مؤنهن وعدم وجوب القسم فيهن ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة ﴿**أدنى أن لا تعولوا**﴾ العول الميل من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال وعال في الحكم جار والمراد هٰهنا الميل المحظور المقابل للعدل أي ما ذكر من اختيار الواحدة والتسري أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا يميلوا ميلاً محظوراً لانتفائه رأساً بانتفاء محله في الأول وانتفاء حظره في الثاني بخلاف اختيار العدد في المهائر فإن الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والحظر.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

﴿**وآتوا النساء**﴾ أي اللاتي أمر بنكاحهن ﴿**صدقاتهن**﴾ جمع صدقة وهي المهر. ﴿**نحلة**﴾ فريضة من الله لأنها مما فرضه الله في النحلة أي الملة والشريعة والديانة فانتصابها على الحالية من الصدقات أي أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة من الله أو تديناً فانتصابها على أنه مفعول له أي أعطوهن ديانة وشرعة أو هبة وعطية من الله وتفضلاً منه عليهن فانتصابها على الحالية منها أيضاً أو عطية من جهة الأزواج من نحله إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلاً والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضى وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لأن الإيتاء والنحلة بمعنى الإعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أي أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون: هنيئاً لك النافجة لمن يولد له

بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أي: تعظم ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه﴾ الضمير للصدقات وتذكيره لإجرائه مجرى ذلك فإنه قد يشار به إلى المتعدد واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لكن بتضمينه معنى التجافي والتجاوز ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أي كائن من الصداق وفيه بعث لهن إلى تقليل الموهوب ﴿نفساً﴾ تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أي وهبن لكم شيئاً من الصداق متجافياً عن نفوسهن طيبات غير خبيثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاية أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فكلوه﴾ أي: فخذوا ذلك الشيء الذي طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكاً وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية ﴿هنيئاً مريئاً﴾ صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أي أكلاً هنيئاً مريئاً وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.

ـ روي ـ أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساقه إليها فنزلت. وفي الآية دليل على وجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس ولذا قيل: يجوز الرجوع بما وهبن إن خدعن من الأزواج وبيان لجواز معروفها وترغيب في حسن المعاشرة بينهما فإن خير الناس خيرهم لأهله وأنفعهم لعياله وفي الحديث «جهاد المرأة حسن التبعل» وكانت المرأة على عهد النبي عليه السلام تستقبل زوجها إذا دخل وتقول مرحباً بسيدي وسيد أهل بيتي وتقصد إلى أخذ ردائه فتأخذه من عنقه وتعمد إلى نعله فتخلعه فإن رأته حزيناً قالت: ما يحزنك إن كان حزنك لآخرتك فزاد الله فيها وإن كان لدنياك فكفاك الله فقال النبي ﷺ: «يا فلان اقرئها مني السلام وأخبرها أن لها نصف أجر الشهيد» وعلامة الزوجة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله وغناها القناعة وحليها العفة أي التكفف عن الشرور والمفاسد وعبادتها بعد الفرائض حسن الخدمة للزوج وهمتها الاستعداد للموت.

اكر پارسا باشد وخوش سخن ... نكه درنكويى وزشتى مكن
زن خوب وخوش طبع كنجست ومار ... رهاكن زن زشت ناساز كار

يعني لا تلتفت إلى امرأة ليس لها حسن ولا موافقة لك بحسن الخلق.

ـ روي ـ أن الإسكندر كان يوماً عنده جمع من ندمائه فقال واحد منهم: إن الله تعالى أعطى لك مملكة كثيرة وشوكة وافرة فأكثر من النساء حتى يكثر أولادك ويبقوا بعدك قال الإسكندر: أولاد الرجال ليست ما ذكرت بل هي العادات الحسنة والسير المرضية والأخلاق الكريمة وليس مما يليق بالرجل الشجيع أن تغلب عليه النساء بعد أن غلب هو على أهالي الدنيا ونعم ما قيل:

يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام

چونيست پيش بدراين قدر يقين كه پسر ... زخيل بى خردانست يا خرد مندان
بسست سيرت نيكو حكيم را فرزند ... زبون زن چه شود برامید فرزندان

قال الشيخ السعدي قدس سره في «البستان»:

چه نغز آمداين يك سخن زان دوتن ... كه سركشته بودندازدست زن
يكى كفت كس را زن بد مباد ... دكر كفت زن درجهان خودمباد
زن نو كن اي دوست هر نوبهار ... كه تقويم پارين نيايد بكار

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من أمتي يكونون في جهنم كعمر الدنيا سبع مرات: أولهم

متسمنون مهزولون، والثاني كاسون عارون، والثالث عالمون جاهلون» قيل من هؤلاء يا رسول الله قال: «أما المتسمنون المهزولون فالنساء متسمنات باللحم مهزولات في أمور الدين وأما الكاسون العارون فهن النساء كاسيان من الثياب عاريات من الحياء وأما العالمون الجاهلون فهم أهل الدنيا التاجرون الكاسبون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» فهؤلاء عالمون في أمور الدنيا جاهلون في أمور الآخرة لا يبالون من أين يجمعون المال وهم لا يشبعون من الحلال ولا يبالون من الحرام نعوذ بالله.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)﴾

﴿ولا تؤتوا﴾ أيها الأولياء **﴿السفهاء﴾** أي: المبذرين من الرجال والنساء والصبيان واليتامى **﴿أموالكم﴾** أضاف الأموال إلى الأولياء تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء فكان أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي مبالغة في حملهم على المحافظة عليها وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطاً لمعاش أصحابها بجعلها مناطاً لمعاش الأولياء بقوله: **﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾** أي جعلها الله شيئاً تقومون به وتتعشون فلو ضيعتموه لضعتم ولما كان المال سبباً للقيام والاستقلال سماه بالقيام إطلاقاً لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة فكأنها من فرط قيامهم بها واحتياجهم إليها نفس قيامهم **﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾** الرزق من الله العطية من غير حد ومن العباد إجراء موقت محدود أي أطعموهم منها ولم يقل منها لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروا فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال. **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** كلاماً ليناً تطيب به نفوسهم. قال القفال: القول المعروف هوانه إن كان المولى عليه صبياً فالولي يعرفه أن المال ماله وهو خازن له وأنه إذا زال صباه فإنه يرد المال إليه وإن كان المولى عليه سفيهاً وعظه ونصحه وحثه على الصلاة ورغبه في ترك التبذير والإسراف وعرفه أن عاقبة التبذير الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى ما يشبه هذا النوع من الكلام وإذا كان رشيداً فطلب ماله ومنعه الولي يأثم. وفي الآية تنبيه على عظم خطر المال وعظم نفعه. قال السلف: المال سلاح المؤمن هيىء للفقر الذي يهلك دينه وكانوا يقولون اتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه وربما رأوا رجلاً في جنازة فقالوا له: اذهب إلى دكانك، قال الإمام وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتاب والشهادات والرهن والعقل أيضاً يؤيد ذلك لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل الدنيا والآخرة ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال لأنه به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار.

شب پرا كنده خسبد آنكه بديد نبود وجه بامدادانش
مور كرد آورد بتابستان تافراغت بود زمستانش

فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة على اكتساب سعادة الآخرة أما من أرادها لنفسها وعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة فخير المال ما كان متاع البلاغ ولا ينبغي للمرء أن يسرف في المال الذي يبلغه إلى الآخرة والجنة والقربة.

چودخلت نيست خرج آهسته تركن — كه ملاحان همى كويند سرودى
اكر باران بكوهستان نبارد — بسالى دجله كردد خشك رودي
درخت اندر خزانها برفشاند — زمستان لا جرم بي برك ماند

والإشارة أن الله تعالى جعل المال قياماً لمصالح دين العباد ودنياهم فالعاقل منهم من يجعله قياماً لمصالح دينه ما أمكنه ولمصالح دنياه بقدر حاجته الضرورية إليه والسفيه من جعله لمصالح دنياه ما أمكنه والمنهي عنه أن تؤتوا إليه أموالكم كائناً من كان ومن جملة السفهاء النفس التي هي أعدى عدوك وكل ما أنفقه الرجل على نفسه بهواها ففيه مفاسد دينه ودنياه إلا المستثنى منه كما أشار تعالى بقوله: **﴿وارزقوهم فيها﴾** يعني: ما يسد به جوع النفس **﴿واكسوهم﴾** يعني: ما يستر عورتها فإن ما زاد على هذا يكون إسرافاً في حق النفس والإسراف منهي عنه. **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** فالقول المعروف مع النفس أن يقول: أكلت رزق الله ونعمه فأدي شكر نعمته بامتثال أوامره ونواهيه وأذيبي طعامك بذكر الله كما قال عليه السلام«أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر» وأقل ذلك أن يصلي ركعتين أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءاً من القرآن عقيب كل أكلة وسببه أنه إذا نام على الطعام من غير إذابته بالذكر والصلاة بعد أكله يقسو قلبه ونعوذ بالله من قسوة القلب ففي الإذابة رفع القسوة وأداء الشكر.

واعلم أن في قوله تعالى: **﴿ولا تؤتوا السفهاء﴾** الخ إشارة أخرى وهي أن أموال العلوم وكنوز المعارف لا تؤتى لغير أهلها من العوام ولا تذكر كما حكي أن بعض الكبار ذكر بعض الكرامات لولي فنقل ذلك بعض السامعين في مجلس آخر وأنكره رجل فلما رجع إلى الأصل قال: لا يباع الإبل في سوق الدجاج.

دريغست باسفله كفت ازعلوم — كه ضايع شهود تخم درشوره بوم

﴿وابتلوا اليتامى﴾ أي: واختبروا أيها الأولياء والأوصياء من ليس من اليتامى بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فإن كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعاً وإن كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوا منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى يتبين لكم كيفية أحوالهم. **﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾** بأن يحتلموا لأنهم يصلحون عنده للنكاح. **﴿فإن آنستم﴾** أي: شاهدتم وتبينتم. **﴿منهم رشدا﴾** صلاحاً في دينهم واهتداء إلى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير **﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾** من غير تأخير عن حد البلوغ. وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع إليه ماله أبداً وبه أخذ أبو يوسف ومحمد، وقال أبو حنيفة ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن البلوغ بالسن ثماني عشرة فإذا زادت عليها بسبع سنين وهي مدة معتبرة في تغيير أحوال الإنسان لما قال عليه السلام: «مروهم بالصلاة لسبع» دفع إليه ماله أونس منه رشد أو لم يونس. **﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾** بغير حق حال أي: مسرفين وليس فيه إباحة القليل وتحريم

الإسراف بل هو بيان أنه إسراف ﴿**وبداراً**﴾ أي مبادرين ومسارعين إلى إنفاقها مخافة ﴿**أن يكبروا**﴾ فتفرطون في إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن تكبر اليتامى رشداً فينتزعوها من أيدينا ويلزمنا تسليمها إليهم ﴿**ومن كان غنياً**﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿**فليستعفف**﴾ فليتنزه عن أكلها وليمتنع وليقنع بما آتاه الله من الغنى والرزق إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله واستعفف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة ﴿**ومن كان**﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿**فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾ أي بما عرف في الشرع بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته وفيه ما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها ﴿**فإذا دفعتم إليهم أموالهم**﴾ بعدما راعيتم الشرائط المذكورة ﴿**فأشهدوا عليهم**﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت منها ذممكم لما أن ذلك أبلغ من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة وإن لم يكن واجباً عند أصحابنا فإن الوصي مصدق في الدفع مع اليمين وقال مالك والشافعي لا يصدق في دعواه إلا بالبينة ﴿**وكفى بالله**﴾ الباء صلة ﴿**حسيباً**﴾ محاسباً وحافظاً لأعمال خلقه فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تجاوزوا ما حدّ لكم واعلموا أن اللائق للعاقل أن يحترز عن حق الغير خصوصاً اليتيم فإنه يجره إلى نار الجحيم فأكل حقه من الكبائر ومن ابتلي بحق من حقوق العباد فعليه بالاستحلال قبل الانتقال إلى دار السؤال قال رسول الله ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه أو شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمة وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحمل عليه» ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسرّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص حيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله فينال به لطفه الذي ادخره لأرباب الإيمان في دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم».

قال العلماء: إذا زنى بامرأة ولها زوج فما لم يجعل ذلك الرجل في حل لا يغفر له لأن خصمه الآدمي فإذا تاب وجعله في حل فإن يغفر له ويكتفي بحل منه ولا يذكر الزنى ولكن يقول كل حق لك علي فاجعلني في حل منه ومن كل خصومة بيني وبينك وهذا صلح بالمعلوم على المجهول وذلك جائز كرامة لهذه الأمة لأن الأمم السالفة ما لم يذكروا الذنب لا يغفر لهم وكذا غصب أموال عباد الله وأكلها وضربهم وشتمهم وقتلهم كلها من الحقوق التي يلزم فيها إرضاء الخصماء والتوبة والمبادرة إلى الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة فإذا لم يتب العبد من أمثال هذه ولم يرض خصماءه كان خاسراً خالياً عن العمل عند العرض الأكبر.

نماند ستمكار بد روزكار بماند برو لعنت پايدار
چنان زى كه ذكرت بتحسين كنند چومردى نه بركور نفرين كنند
نبايد برسم بد آيين نهاد كه كويند لعنت بران كين نهاد

فينبغي للظالم أن يتوب من الظلم ويتحلل من المظلوم في الدنيا فإذا لم يقدر عليه ينبغي أن يستغفر له ويدعو له فإن يرجى أن يحلله بذلك. وعن فضيل بن عياض رحمه الله أنه قال: قراءة آية من كتاب الله والعمل بها أحب إلي من ختم القرآن ألف ألف مرة وإدخال السرور على المؤمن وقضاء حاجته أحب إلي من عبادة العمر كله وترك الدنيا ورفضها أحب إليّ من التعبد بعبادة أهل السموات والأرض وترك دانق من حرام أحب إلي من مائتي حجة من المال الحلال. وقال أبو القاسم الحكيم: ثلاثة أشياء تنزع الإيمان من العبد: أولها ترك الشكر على

الإسلام، والثاني: ترك الخوف على ذهاب الإسلام، والثالث: الظلم على أهل الإسلام وعن أبي ميسرة قال: أتى بسوط إلى رجل في قبره بعدما دفن يعني جاءه منكر ونكير فقالا له: إنا ضارباك مائة سوط فقال الميت: أنا كنت كذا وكذا يتشفع حتى حطا عنه عشراً ثم لم يزل بهما حتى صارت إلى ضربة واحدة فقالا له: إنا ضارباك ضربة واحدة فضرباه ضربة واحدة التهب القبر ناراً فقال: لم ضربتماني قالا مررت برجل مظلوم فاستغاث بك فلم تغثه فهذا حال الذي لم يغث المظلوم فكيف يكون حال الظالم.

واعلم أن الكبار يكفون أنفسهم عن المشتبهات فضلاً عن الحرام فإن اللقمة الطيبة لها أثر عظيم في إجابة الدعاء ولذا قال الشيخ نجم الدين الكبرى قدس سره: أول شرائط إجابة الدعاء إصلاح الباطن بلقمة الحلال وآخر شرائطها الإخلاص وحضور القلب يعني التوجه الأحدي إذ القلب الحاضر في الحضرة شفيع له قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فحركة الإنسان باللسان وصياحه من غير حضور القلب ولولة الواقف على الباب وصوت الحارس على السطح فعلى العاقل أن يحترز عن الحرام والمشتبهات كي يستجاب دعاؤه في الخلوات **﴿للرجال نصيب﴾**.

ـ روي ـ أن أوس بن صامت الأنصاري رضي الله عنه خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال: «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت هذه الآية فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي لابني العم والمعنى لذكور أولاد الميت حظ كائن **﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾** من ذوي القرابة للميت والمراد المتوارثون منهم دون المحجوبين عن الإرث وهم الأبوان والزوجان والابن والبنت **﴿وللنساء﴾** أي لجماعة الإناث **﴿نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر﴾** مما الأخيرة بإعادة الجار بدل وإليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد في الجملة الأولى أيضاً محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جل ودق. **﴿نصيباً مفروضاً﴾** نصب على الاختصاص أي أعني نصيباً مقطوعاً مفروضاً واجباً لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة التركة والميراث. **﴿أولو القربى﴾** للميت ممن لا يرث منه **﴿واليتامى والمساكين﴾** من الأجانب **﴿فارزقوهم منه﴾** أي: أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة أو مما ترك الوالدان والأقربون وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطييباً لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقاً عليهم وكان المؤمنون يفعلون ذلك إذا

اجتمعت الورثة وحضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بشيء من ورثة المتاع فحثهم الله على ذلك تأديباً من غير أن يكون فريضة فلو كان فريضة لضرب له حد ومقدار كما لغيره من الحقوق ﴿**وقولوا لهم قولاً معروفاً**﴾ وهو أن يدعوا لهم ويقولوا خذوا بارك الله عليكم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه شرعاً أو عقلاً من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه شرعاً أو عقلاً فهو منكر وفي الحديث «كل معروف صدقة» وفي المثل أصنع المعروف والقه في الماء فإن لم يعرفه السمك يعرفه من سمك السماء:

تونيكى كن بآب اندازاى شاه اكر ما هي نداند داند الله

ـ حكي ـ أن حية أتت رجلاً صالحاً فقالت: أجرني من عدوي أجارك الله ففتح لها رداءه فقالت: يراني فيه فإن أردت المعروف فافتح فاك حتى أدخل فيه فقال: أخشى أن تهلكيني قالت: لا والله والله وسكان سمواته وأرضه شاهدة على ذلك ففتح فاه فدخلت ثم عارضه رجل في ذلك فأنكر فلما اندفع خوفها قالت: يا أحمق اختر لنفسك كبدك أو فؤادك فقال: أين العهد واليمين قالت: ما رأيت أحمق منك إذ نسيت العداوة التي بيني وبين أبيك آدم وما الذي حملك على اصطناع المعروف مع غير أهله فقال: مهليني حتى آتي تحت هذا الجبل ثم توجه إلى الله فظهر رجل حسن الوجه طيب الرائحة وأعطاه ورقة خضراء وأمره بالمضغ ففعل فلم يلبث إلا خرج قطع الحية من الأسفل فخلصه الله تعالى من شرها ثم سأل من أنت؟ فقال: أنا المعروف وموضعي في السماء الرابعة وأنت لما دعوت الله ضجت الملائكة في السموات السبع إلى الله فانطلقت إلى الجنة وأخذت من شجرة طوبى ورقة بأمر الله فاصنع المعروف فإنه لا يضيع عند الله وإن ضيعه المصطنع إليه.

نكو كارى ازمردم نيك رأى يكى را بده مى نويسد خداى

ومما يكتب من الصدقة الكلمة الطيبة والشفاعة الحسنة والمعونة في الحاجة وعيادة المريض وتشييع الجنازة وتطييب قلب مسلم وغير ذلك.

واعلم أن الرجال في الحقيقة أقوياء الطلبة والسلاك فلهم نصيب بقدر صدقهم في الطلب ورجوليتهم في الاجتهاد مما ترك المشايخ والإخوان في الله والأعوان على الطلب وتركتهم بركنهم وسيرتهم في الدين وأنوار هممهم العلية ومواهب ولايتهم السنية والنساء ضعفاء القوم فلهم أيضاً نصيب مفروض أي قدر معلوم على وفق صدق التجائهم إليه وجدهم في الطلب وحسن استعدادهم لقبول فيض الولاية وهذا حال المجتهدين الذين هم ورثة المشايخ كما أنهم ورثة الأنبياء فأما المنتمون إلى ولايتهم بالإرادة وحسن الظن والمقتبسون من أنوارهم والمقتفون على آثارهم والمشبهون بزيهم والمتبركون بهم على تفاوت درجاتهم فهم بمثابة أولي القربى واليتامى والمساكين إذا حضروا القسمة عند محافل صحبتهم ومجامع سماعهم ومجالس ذكرهم فإنها مقاسم خيراتهم وبركاتهم فارزقوهم منه أي من مواهب ولايتهم وآثار هدايتهم وإعطاف عنايتهم وإلطاف رعايتهم وقولوا لهم قولاً معروفاً في التشويق وإرشاد الطريق والحث على الطلب والتوجه إلى الحق والإعراض عن الدنيا وتقرير هوانها على الله وخسارة أهلها وعزة أهل الله في الدارين وكمال سعادتهم في المنزلين فإذا وقفت على هذا فاجتهد حتى لا تحرم من ميراثه الحقيقة ونصيب المعرفة ونعم ما قيل:

ميراث پدر خواهى تو علم پدر آموز كين مال پدر خرج توآن كردبده روز

رزقنا الله وإياكم ثمرات الأحوال وبلغنا إلى تصفية الباطن وإصلاح البال. **﴿وليخش الذين﴾** صفتهم وحالهم أنهم **﴿لو تركوا﴾** أي: لو شارفوا أن يتركوا **﴿من خلفهم﴾** أي: بعد موتهم **﴿ذرية ضعافاً﴾** أولاداً عجزة لا غنى لهم وذلك عند احتضارهم **﴿خافوا عليهم﴾** أي: الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم والفقر والتكفف والمراد بالذين هم الأوصياء أمروا أن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى وليشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وشفقتهم عليهم وأن يقدروا ذلك في أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة **﴿فليتقوا الله﴾** في ذراري غيرهم **﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾** أي: وليقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب والترهيب ويدعوهم بيا بني ويا ولدي ولا يؤذوهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ ظالمين أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته وإنما قيد به لأنه إذا أكل منه بالمعروف عند الحاجة أو بما قدر له به القاضي بقدر عمله فيه لم يعاقب عليه **﴿إنما يأكلون في بطونهم﴾** أي: ملىء بطونهم يقال: أكل في بطنه إذا ملأه وأسرف وفي معاه إذا اقتصد فيه **﴿ناراً﴾** أي: ما يجر إلى النار ويؤدي إليه فكأنه نار في الحقيقة **﴿وسيصلون﴾** أي: سيدخلون يوم البعث **﴿سعيراً﴾** أي: ناراً مسعرة أو هائلة مبهمة الوصف.

ـ روي ـ أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وانفه وأذنيه وعينيه ويعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا.

ـ وروي ـ أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٢٢٠] الآية وفي الحديث قال النبي عليه السلام: «رأيت ليلة أسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل إحداهما قالصة على منخريه والأخرى على بطنه وخزنة جهنم يلقمونه جمر جهنم وصخرها فقلت: يا جبريل من هؤلاء قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً».

كسى كز صرصر ظلمش دمادم ... چراغ عيش مظلومان بميرد
نمى ترسد ازين كايزد تعالى ... اكرچه دير كيرد سخت كيرد

وقد أمر الله تعالى أن لا يؤذى اليتيم ويقال له القول السديد فكيف يكون حال من آذاه وغيره من المؤمنين وأكل أموالهم بالغصب والظلم.

ـ روي ـ أن لجهنم جبابا يعني مواضع كساحل البحر فيها حيات كالبخاتي وعقارب كالبغال الدلم فإذا استغاث أهل جهنم أن يخفف عنهم قيل لهم اخرجوا إلى الساحل فيخرجون فتأخذ الحياة شفاههم ووجوههم ما شاء الله فيكشطن فيستغيثون فراراً منها إلى النار فيسلط عليهم الجرب فيحك أحدهم جلده حتى يبدو العظم فيقال يا فلان هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم فيقال: ذلك بما كنت تؤذي المؤمنين. فعلى المرء أن يجتنب عن الإيذاء وإيصال الألم إلى الخلق فإن الدعاء السوء من المظلومين يقبل البتة في حق الظالم والمؤذي.

خرابى كند مرد شمشيرزن ... نچندانكه دود دل طفل وزن
رياست بدست كسانى خطاست ... كه ازدست شان دستها برخداست

مــكــافــات مــؤذى بــمــالــش مــكــن كــه بــيــخــش بــر آورد بــايــد زبــن
ســر كــرك بــايــد هــم أول بــريــد نــه چــون كــوسـفــنــدان مــردم دريــد

قال رسول الله ﷺ: «تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم الجنة إذا حدثتم فلا تكذبوا وإذا وعدتم فلا تخلفوا وإذا ائتمنتم فلا تخونوا وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم عن الحرام وادخلوا الجنة».

- وروي - عن ابن المبارك أنه قال: ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف فلس يتصدق بها عنه. وعنه أنه كان بالشام يكتب الحديث فانكسر قلمه فاستعار قلماً فلما فرغ من الكتابة نسي فجعل القلم في مقلمته فلما رجع إلى مرو رأى القلم وعرفه فتجهز للخروج إلى الشام قال رسول الله ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار فما ينفعكم إلا بالورع». قال إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - الزهد ثلاثة أصناف: زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فزهد الفرض هو الزهد في الحرام، وزهد الفضل هو الزهد في الحلال، وزهد السلامة هو الزهد في الشبهات. وكان حسان بن أبي سنان لا ينام مضطجعاً ولا يأكل سميناً ولا يشرب بارداً ستين سنة فرؤي في المنام بعد ما مات فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيراً غير أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها. ومر عيسى عليه السلام بمقبرة فنادى رجلاً منهم فأحياه الله تعالى فقال: من أنت؟ فقال: كنت حمالاً أنقل للناس فنقلت يوماً لإنسان حطباً فكسرت منه خلالاً تخللت به فأنا مطالب به منذ مت.

خــوف داري اكــر زقــهــر خــدا نــروى راه حــرام دنــيــا

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

﴿يوصيكم الله﴾ أي: يأمركم ويعهد إليكم **﴿في أولادكم﴾** أولاد كل واحد منكم أي: في شأن ميراثهم وهو إجمال تفصيله **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** والمعنى منهم فحذف للعلم به أي: يعد كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبه **﴿فإن كن﴾** أي: الأولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى: **﴿نساء﴾** أي: خلصا ليس معهن ذكر **﴿فوق اثنتين﴾** خبر ثان **﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾** أي المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام وحكم البنتين كحكم ما فوقهما **﴿وإن كانت﴾** أي: المولودة **﴿واحدة﴾** أي: امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت **﴿فلها النصف﴾** مما ترك **﴿ولأبويه﴾** أي: لأبوي الميت **﴿لكل واحد منهما السدس﴾** كائناً ذلك السدس **﴿مما ترك﴾** المتوفى **﴿إن كان له﴾** أي: للميت **﴿ولد﴾** أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى واحداً أو متعدداً غير أن الأب في صورة الأنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور يأخذ ما بقي من ذوي الفروض بالعصوبة **﴿فإن لم يكن له ولد﴾** ولا ولد ابن **﴿وورثه أبواه﴾** فحسب **﴿فلأمه الثلث﴾** مما ترك والباقي للأب هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما أحد الزوجين فلأمه ثلث ما بقي من فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -

فإنه يفضي إلى تفضيل الأم على الأب مع كونه أقوى منها في الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع **﴿فإن كان له إخوة﴾** أي: عدد من الإخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الأبوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو محجوبين بالأب **﴿فلأمه السدس﴾** وأما السدس الذي حجبوها عنه فهو للأب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه الجمهور **﴿من بعد وصية﴾** متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي: هذه الأنصباء للورثة من بعدما كان من وصية **﴿يوصي بها﴾** الميت وفائدة الوصف الترغيب في الوصية والندب إليها **﴿أو دين﴾** عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة أو الإقرار في الصحة وإنما قال بأو التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين وقدم الوصية على الدين وهي متأخرة في الحكم لأنها مشبهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور **﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾** الخطاب للورثة أي: أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لا تدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصي ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته؟ أم من لا يوصي بشيء فيوفر عليكم عرض الدنيا؟ يعني الأول أنفع إن كنتم تحكمون نظراً إلى ظاهر الحال بأنفعية الثاني وذلك لأن ثواب الآخرة لتحقق وصوله إلى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه أبعد وأقصى. **﴿فريضة من الله﴾** أي: فرض الله ذلك الميراث فرضاً **﴿إن الله كان عليماً﴾** بالخلق ومصالحهم **﴿حكيماً﴾** في كل ما قضى وقدر ودبر.

واعلم أن في هذه الآية تنبيهاً على أن العبد ينبغي أن يجانب الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط برأيه وعمله بل يستمسك بالعروة الوثقى التي هي العدالة في الأمور كلها وهو الميزان السوي فيما بين الضعيف والقوي وذلك لا يوجد إلا بمراعاة أمر الله تعالى والمحافظة على الأحكام المقضية الصادرة من العليم بعواقب الأمور الحكيم الذي يضع كل شيء في مرتبته فعليكم بالعدل الذي هو أقرب للتقوى والتجانب عن الجور بين العباد في جميع الأمور خصوصاً فيما بين الأقارب فإن لهم مزيد فضل على الأجانب ولمكانة صلة الرحم عند الله قرن الأرحام باسمه الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ [النساء: ١] فحافظوا على مراعاة حقوق أصولكم وفروعكم وآتوا كل ذي حق حقه فمن حقوق الوالدين على الولد ترك التأفيف والبر والتكلم بقول لطيف. وفي الخبر يسأل الولد عن الصلاة ثم عن حق الوالدين وتسأل المرأة عن الصلاة ثم عن حق زوجها ويسأل العبد عن الصلاة ثم عن حق المولى ثم إن الحق للوالدة أعظم من الوالد لكونها أكثر زحمة ورحمة.

ـ روي ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي هرمت عندي فأطعمها بيدي وأسقيها بيدي وأوضيها وأحملها على عاتقي فهل جازيت حقها؟ قال: «لا ولا واحداً من مائة» قال: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنها خدمتك في وقت ضعفك مريدة حياتك وأنت تخدمها مريداً مماتها ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيراً» وجاء رجل إلى النبي عليه السلام ليستشيره في الغزو فقال: «ألك والدة» قال: نعم قال عليه السلام: «فالزمها فإن الجنة تحت رجليها» ذكره في الإحياء قيل فيه ونعم ما قيل:

جنت كه سراى ما درانست زير قد مات ما درانست
روزي بكن أي: خداى مارا چيزى كه رضاي ما درانست

ويطيع الوالدين فيما أبيح في دين الإسلام وإن كانا مشركين ويهجرهما إن أمراه بشرك أو معصية قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

چون نبود خويش را ديانت وتقوى قطع رحم بهترازمودت قربى

قال بعضهم: كل ما لا يؤمن من الهلاك مع الجهل فطلب علمه فرض عين سواء كان من الأمور الاعتقادية كمعرفة الصانع وصفاته وصدق النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله أو من الأعمال الحسنة المتعلقة بالظاهر كالصلاة والصوم وغيرهما أو بالباطن كحسن النية والإخلاص والتوكل وغيرها أو من السيئة المتعلقة بالظاهر كشرب الخمر وأكل الربا والنظر إلى أجنبية بشهوة أو بالباطن كالكبر والعجب والحسد وسائر الأخلاق الرديئة للنفس فإن معرفة هذه الأمور فرض عين يجب على المكلف طلبها وإن لم يأذن له أبواه وأما ما سواها من العلوم فقيل: لا يجوز له الخروج لطلبه إلا بإذنهما. وفي «فتاوى قاضي خان»: رجل طلب العلم وخرج بغير إذن والديه فلا بأس به ولم يكن عقوقاً قيل هذا إذا كان ملتحياً فإذا كان أمرد صبيح الوجه فلأبويه أن يمنعاه. وأما حق الولد على الوالد فكالتسمية باسم حسن كأسماء الأنبياء والمضاف إلى اسمه تعالى لأن الإنسان يدعى في الآخرة باسمه واسم أبيه قال عليه السلام: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم» ولذا قيل: يستحب تغيير الأسماء القبيحة المكروهة فإن النبي ﷺ سمى المسمى بالعاصي مطيعاً. وجاء رجل اسمه المضطجع فسماه المنبعث. ومن حقه عليه الختان وهو سنة. واختلفوا في وقته قيل: لا يختتن حتى يبلغ لأنه للطهارة ولا طهارة عليه حتى يبلغ وقيل إذا بلغ عشراً وقيل تسعاً والأولى تأخير الختان إلى أن يثغر الولد ويظهر سنه لما فيه من مخالفة اليهود لأنهم يختتنون في اليوم السابع من الولادة. ومن حقه أن يرزقه بالحلال الطيب وأن يعلمه علم الدين ويربيه بآداب السلف الصالحين، قال الشيخ سعدي قدس سره في حق الأولاد:

بخردى درش زجر وتعليم كن به نيك وبدش وعده وبيم كن
بياموز پرورده رادست رنج وكردست دارى چوقارون كنج
بپايان رسد كيسه سيم وزر نكردد تهى كيسه پيشه ور

ـ وروى ـ أنس رضي الله عنه عن النبي عليه السلام قال: «يعق عنه في اليوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب وإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه وإذا بلغ عشر سنين ضرب على الصلاة وإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة». والحاصل أنه ينبغي أن لا يعتمد الإنسان على رأي نفسه بل يكل أمره إلى الله فإنه أعلم وأرحم.

والإشارة في الآيات أن المشايخ للمريدين بمثابة الآباء للأولاد فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته على ما قاله عليه السلام وقال ﷺ: «أنا لكم كالوالد لولده» ففي قوله: ﴿يوصيكم الله﴾ الآية إشارة إلى وصايات المشايخ والمريدين ووراثتهم في قرابة الدين لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١٠] فكما أن الوراثة الدنيوية بوجهين بالسبب والنسب فكذلك الوراثة الدينية بهما. أما السبب فهو الإرادة ولبس خرقتهم والتبرك بزيهم والتشبه بهم. وأما النسب فهو

الصحبة معهم بالتسليم لتصرفات ولايتهم ظاهراً وباطناً بصدق النية وصفاء الطوية مستسلماً لأحكام التسليك والتربية ليتوالد السالك بالنشأة الثانية فإن الولادة تنقسم على النشأة الأولى وهي ولادة جسمانية بأن يتولد المرء من رحم الأم إلى عالم الشهادة وهو الملك والنشأة الثانية وهي ولادة روحانية بأن يتولد السالك من رحم القلب إلى عالم الغيب وهو الملكوت كما حكي النبي عليه السلام عن عيسى عليه السلام أنه قال: [لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين] فالشيخ هو الأب الروحاني والمريدون المتولدون من صلب ولايته هم الأولاد الروحانيون وهم فيما بينهم أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال عليه السلام: «الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» ولهذا قال عليه السلام: «كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي» لأن نسبه كان بالدين كما سئل من النبي ﷺ من آلك يا رسول الله؟ قال: «آلي كل مؤمن تقي» وإنما يتوارث أهل الدين على قدر تعلقاتهم السببية والنسبية والذكورة والأنوثة والاجتهاد وحسن الاستعداد وإنما مواريثهم العلوم الدينية واللدنية كما قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»، قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره:

چون كزيدى پير نازك دل مباش   سست وريزيده چو آب وكل مباش
چون كرفتى پيرهين تسليم شو   همچو موسى زير حكم خضررو
كرتوسنك وصخره ومرمر شوى   چون بصاحب دل رسى كوهر شوى
نار خندان باغ را خندان كند   صحبت مردانت از مردان كند

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ من المال إذا متن وبقيتم بعدهن **﴿إن لم يكن لهن ولد﴾** أي: ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل ذكراً كان أو أنثى واحداً كان أو متعدداً منكم أو من غيركم والباقي لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات أو غيرهم أو لبيت المال إن لم يكن لهن وارث آخر أصلاً **﴿فإن كان لهن ولد﴾** على نحو ما فصل **﴿فلكم الربع مما تركن﴾** أي: تركت أزواجكم من المال والباقي لباقي الورثة **﴿من بعد وصية﴾** متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده **﴿يوصين بها أو﴾** من بعد قضاء **﴿دين﴾** سواء كان ثبوته بالبينة أو بالإقرار **﴿ولهن الربع مما تركتم﴾** إن متم وبقين بعدكم **﴿إن لم يكن لكم ولد﴾** ذكر أو أنثى منهن أو من غيرهن أو ولد ابن والباقي لبقية وراثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوي الأرحام أو لبيت المال إن لم يكن لكم وارث آخر أصلاً **﴿فإن كان لكم ولد﴾** على التفصيل المذكور **﴿فلهن الثمن مما تركتم﴾** من المال والباقي للباقين **﴿من بعد**

وصية توصون بها أو دين﴾ أي: بعد إخراج الوصية وقضاء الدين هذا كله إذا لم يمنع مانع من الموانع الأربعة كقتل واختلاف دين ورق واختلاف دار **﴿وإن كان رجل﴾** أي: ذكر ميت **﴿يورث﴾** أي: يورث منه من ورث لا من أورث صفة رجل **﴿كلالة﴾** خبر كان أي: من لا ولد له ولا والد وهي في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو الإعياء في التكلم ونقصان القوة فيه فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لضعفها بالنسبة إلى القرابة من جهتهما **﴿أو امرأة﴾** عطف على رجل مقيد بما قيد به أي: إن كان الميت أنثى يورث منها كلالة **﴿وله﴾** أي: وللميت الموروث منه سواء كان رجلاً أو امرأة **﴿أخ أو أخت﴾** كلاهما من الأم بالإجماع لأن حكم غيرهما سيبين في آخر السورة **﴿فلكل واحد منهما﴾** أي: أي من الأخ والأخت من الأم **﴿السدس﴾** من غير تفضيل للذكر على الأنثى لأن الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة **﴿فإن كانوا﴾** أي: أولاد الأم **﴿أكثر﴾** في الوجود **﴿من ذلك﴾** أي: من الأخ أو الأخت المنفردين بواحد أو أكثر **﴿فهم شركاء في الثلث﴾** يقتسمونه بالسوية لا يزيد نصيب ذكرهم على أنثاهم والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات **﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾** قوله: غير مضار نصب حالاً من فاعل يوصى المقدر المدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول أي: يوصي الميت بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مدخل الضرر على الورثة بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم وبأن يقر في المرض بدين كاذباً **﴿وصية من الله﴾** أي: يوصيكم الله وصية بها لا يجوز تغيرها قال عليه السلام: «من قطع ميراثاً فرضه الله قطع الله ميراثه من الجنة» **﴿والله عليم﴾** بالمضار وغيره **﴿حليم﴾** لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالإمهال.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿تلك﴾ أي: الأحكام التي تقدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث **﴿حدود الله﴾** شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فصل هٰهنا **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** صيغة الجمع أي: خالدين بالنظر إلى جمعية من بحسب المعنى **﴿وذلك﴾** أي: هذا الثواب **﴿الفوز العظيم﴾** أي: النجاة الوافرة يوم القيامة والظفر الذي لا ظفر وراءه **﴿ومن يعص الله ورسوله﴾** ولو في بعض الأوامر والنواهي **﴿ويتعد حدوده﴾** شرائعه المحدودة في جميع الأحكام **﴿يدخله ناراً﴾** أي: عظيمة هائلة لا يقادر قدرها **﴿خالداً فيها وله عذاب مهين﴾** أي: وله غير عذاب الحريق الجسماني عذاب آخر لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه والجملة حالية وأفرد خالداً في أهل النار وجمع في أهل الجنة لأن في الانفراد وحشة وعذاباً للنفس وذلك أنسب بحال أهل النار.

اعلم أن الإطاعة سبب لنيل المطالب الدنيوية والأخروية ويرشدك على شرف الإطاعة أن كلب أصحاب الكهف لما تبعهم في طاعة الله وعد له دخول الجنة.

بابدان يار كشت همسر لوط خاندان نبوتش كم شد

سك أصحاب كهف روزى چند   پى مردم كرفت ومردم شد

فإذا كان من اتبع المطيعين كذلك فما ظنك بالمطيعين؟ قال حاتم الأصم قدس سره: ألزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة. ومن كلامه: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب، من ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، ومن ادعى محبة الله من غير ورع عن محارم الله فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي عليه السلام من غير محبة الفقراء فهو كذاب وكلما ازداد العبد في عبادة الله وطاعته ازداد قرباً منه وبعداً من كيد الشيطان. قال السري: سألت معروف الكرخي عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعة: قال بخروج الدنيا من قلوبهم ولو كانت في قلوبهم ما صحت لهم سجدة، قال جلال الدين الرومي قدس سره:

بند بكسل باش آزاد اى   چند باشى بند سيم وبند زر

هركه از ديدار برخوردار شد   اين جهان درچشم أو مردارشد

ذكر حق كن بانك غولانرا بسوز   چشم نركس را ازين كركس بدوز

ومن أكرمه الله بمعرفة عظمته اضطر إلى كمال طاعته.

ـ حكي ـ أن شاباً من بني إسرائيل رفض دنياه واعتزل الناس وجعل يتعبد في بعض النواحي فخرج إليه رجلان من مشايخ قومه ليرداه إلى منزله فقالا له: يا من أخذت بأمر شديد لا صبر عليه فقال لهما الشاب: قيامي بين يدي الله أشد من هذا فقالا: إن كل أقربائك مشتاق إليك فعبادتك فيهم أفضل فقال الشاب: إن الله تعالى إذا رضي عني يرضى كل قريب وبعيد فقالا له: أنت شاب لا تعلم وإنا جربنا هذا الأمر وإنا نخاف العجب فقال لهما الشاب: من عرف نفسه لم يضره العجب فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال له: قم فإن هذا الشاب وجد ريح الجنة ولا يقبل قولنا. وعن وهب بن منبه كان داود عليه السلام جعل نوبة عليه وعلى أهله وأولاده ولا تمر ساعة من الليل إلا وهو يصلي ويذكر ففي سره تحرك قلبه بالنظر إلى طاعته وكان بين يديه نهر فأنطق الله ضفدعاً فقال: والذي أكرمك بالنبوة إنه منذ خلقني الله تعالى وأنا قائم على رجل ما استرحت مع أني لا أرجو الثواب ولا أخاف العقاب فما عجبك فيه يا داود؟ فعلم أن المحسن هو الذي يعلم أنه مسيء ولا يعجب بطاعته فلا بد للمؤمن من العمل الصالح ومن الصون عما يبطله من رؤيته وسائر الأمراض الفاسدة ولذلك كان الكبار يختارون الوحدة. قال الإمام جعفر الصادق وكذا سفيان الثوري: هذا زمان السكوت وملازمة البيوت فقيل لسفيان: إذا لازمنا بيوتنا فمن أين يحصل لنا الرزق؟ قال: اتقوا الله فإن الله يرزق المتقين من غير كسب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣]، قال جلال الدين الرومي:

بردل خودكم نه انديشه معاش   عيش كم نايد توبر دركاه باش

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝١٦﴾

﴿**واللاتي**﴾ جمع التي ﴿**يأتين الفاحشة**﴾ الإتيان الفعل والمباشرة والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنى لزيادة قبحه على كثير من القبائح أي: اللاتي يفعلن الزنى كائنات ﴿**من نسائكم**﴾

أي: من زوجاتكم **﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾** أي: فاطلبوا أن يشهد عليهن بإتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم **﴿فإن شهدوا﴾** عليهن بذلك **﴿فأمسكوهن في البيوت﴾** فاحبسوهن فيها واجعلوها سجناً عليهن **﴿حتى يتوفاهن الموت﴾** أي يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن. وفيه تهويل للموت وإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح أو يتوفاهن ملائكة الموت **﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾** أي: طريقاً يخرجن به من الحبس بأن تنكح فإنه مغن عن السفاح أي: الزنى **﴿واللذان﴾** تثنية الذي **﴿يأتيانها﴾** أي: الفاحشة **﴿منكم﴾** هما الزاني والزانية بطريق التغليب. قال السدي: أريد بهما البكران منهما كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد وبذلك يندفع التكرار **﴿فآذوهما﴾** فوبخوهما وذموهما وقولوا لهما أما استحييتما أما خفتما الله وذلك بعد الثبوت **﴿فإن تابا﴾** عما فعلا من الفاحشة بسبب ما لقيا من زواجر الأذية وقوارع التوبيخ **﴿وأصلحا﴾** أي: لعملهما وغير الحال **﴿فأعرضوا عنهما﴾** بقطع الأذية والتوبيخ فإن التوبة والإصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب **﴿إن الله كان تواباً﴾** مبالغاً في قبول التوبة **﴿رحيماً﴾** واسع الرحمة.

واعلم أن الرجل إذا زنى بامرأة وهما محصنان فحدهما الرجم لا غير وإن كانا غير محصنين فحدهما الجلد لا غير وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن فعلى المحصن منهما الرجم وعلى الآخر الجلد والمحصن هو أن يكون عاقلاً بالغاً مسلماً حراً دخل بامرأة بالغة عاقلة حرة مسلمة بنكاح صحيح فالرجم كان مشروعاً في التوراة ثم نسخ بآية الإيذاء من القرآن ثم صار الإيذاء منسوخاً بآية الحبس وآية الإيذاء وإن كانت متأخرة في الترتيب والنظم إلا أنها سابقة على الأولى نزولاً ثم صار الحبس منسوخاً بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة» ثم نسخ هذا كله بآية الجلد ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وصار الحد هو الجلد في كل زان وزانية ثم صار هذا منسوخاً بالرجم في حق المحصن بحديث ماعز رضي الله عنه وبقي غير المحصن في حكم الجلد وهو الترتيب في الآيات والأحاديث وعليه استقر الحكم عندنا كذا في تفسير «التيسير». فالواجب على كل مسلم أن يتوب من الزنى وينهى الناس عن ذلك فإن كل موضع ظهر فيه الزنى ابتلاهم الله بالطاعون ويزيد فقرهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه سألت رسول الله ﷺ أي: ذنب أعظم عند الله قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» وأشد الزنى ما هو مصر عليه وهو الرجل الذي يطلق امرأته وهو يقيم معها بالحرام ولا يقر عند الناس مخافة أن يفتضح فكيف لا يخاف فضيحة الآخرة يوم تبلى السرائر يعني تظهر الأسرار فاحذر فضيحة ذلك اليوم واجتنب الزنى ولا تصر عليه فإنه لا طاقة لك مع عذاب الله وتب إلى الله فإن الله كان يقبل التوبة عن عباده إن الله كان تواباً رحيماً، قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره:

مركب توبه عجائب مركبست ... بر فلك تازد بيك لحظه زپست
چون برآرند از پشيمانى انين ... عرش لرزد ازانين المذنبين
عمرا كربكذشت بيخش اين دم است ... آب توبه اش ده اكر اوبى نمست
بيخ عمرت رابده آب حيات ... تادرخت عمر كردد باثبات
جمله ماضيها ازين نيكو شوند ... زهر پارينه ازين كرد دچوقند

والإشارة في تحقيق الآيتين أن ﴿**والLاتي يأتين الفاحشة من نسائكم**﴾ هي النفوس الأمارة بالسوء والفاحشة ما حرمته الشريعة من أعمال الظاهر وحرمته الطريقة من أحوال الباطن وهي الركون إلى غير الله قال عليه السلام: «سعد غيور وأنا أغير منه والله أغير منا» ولهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴿**فاستشهدوا عليهن**﴾ على النفوس بإتيان الفاحشة ﴿**أربعة منكم**﴾ أي: من خواص العناصر الأربعة التي أنتم منها مركبون وهي التراب ومن خواصه الخسة والركاكة والذل والطمع والمهانة واللؤم. والماء ومن خواصه اللين والعجز والكسل والأنوثة والشره في المأكل وفي المشرب. والهواء ومن خواصه الحرص والحسد والبخل والحقد والعداوة والشهوة والزينة. والنار ومن خواصها التبختر والتكبر والفخر والصلف والحدة وسوء الخلق وغير ذلك مما يتعلق بالأخلاق الذميمة ورأسها حب الدنيا والرياسة واستيفاء لذاتها وشهواتها ﴿**فإن شهدوا**﴾ أي: ظهر بعض هذه الصفات من النفوس ﴿**فأمسكوهن في البيوت**﴾ فاحبسوهن في سجن المنع عن التمتعات الدنيوية فإن الدنيا سجن المؤمن وأغلقوا عليهن أبواب الحواس الخمس ﴿**حتى يتوفاهن الموت**﴾ أي: تموت النفس إذا انقطع عنها حظوظها دون حقوقها وإلى هذا أشار بقوله عليه السلام: «موتوا قبل أن تموتوا» ﴿**أو يجعل الله لهن سبيلاً**﴾ بانفتاح روزنة القلوب إلى عالم الغيوب فتهب منها ألطاف الحق وجذبات الألوهية التي جذبة منها توازي عمل الثقلين ﴿**واللذان يأتيانها منكم**﴾ أي: النفس والقالب يأتيان الفواحش في ظاهر الأفعال والأعمال وباطن الأحوال والأخلاق ﴿**فآذوهما**﴾ ظاهراً بالحدود وباطناً بترك الحظوظ وكثرة الرياضات والمجاهدات ﴿**فإن تابا**﴾ ظاهراً وباطناً ﴿**وأصلحا**﴾ لذلك ﴿**فأعرضوا عنهما**﴾ باللطف بعد العنف وباليسر بعد العسر فإن مع العسر يسراً. ﴿**إن الله كان توابا**﴾ لمن تاب ﴿**رحيما**﴾ لمن أصلح من «تفسير نجم الدين الرازي الكبرى».

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿**إنما التوبة على الله**﴾ أي: أن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب عليه إذا قبل توبته. ﴿**للذين يعملون السوء**﴾ أي: المعصية صغيرة كانت أو كبيرة. فقوله: إنما التوبة على الله مبتدأ وخبره ما بعده ﴿**بجهالة**﴾ أي: يعملون ملتبسين بها أي: جاهلين سفهاء فإن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل ولذلك قيل: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع من جهالته. وفي «التيسير» ليست هذه جهالة عدم العلم لأنه ذنب لأن ذلك عذر لكنها التغافل والتجاهل وترك التفكر في العاقبة كفعل من يجهله ولا يعلمه ﴿**ثم يتوبون من قريب**﴾ أي: من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت أي: قبل أن يغرغروا وسماه قريباً لأن أمد الحياة الدنيا قريب قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فعمر الدنيا قليل قريب الانقضاء فما ظنك بعمر فرد ومن تبعيضية أي: يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زماناً قريباً ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب ﴿**فأولئك يتوب الله عليهم**﴾ أي: : يقبل توبتهم ﴿**وكان الله عليما**﴾ بخلقه يعلم إخلاصهم في التوبة ﴿**حكيماً**﴾ في صنعه والحكيم لا يعاقب التائب. فعلى المؤمن أن يتدارك الزلة بالتوبة والاستغفار ويسارع في الرجوع إلى الملك الغفار.

ـ روي ـ أن جبريل عليه السلام أتاه عند موته فقال: يا محمد الرب يقرئك السلام ويقول: من تاب قبل موته بجمعة قبلت توبته قال ﷺ: «الجمعة كثيرة» فذهب ثم رجع وقال: قال الله تعالى: من تاب قبل موته بساعة قبلت توبته فقال: «الساعة كثيرة» فذهب ثم رجع وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول: إن كان هذا كثيراً فلو بلغ روحه الخلق ولم يمكنه الاعتذار بلسانه واستحيى مني وندم بقلبه غفرت له ولا أبالي قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» أي: لم يبلغ روحه الحلقوم وعند ذلك يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان ولا ينفع حينئذٍ توبة ولا إيمان قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [فاطر: ٨٥] فالتوبة مبسوطة للعبد يعاين قابض الأرواح وذلك عند غرغرته بالروح وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين فشخص من الصدر إلى الحلقوم فعندها المعاينة وعندها حضور الموت فيجب على الإنسان أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ وإنما صحت منه التوبة في هذا الوقت لأن الرجاء باق ويصح الندم والعزم على ترك الفعل، قال السعدي قدس سره:

طريق بدست آر وصلحى بجوى شفيعى برانكيز وعذرى بكوى
كه يك لحظه صورت نبندد آمان چو پيمانه پرشد بدور وزمان

والتوبة فرض على المؤمنين ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال. والعزم على أن لا يعود إلى مثلها وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى وخوفاً منه لا من غيره.

قال الحسن البصري: استغفارنا يحتاج إلى استغفار، قال القرطبي في «تذكرته»: هذا يقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكباً على الظلم حريصاً عليه لا يقلع والسبحة في يده زاعماً أنه يستغفر من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف ومن أظلم ممن اتخذ آيات الله هزؤاً فيلزم حقيقة الندم.

ـ روي ـ أن الملائكة تعرج إلى السماء بسيآت العبد فإذا عرضوها على اللوح المحفوظ يجدون مكانها حسنات فيخرون على وجوههم ويقولون: ربنا إنك تعلم أنا ما كتبنا عليه إلا ما عمل فيقول الله تعالى: صدقتم ولكن عبدي ندم على خطيئته واستشفع إليّ بدمعه فغفرت ذنبه وجدت عليه بالكرم وأنا أكرم الأكرمين، قال مولانا جلال الدين قدس سره:

ازپى هر كريه آخر خنده ايست مرد آخر بين مبارك بنده ايست
هركجا آب روان سبزه بود هركجا اشك روان رحمت شود
تانكريد ابركى خندد چمن تانكريد طفل كى جوشد لبن

قال أحمد بن عبد الله المقدسي: سألت إبراهيم بن أدهم عن بدء حاله فقال: نظرت من شباك قصري فرأيت فقيراً بفناء القصر قد أكل الخبز بالماء والملح ثم نام فدعوته وقلت له: قد شبعت وتهيأت للنوم قال: نعم فتبت إلى الله ولبست الليلة مسوحاً وقلنسوة من صوف وخرجت حافياً إلى مكة.

واعلم أن الله إذا أراد بعبد خيراً اصطفاه لنفسه وجعل في قلبه سراجاً يفرق بين الحق الباطل ويبصر عيوب نفسه حتى يترك الدنيا وحطامها ويلقي عليها زمامها، قال جلال الدين رومي قدس سره:

ملك برهم زن تو ادهم وار زود تابيابى همچو أو ملك خلود

اين جهان خود حبس جانهاى شماست هين رويد آن سوكه صحراى شماست

قال العطار قدس سره:

نقاب ازروي چون خورشيد بردار اكر هستي زروي خود خبر دار

زكوه قاف جسماني كذركن بدار الملك روحاني سفركن

مشو مغرور اين ملك مزور نه عزت ماند ونه مال ونه زر

اكر رنكت فروشويند زرخسار خريدارت بنامش كس ببازار

عصمنا الله وإياكم من الركون إلى الدنيا وموت القلب بالإصرار على الهوى في الصبح والمساء.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيآت﴾ أي الذنوب **﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾** أي وقع في سكرات الموت وشاهد ملك الموت سوى علاماته فإن التوبة تقبل فيها **﴿قال﴾** عند النزع ومشاهدة ما فيه **﴿إني تبت الآن﴾** من ذنوبي يعني لا يقبل التوبة منه ثمة لأنها حالة الاضطرار دون حالة الاختيار **﴿ولا الذين يموتون﴾** عطف على الذين يعملون السيآت أي ليست التوبة للذين ماتوا **﴿وهم كفار﴾** مصرون على كفرهم إذا تابوا عند قرب الموت أو عند معاينة العذاب في الآخرة **﴿أولئك﴾** أي الفريقان **﴿أعتدنا﴾** أصله أعددنا أبدلت الدال الأولى تاء **﴿لهم عذاباً أليماً﴾** أي هيأنا لهم عذاباً وجيعاً دائماً.

اعلم أن الله تعالى سوى بين من سوف التوبة وأخرها إلى حضور الموت من الفسقة وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة كأنه قال: توبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء في أنه لا توبة لهم لأن حضرة الموت أول أحوال الآخرة فكما أن الميت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين فكذلك المسوف إلى حضرة الموت لعدم محلها وتلك التسوية لكيلا يهمل المذنب في أمر التوبة ولا يتأهل العاقل في المسارعة إلى طلب المغفرة، قال جلال الدين رومي قدس سره:

كرسيه كردى تونامه عمر خويش توبه كن زانهاكه كردستى تو پيش

توبه آرند وخدا توبه پذير امر او كيرند واو نعم الأمير

وإذا هب من الله رياح العناية تجد العبد يسرع إلى التوبة ويمد نفسه إلى أسبابها ويتأثر بشيء يسير فيتوب عن قبح معاملته. قال أبو سليمان الداراني: اختلفت إلى مجلس قاص فأثر في قلبي كلامه فلما قمت لم يبق في قلبي شيء فعدت ثانياً فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي وكسرت آلة المخالفات ولزمت الطريق فحكي هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيا أراد بالعصفور ذلك القاص وبالكركي أبا سليمان:

مرد بايد كيردا ندر كوش ورنوشته اسد پند بر ديوار

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فمسارعة المذنب بالتوبة وترك الإصرار والرجوع إلى باب الملك الغفار ومسارعة المطيع بالاجتناب عن السيآت وزيادة الخيرات والحسنات قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «صاحب اليمين أمين على

صاحب الشمال فإذا عمل العبد حسنة يكتب له صاحب اليمين عشراً»:

نكو كارى از مردم نيك رأى يكى رابده مى نويسد خداي

«وإذا عمل سيئة وأراد صاحب الشمال أن يكتب قال صاحب اليمين امسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر فيها لم يكتب عليه وإن لم يستغفر كتب سيئة واحدة» فالواجب على كل مسلم أن يتوب إلى الله حين يصبح وحين يمسي ولا يؤخرها. قال أبو بكر الواسطي قدس سره التأني في كل شيء حسن إلا في ثلاث خصال عند وقت الصلاة وعند دفن الميت والتوبة عند المعصية وكان في الأمم الماضية إذا أذنبوا حرم عليهم حلال وإذا أذنب واحد منهم ذنباً وجد على بابه أو على جبهته مكتوباً أن فلان ابن فلان قد أذنب كذا وتوبته كذا فسهل الله الأمر على هذه الأمة فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

ـ روي ـ أن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره أي أمهله إلى قيام الساعة فقال انظر ماذا ترى؟ فقال: وعزتك لا أخرج من صدر عبدك حتى تخرج نفسه فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أحجب التوبة عن عبدي حتى تخرج نفسه فانظر إلى رحمة الله ورأفته على عباده أنه سماهم مؤمنين بعدما أذنبوا فقال: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] وأحبهم بعد التوبة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، قال الحافظ قدس سره:

بمهلتى كه سپهرت دهد زراه مرو تراكه كفت كه اين زال ترك دستان كفت

فينبغي أن لا يغتر الإنسان بشيء من الأشياء في حال من الأحوال فإنه وإن كان يمهل ولكن لا يهمل فإن الموت يجيء البتة إذا فنى العمر وامتلأ الإناء.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها**﴾ مصدر في موضع الحال من النساء كان الرجل إذا مات قريبه يلقي ثوبه على امرأته أو على خبائها ويقول: أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وإن شاء عضلها أي حبسها وضيق عليها لتفتدي بما ورثت من زوجها وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب فهي أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك ﴿**ولا تعضلوهن**﴾ عطف على ترثوا ولا لتأكيد النفي والخطاب للأزواج. والعضل الحبس والتضييق وداء عضال ممتنع عسر العلاج وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدي منه بمالها وتخلع فقيل لهم: ولا تعضلوهن أي لا تضيقوا عليهن ﴿**لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ أي من الصداق بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن ﴿**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ من بين بمعنى تبين أي القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء أي: الفحش والسلاطة أي حدة اللسان أو الفاحشة الزنى وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل ولا يحل لكم

عضلهن في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات أو لعلة من العلل إلا في حال إتيانهن بفاحشة أو إلا في وقت إتيانهن بها أو إلا لإتيانهن بها فإن السبب حينئذٍ يكون من جهتهن وأنتم معذورون في طلب الخلع **﴿وعاشروهن بالمعروف﴾** خطاب للذين يسيئون العشرة معهن. والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة والمراد هٰهنا النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في القول ونحو ذلك **﴿فإن كرهتموهن﴾** وسئمتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن **﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾** والمراد بالخير الكثير هٰهنا الولد الصالح أو المحبة والألفة والصلاح في الدين وهو علة للجزاء أقيمت مقامه للإيذان بقوة استلزامها إياه كأنه قيل: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه. وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أي فقد قربت كراهتك شيئاً وجعل الله فيه خيراً كثيراً فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم.

اعلم أن معاشرتهن بالمعروف والصبر عليهن فيما لا يخالف رضى الله تعالى وإلا فالرد من مواضع الغيرة واجب فإن الغيرة من أخلاق الله وأخلاق الأنبياء والأولياء قال عليه السلام: «أتعجبون من غيرة سعد وأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» أي ما كان من أعمال الظاهر وهو ظاهر وأحوال الباطن وهو الركون إلى غير الله والطريق المنبىء عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال ولا تخرج هي إلى الأسواق دون الحمام قال الإمام قاضي خان: دخول الحمام مشروع للرجال والنساء خلافاً لما قاله البعض.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ دخل الحمام وتنوّر، وخالد بن وليد دخل حمام حمص لكن إنما يباح إذا لم يكن فيه إنسان يكشف العورة انتهى والناس في زماننا لا يمتنعون عن كشف العورة أعاليهم وأسافلهم فالمتقي يجتنب عن الدخول في الحمام من غير عذر والحاصل أن المرأة إذا برئت من مواقع الخلل واتصفت بالعفة فعلى الزوج أن يعاشرها بالمعروف ويصبر على سائر أوضاعها وسوء خلقها بخلاف ما إذا كانت غير ذلك، قال الشيخ السعدي:

چو مستور باشد زن خوبروى	بديدار أو دربهشت است شوى
اكر پارساباشد وخوش سخن	نكه درنكويى وزشتى مكن
چوزن راه پازار كيرد بزن	وكرنه تودرخانه بنشين چوزن
زبيكانكان چشم زن كورباد	چو بيرون شدازخانه در كورباد
شكوهى نماند دران خاندان	كه بانك خروش آيدازما كيان
كريز از كفش دردهان نهنك	كه مردن به اززندكانى به ننك

ثم اعلم أن معاملة النساء أصعب من معاملة الرجال لأنهن أرق ديناً واضعف عقلاً وأضيق خلقاً فحسن معاشرتهن والصبر عليهن مما يحسن الأخلاق فلا جرم يعد الصابر من المجاهدين في سبيل الله وكان عليه السلام يحسن المعاشرة مع أزواجه المطهرة.

ـ روي ـ أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت وعرض عليه التزوج فامتنع وقال: الوحدة أروح لقلبي قال: فرأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن

أبواب السماء قد فتحت وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً وكلما نظر إلي واحد منهم يقول لمن وراءه هذا هو المشؤوم فيقول الآخر: نعم ويقول الثالث: كذلك فخفت أن أسألهم إلى أن مرّ بي آخرهم فقلت له: من هذا المشؤوم؟ قال: أنت قال: فقلت ولم؟ قال: كنا نرفع عملك مع أعمال المجاهدين في سبيل الله فمنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين فلا ندري ما أحدثت؟ فقال لإخوانه: زوجوني فلم يكن يفارقه زوجتان أو ثلاث وكثرة النساء ليست من الدنيا لأن الزهاد والعباد كانوا يتزوجون ثلاثاً وأربعاً قال ﷺ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة»، قال بعض أرباب الأحوال: كنت بمجلس بعض القصاصّ فقال: ما سلم أحد من الهوى ولا فلان وسمى بمن لا يليق ذكره في هذا المقام لعظم الشأن فقلت: اتق الله فقال: ألم يقل: «حبب إلي» فقلت: ويحك إنما قال: حبب ولم يقل أحببت قال: ثم خرجت بالهم فرأيت النبي عليه السلام فقال: لا تهتم فقد قتلناه قال: فخرج ذلك القاص إلى بعض القرى فقتله بعض قطاع الطريق، فقال بعض العلماء: إكثاره عليه السلام في أمر النكاح بفعل بواطن الشريعة، قال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول الأنبياء زيدوا في القوة بفضل نبوتهم وذلك أن النور إذا امتلأت منه الصدور ففاض في العروق التذت النفس والعروق فأثار الشهوة وقواها وأما الطيب فإنه يزكي الفؤاد ويقوي القلب وأصل الطيب إنما خرج من الجنة بهبوط آدم منها بورقة تستر بها فتركت عليه. وأما الصلاة فهي مناجاة الله كما قال عليه السلام: «المصلي يناجي ربه» فإذا عرفت حقيقة الحال فإياك والإنكار فإن كل عمل عند الأخيار له سر من الأسرار ولكن عقول العوام لا تحيط به وإن عاشوا ألف عام، قال مولانا جلال الدين قدس سره:

ازمحقق تامقلد فرقها ست ... كين چوداودست وآن ديكر صداست

كار درويشي وراى فهم تست ... سوى درويشان بمنكر سست سست

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وإن أردتم استبدال زوج﴾ أي: تزوج امرأة ترغبون فيها **﴿مكان زوج﴾** ترغبون عنها بأن تطلقوها **﴿وآتيتم إحداهن﴾** أي: إحدى الزوجات فالمراد بالزوج هو الجنس **﴿قنطاراً﴾** أي: مالاً كثيراً **﴿فلا تأخذوا منه﴾** أي ذلك القنطار **﴿شيئاً﴾** يسيراً فضلاً عن الكثير **﴿أتأخذونه﴾** أي: شيئاً منه **﴿بهتاناً﴾** باهتين أو مفعول له أي للبهتان والظلم العظيم فإن أحدهم كان إذا تزوج امرأة فأعجبه غيرها وأراد أن يتزوجها بهت التي تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزويج الجديدة فنهوا عن ذلك. والبهتان في اللغة الكذب الذي يواجه الإنسان به صاحبه على جهة المكابرة وأصله من بهت الرجل إذا تحير فالبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل في الفعل الباطن ولذلك فسر هٰهنا بالظلم **﴿وإثما مبيناً﴾** أي: آثمين عياناً أو للذنب الظاهر. **﴿وكيف تأخذونه﴾** أي: لأي وجه ومعنى تفعلون هذا **﴿وقد﴾** والحال أنه قد **﴿أفضى بعضكم إلى بعض﴾** قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك **﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾** عطف

على ما قبله داخل في حكمه أي أخذن منكم عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والممازجة والمعاشرة أو ما أوثق الله عليكم في شأنهن بقوله تعالى ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أو ما أشار إليه النبي عليه السلام بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

اعلم أن هذه المعاملات من تضييق النساء ومنعهن من الأزواج وأخذ ما في أيديهن ظلماً بعدما أخذن ميثاقاً غليظاً في رعاية حقوقهن كلها وأمثالها ليست من أمارة الإيمان ونتائجه وثمراته لأن المؤمن أخ المؤمن لا يظلمه ولا يشتمه قال عليه السلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وقال: «الدين النصيحة» وقد صرح بنفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير».

هر آنكه تخم بدى كشت وچشم نيكى داشت　　دماغ بيهده پخت وخيال باطل بست

زكوش پنبه برون آر وداد خلق بده　　اكر تومى ندهى داد روز دادى هست

فعلى المرء أن ينصف في جميع أحواله للأجانب خصوصاً الأقارب والأزواج فإن تحري العدل لهم من الواجبات.

واعلم أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة في المهر لأن قوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] لا يدل على حصول الآلهة. والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع كذا قال الإمام في تفسيره ويؤيد ما قيل في «مرشد المتأهلين» أن المرأة التي يراد نكاحها يراعى فيها خفة المهور قال ﷺ: «خير نسائكم أحسنهن وجوهاً وأخفهن مهوراً» وتزوج رسول الله ﷺ نساءه على عشرة دراهم وأثاث البيت وكان رحى وجرة ووسادة من أديم حشوها ليف وفي الخبر «من بركة المرأة سرعة تزوجها وسرعة رحمها إلى الولادة ويسر مهرها» ولا بد للرجل أن يوفيها صداقها كملاً أو ينوي ذلك فمن نوى أن يذهب بصداقها جاء يوم القيامة زانياً كما أن من استدان ديناً وهو ينوي أن لا يقضيه يصير سارقاً ولا يماطل مهرها إلا أن يكون فقيراً أو تؤجله المرأة طوعاً ويعلمها أحكام الطهارة والحيض والصلاة وغير ذلك بقدر ما تؤدي به الواجب ويلقنها اعتقاد أهل السنة ويردها عن اعتقاد أهل البدعة وإن لم يعلم فليسأل ولينقل إليها جواب المفتي وإن لم يسأل فلا بد لها من الخروج للسؤال ومتى علمها الفرائض فليس لها الخروج إلى تعلم أو مجلس ذكر إلا برضاه فمهما أهمل المرء حكماً من أحكام الدين ولم يؤدبها ولم يعلمها أو منعها عن التعلم شاركها في الإثم وفي الحديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أجهل أهله» قال عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ ذكر ما دون من لأنه أريد به الصفة. وقوله من النساء بيان لما نكح واسم الآباء ينتظم الأجداد مجازاً كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فنهوا عن ذلك أي لا تنكحوا التي نكحها آباؤكم ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء مما نكح مفيد

للمبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال أي لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الإباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿إنه﴾ أي نكاحهن ﴿كان فاحشة﴾ أي فعلة قبيحة ومعصية شديدة عند الله ما رخص فيه لأمة من الأمم ﴿ومقتاً﴾ ممقوتاً عند ذوي المروآت والمقت أشد البغض ﴿وساء سبيلا﴾ نصب على التمييز أي بئس السبيل سبيل من يراه ويفعله فإنه يؤدي صاحبه إلى النار. قيل: مراتب القبح ثلاث: القبح العقلي وإليه أشير بقوله: ﴿إنه كان فاحشة﴾، والقبح الشرعي وإليه أشير بقوله: ﴿مقتا﴾، والقبح العادي وإليه الإشارة بقوله: ﴿وساء سبيلا﴾ ومتى اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح.

والإشارة في الآية أن الآباء هي العلويات والأمهات هي السفليات وبازدواجهما خلق الله تعالى المتولدات منهما فيما بينهما ففي قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ إشارة إلى نهي التعلق والتصرف في السفليات التي هي الأمهات المتصرفة فيها آباؤكم العلوية ﴿إلا ما قد سلف﴾ من التدبير الإلٓهي في ازدواج الأرواح والأشباح فالحاجات الضرورية للإنسان مسيسة به ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا﴾ يعني التصرف في السفليات والتعلق بها والركون إليها مما يلوث الجوهر الروحاني بلوث الصفات الحيوانية ويجعله سفلي الطبع بعيداً عن الحضرة محباً للدنيا ناسياً للرب ممقوتاً للحق وساء سبيلاً إلى الهداية بالضلالة، قال حافظ:

غلام همت آنم كه زير چرخ كبود زهرچه رنك تعلق پذيرد آزاداست

قال مولانا الجامي:

اى كه درشرع خداوندان حال ميكنى ازسنت وفرضم سؤال
سنت آمد دل زدنيا تافتن فرض راه قرب مولا يافتن

قال رسول الله ﷺ: «إن أقرب الناس مجلساً إلى الله يوم القيامة من طال حزنه وجوعه في الدنيا افترش الناس الفراش وافترش الأرض فالراغب من رغب في مثل ما رغبوا والخاسر من خالفهم أكلوا الشعير ولبسوا الخرق وخرجوا من الدنيا سالمين»، قال مولانا جلال الدين:

هركه محجوبست اوخود كودكيست مرد آن باشدكه بيرون از شكيست
أي خنك آنكه جهادى ميكند بر بدن زجرى ودادى ميكند
اى بساكاراكه أول صعب كشت بعد ازان بكشاده شد سختى كذشت
اندرين ره مى تراش و مي خراش تا دمى آخر دمى فارغ مباش

قال أبو علي الدقاق: ـ رحمه الله ـ: من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سريرته بالمشاهدة قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة. قال أبو الحسن الوراق: كان أجل أحكامنا في مبادي أمرنا في مسجد أبي عثمان الإيثار حتى يفتح علينا وأن لا نبيت على معلوم ومن استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا بل نعتذر إليه ونتواضع له وإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا في خدمته والإحسان إليه حتى يزول. قال أبو حفص: ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبه فإن المعاصي بريد الكفر:

عيب رندان مكن اي زاهد پاكيزه سرشت كه كناه دكران برتو نخواهند نوشت
من اكرنيكم وكربدتو بروخود را باش هركسى آن درود عاقبت كاركه كشت

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾

﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي نكاحهن لأن المفهوم في العرف من حرمة كل شيء ما هو الغرض المقصود منه فيفهم من تحريم النساء تحريم نكاحهن كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله. والأمهات تعم الجدات وإن علون من الأب والأم أو من قبل أحدهما **﴿وبناتكم﴾** الصلبية وبنات الأولاد وإن سفلن **﴿وأخواتكم﴾** من قبل الأب والأم أو من قبل أحدهما فيتضمن الأخوات من الجهات الثلاث.

واعلم أن حرمة الأمهات والبنات كانت ثابتة من زمن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ولم يثبت حل نكاحهن في شيء من الأديان الإلَهية بل إن زرادشت رسول المجوس قال بحله إلا أن أكثر المسلمين اتفقوا على أنه كان كذاباً أما نكاح الأخوات فقد نقل أن ذلك كان مباحاً في زمن آدم عليه السلام وإنما حكم الله بإباحة ذلك على سبيل الضرورة. وذكر العلماء أن السبب لهذا التحريم أن الوطء إذلال وإهانة فإن الإنسان يستحيي من ذكره ولا يقدم عليه إلا في الموضع الخالي وأكثر أنواع الشتم لا يكون إلا بذكره وإذا كان الأمر كذلك وجب صون الأمهات عنه لأن إنعام الأم على الولد أعظم وجوه الانعام فوجب صونها عن هذا الإذلال والبنت جزء من الإنسان وبعض منه فيجب صونها عن هذا الإذلال لأن المباشرة معها تجري مجرى الإذلال وكذا القول في البقية ذكره الإمام في «تفسيره» **﴿وعماتكم﴾** العمة كل أنثى ولدها من ولد والدك قريباً أو بعيداً **﴿وخالاتكم﴾** الخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك قريباً أو بعيداً يعني العمات تعم أخوات الآباء والأجداد وكذا الخالات تعم أخوات الأمهات والجدات سواء كن من قبل الأب والأم أو من قبل أحدهما **﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾** من كل جهة ونوافلهما وإن بعدت.

واعلم أن الله تعالى نص على تحريم أربعة عشر صنفاً من النسوان سبع منهن من جهة النسب وهن هذه المذكورات وسبع أخرى من جهة السبب وإلى تعدادها شرع فقال: **﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾** أي حرم نكاح الأمهات والأخوات كلتاهما من الرضاعة كما حرمتا من النسب نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع والمراضعة اختاً وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الإرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه ومنه قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وهو حكم كلي جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت ابنه لأم وأم أم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتهن من جهة النسب حتى تحل بعمومه ضرورة حلهن في صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألا يرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة

موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد **﴿وأمهات نسائكم﴾** المراد بالنساء المنكوحات على الإطلاق سواء كن مدخولاً بهن أم لا وعليه جمهور العلماء وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها: «إنه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها» ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودات فيما سبق آنفاً والممسوسات ونظائرهن وأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات **﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾** أي حرم نكاح الربائب جمع ربيبة والربيب ولد المرأة من آخر سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل إلى الاسمية. قال الإمام والحجور جمع حجر وفيه لغتان قال ابن السكيت حجر الإنسان وحجره بالفتح والكسر هو ما يجمع على فخذيه من ثوبه والمراد بقوله في حجوركم أي في تربيتكم يقال فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته والسبب في هذه الاستعارة أن كل من ربى طفلاً أجلسه في حجره فصار الحجر عبارة عن التربية كما يقال فلان في حضانة فلان وأصله من الحضن الذي هو الإبط ثم إن كون التربية في حجر الرابّ ليس بشرط للحرمة عند جمهور العلماء والوصف في الآية خرج على الأغلب لأنهن كن لا يتزوجن غالباً إذا كانت لهن أولاد كبار ويتزوجن مع الأولاد الصغار ليستعن بالأزواج على تربية الأولاد فخرج الكلام مخرج الغالب لا على الاشتراط كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] والمباشرة في غير المساجد حالة الاعتكاف حرام أيضاً **﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾** أي كائنة تلك الربائب من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فمن متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ربائبكم ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر والباء للتعدية وهي كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفي حكم الدخول اللمس ونظائره **﴿فإن لم تكونوا﴾** أي: فيما قبل **﴿دخلتم بهن﴾** أصلاً **﴿فلا جناح عليكم﴾** أي في نكاح الربائب فارقتموهن أي أمهاتهن أو متنّ وهو تصريح بما أشعر به ما قبله **﴿وحلائل أبنائكم﴾** أي: وحرم عليكم زوجات أبنائكم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج أو لحلولها في محله وقيل لحل كل منهما إزار صاحبه وفي حكمهن مزنياتهم ومن يجري مجراهن من الممسوسات ونظائرهن **﴿الذين من أصلابكم﴾** لإخراج الأدعياء دون أبناء الأولاد والأبناء من الرضاع فإنهم وإن سفلوا في حكم الأبناء الصلبية فالمتبنى إذا فارق امرأته يجوز للمتبني نكاحها وقد تزوج النبي عليه السلام زينب ابنة جحش الأسدية بنت عمته أميمة ابنة عبد المطلب حين فارقها زيد بن حارثة وكان قد تبناه وادعاه ابنا فعيره المشركون بذلك لأن المتبنى في ذلك الوقت كان بمنزلة الابن فأنزل الله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح لا في ملك اليمين وأما جمعهما في الوطء بملك اليمين فيلحق به بطريق الدلالة لاتحادهما في المدار **﴿إلا ما قد سلف﴾** استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به **﴿إن الله كان غفوراً﴾** لمن فعل ذلك في الجاهلية **﴿رحيماً﴾** لمن تاب من ذنوبه وأطاع لأمر ربه في الإسلام.

الجزء الخامس من الأجزاء الثلاثين

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿والمحصنات﴾ هن ذوات الأزواج أحصنهن التزوج أو الأزواج أو الأولياء أي: عفهن عن الوقوع في الحرام. وقد ورد الإحصان في القرآن بإزاء أربعة معان: الأول التزوج كما في هذه الآية، والثاني: العفة كما في قوله ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، والثالث: الحرية كما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، والرابع: الإسلام كما في قوله: **﴿فإذا أحصن﴾** قيل في تفسيره أي: أسلمن وهي معطوفة على المحرمات السابقة أي وحرم عليكم ذوات الأزواج كائنات **﴿من النساء﴾** وفائدته تأكيد عمومها لا دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للأنفس كما توهم **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سبين ولهن الأزواج في دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين إن كن محصنات.

قال نجم الدين الكبرى ـ قدس سره ـ: إن الله تعالى حرم المحصنات من النساء على الرجال عفة للحضانة وصحة للنسب ونزاهة لعرض الرجال عن خسة الاشتراك في الفراش علواً للهمة فإن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها وقال: **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** يعني: ملكتم بالقوة والغلبة على أزواجهن من الكفار واقتطاعهن من حيز الاشتراك وإفساد نسب الأولاد وتخليطه ولهذا أوجب الشرع فيها الاستبراء بحيضة **﴿كتاب الله عليكم﴾** مصدر مؤكد أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً **﴿وأحل لكم﴾** عطف على حرمت عليكم وتوسيط قوله **﴿كتاب الله عليكم﴾** بينهما للمبالغة في الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة **﴿ما وراء ذلكم﴾** إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة أي: أحل لكم نكاح ما سواهن انفراداً وجمعاً وخص منه بالسنة ما في معنى المذكورات كسائر محرمات الرضاع والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها **﴿أن تبتغوا﴾** متعلق بالفعلين المذكورين أي: حرمت وأحل على أنه مفعول له لكن لا باعتبار بيانهما وإظهارهما أي: بين لكم تحريم المحرمات المعدودة وإحلال ما سواهن إرادة أن تبتغوا النساء أي تطلبوهن **﴿بأموالكم﴾** بصرفها إلى مهورهن أو أثمانهن **﴿محصنين﴾** حال من فاعل تبتغون والإحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب **﴿غير مسافحين﴾** حال ثانية منه والسفاح الزنى والفجور من السفح الذي هو صب المني سمي به لأنه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أي: محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني وهي في الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح البتة والمعنى لا تضيعوا أموالكم في الزنى لئلا يذهب دينكم ودنياكم ولكن تزوجوا بالنساء فهو خير لكم وذكر الأموال يدل على أن غير المال لا يصلح مهراً وأن القليل لا يكفي مهراً فإن الدرهم ونحوه لا يسمى مالاً ثم هو عندنا لا يكون أقل من عشرة دراهم قال ﷺ: «لا مهر أقل من عشرة» **﴿فما استمتعتم به منهن﴾** أي: فالذي انتفعتم به من النساء بالنكاح الصحيح من جماع أو خلوة

صحيحة أو غير ذلك ﴿فآتوهن أجورهن﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع ﴿فريضة﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به﴾ أي: في أن تراضيتم بعد النكاح على زيادة المهر من جانب الزوج أو على الحط من المهر من جانب الزوجة وأن تهب لزوجها جميع مهرها ﴿من بعد الفريضة﴾ أي بعد المفروضة للزوجة ﴿إن الله كان عليما﴾ بمصالح العباد ﴿حكيما﴾ فيما شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالكم.

اعلم أن المحرم عندنا من حرم نكاحه على التأبيد بنسب أو مصاهرة أو رضاع ولو بوطء حرام فخرج بالأول ولد العمومة والخؤولة وبالثاني أخت الزوجة وعمتها وخالتها وشمل أم المزني بها وبنتها وأبا الزاني وابنه وأحكامه تحريم النكاح وجواز النظر والخلوة والمسافرة إلا المحرم من الرضاع فإن الخلوة بها مكروهة وكذا بالصهرة الشابة وحرمة النكاح على التأبيد لا مشاركة للمحرم فيها فإن الملاعنة تحل إذا كذب نفسه أو خرج من أهلية الشهادة والمجوسية تحل بالإسلام أو بتهودها أو تنصرها والمطلقة ثلاثاً بدخول الثاني وانقضاء عدته ومنكوحة الغير بطلاقها وانقضاء عدتها ومعتدة الغير بانقضائها وكذا لا مشاركة للمحرم في جواز النظر والخلوة والسفر وإما عبدها فكالأجنبي على المعتمد لكن الزوج يشارك المحرم في هذه الثلاثة والنساء الثقات لا يقمن مقام المحرم والزوج في السفر. ويختص المحرم النسيب بأحكام: منها عتقه على قريبه لو ملكه ولا يختص بالأصل والفرع، ومنها وجوب نفقة الفقير العاجز على قريبه الغني فلا بد من كونه رحماً من جهة القرابة فابن العم والأخ من الرضاع لا يعتق ولا تجب نفقته ويغسل المحرم قريبه، ومنها أنه لا يجوز التفريق بين الصغير ومحرم ببيع أو هبة إلا في عشر مسائل، ومنها أن المحرمية مانعة من الرجوع في الهبة. وتختص الأصول والفروع من بين سائر المحارم بأحكام، منها أنه لا يقطع أحدهما بسرقة مال الآخر، ومنها لا يقضي ولا يشهد أحدهما للآخر، ومنها تحريم موطوءة كل منهما على الآخر ولو بزنى، ومنها تحريم منكوحة كل منهما على الآخر بمجرد العقد، ومنها لا يدخلون في الوصية للأقارب. وتختص الأصول بأحكام، منها لا يجوز له قتل أصله الحربي إلا دفعاً عن نفسه وإن خاف رجوعه ضيق عليه وألجأه ليقتله غيره وله قتل فرعه الحربي كمحرمه، ومنها لا يقتل الأصل بفرعه ويقتل الفرع بأصله، ومنها لا يحد الأصل بقذف فرعه ويحد الفرع بقذف أصله، ومنها لا تجوز مسافرة الفرع إلا بإذن أصله دون عكسه، ومنها لو ادعى الأصل ولد جارية ابنه ثبت نسبه والجد أب الأب كالأب عند عدمه بخلاف الفرع إذا ادعى ولد جارية أصله لم يصح إلا بتصديق الأصل، ومنها لا يجوز الجهاد إلا بإذنهم بخلاف الأصول لا يتوقف جهادهم على إذن الفروع، ومنها لا تجوز المسافرة إلا بإذنهم إن كان الطريق مخوفاً وإلا فإن لم يكن ملتحياً فكذلك وإلا فلا، ومنها إذا دعا أحد أبويه في الصلاة وجبت إجابته إلا أن يكون عالماً بكونه فيها ولم أر حكم الأجداد والجدات وينبغي الإلحاق. ـ ومنها كراهة حجه بدون إذن من كرهه من أبويه إن احتاج إلى خدمته، ومنها جواز تأديب الأصل فرعه والظاهر عدم الاختصاص بالأب فالأم والأجداد والجدات كذلك، ومنها تبعية الفرع للأصل في الإسلام، ومنها لا يحبسون بدين الفرع والأجداد والجدات كذلك واختصت الأصول الذكور بوجوب الإعفاف. واختص الأب والجد لأب بأحكام، منها ولاية المال فلا ولاية للأم في مال الصغير إلا الحفظ وشراء ما لا بد منه

للصغير، ومنها تولي طرفي العقد فلو باع الأب ماله من ابنه أو اشترى وليس فيه غبن فاحش انعقد بكلام واحد، ومنها عدم خيار البلوغ في تجويز الأب والجد فقط وأما ولاية الإنكاح فلا تختص بهما فتثبت لكل ولي سواء كان عصبة أو من ذوي الأرحام، وكذا الصلاة على الجنازة لا تختص بهما، وفي «الملتقط» من النكاح لو ضرب المعلم الولد بإذن الأب فهلك لم يغرم إلا أن يضربه ضرباً لا يضرب مثله ولو ضرب بإذن الأم غرم الدية إذا هلك والجد كالأب عند فقده إلا في ثنتي عشرة مسألة.

فائدة: يترتب على النسب اثنا عشر حكماً توريث المال والولاء وعدم صحة الوصية عند المزاحمة ويلحق بها الإقرار بالدين في مرض موته وتحمل الدية وولاية التزويج وولاية غسل الميت والصلاة عليه وولاية المال وولاية الحضانة وطلب الحد وسقوط القصاص هذا كله من «الأشباه والنظائر» نقلته هٰهنا لفوائده الكثيرة وملاءمته المحل على ما لا يخفى.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ من لم يستطع أي من لم يجد كما يقول الرجل لا أستطيع أن أحج أي لا أجد ما أحج به. ومنكم حال من فاعل يستطيع أي حال كونه منكم. والطول القدرة وانتصابه على أنه مفعول يستطيع وأن ينكح في موضع النصب على أنه مفعول القدرة والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان والمعنى ومن لم يجد طول حرة أي ما يتزوج به الحرة المسلمة **﴿فمن ما ملكت أيمانكم﴾** فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذي ملكته أيمانكم **﴿من فتياتكم المؤمنات﴾** حال من الضمير المقدر في ملكت الراجع إلى ما أي من إمائكم المسلمات. والفتاة أصلها الشابة والفتاء بالمد الشباب والفتى الشاب والأمة تسمى فتاة والعبد يسمى فتى وإن كانا كبيرين في السن لأنهما لا يوقران للرق توقير الكبار ويعاملان معاملة الصغار **﴿والله أعلم بإيمانكم﴾** تأنيس بنكاح الإماء وإزالة الاستنكاف منه أي أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان فربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة وإيمان المرأة من إيمان الرجل. فلا ينبغي للمؤمن أن يطلب الفضل والرجحان إلا باعتبار الإيمان والإسلام لا بالأحساب والأنساب **﴿بعضكم من بعض﴾** أنتم وأرقاؤكم متناسبون نسبكم من آدم ودينكم الإسلام كما قيل:

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهمو آدم والأم حواء

فبينكم وبين ارقائكم المواخاة الايمانية والجنسية الدينية لا يفضل حر عبدا إلا برجحان في الايمان وقدم في الدين **﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾** اي وإذ قد وقفتم على جلية الامر فانكحوهن بإذن مواليهن ولاتترفعوا عنهن وفي اشتراط إذن الموالي دون مباشرتهم للعقد اشعار بجواز مباشرتهن له **﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾** أي أدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار

وإلجاء إلى الافتداء واللز أي المضايقة والإلحاح ﴿**محصنات**﴾ حال من مفعول فانكحوهن أي حال كونهن عفائف عن الزنى ﴿**غير مسافحات**﴾ حال مؤكدة أي غير مجاهرات به والمسافح الزاني من السفح وهو صب المني لأن غرضه مجرد صب الماء ﴿**ولا متخذات أخدان**﴾ جمع خدن وهو الصديق سراً والجمع للقابلة بالانقسام على معنى أن لا يكون لواحدة منهن خدن لا على معنى أن لا يكون لها أخدان أي غير مجاهرات بالزنى ولا مسرات له وكان زناهن في الجاهلية من وجهين السفاح وهو بالأجر من الراغبين فيها والمخادنة وهي مع صديق لها على الخصوص وكان الأول يقع إعلاناً والثاني سراً وكانوا لا يحكمون على ذات الخدن بكونها زانية ولذا أفرد الله كل واحد من هذين القسمين بالذكر ونص على حرمتهما معاً ﴿**فإذا أحصن**﴾ أي بالتزويج ﴿**فإن أتين بفاحشة**﴾ أي فعلن فاحشة وهي الزنى ﴿**فعليهن**﴾ فثابت عليهن شرعاً ﴿**نصف ما على المحصنات**﴾ أي الحرائر الابكار ﴿**من العذاب**﴾ من الحد الذي هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الاحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالإحصان كتفاوت حد الحرائر ولا رجم عليهن لأن الرجم لا يتنصف وجعلوا حد العبد مقيساً على الأمة والجامع بينهما الرق والإحصان عبارة عن بلوغ مع عقل وحرية ودخول في نكاح صحيح وإسلام خلافاً للشافعي في الإسلام ﴿**ذلك**﴾ أي نكاح المملوكات عند عدم الطول لمن ﴿**خشي العنت منكم**﴾ أي خاف الزنى وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر أعظم من موافقة الاسم بأفحش القبائح وإنما سمي الزنى به لأنه سبب المشقة بالحد في الدنيا والعقوبة في العقبى ﴿**وأن تصبروا**﴾ أي عن نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصي ﴿**خير لكم**﴾ من نكاحهن وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق ولأن حق المولى فيها فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيف ما يريد في السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادي. وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح والعزة هي اللائقة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال ﷺ: «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت» ﴿**والله غفور**﴾ لمن لم يصبر ﴿**رحيم**﴾ بالرخصة والتوسعة فنكاح الأمة عند الطول والقدرة على نكاح الحرة لا يحل عند الشافعي وعند الحنفية يحل ما لم يكن عنده امرأة حرة ومحصله أن الشافعي أخذ بظاهر الآية وقال: لا يجوز نكاح الأمة إلا بثلاثة شرائط اثنان في الناكح عدم طول الحرة وخشية العنت والثالث في المنكوحة وهي أن تكون أمة مؤمنة لا كافرة كتابية وعند أبي حنيفة شيء من ذلك ليس بشرط فهو حمل عدم استطاعة الطول على عدم ملك فراش الحرة بأن لا يكون تحته حرة فحينئذ يجوز نكاح الامة وحمل النكاح على الوطء وحمل قوله: ﴿**من فتياتكم المؤمنات**﴾ على الأفضل أي نكاح الأمة المؤمنة أفضل من نكاح الكتابية فجعله على الندب واستدل عليه بوصف الحرائر مع كونه ليس بشرط.

قال في التيسر وأما قوله: ﴿**من فتياتكم المؤمنات**﴾ ففيه إباحة المؤمنات وليس فيه تحريم الكتابيات فالغنى والفقر سواء في جواز نكاح الأمة سواء كانت مؤمنة أو يهودية أو نصرانية.

اعلم أن النكاح من سنن المرسلين وشرعة المخلصين إلا أن الحال يختلف فيه باختلاف أحوال الناس فهو واجب بالنسبة إلى صاحب التوقان ومستحب بالنسبة إلى من كان في حد

الاعتدال ومكروه بالنسبة إلى من عجز عن الوقاع والإنفاق. قال في «الشرعة» وشرحها: ويختار للتزوج المرأة ذات الدين فإن المرأة الصالحة خير متاع الدنيا فإن بها يحصل تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكلف بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعسر عليه العيش في منزله وحده إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاعت أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل معينة على الدين بهذا الطريق واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ولذلك قال أبو سليمان الدراني: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرّغك للآخرة، قال الشيخ السعدي قدس سره:

زن خوب فرمان برپارسا كند مرد درويش را پادشا
سفر عيد باشد بران كتخداي كه يارى زشتش بود درسراي

ثم إن بعضهم اختاروا البكر وقالوا: إنها تكون لك فأما الثيب فإن لم يكن لها ولد فنصفها لك وإن كان لها ولد فكلها لغيرك تأكل رزقك وتحب غيرك والحاصل أن اختيار نكاح المملوكات رخصة والصبر عنه عزيمة ولا ريب أن العزيمة أولى لأنه بالصبر يترقى العبد إلى الدرجات العلي وفي الخبر «يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له: أترضى أن نجزيك جزاء الشاكرين فيقول: نعم يا رب فيقول الله كلا أنعمت عليك فشكرت وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين» وقد يجمع العبد فضيلتي الصبر والشكر بأن يصبر على مقتضى النفس زماناً ثم بعد النيل والفوز، يشكر على نعمه الجزيلة حققنا الله وإياكم بحقائق الصبر والشكر:

نعمت حق شمار وشكر كذار نعمتش را اكرچه نيست شمار
شكر باشد كليد كنج مزيد كنج خواهى منه زدست كليد

وقيل في حق الصبر:

جون بماني بسته دربند حرج صبر كن كه الصبر مفتاح الفرج
صبركن حافظ بسختى روزشب عاقبت روزي بيابي كام را

ثم إن رحمته لعباده أوسع من أن تذكر ولذلك قال: **﴿والله غفور رحيم﴾** ومن جملة رحمته بيان طرائق من سلف وتقدم من أهل الرشاد ليسلكوا مناهجهم وينالوا إلى المراد وقال عليه السلام: «يا كريم العفو» فقال جبريل أتدري ما معنى كريم العفو؟ هو أن يعفو عن السيآت برحمته ثم يبدلها بحسنات بكرمه، قال جلال الدين الرومي قدس سره:

توبه آرند وخدا توبه بذير أمر أو كيرند أو نعم الأمير
سيآتت را مبدل كرد حق تاهمه طاعت شود آن ما سبق

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ اللام مزيدة لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة ومفعول يبين محذوف أي يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وافاضل أعمالكم أو ما

تعبدكم به من الحلال والحرام ﴿**ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ أي يدلكم على مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿**ويتوب عليكم**﴾ يرجع بكم عن معصيته إلى طاعته بالتوفيق للتوبة ما كنتم عليه من الخلاف وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده عن ارادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه التوبة ﴿**والله عليم**﴾ بكم ﴿**حكيم**﴾ فيما يريده لكم ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ بيان لكمال منفعة ما اراده الله تعالى وكمال مضرة ما يريد الفجرة بخلاف الأول فإنه بيان ارادته تعالى لتوبته عليهم فلا تكرار ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات**﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها وأما المتعاطي لما سوغه الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها. وقيل المجوس حيث كانوا يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت ﴿**أن تميلوا**﴾ عن القصد والحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم ﴿**ميلاً عظيماً**﴾ أي بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا استحلال ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم**﴾ ما في عهدتكم من مشاق التكاليف فلذلك شرع لكم الشرعة الحنيفية السمحة السهلة ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ عاجزاً عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات. قال الكلبي: أي لا يصبر عن النساء. قال سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من ابن آدم إلا أتاه من قبل النساء وقد أتى عليّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى وإن أخوف ما أخاف على نفسي فتنة النساء. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: اللهم إني أعوذ بك من أن أزني وأسرق فقيل له كبر سنك وأنت صاحب رسول الله ﷺ أتخاف على نفسك من الزنى والسرقة؟ قال: كيف آمن على نفسي وإبليس حي؟
قال الحافظ:

چه جاي من كه بلغزد سپهر شعبده باز ازين حيل كه در انبانه بهانه تست

والإشارة في تحقيق الآيات أن الله تعالى أنعم على هذه الأمة بإرادة أربعة أشياء: أولها التبيين وهو أن يبين لهم صراط المستقيم إلى الله، وثانياً الهداية وهو أن يهديهم إلى الصراط المستقيم بالعيان بعد البيان، وثالثها التوبة عليهم وهي أن يرجع بهم إلى حضرته على صراط الله، ورابعها التخفيف عنهم وهو أن يوصلهم إلى حضرته بالمعونة ويخفف عنهم المؤونة. وهذا مما اختص به نبينا عليه السلام وأمته لوجهين: أحدهما أن الله أخبر عن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى حضرته باجتهاده وهو المؤونة بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٩] وأخبر عن موسى عليه السلام بمجيئه وهو أيضاً المؤونة وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأخبر عن حال نبينا عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وهو المعونة فخفف عنه المؤونة وأخبر عن حال هذه الأمة بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وهو أيضاً بالمعونة وهي جذبات العناية، والوجه الثاني أن النبي ﷺ وأمته مخصوصون بالوصول والوصال مخفف عنهم كلفة الفراق والانقطاع فأما النبي عليه السلام فقد خص بالوصول إلى مقام قاب قوسين أو أدنى وبالوصال بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] وانقطع سائر الأنبياء عليهم السلام

في السموات السبع كما رأى ليلة المعراج آدم في سماء الدنيا إلى أن رأى إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة فعبر عنهم جميعاً إلى كمال القرب والوصول. وأما الأمة فقال في حقهم «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً» فهذا هو حقيقة الوصول والوصال ولكن الفرق بين النبي والولي في ذلك أن النبي مستقل بنفسه في السير إلى الله والوصول ويكون حظه من كل مقام بحسب استعداده الكامل والولي لا يمكنه السير إلا في متابعة النبي وتسليكه في سبيل الله ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] ويكون حظه من المقامات بحسب استعداده فينبغي أن يسارع العبد إلى تكميل المراتب والدرجات برعاية السنة وحسن المتابعة لسيد الكائنات. قال جنيد البغدادي قدس سره مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة. قال علي كرم الله وجهه: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ.

كرت بايدكه بينى روى إيمان رخ از آيينه امرش مكردان
زشرعش سر مپيچ أزهيپج رويى كه همچون شانه ميكردى بمويى

قال الشيخ السعدي قدس سره:

خلاف پيمبر كسى ره كزيد كه هركز بمنزل نخواهد رسيد
محالست سعدي كه راه صفا توان رفت جز بربى مصطفا

ثم في قوله تعالى: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ إشارة إلى أن الإنسان لا يصبر عن الله لحظة لضعفه مهما يكون على الفطرة الإنسانية فطرة الله التي فطر الناس عليها فإنه يحبهم ويحبونه وهو ممدوح بهذا الضعف فإن من عداه يصبرون عن الله لعدم اضطرارهم في المحبة والإنسان مخصوص بالمحبة.

واعلم أن هذا الضعف سبب لكمال الإنسان وسعادته وسبب لنقصانه وشقاوته لأنه يتغير لضعفه من حال إلى حال ومن صفة إلى أخرى فيكون ساعة بصفة بهيمة يأكل ويشرب ويجامع ويكون ساعة أخرى بصفة ملك يسبح بحمد ربه ويقدس له ويفعل ما يؤمر ولا يعصي فيما نهاه عنه وهذه التغيرات من نتائج ضعفه وليس هذا الاستعداد لغيره حتى الملك لا يقدر أن يتصف بصفات البهيمة والبهيمة لا تقدر أن تتصف بصفة الملك لعدم ضعف الإنسانية وإنما خص الإنسان بهذا الضعف لاستكماله بالتخلق بأخلاق الله واتصافه بصفات الله كما جاء في الحديث الرباني «أنا ملك حي لا أموت أبداً عبدي أطعني أجعلك ملكاً حياً لا يموت أبداً» فعند هذا الكمال يكون خير البرية وعند اتصافه بالصفات البهيمية يصير شر البرية:

كي شوى انسان كام أي دل ناقص عقل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا**﴾ أي: لا تأخذوا وعبر عن الأخذ بالأكل لأن المقصود الأعظم من الأموال الأكل فكما أن الأكل محرم فكذلك سائر وجود التصرفات ﴿**أموالكم بينكم بالباطل**﴾ أي: بوجه غير شرعي كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا والرشوة واليمين الكاذبة وشهادة الزور والعقود الفاسدة ونحوها. ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾

استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أي إلا أن تكون التجارة تجارة عن تراض أو إلا أن تكون الأموال أموال تجارة وتلحق بها أسباب الملك المشروعة كالهبة والصدقة والإرث والعقود الجائزة لخروجها عن الباطل وإنما خص التجارة بالذكر لكونها أغلب أسباب المكاسب وقوعاً وأوفقها لذوي المروءات والمراد بالتراضي مراضاة المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال المبايعة وقت الإيجاب والقبول عندنا وعند الشافعي حالة الافتراق عن مجلس العقد. ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ بالبخع كما يفعله جهلة الهند أو بإلقاء النفس إلى الهلكة. ويؤيده ما روي أن عمراً بن العاص رضي الله عنه تأوله في التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي ﷺ أو بارتكاب المعاصي المؤدية إلى هلاكها في الدنيا والآخرة أو باقتراف ما يذللها ويرديها فإنه القتل الحقيقي للنفس وقيل المراد بالنفس من كان من جنسهم من المؤمنين فإن كلهم كنفس واحدة ﴿**إن الله كان بكم رحيما**﴾ أي أمر بما أمر ونهى عما نهى لفرط رحمته عليكم معناه إن كان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ أي القتل أو إياه وسائر المحرمات المذكورة فيما قبل ﴿**عدواناً وظلماً**﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحد وإتياناً بما لا يستحقه وقيل: أريد بالعدوان التعدي على الغير وبالظلم الظلم على النفس لتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أي متعدياً وظالماً ﴿**فسوف نصليه**﴾ أي ندخله ﴿**ناراً**﴾ أي ناراً مخصوصة هائلة شديدة العذاب ﴿**وكان ذلك**﴾ أي إصلاء النار ﴿**على الله يسيراً**﴾ لتحقق الداعي وعدم الصارف. قال الإمام: واعلم أن الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله على السوية وحينئذٍ يمتنع أن يقال إن بعض الأفعال أيسر عليه من بعض بل هذا الخطاب نزل على القول المتعارف بيننا أو يكون معناه المبالغة في التهديد وهو أن أحداً لا يقدر على الهرب منه ولا على الامتناع عليه. فعلى العاقل أن يتجنب عن الوقوع في المهالك ويبالغ في حفظ الحقوق وقد جمع الله في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لأنه شقيقها من حيث إنه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها ولذلك قيل:

توانكرانرا وقفست وبذل ومهانى زكاة وفطرة واعتاق وهدى وقربانى
توكى بدولت ايشان رسى كه نتوانى جزاين دور كعت وآن هم بصدير يشانى

فإن وفقت للمال فاشكر له وإلا فلا تتعب نفسك ولا تقتلها كما يفعله بعض من يفتقر بعد الغنى لغاية ألمه واضطرابه من الفقر قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة» وقال ﷺ: «كان فيمن قبلكم جرح برجل ارابه فجزع منه فأخرج سكيناً فجز بها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله تعالى بارزني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة» كذا في «تفسير البغوي» وكذلك حكم من قتل نفسه لفقر أو لغير ذلك من الأسباب.

واعلم أن أكل المال بالباطل مما يفسد دين الرجل ودنياه بل يضر بنفسه ويكون سبباً لهلاكه فإن بعض الأعمال يظهر أثره في الدنيا.

ـ روي ـ أن رجلاً ظالماً غصب سمكة من فقير فطبخها فلما أراد أكلها عضت يده فأشار إليه الطبيب بالقطع فلم يزل يقطع من كل مفصل حتى وصل إلى الإبط فجاء إلى ظل شجرة فأخذت عيناه فقيل له: لا تتخلص من هذا إلا بإرضاء صاحبها المظلوم فلما أرضاه سكن وجعه ثم إنه تاب وأقلع عما فعل فرد الله إليه يده فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام [وعزتي لولا أنه أرضى المظلوم لعذبته طول حياته]. قال العلماء حرمة مال المسلم كحرمة دمه قال

عليه السلام: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله» وقال عليه السلام: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيبة نفس منه» فالظلم حرام شرعاً وعقلاً، قال الجامي قدس سره:

هزار كونه خصومت كنى بخلق جهان ... زبس كه در هوس سيم وآرزوي زرى
تراست دوست زروسيم خصم صاحب آن ... كه كيرى از كفش آترا بظلم وحيله كرى
نه مقتضاي خرد باشد ونتيجة عقل ... كه دوست بكذارى وخصم را ببرى

فعلى السالك أن يجتنب عن الحرام ويأكل من الحلال الطيب ولبعض الكبار دقة عظيمة واهتمام تام في هذا الباب.

ـ حكي ـ أن بعض الملوك أرسل إلى الشيخ ركن الدين علاء الدولة غزالاً وقال: إنها حلال فقال الشيخ: كنت بمشهد طوس فجاء إلى بعض الأمراء بأرنب قال: كل منها فاني رميتها بيدي فقلت: الأرنب حرام على قول الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه. قال في حياة الحيوان يحل أكل الأرنب عند العلماء كافة إلا ما حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن أبي ليلى أنهما كرها أكلها ثم إنه جاء يوم بغزال فقال: كل منها فاني رميتها بسهم عملته بيدي على فرس ورثتها عن أبي فقلت: خطر ببالي أن واحداً من الأمراء جاء إلى مولانا الجمال بإوزتين وقال: كل منهما فاني قد أخذتهما ببازي فقال مولانا ليس الكلام في الإوزتين وإنما الكلام في قوت البازي من دجاجة أية عجوز أكل حتى قوي للاصطياد فالغزال التي رميتها على فرسك وإن كانت من الصيد لكن قوت الفرس من شعير أي مظلوم حصل فلم يأكل منها.

ـ حكي ـ أن خياطاً قال لبعض الكبار: هل أكون معيناً للظلمة بخياطة ثيابهم فقال: ليس الكلام فيك وإنما الكلام في الحداد الذي يعمل الإبرة. والحاصل أن لا بد من الاهتمام في طلب الحلال وإن كان في زماننا هذا نادراً والوصول إليه عزيزاً، قال الجامي قدس سره:

خواهى كه شوى حلال روزى ... همخانه مكن عيال بسيار
دانى كه درين سراچه تنك ... حاصل نشود حلال بسيار

رزقنا الله وإياكم من فضله إنه الجواد.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

﴿إن تجتنبوا﴾ الاجتناب التباعد ومنه الأجنبي **﴿كبائر ما تنهون عنه﴾** كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها **﴿نكفر عنكم﴾** التكفير إماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة والإحباط نقيضه وهو إماطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بندم على الطاعة والمعنى نغفر لكم **﴿سيآتكم﴾** صغائركم ونمحها عنكم **﴿وندخلكم مدخلا﴾** بضم الميم اسم مكان هو الجنة **﴿كريماً﴾** أي حسناً مرضياً أو مصدر ميمي أي: إدخالاً مع كرامة. قال المفسرون الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر إذا اجتنب الكبائر. واختلف في الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم تعملون اليوم أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على رسول الله ﷺ من الكبائر. وقال القشيري: الكبائر على لسان أهل الإشارة الشرك الخفي ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق واستجلاب قلوبهم والتودد إليهم والإغماض عن حق الله بعينهم.

واعلم أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وعند انتفاء الصغائر والكبائر يمكن الدخول في المدخل الكريم وهو حضرة أكرم الأكرمين قال عليه السلام: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب». وجملة الكبائر مندرجة في ثلاثة أشياء: أحدها اتباع الهوى والهوى ميلان النفس إلى ما يستلذ به من الشهوات فقد يقع الإنسان به في جملة من الكبائر مثلاً البدعة والضلالة والارتداد والشبهة وطلب الشهوات واللذات والتنعمات وحظوظ النفس بترك الصلاة والطاعات كلها وعقوق الوالدين وقطع الرحم وقذف المحصنات وأمثال ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال عليه السلام: «ما عبداً له أبغض على الله من الهوى»:

غبار هوا چشم عقلت بدوخت　　　سموم هوس كشت عمرت بسوخت
بكن سرمه غفلت از چشم پاك　　　كه فردا شوى سرمه درچشم خاك

وثانيها حب الدنيا فإنه مطية كثير من الكبائر مثل القتل والظلم والغصب والنهب والسرقة والربا وأكل مال اليتيم ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمانها واليمين الغموس والحيف في الوصية وغيرها واستحلال الحرام ونقض العهد وأمثاله ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» وعنه ﷺ: «أتاني جبريل وقال: إن الله تعالى قال: وعزتي وجلالي إنه ليس من الكبائر كبيرة هي أعظم عندي من حب الدنيا»:

عاقلان ميل بسويت نكند اى دنيا　　　هم اميد كرم ولطف تو جاهل دارد
هركه خواهد بكنداز تو مرادى حاصل　　　حاصل آنست كه انديشه باطل دارد

وثالثها رؤية الغير فإن منها ينشأ الشرك والنفاق والرياء وأمثاله ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال عليه السلام: «اليسير من الرياء شرك». وقال بعض المشايخ: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب آخر فمن تخلص من ذنب وجوده فلا يرى غير الله فلا ينتشىء منه الشرك ولا حب الدنيا وتخلص من الهوى فيتحقق له الوصول واللقاء قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] لعمري إن هذا لهو المدخل الكريم والفوز العظيم والنعيم المقيم، فعلى العاقل أن يتخلص من الأغيار ويشاهد في المجالي أنوار الواحد القهار.

كرچه زندانست بر صاحب دلان　　　هركجا بويى زوصل يار نيست
هيچ زندان عاشق محتاج را　　　تنك تراز صحبت أغيار نيست

ولذا قيل: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وما سوى الحق أغيار، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشعراء: ٧٧] فلا بد للسالك أن يجتهد في سلوكه ويتخلص من رق الغير كي يصل إلى المراد والعاشق الصادق لا يكون في عبودية غير معشوقة ولا يتسلى عن الدنيا والآخرة إلا بوصاله فليس له مطلب سواه:

عاشق كه زهجر دوست دادى خواهد　　　يابر در وصلش ايستادى خواهد
ناكس ترا زو كس نبود درعالم　　　كزدوست بجزدوست مرادى خواهد

وهذا مقام شريف ومطلب عزيز أوصلنا الله تعالى وإياكم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا
ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا
مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿ولا تتمنوا﴾ التمني عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون **﴿ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** أي عليكم أن لا تتمنوا ما أعطاه الله بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجري فيه التنافس دونكم فإن ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد مترتب على الإحاطة بجلائل شؤونهم ودقائقها. فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكمة القدر فالانصباء كالاشكال وكما أن اختلاف الاشكال مقتضى حكمة إلهية لم يطلع على سرها أحد فكذلك الاقسام. وقيل: لما جعل الله تعالى في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين قالت النساء: نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأنا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهذا هو الأنسب بتعليل النهي بقوله تعالى: **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾** فإنه صريح في جريان التمني بين فريق الرجال والنساء والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيداً لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره فإن ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمني المذكور **﴿واسألوا الله من فضله﴾** أي لا تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى ما تريدون من خزائن نعمه التي لا نفاد لها فإنه يعطيكموه **﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾** فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان ففضله عن علم وحكمة وتبيان وفي الحديث «لن يزال الناس بخير ما تباينوا» أي تفاوتوا «فإذا تساووا هلكوا» وذلك لاختلال النظام المرتبط بذلك. وقد يقال معناه أنه لا يغتم لتفاوت الناس في المراتب والصنائع بأن يكون مثلاً بعضهم أميراً وبعضهم سلطاناً وبعضهم وزيراً وبعضهم رئيساً وبعضهم أهل الصنائع لتوقف النظام عليه.

واعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية كالذكاء التام والحدس الكامل والمعارف الزائدة على معارف الغير بالكمية والكيفية وكالعفة والشجاعة وغير ذلك وإما بدنية كالصحة والجمال والعمر الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة وإما خارجية ككثرة الأولاد الصلحاء وكثرة العشائر وكثرة الأصدقاء والأعوان والرياسة التامة ونفاذ القول وكونه محبوباً لقلوب الناس حسن الذكر فيهم فهي مجامع السعادات والإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل حاصلة لإنسان ووجد نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثرها فحينئذٍ يتألم قلبه ويتشوش خاطره ثم يعرض هٰهنا حالتان: إحداهما أن يتمنى زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان والأخرى أن لا يتمنى ذلك بل يتمنى حصول مثلها له والأول هو الحسد المذموم لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه الإحسان إلى عبيده والجود إليهم وإفاضة أنواع الكرم عليهم فمن تمنى زوال ذلك فكأنه اعترض على الله فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين وأيضاً ربما اعتقد في نفسه أنه أحق

بتلك النعم من ذلك الإنسان فيكون هذا اعتراضاً على الله وقدحاً في حكمته وكل ذلك مما يلقيه في الكفر وظلمات البدعة ويزيل عن قلبه نور الإيمان وكما أن الحسد سبب الفساد في الدين فكذلك هو سبب الفساد في الدنيا فإنه يقطع المودة والمحبة والموالاة وينقلب كل ذلك إلى أضدادها فلهذا السبب نهى الله عباده عنه بقوله: ﴿**ولا تتمنوا**﴾ الآية فلا بد لكل عاقل من الرضى بقضاء الله تعالى.

ـ حكى ـ الرسول ﷺ عن رب العزة أنه قال: «من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر لنعمائي كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ومن لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر لنعمائي فليطلب رباً سواي».

حاشا كه من ازجور وجفاي توبنا لم بيداد لطفيان همه لطفست وكرامت

فهذا هو الكلام فيما إذا تمنى زوال تلك النعمة عن ذلك الإنسان. ومما يؤكد ذلك ما روى ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يسوم على سوم أخيه ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتقوم مقامها فإن الله هو رازقها» والمقصود من كل ذلك المبالغة في المنع من الحسد أما إذا لم يتمن ذلك بل تمنى حصول مثلها له فمن الناس من جوز ذلك إلا أن المحققين قالوا هذا أيضاً لا يجوز لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه في الدين ومضرة عليه في الدنيا فلهذا السبب قال المحققون إنه لا يجوز للإنسان أن يقول: اللهم أعطني داراً مثل دار فلان وزوجة مثل زوجة فلان بل ينبغي أن يقول: اللهم أعطني ما يكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي وإذا تأمل الإنسان كثيراً لم يجد أحسن مما ذكره الله في القرآن تعليماً لعباده وهو قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. وعن الحسن لا يتمنى أحد المال فلعل هلاكه في ذلك المال كما في حق ثعلبة وهذا هو المراد من قوله: ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾. قال الشيخ كمال الدين القاشاني: ﴿**فلا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾ من الكمالات المترتبة بحسب استعداد الأولية فإن كل استعداد يقتضي بهويته في الأزل كمالاً وسعادة تناسبه وتختص به وحصول ذلك الكمال الخاص لغيره محال ولذلك ذكر طلبه بلفظ التمني الذي هو طلب ما يمتنع حصوله للطالب لامتناع سببه ﴿**للرجال**﴾ أي الأفراد الواصلين ﴿**نصيب مما اكتسبوا**﴾ بنور استعدادهم الأصلي ﴿**وللنساء**﴾ أي الناقصين القاصرين عن الوصول ﴿**نصيب مما اكتسبن**﴾ بقدر استعدادهم ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ أي اطلبوا منه إفاضة كمال يقتضيه استعدادكم بالتزكية والتصفية حتى لا يحول بينكم وبينه فتحتجبوا وتعذبوا بنيران الحرمان منه ﴿**إن الله كان بكل شيء**﴾ مما يخفى عليكم كامناً في استعدادكم بالقوة ﴿**عليما**﴾ فيجيبكم بما يليق بكم كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أي بلسان الاستعداد الذي ما دعاه أحد به إلا أجاب، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] انتهى. وعلى هذا التأويل يكون قوله: ﴿**ولا تتمنوا**﴾ نهياً ومنعاً عن طلب المحال الذي فوق الاستعداد الأزلي ويكون قوله: ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ أمراً وحثاً على طلب الممكن الذي هو قدر استعدادكم كي لا تضيع فضيلة الإنسانية فإن بعض المقدورات قد يكون معلقاً على الكسب، فينبغي أن لا يتكاسل العبد في العبادات وكسب الفضائل لينال الكمالات الكامنة في خزانة الاستعداد ويسأل الله تعالى دائماً من فضله فإنه مجيب الدعوات وولي الهداية والرشاد فمن طلب شيئاً وجدّ وجد ومن قرع باباً ولجّ

ولج، قال مولانا جلال الدين قدس سره:

چون دَرِ معنى زنى بازت كنند پرّ فكرت زن كه شبهازت كنند
چون طلب كردى بجد آيد نظر جد خطا نكند چنين آمد خبر
چون زچاهى ميكنى هرزوز خاك عاقبت اندر رسى در آب پاك
كفت پيغمبركه چون كوبى درى عاقبت زان دربرون آيد سرى
در طلب زن دائماً توهر دودست كه طلب درراه نيكور هبرست

﴿ولكل﴾ أي: لكل تركة ومال. ﴿جعلنا موالي﴾ جمع مولى أي: ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ بيان لكل مع الفصل بالمعامل وهو جعلنا لأن لكل مفعول ثان له قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض، والموالي هم أصحاب الفرائض والعصبات وغيرهما من الوراث ويجوز أن يكون المعنى ولكل قوم جعلناهم موالي أي وراثاً نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والأقربون على أن جعلنا موالي صفة لكل والضمير الراجع إليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله إنساناً نصيب من رزق أي حظ منه ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ هم موالي الموالاة كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] وعند أبي حنيفة إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلاً فهو مؤخر عن ذوي الأرحام وإسناد العقد إلى الإيمان لأن المعتاد المماسكة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم حذف العهود وأقيم المضاف إليه مقامه ثم حذف وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعني قوله تعالى: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ بالفاء أي حظهم من الميراث ﴿إن الله كان على كل شيء﴾ من الأشياء التي من جملتها الإيتاء والمنع ﴿شهيداً﴾ أي شاهداً ففيه ترغيب في الإعطاء وتهديد على منع نصيبهم قال بعضهم المراد ﴿من الذين عقدت أيمانكم﴾ الحلفاء والمراد بقوله: ﴿فآتوهم﴾ النصرة والنصيحة والمصافاة في العشرة والمخالصة في المخالطة. فعلى كل أحد أن ينصر أخاه المؤمن ويخالطه على وجه الخلوص والنصيحة لا على النفاق والعداوة قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

بني آدم أعضاي يكد يكرند كه در آفرينش زيك جوهرند
چو عضوي بدرد آورد روز كار دكر عضو هارا نماند قرار
توكز محنت ديكران بي غمي نشايد كه نامت نهند آدمي

فالواجب أن يحب المرء للناس ما يحب لنفسه من الخير وينصح لهم في ظاهر الأمر فإن النصيحة عماد الدين ويزيل ما يوجب التأذي عن ظاهرهم وأعمالهم بالموعظة والزجر أي المنع عما لا يليق ويعاملهم بالرحمة والشفقة ولا يذكر أحداً بما يكره فإن ملكاً وكل بالعبد يرد عليه ما يقول لصاحبه ولا يستبشر بمكروه أحد كائناً من كان:

مكن شادمانى بمرك كسى كه دهرت نماند پس ازوى بسى

ويتودد إلى الناس بالإحسان إلى برهم وفاجرهم وإلى من هو أهل الإحسان وإلى من

ليس بأهل له ويتحمل الأذى منهم وبه يظهر جوهر الإنسان:

تحمل چو زهرت نمايد نخست ولى شهد كردد چو در طبع رست

ويجعل من شتمه أو جفاه أو آذاه إيذاء في حل منه ولا يطمع في السلامة من أذاهم فإنه محال فإن الله لم يقطع لسان الخلق عن نفسه فكيف يسلم مخلوق من مخلوق.

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام قال: إلٰهي أسألك أن لا يقال لي ما ليس في فأوحى الله إليه ما فعلت ذلك لنفسي فكيف أفعل لك؟ ويقوم بحاجات الناس ومهماتهم ففي الحديث: «من سعى في حاجة لأخيه المسلم لله وله فيها صلاح فكأنما خدم الله ألف سنة وييسر على المعسر تيسيراً ويفرج عن الغموم فإن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم» وفي الحديث: «إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على قلب أخيك المسلم».

قال الشيخ نجم الدين الكبرى في قوله تعالى: ﴿**والذين عقدت أيمانكم**﴾ يعني: الذين جرى بينكم وبينهم عقد الأخوة في الله بأن أخذتم بأيمانكم أيمانهم بالإرادة وصدق الالتجاء وتابوا على أيديكم ﴿**فآتوهم**﴾ بالنصح وحسن التربية والاهتمام بهم والقيام بمصالحهم على شرائط الشيخوخة والتسليك بهم ﴿**نصيبهم**﴾ الذي أودع الله تعالى لهم عندكم بعلمه وحكمته ﴿**إن الله كان على كل شيء**﴾ من الودائع أينما أودعه ولمن أودعه ﴿**شهيدا**﴾ يشهد عليهم يوم القيامة إن يخونوا في إعطاء ودائعهم بالخيانة ويسألكم عنها ويشهد لكم بالأمانة ويجازيكم عليها خير الجزاء انتهى فالكاملون لا يخونون في الأمانات بل يسلمون الودائع إلى الأرباب بحسب الاستعدادات ولا يفشون السر إلى من ليس له أهلية في هذا الباب وألا يلزم الخيانة في أسرار رب الأرباب، قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره:

عارفاً نكه جام حق نوشيده اند رازها دانسته وپوشيده اند
هركرا اسرار كار آموختند مهر كردندو دهانش دوختند
برلبش قفلست ودردل رازها لب خموش ودل پراز آوازها
كوش آن كس نوشد أسرار جلال كوچوسوسن صدزبان افتا دولال
تانكوئي سر سلطانرا بكس تانريزى قندرا پيش مكس
درخور دريا نشد جز مرغ آب فهم كن والله أعلم بالصواب

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ قائمون بالأمر بالمصالح والنهي عن الفضائح قيام الولاة على الرعية مسلطون على تأديبهم وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال: ﴿**بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾ الضمير البارز لكلا الفريقين تغليباً أي بسبب تفضيله الرجال على النساء بالحزم والعزم والقوة والفتوة والمير والرمي والحماسة والسماحة والتشمير لخطة الخطبة وكتبة الكتابة وغيرها من المخايل المخيلة في استدعاء الزيادة والشمائل الشاملة لجوامع السعادة ﴿**وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ أي: وبسبب إنفاقهم من أموالهم في نكاحهن كالمهر والنفقة وهذا

أدل على وجوب نفقات الزوجات على الأزواج.

ـ روي ـ أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار رضي الله عنهم نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ وشكا فقال عليه السلام: «لنقتصن منه» فنزلت فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير» ورفع القصاص فلا قصاص في اللطمة ونحوها والحكم في النفس وما دونها مذكور في الفروع. ﴿فالصالحات﴾ منهن ﴿قانتات﴾ مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حافظات للغيب﴾ أي: لمواجب الغيب أي: لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال والبيوت. وعن النبي ﷺ: «خير النساء امرأة إنْ نظرتَ إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبتَ عنها حفظتك في مالها ونفسها» وتلا الآية وإضافة المال إليها للإشعار بأن ماله في حق التصرف في حكم مالها ﴿بما حفظ الله﴾ ما مصدرية أي بحفظه تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له. أو موصولة أي بالذي حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ خطاب للأزواج وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل في القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أي تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ﴿فعظوهن﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب. قال الإمام أبو منصور: العظة كلام يلين القلوب القاسية ويرغب الطبائع النافرة وهي بتذكير العواقب ﴿واهجروهن﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة والهجر الترك عن قلى ﴿في المضاجع﴾ أي في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن جمع مضجع وهو موضع وضع الجنب للنوم ﴿واضربوهن﴾ إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران غير مبرح ولا شائن ولا كاسر ولا خادش فالأمور الثلاثة مترتبة ينبغي أن يدرج فيها ﴿فإن أطعنكم﴾ بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهي ما يعد زاجراً ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ بالتوبيخ والأذية أي فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إن الله كان عليا﴾ أي أعلى عليكم قدرة منكم عليهن ﴿كبيرا﴾ أي أعظم حكماً عليكم منكم عليهن فاحذروا واعفوا عنهن إذا رجعن لأنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم إذا رجع. قال في «الشرعة» وشرحها: إذا وقف واطلع من زوجته على فجور أي: فسق أو كذب أو ميل إلى الباطن فإنه يطلقها إلا أن لا يصبر عنها فيمسكها.

ـ روي ـ أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لي امرأة لا ترد يد لامس قال: «طلقها» قال: أحبها قال: «أمسكها» خوفاً عليه بأنه إن طلقها اتبعها وفسد هو أيضاً معها فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى فلا بد للرجال من تحمل المكاره إلا أنه لا ينبغي للمرء أن يكون ديوثاً كما قال بعض العارفين:

كريز از كفش دردهان نهنك ... كه مردن به از زندكانى به ننك

وكان بعض العلماء يقول: التحمل على أذى واحد من المرأة احتمال في الحقيقة من عشرين أذى منها مثلاً فيه نجاة الولد من اللطمة ونجاة القدر من الكسر ونجاة العجل من الضرب ونجاة الهرة من الزجر أي المنع من أكل فضول الخوان وسقاطه والثوب من الحرق والضيف من الرحيل قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وقال أيضاً:

«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة» وقال أيضاً: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجه من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا» قال النبي عليه السلام مخاطباً لعائشة رضي الله عنها «أيما امرأة تؤذي زوجها بلسانها إلا جعل الله لسانها يوم القيامة سبعين ذراعاً ثم عقد خلف عنقها. يا عائشة وأيما امرأة تصلي لربها وتدعو لنفسها ثم لا تدعو لزوجها إلا ضرب بصلاتها وجهها حتى تدعو لزوجها ثم تدعو لنفسها. يا عائشة وأيما امرأة جزعت على ميتها فوق ثلاثة أيام أحبط الله عملها. يا عائشة وأيما امرأة ناحت على ميتها إلا جعل الله لسانها سبعين ذراعاً وجرت إلى النار مع من تبعها. يا عائشة أيما امرأة أصابتها مصيبة فلطمت وجهها ومزقت ثيابها إلا كانت مع امرأة لوط ونوح في النار وكانت آيسة من كل خير وكل شفاعة شافع يوم القيامة يا عائشة وأيما امرأة زارت المقابر إلا لعنها الله تعالى ولعنها كل رطب ويابس حتى ترجع فإذا رجعت إلى منزلها كانت في غضب الله ومقته إلى الغد من ساعته فإن ماتت من وقتها كانت من أهل النار. يا عائشة اجتهدي ثم اجتهدي فإنكن صواحبات يوسف وفاتنات داود ومخرجات آدم من الجنة وعاصيات نوح ولوط. يا عائشة ما زال جبريل يوصيني في أمر النساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن. يا عائشة أنا خصم كل امرأة يطلقها زوجها» ثم قال: «يا عائشة وما من امرأة تحبل من زوجها حين تحبل إلا ولها مثل أجر الصائم بالنهار والقائم بالليل الغازي في سبيل الله. يا عائشة ما من امرأة أتاها الطلق إلا ولها بكل طلقة عتق نسمة وبكل رضعة عتق رقبة. يا عائشة أيما امرأة خففت عن زوجها من مهرها إلا كان لها من العمل حجة مبرورة وعمرة متقبلة وغفر لها ذنوبها كلها حديثها وقديمها سرها وعلانيتها عمدها وخطأها أولها وآخرها. يا عائشة المرأة إذا كان لها زوج فصبرت على أذى زوجها فهي كالمتشحطة في دمها في سبيل الله وكانت من القانتات الذاكرات المسلمات المؤمنات التائبات» كذا في «روضة العلماء» وفيه تطويل قد اختصرته وحذفت بعضه.

والإشارة في الآية أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء لأن وجودهن تبع لوجودهم وهم الأصول وهن الفروع فكما أن الشجرة فرع الثمرة بأنها خلقت منها فكذلك النساء خلقن من ضلوعهم فكما كان قيام حواء قبل خلقها وهي ضلع بآدم عليه السلام وهو قوام عليها فكذلك الرجال على النساء بمصالح أمور دينهن ودنياهن قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] واختص الرجال باستعدادية الكمالية للخلافة والنبوة فكان وجودهم الأصل ووجودهن تبعاً لوجودهم للتوالد والتناسل قال عليه السلام: «كمل من الرجال كثير وما كمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران وفضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» ومع هذا ما بلغ كمالهن إلى حد يصلحن للخلافة أو النبوة وإنما كان كمالهن بالنسبة إلى النسوة لا إلى الرجال لأنهن بالنسبة إليهم ناقصات عقل ودين حتى قال في عائشة رضي الله عنها مع فضلها على سائر النساء «خذوا ثلثي دينكم عن هذه الحميراء» فهذا بالنسبة إلى الرجال نقصان حيث لم يقل خذوا كمال دينكم ولكن بالنسبة إلى النساء كمال لأنه على قاعدة قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١] يكون حظ النساء من الدين الثلث فكماله كان الثلثين بمثابة الذكور بمثل حظ الأنثيين، قال الفقير جامع هذه المجالس النفيسة:

مرد بايد تاكه اقدامي كند در طريقت غيرت نامى كند
چون نه كامل زمردى دم مزن چون نه دلبر مكو از حسن تن
زن كه كامل شد زمردان دست برد مرد ناقص چون زن ناقص بمرد

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿**وإن خفتم**﴾ أي علمتم أو ظننتم أيها الحكام ﴿**شقاق بينهما**﴾ أي خلافاً بين المرأة وزوجها ولا تدرون من قبل أيهما يقع النشوز والشقاق المخالفة إما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر وإما لأن كلاً منهما في شق غير شق الآخر. قال ابن عباس رضي الله عنهما والجزم بوجود الشقاق لا ينافي بعث الحكمين لأنه لرجاء إزالته لا لتعرف ودوده بالفعل ﴿**فابعثوا**﴾ أي إلى الزوجين لإصلاح ذات البين ﴿**حكماً**﴾ رجلاً عادلاً صالحاً للحكومة والإصلاح ﴿**من أهله**﴾ من أهل الزوج ﴿**وحكما**﴾ آخر على صفة الأول ﴿**من أهلها**﴾ أي: أهل الزوجة فإن الأقارب أعرف ببواطن أحوالهم وأطلب للصلاح بينهم وانصح لهم وأسكن لنفوسهم لأن نفوس الزوجين تسكن إليهما وتبرز ما في ضمائرهما من حب أحدهما الآخر وبغضه ﴿**إن يريدا**﴾ أي الزوج والزوجة ﴿**إصلاحا**﴾ لهما أي ما بينهما من الشقاق ﴿**يوفق الله بينهما**﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والإلفة بحسن سعي الحكمين ويلقي في نفوسهما المودة والرأفة. وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه وفقه الله لما ابتغاه ﴿**إن الله كان عليماً خبيراً**﴾ بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشاق ويوقع الوفاق. وفي الآية حث على إصلاح ذات البين قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة» قالوا: بلى قال: «إصلاح ذات البين» وقال ﷺ: «ألا إنما الدين النصيحة» قالها ثلاثاً قالوا: لمن يا رسول الله قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين ولعامتهم» فالنصيحة لله تعالى أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئاً وتعمل بما أمر الله تعالى به وتنتهي عما نهى عنه وتدعو الناس إلى ذلك وتدلهم عليه وأما النصيحة لرسوله أن تعمل بسنته وتدعو الناس إليها. وأما النصيحة لكتابه أن تؤمن به وتتلوه وتعمل بما فيه وتدعو الناس إليه. وأما النصيحة للأئمة أن لا تخرج عليهم بالسيف وتدعو لهم بالعدل والإنصاف وتدل الناس عليه. وأما النصيحة للعامة فهو أن تحب لهم ما تحب لنفسك وأن تصلح بينهم ولا تهجرهم وتدعو لهم بالصلاح. ولا شك أن المصلحين هم خيار الناس بخلاف المفسدين فإنهم شرار الخلق إذ هم يسعون في الأرض بالفساد والتفريق وإيقاظ الفتنة دون إزالتها وقد ورد: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»:

ازان همنشين تاتواني كريز كه مر فتنه خفته را كفت خيز

ومن المفسدين من يوصل كلام أحد إلى أحد فيه ما يسوؤه ويحزنه فالعاقل لا يصيخ إلى مثل هذا القائل:

بدى درقفاعيب من كرد وخفت بتر زو قريني كه آورد وكفت
يكى تيرى افكنده ودرره فتاد وجودم نيازرد ورنجم نداد
توبر داشتى وآمدى سوى من همى در سپوزى به بهلوى من

والإشارة في الآية أنه إذا وقع الخلاف بين الشيخ الواصل والمريد المتكاسل ﴿**فابعثوا**﴾

متواسطين أحدهما من المشايخ المعتبرين والثاني من معتبري السالكين لينظرا إلى مقالهما ويتحققا أحوالهما ﴿إن يريدا إصلاحا﴾ بينهما بما رأيا فيه صلاحهما ﴿يوفق الله بينهما﴾ بالإرادة وحسن التربية ﴿إن الله كان﴾ في الأزل ﴿عليما﴾ بأحوالهما ﴿خبيرا﴾ بمآلهما فقدر لكل واحد منهما بما عليهما وبما لهما كذا في «تأويلات» الشيخ العارف نجم الدين الكبرى قدس سره وقد عرف منه أن التهاجر والمخالفة تقع بين الكاملين كما بين عوام المؤمنين ولا يمنع اختلافهم الصوري اتفاقهم المعنوي وقد اقتضت الحكمة الإلَهية ذلك فلمثل هذا سر لا يعرفه عقول العامة، قال مولانا جلال الدين في بيان اتحاد الأولياء والكاملين:

چون ازيشان مجتمع بيني دويار هم يكى باشند وهم شش صد هزار
بر مثال موجها إعداد شان در عدد آورده باشد پادشان
تفرقه در روح حيواني بود نفس واحد روح انساني بود
مؤمنان معدود ليك إيمان يكى جسم شان معدود ليكن جان يكى

والحاصل أن أهل الحق كلهم نفس واحدة والتفرقة بحسب البشرية والتخالف سبب لا ينافي توافقهم في المعنى من كل وجه وجهة.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿واعبدوا الله﴾ العبادة عبارة عن كل فعل وترك يؤتى به بمجرد أمر الله تعالى بذلك وهذا يدخل فيه جميع أعمال القلوب وجميع أعمال الجوارح ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ من الأشياء صنماً أو غيره أو شيئاً من الإشراك جلياً وهو الكفر أو خفياً وهو الرياء ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: وأحسنوا إليهما إحساناً. فالباء بمعنى إلى كما في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وبدأ بهما لأن حقهما أعظم حقوق البشر فالإحسان إليهما بأن يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ولا يخشن في الكلام معهما ويسعى في تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة ﴿وبذي القربى﴾ وبصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك بصلة الرحم والمرحمة إن استغنوا والوصية وحسن الإنفاق إن افتقروا ﴿واليتامى﴾ بإنفاق ما هو أصلح لهم أو بالقيام على أموالهم إن كان وصياً ﴿والمساكين﴾ بالمبار والصدقات وإطعام الطعام أو بالرد الجميل ﴿والجار ذي القربى﴾ أي الذي قرب جواره أو الذي له مع الجوار اتصال بنسب أو دين قال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لا يؤدي حق الجار إلا من رحم الله وقليل ما هم أتدرون ما حق الجار إن افتقر أغنيته وإن استقرض أقرضته وإن أصابه خير هنأته وإن أصابه شر عزيته وإن مرض عدته وإن مات شيعت جنازته» ﴿والجار الجنب﴾ أي: البعيد أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه السلام: «الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام وجار له حق واحد هو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب» ﴿والصاحب بالجنب﴾ أي: الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك في مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان

﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر الذي سافر عن بلده وماله والإحسان بأن تؤويه وتزوده أو هو الضيف الذي ينزل عليك وحقه ثلاثة أيام وما زاد على ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يقيم عنده حتى يخرجه ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من العبيد والإماء والإحسان إليهم بأن يؤدبهم ولا يكلفهم ما لا طاقة لهم ولا يكثر العمل لهم طول النهار ولا يؤذيهم بالكلام الخشن بل يعاشرهم معاشرة حسنة ويعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه. قال بعضهم كل حيوان فهو مملوك والإحسان إليه بما يليق به طاعة عظيمة ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ أي متكبراً يأنف من أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿فخوراً﴾ بما لا يليق يتفاخر عليهم ولا يقوم بالحقوق ويقال فخوراً في نعم الله لا يشكر قال الله تعالى لموسى عليه السلام: [يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وحدي لا شريك لي فمن لم يرض بقضائي ولم يشكر على نعمائي ولم يصبر على بلائي ولم يقنع بعطائي فليعبد ربا سواي. يا موسى لولا من يسجد لي ما أنزلت من السماء قطرة ولا أنبت في الأرض شجرة ولولا من يعبدني مخلصاً لما أمهلت من يجحدني طرفة عين ولولا من يشكر نعمتي لحبست القطر في الجو. يا موسى لولا التائبون لخسفت بالمذنبين ولولا الصالحون لأهلكت الصالحين].

واعلم أن العبادة أن تعبد الله وحده بطريق أوامره ونواهيه ولا تعبد معه شيئاً من الدنيا والعقبى فإنك لو عبدت الله خوفاً من شيء أو طمعاً في شيء فقد عبدت ذلك الشيء والعبودية طلب المولى بالمولى بترك الدنيا والعقبى والتسليم عند جريان القضاء شاكراً صابراً في النعم والبلوى فلا بد من التوحيد الصرف وترك الشرك حتى يوصله الله إلى مبتغاه، قال بعض العارفين:

نقد هستى محو كن در «لا اله» تابه بيني دار ملك پادشاه
غير حق هرذره كان مقصودتست تيغ «لا» بركش كه آن معبودتست
«لا» كه عرش وفرش رابرمى درد از فنا سوى بقاره ميبرد
«لا» ترا از تو رهايى ميدهد با خدايت آشنايى ميدهد
چون توخودرا از ميان برداشتى قصر ايمانرا درى افراشتى

فإذا حصل المقصود ووصل العابد إلى المعبود فحينئذٍ يصح منه بالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين الآية لأن الإحسان صفات الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] والإساءة من صفات الإنسان لقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] فالعبد لا يصدر منه الإحسان إلا أن يكون متخلقاً بأخلاق نفسه كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] وفيه إشارة أخرى وهي أن شرط العبودية الإقبال على الله بالكلية والإعراض عما سواه ولا يصدر منه الإحسان إلا إذا اتصف بأخلاق الله حتى يخرج من عهدة العبودية بالوصول إلى حضرة الربوبية فتفنى عنك به وتبقى به للوالدين وغيرهما محسناً لإحسانه بلا شرك ولا رياء فإن الشرك والرياء من بقاء النفس ولهذا قال عقيب الآية ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ لأن الاختيال والفخر من أوصاف النفس والله تعالى لا يحب النفس ولا أوصافها لأن النفس لا تحب الله ولا المحبة من أوصافها فإنها تحب الدنيا وزخارفها وما يوافق مقتضاها قال ﷺ: «الشرك أخفى في ابن آدم من دبيب النملة على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء» ومن خدم مخلوقاً خوفاً من مضرته أو طمعاً في منفعته فقد أشرك عملاً:

كه داند چو دربند حق نيستى | اكر بى وضو درنماز ايستى
بروى ريا خرقة سهلست دوخت | كرش باخدا درتواني فروخت
اكرجز بحق ميرود جاده ات | درآتش فشانند سجاده ات

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] يعني الأعمال التي عملوها لغير وجه الله أبطلنا ثوابها وجعلناها كالهباء المنثور وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس وجاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله إني أتصدق بالصدقة فالتمس بها وجه الله تعالى وأحب أن يقال لي فيه خير فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني من خاف المقام بين يدي الله تعالى ويريد ثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] رزقنا الله وإياكم الإخلاص.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿**الذين يبخلون**﴾ بما منحوا به وهو مبتدأ خبره محذوف أي احقاء بكل ملامة ﴿**ويأمرون الناس بالبخل**﴾ به أي بما منحوا به عطف على ما قبله ﴿**ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ أي من المال والغنى ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا**﴾ وضع الظاهر موضع المضمر إشعار بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله ومن كان كافراً بنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿**والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس**﴾ أي للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا لابتغاء وجه الله وهو عطف على الذين يبخلون ورئاء الناس مفعوله وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق فيما لا ينبغي من حيث إنه طرفا تفريط وإفراط سواء في القبح واستتباع الذم واللوم ﴿**ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ ليحوزوا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ: ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**﴾. أي: بئس الصاحب والمقارن الشيطان وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم ﴿**وماذا عليهم**﴾ أي على من ذكر من الطوائف ﴿**لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله**﴾ ابتغاء لوجه الله لأن ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي أن يكون الإنفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة أي وما الذي عليهم في الإيمان بالله تعالى والإنفاق في سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى ﴿**وكان الله بهم**﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿**عليماً**﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب فقد أخبر الله تعالى بدناءة همة الأشقياء وقصور نظرهم وأنهم يقنعون بقليل من الدنيا الدنية

ويحرمون من كثير من المقامات الأخروية السنية ولا ينفقونه في طلب الحق ورضاه بل ينفقونه فيما لا ينبغي:

هركه مقصودش ازكرم آنست كه برآرد بعالم آوازه
باشد از مصر فضل وجود وكرم خانه أو برون ز در واره

قال بعض الحكماء: مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصى فيقول الناس: ما أملأ كيس هذا الرجل ولا منفعة له سوى مقالة الناس ولو أراد أن يشتري به شيئاً لا يعطى له شيء كذلك الذي عمل للرياء والسمعة. قال حامد اللفاف: إذا أراد الله هلاك امرىء عاقبه بثلاثة أشياء: أولها يرزقه العلم ويمنعه عن عمل العلماء، والثاني يرزقه صحبة الصالحين ويمنعه عن معرفة حقوقهم، والثالث يفتح عليه باب الطاعة ويمنعه الإخلاص وإنما يكون ذلك المذكور لخبث نيته وسوء سريرته لأن النية لو كانت صحيحة لرزقه الله منفعة العلم ومعرفة حقوقهم وإخلاص العمل:

عبادت بإخلاص نيت نكوست وكرنه چه آيد زبى مغز پوست
چه زنار مغ درميانت چه دلق كه درپوشى ازبهر پندار خلق

فعلى الفتى أن يتخلص من الرياء في إنفاقه وفي كل أعماله ويكون سخياً لا شحيحاً فإن شكر المال إنفاقه في سبيل الله، قال الشيخ العطار قدس سره:

توانكر كه ندارد پاس درويش زدست غير تش برجان رسدنيش

ويناسبه ما قال الحافظ:

كنج قارون كه فروميرود از فكر هنوز
خوانده باشى كه هم از غيرت درويشانست

وإذا كان بخيلاً ومع هذا أمر الناس بالبخل يكون ذلك وزراً على وزر. قال صاحب «الكشاف» ولقد رأينا ممن بلى بلاء البخل من إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد شخص بصره وحل حبوته واضطرب وزاغت عيناه في رأسه كأنما نهب رحله وكسرت خزائنه ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده انتهى وهذا مشاهد في كل زمان لا يعطون ويمنعون من يعطي إن قدروا. والحاصل أنهم يجتهدون في منع من قصد خيراً كبناء القناطر والجسور وحفر الآبار وسائر الخيرات وذلك لكمال دناءتهم وقصور نظرهم وعدم شكرهم واللئيم لا يفعل إلا ما يناسب طبعه:

چو منعم كند سفله را روزكار نهد بردل تنك درويش بار
چو بام بلندش بود خود پرست كندبول وخاشاك بربام پست

قال بشير بن الحارث النظر إلى البخيل يقسي القلب فلا بد من مجانبة مجالسته وصحبته:

چونكه باشد مجاورت لازم همجوار كريم بايد بود
كركنى باكسى مشاوره آن مشاور حكيم بايد بود

ففي السخاء بركات في الدين والدنيا والآخرة. قيل: إن مجوسياً تصدق بمائة دينار فرأى الشبلي ذلك فقال: ما تنفعك هذه الصدقة؟ فبكى المجوسي ونظر إلى السماء فإذا رقعة وقعت عليه مكتوب فيها بخط أخضر:

مكافأة السماحة دار خلد وأمن من مخافة يوم بوس
وما نار بمحرقة جوادا ولو كان الجواد من المجوس

يعني: أن الله تعالى يوفق السخي للإيمان إن كان كافراً ولزيادة الطاعة والإخلاص فيها إن كان مؤمناً فيترقى إلى الدرجات العلى ويليق بمشاهدة ربه الأعلى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب شيئاً مقدار ذرة وهي النملة الصغيرة الحمراء التي لا تكاد ترى من صغرها أو الصغير جداً من أجزاء التراب أو ما يظهر من أجزاء الهباء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس وهو الأنسب بمقام المبالغة وهذا نفي للظلم لأنه إذا نفى القليل نفى الكثير لأن القليل داخل في الكثير **﴿وإن تك حسنة﴾** أي وإن يك مثقال الذرة حسنة أنث الضمير لتأنيث الخبر أو لإضافة المثقال إلى مؤنث وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة وتخفيفاً لكثرة الاستعمال **﴿يضاعفها﴾** أي يضاعف ثوابها لأن تضاعف نفس الحسنة بأن يجعل الصلاة الواحدة صلاتين مما لا يعقل **﴿ويؤت من لدنه﴾** ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضيل زائداً على ما وعد في مقابلة العمل **﴿أجراً عظيماً﴾** عطاء جزيلاً وإنما سماه أجراً لكونه تابعاً للأجر مزيداً عليه. قال في «التيسير»: وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره؟ مع أنه سمى الدنيا وما فيها قليلاً وسمى هذا الفضل عظيماً.

ـ روي ـ أنه يؤتى يوم القيامة بالعبد وينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه ثم يقال له: اعط هؤلاء حقوقهم فيقول: يا رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله لملائكته: انظروا في أعماله الصالحة فأعطوهم منها فإن بقي مثقال ذرة من حسنة ضعفها الله تعالى لعبده وأدخله الجنة بفضله ورحمته والظاهر أن ذلك التضعيف يكون من جنس اللذات الموعود بها في الجنة وأما هذا الأجر العظيم الذي يؤتيه من لدنه فهو اللذة الحاصلة عند الرؤية وعند الاستغراق في المحبة والمعرفة وإنما خص هذا النوع بقوله من لدنه لأن هذا النوع من الغبطة والسعادة والكمال لا ينال بالأعمال الجسدية بل إنما ينال مما يودع الله في جوهر النفس المقدسة من الإشراق والصفاء والنور وبالجملة فذلك التضعيف إشارة إلى السعادات الجسمانية وهذا الأجر العظيم إشارة إلى السعادات الروحانية.
ورد في الخبر الصحيح: «إن الله تعالى يقول لملائكته حين دخل أهل الجنة الجنة أطعموا أوليائي فيؤتى بألوان الأطعمة فيجدون لكل نعمة لذة غير ما يجدون للأخرى فإذا فرغوا من الطعام يقول الله تعالى: اسقوا عبادي فيؤتى بأشربة فيجدون لكل شربة لذة بخلاف الأخرى فإذا فرغوا يقول الله تعالى: أنا ربكم قد صدقتكم وعدي فاسألوني أعطكم قالوا: ربنا نسألك رضوانك مرتين أو ثلاثاً فيقول: رضيت عنكم ولدي المزيد فاليوم أكرمكم بكرامة أعظم من ذلك كله فيكشف الحجاب فينظرون إليه ما شاء الله فيخرون إليه سجداً فيكونون في السجود ما شاء الله تعالى ثم يقول لهم: ارفعوا رؤوسكم ليس هذا موضع عبادة فينسون كل نعمة كانوا فيها

ويكون النظر إليه أحب إليهم من جميع النعم».

جان بيجمال جانان ميل جهان ندارد وانكس كه اين ندارد حقاكه آن ندارت

«فيهب ريح من تحت العرش على تل من مسك أذفر فينشر المسك على رؤوسهم ونواصي خيولهم فإذا رجعوا إلى أهليهم يرون أزواجهم في الحسن والبهاء أفضل مما تركوهن ويقول لهم أزواجهم قد رجعتم أحسن مما كنتم» ومطمح نظر العارف الجنة المعنوية. قال أبو يزيد البسطامي حلاوة المعرفة الإلهية خير من جنة الفردوس وأعلى عليين لو فتحوا لي الجنات الثمان واعطوني الدنيا والآخرة لم يقابل أنيني وقت السحر طال أنسي بالله. وقال مالك بن دينار: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله تعالى، قال جلال الدين قدس سره:

أي خنك انراكه ذات خود شناخت اندر امن سرمدي قصري بساخت
پس چو آهن كرچه تيره هيكلي صيقلى كن صيقلى كن صيقلى
دفع كن از مغز ازبينى زكام تاكه ريح الله درآيد از مشام
هيچ مكذار ازتب وصفرا اثر تابيابى درجهان طعم شكر

أوصانا الله وإياكم إلى معرفته وأدخلنا الجنة برحمته ﴿فكيف﴾ محلها النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال أو الظرف أي فكيف يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿إذا جئنا﴾ يوم القيامة ﴿من كل أمة﴾ من الأمم ﴿بشهيد﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأفعال وهو نبيهم ﴿وجئنا بك﴾ أحضرناك يا محمد ﴿على هؤلاء﴾ إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر من قوله بشهيد ﴿شهيدا﴾ تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم أو إشارة إلى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الأنبياء على أممهم ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ بيان لحالهم التي أشير إلى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى: ﴿فكيف﴾ الخ وعصيان الرسول محمول على المعاصي المغايرة للكفر فلا يلزم عطف الشيء على نفسه أي يتمنى الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول والمراد الذين كفروا والذين عصوا الرسول ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ لو بمعنى أن المصدرية والجملة مفعول يود أي يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى فتسوية الأرض بهم كناية عن دفنهم أو يودون أنهم لم يبعثوا ولم يخلقوا وكأنهم والأرض سواء. قال بعض الأفاضل الباء للملابسة أي تسوى الأرض ملتبسة بهم ولا حاجة إلى الحمل على القلب لقلة الفرق بين تسويتهم بالأرض والتراب وتسويتها بهم ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ عطف على يود أي: ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم أو الواو للحال أي يودون أن يدفنوا في الأرض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثاً ولا يكذبونه بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته هل بلغكم؟ فتقول: ما جاءنا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً ثم يدعى غيره من الأنبياء عليهم السلام ثم ينادى كل إنسان باسمه واحداً واحداً وتعرض أعمالهم على رب العزة قليلها وكثيرها حسنها وقبيحها». وذكر أبو حامد

في كتاب «كشف علوم الآخرة» إن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحوش والطير ثم يقول لهم: كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض فحينئذٍ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ويتمنى الكافر فيقول: يا ليتني كنت تراباً.

واعلم أنه يعرض على النبي عليه السلام أعمال أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم وتعرض على الله يوم الخميس ويوم الاثنين وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فتفكر يا أخي وإن كنت شاهدا عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك وأعظم الشهود لديك المطلع عليك الذي لا يخفى عليه خائنة عين ولا يغيب عنه زمان ولا أين فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه يجازى على الصغير والكبير والقليل والكثير:

در خير بازست وطاعت وليك نه هركس تواناست بر فعل نيك

همه برك بودن همه ساختى بتدبير رفتن نپرداختى

فلا تضيع أيامك فإن أيامك رأس مالك وإنك ما دمت قابضاً على رأس مالك فإنك قادر على طلب الربح لأن بضاعة الآخرة كاسدة في يومك هذا فاجتهد حتى تجمع بضاعة الآخرة في وقت الكساد فإنما يجيء يوم تصير هذه البضاعة عزيزة فأكثر منها في يوم الكساد ليوم العزة فإنك لا تقدر على طلبها في ذلك اليوم.

ـ روي ـ أن الموتى يتمنون أن يؤذن لهم بأن يصلوا ركعتين أو يؤذن لهم أن يقولوا مرة واحدة لا إله إلا الله أو يؤذن لهم في تسبيحة واحدة فلا يؤذن لهم ويتعجبون من الأحياء أنهم يضيعون أيامهم في الغفلة.

مهلكه عمر به بيهوده بكذرد حافظ بكوش وحاصل عمر عزيزرا درياب

قال القاشاني في قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا﴾ الشهيد والشاهد ما يحضر كل أحد مما بلغه من الدرجة وهو الغالب عليه فهو يكشف عن حاله وعمله وسعيه ومبلغ جهده مقاماً كان أو صفة من صفات الحق أو رأيا فلكل أمة شهيد بحسب ما دعاهم إليه نبيهم وعرفه إليهم ولم يبعث إلا بحسب ما يقتضيه استعداد أمته فما دعاهم إلا إلى ما يطلب استعدادهم مما وصل إليه النبي من مقامه في المعرفة فلا يعرف أحد باطن أمرهم وما هم عليه من أحوالهم كنبيهم ولذلك جعل كل نبي شهيداً على أمته وقد ورد في الحديث «إن الله يتجلى لعباده في صورة معتقدهم فيعرفه كل واحد من أهل الملل والمذاهب ثم يتحول عن تلك الصورة فيبرز في صورة أخرى فلا يعرفه إلا الموحدون الواصلون إلى حضرة الأحدية من كل باب» وكما أن لكل أمة شهيداً فلكل أهل مذهب شهيد ولكل أحد شهيد يكشف عن حال مشهوده. وأما المحمديون فهم شهداء على الأمم ونبيهم شهيد عليهم لكونهم من الأمم ولكون نبيهم حبيباً مؤتى بجوامع الكلم متمماً لمكارم الأخلاق فلا جرم يعرفون الله عند التحول في جميع الصور إذا تابعوا نبيهم حق المتابعة ونبيهم يشهدهم ويعرف أحوالهم انتهى بعبارته جعلنا الله وإياكم من الكاملين الواصلين إلى حق اليقين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي

سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ .

ـ روي ـ أن عبد الرحمٰن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أفاضل الصحابة رضي الله عنهم حين كانت الخمر مباحة فأكلوا وشربوا فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم ليصلي بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد إلى آخرها بطرح اللا آت فنزلت فكانوا لا يشربون في أوقات الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ثم نزل تحريمها وتوجيه النهي إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهي عن إقامتها للمبالغة في ذلك. قال في «التيسير» ثم النهي ليس عن عين الصلاة فإنها عبادة فلا ينهى عنها بل هو نهي اكتساب السكر الذي يعجز به عن الصلاة على الوجه. قال الإمام أبو منصور رحمه الله: وكذلك قول رسول الله ﷺ: «لا صلاة للعبد الآبق ولا للمرأة الناشزة» ليس فيه النهي عن الصلاة لكن النهي عن الاباق والنشوز وهذا لأن الاباق والنشوز والسكر ليست بالتي تعمل في إسقاط الفرض فالمعنى لا تقيموها حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولون إذ بتلك التجربة يظهر أنهم يعلمون ما سيقرؤونه في الصلاة والسكر اسم لحالة تعرض بين المرء وعقله وأكثر ما يكون من الشراب وقد يكون من العشق والنوم والغضب والخوف لكنه حقيقة في الأول فيحمل عليه هنا. والسكارى جمع سكران كالكسالى جمع كسلان وأجمعوا على أنه لا يجوز بيع السكران وشراؤه ويؤاخذ بالاستهلاكات والقتل والحدود وصح طلاقه وعتاقه عقوبة له عندنا خلافاً للشافعي **﴿ولا جنباً﴾** عطف على قوله: وأنتم سكارى فإنه في حيز النصب كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً. والجنب من أصابته الجنابة يستوي في المؤنث والمذكر والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر وأصل الجنابة البعد والجنب مبعد عن القراءة والصلاة وموضعها **﴿إلا عابري سبيل﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على أنه حال من ضمير لا تقربوا باعتبار تقيده بالحال الثانية دون الأولى والعامل فيه النهي أي لا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال إلا حال كونكم مسافرين فتعذرون بالسفر فتصلون بالتيمم **﴿حتى تغتسلوا﴾** غاية للنهي عن قربان الصلاة حالة الجنابة. وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلي حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكي نفسه عما يدنسها ولا يكتفي بأدنى مراتب التزكية عند إمكان أعاليها **﴿وإن كنتم مرضى﴾** جمع مريض. والمرض على ثلاثة أقسام:

أحدها أن يكون بحيث لو استعمل الماء لمات كما في الجدري الشديد والقروح العظيمة.

وثانيها أن لا يموت باستعمال الماء ولكنه يجد الآلام العظيمة ويشتد مرضه أو يمتد.

وثالثها أن لا يخاف الموت ولا الآلام الشديدة لكنه يخاف بقاء شين أو عيب في البدن فالفقهاء جوزوا التيمم في القسمين الأولين وما جوزوه في القسم الثالث **﴿أو على سفر﴾** عطف على مرضى أي أو كنتم على سفر ما طال أو قصر وإيراده مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء

الحكم الشرعي عليه وبيان كيفيته وتعليق التيمم بالمرض والسفر مع أتم الحكم كذلك في كل موضع تحقق العجز حتى قال أبو حنيفة: يجوز التيمم للجنابة في المصر إذا عدم الماء الحار لأن العجز عن استعمال الماء يقع فيها غالباً **﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾** وهو المكان المنخفض المطمئن والمجيء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليواري شخصه عن أعين الناس **﴿أو لامستم النساء﴾** أي جامعتموهن يعني إذا أصابكم المرض أو السفر أو الحدث أو الجنابة **﴿فلم تجدوا ماء﴾** أي لم تقدروا على استعماله لعدمه أو لبعده أو لفقد آلة الوصول إليه من الدلو والرشاء أو المانع عنه من حية أو سبع أو عدو **﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾** فاقصدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. قال الزجاج: الصعيد وجه الأرض تراباً أو غيره وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله **﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾** إلى المرفقين لما روي أنه ﷺ تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره والباء زائدة أي فامسحوا وجوهكم وأيديكم منه أي من الصعيد **﴿إن الله كان عفواً غفورا﴾** تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فإن من عادته المستمرة أن يعفو عن الخطائين ويغفر للمذنبين لا بد من أن يكون ميسراً لا معسراً.

والإشارة أن الصلاة معراج المؤمن وميقات مناجاته والمصلي هو الذي يناجي ربه يعني يا مدعي الإيمان **﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾** أي: لا تجدوا القربة في الصلاة وأنتم سكارى من الغفلات وتتبع الشهوات لأن كل ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملتحق بالسكر ومن أجله جعل السكر على أقسام: فسكر من الخمر وسكر من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا وأصعب السكر سكرك من نفسك فإن من سكر من الخمر فقضاؤه الحرقة ومن سكر من نفسه ففي الوقت على الحقيقة له القطيعة والفرقة.

أي اسيرنـنـك نـام خـويـشـتـن	بـسـتـة خـودرا بـدام خـويـشـتـن
ورنـكـنـجـى بـاخـود انـدر كـوى أو	كـم شـو ازخـود تـابـيـابـى كـوى أو
تـاتـونـزديـك خـودى زيـن حـرف دور	غـائـبـى يـابـى اكـر خـواهـى حـضـور
تـاتـو ازغـفـلـت چـوبـاده مـسـت شـدى	لا جـرم ازطـور وصـلـت پـسـت شـدى

﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ ولماذا تقولون كما تقولون الله أكبر لتكبيرة الإحرام عند رفع اليدين ومعناه الله أعظم وأجل من كل شيء فإن كنت تعلم عند التقول به فينبغي أن لا يكون في تلك الحالة في قلبك عظمة شيء آخر وأمارة ذلك أن لا تجد ذكر شيء في قلبك مع ذكره تعالى ولا محبة شيء مع محبته ولا طلب شيء مع طلبه فإنه تبارك وتعالى واحد لا يقبل الشركة في جميع صفاته وإلا كنت كاذباً في قولك الله أكبر بالنسبة إلى حالك وكنت كالسكران لا تجد القربة من صلاتك لأن القربة مشروطة بشرط السجود كما خوطب به **﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾** [العلق: ١٩] والسجود أن تنزل من مركب أوصاف وجودك لتحمل على رفرف جوده إلى قاب قوسين أوصاف وجوده لشهود جماله وجلاله وهذا هو سر التشهد بعد السجود ثم قال: **﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾** يعني كما لا تجدون القربة وأنتم سكارى من الغفلات أيضاً لا تجدونها مع جنابة استحقاق البعد وهي ملابسة الدنيا الدنية إلا على طريق العبور بقدم ظاهر الشرع في سبيل الأوامر والنواهي كعبور طريق الاعتداد بالمطعم والمشرب لسد الرمق وحفظ القوة

والاكتساء لدفع الحر والبرد وستر العورة والمباشرة لحفظ النسل ﴿حتى تغتسلوا﴾ بماء القربة والإنابة وصدق الطلب وحسن الإرادة وخلوص النية من جنابة ملابسة الدنيا وشهواتها ﴿وإن كنتم مرضى﴾ بانحراف مزاج القلب في طلب الحق ﴿أو على سفر﴾ التردد بين طلب الدنيا وطلب العقبى والمولى ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ من غائط تتبع الهوى ﴿أو لامستم النساء﴾ أي لابستم الأشغال الدنيوية فأجنبتم وتباعدتم عن الله بعدما كنتم مجاوري حظائر القدس ووقعتم في رياض الأنس ﴿فلم تجدوا ماء﴾ صدق الإنابة والرجوع إلى الحق بالإعراض والانقطاع عن الخلق ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ وهو تراب أقدام الرجال الطيبين من سوء الأخلاق والأعمال ﴿فامسحوا بوجوهكم﴾ تراب أقدامهم وتمسكوا ﴿بأيديكم﴾ أذيال كرمهم مستسلمين بصدق الإرادة لأحكامهم ﴿إن الله كان عفوا﴾ يعفو عنكم التعصب وعدم الانقطاع إليه بالكلية ولعله يعفو عنكم التلوث بالدنيا الدنية بهذه الخصلة مرضية ﴿غفورا﴾ لكم آثار الشقوة من غبار الشهوة فإنهم يسعد بهم لأنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم:

كليد كنج سعادت قبول أهل دلست … مبادكس كه درين نكته شك وريب كند
شبان واديء أيمن كهى رسد بمراد … كه چند سال بجان خدمت شعيب كند

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿ألم تر﴾ الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين والرؤية بصرية لشهرة شنائع الموصوفين حتى انتظمت في سلك الأمور المشاهدة ﴿إلى الذين أوتوا نصيبا﴾ حظاً كائنا ﴿من الكتاب﴾ من علم الكتاب وهو التوراة والمراد بهم أحبار اليهود أي ألم تنظر إليهم فإنهم أحقاء بأن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم. نزلت في حبرين من أحبار اليهود كانا يأتيان رئيس المنافقين عبد الله بن أبي ورهطه يثبطانهم عن الإسلام ﴿يشترون الضلالة﴾ كأنه قيل: ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم؟ فقيل: يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية ﴿ويريدون﴾ أي لا يكتفون بضلالة أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته ﷺ: ﴿أن تضلوا﴾ أنتم أيضاً أيها المؤمنون ﴿السبيل﴾ المستقيم الموصل إلى الحق وإنما أرادوا ذلك ليكون الناس كلهم على دينهم فتكون لهم الرياسة على الكل وأخذ المرافق من الكل.

﴿والله أعلم﴾ أي: منكم ﴿بأعدائكم﴾ جميعاً ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون لكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم ﴿وكفى بالله﴾ الباء مزيدة ﴿ولياً﴾ متكفلاً في جميع أموركم ومصالحكم أو محباً لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ في كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فإنه تعالى معين يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد.

والإشارة أن من رزق شيئاً من علم الكتاب ظاهراً ولم يرزق أسراره وحقائقه وهم علماء السوء المداهنون في دين الله حرصاً على الدنيا وطمعاً في المال والجاه وحباً للرياسة والقبول ﴿يشترون الضلالة﴾ وهي المداهنة واتباع الهوى فيبيعون الدين بالدنيا ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ يا معشر العلماء الأتقياء وورثة الأنبياء وطلاب الحق من بين الخلق عن سبيل الحق بما يحسدونكم وينكرون عليكم ويلومونكم ويؤذونكم بطريق النصح وإظهار المحبة ﴿والله أعلم

بأعدائكم﴾ فلا تقبلوا نصيحتهم فيما يقطعون عليكم طريق الحق ويردونكم عنه ويصدونكم عن الله بالتحريض على طلب غير الله ورعاية حق غير الله وأطيعوا أمر الله تعالى فيما أمركم به.

واعلم أنك لا ترى حالاً أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين هذين الأمرين أعني الضلال والإضلال وأكثر ما يكونان في العلماء يطمعون فيما في أيدي الخلق فيداهنون فيضلون فسبب زوال المداهنة قطع الطمع.

ـ روي ـ عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكراً فدخل وأخرج السنور أولاً ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب: لا أعطيك بعد اليوم لسنورك شيئاً فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك فهو كما قال: فمن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة لم يتيسر له الحسبة. فعلى العاقل أن يزكي نفسه عن الأخلاق الرديئة ويطهرها من الخصال الذميمة:

چون طهارت نبود كعبه وبتخانه يكيست — نبود خير در آن خانه كه عصمت نبود

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿من الذين هادوا﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: من الذين هادوا قوم **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** الكَلِم اسم جنس ولذا ذكر الضمير في مواضع وجمع المواضع لتكرره في التوراة في مواضع بحسب الجنس أي: يزيلون لأنهم لما غيروه ووضعوا مكانه غيره فقد أزالوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها وأمالوه عنها.

والتحريف نوعان: أحدهما صرف الكلام إلى غير المراد بضرب من التأويل الباطل كما يفعل أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم. والثاني: تبديل الكلمة بأخرى وكانوا يفعلون ذلك نحو تحريفهم في نعت النبي ﷺ أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحد بدله. **﴿ويقولون﴾** في كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبي عليه السلام أم لا بلسان المقال والحال **﴿سمعنا﴾** قولك **﴿وعصينا﴾** أمرك عناداً وتحقيقاً للمخالفة **﴿واسمع﴾** أي: قولنا **﴿غير مسمع﴾** حال من المخاطب وهو كلام ذو وجهين: أحدهما المدح بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروهاً، والثاني الذم بأن يحمل على معنى أسمع حال كونك غير مسمع كلاماً أصلاً بصمم أو موت أي مدعو عليك بلا سمعت لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع فكأنهم قالوا ذلك تمنياً لإجابة دعوتهم عليه كانوا يخاطبون به النبي عليه السلام مظهرين له إرادة المعنى الأول وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأخير مطمئنون به **﴿وراعنا﴾** كلمة ذات جهتين أيضاً: محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانتظرنا واصرف سمعك إلى كلامنا نكلمك، وللشر بحملها على السب بالرعونة أي الحمق أو بإجرائها مجرى شبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعنا كانوا يخاطبون به النبي ﷺ ينوون الشتيمة والإهانة ويظهرون التوقير والاحترام. فإن قلت: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد

ما صرحوا وقالوا: سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء حشمة منه عليه السلام وخوفاً من بطش المؤمنين. **﴿ليا بألسنتهم﴾** انتصابه على العلية أي: يقولون ذلك للفتل بها ولصرف الكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع موضع لا استمعت مكروهاً وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير **﴿وطعنا في الدين﴾** أي: قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية **﴿ولو أنهم﴾** عندما سمعوا شيئاً من أوامر الله ونواهيه **﴿قالوا﴾** بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا **﴿سمعنا وأطعنا﴾** وبدل قولهم واسمع غير مسمع **﴿واسمع﴾** ولا يلحقون به غير مسمع وبدل قولهم راعنا **﴿وانظرنا﴾** ولم يدسوا تحت كلامهم شراً وفساداً أي لو ثبت أنهم قالوا هذا مكان ما قالوا من الأقوال. **﴿لكان﴾** قولهم ذلك **﴿خيراً لهم﴾** مما قالوا **﴿وأقوم﴾** أي: أعدل وأسد في نفسه وأصوب من القيم أي: المستقيم، قالوا لمّا لم يكن في الذي اختاروه خير أصلاً فلِمَ جعل هذا خيراً من ذلك وجوابه أنه كذلك على زعمهم فخوطبوا على ذلك وهو كقوله: ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] **﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾** أي: ولكن قالوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم ذلك **﴿فلا يؤمنون﴾** بعد ذلك **﴿إلا قليلا﴾** استثناء من ضمير المفعول في لعنهم أي: ولكن لعنهم الله إلا فريقاً قليلاً فإنه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الإيمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الأحبار كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما وهو استثناء من ضمير لا يؤمنون أي: لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً وهو إيمانهم بموسى وكفرهم بمحمد عليهما السلام.

والإشارة أن العلماء السوء من هذه الأمة **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** بالفعال لا بالمقال كما كان أهل الكتاب يحرفونه بالمقال. **﴿ويقولون سمعنا﴾** بالمقال فيما أمر الله به من ترك الدنيا وزينتها واتباع الهوى ومن إيثار الآخرة على الأولى والانقطاع عن الخلق في طلب المولى **﴿وعصينا﴾** بالفعال إذ لا يشمون روائح هذه المعاملات ولا يدورون حول هذه المقامات وينكرون على أهل هذه الكرامات ويستهزئون بأنواع المقالات فلا يؤمنون بالقلوب السليمة إلا قليلاً منهم بأن يكفروا بهوى نفوسهم ويؤمنوا بالإيمان الحقيقي الذي هو من نتائج الإرادة والصدق في طلب الحق والإخلاص في العمل لله وترك الدنيا وزخارفها بل بذل الوجود في طلب المعبود، قال العطار قدس سره:

مشو مغرور اين نطق مزور   بناداني مكن خودرا تو سرور
اكر علم همه عالم بخواني   چوبي عشقي ازو حروفي نداني

قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً لا يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة» أي: ريحها. قال الشيخ الشاذلي: العلم النافع هو الذي يستعان به على طاعة الله ويلزمك المخافة من الله والوقوف على حدود الله وهو علم المعرفة بالله. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: العلوم كالدنانير والدراهم إن شاء نفعك بها وإن شاء أضرك معها والعلم إن قارنته الخشية فلك أجره وثوابه وحصول النفع به وإلا فعليك وزره وعقابه وقيام الحجة به وعلامة خشية الله ترك الدنيا والخلق ومحاربة النفس والشيطان، قال الشيخ السعدي قدس سره:

دعوى كنى كه بر ترم ازديكران بعلم — چون كبر كردى ازهمه دونان فروترى
شاخ درخت علم ندانم بجز عمل — تا علم باعمل نكنى شاخ بى برى
علم آدميتست وجوا نمردى وادب — ورنه بدى بصورت الإنسان برابرى
ترك هواست كشتى درياى معرفت — عارف بذات شونه بدين قلندرى
هر علم راكه كارنه بندى چه فائدة — چشم از براى آن بود آخركه بنكرى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ أي التوراة **﴿آمنوا بما نزلنا﴾** من القرآن حال كونه **﴿مصدقا لما معكم﴾** من التوراة ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقاً لها في القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها في جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأمم بالاعصار فليست بمخالفة في الحقيقة بل هي عين الموافقة من حيث إن كلاً منهما حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعاً ولذلك قال ﷺ: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي» **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾** الطمس محو الآثار وإزالة الأعلام أي آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها من عين وحاجب وأنف وفم **﴿فنردها على أدبارها﴾** فنجعلها على هيئة أدبارها وهي الإقفاء مطموسة مثلها وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما نجعلها كخف البعير وحافر الدابة فتكون الفاء للتسبيب أي بأن نردها على أدبارها أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها على أنهم توعدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر طمسها ثم ردها على أدبارها **﴿أو نلعنهم﴾** أو نخزي أصحاب الوجوه بالمسخ. **﴿كما لعنا أصحاب السبت﴾** مسخناهم قردة وخنازير ووقوع الوعيد مشروط بالإيمان ومعلق به وجوداً وعدماً بمعنى إن وجد منهم الإيمان لم يقع وإلا وقع وقد وجد الإيمان منهم حيث آمن ناس منهم فلم يقع الوعيد **﴿وكان أمر الله﴾** أي عذابه **﴿مفعولا﴾** كائناً لا محالة وهذا وعيد شديد لهم يعني: أنتم تعلمون أنه كان تهديد الله في الأمم السالفة واقعاً لا محالة فكونوا على حذر من هذا الوعيد وارجعوا عن الكفر إلى الإيمان والإقرار بالتوبة والاستغفار.

اعلم أن المسخ قد وقع في هذه الأمة أيضاً، ومنه ما روي عن أبي علقمة أنه قال: كنت في قافلة عظيمة فأمرنا رجلاً نرتحل بأمره وننزل بأمره فنزلنا منزلاً وهو يشتم أبا بكر وعمر فقلنا له في ذلك فلم يجب إلينا بشيء فلما أصبحنا وأوقرنا وأصلحنا الراحلة لم يناد مناديه فجئناه ننظر ما حاله وما يصنع فإذا هو متربع وقد غطى رجليه بكساء له فكشفنا عنهما فإذا هو قد صار رجلاه كرجلي الخنازير فهيأنا راحلته وحملناه إليها فوثب من راحلته وقام برجليه وصاح ثلاث مرات صيحة الخنازير واختلط بالخنازير وصار خنزيراً حتى لا يعرفه منا أحد كذا في «روضة العلماء».

ـ روي ـ أن واحداً من رواة الأحاديث تحول رأسه رأس حمار لإنكار وقوع مضمون

حديث صحيح ورد في حق المقتدي بالإمام الرافع رأسه قبله أو واضعه وحاصل الحديث: «أن من رفع رأسه قبل الإمام أو وضعه كيف لا يخاف من أن يصير رأسه رأس حمار»، فوقع فيما وقع وهذا هو مسخ الصورة ومسخ المعنى أشد وأصعب منه فإن أعمى الصورة مثلاً يمكن أن يكون في الآخرة بصيراً ولكن من كان في هذه أعمى يعني بالقلب فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وفضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. فعلى السالك أن يجتهد حتى لا يرد وجهه الناطق إلى الله تعالى على الدنيا واتباع الهوى ولا يمسخ صفاته الإنسانية بالسبعية والشيطانية، قال الشيخ السعدي:

باتو ترسم نشود شاهد روحاني دوست　　كالتماس توبجز عالم جسماني نيست
سعى كن تاز مقام حيوان در كذرى　　كاهنست آينه ما دامكه نوراني نيست
خفتكانرا چه خبر زمزمه مرغ سحر　　حيوانرا خبر از عالم انساني نيست

قال الإمام في تفسير الآية وتحقيق القول فيها إن الإنسان في مبدأ خلقته ألف هذا العالم المحسوس ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات فقدامه عالم المعقولات ووراءه عالم المحسوسات فالمخذول هو الذي يرد من قدامه إلى خلفه كما قال تعالى في وصفهم ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] انتهى فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الشر بعد الخير، عن عبد الله بن أحمد المؤذن قال: كنت أطوف حول البيت وإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم أخرجني من الدنيا مسلماً لا يزيد على ذلك شيئاً فقلت له: لم لا تزيد على هذا الدعاء فقال: لو علمت قصتي كنت تعذرني فقلت: وما قصتك؟ قال: كان لي أخوان وكان الأكبر منهما مؤذناً أذن أربعين سنة احتساباً فلما حضره الموت دعا بالمصحف فظننا أن يتبرك به فأخذه بيده وأشهد على نفسه من حضر أنه بريء مما فيه ثم تحول إلى دين النصرانية فمات نصرانياً فلما دفن أذن الآخر ثلاثين سنة فلمّا حضره الموت فعل كما فعل الآخر فمات على النصرانية وإني أخاف على نفسي أن أصير مثلهما فأدعو الله تعالى أن يحفظ عليّ ديني فقلت: ما كان ديدنهما؟ فقال: كانا يتتبعان عورات النساء وينظران إلى المردان فهذا من آثار الرد واللعن والمسخ فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لتزكية النفس وإصلاحها ويختم عاقبتنا بالخير.

خدايا بحب بني فاطمة　　كه بر قول ايمان كنم خاتمه

﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ أي: لا يغفر الكفر ممن اتصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدي إلى فتحه ولأن ظلمات الكفر والمعاصي إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شيء من الكفر والمعاصي ﴿**ويغفر ما دون ذلك**﴾ أي: ويغفر ما دون الشرك في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة تفضلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل ﴿**لمن يشاء**﴾ أن يغفر له ممن اتصف به فقط أي: لا بما فوقه. قال شيخنا السيد الثاني سمي جامع القرآن: وهم المؤمنون الذين اتقوا من الإشراك بالله تعالى فيغفر لهم ما دون الإشراك من الصغائر والكبائر لعدم إشراكهم به ولا يغفر للمشركين ما دون الإشراك أيضاً لإشراكهم به فكما أن إشراكهم لا يغفر فكذلك ما دون إشراكهم لا يغفر بخلاف المؤمنين فإنه تعالى كما وقاهم من عذاب الإشراك بحفظهم عنه كذلك وقاهم من عذاب ما دونه بمغفرته لهم ﴿**ومن يشرك بالله**

فقد افترى إثماً عظيماً﴾ أي: من افترى واختلق مرتكباً إثماً لا يقادر قدره ويستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعاً. وهذه الآية من أجل الآيات التي كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وما غربت وأعظمها لأنها تؤذن بأن ما دون الشرك من الذنب مغفور بحسب المشيئة والوعد المعلق بالمشيئة من الكريم محقق الإنجاز خصوصاً لعباده الموحدين المخلصين من المحمديين كما قال لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

ـ روي ـ أن وحشياً قاتل حمزة عم النبي عليه السلام كتب إلى رسول الله ﷺ إني أريد أن أسلم ولكن يمنعني من الإسلام آية في القرآن نزلت عليك وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] وإني قد فعلت هذه الأشياء الثلاثة فهل لي من توبة؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] فكتب أن في الآية شرطاً وهو العمل الصالح فلا أدري أنا أقدر على العمل الصالح أم لا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فكتب بذلك إلى وحشي فكتب إليه أن في الآية شرطاً فلا أدري أيشاء أن يغفر لي أم لا فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] فكتب إلى وحشي فلم يجد الشرط فقدم المدينة وأسلم قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» ورأى أبو العباس شريح في مرض موته كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه وتعالى يقول: أين العلماء؟ فجاؤوا فقال: ماذا عملتم فيما علمتم فقلنا: يا رب قصرنا وأسأنا فأعاد السؤال فكأنه لم يرض به وأراد جواباً آخر فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي شرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه فقال الله تعالى اذهبوا فقد غفرت لكم ومات شريح بعده بثلاث ليال وهذا من حسن الظن بالله تعالى.

كنونت كه چشمست اشكى ببار   زبان در دهانست عذرى بيار
كنون بايدت عذر تقصير كفت   نه چون نفس ناطق زكفتن بخفت
غنيمت شمار اين كرامى نفس   كه بي مرغ قيمت ندارد قفس

واعلم أن للشرك مراتب وللمغفرة مراتب. فمراتب الشرك ثلاث: الجلي والخفي والأخفى. وكذلك مراتب المغفرة. فالشرك الجلي بالأعيان وهو للعوام وذلك بأن يعبد شيء من دون الله تعالى كالأصنام والكواكب وغيرها فلا يغفر إلا بالتوحيد وهو إظهار العبودية في إثبات الربوبية مصدقاً بالسر والعلانية. والشرك الخفي بالأوصاف وهو للخواص وذلك شوب العبودية بالالتفات إلى غير الربوبية في العبادة كالدنيا والهوى وما سوى المولى فلا يغفر إلا بالوحدانية وهي إفراد الواحد للواحد بالواحد. والشرك الأخفى وهو للأخص وذلك رؤية الأغيار والأنانية فلا يغفر إلا بالوحدة وهي فناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية ليبقى بالهوية دون الأنانية فإن الله لا يغفر بمراتب المغفرة أن يشرك به بمراتب الشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء أي لمن يشاء المغفرة فيستغفر الله تعالى من مراتب الشرك فيغفر له بمراتب المغفرة ومن يشرك بالله بمراتب الشرك فقد افترى إثماً عظيماً أي جعل بينه وبين الله حجاباً من إثبات وجود الأشياء وأنانيته وهي أعظم الحجب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب:

نيستى جولانكه أهل دلست   شاهراه عاشقان كاملست

چون وجودت محو كردى ازميان نور وحدت چشم دل را شد عيان
شرك رهزن باشد اي دل در طريق ذكر توحيد خدارا كن رفيق

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ خطاب للنبي عليه السلام على وجه التعجيب أي: ألم تنظر إلى اليهود الذين يطهرون نفوسهم من الذنوب وألسنتهم ولم يزكوها حقيقة بقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه وبقولهم: نحن كالأولاد الصغار فهل عليهم ذنب أي: انظر إليهم وتعجب من حالهم وادعائهم أنهم أزكياء عند الله مع ما هم عليه من الكفر والإثم العظيم واللفظ عام يشتمل كل من زكى نفسه ووصفها بزيادة التقوى والطاعة والزلفى عند الله ففيه تحذير من إعجاب المرء بعمله ﴿**بل الله**﴾ يعني هم لا يزكونها في الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله ﴿**يزكي من يشاء**﴾ تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح وقد وصفهم بما هم متصفون به من القبائح ﴿**ولا يظلمون**﴾ أي يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿**فتيلا**﴾ أي: أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في القلة والحقارة والظلم في حق المعاقب الزيادة على حقه وفي حق المثاب النقصان منه ﴿**انظر كيف**﴾ أي: في أي حال أو على أي حال ﴿**يفترون على الله الكذب**﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياء عنده والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً للمبالغة في تقبيح حالهم ﴿**وكفى به**﴾ بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام. ﴿**إثماً مبيناً**﴾ ظاهراً بيناً كونه إثماً والمعنى كفى بذلك وحده في كونهم أشد إثماً من كل كافر أثيم ولو لم يكن لهم من الذنوب إلا هذا الافتراء لكان إثماً عظيماً ونصب إثماً مبيناً على التمييز. قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قول الرجل أنا مؤمن ليس بتزكية النفس بل إخبار عن شيء أكرم به وإنما التزكية أن يرى نفسه تقياً صالحاً ويمدح به. قال السري قدس سره: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى. فيجب على العبد المؤمن أن يمتنع عن مدح نفسه ألا يرى إلى قوله عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم» كيف عقبه بقوله: «ولا فخر» أي: لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم لأن افتخاره عليه السلام كان بالله وتقربه من الله لا بكونه مقدماً على أولاد آدم كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يكون بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقديمه على بعض رعاياه:

اكر مردى ازمردىء خود مكوى نه هر شهسوارى بدر برد كوى
كنهكار انديشناك از خدا بسى بهتر از عابد خود نما
اكر مشك خالص ندارى مكوى وكرهست خود فاش كردد ببوى

ونعم ما قيل:

جوز خالى درميان جوزها مى نمايد خويشتن را از صدا

والإشارة في الآيتين أن الذين يزكون أنفسهم من أهل العلوم الظاهرة بالعلم ويباهون به العلماء ويمارون به السفهاء لا تزكى أنفسهم بمجرد تعلم العلم بل تزيد صفاتهم المذمومة مثل

المباهاة والمماراة والمجادلة والمفاخرة والكبر والعجب والحسد والرياء وحب الجاه والرياسة وطلب الاستيلاء والغلبة على الأقران والأمثال ﴿**بل الله يزكي من يشاء**﴾ التزكية ويتهيأ لها بتسليم النفس إلى أرباب التزكية وهم العلماء الراسخون والمشايخ المحققون كما يسلم الجلد إلى الدباغ ليجعله أديماً فمن يسلم نفسه للتزكية إلى المزكي ويصبر على تصرفاته كالميت في يد الغسال ويصغ إلى إشاراته ولا يعترض على معاملاته ويقاس شدائد أعمال التزكية فقد أفلح بما تزكى والمزكي هو النبي عليه السلام في أيام حياته كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢] الآية وبعدهم العلماء الذين أخذوا التزكية ممن أخذوا منه قرناً بعد قرن من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان إلى يومنا هذا ولعمري إنهم في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر، قال الشيخ الحسيني:

در طريقت رهبر دانا كزين ... زانكه ره دورست ورهزن در كمين
رهبرى بايد بمعنى سر بلند ... از شريعت وز طريقت بهره مند
أصل وفرع وجزء وكل آموخته ... شمع از نور علم افروخته
ظاهرش از علم كسبي باخدا ... باطنش ميراث دار مصطفا
هركه از دست عنايت بر كرفت ... روز أول دامن رهبر كرفت
هركه در زندان خود رأيى فتاد ... بند اورا سالها نتوان كشاد
اي سليم القلب دشوارست كار ... تانپندارى كه پندارست كار

فعلى السالك أن يتمسك بذيل المرشد ويتشبث به إلى الوقوف على علم التوحيد ثم الفناء عن نفسه لأن مجرد العرفان غير منج ما لم يحصل التحقيق بحقيقة الحال ولذا قال عليه السلام: «شر الناس من قامت عليه القيامة وهو حي» أي: وقف على علم التوحيد ونفسه لم تمت بالفناء حتى يحيى بالله فإنه حينئذٍ زنديق قائل بالإباحة في الأشياء عصمنا الله وإياكم من المعاصي والفحشاء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿**ألم تر إلى الذين**﴾ إلى اليهود الذين ﴿**أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ حظاً من علم التوراة أي: انظر يا محمد وتعجب من حالهم فكأنه قيل ماذا يفعلون حتى ينظر إليهم فقيل: ﴿**يؤمنون بالجبت**﴾ في الأصل اسم صنم فاستعمل في كل ما عبد من دون الله ﴿**والطاغوت**﴾ الشيطان ويطلق لكل باطل من معبود أو غيره.

ـ روي ـ أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة في سبعين راكباً من اليهود ليخالفوا قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام

وأطاعوا إبليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله تعالى وحده وينهى عن الشرك قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت نسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني وذكروا أفعالهم قال: أنتم أهدى سبيلاً وذلك قوله تعالى: ﴿**ويقولون للذين كفروا**﴾ أي: لأجلهم وفي حقهم ﴿**هؤلاء**﴾ إشارة إلى الذين كفروا ﴿**أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾ أي أقوم ديناً وأرشد طريقة ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى القائلين ﴿**الذين لعنهم الله**﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم ﴿**ومن يلعن الله**﴾ أي: يبعده عن رحمته تعالى: ﴿**فلن تجد له نصيراً**﴾ يدفع عنه العذاب دنيوياً كان أو أخروياً لا بشفاعة ولا بغيرها. وفيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش ﴿**أم لهم نصيب من الملك**﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما زعمت اليهود من أن ملك الدنيا سيصير إليهم ﴿**فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون أحداً مقدار نقير وهو النقرة في ظهر النواة يضرب به المثل في القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كل حالهم فإنهم إذا بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا أذلاء متفاقدين ﴿**أم يحسدون**﴾ منقطعة أيضاً ﴿**الناس**﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿**على ما آتاهم الله من فضله**﴾ يعني: النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوماً فيوماً ﴿**فقد آتينا**﴾ يعني أن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان فإنا قد آتينا من قبل هذا ﴿**آل إبراهيم**﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء أعمامه ﴿**الكتاب**﴾ المنزل من السماء ﴿**والحكمة**﴾ أي: النبوة والعلم ﴿**وآتيناهم**﴾ مع ذلك ﴿**ملكا عظيماً**﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته ﷺ ويحسدونه على إيتائها قال ابن عباس رضي الله عنهما: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ﴿**فمنهم**﴾ من اليهود ﴿**من آمن به**﴾ بمحمد عليه السلام ﴿**ومنهم من صد عنه**﴾ أي أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿**وكفى بجهنم سعيرا**﴾ ناراً مسعورة أي موقدة يعذبون بها أي: إن لم يعجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

واعلم أن الله تعالى وصف اليهود في الآية المتقدمة بالجهل الشديد وهو اعتقادهم أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى ثم وصفهم بالبخل والحسد. فالبخل هو أن لا يدفع إلى أحد شيئاً مما آتاه الله من النعمة. والحسد هو أن يتمنى أن لا يعطي الله غيره شيئاً من النعم فالبخل والحسد يشتركان في من يريد منع النعمة عن الغير. فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن غيره. وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله عن عباده فهما شر الرذائل وسببهما الجهل. أما البخل فلأن بذل المال سبب لطهارة النفس ولحصول سعادة الآخرة وحبس المال سبب لحصول مال الدنيا في يده فالبخل يدعوك إلى الدنيا ويمنعك عن الآخرة والجود يدعوك إلى الآخرة ويمنعك عن الدنيا ولا شك أن ترجيح الدنيا على الآخرة لا يكون إلا من محض الجهل. وأما الحسد فلأن الآلهية عبارة عن إيصال النعم والإحسان إلى العبيد فمن كره ذلك فكأنه أراد عزل الإله عن الإلهية وذلك محض الجهل ثم إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة فكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم، قال السعدي قدس سره:

شور بختان بآرزو خواهد مقبلا نرا زوال نعمت وجاه

كرنبيند بروز شبپره چشم — چشمه آفتابرا چه كناه
راست خواهى هزار چشم چنان — كور بهتركه آفتاب سياه

ولا يسود الحسود والبخيل في جميع الزمان ألا ترى أن الله تعالى جعل بخل اليهود كالمانع من حصول الملك لهم فهما لا يجتمعان وذلك لأن الانقياد للغير أمر مكروه لذاته والإنسان لا يتحمل المكروه إلا إذا وجد في مقابلته أمراً مطلوباً مرغوباً فيه وجهات الحاجات محيطة بالناس فإذا صدر من إنسان إحسان إلى غيره صارت رغبة المحسن إليه في ذلك المال سبباً لصيرورته منقاداً مطيعاً له فلهذا قيل بالبر يستعبد الحر فأما إذا لم يوجد هذا بقيت النفرة الطبيعية عن الانقياد للغير خالصاً من المعارض فلا يحصل الانقياد ألبتة، قال السعدي:

خورش ده بكنجشك وكبك وحمام — كه يك روزت افتنده يابى بدام
زر ازبهر خوردن بود اي پسر — زبهر نهادن چه سنك وچه زر

وقد شبه بعض الحكماء ابن آدم في حرصه على الجمع ووخامة عاقبته بدود القز الذي يكاد ينسج على نفسه بجهله حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه... ويصير القز لغيره فاللائق بشأن المؤمن القناعة بما رزقه الودود وترك الحرص والبذل من الموجود. وقيل: لما عرج النبي عليه السلام اطلع على النار فرأى حظيرة فيها رجل لا تمسه النار فقال عليه السلام: «ما بال هذا الرجل في هذه الحظيرة لا تمسه النار» فقال جبريل عليه السلام: هذا حاتم طي صرف الله عنه عذاب جهنم بسخائه وجوده فالجود صارف عن المرء عذاب الدنيا والعقبى وباعث لوصول الملك في الأولى والأخرى. ثم إن الملك على ثلاثة أقسام: ملك على الظواهر فقط وهذا هو ملك الملوك، وملك على البواطن فقط فهذا هو ملك العلماء، وملك على الظواهر والبواطن معاً وهذا هو ملك الأنبياء عليهم السلام فإذا كان الجود من لوازم الملك وجب في الأنبياء أن يكونوا في غاية الجود والكرم والرحمة والشفقة ليصير كل واحد من هذه الأخلاق سبباً لانقياد الخلق لهم وامتثالهم لأوامرهم وكمال هذه الصفات كان حاصلاً لمحمد عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿**إن الذين كفروا بآياتنا**﴾ القرآن وسائر المعجزات ﴿**سوف**﴾ كلمة تذكر للتهديد والوعيد يقال: سوف أفعل وتذكر للوعد أيضاً فتفيد التأكيد ﴿**نصليهم نارا**﴾ ندخلهم ناراً عظيمة هائلة.

﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾ أي احترقت ﴿**بدلناهم جلودا غيرها**﴾ غير يذكر ويراد به الضد تقول الليل غير النهار وأيضاً يقال للمثل المتبدل تقول للماء الحار إذا برد هذا غيره وهو المراد هنا أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلداً جديداً مغايراً للمحترق صورة وإن كان عينه مادة. والحاصل أنه يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى كقولك صغت من خاتمي خاتماً غيره فالخاتم الثاني هو الأول وإنما الصياغة اختلفت. فإن قلت الجلود العاصية إذا احترقت فلو خلق الله تعالى مكانها جلوداً أخرى وعذبها كان ذلك تعذيباً لمن لم يعص وهو

غير جائز. قلت: العذاب للجلدة الحساسة وهي التي عصت لا للجلد مطلقاً والذات واحدة فالعذاب لم يصل إلا إلى العاصي **﴿ليذوقوا العذاب﴾** أي ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله أي أدامك على عزك وزادك فيه. قال الحسن: تأكلهم النار في كل يوم سبعين مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا.

ـ وروي ـ مرفوعاً أن جلد الكافر أربعون ذراعاً وضرسه مثل أحد وشفته العليا تضرب سرته وبين لحمه وجلده ديدان كحمر الوحش تركض بين جلده ولحمه وحيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال وهذا ليس بزيادة تخلق وتعذب من غير معصية لكن إذا زيد ذلك ثقلة على العبد ويكون نفس الثقل عقوبة عليه كسائر عقوبات جهنم من السلاسل والأغلال والعقارب والحيات. فإن قلت: إنما يقال فلان ذاق العذاب إذا أدرك شيئاً قليلاً منه والله تعالى قد وصف أنهم كانوا في أشد العذاب فكيف يحسن أن يذكر بعد ذلك أنهم ذاقوا العذاب؟ قلت: المقصود من ذكر الذوق الإخبار بأن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق ودوام الملابسة ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على بقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع إبقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق **﴿إن الله كان عزيزا﴾** لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين **﴿حكيماً﴾** يعاقب من يعاقب على حكمته.

اعلم أن هذا العذاب والتبديل الذي في الآخرة كان حاصلاً له في الدنيا ولكن لم يكن يذوقه كالنائم يجرح نفسه بحديدة في يده فتكون الجراحة حاصلة له في الدنيا ولكن لم يذق ألمها حتى ينتبه فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. فعلى العبد أن يعمل على وفق الشرع وخلاف النفس والهوى حتى يجعل الله تعالى بإكسير الشرع نحاس الصفات الظلمانية النفسانية قضية الصفات النورانية الروحانية فإذا تخلص في الدنيا من شوب المعصية بإصلاح النفس والجريان على وفق الشرع لم يحتج في الآخرة إلى التهذيب والتنقيح بالنار.

ـ روي ـ أن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم غير تائبين ولا نادمين منهم من دخل النار في الباب الأول في جهنم حتى لا تزرق أعينهم ولا تسود وجوههم ولا يقرنون مع الشياطين ولا يغلون بالسلاسل ولا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران في النار حرم الله تعالى أجسادهم ووجوههم على النار من أجل السجود فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى عنقه قدر ذنوبهم وأعمالهم ثم إن منهم من يمكث فيها شهراً ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها وأطولهم فيها مكثاً كقدر الدنيا منذ خلقت إلى يوم تفنى. وكان ابن السماك يقول فيما يعاتب نفسه يا نفس تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين وفي الجنة تطمعين أن تدخلين هيهات هيهات إن للجنة قوماً آخرين ولها أعمال غير ما تعملين ويحك أخذت بزي كسرى وقيصر والفراعنة وتريدين أن ترافقي رسول الله ﷺ في دار الجلال فأعرض نفسك على كتاب الله فيما وصف أولياءه وأعداءه فانظر من أي الصنفين أنت؟!

برادر زكار بدان شرم دار كه در روي نيكان شوى شرمسار
نريزد خدا آب روى كسى كه ريزد كناه آب چشمش بسى

وذُكِر عن يزيد بن مرثد: أنه كان لا تنقطع دموع عينيه ساعة ولا يزال باكياً فسئل عن

ذلك فقال: لو أن الله تعالى أوعدني بأني لو أذنبت لحبسني في الحمام أبداً لكان حقيقاً عليّ أن لا تنقطع دموعي فكيف وقد أوعدني أن يحبسني في نار أوقد عليها ثلاثة آلاف سنة أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم، قال أبو هريرة رضي الله عنه لا تغبطن فاجراً بنعمته فإن وراءه طالباً حثيثاً وهي جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً، قال الحافظ قدس سره:

قلندران حقيقت به نيم جو نخرند قباي اطلس آنكس كه ازهنر عاريست

قال رسول الله ﷺ: «من كانت همته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت همته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له»، قال السعدي قدس سره:

آنكس ازدزد بپرسد كه متاعي دارد عارفان جمع نكردند وپريشانى نيست

هر كرا خيمه بصحراى قناعت زده اند كرجهان لرزه بكيرد غم ويرانى نيست

﴿والذين آمنوا﴾ بالله وبمحمد والقرآن وسائر الآيات والمعجزات **﴿وعملوا الصالحات﴾** التي أمر الله بها **﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾** أي: مقيمين فيها لا يخرجون منها ولا يموتون **﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾** أي مما نساء الدنيا عليه من الأحوال المستقذرة البدنية والادناس الطبيعية كالحيض والنفاس والحقد والحسد وغير ذلك **﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾** فينانا لا جوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس أي لا تزيله وسجسجا وهو من الزمان ما لا حر فيه ولا برد ومن المكان ما لا سهولة فيه ولا حزونة. والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه كما يقال: ليل أليل ويوم أيوم وما أشبه ذلك. فإن قلت: إذا لم يكن في الجنة شمس تؤذي بحرها فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟ وأيضاً يرى في الدنيا أن المواضع التي يدوم الظل فيها ولا يصل نور الشمس إليها يكون هواؤها عفناً فاسداً مؤذياً فما معنى وصف هواء الجنة بذلك؟ قلت: إن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة وهذا المعنى جعلوه كناية عن الراحة قال عليه السلام: «السلطان ظل الله في الأرض» فإذا كان الظل عبارة عن الراحة كان الظل الظليل كناية عن المبالغة العظيمة في الراحة. قال الإمام في تفسيره: هذا ما يميل إليه خاطري قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها اقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠] و في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة شباب جعد جرد مرد ليس لهم شعر إلا في الرأس والحاجبين واشفار العينين» يعني: ليس لهم شعر عانة ولا شعر من الإبط «على طول آدم عليه السلام ستون ذراعاً وعلى مولد عيسى عليه السلام ثلاث وثلاثون سنة بيض الألوان خضر الثياب يوضع لأحدهم مائدة بين يديه فيقبل الطائر فيقول: يا ولي الله أما إني قد شربت من عين السلسبيل ورعيت من رياض الجنة تحت العرش وأكلت من ثمار كذا فاطعم مني فيطعم فيكون أحد جانبيه مطبوخاً والآخر مشوياً فيأكل منهما ما شاء الله وعليه سبعون حلة ليس فيها حلة على لون آخر». قال الفقيه أبو الليث: من أراد أن ينال هذه الكرامة فعليه أن يداوم على خمسة أشياء:

الأول: أن يمنع نفسه من جميع المعاصي.

ونهى النفس بفرمود الله بايدت ترك هواي ترك كناه

والثاني: أن يرضى باليسير من الدنيا لأن ثمن الجنة ترك الدنيا.

اين زن زانية شوى كش دنيارا كر على وار طلاقش ندهم نامردم

والثالث: أن يكون حريصاً على الطاعات فيتعلق بكل طاعة فلعل تلك الطاعة تكون سبب المغفرة ودخول الجنة.

عمل بايد اندر طريقت نه دم كه سودى ندارد دم بي قدم

والرابع: أن يحب الصالحين وأهل الخير ويخالطهم ويجالسهم:

نخست موعظه پير مجلس اين حرفست كه از مصاحب ناجنس احتراز كنيد

فلزم أن يكون مصاحب الإنسان أهل خير لأن الصحبة مؤثرة وأن واحداً من الصلحاء إذا غفر الله له يشفع لإخوانه وأصحابه.

اميدست ازانان كه طاعت كنند كه بي طاعتا نرا شفاعت كنند

والخامس: أن يكثر الدعاء ويسأل الله تعالى أن يرزقه الجنة وأن يجعل خاتمته في الخير.

غنيمت شمارند مردان دعا كه جوشن بود پيش تير بلا

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ نزلت في عثمان بن عبد الدار الحجبي وكان سادن الكعبة وذلك أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان لعلي: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً وقرأ عليه فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهبط جبريل فأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبداً، ثم إن عثمان هاجر ودفع المفتاح إلى ابنه شيبة فهو في ولده إلى اليوم **﴿وإذا حكمتم﴾** أي: ويأمركم إذا قضيتم **﴿بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** والإنصاف والتسوية **﴿إن الله نعما يعظكم به﴾** أي نعم شيئاً ينصحكم به تأدية الأمانة والحكم بالعدل فما نكرة بمعنى شيء ويعظكم به صفته والمخصوص بالمدح محذوف **﴿إن الله كان سميعاً﴾** لما يقوله الخزنة **﴿بصيراً﴾** بما تعمله الأمناء أي اعملوا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات يجازيكم على ما يصدر منكم.

اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه. والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب للإنسان على غيره حق فأمرت من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفع إلى من له ذلك الحق ولما كان الترتيب الصحيح أن يبذل الإنسان نفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بحال غيره لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولاً ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق ونزول هذه الآية عند القصة المذكورة لا يوجب كونها مخصوصة بهذه القصة بل يدخل فيه جميع أنواع الأمانات.

فاعلم أن معاملة الإنسان إما أن تكون مع ربه أو مع سائر العباد أو مع نفسه ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة. أما رعاية الأمانة مع الرب فهي فعل المأمورات وترك المنهيات وهذا بحر لا ساحل له قال ابن مسعود: الأمانة في كل شيء لازمة في الوضوء والجنابة والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك. مثلاً إن أمانة اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها. وأمانة العينين أن لا يستعملها في النظر إلى الحرام. وأمانة السمع أن لا يستعمله في سماع الملاهي والمناهي واستماع الفحش والأكاذيب وغيرها وكذا القول في جميع الأعضاء، قال السعدي قدس سره:

زبان ازبهر شكر وسپاش بغيبت نكردانـدش حق شناس
كذركاه قرآن وبندست كوش به بهتان وباطل شنيدن مكوش
دوچشم ازپى صنع بارى نكوست نه عيب برادر بود كيردوست

وأما القسم الثاني: وهو رعاية الأمانة مع سائر الخلق فيدخل فيه رد الودائع ويدخل فيه ترك التطفيف في الكيل والوزن ويدخل فيه أن لا يفشى على الناس عيوبهم ويدخل فيه عدل الأمراء مع رعيتهم وعد العلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم ويدخل فيه أمانة الزوجة للزوج في حفظ فرجها وفي أن لا تلحق بالزوج ولداً تولد من غيره وفي إخبارها عن انقضاء عدتها. وأما القسم الثالث وهو أمانة الإنسان مع نفسه وهو أن لا يفعل إلا ما هو الأنفع والأصلح له في الدين والدنيا وأن لا يقدم بسبب الشهوة والغضب على ما يضره في الآخرة ولهذا قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» قال عليه السلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» فعلى العبد المؤمن أن يؤدي الأمانات كلها ما استطاع ويتعظ بمواعظ الحق في كل زمان فإن الوعظ نافع جداً.

امروز قدر پند عزيزان شناختم يا رب روان ناصح ما ازتوشاد باد

قاله الحافظ، وقال في موضع:

پند حكيم محض صوابست ومحض خير فروخنده بخت آنكه بسمع رضا شنيد

ثم إن من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانات إلى أهلها. قال الحسن: إن الله أخذ على الحكام ثلاثاً: أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، وأن لا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، قال ﷺ: «ينادي منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأين أعوان الظلمة فيجمعون كلهم حتى من برى لهم قلماً أو لاق لهم دواة فيجمعون ويلقون في النار»، قال السعدي قدس سره:

جهان نماند وآثار معدلت ماند بخير كوش وصلاح وبعدل كوش وكرم
كه ملك ودولت ضحاك مردمان آزار نماند وتا بقيامت برو بماند رقم

قال عليه السلام: «من دل سلطاناً على الجور كان مع هامان وكان هو والسلطان من أشد أهل النار عذاباً» فمقتضى الإيمان هو العدل والسببية للصلاح ونظام العالم وإجراء الشرع والاحتراز عن الرشوة فإن من أخذها لا يسامح في الشرع. وغضب الاسكندر يوماً على بعض شعرائه فأقصاه وفرق ماله في أصحابه فقيل له في ذلك فقال: أما إقصائي له فلجرمه وأما تفريقي ماله في أصحابه فلئلا يشفعوا فيه فانظر كيف كان أخذ المال سبباً لعدم الشفاعة لأنهم لو استشفعوا في حقه فشفعوا لزم الاسترداد فلما طعموا تركوا الشفاعة.

ازتوكر انصاف آيد در وجود به كه عمرى در ركوع ودر سجود

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ وهم أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدي بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله والرسول في وجوب الطاعة فإنهم اللصوص المتغلبة لأخذهم أموال الناس بالقهر والغلبة وإنما أفرد بالذكر طاعة الله ثم جمع طاعة الرسول مع طاعة أولي الأمر حيث قال تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر منكم تعليماً للأدب وهو أن لا يجمعوا في الذكر بين اسمه سبحانه وبين اسم غيره وأما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ﴿**فإن تنازعتم في شيء**﴾ أصل النزع الجذب لأن المتنازعين يجذب كل واحد منهما إلى غير جهة صاحبه أي إن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في أمر من أمور الدين ﴿**فردوه إلى الله**﴾ فارجعوا فيه إلى كتاب الله ﴿**والرسول**﴾ أي إلى سنته ﷺ. وتعلق أصحاب الظواهر بظاهر هذه الآية في أن الاجتهاد والقياس لا يجوز لأن الله تعالى أمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة ولا يوجد في كل حادثة نص ظاهر فعلم أنه أمر بالنظر في مودوعاته والعمل على مدلولاته ومقتضياته ولكن الآية في الحقيقة دليل على حجة القياس كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة: ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد إليهما بالقياس ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ فإن الإيمان بهما يوجب ذلك أما الإيمان بالله فظاهر وأما الإيمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿**ذلك**﴾ أي الرد إلى الكتاب والسنة ﴿**خير**﴾ لكم من التنازع وأصلح ﴿**وأحسن**﴾ في نفسه ﴿**تأويلا**﴾ أي عاقبة ومآلا. ودلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق فإذا خالفوه فلا طاعة لهم قال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وقال ﷺ: «من عامل الناس فلم يظلمهم ومن حدثهم فلم يكذبهم ومن وعدهم فلم يخلفهم فهو من كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته» ولا بد للأمراء من خوف الله وخشيته بإجراء الشرائع والأحكام واتباع سنن النبي عليه السلام حتى يملأ الله قلوب الناظرين إليهم رعباً وهيبة فحينئذٍ لا يحتاجون إلى محافظة الصورة والهيئة الظاهرة.

ـ روي ـ أن كلب الروم أرسل إلى عمر رضي الله عنه هدايا من الثياب والجبة فلما دخل الرسول إلى المدينة قال: أين دار الخليفة وبناؤه فقيل ليس له دار عظيم كما توهمت إنما له بيت صغير فدلوه عليه فأتاه فوجد له بيتاً صغيراً حقيراً قد اسود بابه لطول الزمان فطلبه فلم يصادفه وقيل: إنه خرج إلى السوق لحاجته وحوائج المسلمين أي: للاحتساب فخرج الرسول إلى طلبه فوجده نائماً تحت ظل حائط قد توسد بالدرة فلما رآه قال عدلت فأمنت فنمت حيث شئت وأمراؤنا ظلموا فاحتاجوا إلى الحصون والجيوش، قال السعدي قدس سره:

پادشاهى كه طرح ظلم افكند پاى ديوار ملك خويش بكند
نكند جور پيشه سلطانى كه نيايد زكرك چوبانى

ومن كلام أردشير: الدين أساس الملك والعدل حارسه فما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع.

ـ وروي ـ أي أنوشروان كان له عامل على ناحية فكتب إليه يعلمه بجودة الريع ويستأذنه في الزيادة على الرسوم فأمسك عن إجابته فعاوده العامل في ذلك فكتب إليه قد كان في ترك إجابتك ما حسبتك تنزجر به عن تكليف ما لم تؤمر به فإذن قد أبيت إلا تمادياً في سوء الأدب فاقطع إحدى أذنيك واكفف عما ليس من شأنك فقطع العامل أذنه وسكت عن ذلك الأمر وبالجملة فالظلم عار وجزاؤه نار والاجتناب منه واجب على كل عاقل وإذا كان نية المؤمن العدل فليجانب أهل الظلم وليجتنب عن إطاعتهم فإن الإطاعة لأهل الحق لا لغيرهم قال عليه السلام: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير العادل فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني».

واعلم أن الولاة إنما يكونون على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحاً وفساداً.

ـ روي ـ أنه قيل للحجاج بن يوسف: لِمَ لا تعدل مثل عمر وأنت قد أدركت خلافته أفلم ترَ عدله وصلاحه؟ فقال في جوابهم: تباذروا أي: كونوا كأبي ذر في الزهد والتقوى أتعمر لكم أي أعاملكم معاملة عمر في العدل والإنصاف وفي الحديث «كما تكونون يولى عليكم أحدكم» يعني: إن تكونوا صالحين فيجعل وليكم رجلاً صالحاً وإن تكونوا طالحين فيجعل وليكم رجلاً طالحاً.

ـ وروي ـ أن موسى عليه السلام ناجى ربه فقال: يا رب ما علامة رضاك من سخطك فأوحى إليه [إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضاي، وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي].

ثم اعلم بأن المراد بأولي الأمر في الحقيقة المشايخ الواصلون ومن بيده أمر التربية فإن أولي أمر المريد شيخه في التربية فينبغي للمريد في كل وارد حق يدق باب قلبه أو إشارة أو إلهام أو واقعة تنبىء عن أعمال أو أحوال في حقه أن يضرب على محك نظر شيخه فما يرى فيه الشيخ من المصالح ويشير إليه أو يحكم عليه يكون منقاداً لأوامره ونواهيه لأنه أولو أمره. وأما الشيخ فأولو أمره الكتاب والسنة فينبغي له أن ما سنح له من الغيب بوارد الحق من الكشوف والشواهد والأسرار والحقائق يضرب على محك الكتاب والسنة فما صدقاه ويحكمان عليه فيقبله وإلا فلا لأن الطريقة مقيدة بالكتاب والسنة كذا ذكره الشيخ الكامل نجم الدين الكبرى في تأويلاته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ أي: يدعون والمراد بالزعم هنا الكذب لأن الآية نزلت في

المنافقين ﴿**أنهم آمنوا بما أنزل إليك**﴾ أي بالقرآن ﴿**وما أنزل من قبلك**﴾ أي بالتوراة وغيرها من الكتب المنزلة وكأنه قيل ماذا يفعلون فقيل: ﴿**يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت**﴾ عن ابن عباس أن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى النبي عليه السلام لأنه كان يقضي بالحق ولا يلتفت إلى الرشوة ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف لأنه كان شديد الرغبة إلى الرشوة واليهودي كان محقاً والمنافق كان مبطلاً ثم أصر اليهودي على قوله فاحتكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي فلم يرض المنافق وقال: تتحاكم إلى عمر فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله فلم يرض بقضائه وخاصم إليك فقال عمر للمنافق: أكذلك فقال: نعم فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى مات وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت فهبط جبرائيل عليه السلام وقال: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوة الرسول وفي معناه ومن يحكم بالباطل ويؤثر لأجله. ﴿**وقد أمروا أن يكفروا به**﴾ أي: والحال أنهم قد أمروا أن يتبرأ من الطاغوت ﴿**ويريد الشيطان**﴾ أي: كعب بن الأشرف أو حقيقة الشيطان عطف على يريدون ﴿**أن يضلهم ضلالاً بعيداً**﴾ أي اضلالاً بعيداً لا غاية له فلا يهتدون ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي: للمنافقين ﴿**تعالوا**﴾ أي: جيئوا ﴿**إلى ما أنزل الله**﴾ أي: إلى ما أمره في كتابه ﴿**وإلى الرسول**﴾ وإلى ما أمره رسوله ﴿**رأيت المنافقين**﴾ إظهار المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية ﴿**يصدون عنك**﴾ حال من المنافقين ﴿**صدوداً**﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً وأي: إعراض ﴿**فكيف**﴾ يكون حالهم وكيف يصنعون يعني أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه ﴿**إذا أصابتهم مصيبة**﴾ أي وقت إصابة المصيبة إياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ بسبب ما عملوا من الجنايات التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت وعدم الرضى بحكم الرسول. ﴿**ثم جاؤوك**﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على إصابتهم ﴿**يحلفون بالله**﴾ حال من فاعل جاؤوك ﴿**إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً**﴾ أي: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا سخطاً لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار ﴿**أولئك**﴾ أي: المنافقون ﴿**الذين يعلم الله ما في قلوبهم**﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب ﴿**فأعرض عنهم**﴾ أي: لا تقبل اعتذارهم ولا تفرج عنهم بدعائك. ﴿**وعظهم**﴾ أي: ازجرهم عن النفاق والكيد ﴿**وقل لهم في أنفسهم**﴾ أي في حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى أو في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم مساراً بالنصيحة لأنها في السر أنجع ﴿**قولاً بليغاً**﴾ مؤثراً وأصلاً إلى كنه المراد مطابقاً لما سيق له المقصود والقول البليغ بأن يقول إن الله يعلم سركم وما في قلوبكم فلا يغني عنكم إخفاؤه فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم من رذيلة الكفر وداووها من مرض النفاق وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك وشراً من ذلك واغلظ عسى أن تنجع فيهم الموعظة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ

فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله **﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾** وعرضوها للعذاب بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك **﴿جاؤوك﴾** تائبين من النفاق **﴿فاستغفروا الله﴾** بالتوبة والإخلاص **﴿واستغفر لهم الرسول﴾** بأن يسأل الله أن يغفر لهم عند توبتهم. فإن قلت: لو تابوا على وجه صحيح لقبلت توبتهم فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم. قلت: التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه السلام وإدخالاً للغم إلى قلبه عليه السلام ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الغير **﴿لوجدوا الله﴾** لصادفوه حال كونه تعالى **﴿تواباً﴾** مبالغاً في قبول التوبة **﴿رحيماً﴾** مبالغاً في التفضل عليهم بالرحمة بدل من توابا **﴿فلا﴾** أي ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ثم استأنف القسم فقال: **﴿وربك لا يؤمنون حتى يحكموك﴾** أي: يجعلونك حكماً يا محمد ويترافعوا إليك **﴿فيما شجر بينهم﴾** أي فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه **﴿ثم لا يجدوا﴾** عطف على مقدر ينساق إليه الكلام أي فتقضى بينهم ثم لا يجدوا **﴿في أنفسهم حرجاً﴾** ضيقاً **﴿مما قضيت﴾** أي مما قضيت به يعني يرضون بقضائك ولا تضيق صدورهم من حكمك **﴿ويسلموا تسليماً﴾** وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم. وفي هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله وأوامر الرسول ﷺ فهو خارج عن الإسلام سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعي الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم فاتباع الرسول عليه السلام فرض عين في الفرائض العينية وفرض كفاية في الفروض على سبيل الكفاية وواجب في الواجبات وسنة في السنن وهكذا ومخالفته تزيل نعمة الإسلام:

خلاف پيمبر كسى ره كزيد ... كه هركز بمنزل نخواهد رسيد

فالنبي ﷺ هو الدليل في طريق الحق ومخالفة الدليل ضلالة، قال الحافظ:

بكوى عشق منه بي دليل راه قدم ... كه من بخويش نمودم صد اهتمام ونشد

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به» وقال عليه السلام: «من ضيع سنتي» أي جعلها ضائعة بعدم اتباعها «حرمت عليه شفاعتي» وقال ﷺ: «من حفظ سنتي أكرمه الله تعالى بأربع خصال: المحبة في قلوب البررة، والهيبة في قلوب الفجرة، والسعة في الرزق، والثقة في الدين» فإنما أمته من اتبعه ولا يتبعه إلا من أعرض عن الدنيا فإنه عليه السلام ما دعا إلا إلى الله تعالى واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عنها وأقبلت على الله وصرفت الأوقات لأعمال الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ذلك اتبعته وبقدر ما اتبعته صرت من أمته ولو أنصفنا لعلمنا أننا من حين نمسي إلى حين نصبح لا نسعى إلا في الحظوظ العاجلة ولا نتحرك إلا لأجل الدنيا الفانية ثم

نطمع في أن نكون غداً من أمته وأتباعه.

ـ روي ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيأتي على الناس زمان تخلق سنتي فيه وتتجدد فيه البدعة فمن اتبع سنتي يومئذٍ صار غريباً وبقي وحيداً ومن اتبع بدع الناس وجد خمسين صاحباً أو أكثر» فقال الصحابة يا رسول الله عليك السلام هل بعدنا أحد أفضل منا؟ قال: «بلى» قالوا: أفيرونك يا رسول؟ قال: «لا» قالوا: فكيف يكونون فيها؟ قال: «كالملح في الماء تذوب قلوبهم كما يذوب الملح في الماء» قالوا: فكيف يعيشون في ذلك الزمان؟ قال: «كالدود في الخل» قالوا: كيف يحفظون دينهم يا رسول الله؟ قال: «كالفحم في اليد إن وضعته طفىء وإن أمسكته أو عصرته أحرق اليد» وعن أبي بجيج العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» فعلى المؤمن أن يتبع سنة الرسول ويجتنب عن كل ما هو بدعة وضلالة ويصلح ظاهره بالشريعة وباطنه بالطريقة حتى ينال شفاعته ﷺ يوم القيامة ويتخلص من عذاب النار ويدخل الجنة مع الأبرار. فالمؤمن في الآخرة في الجنات كشجرة مثمرة لا تنفك عن البستان. والمنافق في الدركات كشجرة غير مثمرة تقلع من البستان وتوقد بها النار، قال الفردوسي:

درختى كه شيرين بود باراو ... نكردد كسى كرد ازار او
وكر زانك شيرين نباشد برش ... زپاى اندر آرند ناكه سرش
بماند بباغ آن ودر آتش اين ... تو خواهى چنان باش وخواهى چنين

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي: أوجبنا أو فرضنا على هؤلاء المنافقين. **﴿أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾** كما أوجبناه على بني إسرائيل حين طلبوا التوبة من ذنوبهم **﴿ما فعلوه﴾** أي المكتوب المدلول عليه بكتبنا **﴿إلا قليل منهم﴾** إلا ناس قليل منهم وهم المخلصون **﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾** من متابعة الرسول وطاعته والمشي تحت رايته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهراً وباطناً وسميت أوامر الله ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب **﴿لكان﴾** أي فعلهم ذلك **﴿خيرا لهم﴾** أي: أحمد عاقبة في الدارين **﴿وأشد تثبيتاً﴾** لهم على الإيمان وأبعد من الاضطراب فيه **﴿وإذاً﴾** كأنه قيل: وماذا يكون لهم بعد التثبيت؟ فقيل: وإذا لو ثبتوا **﴿لآتيناهم من لدنا﴾** من عندنا **﴿أجراً عظيماً﴾** ثواباً كثيراً في الآخرة لا ينقطع **﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾** يصلون بسلوكه إلى عالم القدس ويفتح لهم أبواب الغيب قال ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

واعلم أن قتل النفس في الحقيقة قمع هواها التي هي حياتها وإفناء صفاتها والخروج من الديار خروج من المقامات التي سكنت القلوب بها وألفتها من الصبر والتوكل والرضى والتسليم

وأمثالها لكونها حاجبة عن التوحيد والفناء في الذات كما قال الحسين بن منصور لإبراهيم بن أدهم حين سأله عن حاله وأجابه بقوله أدور في الصحاري وأطوف في البراري بحيث لا ماء ولا شجر ولا روض ولا مطر هل حالي حال التوكل أو لا؟ فقال: إذا فنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد.

جان عارف دوست را طالب شده نور حق باهستيش غالب شده
پرتو ذات از حجاب كبريا كرده اورا غره بحر فنا

وعن إبراهيم بن أدهم قال: دخلت جبل لبنان فإذا أنا بشاب قائم وهو يقول: يا من شوقي إليه وقلبي محب له ونفسي له خادم وكلي فناء في إرادتك ومشيئتك فأنت ولا غيرك متى تنجيني من هذه العذرة قلت: رحمك الله ما علامة حب الله؟ قال: اشتهاء لقائه قلت: فما علامة المشتاق؟ قال: لا له قرار ولا سكون في ليل ولا نهار من شوقه إلى ربه قلت: فما علامة الفاني؟ قال: لا يعرف الصديق من العدو ولا الحلو من المر من فنائه عن رسمه ونفسه وجسمه قلت: فما علامة الخادم قال: إنه يرفع قلبه وجوارحه وطمعه من ثواب الله، قال الحافظ قدس سره:

توبندكى چو كدايان بشرط مزد مكن كه دوست خودروش بنده پرورى داند

قال رسول الله ﷺ: «لا يكونن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل» وبالجملة أنه لا بد للسالك من إقامة وظائف العبادات والأوراد فإن الله أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فإن من فاته صنف أو أعوزه من الموافقات جنس فقد من النور بمقدار ذلك وليس للوصول سبيل ولا إلى الفناء دليل غير العبودية وترك ما سوى الحق.

بشب حلاج راديدند در خواب بريده سر بكف برجام جلاب
بدو كفتند چونى سر بريده بكو تا چيست اين جام كزيده
چنين كفت اوكه سلطان نكونام بدست سر بريده ميدهد جام
كسى اين جام معنى ميكند نوش كه كرداول سر خودرا فراموش

كما قيل: من لم يركب الأهوال لم ينل الأموال فيا أيها العبد الذي لا يفعل ما يوعظ به ولا يخاف من ربه كيف تركت ما هو خير لك وأعرضت عما ينفعك فليس لك الآن إلا التوبة عما يوقعك في المعاصي والمنهيات والرجوع إلى الله بالطاعات والعبادات والفناء عن الذات بالإصغاء إلى المرشد الرشيد الواصل إلى سر التفريد وقبول أمره وعظته وتسليم النفس إلى تربيته ودوام المراقبة في الطريق ومن الله التوفيق.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾﴾

﴿ومن يطع الله والرسول﴾ والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل بجميع الأوامر والنواهي.

- روي - أن ثوبان مولى رسول الله أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة على لقائك ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلتك وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك ابداً فنزلت فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين» ﴿**فأولئك**﴾ إشارة إلى المطيعين ﴿**مع الذين أنعم الله عليهم**﴾ أي: أتم الله عليهم النعمة وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد إلى الله وأرفعهم درجات عنده ﴿**من النبيين**﴾ بيان للمنعم عليهم وهم الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل ﴿**والصديقين**﴾ المبالغين في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها ﴿**والشهداء**﴾ الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله ﴿**والصالحين**﴾ الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد في الدرجة لأن التساوي بين الفاضل والمفضول لا يجوز ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد وإن بعد ما بينهما من المسافة ﴿**وحسن أولئك رفيقا**﴾ في معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقاً أي النبيين ومن بعدهم ورفيقاً تمييز وإفراده لما أنه كالصديق والخليط والرسول يستوي فيه الواحد والمتعدد والرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة في المعاشرة قولاً وفعلاً ﴿**ذلك الفضل**﴾ مبتدأ والفضل صفته وهو إشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم ﴿**من الله**﴾ خبره أي لا من غيره ﴿**وكفى بالله عليماً**﴾ بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله. وهذه الآية عامة في جميع المكلفين إذ خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ فكل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات والمراتب الشريفة عند الله تعالى:

- روي - عن بعض الصالحين أنه قال: أخذتني ذات ليلة سنة فنمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت وكأن الناس يحاسبون فقوم يمضي بهم إلى الجنة وقوم يمضي بهم إلى النار قال: فأتيت الجنة فناديت يا أهل الجنة بماذا نلتم سكنى الجنان في محل الرضوان؟ فقالوا لي: بطاعة الرحمان ومخالفة الشيطان ثم أتيت باب النار فناديت يا أهل النار بماذا نلتم النار؟ قال: بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمان:

کجا سربر آريم ازين عارونك   كه با او بصلحيم وباحق بجنك
نظر دوست نادر كند سوى تو   چو در روى دشمن بودروى تو

قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قيل: ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» فعلى المرء أن يتبع الرسول ويتبع أولياء الله فإن الأنبياء لهم وحي إلهي والأولياء لهم الهام رباني والاتباع لهم لا يخلو عن الاتباع للرسول قال عليه السلام: «المرء مع من أحب» فإن أحب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين كان معهم في الجنة. وفي الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن لا يتأخر من مرتبة الصلاح بل يسعى

في تكميل الصلاح ثم يترقى إلى مرتبة الشهادة ثم إلى الصديقية وليس بين النبوة وبين الصديقية واسطة رزقنا الله وإياكم الفوز بهذا النعيم قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» وأقل الصدق استواء السر والعلانية والصادق من صدق في أقواله والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله. وكان جعفر الخواص يقول: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه وثمرات الصدق كثيرة فمن بركاته في الدنيا أنه حكي عن أبي عمر الزجاجي أنه قال: ماتت أمي فورثت داراً فبعتها بخمسين ديناراً وخرجت إلى الحج فلما بلغت بابل استقبلني واحد من القافلة وقال: أي شيء معك؟ فقلت من نفسي الصدق خير ثم قلت: خمسون ديناراً فقال: ناولنيها فناولته الصرة فحلها فإذا هي خمسون وقال لي: خذها فلقد أخذني صدقك ثم نزل عن الدابة وقال: اركبها فقلت: لا أريد فقال: لا وألح فركبتها فقال: وأنا على أثرك فلما كان العام القابل لحق بي ولازمني حتى مات، قال الحافظ قدس سره:

بصدق كوش كه خورشيد زايد ازنفست كه از دروغ سيه روى كشت صبح نخست

يعني أن الصبح الكاذب تعقبه الظلمة والصبح الصادق يعقبه النور فمن صدق فقد بهر منه النور ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ أي: تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه ﴿**فانفروا**﴾ فاخرجوا إلى جهاد العدو ﴿**ثبات**﴾ جماعات متفرقة سرية بعد سرية إلى جهات شتى وذلك إذا لم يخرج النبي عليه السلام. جمع ثبة وهي جماعة من الرجال فوق العشرة ومحلها النصب على الحالية ﴿**أو انفروا جميعاً**﴾ مجتمعين كوكبة واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وذلك إذا خرج النبي عليه السلام. ﴿**وإن منكم**﴾ خطاب لعسكر رسول الله ﷺ كلهم المؤمنين والمنافقين ﴿**لمن**﴾ الذي أقسم بالله ﴿**ليبطئن**﴾ ليتأخرن عن الغزو ويتخلفن تثاقلاً من بطأ لازم بمعنى أبطأ أو ليبطئن غيره ويثبطه عن الجهاد وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبي وهو الذي يثبط الناس يوم أحد والأول أنسب لما بعده وهو قوله تعالى حكاية ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾ [النساء: ٧٣] وبالجملة المراد بالمبطئين المنافقون من العسكر لأنهم كانوا يغزون نفاقاً ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾ نالتكم نكبة من الأعداء كقتل وهزيمة ﴿**قال**﴾ أي: المبطىء فرحاً بصنعه وحامداً لربه ﴿**قد أنعم الله علي**﴾ أي: بالقعود والتخلف عن القتال ﴿**إذ لم أكن معهم شهيداً**﴾ أي حاضراً في المعركة فيصيبني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾

﴿**ولئن أصابكم فضل**﴾ كائن ﴿**من الله**﴾ كفتح وغنيمة ﴿**ليقولن**﴾ ندامة على تثبيطه وقعوده وتهالكاً على حطام الدنيا وتحسراً على فواته ﴿**كأن لم تكن بينكم وبينه مودة**﴾ اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذي هو ﴿**يا**﴾ قوم ﴿**ليتني كنت معهم**﴾ في تلك الغزوة ﴿**فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ أي آخذ حظاً وافراً من الغنيمة وإنما وسعه بينهما لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه معية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما في البين من المودة بل هو للحرص على

المال كما ينطق به آخره وليس إثبات المودة في البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم **﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾** أي: يبيعونها بها ويأخذون الآخرة بدلها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أي إن بطأ هؤلاء عن القاتل فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون فالفاء للتعقيب أي ليتركوا ما كانوا عليه من التثبيط والنفاق والقعود عن القتال في سبيل الله **﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾** لا يقادر قدره وعدله الأجر العظيم غلب أو غلب ترغيباً في القتال أو تكذيباً لقولهم قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً وإنما قال: فيقتل أو يغلب تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلاً وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه» مع ما نال من أجر وغنيمة قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» وذلك بأن تدعوا عليهم بالخذلان والهزيمة وللمسلمين بالنصر والغنيمة وتحرضوا القادرين على الغزو وفي الحديث «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا» أي: كان خلفاً لأهل بيته في إقامة حوائجهم وتتميم مصالحهم وفضائل الجهاد لا تكاد تضبط. فعلى المؤمن أن يكون في طاعة ربه بأي وجه كان من الوجوه التعبدية فإن الآية الأولى وهي قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾** الآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الحيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات:

مكن عمر ضايع بافسوس وحيف　　　كه فرصت عزيز ست والوقت سيف

قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال قبل أن تجيء فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا» وعن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقي من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشد منه شراً حتى تتقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ.

روزى اكر غمى رسدت تنك دل مباش　　　روشكر كن مبادكه ازبد بترشود

واعلم أن العدة والسلاح في جهاد النفس والشيطان يعني آلة قتالهما ذكر الله وبه يتخلص الإنسان من كونه أسير الهوى النفساني قال رسول الله ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» وعن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد فوقف على رسول الله ﷺ. فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها. وأما الآخر فجلس خلفهم. وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيى الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

بذ كرش هرچه بيني درخروشست　　　دلى داند درين معنى كه كوشست
نه بلبل بركلش تسبيح خوانيست　　　كه هر خارى بتوحيدش زبانيست

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿**وما لكم**﴾ أي: أي شيء حصل لكم من العلل أيها المؤمنون حال كونهم ﴿**لا تقاتلون في سبيل الله**﴾ أي تاركين القتال يعني لا عذر لكم في ترك المقاتلة وهذا استفهام بمعنى التوبيخ ولا يقال ذلك إلا عند سبق التفريط ﴿**والمستضعفين**﴾ عطف على السبيل بحذف المضاف لا على اسم الله وإن كان أقرب لأن خلاص المستضعفين سبيل الله لا سبيلهم والمعنى في سبيل الله وفي خلاص الذين استضعفهم الكفار بالتعذيب والأسر وهم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد وإنما خصهم بالذكر مع أن سبيل الله عام في كل خير لأن تخليص ضعفة المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه ﴿**من الرجال والنساء والولدان**﴾ بيان للمستضعفين والولدان الصبيان جمع ولد وإنما ذكرهم معهم تسجيلاً بإفراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء. ودلت الآية على أن استنقاذ الأساري من المسلمين من أيدي الكفار واجب بما قدروا عليه من القتال وإعطاء المال ﴿**الذين**﴾ صفة للمستضعفين ﴿**يقولون**﴾ يعني لا حيلة لهؤلاء المستضعفين ولا ملجأ إلا الله فيقولون داعين ﴿**ربنا أخرجنا من هذه القرية**﴾ مكة ﴿**الظالم أهلها**﴾ بالشرك الذي هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين ﴿**واجعل لنا من لدنك وليا**﴾ أي ول علينا والياً من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا يحفظ علينا ديننا وشرعنا ﴿**واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾ ينصرنا على أعدائنا ولقد استجاب الله دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة قبل الفتح وجعل لمن بقي منهم إلى الفتح خير ولي وأعز ناصر ففتح مكة على يدي نبيه ﷺ فتولاهم أي تولية ونصرهم أي نصرة ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فجعل يضعف قدر الضعيف للحق ويعز العزيز بالحق فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا حتى صاروا أعز أهلها ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله**﴾ أي المؤمنون إنما يقاتلون في دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل في إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لا محالة ﴿**والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**﴾ أي فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان**﴾ كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ﴿**إن كيد الشيطان**﴾ الكيد السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال ﴿**كان ضعيفاً**﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله بالكافرين ضعيف لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه وهذا كما يقال للحق دولة وللباطل جولة قالوا: إدخال كان في أمثال هذه المواقع لتأكيد بيان أنه منذ كان كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان منذ كان كان موصوفاً بالضعف. قال الإمام في تفسيره: ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ لأن الله ينصر أولياءه والشيطان ينصر أوليائه ولا شك أن نصرة الشيطان لأوليائه أضعف من نصرة الله لأوليائه ألا

ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلة، وأما الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقرضوا ولا يبقى في الدنيا رسمهم ولا طللهم، قيل: النار حفت بالشهوات وأن في كل نفس شيطاناً يوسوس إليها وملكاً يلهمها الخير فلا يزال الشيطان يزين ويخدع ولا يزال الملك يمنعها ويلهمها الخير فأيهما كانت النفس معه كان هو الغالب. قيل: إن كيد الشيطان والنفس بمثابة الكلب إن قاومته مزق الاهاب وقطع الثياب وإن رجعت إلى ربه صرفه عنك برفق فالله تعالى جعل الشيطان عدواً للعباد ليوحشهم به إليه وحرك عليهم النفس ليدوم إقبالهم عليه فكلما تسلطا عليهم رجعوا إليه بالافتقار وقاموا بين يديه على نعت اللجأ والاضطرار. قال أحمد بن سهل أعداؤك أربعة: الدنيا وسلاحها لقاء الخلق وسجنها العزلة، والشيطان وسلاحه الشبع وسجنه الجوع، والنفس وسلاحها النوم وسجنها السهر، والهوى وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

واعلم أن كيد الشيطان ضعيف في الحقيقة فإن الله ناصر لأوليائه كل حين ويظهر ذلك الإمداد في نفوسهم بسبب تزكيتهم النفس وتخلية القلب عن الشواغل الدنيوية وامتلاء أسرارهم بنور التوحيد فإن الشيطان ظلماني يهرب من النوراني لا محالة.

ـ روي ـ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن يوماً على النبي عليه السلام وعنده نساء من قريش يسألنه عالية أصواتهن على صوته فلما دخل ابتدرن الحجاب فجعل ﷺ يضحك فقال: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك بادرن الحجاب» فقال عمر: أنت أحق أن يهبن يا رسول الله ثم أقبل عليهن فقال: أي: عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ فقلن: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله فقال عليه السلام: «يا ابن الخطاب فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك».

ـ وروي ـ عن وهب بن منبه أنه قال: كان عابد في بني إسرائيل أراد الشيطان أن يضله فلم يستطع من أي جهة أراده من الشهوة والغضب وغير ذلك فأراده من قبل الخوف وجعل يدلي الصخرة من الجبل فإذا بلغه ذكر الله تباعد عنه ثم تمثل بالحية وهو يصلي فجعل يلتوي على رجليه وجسده حتى يبلغ رأسه وكان إذا أراد السجود التوى في موضع رأسه فجعل ينحيه بيده حتى يتمكن من السجود فلما فرغ من صلاته وذهب جاء إليه الشيطان فقال له: فعلت لك كذا وكذا فلم أستطع منك على شيء فأريد أن أصادقك أي أن أكون صديقاً لك فإني لا أريد ضلالتك بعد اليوم فقال العابد: ما لي حاجة في مصادقتك فقال الشيطان: ألا تسألني بأي شيء أضل به بني آدم قال: نعم قال: بالشح والحدة والسكر فإن الإنسان إذا كان شحيحاً قللنا ماله في عينه فيمنعه من حقوقه ويرغب في أموال الناس:

كريمانرا بدست اندر درم نيست خداوندان نعمت را كرم نيست

وقيل في بعض الأشعار:

باشد چوابر بى مطر وبحر بى كهر آنراكه باجمال نكوجود بارنيست

وإذا كان الرجل حديداً أدرناه بيننا كما يدير الصبيان الاكرة ولو كان يحيي الموتى لم نبال به:

اكر آيد زدوستى كنهى بكناهى نشايد آزردن

ور زبانرا بعذر بكشايد بايدت خشم را فروخوردن

زانكـة نـزديـك عـاقـلان بـتـرسـت   عـفـو نـاكـردن ازكـنـه كـردن

وأما إذا سكر قدناه إلى كل شيء كما تقاد العنز بإذنها:

مـي مـزيـل عـقـل شـد أي نـاخـلـف   تـابـچـنـدى مـيـخـورى در روزكـار
آدمـى را عـقـل بـايـد دربـدن   ورنـه جـان دركـالـبـد دارد حـمـار

فعلى العاقل أن يجاهد في سبيل الله فإن المجاهدة على حقيقتها تقوي الروح الضعيف الذي استضعفه النفس بالاستيلاء عليه ويتضرع إلى الله بالصدق والثبات حتى يخرج من قرية البدن الظالم أهلها وهوالنفس الأمارة بالسوء ويتشرف بولاية الله تعالى في مقام الروح رزقنا الله وإياكم فتح باب الفتوح آمين يا ميسر كل عسير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾.

ـ روي ـ أن ناساً أتوا النبي ﷺ بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة وشكوا إليه ما يلقون من أذى المشركين قالوا: كنا في عز في حالة الجاهلية والآن صرنا أذلة فلو أذنت لنا قتلنا هؤلاء المشركين على فرشهم فقال ﷺ: «كفوا أيديكم» أي أمسكوا «عن القتال» **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** واشتغلوا بما أمرتم به فإني لم أومر بقتالهم وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمروا بالقتال في وقت بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا في الدين ولا رغبة عنه بل نفوراً من الأخطار بالأرواح وخوفاً من الموت بموجب الجبلة البشرية لأن حب الحياة والنفرة من القتل من لوازم الطباع وذلك قوله تعالى: **﴿فلما كتب عليهم القتال﴾** أي: فرض عليهم الجهاد **﴿إذا فريق﴾** إذا للمفاجأة وفريق مبتدأ **﴿منهم﴾** صفة **﴿يخشون الناس﴾** خبره والجملة جواب لما أي فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم **﴿كخشية الله﴾** مصدر مضاف إلى المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أي يخشونهم متشبهين بأهل خشية الله تعالى **﴿أو أشد خشية﴾** عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله وكلمة أو للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله أو خشية بعضهم أشد منها **﴿وقالوا﴾** عطف على جواب لما أي فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وقالوا: **﴿ربنا لم كتبت علينا القتال﴾** في هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والإنكار لإيجابه بل على طريقة تمني التخفيف **﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾** أي هلا أمهلتنا وتركتنا إلى الموت حتى نموت بآجالنا على الفراش وهذا استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر حذراً من الموت وحباً للحياة **﴿قل﴾** أي: تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفاني وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي **﴿متاع الدنيا قليل﴾** أي: ما يتمتع وينتفع به في الدنيا سريع النقض وشيك الانصرام وإن أخرتم إلى ذلك الأجل ولو استشهدتم في القتال صرتم أحياء فتتصل الحياة الفانية بالحياة الباقية **﴿والآخرة﴾** أي ثوابها الذي من جملته الثواب المنوط بالقتال. **﴿خير﴾** لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وإنما قيل: **﴿لمن اتقى﴾** حثاً لهم على اتقاء

العصيان والإخلاص بمواجب التكليف ﴿**ولا تظلمون فتيلا**﴾ عطف على مقدر أي تجزون ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالكم التي من جملتها مسعاتكم في شأن القتال فلا ترغبوا عنه.

اعلم أن الآخرة خير من الدنيا لأن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة ونعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة ونعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره ونعم الآخرة صافية عن الكدورات ونعم الدنيا مشكوكة فإن أعظم الناس تنعماً لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني ونعم الآخرة يقينية. فعلى العاقل أن يختار ما هو خير من كل وجه وهو الآخرة على ما هو شر من كل جهة وهو الدنيا، قال السعدي في بعض قصائده:

عمارت باسراي ديكر انداز ... كه دنيارا أساسي نيست محكم
فريدون را سرآمد پادشاهى ... سليما نرا برفت ازدست خاتم
وفادارى مجوى ازدهر خو نخوار ... محالست انكبين دركام ارقم
مثال عمر سربر كرده شمعيست ... كه كوته باز مى باشد دمادم
ويا برفى كدازان بر سركوه ... كزو هر لحظه جزئي ميشودكم

ـ روي ـ أن رجلاً اشترى داراً فقال لعلي ـ رضي الله عنه ـ: اكتب القبالة فكتب [بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد فقد اشترى مغرور من مغرور داراً دخل فيها في سكة الغافلين لا بقاء لصاحبها فيها الحد الأول ينتهي إلى الموت والثاني إلى القبر والثالث إلى الحشر والرابع إلى الجنة أو إلى النار والسلام] فقرأ على الرجل فرد الدار وتصدق بالدنانير كلها وتزهد في الدنيا فهذا هو حال العارفين حقيقة الحال. قال القشيري رحمه الله مكنك من الدنيا ثم قللها فلم يعدها لك شيئاً ثم لو تصدقت منها بشق تمرة استكثر منك وهذا غاية الكرم وشرط المحبة وهو استقلال الكثير من نفسه واستكثار القليل من حبيبه وإذا كان قيمة الدنيا قليلة فأخس من الخسيس من رضي بالخسيس بدلاً من النفس وقال: إن الله تعالى اختطف المؤمن من الكون بالتدريج فقال أولاً: ﴿**قل متاع الدنيا قليل**﴾ فاختطفهم من الدنيا بالعقبى ثم استلبهم عن الكونين بقوله: ﴿**والله خير وأبقى**﴾ فلا بد للسالك أن يترقى إلى أعلى المنازل ويسعى من غير فتور وكلال، قال مولانا جلال الدين قدس سره:

أي برادر بى نهايت دركهيست ... هركجا كه مى رسى بالله مايست

وثمرة المجاهدة لا تضيع البتة بل تجزي كل نفس بما عملت. قال بعض المشايخ إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ظاهراً وباطناً وكل ما في الجنة لا يوافق ما في الدنيا إلا من حيث التسمية ولأنه تعالى أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها قال تعالى: ﴿**وما عند الله خير وأبقى**﴾ ثم الجزاء في تلك الدار له علامة في هذه الدار وهي أنه من وجد ثمرة عمله عاجلاً وهي الحلاوة فيه والتوفيق لغيره والشكر عليه فهو دليل على وجود القبول لأن الجزاء على ذلك مقصور. قال إبراهيم بن أدهم: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال بعضهم: ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة وإنما هي مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم المكابدة في ترك الدنيا ثم اللذة والتنعم وإنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه فمن سره أن يعوف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه.

وقيل لبعضهم: هل تعرف الله؟ فغضب وقال: تراني أعبد من لا أعرف فقال له السائل: أو تعصي من تعرف، قال السعدي قدس سره:

عمري كه ميرود بهمه حال سعى كن تادر رضاي خالق بيچون بسر برى

وقال أيضاً:

پير بودى وره ندانستى تونه پيرى كه طفل كتابى

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت**﴾ المقدر بالأجل أو العذاب وفي لفظ الإدراك إشعار بأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم وهو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب ﴿**ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ أي وإن كنتم في قصور عالية إلى السماء محكمة بالشيد وهو الجص لا يصعد إليها بنو آدم. قال مجاهد في هذه الآية: كان فيمن قبلكم امرأة وكان لها أجير فولدت جارية فقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً فخرج فوجد بالباب رجلاً فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأة قال: جارية قال: أما هذه الجارية لا تموت حتى تزني بمائة ويتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت فقال الأجير في نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة لأقتلنها فأخذ شفرة فدخل فشق بطن الصغيرة وخرج على وجهه وركب البحر وخيط بطن الصبية فعولجت وبرئت وشبت فكانت تزني فأتت ساحلاً من ساحل البحر فأقامت عليه تزني ولبث الرجل ما شاء الله ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل الساحل: اطلعي لي امرأة من أجمل النساء أتزوجها فقالت: هٰهنا امرأة من أجمل النساء ولكنها تفجر فقال: ائتيني بها فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير وقال لي كذا وكذا فقالت: إني تركت الفجور ولكن إن أراد أن يتزوجني تزوجته قال: فتزوجها فوقعت منه موقعاً فبينما هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره فقالت: أنا تلك الجارية وأرته الشق في بطنها وقد كنت أفجر فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر فقال زوجها في نفسه: إن الرجل الذي كان خارج الباب قال: يكون موتها بالعنكبوت ثم أخبرها بذلك قال: فبنى لها برجاً في الصحراء وشيده فبينما هي يوماً في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف فقالت: هذا يقتلني لأقتلنه إذ لا يقتله أحد غيري فحركته فسقط فأتته فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته فساح سمه بين ظفرها واللحم فاسودت رجلها فماتت وفي ذلك نزلت هذه الآية ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت**﴾ وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ولا أجل معلوم ولا مرض معلوم وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعداً لذلك قال عليه السلام: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» يعني الموت وهو كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه اللذة الحاضرة ومنعه من تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ وإلا ففي قوله عليه السلام: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ما يكفي السامع ويشغل الناظر فيه، قال الحافظ قدس سره:

سپهر برشده پرويزنست خون افشان | كه ريزه اش سركسرى وتاج پرويزست

قال السعدي قدس سره:

جهان أي پسر ملك جاويد نيست | زدنيا وفادارى اميد نيست
نه برباد رفتى سحركاه وشام | سرير سليمان عليه السلام
بآخر نديدى كه برباد رفت | خنك آنكه بادانش ودار رفت

والإشارة في الآية أن يا أهل البطالة في زي الطلبة الذين غلب عليكم الهوى وحبب إليكم الدنيا فأقعدكم عن طلب المولى ثم رضيتم بالحياة الدنيا واطمأننتم بها **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾** اضطراراً إن لم تموتوا قبل أن تموتوا اختياراً **﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** أي أجساد مجسمة قوية أمزجتها أوصلنا الله وإياكم إلى حقيقة الفناء والبقاء آمين **﴿وإن تصبهم حسنة﴾** أي نعمة كخصب **﴿يقولوا هذه من عند الله﴾** نسبوها إلى الله **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** بلية كقحط **﴿يقولوا هذه من عندك﴾** أضافوها إليك يا محمد وقالوا: إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها **﴿قل كل﴾** من الحسنة والسيئة **﴿من عند الله﴾** يبسط ويقبض حسب إرادته **﴿فمال هؤلاء القوم﴾** أي أي شيء حصل لليهود والمنافقين من العلل حال كونهم **﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾** أي لا يقربون من فهم حديث عن الله تعالى كالبهائم ولو فهموا لعلموا أن الكل من عند الله والفقه هو الفهم ثم اختص من جهة العرف بعلم الفتوى **﴿ما أصابك﴾** يا إنسان **﴿من حسنة﴾** من خير ونعمة **﴿فمن الله﴾** تفضلاً منه فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافىء نعمة الوجود فكيف يقتضي غيره ولذلك قال عليه السلام: «ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله» قيل: ولا أنت قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» **﴿وما أصابك من سيئة﴾** من بلية وشيء تكرهه **﴿فمن نفسك﴾** لأنها السبب فيها لاستجلابها المعاصي وهو لا ينافي قوله **﴿كل من عند الله﴾** فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله عنها: ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يغفر الله أكثر.

واعلم أن للأعمال أربع مراتب: منها مرتبتان لله تعالى وليس للعبد فيهما مدخل وهما التقدير والخلق، ومنها مرتبتان للعبد هما الكسب والفعل فإن الله تعالى منزه عن الكسب وفعل السيئة وأنهما يتعلقان بالعبد ولكن العبد وكسبه مخلوق خلقه الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] فهذا تحقيق قوله: **﴿قل كل من عند الله﴾** أي خلقا وتقديراً لا كسباً وفعلاً فافهم واعتقد فإنه مذهب أهل الحق وأرباب الحقيقة كذا في «التأويلات النجمية». قال الضحاك ما حفظ الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] قال: فنسيان القرآن من أعظم المصائب ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] أي رسولاً للناس جميعاً لست برسول للعرب وحده بل أنت رسول العرب والعجم كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] فرسولاً حال قصد بها تعميم الرسالة والجار متعلق بها قدم عليها للاختصاص **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** على رسالتك بنصب المعجزات.

وفي «التأويلات النجمية» يشير بقوله تعالى: **﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾** أي الناس الذين قد نسوا الله ونسوا ما شاهدوا منه وما عاهدوا عليه الله وأرسلناك إليهم لتبلغهم كلامنا وتذكرهم

أيامنا وتجدد لهم عهودنا وترغبهم في شهودنا وتدعوهم إلينا وتهديهم إلى صراطنا وتكون لهم سراجاً منيراً يهتدون بهداك ويتبعون خطاك إلى أن توصلهم إلى الدرجات العلى وتنزلهم في المقصد الأعلى ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي شاهداً لأحبائه وأوليائه لئلا يكتفوا براحة دون لقائه انتهى، قال الحافظ قدس سره:

يوسف عزيزم رفت اي برادر آن زچمن كزغمش عجب ديدم حال پير كنعان

وفي الآية تعليم الأدب ورؤية التأثير من الله تعالى.

- روي - أن أبا بكر رضي الله عنه ابتلي بوجع السن سبع سنين فأعلمه جبريل رسول الله ﷺ وسأل عليه السلام عن حاله فقال: «لِمَ لم تذكر يا أبا بكر» فقال: كيف أشكو مما جاء من الحبيب فلا بد من التخلق بالأخلاق الحسنة لأن الكل من عند الله وإنما أرسل الله رسوله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور فإذا تأدبوا بالآداب النبوية وصلوا إلى الحقيقة المحمدية، قال الشيخ العطار:

دعوتش فرمود بهر خاص وعام نعمت خودرا برو كرده تمام
مبعث أو سر نكوني بتان امت او بهترين امتان
برميان دو كتف خورشيد وار داشته مهر نبوت آشكار

وكان خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ إشارة إلى عصمته من وسوسة الشيطان لأن الخناس يجيء من بين الكتفين فيدخل خرطومه قبل قلب الإنسان فيوسوس إليه فإذا ذكر الله خنس وراءه وكان حول خاتم النبوة شعرات مائلة إلى الحضرة مكتوب عليه [محمد نبي أمين] وقيل غير ذلك والتوفيق بين الروايات بتعدد الخطوط وتنوعها بحسب الحالات والتجليات أو بالنسبة إلى أنظار الناظرين، ثم إنه قد اتفق أهل العلم على أفضلية شهر رمضان لأنه أُنزل فيه القرآن ثم شهر ربيع الأول لأنه مولد حبيب الرحمٰن. وأما أفضل الليالي فقيل ليلة القدر لنزول القرآن فيها، وقيل ليلة المولد المحمدي لولاه ما أنزل القرآن ولا تعينت ليلة القدر فعلى الأمة تعظيم شهر المولد وليلته كي ينالوا منه شفاعته ويصلوا إلى جواره.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ لأنه في الحقيقة مبلغ والآمر هو الله تعالى.

- روي - أنه عليه السلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله» فقال المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت ﴿ومن تولى﴾ أي: أعرض عن طاعته ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. قوله حفيظاً حال من كاف أرسلناك وعليهم متعلق بحفيظاً ﴿ويقولون﴾ إذا أمرتهم بأمر ﴿طاعة﴾ أي: أمرنا وشأننا طاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي: زورت خلاف ما قلت لها يا محمد فالضمير للخطاب أو ما قالت لك من ضمان الطاعة فالضمير للغيبة واشتقاق البيت من

البيتوتة ولما كان غالب الأفكار التي يستقصي فيها الإنسان واقعاً في الليل إذ هناك يكون الخاطر أصفى والشواغل أقل سمي الفكر المستقصي مبيتاً ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ يثبته في صحائف أعمالهم للمجازاة ﴿فأعرض عنهم﴾ قلل المبالاة بهم ﴿وتوكل على الله﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ يكفيك معرتهم وينتقم لك منهم إذا قوي أمر الإسلام وعز أنصاره. والوكيل هو العالم بما يفوض إليه من التدبير ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه وأصل التدبير النظر في إدبار الشيء وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه ثم استعمل في كل تأمل ﴿ولو كان من عند غير الله﴾ أي: ولو كان من كلام البشر كما زعم الكفار ﴿لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل ومطابقة بعض أخبار المستقبلة للواقع دون بعض وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. وهل يجوز أن يقال بعض كلام الله أبلغ من بعض؟ قال الإمام السيوطي في «الإتقان»: جوزه قوم لقصور نظرهم فينبغي أن يعلم أن معنى قول القائل هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام أن هذا في موضعه له حسن ولطف وبلاغة وذاك في موضعه له حسن ولطف وهذا الحسن في موضعه أكمل وأبلغ من ذلك في موضعه فلا ينبغي أن يقال إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] أبلغ من ﴿تَبَّتْ﴾ بل ينبغي أن يقال ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] دعاء عليه بالخسران فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه؟ وكذلك في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] لا توجد عبارة تدل على وحدانيته أبلغ منها فالعالم إذا نظر إلى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] في باب الدعاء بالخسران ونظر إلى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول أحدهما أبلغ من الآخر. وقال بعض المحققين: كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره فـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أفضل من ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ لأن فيه فضيلة الذكر وهو كلام الله وفضيلة المذكور وهو اسم ذاته وتوحيده وصفاته الإيجابية والسلبية وسورة تبت فيها فضيلة الذكر فقط وهو كلام الله تعالى. قال الغزالي في «جوهر القرآن»: ومن توقف في تفضيل الآيات أوّل قوله عليه السلام: أفضل سورة وأعظم سورة بأنه أراد في الأجر والثواب لا أن بعض القرآن أفضل من بعض فالكل في فضل الكلام واحد والتفاوت في الأجر لا في كلام الله تعالى من حيث هو كلام الله القديم القائم بذاته تعالى انتهى.

يقول الفقير جامع هذه المجالس النفيسة: قولهم إن هذه الآية في غاية الفصاحة كما قال القاضي عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] الآية يشعر بجواز القول بالتفاوت في طبقات الفصاحة كما عليه علماء البلاغة ومن هنا، قال من قال:

دربيان ودر فصاحت كي بوديكسان سخن
كرچه كوينده بود چون جاحظ وچون أصمعي

در كلام ايزد بيچون كه وحى منزلست كى بود تبت يدا ما نند يا ارض ابلعي

قال العلماء: القرآن يدل على صدقه عليه السلام من ثلاثة أوجه: أحدها اطراد ألفاظه في الفصاحة، وثانيها: اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والثالث: سلامته من الاختلاف وسبب سلامته منه على ما ذهب إليه أكثر المتكلمين أن القرآن كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من

العلوم فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله وإنما هو وحي أوحي إليه عليه السلام من عند الله بوساطة جبرائيل فمن أطاعه فيه فقد أطاع الله والإطاعة سبب لنيل المطالب الدنيوية والأخروية ويرشدك على شرف الإطاعة أن كلب أصحاب الكهف لما تبعهم في طاعة الله وعد له دخول الجنة، كما قال السعدي:

سـك أصـحـاب كـهـف روزى چـد پـى مـردم كـرفـت ومـردم شـد

فإذا كان من تبع المطيعين؟ كذلك فما ظنك بالمطيعين وكما أن من صلى ولم يؤد الزكاة لم تقبل منه الصلاة ومن شكر الله في نعمائه ولم يشكر الوالدين لا يقبل منه فكذلك من أطاع الله ولم يطع الرسول لا يقبل منه.

والإشارة أن الرسول ﷺ كان لوصفه بالفناء فانياً في الله باقياً بالله قائماً مع الله فكان خليفة الله على الحقيقة فيما يعامل الخلق حتى قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وكان الله خليفته فيما يعامله الخلق حتى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ولهذا كان يقول ﷺ: «الله خليفتي على أمتي» **﴿فمن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** فإنك لست لك حافظاً فكيف لهم فإنهم تولوا عني لا عنك فإنما علي حسابهم لا عليك وفي قوله تعالى: **﴿ويقولون طاعة﴾** إشارة إلى أحوال أكثر مريدي هذا الزمان إذا كانوا حاضرين في الصحبة ينعكس تلألؤ أشعة أنوار الولاية في مرآة قلوبهم فيزدادون إيماناً مع إيمانهم وإرادة مع إرادتهم فيصغون بآذانهم الواعية إلى الحكم والمواعظ الحسنة ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ويقولون السمع والطاعة فيما يسمعون ويخاطبون به **﴿فإذا برزوا من عندك﴾** وهب لهم رياح الهوى وشهوة الحرص وتمايلت قلوبهم عن مجازاة القرار على الولاية وعاد المشؤوم إلى طبعه **﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون﴾** أي يغير عليهم ما يغيرون على أنفسهم لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم **﴿فأعرض عنهم﴾** فاصفح عنهم واصبر معهم **﴿وتوكل على الله﴾** لعل الله يصلح بالهم ولا يجعل التغيير وبالهم ويحسن عاقبتهم ومآلهم **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾** للمتوكلين عليه والملتجئين إليه ثم أخبر عن الدواء كما أخبر عن الداء بقوله: **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾** والإشارة أن العباد لو كانوا يتدبرون القرآن ويتفكرون في آثار معجزاته وأنوار هداياته ونظم آياته وكمال فصاحته وجمال بلاغته وجزالة ألفاظه ورزانة معانيه ومتانة مبانيه وفي أسراره وحقائقه ودقة إشاراته ولطائفه وأنواع معالجاته لأمراض القلوب من إصابة ضرر الذنوب لوجدوا فيه لكل داء دواء ولكل مرض شفاء ولكل عين قرة ولكل وجه غرة ولرأوا كأسه موصوفاً بالصفاء محفوظاً من القذى بحراً لا ينقضي عجائبه وبراً لا تنتفي غرائبه روحاً لا تباغض فيه ولا خلاف وجثة لا تناقض فيها ولا اختلاف **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** ولم يجدوا فيه نقيراً ولا قطميراً انتخبته من «التأويلات النجمية» وفي «المثنوي»:

چـون تـودر قـرآن حـق بـركـيـخـتـى بـاروان انـبـيـا آمـيـخـتـى
هـسـت قـرآن حـالـهـاى انـبـيـا مـاهـيـان بـحـر پـاك كـبـريـا
وربـخـوانـى ونـه قـرآن پـزيـر انـبـيـاو اولـيـارا ديـده كـيـر

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿وإذا جاءهم﴾ أي بلغ ضعفة المسلمين **﴿أمر من الأمن أو الخوف﴾** أي: خبر من السرايا الذين بعثهم رسول الله ﷺ من ظفر وغنيمة أو نكبة وهزيمة **﴿أذاعوا به﴾** أي أفشوا ذلك الخبر وأظهروه لعدم خبرتهم بالأحوال واستنباطهم للأمور وكانت إذاعتهم مفسدة يقال أذاع السرور أذاع به والباء مزيدة **﴿ولو ردوه﴾** أي: ذلك الخبر **﴿إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾** بترك التعرض له وجعله بمنزلة غير المسموع وتفويض أمره إلى رأي الرسول ﷺ ورأى كبار أصحابه كالخلفاء الأربعة أو رأي أمراء السرايا، فكبار الصحابة أولو أمر على معنى أنهم البصراء بالأمور وإن لم يكن لهم أمر على الناس والأمراء أولو الأمر على الناس مع كونهم بصراء بالأمور **﴿لعلمه﴾** أي: لعلم تدبير ما أخبروا به على أي وجه يتذكرونه **﴿الذين﴾** أي: الرسول وأولو الأمر الذين **﴿يستنبطونه منهم﴾** أي يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم الصحيحة ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها. وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر يقال انبط الحفار إذا بلغ الماء وسمي القوم الذين ينزلون بالبطائح بين العراقيين نبطاً لاستنباطهم الماء من الأرض وقيل كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلمه الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون منه فالمراد بالمستنبطين منهم على كلا الوجهين الرسول وأولو الأمر. ومن في قوله يستنبطونه منهم إما تبعيضية وإما بيانية تجريدية. وفي الآية نهي عن إفشاء السر قيل لبعض الأدباء كيف حفظك للسر قال: أنا قبره ومن هذا قيل صدور الأبرار قبور الأسرار وفي «المثنوي»:

وربكوئى بايكى دو الوداع	كل سر جاوز الاثنين شاع
نكته كان جست ناكه اززبان	همچوتيرى دان كه جست آن ازكمان
وانكردد ازره آن تيراى پسر	بند بايد كرد سيلى را زسر

وفي الآية إشارة إلى أرباب السلوك إذا فتح لهم باب من الأنس أو الهيبة أو الحضور أو الغيبة من آثار صفات الجمال والجلال أشاعوه إلى الأغيار ولو كان رجوعهم في حل هذه المشكلات إلى سنن الرسول ﷺ وإلى سير أولي الأمر منهم وهم المشايخ البالغون الواصلون ومن كان له شيخ كامل فهو ولي أمره لعلمه الذين يستنبطونه منهم وهم أرباب الكشوف بحقائق الأشياء فهم الغواصون في بحار أوصاف البشرية المستخرجون من أصداف العلوم درر حقائق المعرفة **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** بإرسال الرسول وإنزال الكتاب **﴿لاتبعتم الشيطان﴾** بالكفر والضلال **﴿إلا قليلا﴾** أي: إلا قليلاً منكم فإن من خصه الله بعقل راجح وقلب غير متكدر بالانهماك في اتباع الشهوات يهتدي إلى الحق والصواب ولا يتبع الشيطان ولا يكفر بالله وإن فرض عدم إنزال القرآن وبعثة سيدنا محمد ﷺ كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وغيرهما ممن كان على دين المسيح قبل بعثته.

وقال الشيخ نجم الدين قدس سره في تأويلاته لعل الاستثناء راجع إلى الصديق رضي الله عنه فإنه كان قبل مبعث النبي عليه السلام يوافقه في طلب الحق قالت عائشة رضي الله عنها: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشياً.

ـ وروي ـ عن النبي عليه السلام «كنت وأبو بكر كفرسي رهان سبقته فتبعني ولو سبقني لتبعته» وفي الحقيقة كان النبي عليه السلام فضل الله ورحمته يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟﴾ [الجمعة: ٢] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلولا وجود النبي عليه السلام وبعثته لبقوا في تيه الضلالة تائهين كما قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٠٣] يعني قبل بعثته وكانوا قد اتبعوا الشيطان إلى شفا حفرة من النار وكان عليه السلام فضلاً ورحمة عليهم فأنقذهم منها كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال الشيخ العطار قدس سره:

خويشتن راخواجه عرصات كفت ... إنما أنا رحمة مهدات كفت

وقال حضرة الهدايي قدس سره:

سرماية سعادت عالم محمد است ... مقصود ازين طينت آدم محمد است
در صورت آدم آمدا كرچه مقدما ... در معنى بيشوا ومقدم محمد است
كرچه هدايى رسالت مكرم است ... محبوب حق محمد وخاتم محمد است

قال بعض الحكماء: إن الله تعالى خلق محمداً ﷺ فجعل رأسه من البركة وعينيه من الحياء وأذنيه من العبرة ولسانه من الذكر وشفتيه من التسبيح ووجهه من الرضى وصدره من الإخلاص وقلبه من الرحمة وفؤاده من الشفقة وكفيه من السخاوة وشعره من نبات الجنة وريقه من عسل الجنة فلما أكمله بهذه الصفة أرسله إلى هذه الأمة فقال: هذا هديتي إليكم فاعرفوا قدر هديتي وعظموه كذا في «زهرة الرياض». وقيل في وجه عدم ارتحال جسده الشريف النظيف من الدنيا مع أن عيسى عليه السلام قد عرج إلى السماء بجسده أنه إنما بقي جسمه الطاهر هنا لإصلاح عالم الأجساد وانتظامه فإنه مظهر الذات وطلسم الكائنات فجميع الانتظام بوجوده الشريف كذا في «الواقعات المحمودية» نقلاً عن حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس الله سره آمين آمين يا رب العالمين.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فقاتل في سبيل الله﴾ الفاء جزائية والجملة جواب لشرط مقدر أي إن تثبط المنافقون وقصر الآخرون وتركوك وحدك، فقاتل أنت يا محمد وحدك في الطريق الموصل إلى رضى الله وهو الجهاد ولا تبال بما فعلوا **﴿لا تكلف إلا نفسك﴾** مفعول ثان للفعل المخاطب المجهول أي إلا فعل نفسك لا يضرك لمخالفتهم وتقاعدهم فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. والتكلف اسم لما يفعل بمشقة أو بتصنع فالمحمود منه ما فعل بمشقة

حتى ألف ففعل بمحبة كالعبادات والمذموم منه ما يتعاطى تصنعاً ورياء ﴿**وحرض المؤمنين**﴾ على القتال أي: رغبتهم فيه بذكر الثواب والعقاب أو بوعد النصرة والغنيمة وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة وهي سوق من المدينة على ثمانية أميال ويقال لها حمراء الأسد أيضاً فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية فخرج ﷺ في سبعين راكباً فكفاهم الله القتال كما قال: ﴿**عسى الله أن يكف**﴾ أي: يمنع ﴿**بأس الذين كفروا**﴾ البأس في الأصل المكروه ثم وضع موضع الحرب والقتال قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] وعسى من الله واجب لأنه في اللغة الإطماع والكريم إذا أطمع أنجز وقد فعل حيث ألقى في قلوب الكفرة الرعب حتى رجعوا من مر الظهران.

ـ ويروى ـ أن رسول الله ﷺ وافى بجيشه بدراً وقام بها ثماني ليال وكان معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً كثيراً وقد مر في سورة آل عمران ﴿**والله أشد بأساً**﴾ أي من قريش ﴿**وأشد تنكيلاً**﴾ أي تعذيباً وعقوبة ينكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدي إليها ويجوز أن يكونا جميعاً في الدنيا وأن يكون أحدهما في الدنيا والآخر في العقبى. ثم له ثلاثة أوجه:

أحدها أن معناه أن عذاب الله تعالى أشد من جميع ما ينالكم بقتالهم لأن مكروههم ينقطع ثم تصيرون إلى الجنة وما يصل إلى الكفار والمنافقين من عذاب الله يدوم ولا ينقطع.

والثاني لما كان عذاب الله أشد فهو أولى أن يخاف ولا يجري في أمره بالقتال منكم خلاف وهذا وعيد.

والثالث لما كان عذاب الله أشد فهو يدفعهم عنكم ويكفيكم أمرهم وهذا وعد وإنما جبن المتقاعدون لشدة بأس الكفار وصولتهم ولكن الله قاهر فوق عباده وقوة اليقين رأس مال الدين والموت تحفة المؤمن الكامل خصوصاً إذا كان في طريق الجهاد والدنيا سريعة الزوال ولا تبقى على كل حال وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيراً ما ينشد هذه الأبيات:

لا شيء مما نرى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
اين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

«وفي التأويلات النجمية» ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك**﴾ المعنى فجاهد في طلب الحق نفسك فإن في طلب الحق لا تكلف نفساً أخرى إلا نفسك وفيه معنى آخر لا تكلف نفس أخرى بالجهاد لأجل نفسك لأن حجابك من نفسك لا من نفس أخرى فدع نفسك وتعال فإنك صاحب يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً وذلك لأنه ﷺ اختص بهذا المقام من جميع الأنبياء والمرسلين وأن يكون فاني النفس والذي يدل عليه أن الأنبياء يوم القيامة يقولون لبقاء نفوسهم: نفسي نفسي ويقول النبي عليه السلام لفناء نفسه: أمتي أمتي فافهم جداً ثم قال: ﴿**وحرض المؤمنين**﴾ على القتال يعني في الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر ﴿**عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا**﴾ ظاهراً وباطناً فالظاهر الكفار والباطن النفس ﴿**والله أشد بأسا وأشد تنكيلا**﴾

في استيلاء سطوات صفات قهره عند تجلي صفة جلاله للنفس من بأس الكافر عليها انتهى، وفي «المثنوي»:

اندرين ره مى تراش ومى خراش تادم آخر دمى فارغ مباش
اى شهان كشتيم ما خصمى برون ماند خصمى زوان بتردر اندرون
كشتن اين كار عقل وهوش نيست شير باطن سخره خركوش نيست
سهل شيرى دانكه صفها بشكند شير آنست آنكه خودرا بشكند

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها والشفاعة الحسنة هي التي روعي بها حق مسلم ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير وابتغى بها وجه الله تعالى ولم تؤخذ عليها رشوة وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله ولا في حق من الحقوق **﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾** وهي ما كانت بخلاف الحسنة **﴿يكن له كفل منها﴾** أي: نصيب من وزرها مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء. وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك لا أتكلم فيما بقي منها. ومن بلاغات الزمخشري شيآن شينان في الإسلام الشفاعة في الحدود والرشوة في الأحكام والحدود عقوبة مقدرة يجب على الإمام إقامتها حقاً لله تعالى لئلا يتضرر العباد فالتعزير ليس بحد إذ ليس له قدر معين فإن أكثره تسعة وثلاثون سوطاً وأقله ثلاثة وكذا القصاص لا يسمى حداً لأنه حق العبد وهو ولي القصاص ولهذا سقط بالعفو والاعتياض فحد الزنى لغير المحصن مائة جلدة وللعبد نصفها وحد شرب الخمر ثمانون سوطاً للحر وأربعون للعبد مفرقاً على بدنه كما في حد الزنى وحد القذف كحد الشرب فمن قذف محصناً أو محصنة بصريح الزنى حد بطلب المقذوف المحصن لأن فيه حق العبد من حيث دفع العار عنه وكذا طلب المسروق منه شرط القطع في السرقة فهذه حدود لا يجري فيها الشفاعة إذ الحق علم القاضي بالواقعة ولهذا قال في ترجمة «وصايا الفتوحات المكية» [ونزديك حاكم در حدود الله شفاعت مكن از ابن عباس رضي الله عنهما در خواست كردند در باب دزدى شفاعت كند ابن عباس رضي الله عنهما كفت هركه شفاعت كند وهركه قبول كند هردودر لعنت اندرا كربيش آزانكه بحاكم معلوم نشود ميكفتيد مى شد] انتهى. ولما كانت الشفاعة في القصاص غير الشفاعة في الحدود قال ﷺ: «ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «الشفاعة يحقن بها الدم ويجر بها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر» ذكره الإمام الغزالي رحمه الله. وأفصح الحديث عن أن الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية وخلاصه من مضرة ما كذلك وإذا كانت في أمر غير مشروع لا تكون صدقة بل سيئة. وذكر في ترجمة «الوصايا» أيضاً [چون براي كسى شفاعت كنى وكار او ساخته شود زنهار هديه أو قبول مكن كه رسول الله ﷺ انرا جمله ربا نهاده است شيخ أكبر قدس سره الأطهر فرموده كه در بعض بلا عرب يكى ازاعيان مرا بخانه خود دعوت كرد وترتيبى كرده بود وكرامتى مهيا داشته چون طعام احضار كردند اورا

بسلطان بلند حاجتي بود ازمن طلب شفاعت كرد وسخن من نزد سلطان درغايت قبول بود شيخ فرمود كه اورا كفتم نعم وبر خاستم وطعام نخوردم وهدايا قبول نكردم وحاجت اوپيش سلطان كزاردم واملاك وى بوى باز كشت ومرا هنوز حديث نبوي وقوف نبود ولكن مروءت من چنين تقاضا كرد واستنكاف كردم كه كسي را بمن حاجتي باشد وازوى بمن نفعي عائد شود ودر حقيقت آن عنايت وعصمت حق بود] انتهى. وبالجملة ينبغي للمؤمن أن يشفع للجاني إلى المجني عليه بل ومن حقوق الإسلام أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه، قال السعدي قدس سره:

كر ازحق نه توفيق خيرى رسد   كى ازبنده خيرى بغيرى رسد
اميداست ازآنانكه طاعت كنند   كه بى طاعتانرا شفاعت كنند

ومن الشفاعة الحسنة الدعاء للمسلم فإنه شفاعة إلى الله تعالى وعن النبي عليه السلام «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك» وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود والدعوة على المسلم بضد ذلك وإنما يستجاب الدعاء بظهر الغيب لعبده عن شائبة الطمع والرياء بخلاف دعاء الحاضر للحاضر لأنه قلما يسلم من ذلك فالغائب لا يدعو للغائب إلا لله خالصاً فيكون مقبولاً والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة وغيرها دعاء من العبد المصلي لمحمد ﷺ عن ظهر الغيب فشرع ذلك رسول الله وأمر الله به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] ليعود هذا الخير من الملك على المصلي ولهذا جوز الحنفية قراءة الفاتحة لروحه المطهر عليه السلام ومنعها الشافعية لأن الدعاء بالترحم يوهم التقصير ولذا لا يقال عند ذكر الأنبياء رحمة الله عليهم بل عليهم السلام والجواب أن نفع القراءة يعود على القارىء فأي ضرر في ذلك ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي: مقتدراً مجازياً بالحسنة والسيئة من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيداً حفيظاً. قال الإمام الغزالي في شرح الأسماء الحسنى: معنى المقيت خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان وهي الأطعمة وإلى القلوب وهي المعرفة فيكون بمعنى الرازق إلا أنه أخص منه إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت والقوت ما يكتفي به في قوام البدن أو يكون معناه المستولي على الشيء القادر عليه والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي: مطلعاً قادراً فيكون معناه راجعاً إلى العلم والقدرة فوصفه بالمقيت أتم من وصفه بالقادر وحده وبالعالم وحده لأنه دال على اجتماع المعنيين وبذلك يخرج هذا الاسم من الترادف.

والإشارة في الآية ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ لإيصال نوع من الخيرات إلى الغير ﴿يكن له نصيب منها﴾ فإنها من خصوصيتها أن يكون له نصيب منها أي له نصيب من هذه الحسنة فمن تلك الخصوصية قد يشفع شفاعة حسنة ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له﴾ أي: في جبلته ﴿كفل منها﴾ يعني: من تلك السيئة التي هي إيصال نوع من الشر فيها قد يشفع شفاعة سيئة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] ﴿وكان الله﴾ في الأزل ﴿على كل شيء مقيتاً﴾ شهيداً في إيجاد المحسن والمسيء مقتدراً عليماً حفيظاً يعطيهما استعداد شفاعة حسنة وسيئة لا يقدران اليوم على تبديل استعدادهما لقابلية الخير والشر فافهم جداً، قال الحافظ قدس سره:

نقش مستوری ومستی نه بدست من وتست | آنچه استاد ازل كفت بكن آن كردم

وقال السعدي قدس سره:

كرت صورت حال بد يانكوست | نكاريده دست تقدير اوست

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿وإذا حييتم بتحية﴾ التحية مصدر من حيى كالتسمية من سمى أصلها تحيية كتفعلة وأصل الأصل تحييي، بثلاث ياآت فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الأولى في الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء وأصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت في كل دعاء لأن الدعاء بالخير لا يخلو شيء منه عن الدعاء بنفس الحياة أو بما هو السبب المؤدي إلى قوتها وكمالها أو بما هو الغاية المطلوبة منها وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضاً يقول: حياك الله أي جعل الله لك حياة وأطال حياتك ويقول بعضهم: عش ألف سنة. ثم استعملها الشرع في السلام وهي تحية الإسلام قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١] قيل: تحية النصارى وضع اليد على الفم وتحية اليهود الإشارة بالأصابع وتحية المجوس الانحناء. وفي السلام مزية على تحية العرب وهي حياك الله لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية فإنه إذا قال الإنسان لغيره السلام عليك فقد دعا في حقه بالسلامة منها ويتضمن الوعد بسلامة ذلك الغير وأمانة منه كأنه قال: أنت سليم مني فاجعلني سليماً منك والسلامة مستلزمة لطول الحياة وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداية بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته ومعنى الآية إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين. **﴿فحيوا بأحسن منها﴾** أي: بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله إن اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته إن جمعهما المسلم وهو أن يقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته منتهى الأمر في السلام لكونه مستجمعاً لجميع فنون المطالب التي هي السلامة من المضار ونيل المنافع ودوامها ونمائها ولهذا اقتصر على هذا القدر في التشهد.

ـ روي ـ عنه عليه السلام أنه قال: «من قال: السلام عليكم كتب له عشر حسنات ومن قال السلام عليكم ورحمة الله كتب له عشرون حسنة ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة» والمبتدىء بالسلام إن شاء يقول السلام عليكم وإن شاء يقول سلام عليكم لأن كل واحد من التعريف والتنكير وارد في ألفاظ القرآن قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] لكن التنكير أكثر والكل جائز. وأما التحليل من الصلاة فلا بد فيه من الألف واللام بالاتفاق ومعنى الجمع في السلام عليكم الخطاب إلى الرجل والملكين الحافظين معه فإنهما يردان السلام ومن سلم عليه الملك فقد سلم من عذاب الله تعالى **﴿أو ردوها﴾** أي: ردوا مثلها وأجيبوا به لأن رد عينها محال فحذف المضاف نحو ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. قال في «الكشاف»: رد السلام ورجعه جوابه بمثله لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرر.

ـ وروي ـ أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك فقال: «وعليك السلام ورحمة الله» وقال الآخر: السلام عليك ورحمة الله فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال: «وعليك» فقال الرجل نقصتني فأين ما قال الله وتلا

الآية أي أين رد الأحسن المذكور في الآية فقال عليه السلام: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله» فيكون قوله عليه السلام وعليك أي وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من قبيل رد المثل وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها. قال أبو يوسف: من قال لآخر أقرىء فلاناً مني السلام وجب عليه أن يفعل وإذا ورد سلام في كتاب فجوابه واجب بالكتاب للآية ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ الحسيب بمعنى المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس أي: أنه تعالى كان على كل شيء من أعمالكم سيما رد السلام بمثله أو بأحسن منه محاسباً مجازياً فحافظوا على مراعاة التحية حسبما أمرتم به. فالجمهور على أن الآية في السلام فالسنة أن يسلم الراكب على الماشي وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير ويسلم على الصبيان وهو أفضل من تركه. قال في «البستان» وبه نأخذ ويسلم على أهل بيته حين يدخله فإن دخل بيتاً ليس فيه أحد فليقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإن الملائكة ترد عليه السلام ويسلم على القوم حين يدخل عليهم وحين يفارقهم أيضاً فمن فعل ذلك شاركهم في كل خير عملوه بعده. قال القرطبي: ولا يسلم على النساء الشابات الأجانب خوف الفتنة من مكالمتهن بنزغة شيطان أو خائنة عين. وأما السلام على المحارم والعجائز فحسن ويسلم على أهل الإسلام من عرف منهم ومن لم يعرف. ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري في الحمام وغيره. قال ابن الشيخ في «حواشيه» ومن دخل الحمام ورأى الناس متزرين يسلم عليهم وإن لم يكونوا متزرين لا يسلم عليهم لأنه لا يسلم على المشتغل بمعصية انتهى لكن قال الإمام الغزالي في «الأحياء»: لا يسلم عند الدخول أي في الحمام وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب أن يجيب قال: عافاك الله ولا بأس أن يفتتح الداخل ويقول: عافاك الله لابتداء الكلام انتهى ولا يرد في الخطبة وتلاوة القرآن جهراً ورواية الحديث وعند دراسة العلم والأذان والإقامة وكذا لا يرد القاضي إذا سلم عليه الخصمان وكذا لا يسلم القاضي على الخصوم إذا جلس للحكم لتبقى الهيبة وتكثر الحشمة وبهذا جرى الرسم بأن الولاة والأمراء لا بأس بأن لا يسلموا إذا دخلوا فالمحتسب لا يسلم على أهل السوق في طوافه للحسبة ليبقى على الهيبة. وقال بعضهم: لا يسع القاضي والوالي والأمير ترك السلام إذا دخلوا لأنه سنة فلا يسعهم ترك السنة بسبب تقلد العمل وكذا المتصدق إذا سلم عليه السائل أو أن سؤاله لا يرد وكذا من له ورد من القرآن والدعوات فسلم عليه أحد في حال ورده لا يرد وكذا إذا جلس في المسجد للتسبيح أو للقراءة أو لانتظار الصلاة وإذا دخل الزائر في المسجد فسلم عليه أحد من الداخلين في المسجد يجوز وإذا لم يكن في المسجد أحد إلا من يصلي ينبغي أن يقول الداخل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ولا يسلم فإنه تكليف جواب في غير محله حتى لا يرده قبل الفراغ وبعده وهو الصحيح. ولا يبادر بالسلام على الذمي إلا لضرورة أو حاجة له عنده ولا بأس بالدعاء للكافر والذمي بما يصلحه في دنياه. قال ابن الملك: الدعاء لأهل الكتاب بمقابلة إحسانهم غير ممنوع لما روي أن يهودياً حلب للنبي عليه السلام لقحة فقال عليه السلام: «اللهم جمله»» فبقي سواد شعره إلى قريب من سبعين سنة. قال النووي: الصواب أن ابتداء أهل الكتاب بالسلام حرام لأنه إعزاز ولا يجوز إعزاز الكفار. وقال الطيبي: المختار أن المبتدع لا يبدأ بالسلام ولو سلم على من لا يعرفه فظهر ذمياً أو

مبدعاً يقول: استرجعت سلامي تحقيراً له. وأما الأكل مع الكافر فإن كان مرة أو مرتين لتأليف قلبه على الإسلام فلا بأس فإنه ﷺ أكل مع كافر مرة فحملناه على أنه كان لتأليف قلبه على الإسلام ولكن تكره المداومة عليه كما في «نصاب الاحتساب». وفيه أيضاً هل يحتسب على المسلم إذا شارك ذمياً الجواب نعم أما في المفاوضة فلأنها غير جائزة بين المسلم والذمي فكان الاحتساب عليه لدفع التصرف الفاسد. وأما في العنان فلأنها مكروهة بين المسلم والذمي من شرح الطحاوي فكان الاحتساب لدفع المكروه وإذا سلم الذمي فقل: عليك بلا واو وهو الرواية من الثقات أو عليك مثله. قال في «الكشف» ولا يقال لأهل الذمة وعليكم بالواو لأنها للجمع وقال عليه السلام: «إذا سلم عليكم أحد من اليهود فإنما يقول: السام عليكم فقل عليك» أي: عليك مثله.

ـ روي ـ أنه عليه السلام أتاه ناس من اليهود فقالوا: السام عليكم يا أبا القاسم فقال: «عليكم» فقالت عائشة: بل عليكم السام والذام فقال عليه السلام: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش والتفحش» قالت فقلت: أما سمعت ما قالوا قال: «أوليس قد رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» والسنة الجهر في السلام لقوله عليه السلام: «أفشو السلام» وعن أبي حنيفة رحمة الله عليه لا يجهر بالرد يعني الجهر الكثير.

ـ وحكي ـ أن سياحاً دخل على عالم فسلم عليه فرد عليه السلام وخافت ثم دخل عليه غني فسلم فرد عليه الجواب وجهر فصاح السياح وقال: رحمك الله ما تقول في السلام أعلى نوعين أم على ثلاثة أنواع؟ فقال: لا بل على نوع واحد فقال: أيد الله الفقيه أرى السلام هٰهنا على نوعين فتحير الفقيه وخجل في نفسه فقال: أيد الله الفقيه اسألك مسألة ما تقول فيمن حلف لا يدخل الدار التي بنيت بغير سنة فدخل دارك هذه أيحنث أم لا؟ فسكت الفقيه فلم يجبه فقال تلاميذ الفقيه للسياح: اخرج فإنك شغلتنا فقال: أيها الشبان ما مثله ومثلكم إلا كمثل ضال ضل طريقه فجعل يسترشد من ضال مثله أرشده أم لا فهذا أستاذكم ضل طريق الآخرة وأنتم جئتم تطلبون منه أن يرشدكم؟ فأنى يرشدكم ثم خرج كذا في «روضة العلماء»، قال الصائب:

زبى دردان علاج درد خود جستن بان ماند كه خار ازپا برون آردكسى بانيش عقربها

إلى هنا كلام الإحياء فإذا بلغ المقابر ومر بها قال: وعليكم السلام أهل الديار من المسلمين والمؤمنين رحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين منا أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية وفي الحديث «ما من عبد يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام» قال ابن السيد علي في «شرح الشرعة»: ولعل المراد أنه يرد السلام بلسان الحال لا بلسان المقال يؤيده ما ورد في بعض الأخبار من أنهم يتأسفون على انقطاع الأعمال عنهم حتى يتحسرون على رد السلام وثوابه انتهى. قال الإمام السيوطي رحمه الله: الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر متى جاء علم به المزور وسمع كلامه وآنس به ورد عليه وهذا عام في حق الشهداء وغيرهم وأنه لا توقيت في ذلك وهو الأصح لأن رسول الله ﷺ شرع لأمته أن يسلموا على أهل القبور سلام من يخاطبون من يسمع ويعقل. قال أرباب الحقيقة: للروح اتصال بالبدن بحيث يصلي في قبره ويرد على المسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى ومقره في عليين ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح

غير شأن الأبدان وإنما يأتي الغلط هنا من قياس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح مما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره. وقد مثل بعضهم بالشمس في السماء وشعاعها في الأرض كالروح المحمدي يرد على من يصلي عليه عند قبره دائماً مع القطع بأن روحه في أعلى عليين وهو لا ينفك عن قبره كما قال عليه السلام: «ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام». فإن قلت: هل يلزم تعدد الحياة من تلك وكيف يكون ذلك؟ قلت: يؤخذ من هذا الحديث أن النبي ﷺ حي على الدوام في البرزخ الدنيوي لأنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم على النبي عليه السلام في ليل أو نهار فقوله ﷺ: «رد الله على روحي» أي: أبقى الحق فيَّ شعور حياتي الحسي في البرزخ وإدراك حواسي من السمع والنطق فلا ينفك الحس والشعور الكلي عن الروح المحمدي الكلي ليس له غيبة من الحواس والاكوان لأنه روح العالم الكلي وسره الساري، قال العطار قدس سره في نعت النبي المختار:

خواجه كزهر چه كويم بيش بود ... درهمه چيزى همه درپيش بود
وصف اودر كفت چون آيدمرا ... چون عرق ازشرم خون آيد مرا
أو فصيح عالم ومن لال او ... كى توانم داد شرح حال او
وصف اوكى لائق اين ناكسست ... واصف او خالق عالم بسست
انبيا از وصف توحيران شده ... سرشناسان نيز سر كردان شده

والإشارة في الآية ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ من الخير والشر ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أما الخير فبخير أحسن منه وأما الشر فبحلم وعفو أو مكافأة بالخير ﴿أو ردوها﴾ يعني كافئوا المحسن بمثل إحسانه والمسيء بمثل إساءته يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقد ورد عن النبي عليه السلام عن جبريل عن الله تعالى في تفسير قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال النبي عليه السلام: «تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك» ﴿إن الله كان على كل شيء﴾ من العفو والإحسان ﴿حسيبا﴾ محاسباً فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

كذا في «التأويلات النجمية».

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا إله في الأرض ولا في السماء غيره ﴿ليجمعنكم﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليحشرنكم من قبوركم ﴿إلى﴾ حساب ﴿يوم القيامة﴾ والقيامة بمعنى القيام والتاء للمبالغة لشدة ما يقع فيه من الهول ﴿لا ريب فيه﴾ حال من اليوم أي حال كون ذلك اليوم لا شك فيه أنه كائن لا محالة أو صفة مصدر محذوف أي: جمعاً لا ريب فيه فضمير فيه يرجع إلى الجمع ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ إنكار لأن يكون أحد أكثر صدقاً منه فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال دون

غيره وفي الحديث «كذبني ابن آدم» أي: نسبني إلى الكذب «ولم يكن له ذلك» يعني لم يكن التكذيب لائقاً به بل كان خطأ «وشتمني» الشتم وصف الغير بما فيه نقص وازراء «ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني» يعني: لن يحييني الله تعالى بعد موتي «وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته» بل إعادته أسهل لوجود أصل البنية وهذا مذكور على طريق التمثيل لأن الإعادة بالنسبة إلى قوانا أيسر من الإنشاء وأما بالنسبة إلى قدرة الله تعالى فلا سهولة له في شيء ولا صعوبة «وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً» وإنما صار هذا شتماً لأن التولد هو انفصال الجزء من الكل بحيث ينمو وهذا إنما يكون في المركب وكل مركب محتاج «وأنا الأحد» أي المنفرد بصفات الكمال من البقاء والتنزه وغيرهما «الصمد» بمعنى المصمود يعني: المقصود إليه في كل الحوائج «الذي لم يلد» هذا نفي للتشبيه والمجانسة «ولم يولد» هذا وصف بالقدم والأولية «ولم يكن له كفواً أحد» هذا تقرير لما قبله كذا في «شرح المشارق» لابن الملك.

واعلم أن القيامة ثلاث: الصغرى وهي موت كل أحد قال النبي عليه السلام: «من مات فقد قامت قيامته»، والوسطى وهي موت جميع الخلائق بالنفخة الأولى، والكبرى وهي حشر الأجساد والسوق إلى المحشر للجزاء بالنفخة الثانية، وفي «المثنوي»:

سازد اسرافيل روزى ناله را   جان دهد پو سيده صد ساله را
هين كه اسرافيل وقتند اوليا   مرده را زيشان حياتست ونما

وإنما تحصل الحياة الباقية بعد الفناء عن النفس وأوصافها وطريقه ذكر الله تعالى بالإخلاص فإذا تجلى معنى لفظ الجلالة الذي هو الاسم الأعظم يضمحل العالم والوجود ويحصل الاستغراق في بحر التوحيد فإذا استغرق فيه يغيب عنه ما سوى الله تعالى كما أن الإنسان إذا استغرق في الماء لا يرى الغير أصلاً. قال الشيخ أبو يزيد البسطامي: ومن قال الله وقلبه غافل عن الله فخصمه الله.

- وحكي - أن بعض الصلحاء دخل ليلة بقبوليجة في بلدة بروسة فرأى أنه قد وضع سرير على الحوض وعليه بنت سلطان الجن ومعها جماعة كثيرة من هذه الطائفة فسألهم عن أصل ماء قبوليجة فأرسلت ببعض جماعتها إلى أصله فرأى أنه ماء بارد فقال: كيف يكون هذا أصله وهو حار فقالوا: جماعتنا يذكرون في رأس هذا الماء في كل أسبوع الاسم الله والاسم هو فبحرارته يسخن الماء فتأثير الذكر غير منكر خصوصاً من لسان أرباب التزكية والتصفية، وفي «المثنوي»:

ذكر حق كن بانك غولا نرابسوز   چشم نركس را ازين كركس بدوز

والإشارة في الآية **﴿الله لا إله إلا هو﴾** يعني: كان الله في الأزل لا إله أي لم يكن معه أحد يوجد الخلق من العدم إلا هو **﴿ليجمعنكم﴾** في العدم مرة أخرى **﴿إلى يوم القيامة﴾** فيفرقكم فيها فريق في الجنة وفريق في السعير وفريق في مقعد صدق عند مليك مقتدر **﴿لا ريب فيه﴾** أي: لا شك في الرجوع إلى هذه المنازل والمقامات **﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾** ليحدثكم بمصالح دينكم ودنياكم ومفاسد أخراكم وأولاكم ويهديكم إلى الهدى وينجيكم من الردى.

كذا في «التأويلات النجمية» **﴿فما لكم﴾** أيها المؤمنون والمراد بعضهم. قوله ما مبتدأ ولكم خبره والاستفهام للإنكار والنفي **﴿في المنافقين﴾** متعلق بما تعلق به الخبر أي أي شيء

كائن لكم فيهم أي في أمرهم وشأنهم ﴿**فئتين**﴾ أي فرقتين وهو حال من الضمير المجرور في لكم والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم في أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم وإجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر في جميع الأحكام وذلك أن ناساً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدر لاجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة حتى لحقوا بالمشركين بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقال بعضهم: هم كفار وقال بعضهم هم مسلمون فأنزل الله تعالى الآية ﴿**والله أركسهم**﴾ حال من المنافقين أي والحال أنه تعالى ردهم إلى الكفر وأحكامه من الذل والصغار والسبي والقتل، والإركاس الرد والرجع يقال: ركست الشيء وأركسته لغتان إذا رددته وقلبت آخره على أوله ﴿**بما كسبوا**﴾ أي: بسبب ما كسبوا من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله ﷺ ﴿**أتريدون**﴾ أيها المخلصون القائلون بإيمانهم ﴿**أن تهدوا** من أضل الله﴾ أي تجعلوه من المهتدين ففيه توبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنه يؤدي إلى المحال الذي هو هداية من أضل الله تعالى وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى في هدايتهم وإرادة لها ﴿**ومن يضلل الله**﴾ أي ومن يخلق فيه الضلال كائناً من كان ﴿**فلن تجد له سبيلاً**﴾ من السبل فضلاً عن أن تهديه إليه وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للإشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿ودوا لو تكفرون﴾ بيان لغلوهم وتماديهم في الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم في أنفسهم وكلمة لو مصدرية فلا جواب لها أي تمنوا أن تكفروا. ﴿**كما كفروا**﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي كفرا مثل كفرهم فما مصدرية. ﴿**فتكونون سواء**﴾ عطف على تكفرون والتقدير ودوا كفركم وكونكم مستوين معهم في الضلال. وفيه إشارة إلى أن من ود الكفر لغيره كان ذلك من أمارات الكفر في باطنه وإن كان يظهر الإسلام لأنه يريد تسوية الاعتقاد فيما بينهما وهذا من خاصية الإنسان يحب أن يكون كل الناس على مذهبه واعتقاده ودينه وقال ﷺ: «الرضى بالكفر كفر» ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء**﴾ أي: إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم ﴿**حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه السلام لا لغرض من أغراض الدنيا وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿**فإن تولوا**﴾ أي: عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة ﴿**فخذوهم**﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾ من الحل والحرم فإن حكمهم حكم سائر المشركين أسراً وقتلاً. ﴿**ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً**﴾ أي: جانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبداً.

والإشارة في الآية إلى أرباب الطلب السائرين إلى الله تعالى فإنهم نهوا عن اتخاذ أهل الدنيا أحباء وعن مخالطتهم حتى يهاجروا عما هم فيه من الحرص والشهوة وحب الدنيا ويوافقوهم في طلب الحق وأمروا بأن يعظوهم بالوعظ البليغ ويقتلوهم، أي: أنفسهم وصفاتها الغالبة كلما رأوهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الأسلميون فإنه عليه السلام وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال **﴿أو جاؤوكم﴾** عطف على الصلة أي والذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين **﴿حصرت صدورهم﴾** حال بإضمار قد أي: وقد ضاقت صدورهم فإن الحصر بفتحتين الضيق والانقباض **﴿أن يقاتلوكم﴾** أي: ضاقت عن أن يقاتلوكم مع قومهم. **﴿أو يقاتلوا قومهم﴾** معكم والمراد بالجاءين الذين حصرت صدورهم عن المقاتلة بنو مدلج وهم كانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم فضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم ولأنه تعالى قذف الرعب في قلوبهم وضاقت صدورهم عن قتال قومهم لكونهم على دينهم نهى الله تعالى عن قتل هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد للمؤمنين لأن من انضم إلى قوم ذوي عهد فله حكمهم في حقن الدم **﴿ولو شاء الله لسلطهم﴾** أي: بني مدلج **﴿عليكم﴾** بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. قال في «الكشاف» فإن قلت: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين قلت: ما كانت مكافتهم إلا لقذف الله الرعب في قلوبهم ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين فذلك معنى التسليط **﴿فلقاتلوكم﴾** عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير. **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم﴾** أي: فإن لم يتعرضوا لكم مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى. **﴿وألقوا إليكم السلم﴾** أي: الانقياد والاستسلام **﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾** أي: طريقاً بالأسر أو بالقتل فإن مكافتهم عن قتالكم وإن لم يقاتلوا قومهم أيضاً والقاءهم إليكم السلم وإن لم يعاهدوكم كافية في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم. قال بعضهم الآية منسوخة بآية القتال والسيف وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وقال آخرون: إنها غير منسوخة وقال: إذا حملنا الآية على المعاهدين فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة. قال الحدادي في تفسيره: لا يجوز مهادنة الكفار وترك أحد منهم على الكفر من غير جزية إذا كان بالمسلمين قوة على القتال وأما إذا عجزوا عن مقاومتهم وخافوا على أنفسهم وذراريهم جاز لهم مهادنة العدو من غير جزية يؤدونها إليهم لأن حظر الموادعة كان بسبب القوة فإذا زال السبب زال الحظر.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

﴿ستجدون﴾ قوماً **﴿آخرين يريدون أن يأمنوكم﴾** أي يظهرون لكم الصلح يريدون أن

يأمنوا منكم بكلمة التوحيد يظهرونها لكم ﴿ويأمنوا قومهم﴾ أي من قومهم بالكفر في السر وهم قوم من أسد وغطفان إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ دعوا من جهة قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شراً من كل عدو شرير ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه إليكم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ أي: لم يكفوها عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: تمكنتم منهم ﴿وأولئكم﴾ الموصوفون بما عد من الصفات القبيحة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر وغدرهم وإضرارهم بأهل الإسلام.

والإشارة في الآية الأولى أن الاختلاف واقع بين الأمة في أن خذلان المنافقين هل هو أمر من عند أنفسهم أو أمر من عند الله وقضائه وقدره فبين الله بقوله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ أي: صرتم فرقتين: فرقة يقولون الخذلان في النفاق منهم، وفرقة يقولون من الله وقضائه وقدره. ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ يعني: أن الله أركسهم بقدره وردهم بقضائه إلى الخذلان بالنفاق ولكن بواسطة كسبهم ما ينبت النفاق في قلوبهم ليهلك من هلك عن بينة ولهذا مثال وهو أن القدر كتقدير النقاش الصورة في ذهنه والقضاء كرسمه تلك الصورة لتلميذه بالأسرب ووضع التلميذ الاصباغ عليها متبعاً لرسم الأستاذ كالكسب والاختيار فالتلميذ في اختياره لا يخرج عن رسم الأستاذ وكذلك العبد في اختياره لا يمكنه الخروج عن القضاء والقدر ولكنه متردد بينهما ومما يؤكد هذا المثال والتأويل قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وذلك مثل ما ينسب الفعل إلى السبب الأقرب تارة وإلى السبب الأبعد أخرى فالأقرب كقولهم قطع السيف يد فلان والأبعد كقولهم قطع الأمير يد فلان ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وفي موضع ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] قال ابن نباتة:

إذا ما الإله قضى أمره فأنت لما قد قضاه السبب

فعلى هذه القضية من زعم أن لا عمل للعبد أصلاً فقد عاند وجحد ومن زعم أنه مستبد بالعمل فقد أشرك فاختيار العبد بين الجبر والقدر لأن أول الفعل وآخره إلى الله فالعبد بين طرفي الاضطرار مضطر إلى الاختيار فافهم جداً كذا في «التأويلات النجمية».

واعلم أن الجبرية ذهبت إلى أنه لا فعل للعبد أصلاً ولا اختيار وحركته بمنزلة حركة الجمادات والقدرية إلى أن العبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى ومذهب أهل السنة والجماعة الجبر المتوسط وهو إثبات الكسب للعبد وإثبات الخلق لله تعالى وأما مشاهدة الآثار في الأفعال من الله تعالى كما عليه أهل المكاشفة فذلك ليس من قبيل الجبر.

قال في «المثنوي»:

كر بپرانيم تير آن نى زماست ما كمان وتير اندازش خداست
اين نه جبراين معنى جباريست ذكر جبارى براى زاريست
زارىء ماشد دليل اضطرار خجلت ماشد دليل اختيار

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وما كان لمؤمن﴾ أي: وما صح له ولا لاق بحاله ﴿أن يقتل مؤمناً﴾ بغير حق فإن الإيمان زاجر عن ذلك ﴿إلا خطأ﴾ أي: ليس من شأنه ذلك في حال من الأحوال إلا حال الخطأ فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية فالمؤمن مجبول على أن يكون محلاً لأن يعرض له الخطأ ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً أو لا يقصد به محظور كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه.

ـ روي ـ أن عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل لأمه أسلم وهاجر إلى المدينة خوفاً من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه السلام فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع فخرج أبو جهل ومعه الحارث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم أي جبل ففتل منه أبو جهل في الذروة والغارب وقال: أليس محمد يحثك على صلة الرحم؟ انصرف وبرّ أمك ولك علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك حتى نزل وذهب معهما فلما بعدا من المدينة شدا يديه إلى خلف بحبل وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحارث هذا أخي فمن أنت؟ يا حارث لله علي إن وجدتك خالياً أن أقتلك وقدما به على أمه فحلفت لا يحل وثاقه حتى يرجع عن دينه ففعل بلسانه مطمئناً قلبه على الإيمان ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحارث وهاجر فلقيه عياش لظهر قبا فانحنى عليه فقتله ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فقال: قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ﴾ صغيراً كان أو كبيراً ﴿فتحرير رقبة﴾ أي: فعليه إعتاق نسمة عبر عن النسمة بالرقبة كما يعبر عنها بالرأس ﴿مؤمنة﴾ محكوم بإسلامها سواء تحققت فيها فروع الإيمان وثمراته بأن صلت وصامت أو لم يتحقق فدخل فيها الصغير والكبير والذكر والأنثى وهذا التحرير هو الكفارة وهي حق الله تعالى الواجب على من قتل مؤمناً مواظباً على عبادة الله تعالى والرقيق لا يمكنه المواظبة على عبادة الله تعالى فإذا أعتقه فقد أقامه مقام ذلك المقتول في المواظبة على العبادات. ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ أي: مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث بعد قضاء الدين منها وتنفيذ الوصية وإذا لم يبق وارث فهي لبيت المال لا المسلمين يقومون مقام الورثة كما قال ﷺ: «أنا وارث من لا وارث له» ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي: يتصدق أهله عليه سمى العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبيهاً على فضله وفي الحديث «كل معروف صدقة» وهو متعلق بعليه المقدر عند قوله: ﴿ودية مسلمة﴾ أو بمسلمة أي: تجب الدية ويسلمها إلى أهله إلا وقت تصدقهم عليه لأن الدية حق الورثة فيملكون إسقاطها بخلاف التحرير فإنه حق الله تعالى فلا يسقط بعفو الأولياء وإسقاطهم.

واعلم أن الدية مصدر من ودى القاتل المقتول إذا أعطى وليه المال الذي هو بدل النفس وذلك المال يسمى الدية تسمية بالمصدر والتاء في آخرها عوض عن الواو المحذوفة في الأول كما في العدة وهي أي الدية في الخطأ من الذهب ألف دينار ومن الفضة عشرة آلاف درهم

وهي على العاقلة في الخطأ وهم الأخوة وبنو الأخوة والأعمام وبنو الأعمام يسلمونها إلى أولياء المقتول ويكون القاتل كواحد من العاقلة يعني: يعطي مقدار ما أعطاه واحد منهم لأنه هو الفاعل فلا معنى لإخراجه ومؤاخذة غيره وسميت الدية عقلاً لأنها تعقل الدماء أي تمسكه من أن يسفك الدم لأن الإنسان يلاحظ وجود الدية بالقتل فيجتنب عن سفك الدم فإن لم تكن له عاقلة كانت الدية في بيت المال في ثلاث سنين فإن لم يكن ففي ماله **﴿فإن كان﴾** أي: المقتول **﴿من قوم عدو لكم﴾** كفار محاربين **﴿وهو مؤمن﴾** ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم بالهجرة إلى دار الإسلام أو بأن أسلم بعدما فارقهم لمهم من المهمات **﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾** أي: فعلى قاتله الكفارة دون الدية إذ لا وراثة بينه وبين أهله لكونه كفاراً ولأنهم محاربون **﴿وإن كان﴾** أي المقتول المؤمن **﴿من قوم﴾** كفرة **﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾** أي: عهد موقت أو مؤبد **﴿فدية﴾** أي فعلى قاتله دية **﴿مسلمة إلى أهله﴾** من أهل الإسلام إن وجدوا **﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾** كما هو حكم سائر المسلمين **﴿فمن لم يجد﴾** أي: رقبة لتحريرها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها وهو ما يصلح أن يكون ثمناً للرقبة فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وسائر حوائجه الضرورية من المسكن وغيره **﴿فصيام﴾** أي: فعليه صيام **﴿شهرين متتابعين﴾** وإيجاب التتابع يدل على أن المكفر بالصوم لو أفطر يوماً في خلال شهرين أو نوى صوماً آخر فعليه الاستئناف إلا أن يكون الفطر بحيض أو نفاس أو نحوهما مما لا يمكن الاحتراز عنه فإنه لا يقطع التتابع والإطعام غير مشروع في هذه الكفارة بدليل الفاء الدالة على أن المذكور كل الواجب وإثبات البدل بالرأي لا يجوز فلا بد من النص **﴿توبة﴾** كائنة **﴿من الله﴾** ونصبه على المفعول له أي: شرع لكم ذلك توبة أي: قبولاً لها من تاب الله عليه إذا قبل توبته. فإن قيل: قتل الخطأ لا يكون معصية فما معنى التوبة. قلت: إن فيه نوعاً من التقصير لأن الظاهر أنه لو بالغ في احتياط لما صدر عنه ذلك. فقوله توبة من الله تنبيه على أنه كان مقصراً في ترك الاحتياط **﴿وكان الله عليماً﴾** بحاله أي: بأنه لم يقصد القتل ولم يتعمد فيه **﴿حكيماً﴾** فيما أمر في شأنه.

والإشارة في قوله تعالى: **﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾** أن تربية النفس وتزكيتها ببذل المال وترك الدنيا مقدم على تربيتها بالجوع والعطش وسائر المجاهدات فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهي عقبة لا يقتحمها إلا الفحول من الرجال كقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: ١١- ١٣] الآية. وأن أول قدم السالك أن يخرج من الدنيا وما فيها. وثانيه أن يخرج من النفس وصفاتها كما قال «دع نفسك وتعال» والإمساك عن المشارب كلها من الدنيا والآخرة على الدوام إنما هو بجذبة من الله تعالى وإعطائه القابلية لذلك، كما قيل:

داد حق را قابليت شرط نيست بلكه شرط قابليت داد حق

ـ حكي ـ أن أولاد هارون الرشيد كانوا زهاداً لا يرغبون في الدنيا والسلطنة فلما ولد له ولد قيل له: ادخله في بيت من زجاج يعيش فيه مع التنعم والترنم والأغاني حتى يليق للسلطنة ففعل فلما كبر كان يوماً يأكل اللحم فوقع عظم من يده فانكسر الزجاج فرأى السماء والعرض فسأل عنهما فأجابوا على ما هو فطلب منهم أن يخرجوه من البيت، فلما خرج رأى ميتاً وجاء إليه وتكلم له فلم يتكلم فسأل عنه فقالوا هو ميت لا يتكلم وقال: وأنا أكون كذلك قالوا: كل

نفس ذائقة الموت فتركهم وذهب إلى الصحراء فذهبوا معه فإذا خمسة فوارس جاؤوا إليه ومعهم فرس ليس عليه أحد فأركبوه وأخذوه وغابوا وليس كل قلب يصلح لمعرفة الرب كما أن كل بدن لا يصلح لخدمته ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الله عليما﴾ أي: بمن يصلح للجذبة والخدمة.

قال الصائب:

درسر هرخام طينت نشئه منصور نيست ... هرسفالى را صداى كاسه فغفور نيست

وهذا لا يكون بالدعوى فإن المحك يميز الجيد والزيوف وعالم الحقيقة لا يسعه القيل والقال ألا يرى أن من كان سلطاناً أعظم لا يرفع صوته بالتكلم لأنه في عالم المحو وكان أمر سليمان عليه السلام لآصف بن برخيا بإتيان عرش بلقيس مع أنه في مرتبة النبوة لذلك أي لما أنه كان في عالم الاستغراق فلم يرد التنزل وقوله عليه السلام: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» إشارة إلى تلك المرتبة اللهم اجعلنا من الواصلين إلى جناب قدسك والمتنعمين في حاضر قولك وأنسك.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن يقتل مؤمناً﴾ حال كون ذلك القاتل ﴿متعمداً﴾ في قتله أي: قاصداً غير مخطىء.

ـ روي ـ أن مقيس بن صبابة الكناني كان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله عليه السلام وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه الزبير بن عياض الفهري وكان من أصحاب بدر إلى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه إن علموه وبأداء الدية إن لم يعلموه فقالوا: سمعاً وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام ما نعلم له قاتلاً ولكنا نؤدي ديته فأتوه بمائة من الإبل فانصرفا راجعين إلى المدينة حتى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال: أتقبل دية أخيك فتكون مسبة عليك أي عاراً أقتل هذا الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس وتبقى الدية فضلة فرماه بصخرة فشدخ رأسه فقتله ثم ركب بعيراً من الإبل وساق بقيتها إلى مكة كافراً وهو يقول:

قتلت به فهراً وحملت عقله ... سراة بني النجار أصحاب قارع

وأدركت ثاري واضطجعت موسداً ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت الآية وهو الذي استثناه رسول الله ﷺ يوم الفتح ممن آمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة، ونعم ما قيل:

هركه كند بخود كند ... كر همه نيك وبد كند

﴿فجزاؤه﴾ الذي يستحقه بجنايته ﴿جهنم﴾ وقوله تعالى: ﴿خالداً فيها﴾ حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه مقام الكلام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالداً فيها ﴿وغضب الله عليه﴾ عطف على مقدر تدل عليه الشرطية دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريراً وتأكيداً لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أي: انتقم منه ﴿ولعنه﴾ أي: أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ما ذكر ﴿وأعد له﴾ في جهنم ﴿عذاباً عظيماً﴾ لا يقادر قدره.

واعلم أن العبرة بعموم اللفظ دون خصوص السبب والكلام في كفر من استحل دم المؤمن وخلوده في النار حقيقة فأما المؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً غير مستحل لقتله فلا يكفر

بذلك ولا يخرج من الإيمان فإن أقيد ممن قتله كذلك كان كفارة له وإن كان تائباً من ذلك ولم يكن مقاداً كانت التوبة أيضاً كفارة له لأن الكفر أعظم من هذا القتل فإذا قبلت توبة الكافر فتوبة هذا القاتل أولى بالقبول وإن مات بلا توبة ولا قود فأمره إلى الله تعالى إن شاء غفر له وأرضى خصمه وإن شاء عذبه على فعله ثم يخرجه بعد ذلك إلى الجنة التي وعده بإيمانه لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد فالمراد بالخلود في حقه المكث الطويل لا الدوام مع أن هذا إخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك كيف لا وقد قال الله عز وجل ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزي كل سيئة مثلها لعارضه قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وقد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب ثم إن لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذباً فهذا التشديد والتغليظ الذي هو سنة الله تعالى لا يتعلق بالقاتل التائب ولا بمن قتل عمداً بحق كما في القصاص بل يتعلق بمن لم يتب وبمن قتل ظلماً وعدواناً وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم» وفيه «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لاشترك في دمه» وفيه «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى» وفيه «إن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه» وقد روي أن داود عليه السلام أراد بنيان بيت المقدس فبناه مراراً فكلما فرغ منه تهدم فشكا إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء فقال داود: يا رب ألم يك ذلك القتل في سبيلك قال: بلى ولكنهم أليسوا من عبادي فقال: يا رب فاجعل بنيانه على يدي من؟ فأوحى الله إليه أن أومر ابنك سليمان يبنيه والغرض من هذه الحكاية مراعاة هذه النشأة الإنسانية وأن إقامتها أولى من هدمها ألا ترى إلى أعداء الدين أنه قد فرض الله في حقهم الجزية والصلح إبقاء عليهم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» وفي الحديث: «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضي بين الناس في الدماء» ثم يحاسب العبد ويقضي عليه في حق زكاته وغيرها هل منعها أو أداها» إلى غير ذلك من الأحوال الجزئية.

ثم اعلم أن المقتول إذا اقتص منه الولي فذلك جزاؤه في الدنيا وفيما بين القاتل والمقتول الأحكام باقية في الآخرة لأن الولي وإن قتله فإنما أخذ حق نفسه للتشفي ودرء الغيظ فأما المقتول فلم يكن له في القصاص منفعة كذا في تفسير الحدادي ولا كفارة في القتل العمد لقوله عليه السلام: «خمس من الكبائر لا كفارة فيهن الإشراك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وقتل النفس عمداً واليمين الغموس» والولي مخير بين ثلاث في القتل العمد القصاص والدية والعفو وذلك لأن في شرع موسى عليه السلام القصاص وهو القتل فقط وفي دين عيسى عليه السلام العقل أو العفو فحسب وفي ملتنا للتشفي القصاص وللترفه الدية وللتكرم العفو وهو أفضل. قال السعدي قدس سره:

بدى رابدى سهل باشد جزا　　　اكر مردى احسن إلى من أسا

والإشارة في الآية أن القلب مؤمن في أصل الفطرة والنفس كافرة في أصل الخلقة وبينهما عداوة جبلية وقتال أصلي وتضاد كلي فإن في حياة القلب موت النفس وفي حياة النفس موت القلب فلما كانت نفوس الكفار حية كانت قلوبهم ميتة فسماهم الله الموتى ولما كانت نفس الصديق ميتة وقلبه حياً قال النبي عليه السلام: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى الصديق» فالإشارة في قوله: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً**﴾ إلى القلب والنفس يعني النفس الكافرة إذا قتلت قلباً مؤمناً متعمدة للعداوة الأصلية باستيلاء صفاتها البهيمية والسبعية والشيطانية على القلب الروحاني وغلبة هواها عليه حتى يموت القلب بسمها القاتل ﴿**فجزاؤه**﴾ أي جزاء النفس ﴿**جهنم**﴾ وهي سفل عالم الطبيعة ﴿**خالداً فيها**﴾ لأن خروج النفس عن سفل الطبيعة إنما كان بحبل الشريعة والتمسك بحبل الشريعة إنما كان من خصائص القلب المؤمن كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۝٦﴾ [التين: ٥-٦] فالإيمان والعمل الصالح من شان القلب وصنيعه فإذا مات القلب وانقطع عمله تخلد النفس في جهنم سفل عالم الطبيعة أبداً. ﴿**وغضب الله عليه ولعنه**﴾ بأن يبعدها ويطردها عن الحضرة والقربة ويحرمها من إيصال الخير والرحمة إليها بخطاب ارجعي إلى ربك ﴿**وأعد له عذاباً عظيماً**﴾ هجراناً عن حضرة العلي العظيم وحرماناً من جنات النعيم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ نزلت الآية في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان أسلم ولم يسلم من قومه غيره وكان عليه السلام بعث سرية إلى قومه كان عليها غالب بن فضالة الليثي فلما وصلت السرية إليهم هربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامه فلما وصلوا فدك كبروا وكبر مرداس معهم وكان في سفح جبل ومعه غنمه فنزل إليهم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد وساق غنمه فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فوجد وجداً شديداً وقال: «قتلتموه إرادة ما معه وهو يقول لا إله إلا الله» فقال أسامة: إنه قال بلسانه دون قلبه وفي رواية إنما قالها خوفاً من السلاح فقال عليه السلام: «هلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب» ثم قرأ الآية على أسامة فقال: يا رسول الله استغفر لي فقال: «فكيف بلا إله إلا الله» قال أسامة: فما زال ﷺ يعيدها حتى وددت إن لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ ثم استغفر لي وأمر برد الأغنام وتحرير رقبة مؤمنة والمعنى أيها المؤمنون ﴿**إذا ضربتم في سبيل الله**﴾ أي سافرتم وذهبتم للغزو من قول العرب ضربت في الأرض إذا سرت لتجارة أو غزو أو نحوهما ﴿**فتبينوا**﴾ التفعل بمعنى الاستفعال الدال على الطلب أي اطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية ﴿**ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام**﴾ أي لمن حياكم بتحية الإسلام ﴿**لست مؤمناً**﴾ وإنما أظهرت ما أظهرت متعوذاً بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه ﴿**تبتغون عرض الحياة الدنيا**﴾ حال من فاعل لا تقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك التأني لكن لا على أن يكون النهي راجعاً إلى القيد فقط كما في قولك لا تطلب العلم

تبتغي به الجاه بل إليهما جميعاً أي لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع النفاد وعرض الدنيا ما يتمتع به فيها من المال نقداً كان أو غيره قليلاً كان أو كثيراً يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وتسميته عرضاً تنبيه على أنه سريع الفناء قريب الانقضاء ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لماله وهو تنبيه على أن ثواب الله تعالى موصوف بالدوام والبقاء ﴿**كذلك**﴾ أي مثل ذلك الذي ألقى إليكم السلام ﴿**كنتم**﴾ أنتم أيضاً ﴿**من قبل**﴾ أي: في مبادي إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها ﴿**فمن الله عليكم**﴾ بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم. الفاء للعطف على كنتم ﴿**فتبينوا**﴾ الفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وثوق على تواطىء الظاهر والباطن ﴿**إن الله كان بما تعملون**﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها ﴿**خبيراً**﴾ فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير وإن شراً فشر فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. قال الإمام الغزالي رحمه الله: الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ولا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر وهو بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة ويسمى صاحبه خبيراً وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة والطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والبخل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه ولا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها وخدعها فحاربها وتشمر لمعاداتها وأخذ الحذر منها فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً انتهى كلام الإمام. قال السعدي:

نمى تازد ابن نفس سركش چنان　　كه عقلش تواند كرفتن عنان
كه بانفس وشيطان بر آيد بزور　　مصاف پلنكان نبايد زمور

ودلت الآية على أن المجتهد قد يخطىء كما أخطأ أسامة وأن خطأه قد كان مغتفراً حيث لم يقتص منه وعلى أن الذكر اللساني معتبر كما أن إيمان المقلد صحيح لكن ينبغي للمؤمن أن يترقى من الذكر اللساني إلى الذكر القلبي ثم إلى الذكر الروحي ويحصل له التعين والمعرفة ويخلص من ظلمة الجهل ويتنور بنور المعرفة لأن الإنسان يموت كما يعيش. عن ابن عباس أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي عليه السلام فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام وهو يقول ما لي أراك مغموماً حزيناً قال عليه السلام: «يا جبريل طال تفكري في أمتي يوم القيامة» قال: أفي أمر أهل الكفر أم أهل الإسلام فقال: «يا جبريل في أمر أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله» فأخذ بيده حتى أقامه إلى مقبرة بني سلمة ثم ضرب بجناحه الأيمن على قبر ميت قال: قم بإذن الله فقام الرجل مبيض الوجه وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال جبريل: عد إلى مكانك فعاد كما كان ثم ضرب بجناحه الأيسر فقال: قم بإذن الله فخرج رجل مسود الوجه أزرق العينين وهو يقول واحسرتاه واندامتاه فقال له جبريل عد إلى مكانك فعاد كما كان ثم قال: يا محمد على هذا يبعثون يوم القيامة وعند ذلك قال رسول الله ﷺ: «تموتون كما تعيشون وتبعثون كما تموتون»:

هركسى آن درود عاقبت كار كه كشت

والإشارة في الآية إلى البالغين الواصلين بالسير إلى الله أن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ووفقوا لمجرد الإيمان بالغيب ﴿إذا ضربتم في سبيل الله﴾ يعني: سرتم بقدم السلوك في طلب الحق حتى صار الإيمان إيقاناً والإيقان إحساناً والإحسان عياناً والعيان غيباً وصار الغيب شهادة والشهادة شهوداً والشهود شاهداً والشاهد مشهوداً وبهما أقسم الله بقوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج: ٣] فافهم جداً وهذا مقام الشيخوخة ﴿فتبينوا﴾ عن حال المريدين وتثبتوا في الرد والقبول وفي قوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ إشارة إلى أرباب الطلب في البدء والإرادة أي إذا تمسك أحد بذيل إرادتكم وألقى إليكم السلام بالانقياد والاستسلام لكم فلا تقولوا لست مؤمناً أي صادقاً مصدقاً في التسليم لأحكام الصحبة وقبول التصرف في المال والنفس على شرط الطريقة ولا تردوه ولا تنفروه بمثل هذه التشديدات وقولوا له كما أمر الله موسى وهارون عليهما السلام ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] فما أنتم أعز من الأنبياء ولا المريد المبتدىء أذل من فرعون ولا يهولنكم أمر رزقه فتجتنبون منه طلباً للتخفيف وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ فلا تهتموا لأجل الرزق ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أي: كذلك كنتم ضعفاء في الصدق والطلب محتاجين إلى الصحبة والتربية بدواء الإرادة ﴿فمن الله عليكم﴾ بصحبة المشايخ وقبولهم إياكم والإقبال على تربيتكم وإيصال رزقكم إليكم وشفقتهم وعطفهم عليكم ﴿فتبينوا﴾ أن تردوا صادقاً اهتماماً لرزقه أو تقبلوا كاذباً حرصاً على تكثير المريدين ﴿إن الله كان﴾ في الأزل ﴿بما تعملون﴾ اليوم من الرد والقبول والاحتياج إلى الرزق الذي تهتمون له ﴿خبيرا﴾ بتقدير أمور قدرها في الأزل وفرغ منها كما قال عليه السلام: «إن الله فرغ من الخلق والرزق والأجل» وقال: «الضيف إذا نزل نزل برزقه وإذا ارتحل ارتحل بذنوب مضيفه» كذا في «التأويلات النجمية».

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾

﴿لا يستوي القاعدون﴾ عن الجهاد ﴿من المؤمنين﴾ حال من القاعدين أي كائنين من المؤمنين وفائدتها الإيذان من أول الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم والإشعار بعلة استحقاقهم كما سيأتي من الحسنى ﴿غير أولي الضرر﴾ بالرفع صفة للقاعدون. فإن قلت كلمة غير لا تتعرف بالإضافة فكيف جاز كونها صفة للمعرفة. قلت: اللام في القاعدون للعهد الذهني فهو جار مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم والأظهر أنه بدل من القاعدون. والضرر المرض والعاهة من عمى أو عرج أو شلل أو زمانة أو نحوها وفي معناه العجز عن الأهبة، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترضها أي تكسرها ثم سرى عنه وأزيل ما عرض له من شدة الوحي فقال: «اكتب فكتبت ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون﴾» فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال: «اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر»

قال زيد: أنزلها الله وحدها فألحقتها فالمراد بالقاعدين هم الأصحاء الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم لأن الغزو فرض كفاية قال ابن عباس رضي الله عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول ﴿والمجاهدون﴾ عطف على القاعدون ﴿في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة في الأجر والثواب. فإن قلت معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء. قلت: فائدته تذكير ما بينهما من التفاوت العظيم ليرغب القاعد في الجهاد رفعاً لرتبته وأنفة عن انحطاط منزلته ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم﴾ جملة موضحة لما نفي الاستواء فيه فإن انتفاء الاستواء بينهما يحتمل أن يكون بزيادة درجة أحدهما على درجة الآخر وبنقصانها فبين الله تعالى بهذه الجملة أن انتفاء استوائهما إنما هو بأنه تعالى فضل المجاهدين كأنه قيل: ما لهم لا يستوون فأجيب بذلك ﴿على القاعدين﴾ غير أولي الضرر لكون الجملة بياناً للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف ﴿درجة﴾ تنوينها للتفخيم كما سيأتي ونصبها بنزع الخافض أي بدرجة أو على المصدرية لأنه لتضمنه معنى التفضيل ووقوعه موقع المرة من التفضيل كان بمنزلة أن يقال فضلهم تفضيلة واحدة ونظيره قولك ضربه سوطاً بمعنى ضربه ضربة ﴿وكلا﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. قوله كلا مفعول أول لوعد والحسنى مفعوله الثاني وتقديم الأول على الفعل لإفادة القصر تأكيداً للوعد أي كلا منهما وعد الله الحسنى لا أحدهما فقط والجملة اعتراض جيء بها تداركاً لما عسى يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول. قال الفقهاء: وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية وليس مفروضاً على كل أحد بعينه لأنه تعالى وعد القاعدين عنه الحسنى كما وعد المجاهدين ولو كان الجهاد واجباً على كل أحد على التعيين لما كان القاعد أهلاً لوعد الله تعالى إياه بالحسنى ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ عطف على قوله فضل الله ﴿أجراً عظيماً﴾ نصب على المصدر لأن فضل بمعنى آجر أي آجرهم أجراً عظيماً وإيثاره على ما هو مصدر من فعله للإشعار بكون ذلك التفضيل أجراً لأعمالهم أو مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء أي وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً. وقيل نصب بنزع الخافض أي فضلهم بأجر عظيم ﴿درجات﴾ بدل من أجراً بدل الكل مبين لكمية التفضيل ﴿منه﴾ صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أي درجات كائنة منه تعالى وهي سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين خريفاً أو سبعمائة درجة وفي الحديث «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما في قولك ضربه أسواطاً أي ضربات كأنه قيل فضلهم تفضلات ﴿ومغفرة﴾ بدل من أجرا بدل البعض لأن بعض الأجر ليس من باب المغفرة أي: مغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التي لا يكفرها سائر الحسنات التي لا يأتي بها القاعدون أيضاً حتى تعد من خصائصهم ﴿ورحمة﴾ بدل الكل من أجراً مثل درجات ويجوز أن يكون انتصابهما بإضمار فعلهما أي غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن الانتظام إما

لتنزيل الاختلاف العنواني بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتي تمهيداً لسلوك طريقة الإبهام ثم التفسير روماً لمزيد التحقيق والتقرير كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨] كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يفهم كنهها وحيث كان تحقق هذا العنوان البعيد بينهما موهماً لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل ولله در شأن التنزيل وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبىء عنه تقديم الأول وتأخير الثاني وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل فضلهم عليهم في الدنيا درجة واحدة وفي الآخرة درجات لا تحصى وقد وسط بينهما في الذكر ما هو متوسط بينهما في الوجود أعني الوعد بالجنة توضيحاً لحالهما ومسارعة إلى تسلية المفضول والله سبحانه أعلم. وقيل: المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرون من جاهد نفسه وعليه قوله عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» **﴿وكان الله غفوراً﴾** لذنوب من جاهد في سبيله **﴿رحيماً﴾** يدخله الجنة برحمته وهو تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة.

قال القشيري ـ رحمه الله ـ: إن الله سبحانه جمع أولياءه في الكرامات لكنه غاير بينهم في الدرجات فمن غني وغيره أغنى منه ومن كبير وغيره أكبر منه هذه الكواكب منيرة لكن القمر فوقها وإذا طلعت الشمس بهرت أي غلبت جميعها بنورها انتهى فالجنة مشتركة بين الواصلين البالغين والطالبين المنقطعين بعذر وعوام المؤمنين القاعدين عن الطلب بلا عذر لكن الطائفة الأولى في واد والأخريان في واد آخر لا يستوون عند الله تعالى. قال المولى الجامي قدس سره:

أي كمند بدن چو طفل صغير ... مانده دردست خواب غفلت اسير
پيش ازان كت أجل كند پيدار ... كر نمردى زخواب سر بردار
إنما السائرون كل رواح ... يحمدون السري لدى الاصباح

ودلت الآية على أن أولي الضرر مساوون للمجاهدين في الأجر والثواب.

ـ روي ـ عنه عليه السلام أنه لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال: «إن في المدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا كانوا معكم فيه» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم حابس العذر» وهم الذين صحت نياتهم وتعلقت قلوبهم بالجهاد وإنما منعهم عن الجهاد الضرر:

هر كسى از همت والاى خويش ... سود برد درخور كالاي خويش

قال عليه السلام: «إذا مرض العبد قال الله تعالى: اكتبوا لعبدي ما كان يعمله في الصحة إلى أن يبرأ» وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٥ ـ ٦] إن من صار هرماً كتب الله له أجر عمله قبل هرمه غير منقوص. وقالوا في تفسير قوله عليه السلام: «نية المؤمن خير من عمله» إن المؤمن ينوي الإيمان والعمل الصالح لو عاش أبداً فيحصل له ثواب تلك النية أبداً قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى

سوى الضرر قد ذكرت في قوله تعالى في أواخر سورة التوبة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١] والنصيحة لهما طاعة لهما والطاعة لهما في السر والعلن وتوليهما في السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه كذا في تفسير «الإرشاد».

واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأماثل الحِرَف فلا ينبغي للعاقل أن يترك الجهاد أو التحدث به فإن من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه فقد مات ميتة جاهلية ومعنى التحدث طلبه الغزو وإخطاره بالبال. قال بعض الكبار: السبق بالهمم لا بالقدم وفي الحديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» ومعناه أن من أنعم الله عليه بهاتين النعمتين وهما صحة الجسد بالعافية التي هي كالتاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا السقيم والفراغ من شواغل الدنيا وعلقها فمن حصل له هاتان النعمتان واشتغل عن القيام بواجب حق الله تعالى فهذا هو الذي غبن بضياع حظه ونصيبه من طاعة الله وبذل النفس في الخدمة وتحصيل ما ينفعه لآخرته من أنواع الطاعات والقربات اللهم اجعلنا من المنتفعين بحياتهم والمتوجهين إليك في مرضهم وصحتهم ولا تقطعنا عنك ولو لحظة عين ولا تشغلنا عن الوصل بالبين إنك أنت الغفور الرحيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ يحتمل أن يكون ماضياً فيكون إخباراً عن أحوال قوم معينين انقرضوا ومضوا وأن يكون مضارعاً قد حذف منه إحدى التاءين وأصله تتوفاهم وعلى هذا تكون الآية عامة في حق كل من كان بهذه الصفة والظاهر أن لفظ المضارع هٰهنا على حكاية الحال الماضية والقصد إلى استحضار صورتها بشهادة كون خبر أن فعلاً ماضياً وهو قالوا والمراد بتوفي الملائكة إياهم قبض أرواحهم عند الموت والملك الذي فوض إليه هذا العمل هو ملك الموت وله أعوان من الملائكة وإسناد التوفي إلى الله تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] مبني على أن خالق الموت هو الله تعالى: **﴿ظالمي أنفسهم﴾** في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للإخلال بأمور الدين فإنها نزلت في ناس من مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة فإنه تعالى لم يكن يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة إلا بالهجرة إليها ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله عليه السلام: «لا هجرة بعد الفتح» قال الله تعالى فيمن آمن وترك الهجرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: ٧٢] وهو حال من ضمير توفاهم فإنه وإن كان مضافاً إلى المعرفة وحق الحال أن يكون نكرة إلا أن أصله ظالمين أنفسهم فتكون الإضافة لفظية **﴿قالوا﴾** أي الملائكة للمتوفين تقريراً لهم بتقصيرهم في إظهار إسلامهم وإقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخاً لهم بذلك **﴿فيم كنتم﴾** أي: في أي شيء كنتم من أمور دينكم كأنه قيل فماذا قالوا في الجواب فقيل:

﴿قالوا﴾ متجانفين عن الإقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم **﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾** أي: في أرض مكة عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها **﴿قالوا﴾** إبطالاً لتعللهم وتبكيتاً لهم **﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وقيل: كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقريعاً وتوبيخاً لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة بانتظامهم في عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللاً بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم أي إلى بدر كارهين فرد عليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص من قهرهم متمكنين من المهاجرة **﴿فأولئك﴾** الذين حكيت أحوالهم الفظيعة **﴿مأواهم﴾** أي: في الآخرة **﴿جهنم﴾** كما أن مأواهم في الدنيا دار الكفر لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار وكون جهنم مأواهم نتيجة لما قبله وهو الجملة الدالة على أن لا عذر لهم في ذلك أصلاً فعطف عليه عطف جملة على أخرى **﴿وساءت مصيراً﴾** مصيرهم جهنم **﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾** الاستثناء منقطع فإن المتوفين ظالمين أنفسهم إما مرتدون أو عصاة بتركهم الهجرة مع القدرة عليها وهؤلاء المستضعفون أي المستذلون المقهورون تحت أيدي الكفار ليسوا بقادرين عليها فلم يدخلوا فيهم فكان الاستثناء منقطعاً والجار والمجرور حال من المستضعفين أي كائنين منهم. فإن قلت: المستثنى المنقطع وإن لم يكن داخلاً في المستثنى منه لكن لا بد أن يتوهم دخوله في حكم المستثنى منه ومن المعلوم أن لا يتوهم دخول الأطفال في الحكم السابق وهو كون مأواهم جهنم فكيف ذكر في عداد المستثنى. قلت للمبالغة في التحذير من ترك الهجرة وإيهام أنها لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والإشعار بأنه لا محيص لهم عنها البتة تجب عليهم إذا بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت **﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾** صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه فيكون في حكم المنكر واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر إليه بنفسه أو بدليل **﴿فأولئك﴾** إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز **﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾** ذكر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى أن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه **﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾** معنى كونه عفواً صفحه وإعراضه عن العقوبة ومعنى كونه غفوراً ستر القبائح والذنوب في الدنيا والآخرة فهو كامل العفو تام الغفران، قال السعدي قدس سره:

پس پرده بيند عملهاى بد هم اوپرده پوشد ببالاى خود

وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة أمور دينه بأي سبب كان. وعن النبي ﷺ «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليه السلام». قال الحدادي في قوله تعالى: **﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** دليل أنه لا عذر لأحد في المقام على المعصية في بلده لأجل المال والولد والأهل بل ينبغي أن يفارق وطنه إن لم يمكنه إظهار الحق فيه ولهذا روي عن سعد بن جبير أنه قال: إذا عمل بالمعاصي بأرض فاخرج منها:

سعد يا حب وطن كرچه حديث است صحيح نتوان مرد بسختى كه من اينجاز آدم

والإشارة في الآية أن المؤمن عام وخاص وخاص الخاص كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو العام ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو الخاص ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو خاص الخاص ﴿**الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم**﴾ هم العوام الذين ظلموا أنفسهم بتدسيتها من غير تزكيتها عن أخلاقها الذميمة وتحليتها بالأخلاق الحميدة ليفلحوا فخابوا وخسروا كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠] ﴿**قالوا فيم كنتم**﴾ أي: قالت الملائكة حين قبضوا أرواحهم في أي غفلة كنتم تضيعون أعماركم وتبطلون استعدادكم الفطري؟ وفي أي وادٍ من أودية الهوى تهيمون؟ وفي أي روضة من رياض الدنيا كنتم تؤثرون الفاني على الباقي وتنسون الطهور والساقي وإخوانكم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ويهاجرون عن الأوطان ويفارقون الإخوان والأخدان ﴿**قالوا كنا مستضعفين في الأرض**﴾ أي عاجزين في استيلاء النفس الأمارة وغلبة الهوى مأسوري الشيطان في حبس البشرية ﴿**قالوا ألم تكن أرض الله**﴾ أي أرض القلب ﴿**واسعة فتهاجروا فيها**﴾ فتحرجوا من مضيق أرض البشرية فتسلكوا في فسحة عالم الروحانية بل تطيروا في هواء الهوية ﴿**فأولئك**﴾ يعني ظالمي أنفسهم ﴿**مأواهم جهنم**﴾ البعد عن مقامات القرب ﴿**وساءت مصيراً**﴾ جهنم البعد لتاركي القرب والمتقاعدين عن جهاد النفس ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾ الذي صفتهم ﴿**لا يستطيعون حيلة**﴾ في الخروج عن الدنيا لكثرة العيال وضعف الحال ولا على قهر النفس وغلبة الهوى ولا على قمع الشيطان في طلب الهدى ﴿**ولا يهتدون سبيلاً**﴾ إلى صاحب ولاية يتمسكون بعروته الوثقى ويعتصمون بحبل إرادته في طلب المولى فيخرجهم من ظلمات أرض البشرية إلى نور سماء الربوبية على أقدام العبودية وهم المقتصدون المشتاقون ولكنهم بحجب الأنانية محجوبون ومن شهود جمال الحق محرومون فعذرهم بكرمه ووعدهم رحمته وقال: ﴿**فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم**﴾ السكون عن الله والركون إلى غير الله ﴿**وكان الله**﴾ في الأزل ﴿**عفواً**﴾ ولعفوه أمكنهم التقصير في العبودية ﴿**غفوراً**﴾ ولغفرانه أمهلهم في إعطاء حق الربوبية كذا في «التأويلات النجمية».

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٠﴾

﴿**ومن يهاجر في سبيل الله**﴾ ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها وسبيل الله ما أمر بسلوكه ﴿**يجد في الأرض مراغماً كثيراً**﴾ أي متحولاً يتحول إليه ومهاجراً وإنما عبر عنه بذلك تأكيداً للترغيب لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل المهاجر بما فيه من الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم. والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب يقال أرغم الله أنفه أي ألصقه بالرغام ولما كان الأنف من جملة الأعضاء في غاية العزة والتراب في غاية الذلة جعل قولهم رغم أنفه كناية عن الذلة ﴿**وسعة**﴾ في الرزق وإظهار الدين ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً**﴾ أي مفارقاً قومه وأهله وولده ﴿**إلى الله ورسوله**﴾ أي إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﴿**ثم يدركه الموت**﴾ أي: قبل أن يصل إلى المقصد وإن كان ذلك خارج بابه كما ينبىء عنه إيثار الخروج من بيته على المهاجرة ﴿**فقد وقع أجره**

على الله﴾ الوقوع والوجوب متقاربان والمعنى ثبت أجره عند الله ثبوت الأمر الواجب **﴿وكان الله غفورا﴾** مبالغةً في المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج **﴿رحيماً﴾** مبالغاً في الرحمة فيرحمه بإكمال ثواب هجرته.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ لما بعث بالآيات المحذرة عن ترك الهجرة إلى مسلمي مكة. قال جندب بن ضمرة من بني الليث لبنيه وكان شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يركب الراحلة احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة فحمله على سرير متوجهاً إلى المدينة فلما بلغ التنعيم وهو موضع قريب من مكة أشرف على الموت فأخذ يصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات حميداً فلما بلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو توفي بالمدينة لكان أتم أجراً وقال المشركون وهم يضحكون ما أدرك هذا ما طلب فأنزل الله هذه الآية فمن هذا قالوا: المؤمن إذا قصد طاعة ثم أعجزه العذر عن إتمامها كتب الله له ثواب تمام تلك الساعة. وفي الكشاف قالوا: كل هجرة لغرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهداً في الدنيا أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله انتهى. قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره من مات قبل الكمال فمراده يجيء إليه كما أن من مات في طريق الكعبة يكتب له أجر حجين. يقول: الفقير سمي الذبيح المتخلص بحقي: سمعت مرة شيخي العارف العلامة أبقاه الله بالسلامة وهو يقول عند تفسير هذه الآية: إن الطالب الصادق إذا سافر من أرض بشريته إلى مقام القلب فمات قبل أن يصل إلى مراده فله نصيب من أجر البالغين إلى ذلك المقام لصدق طلبه وعدم انقطاعه عن الطريق إلى حد الموت بل الله يكمله في عالم البرزخ بوساطة روح من أرواحه أو بوساطة فيضه. ومثل هذا جاء في حق بعض السلاك وله نظير في الشريعة كما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: بلغني أن المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن أمر حفظته أن يعلموه القرآن في قبره حتى يبعثه الله تعالى يوم القيامة مع أهله فإذا كان طالب القرآن الرسمي بالغاً إلى مراده، وأنّ في البرزخ لحرصه على التحصيل فليس ببدع أن يكون طالب القرآن الحقيقي واصلاً إلى مرامه في عالم المثال المقيد لشغفه على التكميل. أقول: وأما ما قال الشيخ الكبير صدر الدين القنوي قدس سره في الفلك الآخر من الفلوك: من المتفق شرعاً وعقلاً وكشفاً أن كل كمال لم يحصل للإنسان في هذه النشأة وهذه الدار فإنه لا يحصل له بعد الموت في الدار الآخرة انتهى فلعله في حق أهل الحجاب الذين قعدوا عن الطلب رأساً لا في حق أهل الحجاب الذين سلكوا فماتوا قبل الوصول إلى مكاشفة الأفعال ومشاهدة الصفات ومعاينة الذات. قال المولى الجامي في شرح الكلمة الشعيبية من الفصوص الحكمية: فما يدل على عدم الترقي بعد الموت من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] الآية إنما هو بالنسبة إلى معرفة الحق لا لمن لا معرفة له أصلاً فإنه إذا انكشف الغطاء ارتفع العمى بالنسبة إلى الدار الآخرة ونعيمها وجحيمها والأحوال التي فيها وأما قوله عليه السلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله» فهو يدل على أن الأشياء التي يتوقف حصولها على الأعمال لا تحصل وما لا يتوقف عليها بل يحصل بفضل الله ورحمته فقد يحصل وذلك من مراتب التجافي انتهى كلامه. فعلى السالك أن لا ينقطع عن

الطريق ويرجو من الله التوفيق كي يصل إلى منزل التحقيق، قال الحافظ الشيرازي:

كاروان رفت تودرراه كمين كاه بخواب ... وه كه بس بيخبز از غلغل چندين جرسى

بال بكشاى صفير از شجر طوبى زن ... حيف باشد چوتو مرغى كه اسير قفسى

تاچو مجمر نفسى دامن جانان كيرم ... جان نهاديم بر آتش زپى خوش نفسى

چند پويد بهواى تو بهر سو حافظ ... يسر الله طريقاً بك يا ملتمسى

وفي «التأويلات النجمية»: أن الإشارة في الآية من غاية ضعف الإنسان وحياته الحيوانية واستهواء الشيطان يكون الخوف غالباً على الطالب الصادق في بدء طلبه فكما أراد أن يسافر عن الأوطان ويهاجر عن الإخوان طالباً فوائد إشارة سافروا لتصحوا وتغنموا لإزالة مرض القلب ونيل صحة الدين والفوز بغنيمة صحبة شيخ كامل مكمل وطبيب حاذق مشفق ليعالج مرض قلبه ويبلغه كعبة طلبه فتسول له النفس إعداد الرزق وعدم الصبر ويعده الشيطان بالفقر فقال تعالى على قضية ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ﴿ومن يهاجر في سبيل الله﴾ أي طلب الله ﴿يجد في الأرض مراغما كثيراً﴾ أي: بلاداً أطيب من بلاده وإخواناً في الدين أحسن من إخوانه ﴿وسعة﴾ في الرزق. وفيه إشارة أخرى وهي ومن يهاجر عن بلد البشرية في طلب حضرة الربوبية يجد في أرض الإنسانية مراغماً كثيراً أي متحولاً ومنازل مثل القلب والروح والسر وسعة أي وسعة في تلك العوالم الوسيعة أو سعة من رحمة الله كما أخبر الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام عن تلك الوسعة والسعة بقوله: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن» فافهم يا كثير الفهم قصير النظر قليل العبر ثم قال دفعاً للهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية في التخويف بالموت والإيعاد بالفوت ﴿ومن يخرج من بيته﴾ أي بيت بشريته بترك الدنيا وقمع الهوى وقهر النفس بهجران صفاتها وتبديل أخلاقها ﴿مهاجرا﴾ إلى الله طالباً له في مبايعة رسوله ﴿ثم يدركه الموت﴾ قبل وصوله ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ يعني: فقد أوجب الله تعالى على ذمة كرمه بفضله ورحمته أن يبلغه إلى أقصى مقاصده وأعلى مراتبه في الوصول بناء على صدق نيته وخلوص طويته إذا كان المانع من أجله ونية المؤمن خير من عمله ﴿وكان الله غفورا﴾ لذنب بقية أنانية وجوده ﴿رحيماً﴾ عليه بتجلي صفة جوده ليبلغ العبد إلى كمال مقصوده بمنه وكرمه وسعة جوده انتهى كلام «التأويلات».

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمطر والمرض أي إذا سافرتم أي مسافرة كانت للهجرة أو للجهاد أو لغيرهما ﴿فليس عليكم جناح﴾ أي: حرج ومأثم في ﴿أن تقصروا﴾ شيئاً ﴿من الصلاة﴾ فهو صفة لمحذوف والقصر خلاف المد يقال قصرت الشيء أي جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة إنما هو ذلك الشيء لا بعضه فإنه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله من الصلاة ينبغي أن يكون مفعولاً لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الأخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفاً كما هو رأي سيبويه أي شيئاً من الصلاة فينبغي أن يصار إلى وصف الجزء بصفة الكل والمراد قصر الرباعيات بالتنصيف فإنها تصلى في السفر

ركعتين فالقصر إنما يدخل في صلاة الظهر والعصر والعشاء دون المغرب والفجر وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة رحمه الله مسيرة ثلاثة أيام ولياليها الأيام للمشي والليالي للاستراحة بسير الإبل ومشي الأقدام بالاقتصاد، ولا اعتبار بإبطاء الضارب أي المسافر السائر وإسراعه فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن في يوم قصر ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام لم يقصر ثم تلك المسيرة ستة برد جمع بريد كل بريد أربعة فراسخ وكل فرسخ ثلاثة أميال بأميال هاشم جد رسول الله ﷺ وهو الذي قدر أميال البادية كل ميل اثنا عشر ألف قدم وهي أربعة آلاف خطوة فإن كل ثلاثة أقدام خطوة. وظاهر الآية الكريمة التخيير بين القصر والإتمام وأن الإتمام أفضل لكن عندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة إسقاط بحيث لا مساغ للإتمام لا رخصة توفية إذ لا معنى للتخيير بين الأخف والأثقل قال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم» وهو يدل على عدم جواز الإكمال لأن التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتمل الرد فليس لنا إلا التدين بما شرع الله والعمل بما حكم. قال في «الأشباه»: القصر للمسافر عندنا رخصة إسقاط بمعنى العزيمة بمعنى أن الإتمام لم يبق مشروعاً حتى أثم به وفسدت لو أتم ومن لم يقعد على رأس الركعتين فسدت صلاته لاتصال النافلة بها قبل كمال أركانها وإن قعد في آخر الركعة الثانية قدر التشهد أجزأته الأخريان نافلة ويصير مسيئاً بتأخير السلام. قال في تفسير الحدادي المسافر إذا صلى الظهر أربعاً ولم يقعد في الثانية قدر التشهد فسدت صلاته كمصلي الفجر أربعاً انتهى. فإن قلت فما تصنع بقوله: ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا**﴾ فلم ورد ذلك بنفي الجناح. قلت: لما أنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر فصرح بنفي الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا إليه كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [التوبة: ١٥٨] مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعي ثم إن العاصي كالمطيع في رخصة السفر حتى أن الآبق وقاطع الطريق يقصران لأن المقيم العاصي يمسح يوماً وليلة كالمقيم المطيع فكذا المسافر ولأن السفر ليس بمعصية فلا يعتبر غرض العاصي ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهون من القتال وغيره فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة والقصر ثابت بهذا النص في حال الخوف خاصة وأما في حال الأمن فبالسنة. قال المولى أبو السعود في تفسيره وهو شرط معتبر في شرعية ما يذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة بالجماعة وأما في حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقاً لتظاهر السنن على مشروعيته. ثم قال بعد كلام بل نقول: إن الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته وفي حق ما يتعلق به من الصلاة وفي مقدار مدة القصر الذي نيط به القصر فكل ما ورد عنه ﷺ من القصر في حال الأمن وتخصيصه بالرباعيان على وجه التنصيف وبالضرب في المدة المعينة بيان لإجمال الكتاب انتهى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سافر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين مكة والمدينة لا يخاف إلا الله فصلى ركعتين. كذا في «الوسيط» ﴿**إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا**﴾ أي ظاهر العداوة وكمال عداوتهم من موجبات التعرض لكم بقتال أو غيره.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ

فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وإذا كنت﴾ يا محمد **﴿فيهم﴾** أي مع المؤمنين الخائفين **﴿فأقمت لهم الصلاة﴾** أي: إذا أردت أن تقيم بهم الصلاة. قال ابن عباس لما رأى المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر وهو يؤمهم وذلك في غزوة ذات الرقاع ندموا على تركهم الإقدام على قتالهم فقال بعضهم: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأولادهم وأموالهم يريدون صلاة العصر فإن رأيتموهم قاموا إليها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات بين الصلاتين فعلمه كيفية أداء صلاة الخوف وأطلعه الله على قصدهم ومكرهم ذهب الجمهور إلى أن صلاة الخوف ثابتة مشروعة بعده ﷺ في حق كل الأمة غايته أنه تعالى علم رسول الله ﷺ كيفية أداء الصلاة حال الخوف لتقتدي به الأمة فيتناولهم الخطاب الوارد له عليه السلام. قال في «الكشاف»: إن الأئمة نواب عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في كل عصر قوام بما كان يقوم به فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام يكون حاضراً بجماعة في حال الخوف عليه أن يؤمهم كما أم رسول الله ﷺ الجماعات التي كان يحضرها ألا يرى أن قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] لم يوجب كونه عليه السلام مخصوصاً بها دون غيره من الأئمة بعده فكذا صلاة الخوف فاندفع قول من قال صلاة الخوف مخصوصة بحضرة الرسول عليه السلام حيث شرط كونه بينهم **﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾** بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم **﴿وليأخذوا﴾** أي الطائفة القائمة معك وهم المصلون **﴿أسلحتهم﴾** أي: لا يضعوها ولا يلقوها وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء **﴿فإذا سجدوا﴾** أي القائمون معك وأتموا الركعة **﴿فليكونوا من ورائكم﴾** أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة **﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾** بعد وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة **﴿فليصلوا معك﴾** الركعة الباقية ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روي عن ابن عمر وابن مسعود أن النبي عليه السلام حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة وبالطائفة الأخرى ركعة كما في الآية ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى العدو حتى قضت الأولى الركعة الأخرى بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان هذا إذا كان مسافراً أو في الفجر لأن الركعة الواحدة شطر صلاته وأما إذا كان مقيماً أو في المغرب فيصلي بالطائفة الأولى الركعتين لأنهما الشطر. وفي الكافي لو أخطأ الإمام فصلى بالأولى الركعتين وبالثانية ركعتين أي في المغرب فسدت صلاة الطائفتين. وتفصيل كيفية الصلاة عند الخوف من عدو أو سبع كفى مؤونته باب الصلاة الخوف في الفروع فارجع إليه **﴿وليأخذوا﴾** أي هذه الطائفة **﴿حذرهم﴾** وهو التحذر والتيقظ **﴿وأسلحتهم﴾**. إن قلت الحذر من قبيل المعاني فكيف يتعلق الأخذ الذي لا يتعلق إلا بما هو من قبيل الأعيان كالسلاح. قلت: إنه من قبيل الاستعارة بالكناية فإنه شبه

الحذر بآلة يستعملها الغازي وجعل تعلق الأخذ به دليلاً على هذا التشبيه المضمر في النفس فيكون استعارة تخييلية ولا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز من حيث إن إسناد الأخذ إلى الأسلحة حقيقة وإلى الحذر مجاز وذلك لأن الأخذ على حقيقته وإنما المجاز إيقاعه فافهم ولعل زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة كونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي عليه السلام في شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من الطائفتين بأخذ الحذر والأسلحة لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن ذكرها ومئنة لهجوم العدو كما ينطق به ما بعد الآية. قال الإمام الواحدي في قوله تعالى: **﴿وليأخذوا حذرهم﴾**: رخصة للخائف في الصلاة لأن يجعل بعض فكره في غير الصلاة **﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾** الخطاب للفريقين بطريق الالتفات أي تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالأمتعة ما يتمتع به في الحرب لا مطلقاً **﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾** رخصة لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض وهذا يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. وقال الفقهاء: حمل السلاح في صلاة الخوف مستحب لأن الحمل ليس من أعمال الصلاة والأمر في قوله تعالى: **﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾** محمول على الندب **﴿وخذوا حذركم﴾** أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر أي بالتيقظ والاحتياط لئلا يهجم عليهم العدو غيلة. قال ابن عباس رضي الله عنهما غزا رسول الله ﷺ محارباً ببني أنمار فهزمهم الله تعالى فنزل النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون ولا يرون من العدو أحداً فوضعوا أسلحتهم وخرج رسول الله يمشي لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش فحال الوادي بينه عليه السلام وبين أصحابه فجلس في أصل شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فانحدر من الجبل ومعه السيف وقال لأصحابه قتلني الله إن لم أقتل محمداً فلم يشعر رسول الله إلا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال: يا محمد من يعصمك مني الآن؟ فقال عليه السلام: «الله عز وجل» ثم قال: «اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت» ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ليضربه فانكب على وجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فندر سيفه فقام رسول الله فأخذه ثم قال: «يا غورث من يمنعك مني» قال: لا أحد قال عليه السلام: «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك» قال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدواً فأعطاه سيفه فقال غورث: والله لأنت خير مني فقال عليه السلام: «أنا أحق بذلك منك» فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليه قصته فآمن بعضهم قال: وسكن الوادي فرجع رسول الله إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر **﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾** تعليل للأمر بأخذ الحذر أي: أعد لهم عذاباً مهيناً بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب كي يحل بهم عذابه بأيديكم.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ صلاة الخوف أي أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها فظهر

منه أن القضاء يستعمل فيما فعل في وقته ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿فاذكروا الله﴾ حال كونكم ﴿قياماً﴾ أي قائمين ﴿وقعوداً﴾ أي قاعدين ﴿وعلى جنوبكم﴾ أي: مضطجعين أي فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الأحوال حتى في حال المسابقة والقتال كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ﴿فإذا اطمأننتم﴾ سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد ما تضع الحرب أوزارها ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي: الصلاة التي دخل وقتها حينئذٍ أي أدوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائعها. ومن حمل الذكر على ما يعم الذكر باللسان والصلاة من الحنفية فله أن يقول في تفسير الآية: فداوموا على ذكر الله في جميع الأحوال وإذا أردتم أداء الصلاة فصلوها قائمين حال الصحة والقدرة على القيام وقاعدين حال المرض والعجز عن القيام ومضطجعين على الجنوب حال العجز عن القعود ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتاً﴾ أي: فرضاً موقتاً. قال مجاهد وقته تعالى عليهم فلا بد من إقامتها في حالة الخوف أيضاً على الوجه المشروع وقيل مفروضاً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدر فيه.

قال في «شرح الحكم العطائية» ولما علم الله تعالى ما في العباد من وجود الشره المؤدي إلى الملل القاطع عن بلوغ العمل جعل الطاعات في الأوقات إذ جعل في اليوم خمساً وفي السنة شهراً وفي المائتين خمساً وفي العمر زورة رحمة بهم وتيسيراً للعبودية عليهم ولو لم يقيد الطاعات بأعيان الأوقات لمنعهم عنها وجود التسويف فإذا يترك معاملته تعامياً وبطراً وبطالة واتباع للهوى وإنما وسع الوقت كي تبقى حصة الاختيار وهذا سر الوقت وكان الواجب على الأمة ليلة المعراج خمسين صلاة فخفف الله عنهم وجازاهم بكل وقت عشراً فأجر خمسين في خمسة أوقات قالوا وجه كون يوم القيامة على الكافر خمسين ألف سنة لأنه لما ضيع الخمسين عوقب بكل صلاة ألف سنة كما أقروا على أنفسهم بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] وفي الحديث: «من ترك صلاة حتى مضى وقتها ثم قضى عذب في النار حقباً» والحقب ثمانون سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم ألف سنة مما تعدون يعني ترك الصلاة إلى وقت القضاء إثم لو عاقب الله به يكون جزاءه هكذا ولكن الله يتكرم بأن لا يجازي به إذا تاب عنه كذا في «مشكاة الأنوار» وفي الحديث: «خمسة لا تطفأ نيرانهم ولا تموت ديدانهم ولا يخفف عنهم من عذابها. مشرك بالله. وعاق لوالديه. والزاني بحليلة جاره. ورجل سلم أخاه إلى سلطان جائر. ورجل أو امرأة سمع المؤذن يؤذن ولم يجب من غير عذر» يعني: أخرها عن وقتها بغير عذر كذا في «روضة العلماء» وفي الحديث: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه من الصلاة تعبد به ملائكته فمنهم راكع وساجد وقائم وقاعد» وكان آخر ما أوحي به إلى النبي عليه السلام الصلاة وما ملكت أيمانكم.

واعلم أن لله عباداً قد منحهم ديمومية الصلاة فهم في صلاتهم دائمون من الأزل إلى الأبد وليس هذا يدرك بالعقول القاصرة ولا يعقلها إلا العالمون بالله تعالى.

وفي «التأويلات النجمية» ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ يعني: واجباً في جميع الأوقات حين فرضت بقوله: ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي أديموها رخص فيها بخمس صلوات في خمسة أوقات لضرورة ضعف الإنسانية كما كان الصلاة الخمس خمسين صلاة

حين فرضت ليلة المعراج فجعلها بشفاعة النبي عليه السلام خمساً وهذا لعوام الخلق وإلا أثبت دوام الصلاة للخواص بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: ٢٣]. وفي المثنوي:

پنج وقت آمد نماز رهنمون — عاشقانش في صلاة دائمون
نيست زرغبا وظيفه ماهيان — زانكه بى دريا ندارد انس وجان
هيچ كس باخويش زرغبا نمود — هيچ كس باخود بنوبت يا ربود
دردل عاشق بجز معشوق نيست — درميان شان فارق وفاروق نيست

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ نزلت في بدر الصغرى وهي موضع سوق لبني كنانة كانوا يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام.

ـ روي ـ أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت فقال ﷺ: «إن شاء الله تعالى» فلما كان القابل ألقى الله الرعب في قلبه فندم على ما قال فبعث نعيم بن مسعود ليخوف المؤمنين من الخروج إلى بدر فلما أتى نعيم المدينة وجد المؤمنين يتجهزون للخروج فقال لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ففتر المؤمنين فقال عليه السلام: «لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد» فأنزل الله هذه الآية إرشاداً لمن طرأ عليهم الوهن في ابتغاء القوم أي طلب أبي سفيان وقوله. والمعنى لا تفتروا ولا تضعفوا في طلب الكفار بالقتال أي لا يورثنكم ما أصابكم يوم أحد من القتل والجراحات فتوراً وضعفاً **﴿إن تكونوا تألمون﴾** من الجراح **﴿فإنهم﴾** أي القوم **﴿يألمون كما تألمون﴾** أي: إن كان لكم صارف عن الحرب وهو أنكم تألمون من الجراح فلهم مثل ذلك من الصارف ولكم أسباب داعية إلى الحرب ليست لهم كما أشار إليها بقوله: **﴿وترجون من الله﴾** من الثواب والنصر **﴿ما لا يرجون﴾** والحاصل ليس ما تقاسونه من الآلام مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة ما لا يخطر ببالهم قطعاً **﴿وكان الله عليماً﴾** مبالغاً في العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم **﴿حكيماً﴾** فيما يأمر وينهى فجدّوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة وفي أمره بابتغاء القوم بالقتال لهمة بالغة كاملة ومصلحة تامة شاملة فاطلبوهم بالقتال فإن الله يعذبهم في الدنيا بأيديكم وفي الآخرة بأيدي الزبانية فهل ينتظرون إلا سنة الله في الكافرين الأولين وهو إنزال العذاب بهم حين كذبوا أنبياءهم فلن تجد لسنة الله تبديلاً بجعل التعذيب غير تعذيب وغير التعذيب تعذيباً ولن تجد لسنة الله تحويلاً بنقل التعذيب عنهم إلى غيرهم والحاصل أنه لا يبدل نفس السنة ولا يحول محل السنة إذ لقد حق القول عليهم ولا يتبدل القول لديه. وفي الآية الكريمة حث على الشجاعة والتجلد وإظهار الغلظة كما قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، قيل:

هست نرمى آفت جان سمور — وزدرشتى ميبردجان خاريشت

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إذا اضطرب قلب المؤمن عند محاربة الكافر تتحدر ذنوبه كتحدر أوراق الشجرة بهبوب النسيم. وقال عطية بن قيس إذا خرجت غازياً فإن خطر

بالي كثرة العدد والعدد رجعت عن السفر خوفاً من الغرور وإن خطر قلتهما قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومن كلمات بهرام:

[هـر آنكـه سـرتـاج دارد ... بـايـدكـه دل از سـربـر دارد]

هر آنكه پاى نهد در نكار خانه ملك ... يقين كه مال وسروهرچه هست دربازد

ومن كلمات السعدي قدس سره:

درقـڑا كـنـد مـرد بـايـدبـود ... بـرمـخـنـث سلاح جنـك چـه سـود

يقول الفقير: سمعت من حضرة شيخي وسندي الذي هو بمنزلة روحي من جسدي أنه قال السلطان والوزير بالنسبة إلى العساكر الإسلامية كالقلب بالنسبة إلى الأعضاء والجوارح الإنسانية فإذا ثبت ثبتوا كما أن القلب إذا صلح صلح الجسد كله فإن كان إقبال الإمام بعشر مراتب كان إقبال قومه بمرتبة واحدة وإن كان بمائة مرتبة كان إقبالهم بعشر مراتب وهكذا وأما إدباره فعكسه فإن كان بمرتبة كان إدبار القوم بعشر مراتب وإن كان بعشر مراتب كان إدبارهم بمائة مرتبة وهكذا وليس الدخول بدار من باب تفرج البلدان والخروج إلى المسير والتنعم فلا بد لكل مجاهد أن يجتهد في خدمة الدين ويتوكل على الله ويعقد على وعده ويصبر على البلاء حتى يبلغ الكتاب أجله وإن أتى الباب فلا يستعجل الأمناء ولا يهن ولا يحزن بمكث الفتح المطلوب بل ينتظر إلى فرج الله بالنصر والفتح عن قريب فإن انكسار القلوب مفتاح أبواب الغيوب ومدار انفتاح أنواع الفتوح.

والإشارة في الآية **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾** أي في طلب النفس وصفاتها والجهاد معها **﴿إن تكونوا تألمون﴾** في الجهاد معها وتتعبون بالرياضات والمجاهدات وملازمة الطاعات والعبادات ومداومة الذكر ومراقبة القلب في طلب الحق والقبول والوصول إلى المقامات العلية **﴿فإنهم﴾** يعني: النفس والبدن في طلب الشهوات الدنيوية واللذات الحيوانية والمرادات الجسمانية **﴿يألمون﴾** ويتعبون في طلبها **﴿كما تألمون وترجون من الله﴾** العواطف الأزلية والعوارف الأبدية **﴿ما لا يرجون﴾** النفوس الردية من هممها الدنية التي لا تتجاوز من قصورها عن المقاصد الدنيوية **﴿وكان الله﴾** في الأزل **﴿عليماً﴾** باستعداد كل طائفة من أصناف الخلق **﴿حكيماً﴾** فيما حكم لكل واحد منهم من المقاصد والمشارب قد علم كل أناس مشربهم وكل حزب بما لديهم فرحون.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي القرآن إنزالاً **﴿بالحق﴾**. ـ روي ـ أن رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودي فالتمست الدرع عند طعمة

فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال: دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل اليهودي ليدفع فضيحة البهتان عن صاحبهم طعمة وقالوا له عليه السلام أن يعاقب اليهودي ويقطع يده بناء على شهادة قوم طعمة على براءته وعلى أن اليهودي هو السارق ولم يظهر له عليه السلام ما يوجب القدح في شهادتهم بناء على كون كل واحد من الشاهد والمشهود له من المسلمين ظاهراً فلذلك مال طبعه إلى نصرة الخائن والذب عنه إلا أنه لم يحكم بذلك بل توقف وانتظر الوحي فنزلت الآية ناهية عنه ومنبهة على أن طعمة وشهوده كاذبون وأن اليهودي بريء من ذلك الجرم **﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾** أي: بما عرفك وأوحى به إليك. فأراك ليس من الرؤية البصرية ولا من التي بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل بل هو منقول من رأيت بمعنى الاعتقاد والمعرفة وسميت المعرفة المذكورة رؤية لكونها جارية مجرى الرؤية في القوة والظهور والخلوص من وجوه الريب **﴿ولا تكن﴾** أي فاحكم به ولا تكن **﴿للخائنين﴾** أي لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه فإنه روي أن قومه علموا أن تلك السرقة عمل طعمة بناء على أنه سارق في الجاهلية لكنهم بيتوا طول ليلهم واتفقوا على أن يشهدوا بالسرقة على اليهودي دفعاً عن طعمة عقوبة السرقة فلذلك وصفهم الله جميعاً بالخيانة أو المراد بالخائنين هو وكل من يتسير بسيرته **﴿خصيماً﴾** أي مخاصماً للبراء أي لا تخاصم اليهودي لأجلهم **﴿واستغفر الله﴾** مما هممت به تعويلاً على شهادتهم. قال ابن الشيخ ولما صدر عنه عليه السلام الهم بذلك الحكم الذي لو وقع لكان خطأ في نفسه أمر الله تعالى إياه عليه السلام بأن يستغفر لهذا العذر وإن كان معذوراً فيه عند الله بناء على أن حسنات الأبرار سيآت المقربين **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره **﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾** الاختيان والخيانة بمعنى أي يخونونها بالمعصية وإنما قال يختانون أنفسهم وإن كانوا ما خانوا أنفسهم لأن مضرة خيانتهم راجعة إليهم كما يقال فيمن ظلم غيره ما ظلم إلا نفسه كذا في «تفسير الحدادي» والمراد بالموصول إما طعمة وأمثاله وإما هو ومن عاونه وشهد ببراءته من قومه فإنهم شركاء له في الإثم والخيانة **﴿إن الله لا يحب﴾** عدم المحبة كناية عن البغض والسخط **﴿من كان خواناً﴾** مفرطاً في الخيانة مصراً عليها **﴿أثيماً﴾** منهمكاً فيها أطلق على طعمة لفظ المبالغة الدال على تكرر الفعل منه مع أن الصادر منه خيانة واحدة وإثم واحد لكون طبعه الخبيث مائلاً إلى تكثير كل واحد من الفعلين. وقد روي أنه هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق متاع أهله فسقط الحائط عليه فقتله قيل إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر رضي الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة **﴿يستخفون من الناس﴾** يستترون منهم حياء وخوفاً من ضررهم **﴿ولا يستخفون من الله﴾** أي لا يستحيون منه سبحانه وهو أحق بأن يستحى منه ويخاف من عقابه **﴿وهو معهم﴾** عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه **﴿إذ﴾** ظرف منصوب بالعامل في الظرف الواقع خبراً وهو معهم **﴿يبيتون﴾** يدبرون ويزورون **﴿ما لا يرضى﴾** الله **﴿من القول﴾** من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور فإن طعمة قال: ارمي اليهودي بأنه سارق الدرع واحلف أني لم أسرقها فتقبل يميني لأني على دينهم

ولا تقبل يمين اليهودي وقال قوم طعمة من الأنصار نشهد زوراً لندفع شين السرقة وعقوبتها عمن هو واحد منا ﴿**وكان الله بما تعملون**﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿**محيطاً**﴾ لا يفوت عنه شيء ﴿**ها أنتم**﴾ مبتدأ ﴿**هؤلاء**﴾ خبره والهاء في أول كل منهما للتنبيه والجملة التي بعد هذه الجملة مبينة لوقوع أولاء خبراً كما تقول لبعض الأسخياء أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك والخطاب مع قوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه بسبب أنهم كانوا في الظاهر من المسلمين ﴿**جادلتم عنهم في الحياة الدنيا**﴾ المجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وعن قومه في الدنيا ﴿**فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة**﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ﴿**أم من يكون عليهم وكيلاً**﴾ حافظاً وحامياً من بأس الله وانتقامه.

وفي «التأويلات النجمية»: وكيلاً يتكلم بوكالتهم يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله قال السعدي قدس سره:

دران روز كز فعل پرسند وقول … أولو العزم راتن بلرزد زهول

بجايى كه دهشت خورد أنبيا … تو عذر كنه راچه داری بيا

فعلى العبد أن يتوب قبل الموت من كل معصية توبة نصوحاً ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله ويرد المظالم إلى أهلها حبة حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه شتماً أو قذفاً أو استهزاء أو غيبة ويده ضرباً وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسرتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السيآت وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً فكيف بك يا مسكين في يوم ترى فيه صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك فتوهن نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان ابن فلان؟ هلم إلى العرض على الله وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك إذا عرفت أنك المراد بالدعاء إذا فزع النداء قلبك فعلمت أنك المطلوب فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك وتغير لونك وطار قلبك تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم وأنت في أيديهم وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بنفر من الناس يوم القيامة إلى الجنة حتى إذا دنوا منه واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله تعالى لأهلها ثم نودوا أن أصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة وندامة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثواب ما أعددت لأوليائك فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بي بارزتموني بالعظام فإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ترون الناس خلاف ما ينطوي عليه قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني أجللتم الناس ولم تجلوني تركتم للناس ولم تتركوا لي» يعني: لأجل الناس «فاليوم أذيقكم اليم عقابي مع ما حرمتكم» يعني: من جزيل ثوابي قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] كذا فيَ «تنبيه الغافلين» فإذا عرفت هذا فاجتهد في أن لا تكون من الذين لا يستخفون من الله واجعل خيانتك أمانة وإثمك طاعة وظلمك عدلاً وتزويرك صدقاً

محضاً واستغفر الله فإن الاستغفار دواء الأوزار وبه ينفتح باب الملكوت إلى الله الملك الغفار.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا
فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا
فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

﴿**ومن يعمل سوءاً**﴾ عملاً قبيحاً متعدياً يسوء به غيره ويخزيه كما فعل طعمة بقتادة واليهودي ﴿**أو يظلم نفسه**﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك والظلم الشرك لأن الشرك ظلم عظيم. وقيل: هما الصغيرة والكبيرة ﴿**ثم يستغفر الله**﴾ بالتوبة الصادقة وشرطت التوبة لأن الاستغفار لا يكون توبة بالإجماع ما لم يقل معه تبت وأسأت ولا أعود إليه أبداً فاغفر لي يا رب كما في «تفسير الحدادي» ﴿**يجد الله غفوراً**﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿**رحيماً**﴾ متفضلاً عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة. وعن علي رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر الله له» وتلا هذه الآية «ومن يعمل سوءاً الخ».

اى كه بى حد كناه كردستى ... مى نترسى ازان فعال شنيع
توبه كن تا رضاي حق يابى ... كه به ازتوبه نيست هيچ شفيع

﴿**ومن يكسب إثماً**﴾ من الآثام ﴿**فإنما يكسبه على نفسه**﴾ بحيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره فليحترز عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلاً وآجلاً.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿**فإنما يكسبه على نفسه**﴾ فإن رين الإثم يظهر في الحال في صفاء مرآة قلبه يعميه عن رؤية الحق ويصمه عن سماع الحق كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته ﴿**ومن يكسب خطيئة**﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب ﴿**أو إثماً**﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿**ثم يرم به**﴾ أي يقذف بأحد المذكورين ويسب به ﴿**بريئاً**﴾ أي: مما رماه به ليحمله عقوبة العاجلة كما فعل طعمة بزيد اليهودي ﴿**فقد احتمل**﴾ أي: بما فعل من تحميل جريرته على البري ﴿**بهتاناً**﴾ لا يقادر قدره ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ أي: بيناً فاحشاً لأنه بكسب الإثم آثم وبرمي البريء باهت فهو جامع بين الأمرين وسمي رمي البريء بهتاناً لكون البريء متحيراً عند سماعه لعظمه في الكذب يقال بهت الرجل بالكسر إذا دهش وتحير ويقال بهته بهتاناً إذا قال عنه ما لم يقله أو نسب إليه ما لم يفعله.

- روي - عنه عليه السلام أنه قال: «الغيبة ذكرك أخاك بما يكره» فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته».

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿**فقد احتمل**﴾ صاحب النفس ﴿**بهتانا**﴾ أبهت القلوب عن العبودية والطاعة ﴿**وإثما مبينا**﴾ بما أثمت به نفسه من المعاصي وأثم بها قلبه فيكون بمنزلة من جعل اللب وهو القلب جلداً وهو النفس وهذا من أكبر الشقاوة فلا ينقطع عنه العذاب إذا صار كل وجوده جلوداً فيكون من جملة الذين قال الله تعالىٰ فيهم ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] لأنهم بدلوا الألباب بالجلود هٰهنا انتهى.

واعلم أن الاستغفار فرار العبد من الخلق إلى الخالق ومن الأنانية إلى الهوية الذاتية وذلك عند صدق الطلب ومن طلبه وجده كما قال: «ألا من طلبني وجدني» قال موسى عليه السلام: أين أجدك يا رب قال: «يا موسى إذا قصدت إليّ فقد وصلت إليّ» فلا بد من الاستغفار مطلقاً، ويقال: سلطان بلا عدل كنهر بلا ماء. وعالم بلا عمل كبيت بلا سقف. وغني بلا سخاوة كسحاب بلا مطر. وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر. وفقير بلا صبر كقنديل بلا ضوء. وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح. وتهذيب الأخلاق قبل الموت من سنن الأخيار والعمل الصالح قرين الرجل كما أن السوء كذلك:

ناكهان بانك درسراى افتاد ... كه فلا نرا محل وعده رسيد
دوستان آمدند تالب كور ... قدمى چند وبازپس كرديد
وين كز ودسترس نميد آرى ... مال وملك وقباله برده كليد
وين كه پيوسته باتو خواهد بود ... عمل تست ونفس پاك وپليد
نيك درياب وبدمكن زنهار ... كه بدونيك باز خواهى ديد

ـ حكي ـ أن الشيخ وفا المدفون بقسطنطينية في حريم جامعه الشريف أهدي إليه ثمانون ألف درهم من قبل السلطان بايزيد الثاني ليعقد عقد النكاح لبعض بناته فقال: لا أفعل ولو أعطيت الدنيا وما فيها قيل: ولم؟ قال: لأن لي أوراداً إلى الضحى لا أنفك عنها ساعة وأنام من الضحى إلى الظهر لا أترك منه ساعة وأما بعد الظهر فأنتم لا ترضونه لأن النهار يكون في الانتقاص وهكذا يكون طالب الحق في ليله ونهاره فإن الدنيا فانية فالحي الباقي هو الله تعالى فلا بد من طلبه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ بالعصمة **﴿لهمت طائفة منهم﴾** أي من بني ظفر وهم الذابون عن طعمة **﴿أن يضلوك﴾** أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق بتلبيسهم عليك مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم وليس القصد فيه إلى نفي همهم بل إلى نفي تأثيره **﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾** لأن وباله عليهم **﴿وما يضرونك من شيء﴾** محل الجار والمجرور النصب على المصدرية أي وما يضرونك شيئاً من الضرر لأن الله عاصمك وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم **﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾** أي القرآن **﴿والحكمة﴾** أي ما في القرآن من الأحكام وعرفك الحلال والحرام **﴿وعلمك﴾** بالوحي من الغيب وخفيات الأمور **﴿ما لم تكن تعلم﴾** ذلك إلى وقت التعليم **﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾** إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة ومن ذلك الفضل العظيم عصمته وتعليمه ما لم يعلم. قال الحدادي في «تفسيره» وفي هذه الآيات دلالة أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم لغيره في إثبات حق أو نفيه غير عالم بحقيقة أمره وأنه لا يجوز للحاكم الميل إلى أحد الخصمين وإن كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً وأن وجود السرقة في يدي إنسان لا يوجب الحكم بها عليه انتهى.

واعلم أن هذه الآية جامعة لفضائل كثيرة. منها بيان أن وبال الشر يعود على صاحبه كما

أن منفعة الخير تعود على فاعله، قال الصائب:

أول بظالمان أثر ظلم ميرسد پيش از هدف هميشه كمان ناله ميكند

- حكي - أن الله تعالى أيبس يد رجل بذبح عجل بقرة بين يدي أمه ثم ردها برد فرخ سقط من وكره إلى أمه يقال ثلاثة لا يفلحون بائع البشر وقاطع الشجر وذابح البقر.

- وحكي - أن امرأة وضعت لقمة في فم سائل ثم ذهبت إلى مزرعة فوضعت ولدها في موضع فأخذه الذئب فقالت يا رب ولدي فأخذ آت عنق الذئب واستخرج ولدها من غير أذى ثم قال: هذه اللقمة لتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل فكل يرى أثر صنعه في الدنيا أيضاً. ومنها أن العلم والحكمة من أعظم الفضائل والمراد العلم النافع المقرب إلى الله تعالى أعاذنا الله مما لم ينفع منه على ما قال عليه الصلاة والسلام في دعائه «وأعوذ بك من علم لا ينفع» فإن العلم النافع لا ينقطع مدده في الآخرة أيضاً على ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له». ومنها أن لا يرى العبد الفضائل والخيرات من نفسه بل من فضل الله ورحمته وليس للعبد أن يزكي نفسه فإن الأنفس ليست بمحل التزكية فمن استحسن من نفسه شيئاً فقط أسقط من باطنه أنوار اليقين والكامل لا يرى لنفسه قدراً فكيف لعمله وكل ما يعمله العبد من بدايته إلى نهايته لا يقابل لنعمة الوجود.

- حكي - عن شاه شعاع الكرماني أنه كان جالساً في مسجد فقام فقير وسأل الناس فلم يعطوه شيئاً فقال الكرماني من يشتري حج خمسين سنة بمن من الخبر، فيعطي هذا الفقير وكان هناك فقيه فقال: أيها الشيخ قد استخففت بالشريعة فقال الكرماني: لا أرى لنفسي قيمة فكيف أرى لعملي وليس المراد التعطيل عن العمل بل يعملون جميع الحسنات ولا يرون لها قدراً بل يرون التوفيق لها من فضل الله تعالى، قال السعدي قدس سره:

كراز حق توفيق خيرى رسد كه از بنده خيرى بغيرى رسد

چورويى بخدمت نهى بر زمين خدارا ثنا كوى وخودرا مبين

والإشارة في الآية أن فضل الله موهبة من مواهب الحق يؤتيه من يشاء وليس لأحد فيه مدخل بالكسب والاستجلاب وبذلك يهدي العبد للإيمان ويوفقه للعمل الصالح والعظيم في قوله: ﴿**وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ هو الله تعالى أي أن الله العظيم هو فضل الله عليه ورحمته كما أنك فضل الله ورحمته على العالمين ولهذا قال: «لولاك لما خلقت الافلاك» ومن فضل الله عليك أنه لم يضله شيء من الروحانيات والجسمانيات عن طريق الوصول اللهم احفظنا من الموانع في طريق الوصول إليك آفاقية أو أنفسية والحقنا بفضلك بالنفوس القدسية.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾ أي في كثير من تناجي الناس وهو في اللغة سر بين اثنين وذهب الزجاج إلى أن النجوى ما تفرد به الجماعة أو الاثنان سراً كان أو ظاهراً. قال مجاهد هذه الآية عامة في حق جميع الناس غير مختصة بقوم طعمة وإن نزلت في تناجي قوم السارق لتخليصه ﴿**إلا من أمر**﴾ أي إلا في نجوى من أمر على أنه مجرور بدل من كثير كما تقول لا

خير في قيامهم إلا قيام زيد ﴿بصدقة أو معروف﴾ المعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر هنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة قال ﷺ: «كل معروف صدقة» وأول أهل الجنة دخولاً أهل المعروف وصنائع المعروف تقي مصارع السوء:

تونيكى كن بآب انداز اى شاه اكر ما هي نداند داند الله

وفي الحديث: «عمل ابن آدم كله عليه لا له إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله» ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ عند وقوع المشاقة والمعاداة بينهم من غير أنه يجاوز في ذلك حدود الشرع الشريف وفي الحديث «ألا أخبركم بأفضل درجة من الصلاة والصدقة» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين» وفساد ذات البين هي الحالقة فلا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» وعن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم» قال: بلى يا رسول الله قال: «تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا» قالوا: ولعل السر في إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدي إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة. إما جسمانية كإعطاء المال وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إلا من أمر بصدقة﴾. وإما روحانية وإليه الإشارة بقوله: ﴿أو معروف﴾. وأما دفع الضرر فقد أشير إليه بقوله: ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ ﴿ومن يفعل ذلك﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة أعني الصدقة والمعروف والإصلاح فإنه يشار به إلى متعدد وإنما بنى الكلام على الأمر حيث قال أولاً إلا من أمر فهو كلام في حق الآمر بالفعل ورتب الجزاء على الفعل حيث قال: ومن يفعل فهو كلام في حق الفاعل وكان المناسب للأول أن يبين حكم الآمر ويقول ومن يأمر بذلك ليدل على أنه لما دخل الآمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه. ففيه تحريض الآمر بالأمور المذكورة على فعلها ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ أي: طلب رضى الله تعالى علة للفعل والتقييد به لأن الأعمال بالنيات وأن من فعل خيراً رياء وسمعة لم يستحق به غير الحرمان. قال السعدي:

كرت بيخ إخلاص در بوم نيست ازين دركسى چون تو محروم نيست

زعمرو اى پسر چشم اجرت مدار چو در خانه زيد باشى بكار

﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ يقصر عنه الوصف ويستحقر دونه ما فات من أعراض الدنيا.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

﴿ومن يشاقق الرسول﴾ يخالفه من الشق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي غير ما هم مستمرون عليه من اعتقاد وعمل وهو الدين القيم ﴿نوله ما تولى﴾ أي نجعله والياً لما تولاه من الضلال ونخذله بأن نخلي بينه وبين ما اختار ﴿ونصله جهنم﴾ أي ندخله فيها ﴿وساءت مصيرا﴾ أي: جهنم.

ـ روي ـ أن طعمة عاند حكم الله وخالف رسول الله خوفاً من فضاحة قطع اليد فهرب إلى مكة واتبع دين أهلها ومات كافراً فعلى العاقل أن لا يخالف الجماعة وهم المؤمنون فإن الشاة الخارجة عن القطيع يأكلها الذئب وسبيل المؤمنين هو السبيل الحق الموصل إلى الجنة والقربة والوصلة واللقاء.

والإشارة أنه ﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾ أي الذين يتناجون من النفس والشيطان والهوى لأنهم شرار ولا فيما يتناجون به لأنهم يأمرون بالسوء والفحشاء والمنكر ثم استثنى وقال ﴿**إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**﴾ أي إلا فيمن أمر بهذه الخيرات فإن فيه الخير وهو الله تعالى فإنه يأمر بالخيرات بالوحي عموماً أو يأمر بالخاطر الرحماني والإلهام الرباني خواص عباده فالخاطر يكون بواسطة الملك وبغير الواسطة كما قال عليه السلام: «إن للملك لمة وإن للشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير ولمة الشيطان إيعاد بالشر» والإلهام ما يكون من الله تعالى بغير الواسطة وهو على ضربين. ضرب منه ما لا شعور به للعبد أنه من الله. وضرب منه ما يكون بإشارة صريحة يعلم العبد أنه آت من الله تعالى لتعليم نور الإلهام وتعريفه لا يحتاج إلى معرفة آخر أنه من الله تعالى وهذا يكون للولي وغير الولي كما قال بعض المشايخ حدثني قلبي عن ربي وقال عليه السلام: «إن الحق لينطق على لسان عمر» وقال: «كادت فراسته أن تسبق الوحي» ثم قال: ﴿**ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله**﴾ أي: ومن يفعل بما ألهمه الله طلباً لمرضاته ﴿**فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ ذكر بفاء التعقيب قوله فسوف يعني عقيب الفعل نؤتيه أجراً وهو جذبة العناية التي تجذبه عنه وتوصله إلى العظيم ثم قال: ﴿**ومن يشاقق الرسول**﴾ أي: يخالف الإلهام الرباني الذي هو رسول الحق إليه ﴿**من بعد ما تبين له الهدى**﴾ بتعريف الإلهام ونوره ﴿**ويتبع غير سبيل المؤمنين**﴾ الموقنين بالإلهام بأن يتبع الهوى وتسويل النفس وسبيل الشيطان ﴿**نوله ما تولى**﴾ أي: نكله بالخذلان إلى ما تولى ﴿**ونصله**﴾ بسلاسل معاملاته التي تولى بها إلى ﴿**جهنم**﴾ سفليات الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية ﴿**وساءت مصيراً**﴾ أي ما صار إليه من عبادة الهوى واتباع النفس والشيطان وإشراكهم بالله في المطاوعة كذا في «التأويلات النجمية».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ يقال: جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جراءة وما توقعت طرفة عين أني أعجز الله هرباً وإني لنادم تائب فما ترى حالتي عند الله؟ فنزلت هذه الآية. فالشرك غير مغفور إلا بالتوبة عنه وما سواه مغفور سواء حصلت التوبة أو لم تحصل لكن لا لكل أحد بل لمن يشاء الله مغفرته ﴿**ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب

والاستقامة. قال الحدادي أي فقد ذهب عن الصواب والهدى ذهاباً بعيداً وحرم الخير كله.

والفائدة في قوله: ﴿بعيداً﴾ أن الذهاب عن الجنة على مراتب أبعدها الشرك بالله تعالى انتهى. فالشرك أقبح الرذائل كما أن التوحيد أحسن الحسنات. والسيآت على وجوه كأكل الحرام وشرب الخمر والغيبة ونحوها لكن أسوء الكل الشرك بالله ولذلك لا يغفر وهو جلي وخفي حفظنا الله منهما. وكذا الحسنات على وجوه ويجمعها العمل الصالح وهو ما أريد به وجه الله وأحسن الكل التوحيد لأنه أساس جميع الحسنات وقامع السيآت ولذلك لا يوزن قال عليه السلام: «كل حسنة يعملها ابن آدم توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزانه» لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ثم إن الله تعالى بين كون ضلالهم ضلالاً بعيداً فقال: ﴿إن﴾ بمعنى ما النافية ﴿يدعون﴾ أي: المشركون وهو بمعنى يعبدون لأن من عبد شيئاً فإنه يدعوه عند احتياجه إليه ﴿من دونه﴾ الضمير راجع إلى الله تعالى: ﴿إلا إناثاً﴾ جمع أنثى والمراد الأوثان وسميت أصنامهم إناثاً لأنهم كانوا يصورونها بصورة الإناث ويلبسونها أنواع الحلل التي تتزين بها النساء ويسمونها غالباً بأسماء المؤنثات نحو اللات والعزى ومناة والشيء قد يسمى أنثى لتأنيث اسمه أو لأنها كانت جمادات لا أرواح فيها والجماد يدعى أنثى تشبيهاً له بها من حيث إنه منفعل غير فاعل ولعله تعالى ذكره بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه ينفعل ولا يفعل ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم وقيل: المراد الملائكة فإن من المشركين من يعبد الملائكة ويقول الملائكة بنات الله تعالى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ [النجم: ٢٧]مع اعترافهم بأن إناث كل شيء أخسه وأرذله ﴿وإن يدعون﴾ أي وما يعبدون بعبادة الأصنام ﴿إلا شيطاناً مريداً﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها وكان طاعته في ذلك عبادة له. قيل: كان في كل واحد من تلك الأوثان شيطان يتراءى للسدنة والكهنة يكلمهم. وقال الزجاج: المراد بالشيطان هٰهنا إبليس بشهادة قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿لأتخذن﴾ وهو قول إبليس ولا يبعد أن الذي يتراءى للسدنة هو إبليس والمريد هو الذي لا يعلق بخير فقيل: من مرد أي تجرد للشر وتعرى من الخير يقال شجرة مرداء أي: لا ورق عليها وغلام أمرد إذا لم يكن على وجهه شعر ﴿لعنه الله﴾ صفة ثانية للشيطان أي أبعده من رحمته إلى عقابه بالحكم له بالخلود في جهنم ويسقط بهذا قول من قال كيف يصح أن يقال لعنه الله وهو في الدنيا لا يخلو من نعمة تصل إليه من الله تعالى في كل حال لأنه لا يعتد بتلك النعمة مع الحكم له بالخلود في النار. ﴿وقال﴾ عطف عليه أي شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن الدال على فرط عداوته للناس فإن الواو الواقعة بين الصفات إنما تفيد مجرد الجمعية ﴿لأتخذن﴾ هذه اللام واللامات الآتية كلها للقسم ﴿من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مقطوعاً واجباً قدّر لي وفرض وهو أي النصيب المفروض لإبليس كل من أطاعه فيما زين له من المعاصي. قال الحسن: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كما في حديث المشارق يقول الله تعالى أي في يوم الموقف «يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول أخرج بعث النار» يعني: ميز أهلها والبعث بمعنى المبعوث «قال وما بعث النار» ما هنا بمعنى كم العددية ولذا أجيب عنها بالعدد «قال» أي الله تعالى: «من كل ألف تسعمائة

وتسعة وتسعون قال النبي عليه السلام فذلك التقاول حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها» كنايتان عن شدة أهوال يوم القيامة «وترى الناس سكارى» أي من الخوف «وما هم بسكارى» أي من الخمر «ولكن عذاب الله شديد قال» أي الراوي واشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجل الباقي من الألف؟ فقال: «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجلاً» والخطاب للصحابة وغيرهم من المؤمنين ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» قال الراوي فحمدنا الله وكبرنا ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فحمدنا الله وكبرنا ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» وترقى عليه السلام في حديث آخر من النصف إلى الثلثين وقال: «إن أهل الجنة مائة وعشرون صنفاً وهذه الأمة منها ثمانون إن مثلكم في الأمم» أي الكفرة «كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود» فلا يستبعد دخول كل المؤمنين الجنة. فإن قيل: كيف علم إبليس أنه يتخذ من عباد الله نصيباً. قيل فيه أجوبة: منها أن الله تعالى لما خاطبه بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] علم إبليس أنه ينال من ذرية آدم ما يتمناه. ومنها أنه لما وسوس لآدم فنال منه طمع في ذريته. ومنها أن إبليس لما عاين الجنة والنار علم أن لها سكاناً من الناس **﴿ولأضلنهم﴾** عن الحق وإضلاله وسواس ودعاء إلى الباطل ولو كان إليه شيء من الضلالة سوى الدعاء إليها لأضل جميع الخلق ولكنه لما قال عليه السلام في حقه «خلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء» يعني: أنه يزين للناس الباطل وركوب الشهوات ولا يخلق لهم الضلالة **﴿ولأمنينهم﴾** الأماني الباطلة بأن يخيل للإنسان إدراك ما يتمناه من المال وطول العمر. وقيل يمني الإنسان أي يوهمه أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا عقاب ولا حساب. وقيل بأن يوهمه أنه ينال في الآخرة حظاً وافراً من فضل الله ورحمته **﴿ولآمرنهم﴾** بالبتك أي القطع والشق **﴿فليبتكن آذان الأنعام﴾** أي فليقطعنها بموجب أمري ويشقنها من غير تلعثم في ذلك ولا تأخير يقال بتكه أي قطعه ونقل إلى بناء التفعيل أي التبتيك للتكثير. وأجمع المفسرون على أن المراد به هٰهنا قطع آذان البحائر والسوائب والأنعام الإبل والبقر والغنم أي لأحملنهم على أن يقطعوا آذان هذه الأشياء ويحرموها على أنفسهم بجعلها للأصنام وتسميتها بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً وكان أهل الجاهلية إذا أنتجت ناقة أحدهم خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً بحروا اذنها وامتنعوا من ركوبها وحلبها وذبحها ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى وإذا لقيها المعيى لم يركبها وقيل: كانوا يفعلون ذلك بها إذا ولدت سبعة أبطن والسائبة المخلاة تذهب حيث شاءت وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة أو يقول: إن قدم غائبي من السفر أو إن وصلت إلى وطني أو إن ولدت امرأتي ذكراً أو نحو ذلك فناقتي سائبة فكانت كالبحيرة وكذا من كثر ماله يسيب واحدة منها تكرّماً وكانت لا ينتفع بشيء منها ولا تمنع عن ماء ومرعى إلى أن تموت فيشترك في أكلها الرجال والنساء. والوصيلة هي من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان الولد السابع ذكرا ذبحوه لآلتهم وكان لحمه للرجال دون النساء وإن كان أنثى كانوا يستعملونها وكانت بمنزلة سائر الغنم وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: إن الأخت وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها وجرى مجرى السائبة وكانت المنفعة للرجال دون النساء فهي فعيلة بمعنى فاعلة والحامي هو البعير الذي ولد ولد ولده وقيل هو الفحل من الإبل إذا ركب ولد ولده قالوا له: إنه قد حمي ظهره فيهمل ولا يركب ولا يمنع عن الماء والمرعى

وإذا مات يأكله الرجال والنساء ﴿ولآمرنهم﴾ بالتغيير ﴿فليغيرن خلق الله﴾ عن نهجه صورة وصفة. ويندرج فيه أمور:

منها فقىء عين الحامي وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم الفا عوّروا عين فحلها والحامي الفحل الذي طال مكثه عندهم.

ومنها خصاء العبيد وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقاً لكن الفقهاء رخصوا في خصاء البهائم لمكان الحاجة ومنعوه في بني آدم وعند أبي حنيفة يكره شراء الخصيان واستخدامهم لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. قال في «نصاب الاحتساب»: قرأت في بعض الكتب أن معاوية دخل على النساء ومعه خصي مجبوب فنفرت منه امرأة فقال معاوية: إنما هو بمنزلة امرأة فقال: أترى أن المثلة فيه قد أحلت ما حرم الله من النظر فتعجب من فطنتها وفقهها.

ومنها الوشم وهو أن يغرز الجلد بإبرة ثم يخشى بكحل أو بنيلنج وهو دخان الشحم يعالج به الوشم حتى يخضر. قال بعض أصحاب الشافعي وجبت إزالته إن أمكن بالعلاج وإلا فبالجرح إن لم يخف فوت عضو.

ومنها الوشر وهو أن تحدد المرأة أسنانها وترققها تشبهاً بالشواب.

ومنها التنمص: وهو نتف شعور الوجه يقال تنمصت المرأة إذا تزينت بنتف شعر وجهها وحاجبها والنامصة المرأة التي تزين النساء بالمنمص والمنمص والمنماص المنقاش وقد لعن النبي عليه السلام «النامصة والمتنمصة والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة». والواصلة هي التي تصل شعر غيرها بنفسها. والمستوصلة هي التي تأمر غيرها بأن توصل ذلك إلى شعرها. قال ابن الملك الواصلة هي التي تصل الشعر بشعر آخر زورا والمستوصلة هي التي تطلبه والرجل والمرأة سواء في ذلك هذا إذا كان المتصل شعر الآدمي لكرامته فلا يباح الانتفاع بشيء من أجزائه أما غيره فلا بأس بوصله. فيجوز اتخاذ النساء القراميل من الوبر. وقيل فيه تفصيل إن لم يكن لها زوج فهو حرام أيضاً وإن كان فإن فعلته بإذن الزوج أو السيد يجوز وإلا فلا ثم إنها إن فعلت ذلك بصغيرة تأثم فاعلته ولا تأثم المفعولة لأنها غير مكلفة. ويدخل في التنمص نتف شعر العانة فإن السنة حلق العانة ونتف الإبط.

ومنها السحق وهو لكونه عبارة عن تشبه الأنثى بالذكور من قبيل تغيير خلق الله عن وجهه صفة وفي الحديث المرفوع: «سحاق النساء زنى بينهن» وكذا التخنث لما فيه من تشبه الذكر بالأنثى وهو إظهار اللين في الأعضاء والتكسر في اللسان.

ومنها اللواطة لما فيها من إقامة ما خلق لدفع الفضلات مقام موضع الحراثة والنظر إلى صبيح الوجه بالشهوة حرام ومجالسته حرام لأنه عورة من القرن إلى القدم وجاء في بعض الروايات «إن مع كل امرأة شيطانين ومع كل غلام ثمانية عشر شيطاناً».

ومنها عبادة الشمس والقمر والكواكب والحجارة فإن عبادتها وإن لم تكن تغييراً لصورها لكنها تغيير لصفتها فإن شيئاً منها لم يخلق لأن يعبد من دون الله وإنما خلق لينتفع به العباد على الوجه الذي خلق لأجله وكذا الكفر بالله وعصيانه فإنه أيضاً تغيير خلق الله من وجهه صفة فإنه تعالى فطر الخلق على استعداد التحلي بحلية الإيمان والطاعة ومن كفر بالله وعصاه فقد أبطل ذلك الاستعداد وغير فطرة الله صفة ويؤيده قوله عليه السلام: «كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» وكذا استعمال الجوارح في غير ما خلقت لأجله

تغيير لها عن وجهها صفة. والجمل الأربع وهي لأتخذن ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم كلُ واحدة منها مقول للشيطان فلا يخلو إما أن يقولها بلسان جسمه أو بلسان فعله وحاله ﴿**ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله**﴾ بإيثار ما يدعو إليه على ما أمره الله به ومجاوزته عن طاعة الله إلى طاعة ﴿**فقد خسر خسراناً مبيناً**﴾ لأنه ضيع رأس ماله بالكلية وبدل مكانه من الجنة بمكانه من النار.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

﴿**يعدهم**﴾ ما لا ينجزه من طول العمر والعافية ونيل لذائذ الدنيا من الجاه والمال وقضاء شهوات النفس ﴿**ويمنيهم**﴾ ما لا ينالون نحو أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء أو نيل المثوبات الأخروية من غير عمل ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بإلقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه. وغروراً إما مفعول ثان للوعد أو مفعول لأجله أي ما يعدهم لشيء إلا لأن يغرهم.

واعلم أن العمدة في إغواء الشيطان أن يزين زخارف الدنيا ويلقي الأماني في قلب الإنسان مثل أن يلقي في قلبه أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده ويستولي على أعدائه ويحصل له ما تيسر لأرباب المناصب والأموال وكل ذلك غرور لأنه ربما لا يطول عمره وإن طال فربما لا ينال أمله ومطلوبه وإن طال عمره ووجد مطلوبه على أحسن الوجوه فلا بد أن يفارقه بالموت فيقع في أعظم أنواع الغم والحسرة فإن تعلق القلب بالمحبوب كلما كان أشد وأقوى كانت مفارقته أعظم تأثيراً في حصول الغم والحسرة ولذلك قيل:

الفت مكير همچو الف هيچ باكسى — تابشنوى الم نشوى وقت انقطاع

فنبه سبحانه وتعالى على أن الشيطان إنما يعد ويمني لأجل أن يغر الإنسان ويخدعه ويفوت عنه أعز المطالب وأنفع المآرب. فالعاقل من لا يتبع وسواس الشيطان ويبتغي رضى الرحمٰن بالتمسك بكتابه العظيم وسنن رسوله الكريم والعمل بهما ليفوز فوزاً عظيماً وكفى بذلك نصيحة ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان وهو مبتدأ ﴿**مأواهم**﴾ أي: مستقرهم وهو مبتدأ ثان ﴿**جهنم**﴾ خبر للثاني والجملة خبر للأول ﴿**ولا يجدون عنها محيصاً**﴾ أي: معدلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل وعنها متعلق بمحذوف وقع حالاً من محيصاً أي كائناً عنها ولا يجوز أن يتعلق بيجدون لأنه لا يتعدى بعن ولا بقوله محيصاً لأنه إما اسم مكان وهو لا يعمل مطلقاً وإما مصدر ومعمول المصدر لا يتقدم عليه.

والإشارة أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم السعداء وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم الأشقياء وخلق الشيطان مزيناً وداعياً وآمراً بالهوى فمن يرى حقيقة الاضلال ومشيئته من إبليس فهو إبليس وقد قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] والنصيب المفروض من العباد هم طائفة خلقهم الله تعالى أهل النار كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وهم أتباع الشيطان هٰهنا وقد لعن الله الشيطان وأبعده عن الحضرة إذ كان سبب ضلالتهم كما قال عليه السلام: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه» وإنما لعن الله الدنيا وأبغضها لأنها كانت سبباً للضلالة وكذلك الشيطان ولا يغتر بوعد

الشيطان إلا الضال بالضلال البعيد الأزلي ولذا تولد منه الشرك المقدر بمشيئة الله الأزلية. وأما من خلقه الله أهلاً للجنة فقد غفر له قبل أن خلقه ومن غفر له فإنه لا يشرك بالله شيئاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] تطاول إبليس وقال: أنا شيء من الأشياء فلما نزل ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] يئس إبليس وتطاولت اليهود والنصارى ثم لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] يئس اليهود والنصارى وبقيت الرحمة للمؤمنين خاصة فهم خلقوا للرحمة ودخلوا الجنة بالرحمة ولهم الخلود في الرحمة وبقي العذاب للشيطان وأتباعه من الإنس والجن ولهم الخلود في النار كما قال الله تعالى: ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ لأنهم خلقوا لها فلا بد من الدخول فيها، قال الحافظ:

پير ما كفت خطا بر قلم صنع نرفت　　آفرين بر نظر پاك خطا پوشش باد

فافهم تفز إن شاء الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ صلاح الأعمال في إخلاصها فالعمل الصالح هو ما أريد به وجه الله تعالى وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرهما ﴿**سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي: أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿**خالدين فيها أبدا**﴾ أي: مقيمين في الجنة إلى الأبد فنصب أبدا على الظرفية وهو لاستغراق المستقبل. قال الحدادي: إنما ذكر الطاعة مع الإيمان وجمع بينهما فقال: آمنوا وعملوا الصالحات ليتبين بطلان توهم من يتوهم أنه لا تضر المعصية والإخلال بالطاعة مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر وليتبين استحقاق الثواب على كل واحد من الأمرين ﴿**وعد الله حقا**﴾ أي: وعد الله لهم هذا وعداً وحق ذلك حقاً فالأول مؤكد لنفسه لأنه مضمون الجملة الاسمية التي قبل وعد لأن الوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها والثاني مؤكد لغيره لأن الخبر من حيث إنه خبر يحتمل الصدق والكذب ﴿**ومن أصدق من الله قيلا**﴾ استفهام إنكاري أي ليس أحد أصدق من الله قولاً ووعداً وأنه تعالى أصدق من كل قائل فوعده أولى بالقبول ووعد الشيطان تخييل محض ممتنع الوصول. وقيلاً نصب على التمييز والقيل والقال مصدران كالقول ﴿**ليس بأمانيكم**﴾ جمع أمنية بالفارسية «آرزو كردن» ﴿**ولا أماني أهل الكتاب**﴾ أي: ليس ما وعد الله من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح. وأماني المسلمين: أن يغفر لهم جميع ذنوبهم من الصغائر والكبائر ولا يؤاخذوا بسوء بعد الإيمان. وأماني أهل الكتاب أن لا يعذبهم الله ولا يدخلهم النار إلا أياماً معدودة لقولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] فلا يعذبنا. وعن الحسن «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل. قال بعضهم: الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية والأمنية منية أي موت إذ هي موجبة لتعطيل فوائد الحياة، قال السعدي:

قيامت كه بازار نيهو نهند | منازل بأعمال نيكو نهند
بضاعت بچندانكه آرى برى | اكر مفلسى شرمسارى برى
كسى راكه حسن عمل بيشتر | بدركاه حق منزلت پيشتر

ثم إنه تعالى أكد حكم الجملة الماضية وقال: ﴿من يعمل سوءاً﴾ عملاً قبيحاً ﴿يجز به﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روي أنه لما نزلت قال أبو بكر رضي الله عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال عليه السلام: «أما تحزن أما تمرض أما يصيبك اللأواء» قال: بلى يا رسول الله قال: «هو ذلك» قال أبو هريرة رضي الله عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله ما أبقت هذه الآية من شيء قال: «أما والذي نفسي بيده لكما أنزلت ولكن يسروا وقاربوا وسددوا» أي: اقصدوا السداد أي الصواب «ولا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي ذلك بكم إلى الملال فتتركوا العمل» كذا في «المقاصد الحسنة» ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي: ولا يجد لنفسه إذا جاوز موالاة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ من للتبعيض أي: بعضها وشيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال ﴿من ذكر أو أنثى﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل ومن للبيان ﴿وهو مؤمن﴾ حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور لأنه لا اعتداد بالعمل بدون الإيمان فيه ﴿فأولئك﴾ المؤمنون العاملون ﴿يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: لا ينقصون مما استحقوه من جزاء أعمالهم مقدار النقير وهي النقرة أي الحفرة التي في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة وهو علم في القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالحري أن لا يزاد عقاب العاصي لأن المجازي أرحم الراحمين وفي الحديث: «إن الله وعد على الطاعة عشر حسنات وعلى المعصية الواحدة عقوبة واحدة فمن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره» أي: سيآته على حسناته. قال النيسابوري حكمة تضعيف الحسنات لئلا يفلس العبد إذا اجتمع الخصماء في طاعته فيدفع إليهم واحدة ويبقى له تسع فمظالم العباد توفي من التضعيفات لا من أصل حسناته لأن التضعيف فضل من الله تعالى وأصل الحسنة الواحدة عدل منه واحدة بواحدة. وقد ذكر الإمام البيهقي في كتاب البعث فقال: إن التضعيفات فضل من الله تعالى لا تتعلق بها العباد كما لا تتعلق بالصوم بل يدخرها الحق للعبد فضلاً منه سبحانه فإذا دخل الجنة أثابه بها.

قال السعدي قدس سره:

نكوكارى ازمردم نيك رأى | يكى رابده مى نويسد خداى
جوانا ره طاعت امروز كير | كه فردا جوانى نيايد زپير
ره خير بازست وطاعت وليك | نه هركس تواناست بر فعل نيك
همه برك بودن همى ساختى | بتدبير رفتن نپرداختى

واعلم أن جميع الأعمال الصالحة يزيد في نور الإيمان فعليك بالطاعات والحسنات والوصول إلى المعارف الإلّهية فإن العلم بالله أفضل الأعمال ولذلك لما قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم بالله» فقيل الأعمال نريد؟ قال: «العلم بالله» فقيل: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم فقال: «إن قليل العمل ينفع مع العلم وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل» وذلك إنما يحصل بتصفية الباطن مع صيقل التوحيد وأنواع الأذكار ولا يعقلها إلا العالمون.

والإشارة ﴿**ليس بأمانيكم**﴾ يعني: بأماني عوام الخلق الذين يذنبون ولا يتوبون ويطمعون أن يغفر الله لهم والله تعالى يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢] ﴿**ولا أماني أهل الكتاب**﴾ يعني: العلماء السوء الذين يغرون الخلق بالرجاء المذموم ويقطعون عليهم طريق الطلب والجد والاجتهاد ﴿**ومن يعمل سوءاً يجز به**﴾ في الحال بإظهار الرين على مرآة قلبه بعد الذنب كما قال عليه السلام: «إذا أذنب عبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ورجع منه صقل» ﴿**ولا يجد له من دون الله ولياً**﴾ يخرجه من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة بالتوبة ﴿**ولا نصيراً**﴾ سوى الله ينصره بالظفر على النفس الأمارة فيزكيها عن صفاتها وعلى الشيطان فيدفع شره وكيده ﴿**ومن يعمل من الصالحات**﴾ أي: الخالصات ﴿**من ذكر أو أنثى**﴾ يشير بالذكر إلى القلب وبالأنثى إلى النفس ﴿**وهو مؤمن**﴾ مخلص في تلك الأعمال ﴿**فأولئك يدخلون الجنة**﴾ المعنى: أن القلب إذا عمل بما وجب عليه من التوجه إلى العالم العلوي والإعراض عن العالم السفلي وغض البصر عن سوى الحق يستوجب دخول جنة القربة والوصلة والنفس إذا عملت بما وجب عليها من الانتهاء عن هواها وترك حظوظها وأداء حقوق الله تعالى في العبودية واطمأنت بها تستحق الرجوع إلى ربها والدخول في جنة عالم الأرواح كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، ﴿**ولا يظلمون نقيراً**﴾ فيما قدر لهم الله من الأعمال الصالحات ولا من الدرجات والقربات فليس من تمنى نعمته من غير أن يتعنى في خدمته كمن تعنى في خدمته من غير أن يتمنى نعمته وأن بينهما بوناً بعيداً من أعلى مراتب القرب إلى أسفل سافلين البعد كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

﴿**ومن**﴾ استفهام إنكاري ﴿**أحسن ديناً**﴾ الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار فإن الشريعة من حيث إنها يطاع لها دين ومن حيث إنها تملي وتكتب ملة والإملال بمعنى الإملاء ﴿**ممن أسلم وجهه لله**﴾ أي: جعل نفسه وذاته سالمة خالصة لله تعالى بأن لم يجعل لأحد حقاً فيها لا من جهة الخالقية والمالكية ولا من جهة العبودية والتعظيم. وقوله ديناً نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل في الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبيهما ﴿**وهو محسن**﴾ الجملة حال من فاعل اسم أي: والحال أنه آتٍ بالحسنات تارك للسيآت وقد فسره النبي عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والإحسان حقيقة الإيمان.

واعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين: الاعتقاد والعمل فالله سبحانه أشار إلى الأول

بقوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وهو محسن﴾ أي: في الانقياد لربه بأن يكون آتياً بجميع ما كلفه به على وجه الإجلال والخشوع. ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها وقبولها بين الأديان كلها بخلاف ملة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ﴿حنيفاً﴾ حال من فاعل اتبع أي: مائلاً عن الأديان الزائغة ثم إن الله تعالى رغب في اتباع ملته فقال: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي: اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله والخلة من الخلال فإنه ودّ تخلل النفس وخالطها ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ كأنه قيل: لِمَ خص الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالخلة وله عباد مكرمون؟ فأجاب بأن جميع ما في السموات وما في الأرض من الموجودات له تعالى خلقاً وملكاً يختار منها ما يشاء ومن يشاء ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ إحاطة علم وقدرة فكل واحد من علمه وقدرته محيط بجميع ما يكون داخلاً فيهما وما يكون خارجاً عنهما ومغايراً لهما مما لا نهاية له من الصدورات الخارجة عن هذه السموات والأرضين.

ـ روي ـ أن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس فاجتاز غلمانه ببطحاء لينة فملأوا منها الغرائر حياء من الناس فلما أخبروا إبراهيم ساءه الخبر فغلبته عيناه فنام فقامت سارة إلى غرارة منها فأخرجت حواري واختبزت فاستيقظ إبراهيم فاشتم رائحة الخبز فقال: من أين هذا لكم؟ فقالت: من خليلك المصري فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً. وفي الخبر تعجب الملائكة من كثرة ماله وخدمه وكان له خمسة آلاف قطيع من الغنم وعليها كلاب المواشي بأطواق الذهب فتمثل له ملك في صورة البشر وهو ينظر أغنامه في البيداء فقال الملك: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح فقال إبراهيم عليه السلام كرر ذكر ربي ولك نصف ما ترى من أموالي فكرر الملك فنادى ثانياً كرر تسبيح ربي ولك جميع ما ترى من مالي فتعجب الملائكة فقالوا: جدير أن يتخذك الله خليلاً فعلى هذا إنما سمي الخليل خليلاً على لسان الملائكة. قال القاضي في الشفاء الخلة هنا أقوى من النبوة لأن النبوة قد يكون فيها العداوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة ومن شرط الخلة استسلام العبد في عموم أحواله لله بالله وأن لا يدخر شيئاً مع الله لا من ماله وجسده ولا من نفسه ولا من روحه وخلده ولا من أهله وولده وهكذا كان حال إبراهيم عليه السلام.

جانكه نه قرباني جانان بود — جيفه تن بهترازان جان بود
هركه نه شد كشته بشمشير دوست — لاشه مردار به ازجان اوست

ومن شرط المحبة فناء المحب في المحبة وبقاؤه في المحبوب حتى لم تبق المحبة من المحب إلا الحبيب وهذا حال محمد ﷺ. قيل لمجنون بني عامر: ما اسمك قال: ليلى. قال شيخي وسندي ومن هو بمنزلة روحي في جسدي في كتاب «اللائحات البرقيات»: إن الخلة والمحبة الإلهية الأحدية تجلت لنبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بحقيقتها ولإبراهيم عليه السلام بصورتها ولغيرهما بخصوصياتها الجزئيات بحسب قابلياتهم ونبينا عليه السلام في مقام الخلة والمحبة بمنزلة المرتبة الأحدية الذاتية وإبراهيم عليه الصلاة والسلام بمنزلة المرتبة الواحدية الصفاتية وغيرهما بمنزلة المرتبة الواحدية الأفعالية وإلى هذه المقامات والمراتب إشارة

في البسملة على هذا الترتيب ونبينا محمد ﷺ خليل الله وحبيبه بالفعل وإبراهيم عليه السلام خليل الرحمان وحبيبه بالفعل وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام أخلاء الرحيم وأحباؤه بالفعل انتهى كلام الشيخ العلامة أبقاه الله بالسلامة.

واعلم أنه عليه السلام قال: «إن الله اتخذني خليلاً ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً» يعني: لو جاز لي أن أتخذ صديقاً من الخلق يقف على سري لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن لا يطلع على سري إلا الله ووجه تخصيصه بذلك أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان أقرب بسر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما روي أنه عليه السلام قال: «إن أبا بكر لم يفضل عليكم بصوم ولا صلاة ولكن بشيء كتب في قلبه» وانفهم من عدم اتخاذه عليه السلام أحداً خليلاً انفصاله عما سوى الله تعالى فكل الكائنات متصل به وهو غير متصل بشيء أصلاً سوى الله سبحانه وتعالى اللهم ارزقنا شفاعته.

قال الشيخ السعدي في نعته الشريف:

شبى برنسشت ازفلك در كذشت بتمكين جاه از ملك در كذشت
چنان كرم درتيه قربت براند كه در سدره جبريل ازوبازماند

فهذا انفصاله عن العلويات والسفليات ووصوله إلى حضرة الذات.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

﴿ويستفتونك﴾ أي يطلبون منك الفتوى واشتقاق الفتوى من الفتى وهو الشاب القوي الحدث لأنها جواب في حادثة وإحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل **﴿في﴾** حق توريث **﴿النساء﴾** إذ سبب نزولها أن عيينة بن حصين أتى النبي عليه السلام فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه السلام: «كذلك أمرت» **﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾** يبين لكم حكمه في حقهن والافتاء تبيين المبهم وتوضيح المشكل **﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾** عطف على اسم الله أي: يفتيكم الله وكلامه فيكون الافتاء مسنداً إلى الله وإلى ما في القرآن من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ﴾ [النساء: ١١] في أوائل هذه السورة ونحوه والفعل الواحد ينسب إلى فاعلين بالاعتبارين كما يقال أغناني زيد وعطاؤه فإن المسند إليه في الحقيقة شيء واحد وهو المعطوف عليه إلا أنه عطف عليه شيء من أحواله للدلالة على أن الفعل إنما قام بذلك الفاعل باعتبار اتصافه بتلك الحال **﴿في﴾** شأن **﴿يتامى النساء﴾** متعلق بيتلى كما أن في الكتاب متعلق به أيضاً والإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه **﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾** أي: فرض لهن من الميراث وغيره **﴿وترغبون﴾** عطف على لا تؤتونهن عطف جملة مثبتة على جملة منفية **﴿أن تنكحوهن﴾** أي: في نكاحهن لجمالهن ومالهن وترغبون عن نكاحهن أي: تعرضون لقبحهن وفقرهن فإن كانت اليتيمة جميلة موسرة رغب وليها في تزوجها وإلا رغب عنها وما يتلى في حقوقهن قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ [النساء: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ [النساء: ٢] ونحوها من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم **﴿و﴾** في **﴿المستضعفين من الولدان﴾** عطف على

يتامى النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء وإنما يورثون الرجال القوامين بالأمور ﴿و﴾ في ﴿أن تقوموا لليتامى﴾ في أموالهم وحقوقهم ﴿بالقسط﴾ أي: العدل وهو أيضاً عطف على يتامى النساء وما يتلى في حقهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢] ونحو ذلك ﴿وما﴾ شرطية ﴿تفعلوا من خير﴾ على الإطلاق سواء كان في حقوق المذكورين أو غيرهم ﴿فإن الله كان به عليما﴾ فيجازيكم بحسبه. فعلى العاقل أن يطيع الله تعالى فيما أمر ولا يأكل مال الغير بل يجتهد في أن ينفق ما قدر عليه على اليتامى والمساكين. قال حاتم الأصم: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب. من ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. ومن ادعى محبة الله من غير ورع عن محارم الله فهو كذاب. ومن ادعى محبة النبي عليه السلام من غير محبة الفقراء فهو كذاب وفي قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا﴾ حث على فعل الخير وترغيب.

ـ حكي ـ أن امرأة جاءت إلى حانوت أبي حنيفة تريد شراء ثوب فأخرج أبو حنيفة ثوباً جديداً قيمته أربعمائة درهم فقالت المرأة: إني امرأة ضعيفة ولي بنت أريد تسليمها إلى زوجها فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك فقال أبو حنيفة: خذيه بأربعة دراهم فقالت المرأة: لِمَ تسخر بي؟ فقال أبو حنيفة معاذ الله أن أكون من الساخرين ولكني كنت اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال الذي نقدت في الثوبين إلا أربعة دراهم فبقي هذا علي بأربعة دراهم فأخذت المرأة الثوب بأربعة دراهم ورجعت مستبشرة فرحة، قال السعدي قدس سره:

بكير اي جوان دست درويش پير   نه خودرا بيكفن كه دستم بكير
كسى نيك بودى بهر دو سراى   كه نيكى رساند بخلق خداى

واعلم أن النفس بمثابة المرأة لزوج الروح فكما أوجب الله على الرجال من الحقوق للنساء فكذلك أوجب على العبد الطالب الصادق من الحقوق للنفس كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر حين جاهد نفسه بالليل بالقيام وبالنهار بالصيام «إن لنفسك عليك حقاً فصم وأفطر وقم ونم» والرياضة الشديدة تقطع عن السير قال عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» يريد لا تحملوا على أنفسكم ولا تكلفوها ما لا تطيق فتعجز فتترك الدين والعمل.

اسب تازى دوتك همى ماند   شتر آهسته ميرود شب وروزى

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتوسط في إعطاء نفسه حقها ويعدل فيها غاية العدل فيصوم ويفطر ويقوم وينام وينكح النساء ويأكل في بعض الأحيان ما يجد كالحلوى والعسل والدجاج وتارة يجوع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع. فيا أيها الغافل تنبه لرحيلك ومسراك واحذر أن تسكن إلى موافقة هواك انتقل إلى الصلاح قبل أن تنقل وحاسب نفسك على ما تقول وتفعل فإن الله سبحانه بكل شيء عليم وبكل شيء محيط فإياك من الإفراط والتفريط.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وإن امرأة خافت من بعلها﴾ امرأة فاعل فعل يفسره الظاهر أي إن خافت امرأة خافت وتوقعت من زوجها ﴿نشوزا﴾ تجافياً عنها وترفعا من صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها من النشز وهو ما ارتفع من الأرض فنشوز كل واحد من الزوجين كراهته صاحبه وترفعه عليه لعدم

رضاه به ﴿أو إعراضاً﴾ بأن يقل مجالستها ومحادثتها وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن أو دمامة أو شين في خلق أو خلق أو ملال أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك. قال الإمام المراد بالنشوز إظهار الخشونة في القول أو الفعل أو فيهما والمراد بالإعراض السكوت عن الخير والشر والمراعاة والإيذاء.

ـ روي ـ أن الآية نزلت في خويلة ابنة محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع تزوجها وهي شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها فأتت رسول الله ﷺ واشتكت إليه ذلك ﴿فلا جناح عليهما﴾ حينئذٍ ﴿أن يصلحا بينهما صلحا﴾ أي: في أن يصلحا بينهما إصلاحاً بأن تحط له المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة رضي الله عنها وكانت كبيرة مسنة وذلك أن أم المؤمنين سودة ابنة زمعة التمست من رسول الله حين أراد عليه السلام أن يطلقها أن يمسكها وتجعل نوبتها لعائشة رضي الله عنها لما عرفت مكان عائشة من قلبه عليه السلام فأجازه النبي عليه السلام ولم يطلقها وكان عليه السلام بعد هذا الصلح يقسم لعائشة يومها ويوم لسودة. قال الحدادي: مثل هذا الصلح لا يقع لازماً لأنها إذا أبت بعد ذلك إلا المقاسمة على السواء كان لها ذلك ﴿والصلح﴾ الواقع بين الزوجين ﴿خير﴾ أي: من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة. فاللام للعهد ويجوز أن لا يراد به التفضيل بل بيان أنه خير من الخيور كما أن الخصومة شر من الشرور فاللام للجنس. قال السيوطي في «حسن المحاضرة في أحوال مصر والقاهرة»: إن شئت أن تصير من الأبدال فحول خلقك إلى بعض خلق الأطفال ففيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً لا يهتمون للرزق ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا ويأكلون الطعام مجتمعين وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع وإذا تخاصموا لم يتجاوزوا وتسارعوا إلى الصلح ونعم ما قيل:

ابلهست آنكه فعل اوست لجاج ابلهى را كجا علاج بود
تاتوانى لجاج پيشه مكير كافت دوستى لجاج بود

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لا تنفك عنه أبداً فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها وكبر سنها وعدم حصول اللذة بمجالستها وأصل الكلام أحضر الله الأنفس الشح فلما بنى للمفعول أقيم مفعوله الأول مقام الفاعل والشح البخل مع حرص فهو أخص من البخل. وعن عبد الله بن وهب عن الليث قال: بلغني أن إبليس لقي نوحاً فقال له إبليس: يا نوح اتق الحسد والشح فإني حسدت آدم فخرجت من الجنة وشح آدم على شجرة واحدة منعها حتى خرج من الجنة. ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل وأبغضهم إليّ الفاسق السخي قال يحيى: وكيف ذلك؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى لم أخبرك كذا في «آكام المرجان» ﴿وإن تحسنوا﴾ أيها الأزواج بإمساكهن بالمعروف وحسن المعاشرة مع عدم موافقتهن لطباعكم ﴿وتتقوا﴾ ظلمهن بالنشوز والإعراض ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن. ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خبيرا﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم ويثيبكم عليه البتة لاستحالة أن يضيع أجر المحسنين.

ـ روي ـ أن رجلاً من بني آدم كانت له امرأة من أجملهم فنظرت إليه يوماً فقالت: الحمد لله قال زوجها: ما لك؟ فقالت: حمدت الله على أني وأنك من أهل الجنة لأنك رزقت مثلي فشكرت ورزقت مثلك فصبرت وقد وعد الله بالجنة للصابرين والشاكرين، قال السعدي قدس سره:

چو مستوره شدزن خوب روى بديدار او در بهشتست شوى
اكر پارسا باشد وخوش سخن نكه در نكويى وزشتى مكن

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء**﴾ أي محال أن تقدروا على أن تعدلوا وتسووا بينهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتة ولذلك كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك» وأراد به التسوية في المحبة وكان له فرط محبة لعائشة رضي الله عنها ﴿**ولو حرصتم**﴾ أي: على إقامة العدل وبالغتم في ذلك ﴿**فلا تميلوا كل الميل**﴾ أي: فلا تجوروا على المرأة المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فإن عجزكم عن حقيقة العدل إنما يصح عدم تكليفكم به لا بما دونه من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم وما لا يدرك كله لا يترك كله وفي الحديث «استقيموا ولن تحصوا» أي لن تستطيعوا أن تستقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا ﴿**فتذروها**﴾ مجزوم عطف على الفعل قبله أي فلا تتركوا التي ملتم عنها حال كونها ﴿**كالمعلقة**﴾ وهي المرأة التي لا تكون أيما فتزوج ولا ذات بعل يحسن عشرتها كالشيء المعلق الذي لا يكون في الأرض ولا في السماء وفي الحديث «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» وكان لمعاذ رضي الله عنه امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد ﴿**وإن تصلحوا**﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿**وتتقوا**﴾ الميل فيما يستقبل ﴿**فإن الله كان غفورا**﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم ﴿**رحيماً**﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿**وإن يتفرقا**﴾ أي: وأن يفارق كل واحد منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح أو غيره ﴿**يغن الله كلا**﴾ منهما أي: يجعله مستغنياً عن الآخر ويكفه مهماته ﴿**من سعته**﴾ من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن مفارقة أحدهما رغماً لصاحبه ﴿**وكان الله واسعا حكيما**﴾ أي: مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه وله حكمة بالغة فيما يحكم من الفرقة يجعل لكل واحد منهما من يسكن إليه فيتسلى به عن الأول وتزول حرارة محبته عن قلبه وينكشف عنه هم عشقه فعلى المؤمن ترك حظ النفس والدور مع الأمر الإلهي في جملة أموره وأحكامه والعمل في حق النساء بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والميل إلى جانب العدل والإعراض عن طرف الظلم والاستحلال قبل أن يجيء يوم لا بيع فيه ولا خلال. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يؤخذ بيد العبد أو الأمة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق

فليأت إلى حقه فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على ابنها أو أخيها أو على أبيها أو على زوجها ثم قرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيقول الرب تعالى للعبد آت هؤلاء حقوقهم فيقول رب لست في الدنيا فمن أين أوتيهم؟ فيقول للملائكة خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان منهم بقدر طلبته فإن كان ولياً لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠] وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة: رب فنيت حسناته وبقي الطالبون فيقول للملائكة خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيآته وصكوا له صكاً إلى النار فلا بد من التوبة والاستغفار والرجوع إلى الملك الغفار والمجاملة في المعاملة مع الأخيار والأشرار ودفع الأذى عن أهل الإنكار والإقرار.

ـ حكي ـ أن أبا منصور بن ذكير كان رجلاً زاهداً صالحاً فلما دنت وفاته أكثر البكاء فقيل له: لِمَ تبكي عند الموت؟ قال: أسلك طريقاً لم أسلكه قط فلما توفي رآه ابنه في المنام في الليلة الرابعة فقال: يا أبت ما فعل الله بك؟ فقال: يا بني إن الأمر أصعب مما تعد أي تظن لقيت ملكاً عادلاً أعدل العادلين ورأيت خصماء مناقشين فقال لي ربي: يا أبا منصور قد عمرتك سبعين سنة فما معك اليوم؟ فقلت: يا ربي حججت ثلاثين حجة فقال الله تعالى: لم أقبل منك فقلت: يا رب تصدقت بأربعين ألف درهم بيدي فقال: لم أقبل منك فقلت: ستون سنة صمت نهارها وقمت ليلها فقال: لم أقبل منك فقلت: إلهي غزوت أربعين غزوة فقال: لم أقبل منك فقلت: إذا قد هلكت فقال الله تعالى ليس من كرمي أن أعذب مثل هذا يا أبا منصور أما تذكر اليوم الفلاني نحيت الذرة عن الطريق كيلا يعثر بها مسلم فإني قد رحمتك بذلك فإني لا أضيع أجر المحسنين فظهر من هذه الحكاية أن دفع الأذى عن الطريق إذا كان سبباً للرحمة والمغفرة فلأن يكون دفع الأذى عن الناس نافعاً للدافع يوم الحشر خصوصاً عدم الأذية للمؤمنين وخصوصاً للأهل والعيال والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده اللهم اجعلنا من النافعين لا من الضارين آمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: من الموجودات كائناً ما كان من الخلائق أرزاقهم وغير ذلك.

قال الشيخ نجم الدين قدس سره: **﴿لله ما في السموات﴾** من الدرجات العلى وجنات المأوى والفردوس الأعلى **﴿وما في الأرض﴾** من نعيم الدنيا وزينتها وزخارفها والله مستغن عنها وإنما خلقها لعباده الصالحين كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] وخلق العباد لنفسه كما قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] **﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** أي بالله قد أمرناهم في كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم. واللام في الكتاب للجنس يتناول الكتب السماوية ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا

﴿وإياكم﴾ عطف على الذين أي وصيناكم يا أمة محمد في كتابكم **﴿أن اتقوا الله﴾** أي: بأن اتقوا الله فإن مصدرية حذف منها حرف الجر أي أمرناهم وإياكم بالتقوى **﴿و﴾** قلنا لهم ولكم **﴿إن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾** أي: فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله: **﴿وكان الله غنياً﴾** أي: عن الخلق وعبادتهم لا تعلق له بغيره تعالى لا في ذاته ولا في صفاته بل هو منزه عن العلاقة مع الأغيار **﴿حميداً﴾** محموداً في ذاته حمدوه أو لم يحمده. قال الغزالي في «شرح الأسماء الحسنى»: والله تعالى هو الحميد لحمده لنفسه أزلاً ولحمد عباده له أبداً ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً إلى ذكر الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال والحميد من العباد من حمدت عقائده وأخلاقه وأعماله كلها من غير مثنوية وذلك هو محمد ﷺ ومن يقرب منه من الأنبياء ومن عداهم من الأولياء والعلماء كل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾** ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما فاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً فلا تكرار فإن كل واحد من هذه الألفاظ مقرون بفائدة جديدة **﴿وكفى بالله وكيلا﴾** في تدبير أمور الكل وكل الأمور فلا بد من أن يتوكل عليه لا على أحد سواه **﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾** أي: يفنكم ويستأصلكم بالمرة **﴿ويأت بآخرين﴾** أي: يوجد دفعة مكانكم قوماً آخرين من البشر أو خلقاً آخرين مكان الأنس ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أي إن: يشأ إفناءكم وإيجاد آخرين يذهبكم يعني: أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم لا لعجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ففيه تهديد للعصاة **﴿وكان الله على ذلك﴾** أي: إفنائكم بالمرة وإيجاد آخرين دفعة مكانكم **﴿قديراً﴾** بليغ القدر لا يعجزه مراد فأطيعوه فلا تعصوه واتقوا عقابه. والآية تدل على كمال قدرته وصبوريته حيث لا يؤاخذ العصاة على العجلة وفي الحديث: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيهم ويرزقهم» يعني: يقول بعض عباد الله وإمائه إن له شريكاً في ملكه وينسب له ولداً ثم الله تعالى يعطيهم من أنواع النعم العافية والرزق وغيرهما فهذا كرمه ومعاملته مع من يؤذيه فما ظنك بمعاملته مع من يتحمل الأذى منه ويثني عليه؟ ثم إن تأخير العقوبة يتضمن لحكم منها رجوع التائب وانقطاع حجة المصر وفي الحديث «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها». قال الشيخ الكلاباذي: بسط اليد كناية عن الجود يعني يجود الله لمسيء الليل ولمسيء النهار بالإمهال ليتوب كما روي أنه عليه السلام قال: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وإذا عمل العبد حسنة كتب له عشر أمثالها وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات من النهار فإن استغفر لم يكتب عليه وإن لم يستغفر كتب سيئة واحدة» انتهى كلامه. قال الصائب:

بر غفلت سياه دلان خنده ميزنند   غافل مشو زخنده دندان نماى صبح

يقال: من لم ينزجر بزواجر القرآن ولم يرغب في الطاعات فهذا أشد قسوة من الحجارة وأسوء حالاً من الجمادات فإن دعوة الله عباده بكتبه على لسان الأنبياء لئلا يغتروا بزخارف

الدنيا الدنية ويترقوا من حضيض الحظوظ النفسانية إلى معارج الدرجات العلى ولقد وصاك الله تعالى بالتقوى فعليك بالأخذ بالوصية فإن التقوى كنز عزيز فلئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وخير كثير فإنه جامع الخير كله. قال ابن عطاء للتقوى ظاهر وباطن فظاهرها حفظ حدود الشرع وباطنها الإخلاص في النية وحقيقة التقوى الإعراض عن الدنيا والعقبى والإقبال والتوجه إلى الحضرة العليا فمن وصل إليه فقد صار حراً عن رقية الكونين وعبد الله تعالى. قال الحافظ قدس سره:

زير بارند درختان كه تعلق دارند ... اي خوشا سروكه ازبار غم آزاد آمد

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ كالمجاهد يريد بمجاهدته الغنيمة **﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾** أي: فعنده تعالى ثوابهما له إن أراده فما له يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة أو ليطلب الأشرف منهما فإن من جاهد خالصاً لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جنبه كلا شيء أي فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلاً ما يريده كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠] **﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾** عالماً بجميع المسموعات والمبصرات عارفاً بالأغراض أي: يعرف من كلامهم ما يدل على أنهم ما يطلبون من الجهاد سوى الغنيمة ومن أفعالهم ما يدل على أنهم لا يسعون في الجهاد إلا عند توقع الفوز بالغنيمة. قال الحدادي: في الآية تهديد للمنافقين المرائين وفي الحديث: «إن في النار وادياً تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة أعد للقراء المرائين». قال السعدي قدس سره:

نكو سيرتى بى تكلف برون ... به ازنيك نام خراب اندرون

هرآنكه افكند تخم برروى سنك ... جوى وقت دخلش نيايد بچنك

وعن النبي ﷺ أنه «لما خلق الله تعالى جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها: تكلمي فقالت: قد أفلح المؤمنون ثلاثاً ثم قالت: إني حرام على كل بخيل مراء» فينبغي للمؤمن أن يحترز من الرياء ويسعى في تحصيل الإخلاص في العمل وهو أن لا يريد بعمله سوى الله تعالى قال بعضهم دخلت على سهل بن عبد الله يوم الجمعة قبل الصلاة فرأيت في البيت حية فجعلت أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى فقال سهل: ادخل لا يبلغ أحد حقيقة الإخلاص وعلى وجه الأرض شيء يخافه ثم قال: هل لك حاجة في صلاة الجمعة؟ فقلت: بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة فأخذ بيدي فما كان قليلاً حتى رأيت المسجد فدخلنا وصلينا الجمعة ثم خرجنا فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون فقال أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل:

عبادت بإخلاص نيت نكوست ... وكرنه چه آيد زيمغز پوست

فالمخلص في عمله لا يقبل عوضاً ولو أعطى له الدنيا وما فيها.

ـ حكاية ـ [آورده اندكه جوانمردى غلام خويش را كفت سخاوت آن نيست كه صدقه بكسى دهند كه اورابشناسند صد دينار بستان وببازار ببر وأول درويشى كه بينى بوى ده غلام

ببازار رفت پيرى ديدكه حلاق سراو مى تراشيد زر بوى داد پير كفت كه من نيت كرده ام كه هرچه مرا فتوح شود بوى دهم وحلاق را كفت بستان حلاق كفت من نيت كرده ام سراورا از براى خدا بتراشم اجر خود از حق تعالى بصد دينار نمى فروشم وهيچ كس نستادند غلام باز كشت وزرباز آورد] كذا في «أنيس الوحدة وجليس الخلوة».

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط**﴾ مبالغين في العدل وإقامة القسط في جميع الأمور مجتهدين في ذلك حق الاجتهاد ﴿**شهداء لله**﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم بوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها وهو خبر ثان ﴿**ولو**﴾ كانت الشهادة ﴿**على أنفسكم**﴾ بأن تقروا عليها لأن الشهادة على النفس إقرار على أن الشهادة عبارة عن الإخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث أو بأن تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه بأن يكون سلطاناً ظالماً أو غيره ﴿**أو الوالدين والأقربين**﴾ أي: ولو كانت على والديكم وأقاربكم بأن تقروا وتقولوا مثلاً أشهد أن لفلان على والدي كذا أو على أقاربي أو بأن تكون الشهادة وبالاً عليهم على ما مر آنفاً وفي هذا بيان أن شهادة الابن على الوالدين لا تكون عقوقاً ولا يحل للابن الامتناع عن الشهادة على أبويه لأن في الشهادة عليهما بالحق منعاً لهما من الظلم وأما شهادته لهما وبالعكس فلا تقبل لأن المنافع بين الأولاد والآباء متصلة ولهذا لا يجوز أداء الزكاة إليهم فتكون شهادة أحدهما شهادة لنفسه أو لتمكن التهمة ﴿**إن يكن**﴾ أي: المشهود عليه ﴿**غنيا**﴾ يبتغي في العادة رضاه ويتقي سخطه ﴿**أو فقيراً**﴾ يترحم عليه غالباً وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿**فالله أولى بهما**﴾ عليه أي: فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة طلباً لرضى الغني أو ترحماً على الفقير فإن الله تعالى أولى بجنسي الغني والفقير بالنظر لهما ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وفي الحديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله كيف ينصره ظالما قال: «أن يرده عن ظلمه» فإن ذلك نصره معنى ومنع الظالم عن ظلمه عون له على مصلحة دينه ولذا سمي نصراً، قال السعدي قدس سره:

بكمراه كفتن نكو ميروى كناه بزركست وجور قوى
بكوى آنچه دانى سخن سودمند وكر هيچ كس را نيايد بسند

﴿**فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**﴾ يحتمل العدل والعدول أي فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿**وإن تلووا**﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لا على وجهها ليّ الشيء فتله وتحريفه ولي الشهادة تبديلها وعدم أدائها على ما شاهده بأن يميل فيها إلى أحد الخصمين ﴿**أو تعرضوا**﴾ أي: عن أدائها وإقامتها رأساً فالإعراض عنها كتمها ﴿**فإن الله كان بما تعملون**﴾ من ليّ الألسنة والإعراض بالكلية ﴿**خبيراً**﴾ فيجازيكم لا محالة على ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالآية القاضي يتقدم عليه الخصمان فيعرض عن أحدهما أو يدافع في إمضاء الحق أو لا يسوي بينهما في المجلس والنظر والإشارة ولا يمتنع أن يكون المراد بالآية القاضي والشاهد وعامة الناس

فإن اللفظ محتمل للجميع. وعن رسول الله ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقم شهادته على من كانت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجحد حقاً هو عليه وليؤده فوراً ولا يلجئه إلى سلطان وخصومة ليقطع بها حقه وأيما رجل خاصم إلي فقضيت له على أخيه بحق ليس عليه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من نار جهنم» كذا في «تفسير الحدادي». قال في «الأشباه» أي شاهد جاز له الكتمان؟ فقل: إذا كان الحق يقوم بغيره أو كان القاضي فاسقاً أو كان يعلم أنه لا يقبل انتهى. قال الفقهاء: وستر الشهادة في الحدود أفضل من أدائها لقوله عليه السلام للذي شهد عنده في الحد «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك» وقوله عليه السلام: «من ستر على مسلم عيباً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة» وقال عليه السلام: «ما من امرىء ينصر مسلماً في موضع ينهتك فيه عرضه وتستحل حرمته إلا نصره الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته وما من امرىء خذل مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته» وقال عليه السلام: «ادرأوا الحدود ما استطعتم».

ـ يحكى ـ أن مسلماً قتل ذمياً عمداً فحكم أبو يوسف بقتل المسلم فبلغ زبيدة امرأة هارون الرشيد فبعثت إلى أبي يوسف وقالت: إياك أن تقتل المسلم وكانت في عناية عظيمة بأمر المسلم فلما حضر أبو يوسف وحضر الفقهاء وجيء بأولياء الذمي والمسلم وقال له الرشيد: احكم بقتله فقال: يا أمير المؤمنين هو مذهبي غير أني لست أقتل المسلم به حتى تقوم البينة العادلة إن الذمي يوم قتله المسلم كان ممن يؤدي الجزية فلم يقدروا عليه فبطل دمه:

تـوروا داريـكـه مـن بـي حـجـتـي ... بـنـهـم انـدر شـهـر بـاطـل سـنـتـي

وفي قوله تعالى: ﴿شهداء الله﴾ إشارة إلى عوام المؤمنين أن كونوا شهداء الله بالتوحيد والوحدانية بالقسط يوماً ما ولو كان في آخر نفس من عمرهم على حسب ما قدر لهم الله تعالى. وإشارة إلى الخواص أن كونوا شهداء لله أي حاضرين مع الله بالفردانية. وإشارة إلى خواص الخواص أن كونوا شهداء لله في الله غائبين عن وجودكم في شهوده بالوحدة. وفي إشارته إلى الخواص شركة للملائكة كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] فأما إشارته إلى الأخص من الأنبياء وكبار الأولياء وهم أولو العلم فمختصة بهم من سائر العالمين ولأولي العلم شركة في شهود شهد الله أنه لا إله إلا هو وليس للملائكة في هذا الشهود مدخل إلا أنهم قائمون بالقسط كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب لكافة المسلمين **﴿آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾** أي: اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقيناً أو آمنوا بما ذكر مفصلاً بناء على أن إيمان بعضهم إجمالي. فإن قلت: لم قيل نزل على رسوله وأنزل من قبل. قلت: لأن القرآن نزل منجماً مفرقاً بخلاف الكتب قبله فالمراد بالكتاب الأول القرآن وبالثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وبالإيمان به الإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه على رسول معين لإرشاد أمته إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على أن يراد الإيمان

بكل واحد من تلك الكتب بل خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة إلى ورود نسخها وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث إنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل. وقيل: الخطاب للمنافقين كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً وهو ما كان بالألسنة فقط آمنوا إخلاصاً وهو ما كان بها وبالقلوب. وقيل الخطاب لمؤمني أهل الكتاب إذ روي أن ابن سلام وأصحابه قالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه فنزلت فالمعنى حينئذٍ آمنوا إيماناً عاماً شاملاً يعم الكتب والرسل فإن الإيمان بالبعض كلا إيمان. ﴿**ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**﴾ أي: بشيء من ذلك لأن الكفر ببعضه كفر بكله ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان بهم جميعاً وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدها لا يتحقق الإيمان أصلاً وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلاً عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله وبين الرسل في إنزال الكتب. ﴿**فقد ضل ضلالا بعيدا**﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه. قالوا: أول ما يجب على المرء معرفة مولاه أي يجب على كل إنسان أن يسعى في تحصيل معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحاً عند الإمام الأعظم لكن يكون آثماً بترك النظر والاستدلال فأول الأمر هو الحجة والبرهان ثم المشاهدة والعيان ثم الفناء عن سوى الرحمان. فمرتبة العوام في الإيمان ما قال عليه السلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر خيره وشره» وهو إيمان غيبي، وفي «المثنوي»:

بندكى درغيب آيد خوب وكش ... حفظ غيب آيدر استبعاد خوش
طاعت وإيمان كنون محمود شد ... بعد مرك اندر عيان مردود شد

ومرتبة الخواص في الإيمان هو إيمان عياني وكان ذلك بأن الله إذا تجلى لعبده بصفة من صفاته خضع له جميع وجوده وآمن بالكلية عياناً بعدما كان يؤمن قلبه بالغيب ونفسه تكفر بما آمن به قلبه إذا كانت النفس عن تنسم روائح الغيب بمعزل فلما تجلى الحق للجبل جعله دكاً وخر موسى النفس صعقاً فالنفس في هذا المقام تكون بمنزلة موسى فلما أفاق قال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين. ومرتبة الأخص في الإيمان هو إيمان عياني وذلك بعد رفع حجب الأنانية بسطوات تجلي صفة الجلال فإذا أفناه عنه بصفة الجلال يبقيه به بصفة الجمال فلم يبقَ له الأين وبقي في العين فيكون إيماناً عينياً كما كان حال النبي عليه السلام ليلة المعراج فلما بلغ قاب قوسين كان في حيز أين فلما جذبته العناية من كينونته إلى عينونة أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى آمن الرسول بما أنزل إليه أي من صفات ربه فآمنت صفاته بصفاته تعالى وذاته بذاته فصار كل وجوده مؤمناً بالله إيماناً عينياً ذاته وصفاته فأخبر عنهم وقال: والمؤمنون كل آمن بالله يعني آمنوا بهوية وجودهم كذا في «التأويلات النجمية» هذا هو الإيمان الحقيقي رزقنا الله وإياكم إياه، وفي «المثنوي»:

بود كبرى درزمان بايزيد ... كفت اورايك مسلمان سعيد
كه چه باشد كرتو اسلام آورى ... تا بيابى صد نجات وسرورى

كفت اين ايمان اكرهست اي مريد | آنكه دارد شيخ عالم بايزيد
من ندارم طاقت آن تاب آن | كان فزون آمدز كو ششهاى جان
كرچه درايمان ودين ناموقنم | ليك درايمان اوبس مومنم
مؤمن ايمان اويم در نهان | كرچه مهرم هست محكم بردهان
بازايمان خود كر ايمان شماست | نى بدان ميلستم ونى مشتهاست
آنكه صد ميلش سوى ايمان بود | چون شمارا ديد زان فاترشود
زانكه نامى بيند ومعنيش نى | چون بيابانرا مفازه كفتنى

وإلى هذا التجريد والتفريد ينال العبد بالذكر والتوحيد قال عليه السلام في وصيته لعلي ـ رضي الله عنه ـ «يا علي احفظ التوحيد فإنه رأس مالي والزم العمل فإنه حرفتي وأقم الصلاة فإنها قرة عيني واذكر الحق فإنه نصرة فؤادي واستعمل العلم فإنه ميراثي» اللهم لا تحرمنا من هذا الميراث.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني: اليهود بموسى **﴿ثم كفروا﴾** بعبادتهم العجل **﴿ثم آمنوا﴾** بعد عوده إليهم **﴿ثم كفروا﴾** بعيسى والإنجيل **﴿ثم ازدادوا كفراً﴾** بكفرهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وازداد كذا يجيء لازماً ومتعدياً يقال: ازددت مالاً أي زدته لنفسي ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] **﴿لم يكن الله﴾** مريداً **﴿ليغفر لهم﴾** أي ما داموا على كفرهم **﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾** أي ولا ليوفقهم طريقاً إلى الإسلام ولكن يخذلهم مجازاة لهم على كفرهم. فإن قيل: إن الله لا يغفر كفر مرة فما الفائدة في قوله: **﴿ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا﴾**. قيل: إن الكافر إذا آمن غفر له كفره فإذا كفر بعد إيمانه لم يغفر له الكفر الأول وهو مطالب بجميع كفرهم **﴿بشر المنافقين﴾** وضع بشر موضع انذر وأخبر تهكماً بهم **﴿بأن لهم عذابا أليماً﴾** أي: وجيعاً يخلص ألمه ووجعه إلى قلوبهم وهذا يدل على أن الآية نزلت في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين **﴿الذين﴾** أي: هم الذين **﴿يتخذون الكافرين﴾** أي اليهود **﴿أولياء﴾** أحباء في العون والنصرة **﴿من دون المؤمنين﴾** حال من فاعل يتخذون أي متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود **﴿أيبتغون عندهم العزة﴾** أي: أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة وهم أذلاء في حكم الله تعالى: **﴿فإن العزة لله جميعاً﴾** تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فإن انحصار جميع أفراد العزة في جنابه تعالى بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] يقتضي بطلان التعزيز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به. قوله جميعاً حال من المستكن في قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدأ.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

﴿وقد نزل عليكم﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات والجملة حال من فاعل يتخذون. قال المفسرون: إن مشركي مكة كانوا يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به في مجالسهم فأنزل الله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون ما فعله المشركون بمكة وكان المنافقون يقعدون معهم ويوافقونهم على ذلك الكلام الباطل فقال الله تعالى مخاطباً لهم ﴿وقد نزل عليكم﴾ أي والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة. وفيه دلالة على أن المنزل على النبي عليه السلام وإن خوطب به خاصة منزل على العامة ﴿في الكتاب﴾ أي: القرآن الكريم. ﴿أن﴾ مخففة أي: أن الشان ﴿إذا سمعتم آيات الله﴾ فيه دلالة على أن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم في آيات الله ولذلك يخبر عنه تارة بالرؤية وأخرى بالسماع ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ حالان من آيات الله أي مكفوراً ومستهزءاً بها في محل الرفع لقيامه مقام الفاعل والأصل يكفر بها أحد ويستهزىء. ﴿فلا تقعدوا﴾ جزاء الشرط ﴿معهم﴾ أي: الكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ بها ﴿حتى يخوضوا﴾ الخوض بالفارسية «در حديث شدن» ﴿في حديث غيره﴾ أي غير القرآن وحتى غاية للنهي والمعنى أنه تجوز مجالستهم عند خوضهم وشروعهم في غير الكفر والاستهزاء. وفيه دلالة على أن المراد بالإعراض عنهم إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهي غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لاعتماد ما بعدها على ما قبلها أي: لوقوعها بين المبتدأ والخبر أي لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم أي مثل اليهود في الكفر واستتباع العذاب فإن الرضى بالكفر كفر ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ يعني: القاعدين والمقعود معهم وهو تعليم لكونهم مثلهم في الكفر بيانه ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب.

واعلم أن الائتلاف هٰهنا نتيجة تعارف الأرواح هنالك لقوله عليه السلام: «الأرواح جنود مجندة» الحديث فمن تعارف أرواح الكافر والمنافق هناك يأتلفون هٰهنا ومن تناكر أرواحهم وأرواح المؤمنين يختلفون هٰهنا.

ـ روت ـ عائشة رضي الله عنها أن امرأة كانت بمكة تدخل على نساء قريش تضحكهنّ فلما هاجرن ووسع الله تعالى دخلت المدينة قالت عائشة فدخلت عليّ فقلت لها فلانة ما أقدمك قالت: إليكن قلت: فأين نزلت قالت: على فلانة امرأة كانت تضحك بالمدينة قالت عائشة ودخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: «فلانة المضحكة عندكم» قالت عائشة قلت: نعم فقال: «فعلى من نزلت» قالت على فلانة المضحكة قال: «الحمد لله أن الأرواح جنود» الخ، ونعم ما قيل:

همه مرغان كندبا جنس پرواز كبوتر باكبوتر باز بإباز

ولما كان الأبد مرآة الأزل لا يظهر فيه إلا ما قدر في الأزل لذا قال الله تعالى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ لأنهم كانوا في عالم الأرواح في صف واحد وفي الدنيا بذلك التناسب والتعارف في فن واحد وقال عليه السلام: «كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون».

ففي إشارة الآية نهي لأصحاب القلوب عن المجالسة مع أرباب النفوس والموافقة في

شيء من أهوائهم فإنهم إن يفعلوا ذلك يكونوا مثلهم يعني كون القلب كالنفس وصاحب القلب كصاحب النفس بالصحبة والمخالطة والمتابعة، قال الحافظ قدس سره:

نخست موعظه پير مجلس اين حرفست كه از مصاحب ناجنس احتراز كنيد

قال الحدادي في تفسيره: إذن لم يجز جلوس المؤمن معهم لإقامة فرض أو سنة أما إذا كان جلوسه لإقامة عبادة وهو ساخط لتلك الحال لا يقدر على تغييرها فلا بأس بالجلوس كما روي عن الحسن أنه حضر وابن سيرين جنازة وهناك نوح فانصرف ابن سيرين فذكر ذلك للحسن فقال: ما كنا متى رأينا باطلاً تركنا حقاً أشرع ذلك في ديننا ولم يرجع انتهى كلامه. وذكر أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون عليه السلام إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وأكلوهم وشاربوهم وإذا كان الرجل مبتلى بصحبة الفجار في سفره للحج أو الغزاة لا يترك الطاعة بصحبتهم لكن يكرهه بقلبه ولا يرضى به فلعل الفاسق يتوب ببركة كراهة قلبه ومن دعي إلى ضيافة فوجد ثمة لعباً أو غناء يقعد إن كان غير قدوة ويمنع إن قدر وإن كان قدوة كالقاضي والمفتي ونحوهما يمنع ويقعد فإن عجز خرج وإن كان ذلك على المائدة أو كانوا يشربون الخمر خرج وإن لم يكن قدوة وإن علم قبل الحضور لا يحضر في الوجوه كلها كذا في «تحفة الملوك».

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: المنافقون هم الذين ينتظرون وقوع أمر لكم خيراً كان أو شراً **﴿فإن كان لكم﴾** أيها المؤمنون **﴿فتح من الله﴾** أي ظفر ودولة وغنيمة **﴿قالوا﴾** أي لكم **﴿ألم نكن معكم﴾** على دينكم مظاهرين لكم فاسهموا لنا فيما غنمتم **﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾** أي ظهور على المسلمين **﴿قالوا﴾** أي للكفرة **﴿ألم نستحوذ عليكم﴾** الاستحواذ الاستيلاء أي ألم نغلبكم ونمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم أي ترحمنا **﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾** بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم أو أمرجنا في جنابكم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم وإلا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيباً مما أصبتم وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً تعظيماً لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه وأما ظفر الكافرين فمقصور على أمر دنيوي سريع الزوال **﴿فالله يحكم بينكم﴾** أي: بين المؤمنين والمنافقين بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين **﴿يوم القيامة﴾** أي يحكم حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما في الدنيا فقد جرى على من تفوه بكلمة الإسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقاً **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** أي: ظهوراً يوم القيامة كما قد يجعل ذلك في الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج وبيانه أن الله تعالى يظهر أثر إيمان المؤمن يوم القيامة ويصدق موعدهم ولا يشاركهم الكفار في شيء من اللذات كما شاركوهم اليوم حتى يعلموا أن الحق معهم دونهم إذ لو شاركوهم في شيء منها لقالوا للمؤمنين: ما نفعكم إيمانكم

وطاعتكم شيئاً لأنا أشركنا واستوينا معكم في ثواب الآخرة وأما إن كان المعنى سبيلاً في الدنيا فيراد بالسبيل الحجة وحجة المسلمين غالبة على حجة الكل وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة وقيل: معنى السبيل الدولة الدائمة ولا دولة على الدوام للكافرين وإلا لكان الظهور والغلبة من قبلهم دائماً وليس كذلك فإن أكثر الظفر للمسلمين وإنما ينال الكفار من المؤمنين في بعض الأوقات استدراجاً ومكراً وهذا يستمر إلى انقراض أهل الإيمان في آخر الزمان. وعن كعب قال: إذا انصرف عيسى ابن مريم والمؤمنون من يأجوج ومأجوج لبثوا سنوات ثم رأوا كهيئة الرهج والغبار فإذا هي ريح قد بعثها الله لتقبض أرواح المؤمنين فتلك آخر عصابة تقبض من المؤمنين ويبقى الناس بعدهم مائة عام لا يعرفون ديناً ولا سنة يتهارجون تهارج الحمر عليهم تقوم الساعة وفي الحديث «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال» ثم إن الله تعالى يحكم بينكم يوم القيامة ليعلم من أهل العزة والكرامة ومن أهل الغرة والندامة كما أن الشمع يحكم بين الصحيح والسقيم بإظهار حالهما إذا جيء به في حمامٍ مظلم قد دخله الأصحاء والمرضى والجرحى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً فإن وبال كيدهم إليهم مصروف وجزاء مكرهم عليهم موقوف والحق من قبل الحق تعالى منصور أهله والباطل بنصر الحق مخيب أصله. وقد قيل: الباطل يفور ثم يغور. فعلى المؤمن صرف علو الهمة في الدين وفي تحصيل علم اليقين ولا يتربص للفتوحات الدنيوية ذاهلاً عن الفتوحات الأخروية بل عن فتوحات الغيب ومشاهدة الحق فإن أهم الأمور هو الوصول إلى الرب الغفور. قال أبو يزيد البسطامي قدس سره: إن لله خواص من عباده ولو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار ولما كان موسى كليم الله طفلاً في حجر تربية الحق تعالى ما تجاوز حده ولا تعدى قصده بل قال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير فلما كبر وبلغ مبلغ الرجال ما رضي بطعام الأطفال بل قال: رب أرني أنظر إليك وكان غاية طلبه في طفوليته هو الطعام والشراب وكان منتهى أربه في رجوليته هو رفع الحجاب ومشاهدة الأحباب فالباب مفتوح للطلاب لا حاجب عليه ولا بواب وإنما المحجوب عن المسبب من وقف مع الأسباب والمشروب حاضر والمحروم من حرم الشراب والمحبوب ناظر والمطرود من وقف وراء الحجاب فمن أنس بسواه فهو مستوحش ومن ذكر غيره فهو غافل عنه ومن عول على سواه فهو مشرك فإذا لم يجد إليه سبيلاً وفي ظله مقيلاً، ونعم ما قيل:

تو محرم نيستى محروم ازانى ره نا محرمان اندر حرم نيست

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ أي: يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر **﴿وهو خادعهم﴾** أي الله تعالى فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم في الدنيا معصومي الدماء والأموال وأعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب وإثم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما إنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط وينطفىء نور

المنافقين فينادون المؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم فتناديهم الملائكة عن الصراط ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً وقد علموا أنهم لا يستطيعون الرجوع قال: فيخاف المؤمنون حينئذٍ أن يطفأ نورهم فيقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير. **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾** أي: متثاقلين متقاعسين كما ترى من يفعل شيئاً عن كره لا عن طيب نفس ورغبة. قوله كسالى كأنه قيل: ما كسالى فقيل: **﴿يراؤون الناس﴾** أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ليحسبوهم مؤمنين **﴿ولا يذكرون الله﴾** عطف على يراؤون **﴿إلا﴾** ذكراً **﴿قليلا﴾** إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وهو أقل أحواله والمراد بالذكر التسبيح والتهليل. قال في الكشاف: وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلة ولا تحميدة ولكن حديث الدنيا يستغرق أوقاته لا يفتر عنه.

﴿مذبذبين بين ذلك﴾ حال من فاعل يراؤون وذلك إشارة إلى الإيمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أي مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان والهوى بينهما وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعده أخرى **﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾** حال من ضمير مذبذبين أي لا منسوبين إلى المؤمنين فيكونون مؤمنين ولا إلى الكافرين فيكونون مشركين **﴿ومن يضلل الله﴾** لعدم استعداده للهداية والتوفيق **﴿فلن تجد له سبيلا﴾** موصلاً إلى الحق والصواب فضلاً عن أن تهديه إليه والخطاب لكل من يصلح له كائناً من كان وكان ﷺ يضرب مثلاً للمؤمنين والمنافقين والكافرين كمثل رهط ثلاثة رفعوا إلى نهر فقطعه المؤمن ووقف الكافر ونزل فيه المنافق حتى إذا توسط عجز فناداه الكافر هلم إلي لا تغرق وناداه المؤمن هلم إلي لتخلص فما زال المنافق يتردد بينهما إذ أتى عليه ماء فغرقه فكأن المنافق لم يزل في شك حتى يأتيه الموت:

اى كـــه دارى نـــفـــاق انــــدر دل   خـــار بـــادت خـــلـــيـــده انـــدر حـــلـــق
هـركـه سـازد نـفـاق پـيـشـه خـويـش   خـوار كـردد بـنـزد خـالـق وخـلـق

والإشارة **﴿إن المنافقين﴾** إنما **﴿يخادعون الله﴾** في الدنيا لأن الله تعالى **﴿وهو خادعهم﴾** في الأزل عند رش نوره على الأرواح وذلك أن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فلما رش نوره أصاب أرواح المؤمنين وأخطأ أرواح المنافقين والكافرين ولكن الفرق بين المنافقين والكافرين أن أرواح المنافقين رأوا رشاش النور وظنوا أنه يصيبهم فأخطأهم وأرواح الكافرين ما شاهدوا ذلك الرشاش ولم يصبهم وكأن المنافقين خدعوا عند مشاهدتهم الرشاش إذ ما أصابهم فمن نتائج مشاهدتهم الرشاش **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾** من نتائج حرمانهم إصابة النور **﴿قاموا كسالى يراؤون الناس﴾** كيما يرونهم النور **﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾** لأنهم يذكرونه بلسان الظاهر القالبي لا بلسان الباطن القلبي والقالب من الدنيا وهي قليلة قليل ما فيها والقلب من الآخرة وهي كثيرة كثير ما فيها فالذكر الكثير من لسان القلب كثير والفلاح في الذكر الكثير لا في القليل لقوله تعالى: **﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٤١] أي: بلسان القلب **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [البقرة: ١٨٩] ولما كان ذكر المنافقين بلسان القالب كان قليلاً فما أفلحوا به وإنما كان ذكر المنافق بلسان الظاهر لأنه رأى رشاش النور ظاهراً من البعد ولم يصبه فلو كان أصابه ذلك النور لكان صدره منشرحاً به كما قال تعالى: **﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾** [الزمر: ٢٢] أي على نور مما رش به ربه ومعدن النور هو القلب فكان

قلبه ذاكراً لله بذلك النور فإنه يصير لسان القلب فقليل الذكر منه يكون كثيراً فافهم جداً فلما كانت أرواح المنافقين مترددة متحيرة بين مشاهدة رشاش النور وبين الظلمة الخلقية لا إلى هؤلاء الذين أصابهم النور ولا إلى هؤلاء الذين لم يشاهدوا الرشاش لذلك كانوا ﴿**مذبذبين بين ذلك**﴾ المؤمنين والكافرين ﴿**لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله**﴾ بأخطاء ذلك النور كما قال ومن أخطأه فقد ضل ﴿**فلن تجد له سبيلا**﴾ هٰهنا إلى ذلك النور يدل عليه قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] أي: ومن لم يجعل الله له قسمة من ذلك النور المرشش عليهم فما له اليوم نصيب من نور الهداية كذا في «التأويلات النجمية» اللهم ارزقنا الذكر الكثير واعصمنا من الذنب الصغير والكبير. يقال: حصون المؤمن ثلاثة: المسجد، وذكر الله، وتلاوة القرآن، والمؤمن إذا كان في واحد من ذلك أي من الأشياء الثلاثة فهو في حصن من الشيطان قال علي رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى في الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه يعمرون مساجدهم وهي خراب من ذكر الله تعالى شر أهل ذلك الزمان علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود» قال السعدي قدس سره:

كنون بايدت عذر تقصير كفت ... نه چون نفس ناطق زكفتن بخفت

اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين آمين يا معين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾ أي: لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أحباء قوله من دون المؤمنين حال من فاعل لا تتخذوا أي متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿**أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً**﴾ أي أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق فالسلطان هو الحجة يقال للأمير سلطان يراد بذلك أنه حجة ويجوز أن يكون بمعنى الوالي والمعنى حينئذٍ أتريدون أن تجعلوا سلطاناً كائناً عليكم والياً أمر عقابكم مختصاً لله تعالى مخلوقاً له منقاداً لأمره ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ هو الطبقة التي في قعر جهنم وهي الهاوية والنار سبع دركات سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض والدركات في النار مثل الدرجات في الجنة كل ما كان من درجات الجنة أعلى فثواب من فيه أعظم وما كان من دركات النار أسفل فعقاب من فيه أشد. وسئل ابن مسعود عن الدرك الأسفل فقال هو توابيت من حديد مبهمة عليهم لا أبواب لها، فإن قلت: لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت: لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالدين والخداع للمسلمين فالمنافقون أخبث الكفرة، فإن قلت من المنافق؟ قلت: هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فللتغليظ والتهديد والتشبيه مبالغة في الزجر كقوله من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» وقيل لحذيفة رضي الله عنه: من المنافق؟ فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وعن الحسن أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه فأصبح قد عمم وقلد وأعطى سيفاً يعني الحجاج، قال عمر بن عبد

العزيز: لو جاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج فضلناهم. وعن عبد الله بن عمر أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون قال الله تعالى في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ١١٥] وقال في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقال: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] قيل: لا يمتنع أن يجتمع القوم في موضع واحد ويكون عذاب بعضهم أشد من بعض ألا ترى أن البيت الداخل في الحمام يجتمع فيه الناس فيكون بعضهم أشد أذى بالنار لكونه أدنى إلى موضع الوقود وكذلك يجتمع القوم في القعود في الشمس وتأذي الصفراوي أشد وأكثر من تأذي السوداوي والمنافق في اللغة مأخوذ من النفق وهو السرب أي يستتر بالإسلام كما يستتر الرجل بالسرب وقيل: هو مأخوذ من قولهم نافق اليربوع إذا دخل نافقاءه فإذا طلب من النافقاء خرج من القاصعاء وإذا طلب من القاصعاء خرج من النافقاء والنافقاء والقاصعاء حجر اليربوع ﴿**ولن تجد لهم نصيراً**﴾ أي: مانعاً يمنع عنهم العذاب ويخرجهم من الدرك الأسفل من النار والخطاب لكل من يصلح له كائناً من كان.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

﴿**إلا الذين تابوا**﴾ أي عن النفاق هو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم في الخبر ﴿**وأصلحوا**﴾ ما أفسدوا من أحوالهم من حال النفاق بإتيان ما حسنه الشرع من أفعال القلوب والجوارح ﴿**واعتصموا بالله**﴾ أي وثقوا به وتمسكوا بدينه وتوحيده ﴿**وأخلصوا دينهم**﴾ أي جعلوه خالصاً ﴿**لله**﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿**فأولئك**﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات الحميدة ﴿**مع المؤمنين**﴾ أي المؤمنين المعهودين الذين لا يصدر عنهم نفاق أصلاً وإلا فهم أيضاً مؤمنون أي معهم في الدرجات العالية من الجنة لا يضرهم النفاق السابق وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿**وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً**﴾ لا يقادر قدره فيشاركونهم فيه ويساهمونهم وسوف كلمة ترجئة وإطماع وهي من الله سبحانه إيجاب لأنه أكرم الأكرمين ووعد الكريم إنجاز وإنما حذف الياء من يؤتى في الخط كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام في اسم الله وكذلك سندع الزبانية ويدع الداع.

واعلم أن الكافر وإن أفسد برين الكفر صفاء روحه ولكن ما أضيف إلى رين كفره رين النفاق فكان لرين كفره منفذ من القلب إلى اللسان فيخرج بخاره من لسانه بإظهار الكفر وكان للمنافق مع رين كفره رين النفاق زائداً ولم يكن لبخار رينه منفذ إلى لسانه فكان بخارات رين الكفر ورين النفاق تنفذ من منفذ قلبه الذي هو إلى عالم الغيب فتتراكم حتى انسد منفذ قلبه بها وختم عليه بإفساد كلية الاستعداد من صفاء الروحانية فلم يتفق له الخروج عن هذا الأسفل ولا ينصره نصير بإخراجه لأنه مخذول بعيد عن الحق في آخر الصفوف وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٠] يعني في خلق أرواحكم في صف أرواح المؤمنين ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] بأن يردكم إلى صف أرواح الكافرين ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] بأن يخلق أرواحكم في صف أرواح الكافرين ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] بأن يخرجكم إلى صف

المؤمنين ثم استثنى منهم من كان كفره ونفاقه عارية وروحه في أصل الخلقة خلقت في صف المؤمنين ثم بأدنى مناسبة في المحاذاة بين روحه وأرواح الكافرين والمنافقين ظهر عليه من نتائجها موالاة معلولة من القوم أياماً معدودة فما أفسدت صفاء روحانيته بالكلية وما انسد منفذ قلبه إلى عالم الغيب فهب له من مهب العناية نفحات ألطاف الحق ونبه من نومة الغفلة ونبىء بالرجوع إلى الحق بعد التمادي في الباطل ونودي في سره بأن لا نصير لمن اختار الأسفل ولا يخرج منه ﴿**إلا الذين تابوا**﴾ أي: ندموا على ما فعلوا ورجعوا عن تلك المعاملات الرديئة ﴿**وأصلحوا**﴾ ما أفسدوا من حسن الاستعداد وصفاء الروحانية بترك الشهوات النفسانية والحظوظ الحيوانية ﴿**واعتصموا بـ**﴾حبل ﴿**الله**﴾ استعانة على العبودية ﴿**وأخلصوا دينهم لله**﴾ في الطلب لا يطلبون منه إلا هو ثم قال: من قام بهذه الشرائط ﴿**فأولئك مع المؤمنين**﴾ يعني في صف أرواحهم خلق روحه لا في صف أرواح الكافرين ﴿**وسوف يؤت الله المؤمنين**﴾ التائبين ويتقرب إليهم على قضية من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته أهرول وهذا هو الذي سماه ﴿**أجرا عظيماً**﴾ والله العظيم كذا في «التأويلات النجمية»، قال السعدي قدس سره:

خلاف طريقت بود كاوليا تمنا كنند ازخدا جزخدا

﴿**ما**﴾ استفهامية بمعنى النفي في محل النصب بيفعل أي أي شيء ﴿**يفعل الله بعذابكم**﴾ الباء سببية متعلقة بيفعل أي بتعذيبكم ﴿**إن شكرتم وآمنتم**﴾ أي أيتشفى به من الغيظ أم يدرك به الثأر أم يستجلب به نفعاً أم يستدفع به ضرراً كما هو شأن الملوك أي لا يفعل بعذاب المؤمن الشاكر شيئاً من ذلك لأن كل ذلك محال في حقه تعالى لأنه تعالى غني لذاته عن الحاجات منزه عن جلب المنفعة ودفع المضرة وأما تعذيب من لم يؤمن أو آمن ولم يشكر فليس لمصلحة تعود إليه تعالى بل لاستدعاء حال المكلف ذلك كاستدعاء سوء المزاج المرض والمقصود منه حمل المكلفين على الإيمان وفعل الطاعات والاحتراز عن القبيح وترك المنكرات فكأنه قيل: إذا أتيتم الحسنات وتركتم المنكرات فكيف يليق بكرمه أن يعذبكم وتعذيبه عباده لا يزيد في ملكه وتركه عقوبتهم على فعلهم القبيح لا ينقص من سلطانه وجواب إن شكرتم محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن شكرتم وآمنتم فما يفعل بعذابكم. والشكر ضد الكفر والكفر ستر النعمة فالشكر إظهارها وإنما قدم الشكر على الإيمان مع أن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولا ثبات مع عدم الإيمان لما أنه طريق موصل إليه فإن الناظر يدرك أولاً ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكراً مبهماً ثم يترقى إلى معرفة المنعم بعد إمعان النظر في الدلائل الدالة على ثبوته ووحدته فيؤمن به ﴿**وكان الله شاكراً**﴾ الشكر من العبد هو الاعتراف بالنعمة الواصلة إليه مع ضروب من التعظيم ومن الله تعالى الرضى أي راضياً باليسير من طاعة عباده وأضعاف الثواب مقابلة واحدة إلى عشرة إلى سبعمائة إلى ما شاء من الأضعاف ﴿**عليما**﴾ بحق شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم فينبغي لطالب الحق أن يخضع له خضوعاً تاماً ويشكره شكراً كثيراً، قال الجرجاني في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] أي لئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس، وعن علي رضي الله عنه إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر معناه من لم يشكر النعم الحاصلة لديه الواصلة إليه حرم النعم الفائتة منه القاصية عنه.

چون بيابى تو نعمتى درچند خرد باشد چو نقطه موهوم
شكر آن يافته فرومكذار كه زنا يافته شوى محروم

فبالشكر والإيمان يتخلص المرء من النيران وإلا فقد عرض نفسه للعذاب واستحق العذاب والعتاب وجه التعذيب أن التأديب في الحكمة واجب فخلق الله النار ليعلم الخلق قدر جلال الله وكبريائه وليكونوا على هيبة وخوف من صنع جلاله ويؤدب بها من لم يتأدب بتأديب رسله إلى خلقه وليعتبر أهل العقل بالنظر إليها في الدنيا وبالاستماع لها في الآخرة ولهذا السر علق النبي عليه السلام السوط حيث يراه أهل البيت لئلا يتركوا الأدب.

ـ روي ـ أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: [ما خلقت النار بخلا مني ولكن أكره أن أجمع أعدائي وأوليائي في دار واحدة] وأدخل الله بعض عصاة المؤمنين النار ليعرفوا قدر الجنة ومقدار ما دفع الله عنهم من عظيم النقمة لأن تعظيم النعمة واجب في الحكمة.

والإشارة في الآية أن الله تعالى يذكر للعباد المؤمنين نعماً من نعمه السالفة السابقة، منها إخراجهم من العدم ببديع فطرته، ومنها أنه خلق أرواحهم قبل خلق الأشياء، ومنها أنه خلق أرواحهم نورانية بالنسبة إلى خلق أجسادهم الظلمانية، ومنها أن أرواحهم لما كانت بالنسبة إلى نور القدم ظلمانية رش عليهم من نور القدم، ومنها أنه لما أخطأ بعض الأرواح ذلك النور وهو أرواح الكفار والمنافقين وقد أصاب أرواح المؤمنين قال: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم**﴾ هذه النعم التي أنعمت بها عليكم من غير استحقاق منكم فإنكم إن شكرتم هذه النعم برؤيتها ورؤية المنعم ﴿**وآمنتم**﴾ فقد آمنتم بي ونجوتم من عذابي وهو ألم الفراق فإن حقيقة الشكر رؤية المنعم والشكر على وجود المنعم أبلغ من الشكر على وجود النعم وقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢] أي اشكروا لوجودي ﴿**وكان الله**﴾ في الأزل ﴿**شاكرا**﴾ لوجوده ومن شكر لوجوده أوجد الخلق بجوده ﴿**عليما**﴾ بمن يشكره وبمن يكفره فأعطى جزاء شكر الشاكرين قبل شكرهم لأن الله شكور وأعطى جزاء كفر الكافرين قبل كفرهم لأن الكافر كفور كذا في «التأويلات النجمية».

ـ تم الجزء الخامس ـ

الجزء السادس من الأجزاء الثلاثين

﴿۞ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ
تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن
يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالاً من السوء أي لا يحب الجهر من أحد في حق غيره بالسوء كائناً من القول **﴿إلا من ظلم﴾** أي الأجهر المظلوم فإن المظلوم له أن يجهر برفع صوته بالدعاء على من ظلمه أو يذكر ما فيه من السوء تظلماً منه مثل أن يذكر أنه سرق متاعي أو غصبه مني وقيل: هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم يعني لو شتمه أحد ابتداء فله أن يرد على شاتمه أي جاز أن يشتمه بمثله ولا يزيد عليه وقيل: إن رجلاً ضاف قوماً أي أتاهم ضيفاً فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت **﴿وكان الله سميعا﴾** لكلام المظلوم **﴿عليما﴾** بحال الظالم **﴿إن تبدوا خيرا﴾** أي: خير كان من الأقوال والأفعال **﴿أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾** لكم المؤاخذة عليه وهو المقصود وذكر إبداء الخير وإخفائه تمهيد وتوطئة له ولذلك رتب عليه قوله: **﴿فإن الله كان عفواً قديرا﴾** فإن إيراده في معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أي كان مبالغاً في العفو عن العصاة مع كمال قدرته على المؤاخذة والانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله وهو حث المظلوم على العفو بعد ما رخص له في الانتصار والانتقام حملاً على مكارم الأخلاق. وعن علي رضي الله عنه لا تتفرد دفع انتقام.

صولت انتقام ازمردم دولت مهترى كند باطل
ازره انتقام يكسو شو تانمانى بمهترى عاطل

واعلم أن الله تعالى لا يحب إظهار الفضائح والقبائح إلا في حق ظالم عظم ضرره وكثر كيده ومكره فعند ذلك يجوز إظهار فضائحه ولهذا قال عليه السلام: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» وورد في الأثر: «ثلاثة ليست لهم الغيبة الإمام الجائر والفاسق المعلن بفسقه والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته» ثم إن أكثر السوء قولي فإن اللسان صغير الجرم كبير الجرم وفي الحديث «البلاء موكل بالمنطق».

ـ يحكى ـ أن ابن السكيت جلس مع المتوكل يوماً فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل فقال: أيما أحب إليك ابناي أم الحسن والحسين؟ قال: والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك فقال: سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات ومن العجب أنه أنشد ذلك للمعتز والمؤيد وكان يعلمهما فقال:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته في الرجل تبرا على مهل

وفي «المثنوي»:

اين زبان چون سنك وهم آهن وشست آنچه بجهد از زبان چون آتشست

سنك وآهن را مزن برهم كزاف كه زروى نقل وكه ازروى لاف
زانكه تاريكست وهر سو پنبه زار درميان پنبه چون باشد شرار
عالمى را يك سخن ويران كند روبهان مرده را شيران كند

والإشارة في الآية ﴿إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول﴾ من العوام ولا التحدث مع النفس من الخواص ولا الخطرة التي تخطر بالبال من الأخص ﴿إلا من ظلم﴾ بمعاصي دواعي البشرية من غير اختيار أو بابتلاء من اضطرار. وأيضاً لا يحب الجهر بالسوء من القول بإفشاء أسرار الربوبية وأسرار مواهب الألوهية إلا من ظلم بغلبات الأحوال وتعاقب كؤوس عقار الجمال والجلال فاضطر إلى المقال فقال باللسان الباقي لا باللسان الفاني أنا الحق سبحاني ﴿وكان الله﴾ في الأزل ﴿سميعا﴾ لمقالهم قبل إبداء حالهم ﴿عليما﴾ بأحوالهم ثم قال: ﴿إن تبدوا خيرا﴾ يعني مما كوشفتم به من ألطاف الحق تنبيهاً للحق وإفادة لهم بالحق ﴿أو تخفوه﴾ صيانة لنفوسكم عن آفات الشوائب وأخذاً بخطامها عن المشارب ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ مما يدعوكم إليه هوى النفس الأمارة بالسوء أو تتركوا إعلان ما جعل الله إظهاره سوء فإن الله كان عفواً فيكون عفواً متخلقاً بأخلاقه متصفاً بصفاته وأيضاً ﴿فإن الله كان﴾ في الأزل ﴿عفواً﴾ عنك بأن لم يجعلك من المخذولين حتى صرت عفواً عما سواه وكان هو ﴿قديرا﴾ على خذلانك حتى يقدر على أن لا يعفو عن مثقال ذرة لكفرانك إن الإنسان لظلوم كفار كذا في «التأويلات النجمية» ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ أي: يؤدي إليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن لا بأن يصرحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الالتزام كما يحكيه قوله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود: نؤمن بموسى والتوراة وعزير ونكفر بما وراء ذلك وما ذلك إلا كفر بالله تعالى ورسله وتفريق بين الله ورسله في الإيمان لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقية دين نبينا ﷺ فمن كفر بواحد منهم كفر بالكل وبالله تعالى أيضاً من حيث لا يحتسب ﴿ويريدون﴾ بقولهم ذلك ﴿أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ أي طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر ولا واسطة بينهما قطعاً إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله إنما يتم بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً وإجمالاً فالكافر ببعض كالكافر بالكل في الضلال كما قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] ﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿هم الكافرون﴾ أي الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمونه إيماناً أصلاً ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي حق ذلك أي كونهم كاملين في الكفر حقاً أو صفة لمصدر الكافرون أي هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً لا شك فيه ﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ سيذوقونه عند حلوله ويهانون فيه ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار اتبعه بذكر وعد المؤمنين فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا

بآخرين كما فعله الكفرة وإنما دخل بين على أحد وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي فهو بمنزلة ولم يفرقوا بين اثنين أو بين جماعة ﴿**أولئك**﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿**سوف يؤتيهم**﴾ أي: الله تعالى ﴿**أجورهم**﴾ الموعودة لهم وسمي الثواب أجراً لأن المستحق كالأجرة وسوف لتأكيد الوعد أي الموعود الذي هو الإيتاء والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر ﴿**وكان الله غفورا**﴾ لما فرط منهم ﴿**رحيما**﴾ مبالغاً في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم. والآية الأولى تدل على أن الإيمان لا يحصل بزعم المرء وحسبانه أنه مؤمن وإنما يحصل بحصول شرائطه ونتائجه منه فمن نتائجه ما ذكر في الآية الثانية من عدم التفريق بين الرسل ومن نتائجه القبول من الله والجزاء عليه فمن أخطأه النور عند الرش على الأرواح فقد كفر كفراً حقيقياً ولذلك سماهم الله في الكفر حقاً ومن أصابه النور عند ذلك فقد آمن إيماناً حقيقياً ولذلك لا ينفع الأول توسط الإيمان كما لا يضر الثاني توسط العصيان، قال السعدي قدس سره:

قضا كشتى آنجاكه خواهد برد وكر ناخدا جامه بر تن درد

- يحكى - أنه كان شاب حسن الوجه وله أحباب وكانوا في الأكل والشرب والتنعم والتلذذ فنفدت دراهمهم فاجتمعوا يوماً وأجمعوا على أن يقطعوا الطريق فخرجوا إلى طريق وترقبوا القافلة فلم يمر أحد من هذا الطريق إلى ثلاثة أيام ورأى الشاب شيخاً قال له: يا ولدي ليس هذا صنعتك فاستغفر الله تعالى فإن طلبتني فأنا أقرأ القرآن في جامع السيد البخاري ببروسة فاحترق قلب الشاب من تأثير الكلام فقال لرفقائه: لو تبعتم رأيي تعالوا نروح إلى بروسة ونتجسس عن بعض التجار فنخرج خلفهم فنأخذ أموالهم فقبلوا قوله فلما جاؤوا إلى بروسة قال لهم: تعالوا نصل في جامع السيد البخاري وندع عنده ليحصل مرادنا فلما جاء إلى الجامع ورأى الشيخ هناك يقرأ القرآن سقط على رجله وتاب وبقي عنده سنتين ثم بعد السنتين أرسله هذا الشيخ إلى حضرة الشيخ اق شمس الدين فرباه وصار كاملاً بعد أن كان مؤمناً ناقصاً قاطع الطريق ولذا ينظر إلى الخاتمة ولكن حسن العاقبة من سبق العناية في البداية اللهم اجعلنا من المهديين آمين يا معين.

واعلم أن الإيمان والتوحيد هو أصل الأصول وهو وإن كان لا يزيد ولا ينقص عند الإمام الأعظم إلا أن نوره يزيد بالطاعات وينقص بالسيآت فينبغي لطالب الحق أن يراعي أحكام الشريعة وآداب الطريقة ليتقوى جانب روحانيته فإن أنوار الطاعات كالأغذية النفيسة للأرواح خصوصاً نور التوحيد والذكر ولذكر الله أكبر وهو العمدة في تصفية الباطن وطهارته. قال سيد الطائفة الجنيد قدس سره: الأدب أدبان فأدب السر طهارة القلب وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب فعليك بترك الشرور والإيمان الكامل بالله الغفور حتى تنال الأجر الموفور والسرور في دار الحضور، قال الصائب:

از زاهدان خشك رسايى طمع مدار سيل ضعيف وأصل دريا نميشود

فلا بدّ من العشق في طريق الحق ليصل الطالب إلى السر المطلق ومجرد الأمنية منية والسفينة لا تجري على اليبس كما قالت رابعة.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا

اَللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء**﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله عليه السلام: إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه السلام وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما نزلت التوراة ﴿**فقد سألوا موسى أكبر من ذلك**﴾ جواب شرط مقدر أي إن استكبرت ما سألوه منك واستعظمت فقد سألوا موسى شيئاً أكبر منه وأعظم وهذا السؤال وإن صدر عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون وما يذرون أسند إليهم والمعنى أن لهم في ذلك عرقاً راسخاً وإن ما اقترحوا عليك ليس بأول جهالتهم ﴿**فقالوا**﴾ الفاء تفسيرية ﴿**أرنا الله جهرة**﴾ أي: أرناه جهرة أي عياناً. والجهر حقيقة في ظهور الصوت لحاسة السمع ثم استعير لظهور المرئي بحاسة البصر ونصبها على المصدر لأن المعاينة نوع من الرؤية وهم النقباء السبعون الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الجبل حين كلمه الله تعالى سألوه أن يروا ربهم رؤية يدركونها بأبصارهم في الدنيا ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾ نار جاءت من السماء فأحرقتهم ﴿**بظلمهم**﴾ أي بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿**فقالوا أرنا الله جهرة**﴾ وما طلبوا الرؤية على موجب التعظيم أو على موجب التصديق ولا حملهم عليها شدة الاشتياق أو ألم الفراق كما كان لموسى عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولعل خرة موسى في جواب ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] كانت من شؤم القوم وما كان لنفسهم من سوء أدب هذا السؤال لئلا يطمعوا في مطلوب لم يعطه نبيهم فما اتعظوا بحال نبيهم لأنهم كانوا أشقياء والسعيد من وعظ بغيره حتى أدركتهم الشقاوة الأزلية ﴿**فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾ بأن طمعوا في فضيلة وكرامة ما كانوا مستحقيها ومن طبع كافراً ولو يرى الله جهرة فإنه لا يؤمن به ومن طبع مؤمناً عند رشاش النور بإصابته فإنه يؤمن بنبي لم يره وكتاب لم يقرأه بغير معجزة أو بينة كما كان الصديق رضي الله عنه حين قال النبي ﷺ له: «بعثت» فقال: صدقت وكما كان حال أويس القرني فإنه لم ير النبي عليه السلام ولا المعجزة وقد آمن به ﴿**ثم اتخذوا العجل**﴾ أي: عبدوه واتخذوه إلهاً ﴿**من بعد ما جاءتهم البينات**﴾ أي: المعجزات التي أظهرت لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر ونحوها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد وهذه هي الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم ﴿فعفونا عن ذلك﴾ أي تجاوزنا عنهم بعد توبتهم مع عظم جنايتهم وجريمتهم ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به. قيل: هذا استدعاء لهم إلى التوبة كأنه قيل: إن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضاً حتى نعفو عنكم. ودلت الآية على سعة رحمة الله ومغفرته وتمام نعمته ومنته وأنه لا جريمة تضيق عنها مغفرة الله وفي هذا منع من القنوط ﴿**وآتينا** موسى سلطانا مبينا﴾ أي: تسلطاً واستيلاء ظاهراً عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم فاختبأوا بأفنيتهم والسيوف تتساقط عليهم فيا له من سلطان مبين.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

﴿**ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم**﴾ الباء سببية متعلقة بالرفع. والمعنى لأجل أن يعطوا الميثاق لقبول الدين.

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبرائيل عليه السلام بقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا فرفع عنهم ﴿**وقلنا لهم**﴾ على لسان موسى والطور مشرف عليهم ﴿**ادخلوا الباب**﴾ أي: باب القرية وهي أريحا على ما روي من أنهم دخلوا أريحا في زمن موسى عليه السلام أو باب القبة التي كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى ﴿**سجدا**﴾ أي: متطامنين منحنين شكراً على إخراجهم من التيه فدخلوها زحفاً وبدلوا ما قيل لهم ﴿**وقلنا لهم**﴾ على لسان داود ﴿**لا تعدوا**﴾ أي لا تظلموا باصطياد الحيتان يقال عدا يعدو عدواً وإعداء وعدواناً أي ظلم وجاوز الحد والأصل لا تعدووا بواوين: الأولى لام الكلمة والثانية ضمير الفاعل صار بالاعلال على وزن لا تفعوا ﴿**في**﴾ يوم ﴿**السبت**﴾ وكان يوم السبت يوم عبادتهم فاعتدى فيه أناس منهم فاشتغلوا بالصيد ﴿**وأخذنا منهم**﴾ على الامتثال بما كلفوه ﴿**ميثاقا غليظا**﴾ أي: عهداً مؤكداً غاية التأكيد وهو قولهم: سمعنا وأطعنا قيل: إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأي أنواع العذاب أراد ﴿**فبما**﴾ ما مزيدة للتأكيد ﴿**نقضهم ميثاقهم**﴾ أي فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم فالباء متعلقة بفعل محذوف ﴿**وكفرهم بآيات الله**﴾ أي بالقرآن أو بما في كتابهم عندهم. ﴿**وقتلهم الأنبياء بغير الحق**﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿**وقولهم قلوبنا غلف**﴾ جمع أغلف أي هي مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ولا تفقه ما يقوله أو هو تخفيف غلف بضم الغين واللام جمع غلاف أي هي أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾ كلام معترض بين المعطوفين جيء به على وجه الاستطراد مسارعة على زعمهم الفاسد أي ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً بحسب الجبلة بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم وليست قلوبهم كما زعموا بل هي مطبوع عليها بسبب كفرهم ﴿**فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو إيماناً قليلاً لا يعبأ به لنقصانه وهو إيمانهم ببعض الرسل والكتب دون بعض أو بالإيمان الغير المعتبر لا يجب أن يسموا مؤمنين فهم كافرون حقاً.

واعلم أن نقض الميثاق صار سبباً لغضب الخلاق فعلى المؤمن أن يراعي أحكام عهده وميثاقه ليسلم من البلاء وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله فقال: «يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم وما لم يحكم

أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»، قال في «المثنوي»:

سوى لطف بى وفايان هين مرو كان پل ويران بودنيكو شنو
نقض ميثاق وعهود ازبند كيست حفظ إيمان ووفا كار تقيست
جرعه برخاك وفا آنكس كه ريخت كي تواند صيد دولت زوكريخت

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وبكفرهم﴾ عطف على قولهم أي عاقبنا اليهود بسبب كذا وكذا وبسبب كفرهم بعيسى أيضاً **﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾** يعني: نسبتها إلى الزنى وبهتاناً منصوب على أنه مفعول به نحو قال شعراً أو على المصدر الدال على النوع نحو جلست جلسة فإن القول قد يكون بهتاناً وغير بهتان **﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾** وصفهم له عليه الصلاة والسلام برسول الله إنما هو بطريق الاستهزاء به كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] فإنهم على عداوته وقتله فكيف يقولون في حقه إنه رسول الله ونظم قولهم هذا في سلك سائر جناياتهم ليس لمجرد كونه كذباً بل لتضمنه لابتهاجهم وفرحهم بقتل النبي والاستهزاء به **﴿وما﴾** أي: والحال أنهم ما **﴿قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾** أي: وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول فالفعل مسند إلى الجار والمجرور نحو خيل إليه وليس عليه.

ـ روي ـ أن رهطاً من اليهود سبوه بأن قالوا هو الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع عليه الصلاة والسلام ذلك دعا عليهم فقال: [اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقتني ولم آتهم من تلقاء نفسي اللهم فالعن من سبني وسب أمي] فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبوه وسبوا أمه قردة وخنازير فلما رأى ذلك يهودا رأس القوم وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته عليه أيضاً فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام فبعث الله تعالى جبريل فأخبره بأنه يرفعه إلى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب.
وقيل: كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى فرفع عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى وقيل إن ططيانوس اليهودي دخل بيتاً كان هو فيه فلم يجده فألقى الله تعالى شبهه عليه فلما خرج ظنوا أنه عيسى فأخذ وقتل ثم صلب وأمثال هذه الخوارق لا يستبعد في عصر النبوة.
وقال كثير من المتكلمين: إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس أنه هو المسيح والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلا بالاسم لما كان قليل المخالطة مع الناس فبهذا الطريق اندفع ما يقال إذا جاز أن يقال إن الله تعالى يلقي شبه إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة حيث يجوز أن يقال إذا رأينا زيداً لعله ليس بزيد ولكنه شخص آخر ألقى شبه زيد عليه وعند ذلك لا يبقى الطلاق والنكاح والملك موثوقاً به. لا يقال إن النصارى ينقلون عن أسلافهم أنهم شاهدوه مقتولاً لأنا نقول إن تواتر النصارى ينتهي إلى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب كذا في

«تفسير الإمام الرازي» ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس. فقال بعضهم إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا فإن الله تعالى لما ألقى شبه عيسى على المقتول ألقاه على وجهه دون جسده وقال من سمع منه أن الله يرفعني إلى السماء أنه رفع إلى السماء. وقيل: إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى فقال قوم منهم: إنه ما قتل وما صلب بل رفعه الله إلى السماء. وقال قوم منهم: إن اليهود قتلوه فزعمت النسطورية أن المسيح صلب من جهة ناسوته أي جسمه وهيكله المحسوس لا من جهة لاهوته أي نفسه وروحه. وأكثر الحكماء يختارون ما يقرب من هذا القول قالوا: لأنه ثبت أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو إما جسم لطيف في هذا البدن وإما جوهر روحاني مجرد في ذاته وهو مدبر في هذا البدن والقتل إنما ورد على هذا الهيكل وأما النفس التي هي في الحقيقة عيسى فالقتل ما ورد عليها، لا يقال كل إنسان كذلك فما وجه التخصيص، لأنا نقول: إن نفسه كانت قدسية علوية سماوية شديدة الإشراق بالأنوار الإلّهية عظيمة القرب من أرواح الملائكة والنفس متى كانت كذلك لم يعظم تألمها بسبب القتل وتخريب البدن ثم إنها بعد الانفصال عن ظلمة البدن تتخلص إلى فسحة السموات وأنوار عالم الجلال فتعظم بهجتها وسعادتها هناك ومعلوم أن هذه الأحوال غير حاصلة لكل الناس وإنما تحصل لأشخاص قليلين من مبدأ خلق آدم إلى قيام الساعة. وزعمت الملكانية من النصارى أن القتل والصلب وصل إلى اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة. وزعمت اليعقوبية منهم أن القتل والصلب وقعا بالمسيح الذي هو جوهر متولد من جوهرين. ﴿لفي شك منه﴾ أي لفي تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم والمعنى لكنهم يتبعون الظن ﴿وما قتلوه﴾ قتلاً ﴿يقينا﴾ كما زعموا بقولهم: إنا قتلنا المسيح فيقيناً نعت مصدر محذوف على أن يكون فعيلاً بمعنى المفعول وهو المتيقن ﴿بل رفعه الله إليه﴾ رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. قال الحسن البصري أي إلى السماء التي هي محل كرامة الله تعالى ومقر ملائكته ولا يجري فيها حكم أحد سواه فكان رفعه إلى ذلك الموضع رفعاً إليه تعالى لأنه رفع عن أن يجري عليه حكم العباد ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وكانت الهجرة إلى المدينة وقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] أي: إلى موضع لا يمنعني أحد من عبادة ربي والحكمة في الرفع أنه تعالى أراد به صحبة الملائكة ليحصل لهم بركته لأنه كلمة الله وروحه كما حصل للملائكة بركة صحبة آدم أبي البشر من تعلم الأسماء والعلم وأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم كما ذكر في الآية. وقيل: رفع إلى السماء لما لم يكن دخوله إلى الوجود الدنيوي من باب الشهوة وخروجه لم يكن من باب المنية بل دخل من باب القدرة وخرج من باب العزة ﴿وكان الله عزيزا﴾ لا يغالب فيما يريده فعزة الله تعالى عبارة عن كمال قدرته فإن رفع عيسى عليه السلام إلى السموات وإن كان متعذراً بالنسبة إلى قدرة البشر لكنه سهل بالنسبة إلى قدرة الله تعالى لا يغلبه عليه أحد ﴿حكيما﴾ في جميع أفعاله فيدخل فيها تدبير أنه تعالى في أمر عيسى عليه السلام دخولاً أولياً ولما رفع الله عيسى عليه السلام كساه الريش وألبسه النور وقطعه عن شهوات المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو

معهم حول العرش فكان إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً. قال وهب بن منبه بعث عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين. فإن قيل: لم لم يرد الله تعالى عيسى إلى الدنيا بعد رفعه إلى السماء. قيل: أخر رده ليكون علماً للساعة وخاتماً للولاية العامة لأنه ليس بعده ولي يختم الله به الدورة المحمدية تشريفاً لها بختم نبي مرسل يكون على شريعة محمدية يؤمن بها اليهود والنصارى ويجدد الله تعالى به عهد النبوة على الأمة ويخدمه المهدي وأصحاب الكهف ويتزوج ويولد له ويكون في أمة محمد عليه السلام خاتم أوليائه ووارثيه من جهة الولاية. وأجمع السيوطي في «تفسير الدر المنثور» في سورة الكهف عن ابن شاهين أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء عيسى وإدريس واثنان في الأرض الخضر والياس فأما الخضر فإنه في البحر وأما صاحبه فإنه في البر. قال الإمام السخاوي رحمه الله حديث «أخي الخضر لو كان حياً لزارني» من كلام بعض السلف ممن أنكر حياة الخضر.

واعلم أن الأرواح المهيمة التي من العقل الأول كلها صف واحد حصل من الله ليس بعضها بواسطة بعض وإن كانت الصفوف الباقية من الأرواح بواسطة العقل الأول كما أشار ﷺ «أنا أبو الأرواح وأنا من نور الله والمؤمنون فيض نوري» فأقرب الأرواح في الصف الأول إلى الروح الأول والعقل الأول روح عيسوي لهذا السر شاركه بالمعراج الجسماني إلى السماء وقرب عهده بعهده فالروح العيسوي مظهر الاسم الأعظم وفائض من الحضرة الإلّهية في مقام الجمع بلا واسطة اسم من الأسماء وروح من الأرواح فهو مظهر الاسم الجامع الإلّهي ووراثة أولية ونبينا عليه السلام أصالة كذا في «شرح الفصوص».

ثم اعلم أن قوماً قالوا على مريم فرموها بالزنى وآخرين جاوزوا الحد في تعظيمها فقالوا: ابنها ابن الله وكلتا الطائفتين وقعتا في الضلال. ويقال مريم كانت ولية الله فشقي بها فرقتان أهل الإفراط وأهل التفريط وكذلك كل ولي له تعالى فمنكرهم شقيّ بترك احترامهم وطلب أذيتهم والذين يعتقدون فيهم ما لا يستوجبون يشقون بالزيادة في إعظامهم وعلى هذه الجملة درج الأكثرون من الأكابر كذا في «التأويلات النجمية»، وفي «المثنوي»:

نازنينى تو ولى درحد خويش ... الله الله پامنه درحد پيش
جمله عالم زين سبب كمراه شد ... كم كسى زابدال حق آكاه شد
دير بايد تاكى سر آدمى ... آشكارا كردد ازپيش وكمى
زير ديوار بدن كنجست يا ... خانه مارست ومور وازدها

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي ما من اليهود والنصارى أحد **﴿إلا ليؤمنن به﴾** أي بعيسى **﴿قبل موته﴾** أي قبل موت ذلك الأحد من أهل الكتاب يعني إذا عاين اليهودي أمر الآخرة وحضرته الوفاة ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالت: أتاك عيسى عليه السلام نبياً فكذبت به فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف وتقول للنصراني أتاك عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله فزعمت أنه هو الله وابن الله فيؤمن بأنه عبد الله حين لا ينفعه إيمانه قالوا: لا يموت

يهودي ولا صاحب كتاب حتى يؤمن بعيسى وإن احترق أو غرق أو تردى أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو أي ميتة كانت حتى قيل لابن عباس رضي الله عنهما لو خر من بيته قال يتكلم به في الهواء قيل: أرأيت لو ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج به لسانه وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعه إيمانهم. وقيل: الضميران لعيسى والمعنى وما من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى من السماء أحد إلا ليؤمنن به قبل موته.

ـ روي ـ عن النبي عليه السلام أنه قال: «أنا أولى الناس بعيسى لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ويوشك أنه ينزل فيكم حكماً عدلاً فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض وكأن رأسه يقطر وإن لم تصبه بلل فيقتل الخنزير ويريق الخمر ويكسر الصليب ويذهب الصخرة ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير ملة الإسلام وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال حتى لا يبقى أحد من أهل الكتاب وقت نزوله إلا يؤمن به وتقع الأمنة في زمانه حتى ترتع الإبل مع الأسود والبقرة مع النمور والغنم مع الذئاب وتلعب الصبيان بالحيات لا يؤذي بعضهم بعضاً ثم يلبث في الأرض أربعين سنة ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه» وفي الحديث: «أن المسيح جاءٍ فمن لقيه فليقرئه مني السلام» **﴿ويوم القيامة يكون﴾** أي: عيسى عليه السلام **﴿عليهم﴾** أي على أهل الكتاب **﴿شهيدا﴾** فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله **﴿فبظلم من الذين هادوا﴾** أي بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الأشباه والأشكال صادر عن اليهود **﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾** ولمن قبلهم لا لشيء غيره كما زعموا فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصي التي اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم كلحوم الإبل وألبانها والشحوم.

وفي «التأويلات النجمية» نكتة قال لهم: **﴿حرمنا عليهم طيبات﴾** وقال لنا: **﴿ويحل لهم الطيبات﴾** وقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨] فلم يحرم علينا شيئاً بذنوبنا وكما آمنا من تحريم الطيبات في هذه الآية نرجو أن يؤمننا في الآخرة من العذاب الأليم لأنه جمع بينهما في الذكر في هذه الآية. وقال أهل الإشارة ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المباحات وأنا أقول الإسراف في ارتكاب المباحات يوجب حرمان المناجاة انتهى كلام «التأويلات»، قال السعدي:

مرو درپى هرچه دل خواهدت ... كه تمكين تن نور جان كاهدت

﴿ويصدهم عن سبيل الله﴾ أي: بسبب منعهم عن دين الله وهو الإسلام ناساً **﴿كثيرا﴾** أو صداً كثيراً **﴿وأخذهم الربا وقد﴾** أي: والحال أنهم قد **﴿نهوا عنه﴾** فإن الربا كان محرماً عليهم كما هو محرم علينا. وفيه دليل على أن النهي يدل على حرمة المنهي عنه **﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾** بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة **﴿وأعتدنا﴾** أي: خلقنا وهيأنا **﴿للكافرين منهم﴾** أي: للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم **﴿عذابا أليما﴾** وجيعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم سيذوقونه في الآخرة كما ذاقوا في الدنيا عقوبة التحريم.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي التائبون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وسماهم راسخين في العلم لثباتهم في العلم وتجردهم فيه لا يضطربون ولا تميل بهم الشبه بمنزلة الشجرة الراسخة بعروقها في الأرض ﴿والمؤمنون﴾ أي: من غير أهل الكتاب من المهاجرين والأنصار ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ خبر المبتدأ وهو الراسخون وما عطف عليه.

قال في «التأويلات النجمية» كان عبد الله بن سلام عالماً بالتوراة وقد قرأ فيها صفة النبي عليه السلام فلما كان راسخاً في العلم اتصل علم قراءته بعلم المعرفة فقال؟ لما رأيت وجه رسول الله ﷺ عرفت أنه ليس بوجه كذاب فآمن به ولما لم يكن للأحبار رسوخ في العلم وإن قرأوا صفة النبي عليه السلام في التوراة فلما رأوا النبي عليه السلام ما عرفوه فكفروا به انتهى ونعم ما قيل في حق الشرفاء.

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شان من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخطر

﴿و﴾ أعني ﴿المقيمين الصلاة﴾ فنصبه على المدح لبيان فضل الصلاة ﴿و﴾ هم ﴿المؤتون الزكاة﴾ فرفعه على المدح أيضاً وكذا رفع قوله تعالى: ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية ﴿أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ أي: ثواباً وافراً في الجنة على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح وهو ما أريد به وجه الله تعالى. ومن أفاضل الأعمال الصلوات الخمس وإقامتها وفي الحديث: «من حافظ منكم على الصلوات الخمس حيث كان وأين ما كان جاز الصراط يوم القيامة كالبرق اللامع في أول زمرة السابقين وجاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر وكان له كل يوم وليلة حافظ عليهن أجر شهيد» وسر هذا الحديث مفهوم من لفظ الصلاة ووجه تسميتها بها لأن اشتقاقها من الصلى وهو النار والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها يعرضونها على النار فتقوم وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة فيه وسبحات وجه الله الكريم حارة بحيث لو كشف حجابها لأحرقت تلك السبحات من ادركته ومن انتهى إليه البصر كما ورد في الحديث فبدخول المصلي في الصلاة يستقبل تلك السبحات فيصيب المصلي من وهج السطوة الإلٓهية والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه بل يتحقق به معراجه فالمصلي كالمصطلي بالنار ومن اصطلى بها زال بها اعوجاجه فلا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم وبذلك المقدار من المرور يذهب أثر دونه ولا يبقى له احتياج إلى المكث على الصراط فيمر كالبرق اللامع وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع «إن أولياء الله المصلون ومن يقيم الصلوات الخمس التي كتبهن الله عليه ويصوم رمضان ويحتسب صومه ويؤتى الزكاة محتسباً طيبة بها نفسه ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها» فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله وكم الكبائر؟ قال: «تسع أعظمهن الإشراك بالله وقتل المؤمن بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً

لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمداً في بحبوبة جنة أبوابها مصاريع الذهب».

واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين رسخوا بقدمي العمل والعلم إلى أن بلغوا معادن العلوم فاتصلت علومهم الكسبية بالعلوم العطائية اللدنية وفي الحديث: «طلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء» قالوا: يا رسول الله من المال؟ قال: «لا من العلم» وفي الحديث: «العلم إمام العمل والعمل تابعه». قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في «منهاج العابدين»: ولقد صرت من علماء أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الراسخين في العلم إن أنت عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك وكنت عبداً عالماً عاملاً لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد غير غافل فلك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكثيرة والثواب الجزيل وبناء أمر العبادة كله على العلم سيما علم التوحيد وعلم السر فلقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال: [يا داود تعلم العلم النافع] قال إلٓهي وما العلم النافع قال: [أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء فإن هذا الذي يقربك إلي] وعن علي رضي الله عنه ما يسرني أن لو مت طفلاً فأدخلت الجنة ولم أكبر فاعرف ربي فإن أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم في الله نصيحة.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

﴿**إنا أوحينا إليك**﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعاً من الرسل وإنما شأنه في حقيقة الإرسال وأصل الوحي كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحدهم في نبوتهم والوحي والإيحاء كالإعلام في خفاء وسرعة أي أنزلنا جبرائيل عليك يا محمد بهذا القرآن ﴿**كما أوحينا**﴾ أي إيحاء مثل إيحائنا ﴿**إلى نوح والنبيين من بعده**﴾ بدأ بذكر نوح لأنه أبو البشر وأول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض قيل إن نوحاً عليه السلام عمر ألف سنة لم ينقص له سن ولا قوة ولم يشب له شعر ولم يبالغ أحد من أنبياء في الدعوة ما بالغ ولم يصبر على أذى قومه ما صبر وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وكان يضرب من قومه حتى يغمى عليه فإذا أفاق عاد وبلغ وقيل هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿**وأوحينا إلى إبراهيم**﴾ عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه في حكم التشبيه أي كما أوحينا إلى إبراهيم ﴿**وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾ وهم أولاد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر رجلاً ﴿**وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان**﴾ خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم والباقين أشراف الأنبياء ومشاهيرهم وقدم ذكر عيسى على من بعده لأن الواو للجمع دون الترتيب فتقدم ذكره في الآية لا يوجب تقديمه في الخلق والإرسال والفائدة في تقديمه في

الذكر رد على اليهود لغلوهم في الطعن فيه وفي نسبه فقدمه الله في الذكر لأن ذلك أبلغ في كتب اليهود في تبرئته مما رمي به ونسب إليه ﴿وآتينا﴾ أي كما آتينا ﴿داود زبورا﴾ فالجملة عطف على أوحينا داخلة في حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء. والزبور هو الكتاب مأخوذ من الزبر وهو الكتابة. قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله عز وجل وكان داود يبرز إلى البرية ويقرأ الزبور فيقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس وتجيء الدواب التي في الجبال إذا سمعت صوت داود فيقمن بين يديه تعجباً لما يسمعن من صوته ويجيء الطير حتى يظللن على داود في خلائق لا يحصيهن إلا الله يرفرفن على رأسه وتجيء السباع حتى تحيط بالدواب والوحش لما يسمعن فلما قارف الذنب وهو تزوج امرأة أوريا من غير انتظار الوحي بجبرائيل ولم يروا ذلك فقيل ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، وعن أبي موسى الأشعري قال: قال لي رسول الله «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود» قال: فقلت أما والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته تحبيراً. وعن أبي عثمان قال: ما سمعت قط بربطا ولا مزماراً ولا عوداً أحسن من صوت أبي موسى وكان يؤمنا في صلاة الغداة فنودّ أنه يقرأ سورة البقرة من حسن صوته، قال السعدي قدس سره:

به ازروى زيباست آواز خوش — كه آن حظ نفس است واين قوت روح
وعند هبوب الناشرات على الحمى — تميل غصون البان لا الحجر الصلد

﴿ورسلاً﴾ نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه في حكم التشبيه كما قيل أي وكما أرسلنا رسلاً ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أي: سميناهم لك ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أي من قبل هذه السورة أو اليوم وعرفناك قصتهم فعرفتهم ﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ أي لم نسمهم لك والرسل هم الذين أوحي إليهم بجبريل والأنبياء هم الذين لم يوح إليهم بجبريل وإنما أوحي إليهم بملك آخر أو برؤيا في المنام أو بشيء آخر من الإلهام. وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون قال: «كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر» وفي رواية سئل عن عدد الأنبياء فقال: «مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً» والأولى أن لا يقتصر على عدد في التسمية لهذه الآية وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن ولا عبرة بالظن في الاعتقاديات ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ عطف على إنا أوحينا إليك عطف القصة على القصة وتأكيد كلم بالمصدر يدل على أنه عليه السلام سمع كلام الله حقيقة لا كما يقوله القدرية من أن الله تعالى خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام لأن ذلك لا يكون كلام الله القائم به والأفعال المجازية لا تؤكد بذكر المصادر لا يقال أراد الحائط أن يسقط إرادة. قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام، والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خصّ به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحاً في نبوة سائر الأنبياء فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه جملة قادحاً في صحة من أنزل عليه الكتاب مفصلاً مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها أن بني إسرائيل كانوا في العناد وشدّة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها إلا بعد اللتيا والتي وقد فضل

الله نبينا محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم. قال العطار:

كرده درشب سوى معراجش روان — سر كل با اونهاده درميان
رفت موسى بربساط آن جناب — خلع نعلين آمدش ازحق خطاب
چون بنزديكى شد از نعلين دور — كشت در وادى المقدس غرق نور
باز در معراج شمع ذو الجلال — مى شنود آواز نعلين بلال
موسىء عمران اكرچه بودشاه — هم نبود انجاش بانعلين راه
ابن عنايت بين كه بهر جاه او — كرد حق باچاكر دركاه او
چاكرش را كرد مردكوى خويش — دار بانعلين راهش سوى خويش
موسىء عمران چون آن رتبت بديد — چاكر اورا چنان قربت بديد
كفت يا رب امت اوكن مرا — درطفيل همت اوكن مرا
اوست سلطان وطفيل أوهمه — اوست دائم شاه وخيل اوهمه

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام لما أتى طور سيناء أنزل الله الظلمة على سبع فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه الهوام ونحّى عنه الملكين وكشف له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وكلّمه الله وناجاه حتى أسمعه كلامه من غير واسطة وكيفية وصوت وحرف ﴿رسلاً﴾ نصب على المدح أعني رسلاً ﴿مبشرين﴾ لأهل الطاعة بالجنة ﴿ومنذرين﴾ للعصاة بالنار ﴿لئلا يكون﴾ اللام متعلقة بأرسلنا ﴿للناس﴾ خبر يكون ﴿على الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من قوله ﴿حجة﴾ أي كائنة على الله. وحجة اسم يكون والمعنى: لئلا يكون للناس على الله معذرة يوم القيامة يعتذرون بها قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيبيّن لنا شرائعك ويعلّمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك وينبهنا من سنّة الغفلة لقصور القوّة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها.

ففيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء إلى الناس ضرورة وإنما سميت المعذرة حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة في فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مرد لها ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، قال النبي ﷺ: «ما أحد أغير من الله عز وجل لذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتاب» ﴿بعد الرسل﴾ أي بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأمم على ألسنتهم متعلق بحجة ﴿وكان الله عزيزاً﴾ لا يغالب في أمر من الأمور من قضية الامتناع عن الإجابة إلى مسألة المتعنتين ﴿حكيماً﴾ في جميع أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لكن الله﴾ استدراك على مفهوم ما قبله من سؤالهم على وجه التعنت أن ينزل عليهم ما وصفوه من الكتاب فهو بمنزلة قولهم لا نشهد بأن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً حتى ينزل ما سألناه فقال تعالى إنهم لا يشهدون بصدقك في دعوى الرسالة لكن الله ﴿يشهد بما أنزل إليك﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوته إن جحدوك وكذبوك فإن إنزال هذا القرآن البالغ في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته وإتيان ما يدانيه شهادة له عليه السلام بنبوته وصدقه في دعوى الرسالة من الله تعالى فمعنى شهادة الله تعالى بما أنزل إليه إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما

تثبت الدعاوى بالبينات ﴿أنزله بعلمه﴾ حال من الفاعل أي ملتبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره وهو تأليف على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزل عليه واستعداده لاقتباس الأنوار القدسية ﴿والملائكة يشهدون﴾ أيضاً بنبوتك. فإن قلت: من أين يعلم شهادة الملائكة. قلت: من شهادة الله تعالى لأن شهادتهم تبع لشهادته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججاً ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها كأنه تعالى قال: يا محمد إن كذبك هؤلاء اليهود فلا تبال بهم فإن الله تعالى وهو إله العالمين يصدقك في دعواك وملائكة السموات أيضاً يصدقونك في ذلك ومن صدقه رب العالمين والملائكة أي ملائكة العرش والكرسي والسموات السبع أجمعون لا ينبغي له أن يلتفت إلى تكذيب أخس الناس وهم هؤلاء اليهود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

﴿إن الذين كفروا﴾ أي بما أنزل الله ويشهد به وهم اليهود ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقوله: ما نعرف صفة محمد في كتابنا ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق ﴿ضلالا بعيدا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أعرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

﴿إن الذين كفروا﴾ أي بما ذكر آنفاً ﴿وظلموا﴾ أي محمداً ﷺ بإنكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصدهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله﴾ مريداً ﴿ليغفر لهم﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم﴾ لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التي هي طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة من الاستثناء بطريق الإشارة خلق الله لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم إلى اكتسابها أو سوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل: خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها ﴿أبدا﴾ نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل ﴿وكان ذلك﴾ أي جعلهم خالدين فيها ﴿على الله يسيرا﴾ لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى.

واعلم أن من كان فيه ذرة من النور المرشوش على الأرواح يوم خلقها يخرج به من النار كما قال عليه السلام: «يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من الإيمان» ومن لم يكن فيه ذلك النور يخلد في النار لأنه وقع في ظلمة عظيمة لا يمكن الخروج منها وقد ضل ضلالاً بعيداً أي من يوم رش النور لا ضلالاً قريباً من هذا اليوم لأن ضلال اليوم من نتائج ضلال ذلك اليوم ومثل هذا لا يهتدي إلى طريق الحق والقربة إلى الله تعالى فيحترق في عذاب القطيعة أبداً ولا يخرج من نار الفرقة سرمداً. فعلى العبد أن يشهد بما شهد الله تعالى به ويقبل قول الله وقول الرسول وقول وارثيه من العلماء العاملين فإنهم ينطقون عن الله وعن الرسول. قال شقيق رحمه

الله الناس يقومون من مجلسي على ثلاثة أصناف كافر محض ومنافق محض ومؤمن محض وذلك لأني أفسر القرآن وأقول عن الله عز وجل وعن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فمن لا يصدقني فهو كافر محض ومن ضاق قلبه فهو منافق ومن ندم على ما صنع وعزم على أنه لا يذنب كان مؤمناً مخلصاً وأول الأمر الاعتقاد وذلك يحتاج إلى العلم أولاً والعمل ثانياً لأنه ثمرته وسئل النبي عليه السلام عن العلم فقال: «دليل العمل» قيل: فما العقل قال عليه السلام: «قائد الخير» قيل: فما الهوى؟ قال: «مركب المعاصي» قيل فما المال؟ قال: «رداء المتكبرين» قيل: الدنيا قال: «سوق الآخرة».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

﴿**يا أيها الناس**﴾ خطاب لعامة الخلق ﴿**قد جاءكم الرسول**﴾ يعني محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ملتبساً ﴿**بالحق**﴾ وهو القرآن المعجز الذي شهد إعجازه على حقيته أو بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإعراض عما سواه فإن العقل السليم يشهد على أنه الحق ﴿**من**﴾ عند ﴿**ربكم**﴾ متعلق بجاء أي جاء من عند الله وأنه مبعوث مرسل غير متقول له ﴿**فآمنوا**﴾ بالرسول وبما جاءكم به من الحق والفاء للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها ﴿**خيرا لكم**﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الإضمار أي اقصدوا أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي آمنوا إيماناً خيراً لكم وهو الإيمان باللسان والجنان ﴿**وإن تكفروا**﴾ أي إن تصروا وتستمروا على الكفر ﴿**فإن لله ما في السموات والأرض**﴾ من الموجودات سواء كانت داخلة في حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل في جملتهم المخاطبون دخولاً أولياً أي كلها له عز وجل خلقاً وملكاً وتصرفاً لا يخرج من ملكوته وقهره شيء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غني عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم أو فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿**وكان الله عليما**﴾ مبالغاً في العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل في ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولاً أوليا ﴿**حكيما**﴾ مراعياً للحكمة في جميع أفعاله التي من جملتها تعذيبه تعالى إياهم بكفرهم.

واعلم أن النبي ﷺ صورة النور الغيبي المرسل إلى الأجساد فمن كان قابلاً لإفاضة نور دعوته فقد اهتدى ومن أخطأ فقد ضل. واتفق المشايخ على أن من ألقى زمامه في يد كلب مثلاً حتى لا يكون تردده بحكم طبعه فنفسه أقوم لقبول الرياضة ممن جعل زمامه في حكم نفسه يسترسل بها حيث شاء كالبهائم فلما تيقنت أن الواجب عليك أن تكون تابعاً لا مسترسلاً فلأن تتبع سيد المرسلين محمداً ﷺ الذي آدم ومن دونه من الأولياء والأنبياء تحت لوائه خير لك بل واجب عليك وما أعظم حماقة من يحتاط بقول المنجم في الاختلاج والفال وينقاد إلى الاحتمالات البعيدة ثم إذا آل الأمر إلى خبر النبوة عن الغيب انكر فلا تعرض لنفسك أن تصدق ابن البيطار فيما ذكره في العقاقير والأحجار فتبادر إلى امتثال ما أمرك به ولا تصدق سيد البشر ﷺ فيما يخبر عنه وتتوانى بحكم الكسل عن الإتيان بما أمر به أو فعل.

واعلم أنك لما أخرجك الله من صلب آدم في مقام ألست رددت إلى أسفل السافلين ثم

منه دعيت لترتفع بسعيك وكسبك إلى أعلى عليين حيث ما قدر لك على حسب قابليتك ولا يمكنك ذلك إلا بأمرين: أحدهما بمحبته ﷺ بأن تؤثر حبه على نفسك وأهلك ومالك، والثاني بمتابعته ﷺ في جميع ما أمر به ونهى عنه وبذلك تستحكم مناسبتك به وبكمال متابعتك يحصل لك الارتفاع إلى أوج الكمال قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني» فيه إشارة إلى أن هذا المثل مختص بالنبي عليه السلام لأن ما أنذر به من الأهوال هي التي رآها بعينيه وأما سائر الأنبياء عليهم السلام فلم يكن لهم معراج ظاهر حتى يعاينوا تلك الأهوال «وإني أنا النذير» وهو الذي يخوف غيره بالإعلام «العريان» وهو الذي لقي العدو فسلبوا ما عليه من الثياب فأتى قومه يخبرهم فصدق بعضهم لما عليه من آثار الصدق فنجوا وهذا القول مثل يضرب لشدة الأمر وقرب المحذور وبراءة المخبر من التهمة والكل موجود في النبي عليه السلام: «فالنجاء» بالمد نصب على الإغراء أي اطلبوا النجاء وهو الإسراع «فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا» أي ساروا من أول الليل «فانطلقوا على مهلهم» وهو بفتح الميم والهاء ضد العجلة «وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش» أي أتاهم صباحاً ليغير عليهم «فأهلكهم واجتاحهم» أي أهلكهم بالكلية «فذلك» أي المثل المذكور وهذا بيان لوجه المشابهة «مثل من أطاعني واتبع ما جئت به من الحق» وفيه إشارة إلى أن مطلق العصيان غير مستأصل بل العصيان مع التكذيب بالحق كذا في «شرح المشارق» لابن الملك رحمه الله تعالى، قال السعدي قدس سره:

خلاف پيمبر كسى ره كزيد ... كه هركز بمنزل نخواهد رسيد
محالست سعدى كه راه صفا ... توان رفعت جز درپى مصطفا

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

﴿**يا أهل الكتاب**﴾ الخطاب للنصارى خاصة ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ أي لا تتجاوزوا الحد في دينكم بالإفراط في رفع شأن عيسى وادعاء ألوهيته والغلو مجاوزة الحد.

واعلم أن الغلو والمبالغة في الدين والمذهب حتى يجاوز حده غير مرضي كما أن كثيراً من هذه الأمة غلوا في مذهبهم فمن ذلك الغلاة من الشيعة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى ادعوا إلهيته وكذلك المعتزلة غلوا في التنزيه حتى نفوا صفات الله وكذا المشبهة غلوا في إثبات الصفات حتى جسموه تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ولدفع الغلو كان رسول الله ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم» أي لا تتجاوزوا عن الحد في مدحي كما بالغ النصارى في مدح عيسى حتى ضلوا وقالوا إنه ولد الله «وقولوا عبد الله ورسوله» أي: قولوا في حقي إنه عبد الله ورسوله وفي تقديم العبد على الرسول كما في التحيات أيضاً نفي لقول اليهود والنصارى فإن اليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله فنحن نقول عبده ورسوله والغلو من العصبية وهي من صفات النفس المذمومة والنفس هي أمارة بالسوء لا تأمر إلا بالباطل:

مبر طاعت نفس شهوت پرست كه هر ساعتش قبله ديگرست

﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي لا تصفوه بما يستحيل اتصافه من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك. قوله إلا الحق استثناء مفرغ ونصبه على أنه مفعول به نحو قلت خطبة أو نعت مصدر محذوف أي إلا القول الحق وهو قريب من المعنى الأول ﴿إنما المسيح﴾ مبتدأ وهو لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله بالعبرية مشيحاً ومعناه المبارك ﴿عيسى﴾ بدل منه معرب من إيشوع ﴿ابن مريم﴾ صفة مفيدة لبطلان ما وصفوه به من نبوته له تعالى. ومريم بمعنى العابدة وسميت مريم مريم ليكون فعلها مطابقاً لاسمها ولكون عيسى عليه السلام منسوباً إلى أمه تدعى الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم ويدل عليه حديث التلقين بعد الدفن حيث يقال: يا فلان ابن فلانة وفي النسبة إلى الأمهات ستر منه تعالى للعباد أيضاً ﴿رسول الله﴾ خبر للمبتدأ أي أنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها وهذا هو القول الحق ﴿وكلمته﴾ عطف على رسول الله أي تكون بكلمته وأمره الذي هو كن من غير واسطه أب ولا نطفة. فإن تكوين الخلق كله وإن كان بكلمة كن له ولكن بالوسائط فإن تعلق كن بتكوين الآباء قبل تعلقه بتكوين الأبناء فلما كان تعلق أمر كن بعيسى في رحم مريم من غير تعلقه بتكوين أب له تكون عيسى بكلمة كن وكن هي كلمة الله فعبر عن ذلك بقوله وكلمته ألقاها إلى مريم يدل عليه قوله إنه مثل عيسى عند الله يعني في التكوين كمثل آدم خلقه من تراب يعني سوى جسمه من تراب ثم قال له يعني عند بعث روحه إلى القالب كن فيكون وإنما ضرب مثله بآدم في التكوين لأنه أيضاً تكون بكلمة كن من غير واسطة أب ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وروح منه﴾ عطف على كلمته ومنه صفة لروح ومن لابتداء الغاية مجازاً لا تبعيضية كما زعمت النصارى لاستحالة التجزي على الله تعالى.

ـ وروي ـ أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني وكان غلاماً حسن الوجه جداً وكان كامل الأدب جامعاً للخصال التي يتوصل بها إلى الملوك وكان الرشيد مولعاً بأن يسلم وهو يمتنع وكان الرشيد يمنيه الأماني أن أسلم فأبى فقال له ذات يوم: ما لك لا تؤمن؟ قال: إن في كتابكم حجة على من انتحله قال: وما هي قال: قوله تعالى: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ فعنى بهذا أن عيسى عليه السلام جزء منه فضاق قلب الرشيد وجمع العلماء فلم يكن فيهم من يزيل شبهته حتى قيل له: قد وفد حجاج من خراسان وفيهم رجل يقال له علي بن الحسين بن واقد من أهل مرو وهو إمام في علم القرآن فدعاه فجمع بينه وبين الغلام فسأله الغلام عن ذلك فاستعجم عليه الجواب في الوقت وقال: قد علم الله يا أمير المؤمنين في سابق علمه أن هذا الخبيث يسألني في مجلسك هذا وأنه لم يخل كتابه عن جوابه وأنه ليس يحضرني الآن ولله عليّ أن لا أطعم ولا أشرب حتى أؤدي الذي يجب من الحق ـ إن شاء الله تعالى ـ ودخل بيتاً مظلماً وأغلق عليه بابه واندفع في قراءة القرآن حتى بلغ من سورة الجاثية ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فصاح بأعلى صوته افتحوا الباب فقد وجدت الجواب ففتحوا ودعا الغلام فقرأ عليه الآية بين يدي الرشيد وقال: إن كان قوله وروح منه يوجب أن يكون عيسى بعضاً منه وجب أن يكون ما في السموات وما في الأرض بعضاً منه فانقطع النصراني وأسلم وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل علي بن الحسين الواقدي المروزي

بصلة جيدة فلما عاد علي بن الحسين إلى مرو صنف كتاباً سماه كتاب «النظائر في القرآن» وهو كتاب لا يوازيه كتاب. قيل: معنى كونه روحاً أنه ذو روح صادر منه تعالى كسائر ذوي الأرواح إلا أنه تعالى أضاف روحه إلى نفسه تشريفاً. وقيل: المراد بالروح هو الذي نفخ جبرائيل عليه السلام في درع مريم فدخلت تلك النفخة بطنها فحملت بإذن الله من ذلك النفخ سمي النفخ روحاً لأنه كان ريحاً يخرج من الروح وأضاف تعالى نفخة جبريل إلى نفسه حيث قال: وروح منه بناء على أن ذلك النفخ الواقع من جبريل كان بإذن الله تعالى وأمره فهو منه. وعن أبي بن كعب أنه قال: إن الله تعالى لما أخرج الأرواح من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم ثم ردهم إلى صلبه أمسك عنده روح عيسى إلى أن أراد خلقه ثم أرسل ذلك الروح إلى مريم فدخل في فيها فكان منه عيسى عليه السلام. قيل: خلق عيسى عليه السلام من ماء مريم ومن النفخ لا من أحدهما فقط وهو الأصح عند المحققين. قيل: خرج في ساعة النفخ. وقيل: بعد المدة الكاملة بعد ثمانية أشهر والأول هو الأصح.

وفي «التأويلات النجمية»: إن شرف الروح على الأشياء بأنه أيضاً كعيسى تكون بأمر كن بلا واسطة شيء آخر فلما تكون الروح بأمر كن وتكون عيسى بأمر كن سمي روحاً منه لأن الأمر منه تعالى كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فكما أن إحياء الأجساد الميتة من شأن الروح إذ ينفخ فيها فكذلك كان عيسى من شأنه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وكذلك كان ينفخ في الطين فيكون طيراً بإذن الله تعالى.

واعلم أن هذا الاستعداد الروحاني الذي هو من كلمة الله مركوز في جبلة الإنسان وخلق منه أي من الأمر وإنما أظهره الله في عيسى من غير تكلف منه في السعي لاستخراج هذا الجوهر من معدنه لأن روحه لم يركز في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات كأرواحنا فكان جوهره ظاهراً في معدن جسمه غير مخفي ببشرية أب وجوهرنا مخفي في معدن جسمنا ببشرية آبائنا إلى آدم فمن ظهور أنوار جوهر روحه كان الله تعالى يظهر عليه أنواع المعجزات في بدء طفوليته ونحن نحتاج في استخراج الجوهر الروحاني من المعدن الجسماني إلى نقل صفات البشرية المتولدة من بشرية الآباء والأمهات عن معادننا بأوامر أستاذ هذه الصنعة ونواهيه وهو النبي عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] فمن تخلص جوهر روحانيته من معدن بشريته وإنسانيته يكون عيسى وقته فيحيي الله بأنفاسه القلوب الميتة ويفتح به آذاناً صماً وعيوناً عمياً فيكون في قومه كالنبي في أمته فافهم جداً، وفي «المثنوي»:

عيسى اندر مهد دارد صد نفير ... كه جوان نا كشته ما شيخيم وپير
پير پير عقل بايد اى پسر ... نى سفيدى موى اندر ريش وسر
چون كرفتى پيرهين تسليم شو ... همچو موسى زير حكم خضر شو
دست را مسپار جز دردست پير ... حق شدست آن دست اوراد ستكير
چون بدارى دست خود دردست پير ... پير حكمت كو عليم اسد وخبير

ثم اعلم أنه لما كان النافخ جبرائيل والولد سرّ أبيه كان الواجب أن يظهر عيسى على صورة الروحانيين والجواب أنه إنما كان على صورة البشر ولم يظهر على صورة الروحانيين لأن الماء المحقق عند التمثل كان في أمه وهي بشر ولأجل تمثل جبريل أيضاً عند النفخ بالصورة

البشرية لأنها أكمل الصور كما أشار صلى الله تعالى عليه وسلم في تجلي الربوبية بصورة شاب قطط وظهور جبريل بصورة دحية فافهم والصورة التي تشهدها الأم وتخيلها حال المواقعة لها تأثير عظيم في صورة الولد حتى قيل: ونقل في الأخبار أن امرأة ولدت ولداً صورته صورة البشر وجسمه جسم الحية فلما سئلت عنها أخبرت أنها رأت حية عند المواقعة. وسمع أن امرأة ولدت ولد له أعين أربع ورجلاه كرجل الدب وكانت قبطية جامعها زوجها وهي ناظرة إلى دبين كانا عند زوجها ولله أسرار في تكوين الأجساد كيف يشاء وهو على كل شيء قدير كذا في «حل الرموز» **﴿فآمنوا بالله﴾** وخصوه بالألوهية **﴿ورسوله﴾** أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية يعني أن عيسى من رسله فآمنوا به كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلّهاً **﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾** أي الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم اقنوم الأب واقنوم الابن واقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود وبالثاني العلم وبالثالث الحياة **﴿انتهوا﴾** أي عن التثليث **﴿خيرا لكم﴾** أي انتهاء خيراً لكم أو ائتوا خيراً لكم من القول بالتثليث **﴿إنما الله إلّه واحد﴾** أي واحد بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإلّه خبره وواحد نعت أي منفرد في إلٰهيته **﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾** أي أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد أو سبحوه تسبيحاً من ذلك فإنه يتصور له مثل ويتطرق إليه فناء فإن التوالد إنما هو لحفظ النوع من الانقراض فلذلك لم تتوالد الملائكة ولا أهل الجنان فمن كان نشأته وتكوّنه للبقاء إذا لم يكن له ولد مع كونه حادثاً ذا أمثال فبالأولى أن لا يتخذ الله تعالى ولداً وهو أزلي منزه عن الأمثال والأشياء، وفي «المثنوي»:

لم يلد لم يولد است اواز قدم ... نه پدر دارد نه فرزند ونه عم

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقريره أي له ما فيهما من الموجودات خلقاً وملكاً وتصرفاً لا يخرج من ملكوته شيء من الأشياء التي من جملتها عيسى فكيف يتوهم كونه ولداً له تعالى. قال ابن الشيخ في حواشيه إنه تعالى في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر أن جميع ما في السموات والأرض مختص به خلقاً وملكاً للإشارة إلى أن ما زعمه المبطلون أنه ابن الله وصاحبته مملوك مخلوق له لكونه من جملة ما في السموات وما في الأرض فلا تتصور المجانسة والمماثلة بين الخالق والمخلوق والمالك والمملوك فكيف يعقل مع هذا توهم كونه ولداً له وزوجة **﴿وكفى بالله وكيلا﴾** إليه يكل كل الخلق أمورهم وهو غني عن العالمين فأنى يتصور في حقه اتخاذ الولد الذي هو شأن العجزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم أو يعينهم دلت الآية على التوحيد:

كل شيء ذاته لي شاهد ... إنما الله إله واحد

ومطلب أهل التوحيد أعلى المطالب وهو وراء الجنات وذوقهم لا يعادله نعيم.

ـ حكي ـ أن ولياً يقال له سكرى بابا يكون له في بعض الأوقات استغراق أياماً حتى يظنونه ميتاً ويضعون على فمه فداما فانتبه يوماً فأراد أن يطلق زوجته ويترك أولاده وقال: كنت في مجلس النبي عليه السلام في الملكوت مع الأرواح وكان النبي عليه السلام يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] يتكلم في مراتب التوحيد على كرسي قوائمه أربع من

الأنوار الأربعة على حسب المراتب الأربع أي من النور الأسود في مرتبة الطبيعة ومن النور الأحمر في مرتبة النفس ومن النور الأخضر في مرتبة الروح ومن النور الأبيض في مرتبة السر فقيل لي في العرش ارسلوا سكرى بابا فإن أولاده يبكون فلأجل ذلك أريد أن أترك الكل فتضرعوا وحلفوا بأن لا يفعلوا مثل ذلك أبداً ففرغ ووجه التسمية بذلك أنه كان يعطي سكراً لكل من يطلبه منه حتى طلبوا في الحمام امتحاناً له فضرب برجله رحام الحمام قال: خذوه فانقلب سكراً فاعتقدوه وزالت شبهتهم، قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: الملكوت ليس في الفوق بل الملك والملكوت عندك هنا فإن الله تعالى منزه عن الزمان والمكان والذهاب والاياب وهو معكم أينما كنتم فللسالك مرتبة ينظر فيها إلى الله وإلى الحق ويسمى تلك بالمعية ثم بعد ذلك إذا وصل إلى الفناء الكلي واضمحل وجوده يسمى ذلك بمقام الجمع ففي ذلك المقام لا يرى السالك ما سوى الله تعالى كمن أحاطه نور لا يرى الظلمة ألا يرى أن من نظر إلى الشمس لا يرى غيرها وتلك الرؤية ليس بحاسة البصر ولا كرؤية الأجسام بل كما ذكر العلماء وكمل الأولياء والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين والموحد إذا كان موحداً يوصله التوحيد إلى الملكوت والجبروت واللاهوت أعني الموحد يتخلص من الاثنينية ومن التقيد بالأكوان والأجسام والأرواح فيشاهد عند ذلك سر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] اللهم اجعلنا من الواصلين.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

﴿لن يستنكف المسيح﴾ في «أساس البلاغة» استنكف منه ونكف امتنع وانقبض أنفاً وحمية **﴿أن يكون عبدا لله﴾** أي من أن يكون عبداً له تعالى فإن عبوديته شرف يتباهى بها وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره.

- روي - أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم» قالوا: عيسى قال: «وأي شيء أقول» قالوا: تقول إنه عبد الله قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبد الله» قالوا: بلى بعار فنزلت **﴿ولا الملائكة المقربون﴾** عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً والمراد بهم الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن في طبقتهم **﴿ومن يستنكف﴾** أي: يترفع **﴿عن عبادته﴾** أي عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى: **﴿ويستكبر﴾** الاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل حيث لا استحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستحقاق **﴿فسيحشرهم إليه﴾** أي: فسيجمعهم إليه يوم القيامة **﴿جميعا﴾** المستنكف والمستكبر والمقر والمطيع فيجازيهم **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾** أي ثواب أعمالهم من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً **﴿ويزيدهم من فضله﴾** بتضعيفها أضعافاً مضاعفة وبإعطاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر **﴿وأما الذين استنكفوا﴾** أي عن عبادته تعالى: **﴿واستكبروا فيعذبهم﴾** بسبب استنكافهم واستكبارهم **﴿عذابا أليماً﴾** وجيعاً لا يحيط به الوصف

﴿ولا يجدون لهم من دون الله﴾ أي غيره تعالى ﴿ولياً﴾ يلي أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿ولا نصيراً﴾ بنصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه. واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضي أن يكون المعطوف وهو ولا الملائكة المقربون أعلى درجة من المعطوف عليه وهو المسيح حتى يكون عدم استنكافهم مستلزماً لعدم استنكافه عليه السلام. وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فإن الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقامهم السموات العلى ولا نزاع لأحد في علو درجتهم من هذه الحيثية وإنما النزاع في علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات كذا في «الإرشاد».

قال في «التأويلات النجمية» عند قوله تعالى: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ما ذكرهم للفضيلة على عيسى وإنما ذكرهم لأن بعض الكفار قالوا: الملائكة بنات الله كما قالت النصارى ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢] بل فضل الله المسيح عليهم بتقديم الذكر لأن المسيح نسب إليه بالبنوة ونسبت الملائكة إليه بالبنتية وللذكر فضيلة وتقدم على الإناث كقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] فقدم الله الذكر على الأنثى وجعل له سهمين وللأنثى واحداً فكما أن للذكر فضيلة على الأنثى فكذلك للمسيح فضيلة على الملائكة وفضيلته على الملائكة أكبر وأعظم يدل عليه ما صح عن جابر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب كما خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة قال الله تعالى: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان» وأنا أقول ومن فضيلة عيسى على الملائكة أنه اجتمع فيه ما كان شرفاً لآدم لأنه من ذريته من قبل الأم وما كان شرفاً للملائكة إذ قال له أيضاً كن فكان فقد وجد في عيسى ما لم يوجد في الملائكة ولم يوجد في الملائكة شيء لا يوجد في عيسى فافهم جداً انتهى كلام «التأويلات».

واعلم أن أعظم الاستنكاف عن عبادة الله تعالى الشرك والإعراض عن توحيده كما أن أصل الأعمال التوحيد والإيمان ثم إن الكبر من أكبر السيآت ولذا ورد في بعض الأحاديث مقابلاً للإيمان قال عليه السلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، قال السعدي قدس سره:

ترا شهوت وكبر وحرص وحسد   چوخون در ركند وچوجان در جسد
كراين دشمنان تقويت يافتند   سر ار حكم ورأى توبر تافتند

- حكي - أن قاضياً جاء إلى أبي يزيد البسطامي - رحمه الله - يوماً فقال: نحن نعرف ما تعرفه ولكن لا نجد تأثيره فقال أبو يزيد: خذ مقداراً من الجوز وعلق وعاءه في عنقك ثم ناد في البلد كل من يلطمني أدفع له جوزة حتى لا يبقى منه شيء فإذا فعلت ذلك تجد التأثير فاستغفر القاضي فقال أبو يزيد: قد أذنبت لأني أذكر ما يخلصك من كبر نفسك وأنت تستغفر منه، قال السعدي:

كسى راكه پندار در سر بود ... مپندار هركز كه حق بشنود
زعلمش ملال آيد از وعظ ننك ... شقايق بباران نرويد زسنك

فعلى العاقل أن يتواضع فإن الرفعة في التواضع وهو من أفضل العبادة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

﴿يا أيها الناس﴾ خطاب لعامة المكلفين ﴿قد جاءكم برهان﴾ كائن ﴿من ربكم وأنزلنا إليكم﴾ بواسطة النبي عليه السلام: ﴿نوراً مبيناً﴾ عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن أي جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة. والبرهان ما يبرهن به المطلوب وسمي القرآن نوراً لكونه سبباً لوقوع نور الإيمان في القلوب ولأنه تتبين به الأحكام كما تتبين بالنور الأعيان ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ حسبما يوجبه البرهان الذي أتاهم ﴿واعتصموا به﴾ أي امتنعوا به عن اتباع النفس الأمارة وتسويلات الشيطان ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله رحمة منه لا قضاء لحق واجب ﴿وفضل﴾ إحسان زائد عليه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ويهديهم إليه﴾ أي إلى الله ﴿صراطا مستقيما﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة وهو مفعول ثان ليهدي لأنه يتعدى إلى مفعولين بنفسه كما يتعدى إلى الثاني بإلى يقال هديته الطريق وهديته إلى الطريق ويكون إليه حالاً منه مقدماً عليه ولو أخر عنه كان صفة له والمعنى ويهديهم إلى صراط الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في العقبى مؤدياً ومنتهياً إليه تعالى.

والإشارة في الآية أن الله تعالى أعطى لكل نبي آية وبرهاناً ليقيم به الحجة على الأمة وجعل نفس النبي عليه السلام برهاناً منه وذلك لأن برهان الأنبياء كان في الأشياء غير أنفسهم مثل ما كان برهان موسى في عصاه وفي الحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وكان نفس النبي عليه السلام برهاناً بالكلية فكان برهان عينيه ما قال عليه السلام: «لا تستبقوني بالركوع والسجود فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي». وبرهان بصره ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]. وبرهان أنفه قال: «إني لأجد نفس الرحمان من قبل اليمن». وبرهان لسانه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤] وبرهان بصاقه ما قال جابر رضي الله عنه أنه أمر يوم الخندق لا تخبزن عجينكم ولا تنزلن برمتكم حتى أجيء فجاء فبصق في العجين وبارك ثم بصق في البرمة وبارك فأقسم بالله أنهم لأكلوا وهم ألف حتى تركوه وانصرفوا وأن برمتنا لتغط أي: تغلي وأن عجيننا ليخبز كما هو. وبرهان تفله أنه تفل في عين علي كرم الله وجهه وهي ترمد فبرىء بإذن الله يوم خيبر. وبرهان يده ما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وأنه سبح الحصى في يده، قال العطاري:

در كفش تسبيح ازان كفتى حصاد ... داعى ذرات بود آن پاك ذات

وبرهان أصبعه أنه أشار بأصبعه إلى القمر فانشق فلقتين حتى رؤي حراء بينهما:

مهر از فرمانش ازپس تافته ... ماه را انكشت او بشكافته

وبرهان ما بين أصابعه أنه كان الماء ينبع من بين أصابعه حتى شرب منه ورفعه خلق عظيم وبرهان صدره أنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وبرهان قلبه أنه تنام

عيناه ولا ينام قلبه وقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] وأمثال هذه البراهين كثيرة فمن أعظمها أنه عرج به إلى السماء حتى جاوز قاب قوسين وبلغ أو أدنى وذلك برهان لنفسه بالكلية وما أعطي نبي قبله مثله قط وكان بعد أن أوحي إليه أفصح العرب والعجم وكان من قبل أمياً لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان وأي برهان أقوى وأظهر وأوضح من هذا؟ والله أكرم هذه الأمة به ومنّ عليهم فمن آمن به إيماناً حقيقياً بنور الله لا بالتقليد فتجذبه العناية وتدخله في عالم الصفات فإن رحمته وفضله صفته ويهديه بنور القرآن وحقيقة التخلق بخلقه إلى جنابه تعالى فبالاعتصام يصعد السالك من الصراط المستقيم إلى حضرة الله الكريم ولا بد للعبد من الاعمال والاكتساب في البداية اتباعاً للأوامر الواردة في الكتب الإلٓهية والسنن النبوية حتى ينتهي إلى محض فضل الله تعالى فيكون هو المتصرف في أموره ولذلك كان النبي عليه السلام يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك» وقد قال بعض الكبار المريد من لا مذهب له يعني يتمسك بأشق الأقوال والمذاهب من جميع المذاهب فيتوضأ من الرعاف والفصد مثلاً وإن كان شافعياً ومن المس وإن كان حنفياً وتنوير الباطن لا يحصل إلا بأنوار الذكر والعبادة والمعرفة وتعين على ذلك العبادة الخالصة إذا أديت على وجه الكمال والخدمة بمقتضى السنة تصقله بإزالة خبث الشهوات والأخلاق المذمومات والتوحيد أفضل الأعمال الموصلة إلى السعادة وفي الحديث «إن الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخلون الجنة وهم يضحكون» وفي الحديث «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كأني انظر اليهم عند الصيحة ينفضون التراب عنهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» وعلى هذا الحديث أول المشايخ هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨] اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين ولا تجعلنا من الغافلين آمين.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿**يستفتونك**﴾ أي: يطلبون منك الفتوى في حق الكلالة ﴿**قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾ الإفتاء تبيين المبهم وتوضيح المشكل. والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفها في الإضافة إلى قرابتها وتطلق على من لم يخلف ولداً ولا والداً وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين والمراد هنا الثاني أي الذي مات ولم يرثه أحد من الوالدين ولا أحد من الأولاد لما روي أن جابر بن عبد الله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلالة أي لا يخلفني ولد ولا والد فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت ﴿**إن امرؤ هلك**﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله: ﴿**ليس له ولد**﴾ صفة له أي إن هلك امرؤ غير ذي ولد ذكراً كان أو أنثى ﴿**وله أخت**﴾ عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فإن فرضها السدس فقط ﴿**فلها نصف ما ترك**﴾ أي بالفرض والباقي للعصبة أولها بالرد إن لم يكن له عصبة

﴿**وهو**﴾ أي المرء المفروض ﴿**يرثها**﴾ أي أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقائه ﴿**إن لم يكن لها ولد**﴾ ذكراً كان أو أنثى فالمراد بإرثه لها إحراز جميع ما لها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا إرثه لها في الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها ﴿**فإن كانتا اثنتين**﴾ عطف على الشرطية الأولى أي اثنتين فصاعداً ﴿**فلهما الثلثان مما ترك**﴾ الضمير لمن يرث بالاخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى وفائدة الاخبار عنه باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الإثنينية التنبيه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿**وإن كانوا**﴾ أي من يرث بطريق الأخوة ﴿**إخوة**﴾ أي مختلطة ﴿**رجالاً ونساء**﴾ بدل من إخوة والأصل وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث ﴿**فللذكر**﴾ منهم ﴿**مثل حظ الأنثيين**﴾ يقسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما نزل في كتاب الله من الأحكام.

ـ روي ـ أن الصديق رضي الله عنه قال في خطبته إن الآية التي أنزلها الله تعالى في سورة النساء في الفرائض أولها في الولد والوالد وثانيها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم والآية التي ختم بها السورة في الأخت لأبوين أو لأب والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام ﴿**يبين الله لكم**﴾ أي حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التي من جملتها حكمها ﴿**أن تضلوا**﴾ أي كراهة أن تضلوا في ذلك فهو مفعول لأجله على حذف المضاف وهو أشيع من حذف لا النافية بتقدير لئلا تضلوا ﴿**والله بكل شيء**﴾ من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿**عليم**﴾ مبالغ في العلم فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم.

والإشارة في الآية أن الله تعالى لم يكل بيان قسمة التركات إلى النبي ﷺ مع أنه تعالى وكل بيان أركان الإسلام من الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج إليه وأحكام الشريعة وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وولاه بيان القرآن العظيم وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وتولى قسمة التركات بنفسه تعالى كما قال عليه السلام: «إن الله لم يرض بملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تولى قسمة التركات وأعطى كل ذي حق حقه ألا فلا وصية لوارث» وإنما لم يوله قسمة التركات لأن الدنيا مزينة للناس والمال محبوب إلى الطباع وجبلت النفس على الشح فلو لم ينص الله تعالى على مقادير الاستحقاق وكان القسم موكولاً إلى النبي عليه السلام لكان الشيطان أوقع في بعض النفوس كراهة النبي عليه الصلاة والسلام لذلك فيكون كفراً لقوله عليه السلام: «لا يكون أحدكم مؤمناً حتى أكون إليه أحب من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» كما أوقع في نفوس بعض شبان الأنصار يوم حنين إذ أفاء الله على رسوله أموال هوازن فطفق النبي عليه السلام يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل كل رجل منهم فقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس: فحدث رسول الله بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم أحداً من غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله فقال: ما حديث بلغني عنكم فقال الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئاً وأما أناس حديثة أسنانهم فقالوا كذا وكذا للذي قالوا فقال النبي ﷺ: «إنما أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر فأؤلفهم» أو قال: استألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا: أجل يا رسول الله قد رضينا فالنبي عليه السلام أزال ما أوقع الشيطان في نفوسهم بهذا اللطائف فلو كان قسم التركات إليه لكان للشيطان مجال إلى آخر الدنيا في أن يوقع الشر في

نفوس الأمة ولم يمكن إزالته من النفوس لتعذر الوصول إلى الخلق كلهم في حال الحياة وبعد الوفاة فتولى الله ذلك لأنه بكل شيء عليم ولعباده غفور رحيم:

بـرو عـلـم يـك ذره پـوشـيـده نـيـسـت كـه پـنـهـان وپـيـدا بـنـزدش يـكـيـسـت
فـرومـانـدكـانـرا بـرحـمـت قـريـب تـضـرع كـنـا نـرا بـدعـوت مـجـيـب

فحسم الكلمة بما نص على المقادير في الميراث فضلاً منه وقطعاً لمواد الخصومات بين ذوي الأرحام ورحمة على النسوان في التوريث لضعفهن وعجزهن عن الكسب وإظهاراً لتفضيل الذكور عليهن لنقصان عقلهن ودينهن وتبياناً للمؤمنين لئلا يضلوا بظن السوء بالنبي عليه السلام كما قال: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم**﴾ كذا في «التأويلات النجمية» على صاحبها النفحات القدوسية والبركات القدسية. تمت سورة النساء في أواسط جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين بعد الألف ويتلوها سورة المائدة.

٥ ـ سورة المائدة

وهي مائة وعشرون آية كلها مدنية
إلا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد وكذلك الإيفاء يقال وفى بالعهد وفاء وأوفى به إيفاء إذا أتى ما عهد به ولم يغدر والنقل إلى باب افعل لا يفيد سوى المبالغة والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود: ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ديناً إن حملنا الأمر على معنى يعم الوجوب والندب. واحتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن من نذر صوم يوم العيد أو ذبح الولد يجب عليه أن يصوم يوماً يحل فيه الصوم ويذبح ما يحل أن يتقرب بذبحه لأنه عهد وألزم نفسه ذلك فوجب عليه الوفاء بما صح الوفاء به. واحتج بها أيضاً على حرمة الجمع بين الطلقات لأن النكاح من العقود فوجب أن يحرم رفعه لقوله تعالى: **﴿أوفوا بالعقود﴾** وقد ترك العمل بعمومه في حق الطلقة الواحدة بالإجماع فبقي فيما عداه على الأصل وفي الحديث «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا الزنى في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو».

هركه أونيك ميكند يابد نيك وبد هرچه ميكند يابد

ثم إنه تعالى لما أمر المؤمنين بأن يوفوا جميع ما أوجبه عليهم من التكاليف شرع في ذكر التكاليف مفصلة فبدأ بذكر ما يحل ويحرم من المطعومات فقال عز وجل من قائل: **﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾** البهيمة كل ذات أربع وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب الخز وأفرادها لإرادة الجنس أي أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وذكر كل واحد من هذه الأنواع الأربعة زوج بأنثاه وأنثاه زوج بذكره فكان جميع الأزواج ثمانية بهذا

الاعتبار من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين على التفصيل المذكور في سورة الأنعام فالبهيمة أعم من الأنعام لأن الأنعام لا تتناول غير الأنواع الأربعة من ذوات الأربع وألحق بالأنعام الظباء وبقر الوحش ونحوهما ﴿**إلا ما يتلى عليكم**﴾ استثناء من بهيمة الأنعام بتقدير المضاف أي إلا محرم ما يتلى عليكم أي إلا الذي حرمه المتلو من القرآن من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] بعد هذه الآية أو بتقدير نائب الفاعل أي إلا ما يتلى عليكم فيه آية كريمة ﴿**غير محلي الصيد**﴾ الصيد بمعنى المصدر أي الاصطياد في البر أو المفعول أي أكل صيده بمعنى مصيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملاً واعتقاداً وهو شائع في الكتاب والسنة ﴿**وأنتم حرم**﴾ أي محرمون حال من الضمير في محلي. والحرم: جمع حرام بمعنى محرم يقال: أحرم فلان إذا دخل في الحرم أو في الإحرام وفائدة تقييد إحلال بهيمة الأنعام بما ذكر من عدم إحلال الصيد حال الإحرام إتمام النعمة وإظهار الامتنان بإحلالها بتذكير احتياجهم إليه فإن حرمة الصيد في حالة الإحرام من مظان حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذٍ كأنه قيل: أحلت لكم الأنعام مطلقاً حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها في بعض الأوقات محتاجين إلى إحلالها. ﴿**إن الله يحكم ما يريد**﴾ من تحليل وتحريم على ما توجبه الحكمة ومعنى الإيفاء بهما الجريان على موجبهما عقداً وعملاً والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم المحللات.

والإشارة في الآية ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ التي جرت بيننا يوم الميثاق وعلى عهود العشاق وعقودهم على بذل وجودهم لنيل مقصودهم عاقدوا على عهد يحبهم ويحبونه ولا يحبون دونه فالوفاء بالعهد الصبر على الجفاء والجهد فمن صبر على عهوده فقد فاز بمقصوده عند بذل وجوده ﴿**أحلت لكم بهيمة الأنعام**﴾ أي: ذبح بهيمة النفس التي هي كالأنعام في طلب المرام ﴿**إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم**﴾ يعني: إلا النفس المطمئنة إذا تليت عليها ارجعي إلى ربك فإنها تنفرت من الدنيا وما فيها فإنها كالصيد في الحرم وأنتم حرم بالتوجه إلى كعبة الوصال بإحرام الشوق إلى حضرة الجمال والجلال متجردين عن كل مرغوب ومرهوب منفردين من كل مطلوب ومحبوب ﴿**إن الله يحكم**﴾ بذبح النفس إذا كانت موصوفة بصفة البهيمة ترفع في مراتع الحيوان السفلية ويحكم بترك ذبحها ويخاطبها بالرجوع إلى حضرة الربوبية عند اطمئنانها مع ذكر الحق واتصافها بالصفات الملكية العلوية ﴿**ما يريد**﴾ كما يريد كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله**﴾ نزلت في الخطيم واسمه شريح بن ضبيعة البكري أتى المدينة من اليمامة وخلف خيله خارج المدينة ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له: إلى ما تدعو الناس؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» فقال حسن إلا إن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم لعلي اسلم وآتي بهم وقد كان النبي عليه السلام قال

لأصحابه: «يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان» ثم خرج شريح من عنده فقال عليه السلام: «لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم» فمر بسرح المدينة فاستاقه فانطلق فتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام المقبل خرج حاجاً في حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدي فقال المسلمون للنبي عليه السلام: هذا الخطيم قد خرج حاجاً فخل بيننا وبينه فقال النبي عليه السلام: «إنه قد قلد الهدي» فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية فأبى النبي عليه السلام فأنزل الله هذه الآية وكان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك. والشعائر: جمع شعيرة وهي اسم لما أشعر أي جعل شعائر أي علماً للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر والمعنى لا تتهاونوا بحرمتها ولا تقطعوا أعمال من يحج بيت الله ويعظم مواقف الحج **﴿ولا الشهر الحرام﴾** أي ولا تستحلوا القتل والغارة في الشهر الحرام وهو شهر الحج والأشهر الأربعة الحرم وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، والافراد لإرادة الجنس **﴿ولا الهدي﴾** بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله وهو ما أهدي إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاة تقرباً إلى الله تعالى جمع هدية **﴿ولا القلائد﴾** أي: ذوات القلائد من الهدي بتقدير المضاف وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي أي ولا تحلوا ذوات القلائد منها خصوصاً وهي جمع قلادة وهي ما يشد على عنق البعير وغيره من نعل أو لحاء شجرة أو غيرهما ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له **﴿ولا آمين البيت الحرام﴾** أي: ولا تحلوا قوماً قاصدين زيارة الكعبة بأي تصدوهم عن ذلك بأن وجه كان **﴿يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا﴾** حال من المستكن في آمين أي قاصدين زيارته حال كونهم طالبين الرزق بالتجارة والرضوان أي على زعمهم لأن الكافر لا نصيب له في الرضوان أي رضى الله تعالى ما لم يسلم. قال في «الإرشاد»: إنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى فوصفهم الله بظنهم وذلك الظن الفاسد وإن كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد في كونه مداراً لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية وخلاصهم من المكاره العاجلة لا سيما في ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره انتهى. وهذه الآية إلى هٰهنا منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن كافر بالهدي والقلائد. قال الشعبي: لم ينسخ من سورة المائدة إلا هذه الآية **﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾** تصريح بما أشير إليه بقوله تعالى: **﴿وأنتم حرم﴾** من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والأمر للإباحة بعد الحظر كأنه قيل وإذا حللتم من الإحرام فلا جناح عليكم في الاصطياد **﴿ولا يجرمنكم﴾** يقال جرمني فلان على أن صنعت كذا أي حملني والمعنى لا يحملنكم **﴿شنآن قوم﴾** أي: شدة بغضهم وعداوتهم وهو مصدر شنأت أضيف إلى المفعول أو الفاعل فالمعنى على الأول بغضكم لبعض فحذف الفاعل وعلى الثاني بغض قوم إياكم فحذف المفعول **﴿أن صدوكم عن المسجد الحرام﴾** أي لأن منعوكم عن زيارته والطواف به للعمرة عام الحديبية **﴿أن تعتدوا﴾** ثاني مفعولي يجرمنكم أي لا يحملنكم شدة بغضكم لهم بصدهم إياكم عن المسجد الحرام على اعتدائكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي **﴿وتعاونوا﴾** أي: ليعن بعضكم بعضاً **﴿على البر والتقوى﴾** أي:

على العفو والاغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ أي: لا يعن بعضكم بعضاً على شيء من المعاصي والظلم للتشفي والانتقام وليس للناس أن يعين بعضهم بعضاً على العدوان حتى إذا تعدى واحد منهم على الآخر تعدى ذلك الآخر عليه لكن الواجب أن يعين بعضهم بعضاً على ما فيه البر والتقوى. وأصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه إحدى التاءين تخفيفاً وإنما أخر النهي عن الأمر مع تقدم التخلية مسارعة إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى. وسئل رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق والاسم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» ﴿واتقوا الله﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهاني ﴿إن الله شديد العقاب﴾ فانتقامه أشد لمن لا يتقيه.

واعلم أن شعائر الله في الحقيقة هي مناسك الوصول إلى الله وهي معالم الدين والشريعة ومراسم آداب الطريقة بإشارة أرباب الحقيقة فإن حقيقة البر هو التفرد للحق وحقيقة التقوى هو الخروج عما سوى الله تعالى فالوصول لا يمكن إلا بهما لكنهما خطوتان لا يمكن للمريد الصادق أن يتخطى بها إلا بمعاونة شيخ كامل مكمل واصل موصل فإنه دليل هذا الطريق، قال الحافظ:

بكوى عشق منه بى دليل راه قدم كه من بخويش نمودم صد اهتمام ونشد

وقال أيضاً:

شبان وادىء ايمن كهى رسد بمراد كه چند سال بجان خدمت شعيب كند

وفي الآية إشارة إلى تعظيم ما عظمه الله من الزمان والمكان والاخوان وقد فضل الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض لتتسارع القلوب إلى احترامها وتتشوق الأرواح إلى إحيائها بالتعبد فيها ويرغب الخلق في فضائلها وفضل الأمكنة بعضها على بعض ليعظم الأجر بالإقامة فيها وخلق الناس سعيداً وشقياً والعبرة بالخاتمة وكل مخلوق من حيث إنه مخلوق الله حسن حتى أنه ينبغي أن يكون النظر إلى الكافر من حيث إنه مخلوق الله لا من حيث كفره وإن لم يرض بكفره فعلى الناظر بنظر التوحيد أن يحسن النظر ولا يحقر أحداً من خلق الله ولا يشتغل بالعداوة والبغضاء، قال السعدي قدس سره:

دلم خانه مهر يارست وبس ازان مى نكنجد دروكين كس

ومن كلمات أسد الله كرم الله وجهه العداوة شغل يعني من اشتغل بالعداوة ينقطع عن الاشتغال بالأمور المفيدة النافعة لأن القلب لا يسع الاشتغالين المتضادين.

هركه پيشه كند عداوت خلق از همه چيزها جدا كردد
كه دلش خسته عنا باشد كه تنش بسته بلا كردد

وكان ﷺ موصوفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال فعليك أن تقتدي به ولما مدح الله الأنبياء عليهم السلام ووصف كل نبي بصفة قال له تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ففعل فصار مستجمعاً لكمال خصال الخير وكان كل واحد منهم مخصوصاً بخصلة مثل نوح بالشكر وإبراهيم بالحلم وموسى بالإخلاص وإسماعيل بصدق الوعد ويعقوب وأيوب بالصبر وداود بالاعتذار وسليمان بالتواضع وعيسى بالزهد فلما اقتدى بهم اجتمع له الكل فأنت أيها

المؤمن من أمة ذلك الرسول ﷺ فاتق الله واستحي من رسول الله كي تنجو من العقاب الشديد والعذاب المديد وتظفر بالخلد الباقي بالنعيم المقيم وتنال ما نال إليه ذو القلب السليم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

﴿**حرمت عليكم الميتة**﴾ أي تناولها فإن التحليل والتحريم إنما يتعلقان بالأفعال دون الأعيان والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿**والدم**﴾ أي: الدم المسفوح أي المصبوب كالدماء التي في العروق لا الكبد والطحال وكان أهل الجاهلية يصبونها في أمعاء ويشوونها ويقولون لم يحرم من فزدله أي من فصدله ﴿**ولحم الخنزير**﴾ لعينه لا لكون ميتة حتى لا يحل تناوله مع وجود الذكاة فيه وفائدة تخصيص لحم الخنزير بالذكر دون لحم الكلب وسائر السباع أن كثيراً من الكفار ألفوا لحم الخنزير فخص بهذا الحكم وذلك أن سائر الحيوانات المحرم أكلها إذا ذبحت كان لحمها طاهراً لا يفسد الماء إذا وقع فيه وإن لم يحل أكله بخلاف لحم الخنزير. قال في «التنوير» وليس الكلب بنجس العين قال العلماء الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي ولا بد وأن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات فحرم أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ومن جملة خبائث الخنزير أنه عديم الغيرة فإنه يرى الذكر من الخنازير ينزو على انثى له ولا يتعرض له لعدم غيرته فأكل لحمه يورث عدم الغيرة ﴿**وما أهل لغير الله به**﴾ أي: رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى. قال الفقهاء: ولو سمي الذابح النبي عليه السلام مع الله فقال باسم الله ومحمد حرمت الذبيحة وفي الحديث «لعن الله من لعن والديه ولعن الله من ذبح لغير الله» قال النووي المراد به الذبح باسم غير الله كمن ذبح للصنم أو لموسى أو لغيرهما. ذكر الشيخ الماوردي أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله. وقال الرافعي: هذا غير محرم لأنهم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم كذا في «شرح المشارق» لابن ملك ﴿**والمنخنقة**﴾ أي: التي ماتت بالخنق وهو احتباس النفس بسبب انعصار الحلق وأكل المنخنقة حرام سواء حصل اختناقها بفعل آدمي أو لا مثل أن يتفق أن تدخل البهيمة برأسها بين عودين من شجرة فتختنق فتموت وكان أهل الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها وهذه المنخنقة من جنس الميتة لأنها ماتت من غير تذكية ﴿**والموقوذة**﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت من وقذته إذا ضربته. قال قتادة كانوا يضربونها بالعصي فإذا ماتت أكلوها وهي في معنى المنخنقة أيضاً لأنها ماتت ولم يسل دمها ﴿**والمتردية**﴾ التي تردت من مكان عال أو في بئر فماتت قبل الذكاة. والتردي هو السقوط مأخوذ من الردى وهو الهلاك قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا تردت رميتك من جبل فوقعت في ماء فلا تأكل فإنك لا تدري أسهمك قتلها أم الماء؟» فصار هذا الكلام أصلاً في كل موضع اجتمع فيه معنيان أحدهما

حاظر والآخر مبيح أنه يغلب جهة الحظر ولهذا قال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الربا ﴿**والنطيحة**﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح وهو بالفارسية «سروزدن» والتاء في هذه الكلمات الأربع لنقلها من الوصفية إلى الاسمية وكل ما لحقته هذه التاء يستوي فيه المذكر والمؤنث وقيل: التاء فيها لكونها صفات لموصوف مؤنث وهو الشاة كأنه قيل حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة وخصت الشاة بالذكر لكونها أعم ما يأكله الناس والكلام يخرج على الأعم الأغلب ويكون المراد الكل ﴿**وما أكل السبع**﴾ أي: وما أكل منه السبع فمات وكان أهل الجاهلية يأكلونه. والسبع اسم يقع على ما له ناب ويعدو على الإنسان والدواب ويفترسها كالأسد وما دونه وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم يحل ﴿**إلا ما ذكيتم**﴾ أي: إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح فإنه يحل لكم فأما ما صار بجرح السبع إلى حالة المذبوح فهو في حكم الميتة فلا يكون حلالاً وإن ذبحته وكذلك المتردية والنطيحة إذا أدركتها حية قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالاً ولو رمى إلى صيد في الهواء وأصابه فسقط على الأرض ومات كان حلالاً لأن الوقوع على الأرض من ضرورته وإن سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات فلا يحل وهو من المتردية إلا أن يكون السهم أصاب مذبحه في الهواء فيحل كيف ما وقع لأن الذبح قد حصل بإصابة السهم المذبح وأما ما أبين من الصيد قبل الذكاة فهو ميتة.
والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمري وهو اسم لما اتصل بالحلقوم وهو الذي يجري فيه الطعام والشراب وأقل الذكاة في الحيوان المقدور عليه قطع الحلقوم والمري وكماله أن يقطع الودجان معهما ويجوز بكل محدد من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر أو نحوها فإن جمهور العلماء على أن كل ما أفري الأوداج وأنهر الدم فهو من آلات الذكاة ما خلا السن والظفر والعظم ما لم يكن السن والظفر منزوعين لأن الذبح بهما يكون خنقاً وأما المنزوعان منهما إذا أفريا الأوداج فالذكاة جائزة بهما عندهم والذكاة الذبح التام الذي يجوز معه الأكل ولا يحرم لأن أصل الذكاة إتمام الشيء ومنه الذكاء في الفهم إذا كان تام العقل وفي الحديث «الذكاة ما بين اللبة واللحيين» فعلى هذا اللحم القديد الذي يجيء إلى دار الإسلام من دار افلاق لا يجوز أكله لأنهم يضربون رأس البقر ونحوه بفأس ومثله فيموت فلا توجد الذكاة ﴿**وما ذبح على النصب**﴾ النصب: واحد الأنصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة. قال الإمام من الناس من قال: النصب هي الأوثان وهذا بعيد لأن هذا معطوف على قوله وما أهل لغير الله به وذلك هو الذبح على اسم الأوثان ومن حق المعطوف أن يكون مغايراً للمعطوف عليه. وقال ابن جريج النصب ليست بأصنام فإن الأصنام أحجار مصورة منقوشة وهذه النصب أحجار كانوا نصبوها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للأصنام وكانوا يلطخونها بتلك الدماء ويضعون اللحوم عليها فقال المسلمون: يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ونحن أحق أن نعظمه وكان عليه السلام لم يكره ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧] إلى هنا كلام الإمام ﴿**وأن تستقسموا بالأزلام**﴾ جمع زلم وهو القدح أي وحرم عليكم الاستقسام بالقداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً

ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي وعلى الآخر نهاني ربي والثالث غفل أي خال عن الكتابة فإن خرج الآمر مضوا على ذلك وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم بواسطة ضرب القداح وقيل: هو استقسام الجزور بالقداح على الأنصباء المعلومة أي طلب معرفة كيفية قسمة الجزور وقد تقدم تفصيله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] في سورة البقرة ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿**فسق**﴾ أي: تمرد وخروج عن الحد ودخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق إليه وافتراء على الله سبحانه إن كان هو المراد بقولهم ربي وشرك وجهالة إن كان هو الصنم. فظاهر هذه الآية يقتضي أن العمل على قول المنجمين لا تخرج من أجل نجم كذا واخرج من أجل نجم كذا فسق لأن ذلك دخول في علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله كذا في «تفسير الحدادي».

واعلم أن استعلام الغيب بالطريق الغير المشروع كاستعلام الخير والشر من الكهنة والمنجمين منهي عنه بخلاف استعلام الغيب بالاستخارة بالقرآن وبصلاة الاستخارة ودعائها وبالنظر والرياضة لأنه استعلام بالطريق المشروع وإن طلب ما قسم له من الخير ليس منهياً عنه مطلقاً بل المنهي عنه هو الاستقسام بالأزلام وفي الحديث «العيافة والطرق والطيرة من الجبت» والمراد بالطرق الضرب بالحصى وفي الحديث «من تكهن واستقسم أو تطير طيرة ترده من سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة» ﴿**اليوم**﴾ اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية ونظيره قولك: كنت بالأمس شاباً واليوم قد صرت شيخاً فإنك لا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم اليوم الذي أنت فيه. وقيل: أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة يوم عرفة حجة الوداع والنبي عليه السلام واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت وأياً ما كانت فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى: ﴿**يئس الذين كفروا من دينكم**﴾ أي من إبطالكم إياه ورجوعكم عنه بأن تحللوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله محرمة أو من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿**فلا تخشوهم**﴾ أي: من أن يظهروا عليكم ﴿**واخشون**﴾ وأخلصوا إلي الخشية ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ بالهداية والتوفيق أو بإكمال الدين والشرائع أو بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهي عن حج المشركين وطواف العريان ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ أي: اخترته لكم من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. فقوله ديناً نصب حالاً من الإسلام ويجوز أن يكون رضيت بمعنى صيرت فقوله ديناً مفعول ثان له. قال جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «قال جبريل عليه السلام قال الله عز وجل هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال أي آية قال: ﴿**اليوم أكملت**﴾ الخ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي عليه السلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار عمر إلى

أن ذلك اليوم كان عيداً لنا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة، وعرفة، وعيد اليهود، والنصارى، والمجوس، ولم تجتمع أعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده.

ـ وروي ـ أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه فقال النبي عليه السلام: «ما يبكيك يا عمر» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فإذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال: «صدقت» فكانت هذه الآية تنعي رسول الله ﷺ وعاش بعدها إحدى وثمانين يوماً ومات يوم الإثنين بعدما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة. وقيل: توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر منه، قال السعدي قدس سره:

جهان أى برادر تماند بكس ... دل اندرجهان آفرين بندوبس
جهان أى پسر ملك جاويد نيست ... زدنيا وفا دارى أميد نيست
منه دل برين سال خورده مكان ... كه كنبد نپايد بر وكرد كان

﴿فمن اضطر﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب التجنب عنها وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي والمعنى فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿في مخمصة﴾ أي: مجاعة يخاف منها الموت أو مباديه ﴿غير متجانف لإثم﴾ حال من فاعل الجواب المحذوف أي فليتناول مما حرم غير مائل ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر كقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه بأكلها وهو تعليل للجواب المقدر.

ـ وروي ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله إنا نكون بأرض فتصيبنا المخمصة فمتى تحل لنا الميتة فقال: «ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تجتفوا بها بقلاً فشأنكم بها» ومن امتنع من الميتة حال المخمصة أو صام ولم يأكل حتى مات أثم بخلاف من امتنع من التداوي حتى مات فإنه لا يأثم لأنه لا يقين بأن هذا الدواء يشفيه ولعله يصح من غير علاج.

والإشارة في الآيات: أن ظاهرها خطاب لأهل الدنيا والآخرة وباطنها عتاب لأهل الله وخاصته ﴿حرمت عليكم﴾ يا أهل الحق ﴿الميتة﴾ وهي الدنيا بأسرها، قال في المثنوي:

درجهان مرده شان آرام نيست ... كين علف جز لايق أنعام نيست
هركرا كلشن بود بزم ووطن ... كى خورد أوباده اندر كولخن

﴿والدم ولحم الخنزير﴾ يعني: حلالها وحرامها قليلها وكثيرها وذلك لأن من الدم ما هو حلال والخنزير كله حرام والدم بالنسبة إلى اللحم قليل واللحم بالنسبة إلى الدم كثير ﴿وما أهل لغير الله به﴾ يعني: كل طاعة وعبادة وقراءة ودراسة ورواية تظهرون به لغير الله ﴿والمنخنقة والموقوذة﴾ يعني الذين يخنقون نفوسهم بالمجاهدات ويقذونها بأنواع الرياضات بنهيها عن المرادات وزجرها عن المخالفات للرياء والسمعة ﴿والمتردية والنطيحة﴾ الذين يردون نفوسهم من أعلى عليين إلى أسفل سافلين بالتناطح من الأقران والمماراة مع الإخوان والتفاخر بالعلم والزهد بين الاخدان وفي قوله ﴿وما أكل السبع إلا ما ذكيتم﴾ إشارة إلى أنه فيما تحتاجون إليه من القوت الضروري كونوا محترزين من أكيلة السباع وهم الظلمة الذين يتهاوشون في جيفة

الدنيا تهاوش الكلاب ويتجاذبونها بمخالب الأطماع الفاسدة إلا ما ذكيتم بكسب حلال ووجه صالح بقدر ضرورة الحال ﴿**وما ذبح على النصب**﴾ يشير إلى ما ذبح عليه النفس بأنواع الجد والاجتهاد من المطالب الدنيوية والأخروية ﴿**وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق**﴾ يعني: لا تكونوا مترددين متفئلين في طلب المرام مبتغين لحصول المقصود متهاونين في بذل الوجود فإذا انتهيتم عن هذه المناهي وتخلصتم من هذه الدواهي وأخلصتم لله في الله بالله وخرجتم من سجن الأنانية وسجين الإنسانية بالجذبات الربانية فقد عادت ليلتكم نهاراً وظلمتكم أنواراً ﴿**اليوم يئس الذين كفروا**﴾ من النفس وصفاتها والدنيا وشهواتها ﴿**من دينكم**﴾ وتيقنوا أن ما بقي لكم الرجوع إلى ملتهم ولا الصلاة إلى قبلتهم ﴿**فلا تخشوهم**﴾ فإنكم خلصتم من شبكة مكايدهم ونجوتم من عقد مصايدهم ﴿**واخشوني**﴾ فإن كيدي متين وصيدي مهين وبطشي شديد وحبسي مديد ﴿**اليوم**﴾ إشارة إلى الأزل ﴿**أكملت لكم دينكم**﴾ أي: جعلت الكمالية في الدين من الأزل نصيباً لكم من جميع أهل الملل والأديان ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ التي أنعمت بها عليكم في الأزل من الكمالية الآن بإظهار دينكم على الأديان كلها في الظاهر وأما في الحقيقة فسيجيء شرحه ﴿**ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ تستكملون به إلى الأبد بحيث من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وذلك لأن حقيقة الدين هي سلوك سبيل الله بقدم الخروج من الوجود المجازي للوصول إلى الوجود الحقيقي والإنسان مخصوص به من سائر الموجودات ولهذه الأمة اختصاص بالكمالية في السلوك من سائر الأمم فالدين من عهد آدم عليه السلام كان في التكامل بسلوك الأنبياء سبيل الحق إلى عهد النبي عليه الصلاة والسلام فكل نبي سلك في الدين مسلكاً أنزله بقربه من مقامات القرب ولكن ما خرج أحد منهم بالكلية من الوجود المجازي للوصول إلى الوجود الحقيقي بالكمال فقيل للنبي عليه السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فسلك النبي جميع المسالك التي سلكها الأنبياء بأجمعهم فلم يتحقق له الخروج أيضاً بقدم السلوك من الوجود المجازي بالكلية حتى تداركته العناية الأزلية لاختصاصه بالمحبوبية بجذبات الربوبية وأخرجته من الوجود المجازي ليلة أسري بعدما عبر به على الأنبياء كلهم وبلغ في القرب إلى الكمالية في الدنو وهو سر أو أدنى فاستسعد سعادة الوصول إلى الوجود الحقيقي في سر فأوحي إلى عبده ما أوحي وفي الحقيقة قيل له في تلك الحالة ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ ولكن في حجة الوداع في يوم عرفة عند وقوفه بعرفات أظهر على الأمة عند إظهاره على الأديان كلها وظهور كمالية الدين بنزول الفرائض والأحكام بالتمام فقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ ويدل على هذا التأويل ما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت هٰهنا لبنة فيتم بناؤها» قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم «فأنا اللبنة» متفق على صحته فصح ما قرر من مقامات الأنبياء وتكامل الدين بهم وكماليته بالنبي عليه السلام وبخروجه من الوجود المجازي بالكلية وأن الأنبياء لم يخرجوا منه بالكلية ويدل على هذا المعنى أيضاً أن الأنبياء كلهم يوم القيامة يقولون: نفسي نفسي لبقية الوجود والنبي عليه السلام «أمتي أمتي» لفناء الوجود فافهم جداً ومن كرامة هذه الأمة اشتراكهم في كمالية الدين مع النبي بمتابعته وقال: ﴿**وأتممت عليكم نعمتي**﴾ وهي

إسبال تحصيل الكمال ومعظمها بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ وهو استسلام الوجود المجازي إلى النبي وخلفائه بعده ليطرح عليه أكسير المتابعة فيبدل الوجود المجازي المحبي بالوجود الحقيقي المحبوبي كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] يعني: ويغفر بالوجود الحقيقي ذنوب الوجود المجازي فافهم جداً وتنبه ﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ يعني: فمن ابتلي بالتفاته إلى شيء من الدنيا والآخرة مضطراً إليه في غاية الاضطرار والابتلاء لسر التربية ﴿غير متجانف لإثم﴾ يعني: غير مائل إليه للإعراض عن الحق ولكن من فترة تقع للصادقين أو وقفة تكون للسالكين ثم يتداركونها بصدق الالتجاء إلى الحق وأرواح المشايخ والاستعانة بهم وطلب الاستغفار من ولاية البنين وإعانتهم ﴿فإن الله غفور﴾ لما ابتلاهم به ﴿رحيم﴾ بأن يهديهم إلى الصراط المستقيم بإقامة الدين القويم كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ ما للاستفهام وذا بمعنى الذي والمعنى ما الذي أحل لهم من المطاعم. إن قلت مفعول يسأل إنما يكون مفرداً فكيف وقع على الجملة. قلت: لتضمن السؤال معنى القول: ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ أي ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر منه كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والطيب في اللغة المستلذ المشتهىٰ فالتقدير كل ما يستلذ ويشتهي والعبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة فإن أهل البادية يستطيبون أكل جميع الحيوانات كذا قال الإمام في تفسيره ﴿وما علمتم﴾ عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصولة والعائد محذوف أي وصيد ما علمتموه ﴿من الجوارح﴾ حال من الموصول جمع جارحة بمعنى كاسبة قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وجوارح الإنسان أعضاؤه التي يكتسب بها ويحتمل أن يكون من الجرح بمعنى تفريق الاتصال فإن الجوارح تجرح الصيد غالباً. والمراد بالجوارح في الآية كل ما يكسب الصيد على أهله من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سباع الطير كالصقر والبازي والعقاب والنسر والباشق والشاهين ونحوها مما يقبل التعليم فإن صيد جميعها حلال ﴿مكلبين﴾ أي معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد ومضريها عليه مشتق من الكلب وذكر الكلب لكونه أقبل للصيد والتأديب فيه وانتصابه على الحالية من فاعل علمتم. فإن قلت يلزم أن يكون المعنى وصيد ما علمتم معلمين ولا فائدة. قلت: فائدتها المبالغة في التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع إلا على النحرير في علمه فكأنه قيل وما علمتم ماهرين في تعليم الجوارح حاذقين فيه مشتهرين به ﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية ﴿مما علمكم الله﴾ من الحيل وطرق التعليم والتأديب فإن العلم به الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه أو مما علمكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. قال صاحب «الكشاف» قوله تعالى: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ فيه تنبيه على أن كل من يأخذ علماً ينبغي أن يأخذه ممن هو متبحر في ذلك العلم غواص في بحار لطائفه وحقائقه وإن احتاج في ذلك إلى ارتكاب

سفر بعيد قال عليه السلام: «اطلبوا العلم ولو بالصين» فكم من آخذ من غير متقن ضيّع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ من تبعيضية لما أن البعض مما لا يتعلق به الأكل كالجلود والعظام والريش وما موصولة حذف عائدها وعلى متعلقة بأمسكن أي فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذي لم يأكلن منه وأما ما أكلن منه فهو مما أمسكن على أنفسهن لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم: «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسكه على نفسه» وإليه ذهب أكثر الفقهاء. وقال بعضهم ومنهم أبو حنيفة: يؤكل مما بقي من جوارح الطير ولا يؤكل مما بقي من الكلب والفرق أنه يمكن أن يؤدب الكلب على الأكل بالضرب ولا يؤدب البازي على الأكل ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضمير لما في علمتم أي سموا عليه عند إرساله أو لما في ما أمسكن أي سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. وعن أبي ثعلبة قال: قلت يا نبي الله إنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي قال: «أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل» وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ «كان يضحي بكبشين أملحين أقرنين يطأ على صفاحهما ويذبحهما بيده ويقول: باسم الله والله أكبر» كذا في «تفسير البغوي». والمستحب أن يقول بسم الله الله أكبر بلا واو لأن ذكر الواو يقطع نور التسمية كما في «شرح مختصر الوقاية» وكره ترك التوجه إلى القبلة وحلت كذا في «الذخيرة» ومتروك التسمية عمداً حرام لأنه ميتة بخلاف متروكها نسياناً فإنه حلال ﴿واتقوا الله﴾ في شأن محرماته ﴿إن الله سريع الحساب﴾ سريع إتيان حسابه أو سريع تمامه إذا شرع فيه يتم في أقرب ما يكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعاً في كل ما جل ودق ودلت الآية على إباحة الصيد. قال في «الأشباه»: الصيد مباح إلا للتلهي أو حرفة كذا في «البزازية» وعلى هذا فاتخاذه حرفة كصيادي السمك حرام.

ـ يحكى ـ عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: كان أبي من ملوك خراسان فركبت إلى الصيد فأثرت أرنباً إذ هتف بي هاتف يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ ففزعت ودفعت ثم أخذت ففعلت ثانياً ثم هتف بي هاتف من قربوس السرج والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزلت فصادفت راعي أبي ولبست جبته وتوجهت إلى مكة، ولما نزلت هذه الآية أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن اقتناء ما لا ينتفع بها وأمر بقتل الكلب العقور وبما يضر ويؤذي ورفع عما سواها مما لا ضرر فيه وفي الحديث «من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط» والحكمة في ذلك أنه ينبح الضيف ويروع السائل كذا في «تفسير الحدادي» وفي الحديث «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب» والمراد بالملائكة ملائكة الرحمة والاستغفار أي النازلون بالبركة والرحمة والطائفون على العباد للزيارة واستماع الذكر لا الكتبة فإنهم لا يفارقون المكلفين طرفة عين والمراد بالصورة صورة ذي الروح لمشابهته بيوت الأصنام وبعض الصور يعبد فأبغض إلى الخواص ما عصى الله به. وأما الكلب فلأنه نجس فأشبه المتبرز وزاد في بعض الأحاديث ولا جنب إلا أن يتوضأ، قال في «الترغيب والترهيب»: ورخص للجنب إذا نام أو أكل أو شرب أن يتوضأ ثم قيل هذا في حق كل من أخر الغسل لغير عذر ولعذر إذا أمكنه الوضوء فلم يتوضأ أو قيل هو الذي يؤخره

تهاوناً وكسلاً ويتخذ ذلك عادة انتهى. قال في «الشرعة وشرحها» لابن السيد علي: وينام بعد الوطء نومة خفيفة فإنه أروح للنفس لكن السنة فيه أن يتوضأ أولاً وضوءه للصلاة ثم ينام وكذا إذا أراد الأكل جنباً ولو أراد العود فليتوضأ والمراد به التنظف بغسل الذكر واليدين لا الوضوء الشرعي كما ذهب إليه بعض المالكية.

والإشارة في الآية أن أرباب الطلب وأصحاب السلوك ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ أو حرم عليهم من الدنيا والآخرة كما قال ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله تعالى» ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي ما لا يقطع عليكم طريق الوصول إلى الله فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب وكل مأكول ومشروب وملبوس ومقول ومعقول ومعمول طلبتموه بحظ من الحظوظ فقد لوثتموه للوث داعي الوجود فهو من الخبيثات لا يصلح إلا للخبيثين وما طلبتموه بالحق للقيام بأداء الحقوق مطيباً بنفحات الشهود فهو من الطيبات لا يصلح إلا للطيبين وفي قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ إشارة إلى أنه تعالى يحاسب العباد على أعمالهم قبل أن يفرغوا منها ويجازيهم في الحال بالإحسان إحسان القربة ورفعة الدرجة وجذبة العناية وبالإساءة إساءة البعد والطرد إلى السفل والخذلان، ونعم ما قيل: [هركه كند بخود كند ورهمه نيك بد كند] قال الصائب:

چراز غير شكايت كنم كه همچو حباب همیشه خانه خراب هواي خويشتنم

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿اليوم﴾ أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية أو يوم النزول ﴿أحل لكم الطيبات﴾ وهي ما لم تستخبثه الطباع السليمة وهي طباع أهل المروءة والأخلاق الجميلة أو ما لم يدل نص شارع ولا قياس مجتهد على حرمته ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أي: اليهود والنصارى والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها ﴿حل لكم﴾ أي: حلال وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه. وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده وقال صاحباه هما صنفان: صنف يقرأون الزبور ويعبدون الملائكة وصنف لا يقرأون كتاباً ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله عليه السلام: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم» ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون. وقال الحسن إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله وإذا غاب عنك فكل فقد أحل الله لك ﴿وطعامكم حل لهم﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه أي حل لكم أيضاً والمراد بهن الحرائر والعفائف وتخصيصهن بالذكر للبعث على ما هو الأولى لا لنفي ما عداهن فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا غير العفائف

منهن وأما الإماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ أي هن أيضاً حل لكم وإن كن حربيات وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا تحل الحربيات، قال الحدادي واستدل بعض الفقهاء بظاهر الآية على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية والصحيح أنه يجوز بظاهر قوله تعالى: ﴿**بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ**﴾ [النساء: ٢٥] بدليل حل ذبائحهن وإنما خص الله المحصنات بإباحة نكاحهن مع جواز نكاح غيرهن لأن الآية خرجت مخرج الامتنان والمنة في نكاح الحرائر العفائف أعظم وأتم يدل على ذلك أنه لا خلاف في جواز النكاح بين المسلم والأمة المؤمنة وإن كان في الآية تخصيص المحصنات من المؤمنات والأفضل لمن أراد النكاح أن لا يعدل عن نكاح الحرائر الكتابيات مع القدرة عليهن وذلك أن نكاح الأمة يؤدي إلى إرقاق الولد لأن الولد يتبع أمه في الرق والحرية ولا ينبغي لأحد أن يختار رق ولده كما لا ينبغي أن يختار رق نفسه ﴿**إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ أي: مهورهن وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى وإذا ظرفية عاملها حل المحذوف ﴿**محصنين**﴾ حال من فاعل آتيتمونهن أي حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله: ﴿**غير مسافحين**﴾أي غير مجاهرين بالزنى ﴿**ولا متخذي أخدان**﴾ أي ولا مسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والأنثى. قال الشعبي الزنى ضربان السفاح وهو الزنى على سبيل الإعلان واتخاذ الخدن وهو الزنى في السر والله تعالى حرمهما في هذه الآية وأباح التمتع بالمرأة على جهة الإحصان ﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بين هٰهنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها ﴿**فقد حبط عمله**﴾ أي بطل عمله الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿**وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ هو مبتدأ من الخاسرين خبره وفي متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق. قال الحدادي: فقد بطل ثواب عمله وهو في الآخرة من المغبونين غبن نفسه ومنزله وصار إلى النار لا يغني عن المرأة الكتابية إسلام زوجها ولا ينفعها ذلك ولا يضر المسلم كفر زوجته الكتابية، قال السعدي:

برفتند وهركس درود آنچه كشت نماند بجزنام نيكو وزشت

واعلم أن الكفر أقبح القبائح كما أن الإيمان أحسن المحاسن وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثاً» وعن كعب الأحبار أن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساماً من بين أولاده وقال: أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين. فأما الأوليان فإحداهما شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تخرق السموات السبع ولا يحجبها شيء ولو وضعت السموات والأرض وما فيهن في كفة ووضعت هي في الأخرى لرجحت. وأما الثانية: فأن تكثر من قول سبحان الله والحمد لله فإنها جامعة للثواب. وأما الأخريان فالشرك بالله والاتكال على غير الله. قال القاضي عياض انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب لكن بعضهم يكون أشد من بعض بحسب جرائمهم وأما حسناتهم فمقبولة بعد إسلامهم على ما ورد في الحديث. قال في «نصاب الاحتساب» ما يكون كفراً بلا خلاف يوجب إحباط العمل ويلزمه إعادة الحج إن كان قد حج ويكون وطؤه مع امرأته حراماً والولد المتولد في هذه الحالة يكون ولد الزنى وإن كان أتى بكلمة الشهادة بعد ذلك إذا كان الإتيان على وجه العادة ولم يرجع عما قال لأن الإتيان

بكلمة الشهادة على وجه العادة لا يرفع الكفر وما كان في كونه كفراً اختلاف فإن قائله يؤمر بتجديد النكاح والتوبة والرجوع عن ذلك بطريق الاحتياط وأما ما كان خطأ من الألفاظ ولا يوجب الكفر فقائله مؤمن على حاله ولا يؤمر بتجديد النكاح ويؤمر بالاستغفار والرجوع عن ذلك انتهى كلام النصاب. والرجل والمرأة في ذلك سواء حتى لو تكلمت المرأة بما يكون كفراً تبين من زوجها، فعلى العبد الصالح أن يختار من النساء صالحة عفيفة متقية. قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده افندي قدس سره: لا تعطى الولاية لولد الزنى قال: واشكر الله تعالى على أن جعلني أول ولد ولدته أمي فإنه أبعد من أن يصدر ألفاظ الكفر من أحد أبوي قال وارثه الأكبر الشيخ الشهير بالهدايى قدس سره قلت والفقير كذلك.

والإشارة في الآية ﴿**أحل لكم**﴾ يا أرباب الحقيقة في اليوم الذي قدر كمالية الدين فيه لكم في الأزل جميع ﴿**الطيبات**﴾ التي تتعلق بسعادة الدارين بل أحل لكم التخلق بالأخلاق الطيبات وهي أخلاق الله المنزهات عن الكميات والكيفيات المبرءات من النقائص والشبهات ﴿**وطعام الذين أوتوا الكتاب**﴾ وفي الحقيقة هم الأنبياء عليهم السلام ﴿**حل لكم**﴾ أي: غذيتم بلبان الولاية كما غذوا بلبان النبوة من حلمتي الشريعة والحقيقة. ﴿**وطعامكم حل لهم**﴾ يعني: منبع لبن النبوة والولاية واحد وإن كان الثدي اثنين فشربتم لبان ألطافنا من مشرب الولاية وشرب الأنبياء لبان أفضالنا من مشرب النبوة قد علم كل أناس مشربهم وللنبي عليه السلام شركة في المشارب كلها وله اختصاص في مجلس المقام المحمود من المحبوب بمشرب «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» لا يشاركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿**و**﴾ كذلك حل لكم ﴿**المحصنات من المؤمنات**﴾ وهي أبكار حقائق القرآن التي أحصنت من أفهام الأزواج المؤمنات بها وهي أزواج العلماء وخواص هذه الأمة ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ وهي أبكار حقائق الكتب المنزلة على الأمة السالفة التي أحصنت من الذين أنزل عليهم الكتب وأدرجت في القرآن وأخفيت لكم كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ [السجدة: ١٧] يعني في القرآن ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وهي أبكار حقائق جميع الكتب المنزلة فافهم جداً كلها لكم ﴿**وإذا آتيتموهن أجورهن**﴾ أي: مهور هذه الأبكار وهي بذل الوجود ﴿**محصنين**﴾ يعني: متعففين في بذل الوجود فيكون على وجه الحق وبتصرف المشايخ الواصلين ﴿**غير مسافحين**﴾ على وفق الطبع وخلاف الشرع وبتصرف الهوى ﴿**ولا متخذي أخدان**﴾ يعني: في بذل الوجود لا يكون ملتفتاً إلى شيء من الكونين ولا إلى أحد في الدارين سوى الله ليكون هو المشرب ومنه الشراب وهو الحريف والساقي ﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ بهذه المعاملات والكمالات إذ حرم من العيان من هذه السعادات. ﴿**فقد حبط عمله**﴾ الذي عمله على العمياء والتقليد. ﴿**وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ الذين خسروا الدنيا والعقبى والمولى كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ المراد بالقيام إما القيام الذي هو من أركان الصلاة فالتقدير إذا أردتم القيام لها بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب لأن الجزاء لا بد وأن يتأخر عن الشرط يعني صحة قيام الصلاة بالطهارة، وإما القيام الذي هو من مقدمات مباشرة الصلاة فالتقدير إذا قصدتم الصلاة إطلاقاً لاسم أحد لازميها على لازمها الآخرة فالوضوء من شرائط القيام الأول دون الثاني وهذا الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال فلا يلزم الوضوء على كل قائم إلى الصلاة سواء كان محدثاً أم لا كما يقتضيه ظاهر الآية ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ الغسل إجراء الماء على المحل وتسييله سواء وجد معه الدلك أم لا والوجه ما يواجهك من الإنسان وحده من قصاص الشعر إلى أسفل الذقن طولاً ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً يجب غسل جميعه في الوضوء ويجب إيصال الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار والعنفقة وإن كانت كثيفة وعند الأمام لا يجب غسل ما تحت الشعر ففرض اللحية عنده مسح ما يلاقي الوجه دون ما استرسل من الذقن لأنه لما سقطت فرضية غسل ما تحت اللحية انتقلت فرضيته إلى خلفه وظاهر الآية أن المضمضة والاستنشاق غير واجبين في الوضوء لأن اسم الوجه يتناول الظاهر دون الباطن فهما من السنن ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول ولذلك قيل إلى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢] والمرافق جمع مرفق وهو مجتمع طرفي الساعد والعضد ويسمى مرفقاً لأنه الذي يرتفق به أي يتكأ عليه من اليد. ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ الباء مزيدة كما ألقى بيده. والمسح الإصابة وقدر الواجب عند أبي حنيفة ربع الرأس لأنه عليه السلام مسح على ناصيته وهو قريب من الربع فإن للرأس جوانب أربعة ناصية وقذال وفودان والقذال مؤخر الرأس خلف الناصية وفوداً الرأس جانباه، في «الواقعات المحمودية» قال حضرت الشيخ الشهير بافتاده أفندي: انكشف لي وجه الاختلاف في مقدار مسح الناصية وهو أن بدن الإنسان مربع فبالقياس إليه ينبغي أن يكون الممسوح ربع الرأس وأما اعتبار قدر ثلاثة أصابع فبالنظر إلى حال نفس الرأس فإنه مسدس والسدس فيه قدر ثلاثة أصابع، قال المرحوم حضرة محمود الهدايي: قلت فحينئذٍ ينبغي أن يكون الاعتبار الأخير أولى لأنه بالنظر إلى حال نفسه بخلاف الأول لأنه بالقياس إلى البدن، فقال حضرة الشيخ أفتاده: وجه أولوية الأول أن البدن أكثر من الرأس فاتباع الأقل بالأكثر أولى انتهى. قال الحدادي: وأما مسح الأذنين فهو سنة فيمسح ظاهر أذنيه بإبهاميه وظاهرهما بمسبحتيه بماء الرأس وأما مسح الرقبة فمستحب. وفي الحديث: «من مسح رقبته في الوضوء أمن من الغل يوم القيامة» ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ بالنصب عطفاً على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يعهد محدوداً وإنما جاء التحديد في المغسولات. قال في «الأشباه»: غسل الرجلين أفضل من المسح على الخفين لمن يرى جوازه وإلا فهو أفضل وكذا بحضرة من لا يراه انتهى وذهبت الروافض إلى أن الواجب في الرجلين المسح ورووا في المسح خبراً ضعيفاً شاذاً. قال صاحب «الروضة»: خف الروافض مثل في السعة لأنه لا يرى المسح على الخف ويرى المسح على الرجلين فيوسعه ليتمكن من إدخال يده فيه ليمسح برجله. وعن ابن المغيرة عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر فقال: «أمعك ماء» قلت: نعم فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عني في سواد الليل ثم جاء فأفرغت عليه من

الإداوة، فغسل وجهه ويديه وعليه جبة من الصوف فلم يستطع أن يخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبة فغسل ذراعيه ثم مسح برأسه ثم أهويت لأنزع خفيه فقال: «دعهما فإني أدخلتهما طاهرين فمسح عليهما» كذا في «تفسير البغوي». وأطبق العلماء على أن وجوب الوضوء مستفاد من هذه الآية ومن سنته النية فينوي رفع الحدث أو إقامة الصلاة ليقع قربة واستعمال السواك في غلظة الخنصر وطول الشبر حالة المضمضة تكميلاً للإنقاء أو قبل الوضوء وعند فقده يعالج بالأصابع وينال بالأصبع ثواب السواك. وفي «الهداية»: الأصح أن السواك مستحب. وعن مجاهد قال أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم أتاه فقال له النبي عليه السلام: «ما حبسك يا جبريل» قال: وكيف آتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم ولا تنقون براجمكم ولا تستاكون ثم قرأ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] والبراجم: مفاصل الأصابع والعقد التي على ظاهرها يجتمع فيها من الوسخ وفي الحديث: «نقوا براجمكم» فأمر بتنقيتها لئلا تدرن فتبقى فيها الجنابة ويحول الدرن بين الماء والبشرة وفي الحديث: «نظفوا لثاتكم» جمع لثة بالتخفيف وهي اللحمة التي فوق الأسنان دون الأسنان فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وحل الطعام فتتغير عليه النكهة وتتنكر الرائحة ويتأذى الملكان لأنه طريق القرآن ومقعد الملكين وتنفر الملائكة من الرائحة الكريهة وفي الحديث «إن العبد إذا تسوك ثم قام يصلي قام الملك خلفه فيستمع لقراءته فيدنو منه حتى يضع فاه على فيه فما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك فطهروا أفواهكم للقرآن» وفي الحديث: «ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك» ويقول المتوضي بعد التسمية [الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً]. وعند المضمضة [اللهم اسقني من حوض نبيك كأساً لا أظمأ بعدها أبداً اللهم أعني على ذكرك وشكرك وتلاوة كتابك]. وعند الاستنشاق [اللهم لا تحرمني من رائحة نعيمك وجنانك] أو يقول [اللهم أرحني رائحة الجنة ولا ترحني رائحة النار]. وعند غسل الوجه [اللهم بيض وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه] أو يقول: [اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بذنوبي يوم تسود وجوه أعدائك]. وعند غسل اليد اليمنى: [اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً] وعند غسل اليد اليسرى [اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري]. وعند مسح الرأس: [اللهم حرم شعري وبشري على النار وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم غشني برحمتك وأنزل عليّ من بركاتك]. وعند مسح الأذنين [اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه]. وعند مسح رقبته: [اللهم أعتق رقبتي من النار]. وعند غسل الرجل اليمنى: [اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل فيه الأقدام]. وعند غسل الرجل اليسرى [اللهم اجعل لي سعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وعملاً مقبولاً وتجارة لن تبور] ويقول بعد الفراغ: [أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين الذين أنعمت عليهم واجعلني من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون]. والحكمة في تخصيص الأعضاء الأربعة في الوضوء: أن آدم عليه السلام لما توجه إلى الشجرة بالوجه وتناولها باليد ومشى إليها بالرجل ووضع يده على رأسه أمره بغسل هذه الأعضاء تكفيراً للخطايا وقد جاء في الحديث: «إن العبد إذا غسل وجهه خرجت خطاياه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه» وكذلك في بقية الأعضاء.

وقيل: خص بغسل هذه الأعضاء الأمة المحمدية ليكونوا غراً محجلين بين الأمم كما روي أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله قال: «أنتم أصحابي وإخواننا الذين يأتون بعد» قالوا: كيف تعرف من يأتون بعد من أمتك يا رسول الله فقال: «أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين أظهر خيل دهم بهم ألا يعرف خيله» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء وانا فرطهم على الحوض».

واعلم أن النبي ﷺ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضي الله عنه صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال عليه السلام: «عمداً فعلته يا عمر» يعني بياناً للجواز غير أنه يستحب تجديد الوضوء لكل فرض وفي الحديث «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» وللتجديد أثر ظاهر في تنوير الباطن. وكان بعض أهل الله يتوضأ عند الغيبة والكذب والغضب لظهور غلبة النفس وتصرف الشيطان فالوضوء هو النور الذي به تضمحل ظلمات النفس والشيطان. وكان على وجه بعضهم قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة لضرر الماء له. وكان مع ذلك لم يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة. ونزل في عين بعضهم ماء أسود فقال الكحال: لا بد من ترك الوضوء أياماً وإلا فلا يعالج فاختار ذهاب بصره على ترك الوضوء. ودواء الطهارة مستجلب لمزيد الرزق كما قال عليه السلام: «دم على الطهارة يوسع عليك الرزق» والسنة أن يصلي بعد الوضوء ركعتين تسمى شكر الوضوء.

ـ روي ـ أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دق نعليك بين يدي في الجنة» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي قال في «الأسرار المحمدية»: لابن فخر الدين الرومي: ويصلي شكر الوضوء وإن في الأوقات المكروهة لا الأوقات المحرمة كما قبل صلاة الفجر وبعدها وبعد صلاة العصر أيضاً لأنها من الصلوات ذوات الأسباب. وأما الأوقات المحرمة كطلوع الشمس وزوالها وغروبها فلا تجوز فيه أصلاً فيصبر إلى وقت إباحة الصلاة فيصليها حينئذٍ إلا إذا كان بمكة. عن جبير أن النبي عليه السلام قال: «يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار» وعن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ولا بعد العصر حتى تغرب الشمس إلا بمكة إلا بمكة إلا بمكة» انتهى كلام الأسرار.

والإشارة في الآية أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ هو خطاب مع الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عند خطاب ألست بربكم بقولهم بلى. وهم أهل الصف الأول يوم الميثاق آمنوا بعدما عاينوا. وأهل الصف الثاني آمنوا إذ شاهدوا. وأهل الصف الثالث آمنوا إذ سمعوا الخطاب. وأهل الصف الرابع آمنوا تقليداً لا تحقيقاً لأنهم ما عاينوا ولا شاهدوا ولا سمعوا خطاب الحق بسمع الفهم والدراية بل سمعوا سماع القهر والنكاية فتحيروا حتى سمعوا جواب أهل الصفوف الثلاثة إذ قالوا بلى فقالوا بتقليدهم بلى فلا جرم هٰهنا ما آمنوا وهم الكفار وإن آمنوا ما آمنوا على التحقيق بل بالتقليد أو بالنفاق وهم المنافقون. وأهل الصف الثالث هم المسلمون وعوام المؤمنين فكما آمنوا هناك بسماع الخطاب فكذلك هٰهنا آمنوا بسماع كقوله تعالى: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. وأما أهل

الصف الثاني وهم خواص المؤمنين وعوام الأولياء فكما أنهم آمنوا هناك إذ شاهدوا فكذلك هٰهنا آمنوا بشواهد المعرفة كما قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المائدة: ٨٣] ومن هٰهنا قال بعضهم ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه. وأما أهل الصف الأول وهم الأنبياء وخواص الأولياء فكما آمنوا هناك إذ عاينوا فكذلك هٰهنا آمنوا إذ عاينوا كقوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وذلك في ليلة المعراج إذ أوحى إلى عبده ما أوحى قال: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه وكان إيمان موسى عليه السلام نوعاً من هذا فلما أفاق قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقال علي رضي الله عنه: لم أعبد رباً لم أره. وقال بعضهم: رأى قلبي ربي وقال آخر: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه فخاطب أهل الصف الأول بقوله يا أيها الذين آمنوا تحقيقاً ثم أهبطوا عن ممالك القرب إلى مهالك البعد ومن رياض الأنس إلى سباخ الأنس ﴿إذا قمتم﴾ من نوم الغفلة انتبهتم من رقدة الفرقة ﴿إلى الصلاة﴾ هي معراجكم للرجوع إلى مقام قربكم كما قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ التي توجهتم بها إلى الدنيا ولطختموها بالنظر إلى الأغيار بماء التوبة والاستغفار ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي: واغسلوا أيديكم عن التمسك بالدارين والتعلق بما في الكونين حتى الصديق الموافق والرفيق المرافق. ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ ببذل نفوسكم ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ أي: واغسلوا أرجلكم عن طين طينتكم والقيام بأنانيتكم كذا في «التأويلات النجمية»، قال الحافظ قدس سره:

من هما ندم كه وضو ساختم از چشمه عشق   چار تكبير زدم يكسره پرهرچه كه هست

﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي: فتطهروا أدغمت تاء التفعل في الطاء لقرب مخرجهما واجتلبت همزة الوصل ليمكن الابتداء فقيل: اطهروا وهذا التطهر عبارة عن الاغتسال والإطهار هو التطهر بالتكلف والمبالغة فلا يكون إلا بغسل جميع ظاهر البدن حتى لو بقي العجين بين أظفاره ويبس لم يجز غسله لأن الماء لا يصل تحته ولو بقي الدرن جاز إلا أن ما تعذر إيصال الماء إليه كداخل العين ساقط بخلاف باطن الأنف والفم حيث يمكن غسلهما ولا ضرر فيه فيجب. والدلك ليس بفرض لأنه متمم فيكون مستحباً وليس البدن كالثوب لأن النجاسة تخللت فيه دون البدن. ففرض الغسل غسل الفم والأنف وسائر البدن، وسننه: غسل يديه لكونهما آلة التطهر. وفرجه لأنه مظنة النجاسة ونجاسة حقيقية إن كانت على سائر بدنه لئلا تتلاشى عند إصابة الماء. والوضوء وضوءه للصلاة إلا أنه يؤخر غسل رجليه إلى ما بعد صب الماء على جميع بدنه إن كانتا في مستنقع الماء تحرزاً على الماء المستعمل وتثليث الغسل المستوعب هكذا حكي غسل رسول الله. ويبتدىء بمنكبه الأيمن ثم الأيسر ثم الرأس في الأصح. وليس على المرأة نقض ضفيرتها ولا بلها إن بل أصلها لأن كون الشعر من البدن باعتبار أصوله فيكتفي ببل أصوله فيما فيه حرج وفيما لا حرج فيه يجب إيصال الماء إلى جميعه كالضفيرة المفتولة وحكم المنقوضة ليس كذلك بل يجب إيصال الماء إلى جميعها لعدم الحرج فيها. والرجل يجب عليه إيصال الماء إلى جميع شعره والفرق أن حلق الشعر للمرأة مثلة دون الرجل والحرج مندفع عنه بغير الضفيرة وأدنى ما يكفي من الماء في الغسل صاع وفي الوضوء مد والصاع ثمانية أرطال والمد رطلان لما روي أن النبي عليه السلام كان يغتسل بالصاع

ويتوضأ بالمد، ثم اختلفوا هل المد من الصاع أو من غيره؟ فهذا ليس بتقدير لازم حتى لو أسبغ الوضوء والغسل بدون ذلك جاز ولو اغتسل بأكثر منه جاز ما لم يسرف فهو المكروه كذا في «الاختيار شرح المختار». والجنب الصحيح في المصر: إذا خاف الهلاك من الاغتسال جاز له التيمم في قولهم. وأما المحدث في المصر إذا خاف الهلاك من التوضىء اختلفوا فيه على قول أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ والصحيح أنه لا يباح له التيمم كذا في فتاوى «قاضي خان». والمرأة إذا وجب عليها الغسل ولم تجد سترة من الرجال تؤخره والرجل إذا لم يجد سترة من الرجال لا يؤخره ويغتسل. وفي الاستنجاء: إذا لم يجد سترة يتركه والفرق أن النجاسة الحكمية أقوى والمرأة بين النساء كالرجل بين الرجال كذا في «الأشباه» وفي الحديث: «ثلاثة لا تقربهم الملائكة جيفة الكافر والمتضمخ بالخلوف والجنب إلا أن يتوضأ» وفي الحديث: «لا ينقع بول في طست في البيت فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه بول منتقع ولا تبولنّ في مغتسلك».

وفي الاغتسال منافع بدنية وفوائد دينية: منها مخالفة الكفار فإنهم لا يغتسلون وإزالة الدنس والأبخرة الرديئة النفسانية التي تورث بعض الأمراض وتسكين حرارة الشهوات الطبيعية، قال الشيخ النيسابوري في كتاب «اللطائف»: فوائد الطهارة عشر: طهارة الفؤاد وهو صرفه عما سوى الله تعالى، وطهارة السر المشاهدة، وطهارة الصدر الرجاء والقناعة، وطهارة الروح الحياء والهيبة، وطهارة البطن أكل الحلال والعفة عن أكل الحرام والشبهات، وطهارة البدن ترك الشهوات وإزالة الأدناس، وطهارة اليدين الورع والاجتهاد، وطهارة اللسان الذكر والاستغفار. قال الثعلبي في تفسير هذه الآية: قال علي رضي الله عنه أقبل عشرة من أحبار اليهود فقالوا: يا محمد لماذا أمر الله بالغسل من الجنابة ولم يأمر من البول والغائط وهما أقذر من النطفة فقال ﷺ: «إن آدم لما أكل من الشجرة تحول في عروقه وشعره فإذا جامع الإنسان نزل من أصل كل شعرة فافترضه الله عليّ وعلى أمتي تطهيراً وتكفيراً وشكراً لما أنعم الله عليهم من اللذة التي يصيبونها».

قال في «بدائع الصنائع في أحكام الشرائع» إنما وجب غسل جميع البدن بخروج المني ولم يجب بخروج البول والغائط وإنما وجب غسل الأعضاء المخصصة لا غير لوجوه: أحدها أن قضاء الشهوة بإنزال المني استمتاع بنعمة يظهر أثرها في جميع البدن وهي اللذة فأمر بغسل جميع البدن شكراً لهذه النعمة وهذا لا يتقدر في البول والغائط، والثاني: أن الجنابة تأخذ جميع البدن ظاهره وباطنه لأن الوطء الذي هو سببها لا يكون إلا باستعمال جميع ما في البدن من القوة حتى يضعف الإنسان بالإكثار منه ويقوى بالامتناع عنه وإذن أخذت الجنابة جميع البدن الظاهر والباطن بقدر الإمكان ولا كذلك الحدث فإنه لا يأخذ إلا الظاهر من الأطراف لأن سببه يكون بظواهر الأطراف من الأكل والشرب ولا يكون باستعمال جميع البدن فأوجب غسل ظاهر الأطراف لا سائر البدن. والثالث: أن غسل الكل أو البعض وجب وسيلة إلى الصلاة التي هي خدمة الرب سبحانه والقيام بين يديه وتعظيمه فيجب أن يكون المصلى على أطهر الأحوال وأنظفها ليكون أقرب إلى التعظيم وأكمل في الخدمة وكمال تعظيم النظافة يحصل بغسل جميع البدن وهذا هو العزيمة في الحدث أيضاً إلا أن ذلك مما يكثر وجوده فاكتفى منه بأكثر النظافة وهي تنقية الأطراف التي تنكشف كثيراً ويقع عليها الأبصار أبداً وأقيم ذلك مقام غسل كل البدن دفعاً للحرج وتيسيراً وفضلاً من الله ورحمة ولا حرج في الجنابة لأنها لا تكثر

فبقي الأمر فيها على العزيمة انتهى كلام البدائع هذا غسل الحي، وأما غسل الميت فشريعة ماضية لما روي أن آدم عليه السلام لما قبض نزل جبريل بالملائكة وغسلوه وقالوا لأولاده هذه سنة موتاكم وفي الحديث «للمسلم على المسلم ستة حقوق ومن جملتها أن يغسله بعد موته» ثم هو واجب عملاً بكلمة على ولكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين لحصول المقصود وأريد بالسنة في حديث آدم الطريقة ولو تعين واحد لغسله لا يحل له أخذ الأجرة عليه وإنما وجب غسل الميت لأنه تنجس بالموت كسائر الحيوانات الدموية إلا أنه يطهر بالغسل كرامة له ولو وجد ميت في الماء فلا بد من غسله لأن الخطاب بالغسل توجه لبني آدم ولم يوجد منهم فعل. وقيل: إن الميت إذا فارقته الروح وارتاح من شدة النزع أنزل فوجب على الأحياء غسله كذا في حل «الرموز وكشف الكنوز» والفرق بين غسل الميت والحي أنه يستحب البداءة بغسل وجه الميت بخلاف الحي فإنه يبدأ بغسل يديه ولا يمضمض ولا يستنشق بخلاف الحي ولا يؤخر غسل رجليه بخلاف الحي إن كان في مستنقع الماء ولا يمسح رأسه في وضوء الغسل بخلاف الحي في رواية كذا في «الأشباه».

والإشارة في الآية ﴿**وإن كنتم جنباً**﴾ بالالتفات إلى غيرنا ﴿**فاطهروا**﴾ بالنفوس عن المعاصي وبالقلوب عن رؤية الطاعات وبالأسرار عن رؤية الأغيار وبالأرواح عن الاسترواح من غيرنا وبسر السر عن لوث الوجود فلا بد من الطهارة مطلقاً، قال الحافظ:

چون طهارت نبود كعبه وبتخانه يكيست نبود خير دران خانه كه عصمت نبود

وفي وجوب الغسل إشارة وتنبيه إلى وجوب الغسل الحقيقي لوجود القلب والروح ولتلوثه بحب الدنيا وشهواتها فيجب غسلها بماء التوبة والندامة والإخلاص فهو أوجب الواجبات وآكدها واستقصاء أهل الله في تطهير الباطن أكثر وأشد من استقصائهم في طهارة الظاهر وقد يكون في بعض متصوفة الزمان تشدد في الطهارة فلو اتسخ ثوبه يغسله ولا يبالي بما في باطنه من الغل وسائر الصفات الذميمة، قال السعدي قدس سره:

كراجامه پاكست وسيرت پليد دردوز خش را نبايد كليد

والقرآن لا يمسه إلا المطهرون ﴿**وإن كنتم مرضى**﴾ مرضاً يخاف منه الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء ﴿**أو**﴾ كنتم مستقرين ﴿**على سفر**﴾ طال أو قصر ﴿**أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾ هو المكان الغائر المطمئن والمجيء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليواري شخصه عن أعين الناس ﴿**أو لامستم النساء**﴾ ملامسة النساء مماسة بشرة الرجل بشرة المرأة وهي كناية عن الجماع ومثل هذه الكناية من الآداب القرآنية إذ التصريح مستهجن ﴿**فلم تجدوا ماء**﴾ المراد من عدم وجدان الماء عدم التمكن من استعماله لأن ما لا يتمكن من استعماله كالمفقود ﴿**فتيمموا صعيدا طيبا**﴾ أي: فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً فالصعيد هو وجه الأرض تراباً أو غيره سمي صعيداً لكونه صاعداً طاهراً والطيب بمعنى الطاهر سواء كان منبتاً أم لا حتى لو فرضنا صخراً لا تراب عليه فضرب المتيمم يده عليه ومسح كان ذلك كافياً عند أبي حنيفة رحمه الله ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾ أي: من ذلك الصعيد، أي إلى المرفقين لما روي أنه ﷺ «تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه» ولأنه بدل من الوضوء فيقدر بقدره والباء مزيدة ومن لابتداء الغاية والمعنى فانقلوا بعد وضعهما على الصعيد إلى الوجوه والأيدي من غير أن يتخللها ما يوجب الفصل ﴿**ما يريد الله**﴾ بالأمر بالطهارة

للصلاة أو الأمر بالتيمم ﴿ليجعل عليكم من حرج﴾ أي تضييقاً عليكم في الدين ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ أي لينظفكم أو ليطهركم من الذنوب فإن الوضوء مكفر لها كما روي أن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه نزلت خطيئة كفيه مع أول قطرة فإذا تمضمض نزلت خطيئة لسانه وشفتيه مع أول قطرة وإذا غسل وجهه ويديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو عليه وكان كيوم ولدته أمه» أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء ﴿وليتم﴾ بشرعه ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم ﴿نعمته عليكم﴾ في الدين أو ليتم برخصته إنعامه عليكم بعزائمه والرخصة ما شرع بناء على الأعذار والعزيمة ما شرع أصالة ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته.

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج البعيد ومن طهارة البدن وهو القشر القريب طهارة القلب وهو لب الباطن وطهارة القلب من نجاسات الأخلاق أهم الطهارات ولكن لا يبعد أن يكون لطهارة الظاهر أيضاً تأثير في إشراق نورها على القلب فإذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت في قلبك انشراحاً وصفاء كنت لا تصادفه قبله وذلك لسر العلاقة التي بين عالم الملك وعالم الملكوت فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة والقلب من عالم الملكوت وكما ينحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح فكذلك قد يرتفع من أحوال الجوارح التي هي من عالم الشهادة آثار إلى القلب ولذلك أمر الله بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التي من عالم الشهادة ولذلك جعلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الدنيا ومن الدنيا فقال: «حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» ولا يستبعد أن يفيض من الطهارة الظاهرة أثر على الباطن وإن أردت لذلك دليلاً من الشرع فتفكر في قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «خمس بخمس إذا أكل الربا كان الخسف والزلزلة وإذا جار الحكام قحط المطر وإذا ظهر الزنى كثر الموت وإذا منعت الزكاة هلكت الماشية وإذا تعدى على أهل الذمة كانت الدولة لهم» وإن كنت تطلب لهذا مثلاً من المحسوسات أيضاً فانظر إلى ما يفيض الله من النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة وبالجملة أن الله تعالى جعل الوضوء والتيمم من أسباب الطهارة فلا بد من الاجتهاد في تحصيل الطهارة مطلقاً وإن كان التوفيق من الله تعالى، كما قال الحافظ:

فيض أزل بزورزر ار آمدى بدست   آب خضر نصيبه اسكندر آمدى

والإشارة في الآية: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ بمرض حب الدنيا ﴿أو على سفر﴾ في متابعة الهوى ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ في قضاء حاجة شهوة من الشهوات ﴿أو لامستم النساء﴾ وهي الدنيا في تحصيل لذة من اللذات ﴿فلم تجدوا ماء﴾ التوبة والاستغفار ﴿فتيمموا صعيدا طيبا﴾ فتمعكوا في تراب أقدام الكرام فإنه طهور للذنوب العظام ﴿وامسحوا بوجوهكم﴾ من تراب أقدامهم وشمروا لخدمتهم ﴿وأيديكم منه﴾ لأن فيه شفاء لقساوة القلوب ودواء لمرض الذنوب ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ بهذه الذلة والصغار ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ من الذنوب الكبار وأكبر الكبائر الشرك بالله وأعظم الشركاء الوجود مع وجود المعبود وهذا ذنب لا يغفر إلا بالتمرغ في هذا التراب ولوث لم يطهر إلا بالالتجاء إلى هذه الأبواب ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ بعد ذوبان نحاس أنانيتكم بنار تصرفات هممهم العالية بطرح إكسير أنوار الهوية ﴿لعلكم تشكرون﴾ إذ تهتدون بأنوار الهوية إلى رؤية أنوار النعمة كذا في «التأويلات النجمية».

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. فإن قيل: ذكر نعمة الإسلام مشعر بسبق النسيان وكيف يعقل من المسلم أن ينساها مع اشتغاله بإقامة وظائف الإسلام على التوالي والدوام؟! قلنا: المواظبة على وظائف الشيء تنزل منزلة الأمر الطبيعي المعتاد فينسى كونها نعمة إلهية فتكون إقامة وظائفه اتباعاً لمقتضى الطبيعة فلا تكون عبادة وإنما تكون شكراً لو وقع اتباعاً للأمر. ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ أي: عهده المؤكد الذي أخذه عليكم وقوله تعالى: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ظرف لواثقكم به وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكير قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره. ﴿واتقوا الله﴾ في نسيان نعمه ونقض ميثاقه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لإطلاق الصاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بجليات الأعمال.

واعلم أن أول النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين إخراجهم من ظلمة العدم إلى نور الوجود قبل كل موجود وخلقهم في أحسن تقويم لقبول الدين القويم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم واستماع الست بربكم وجواب بلى وتوفيقهم للسمع والطاعة ولو لم تكن نعمة التوفيق لقالوا سمعنا وعصينا كما قال أهل الخذلان والعصيان، وعن عبد الرحمٰن بن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقالوا: ألا تبايعون رسول الله وكنا حديثي عهد ببيعته فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله قال: «ألا تبايعون رسول الله» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتطيعوا أوامره جلية وخفية ولا تسألوا الناس» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه حتى يكون هو ينزل فيأخذه. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: بايعني رسول الله ﷺ خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد الله على سبعاً أن لا أخاف في الله لومة لائم. وعنه قال لي رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله بسر أمرك وعلانيتك وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحداً شيئاً وإن سقط سوطك ولا تقبض أمانة»، قال الحافظ الشيرازي:

وفا وعهد نك باشد اربياموزى وكرنه هركه توبينى ستمكرى داند

اللهم اجعلنا من الموفين بعهودهم آمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ مقيمين لأوامره ومتمسكين بها معظمين لها مراعين لحقوقها ﴿شهداء بالقسط﴾ أي: بالعدل خبر بعد خبر ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي ولا يحملنكم ﴿شنآن قوم﴾ أي: شدة بغضكم للمشركين ﴿على أن لا تعدلوا﴾ أي على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما

في قلوبكم ﴿**اعدلوا هو**﴾أي العدل ﴿**أقرب للتقوى**﴾التي أمرتم بها وإذا كان وجوب العدل في حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه في حق المسلمين ﴿**واتقوا الله**﴾فإنه ملاك الأمر وزاد سفر الآخرة ﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾من الأعمال فيجازيكم بذلك وحيث كان مضمون هذه الجملة التعليلية منبئاً عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يخاف على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل: ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾التي من جملتها العدل والتقوى والمفعول الثاني لوعد محذوف وهو الجنة كما صرح به في غير هذا الموضع ﴿**لهم مغفرة**﴾لذنوبهم ﴿**وأجر عظيم**﴾أي: ثواب عظيم في الجنة وهذه الجملة مفسرة لذلك المحذوف تفسير السبب للمسبب فإن الجنة مسببة عن المغفرة وحصول الأجر فلا محل لها من الإعراب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا**﴾التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالأمر بالعدل والتقوى ﴿**أولئك**﴾الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات ﴿**أصحاب الجحيم**﴾ ملابسوها ملابسة مؤبدة وفيه مزيد وعد للمؤمنين لأن الوعيد اللاحق بأعدائهم مما يشفي صدورهم ويذهب ما كانوا يجدونه من أذاهم فإن الإنسان يفرح بأن يهدد أعداؤه.

واعلم أن الله تعالى صرح للمؤمنين الأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى لكون الحامل عليه البغض والشنآن فعلى المؤمن العدل في حق الأولياء والأعداء خصوصاً في حق نفسك وأهلك وأولادك لما ورد «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ووجد في سرير أنوشروان مكتوباً ـ الملك لا يكون إلا بالإمارة والإمارة لا تكون إلا بالرجال ولا تكون الرجال إلا بالأموال ولا تكون الأموال إلا بالعمارة ولا تكون العمارة إلا بالعدل بين الرعايا والسلطان شريك رعاياه في كل خير عملوه ـ، قال الحافظ:

شاه را به بود از طاعت صد ساله وزهد قدريك ساعت عمرى كه درو داد كند

وفي ترجمة «وصايا الفتوحات»: لمحمد بن واسع [از اكابردين است روزى بر بلال بن برده كه والى وقت بود در آمد واودر عيش بود وپيش اوبرف نهاده وبتنعم تمام تشسته محمد بن واسع راكفت يا أبا عبد الله أين خانه مارا چون بينى كفت اين خانه خوش است وليكن بهشت ازين خوشتراست وذكر آتش دوزخ از امثال اين غافل كرداند پرسيده كه ميكويى درباب قدر كفت در همراز كان توكه درين مقابر مدفونند فكرى بكن تا از قدر پرسيدن مشغول شوى كفت براي من دعاكن كفت دعاى من چه ميكنى وبر دركاه توچندين مظلومند همه برتو دعا ميكنند ودعاى ايشان بيشتر بالاميرود ظلم مكن وبدعاء من حاجت نيست] ومن كلمات بهلول لهارون حين قال له من أنا قال أنت الذي لو ظلم أحد في المشرق وأنت في المغرب سألك الله عن ذلك يوم القيامة فبكى هارون. وفي «عين المعاني» العالم لا يدخل على الظَلَمة تحامياً عن الدعاء لهم بالبقاء فورد من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه فلا بد من النصيحة وترك المداهنة وفي الحديث «ما ترك الحق لعمر من صديق». . وقال الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر:

لمـا ادمت الـنـصـح والـتـحـقـيـقـا لـم يـتـركـا لـي فـي الـوجـود صـديـقـا

قال السعدي قدس سره:

بـكـوى آنـچـه دانـى سـخـن سـودمـنـد وكـر هـيـچ كـس رانـيـا يـد پـسـنـد

وبالجملة أن العدل من أحسن الأخلاق.

ـ وحكي ـ أن أنوشروان لما مات كان يطاف بتابوته في جميع مملكته وينادي منادي من له علينا حق فليأت فلم يوجد أحد في ولايته له عليه حق من درهم ولذا اشتهر بالعدل اشتهار حاتم بالجود حتى صار العادل لقباً له فلفظ العادل إنما يطلق عليه لعدم جوره وظهور عدله لمجرد المدح والثناء عليه. وأما سلاطين الزمان فلظهور جورهم وعدم اتصافهم بالعدل منعوا عن إطلاق العادل عليهم إذ إطلاقه عليهم حينئذٍ إنما يكون لمجرد المدح لهم والثناء عليهم فيكون كذباً وكفراً فجواز إطلاق العادل على الكافر المنصف وعدم جواز إطلاقه على المسلمين الجائرين ليس بالنظر إلى متانة العدل بل ذاك ليس إلا أن العدل والجور متناقضان فلا يجتمعان. قال في «زهرة الرياض»: إذا كان يوم القيامة ينصب لواء الصدق لأبي بكر رضي الله عنه وكل صديق يكون تحت لوائه. ولواء العدل لعمر رضي الله عنه وكل عادل يكون تحت لوائه ولواء السخاوة لعثمان رضي الله عنه وكل سخي يكون تحت لوائه ولواء الشهداء لعلي رضي الله عنه وكل شهيد يكون تحت لوائه وكل فقيه تحت لواء معاذ بن جبل. وكل زاهد تحت لواء أبي ذر. وكل فقير تحت لواء أبي الدرداء. وكل مقرىء تحت لواء أبي بن كعب. وكل مؤذن تحت لواء بلال. وكل مقتول ظلماً تحت لواء الحسين بن علي فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] الآية. والعدل في الحقيقة هو الوسط المحمود في كل فعل وقول وخلق وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ولقد صار من نال إليه كالكبريت الأحمر والمسك الاذفر ومن الله الهداية والتوفيق آمين.

﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ متعلق بنعمة الله ﴿**إذ همّ قوم**﴾ ظرف لنفس النعمة، أي: اذكروا إنعامه عليكم في وقت همهم وقصدهم ﴿**أن يبسطوا إليكم أيديهم**﴾ أي: بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه ﴿**فكف أيديهم عنكم**﴾ عطف على هم وهو النعمة التي أريد تذكيرها وذكر الهم إيذان بوقوعها عند مزيد الحاجة إليها والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها أي منع أيديهم أن يمدوا إليكم عقيب همهم بذلك لا أنه كفها عنكم بعدما مدوها إليكم، وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث إنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذي قلما يعرى عنه الكف بعد المد ما لا يخفى مكانه وذلك ما روي أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان في غزوة ذي أنمار وغزوة ذات الرقاع وهي السابعة من مغازيه عليه السلام قاموا إلى الظهر معاً فلما صلوا ندم المشركون على أن لا كانوا قد أكبوا عليهم فقالوا إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها فردهم الله تعالى بكيدهم بأن أنزل صلاة الخوف، وقيل: هو ما روي أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ومعه الشيخان وعلي رضي الله عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما سألت فأجلسوه في صفة وهموا بقتله وعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه فأمسك

الله تعالى يده ونزل جبريل فأخبر فخرج النبي عليه السلام، وقيل هو ما روي أنه ﷺ نزل منزلاً وتفرق أصحابه في الفضي يستظلون بها فعلق رسول الله ﷺ سيفه بشجرة فجاء أعرابي فأخذه وسله فقال: من يمنعك مني فقال عليه السلام: «الله» فأسقطه جبريل عليه السلام من يده فأخذه الرسول عليه السلام فقال: «من يمنعك مني» فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﴿واتقوا الله﴾ عطف على اذكروا، أي اتقوه في رعاية حقوق نعمته فلا تخلوا بشكرها ﴿وعلى الله﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالاً واشتراكاً ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه يكفيهم في إيصال كل خير ودفع كل شر.

واعلم أن التوكل عبارة عن الاعتصام بالله تعالى في جميع الأمور ومحله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب بعدما تحقق للعبد أن التقدير من قبل الله فإن تعسر شيء فبتقديره. وأعلى مراتب التوكل أن يكون بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل تحركه القدرة الأزلية وهو الذي قوي يقينه ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام لما هم نمرود وقومه أن يبسطوا إليه أيديهم فرموه في النار جاءه جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وفاه بقوله حسبي الله ونعم الوكيل وانظر إلى حقيقة توكل النبي عليه السلام حيث كف الله عنه وعن أصحابه أيدي المشركين رأساً فلم يقدروا أن يتعرضوا له بل ابتلوا في أغلب الأحوال بما لا يخطر ببالهم من البلايا جزاء لهم على هممهم بالسوء، وفي «المثنوي»:

قصه عاد وثمود از بهر چيست ... تابداني كه انبيارا ناز كيست

فالتوكل من معالي درجات المقربين فعلى المؤمن أن يتحلى بالصفات الحميدة ويسير في طريق الحق بسيرة حسنة، ودخل حكيم على رجل فرأى داراً متجددة وفرشاً مبسوطة ورأى صاحبها خالياً من الفضائل فتنحنح فبزق على وجهه فقال: ما هذا السفه أيها الحكيم فقال: بل هو عين الحكمة لأن البصاق لزق إلى أخس ما كان في الدار ولم أرَ في دارك أخس منك لخلوك عن الفضائل الباطنة فنبه بذلك على دناءته وقبحه لكونه مسترسلاً في لذاته مستغرقاً أوقاته لعمارة ظاهره، قال الحافظ رحمه الله:

قلندران حقيقت بنيم جو نخرند ... قباى اطلس آنكس كه از هنر عاريست

ثم اعلم أنّ كل شيء بقضاء الله تعالى وأن الله يختبر عباده بما أراد فعليهم أن يعتمدوا عليه في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء؟ قال: نعم قال: الق نفسك من الجبل وقل قدر عليّ قال: يا لعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله وما على العبد إلا التوكل والشكر على الإنعام. ومن جملة إنعام الله تعالى الإخراج من ظلمة العدم إلى نور الوجود بأمركن والله يعلم أن رجوع العباد إلى العدم ليس بهم ولا إليهم كما لم يكن خروجهم بهم فإن خروجهم كان بجذبة أمر كن فكذلك رجوعهم لا يكون إلا بجذبة أمر ارجعي فعليهم أن يكونوا واثقين بكرم الله وفضله مسارعين في طلب مرضاة الله جاهدين على وفق الأوامر والنواهي في الله ليهديهم إلى جذبات عنايته ولطفه.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ

قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل**﴾ أي بالله قد أخذ الله عهد طائفة اليهود والالتفات في قوله تعالى: ﴿**وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا**﴾ للجري على سنن الكبرياء أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتي أي شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به، وقد روي أن النبي عليه السلام جعل للأنصار ليلة العقبة اثني عشر نقيباً وفائدة النقيب: أن القوم إذا علموا أن عليهم نقيباً كانوا أقرب إلى الاستقامة. والنقيب والعريف نظيران وقيل: النقيب فوق العريف، قال في «شرح الشرعة» العريف فعيل بمعنى مفعول وهو سيد القوم والقيم بأمور الجماعة من القبيلة والمحلة يلي أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم وهو دون الرئيس والعرافة كالسيادة لفظاً ومعنى وفي الحديث «العرافة حق ولا بدّ للناس من عرفاء ولكن العرفاء في النار» يعني: أن سيادة القوم جائزة في الشرع لأن بها ينتظم مصالح الناس وقضاء أشغالهم فهي مصلحة ورفق للناس تدعو إليها الضرورة. وقوله ولكن العرفاء في النار أي أكثرهم فيها إذ المجتنب عن الظلم منهم يستحق الثواب لكن لما كان الغالب منهم خلاف ذلك أجراه مجرى الكل كذا في «شرح المصابيح». قال السعدي:

رياست بدست كسانى خطاست كه از دستشان دستها بر خداست
مكن تاتوانى دل خلق ريش وكر ميكنى ميكنى بيخ خويش
نماند ستمكار بد روزكار بماند برو لعنت پايدار
مها زور مندى مكن بركهان كه بريك نمط مى نماند جهان
دل دوستان جمع بهتركه كنج خزينه تهى به كه مردم برنج
بقومى كه نيكى پسندد خداى دهد خسرو عادل نيك راى
چو خواهدكه ويران كند عالمى كند ملك درپنچه ظالمى

﴿**وقال الله**﴾ أي: لبني إسرائيل فقط إذ هم المحتاجون إلى الترغيب والترهيب ﴿**إني معكم**﴾ أي بالعلم والقدرة والنصرة أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك وتم الكلام هنا ثم ابتدأ بالجملة الشرطية فقال مخاطباً لبني إسرائيل أيضاً ﴿**لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي**﴾ أي: بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿**وعزرتموهم**﴾ أي: نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وهو المنع والدفع ومنه التعزير ومن نصر إنساناً فقد ذب عنه عدوه يقال عزرت فلاناً أي فعلت به ما يرده عن القبيح ويمنعه عنه ﴿**وأقرضتم الله**﴾ بالإنفاق في سبيل الخير أو بالتصدق بالصدقات المندوبة فظهر الفرق بين هذا الإقراض وبين إخراج الزكاة فإنها واجبة ﴿**قرضاً حسناً**﴾ وهو أن يكون من حلال المال وخياره برغبة وإخلاص لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا يكدرها منّ ولا أذى وانتصابه يحتمل أن يكون على المصدرية لأنه اسم مصدر بمعنى أقراضاً كما في ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] بمعنى إنباتاً ويحتمل أن يكون على المفعولية على أنه اسم للمال المقرض ﴿**لأكفرن عنكم سيآتكم**﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط﴿**ولأدخلنكم جنات**﴾ أي: بساتين

﴿**تجري من تحتها**﴾ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿**الأنهار**﴾ الأربعة وأخره لضرورة تقدم التخلية على التحلية ﴿**فمن كفر**﴾ أي برسلي وبشيء مما عدد في حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب والترهيب. ﴿**بعد ذلك**﴾ الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للإيمان قطعاً ﴿**منكم**﴾ متعلق بمضمر وقع حالاً من فاعل كفر. ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ أي: وسط الطريق الواضح ضلالاً بيناً وأخطأ خطأ فاحشاً لا عذر معه أصلاً بخلاف من كفر قبل ذلك إذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

ـ روي ـ أن بني إسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا من أرض الشام وهي الأرض المقدسة وكانت لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم إني كتبتها لكم داراً قراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيباً أميناً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فرأوا أجراماً عظيمة وقوة وشوكة فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم موسى عن ذلك فنكثوا الميثاق الإكالب بن يوقنا نقيب سبط يهودا ويوشع بن نون نقيب سبط افرائيم بن يوسف الصديق عليه السلام قيل: لما توجه النقباء إلى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث وذراع وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ويروى أن الماء طبق ما على الأرض من جبل في طوفان نوح وما جاوز ركبتي عوج وكانت أمه عنق إحدى بنات آدم وكان مجلسها جريباً من الأرض فلما لقي عوج النقباء وعلى رأسه حزمة حطب أخذ اثني عشر نقيباً وجعلهم في الحزمة فانطلق بهم إلى امرأته وقال انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون قتالنا فطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي فقال: لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك.

ـ وروي ـ أنه جعلهم في كمه وأتى بهم الملك فنشرهم بين يديه فقال: ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم وكان لا يحمل عنقوداً من عنبهم إلا خمسة أنفس أو أربعة بينهم في خشبة ويدخل في شطر رمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس فجعلوا يتعرفون بأحوالهم فلما رجعوا قال بعضهم لبعض: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبي الله ولكن اكتموه إلا عن موسى وهارون فيكونان هما يريان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر جمل فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الاكالب ويوشع وكان معسكر موسى فرسخاً في فرسخ فجاء عوج حتى نظر إليهم ثم رجع إلى جبل فقوّر منه صخرة عظيمة على قدر المعسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فقوّر من الصخرة وسطها المحازي لرأسه فانتقبت فوقعت في عنق عوج فطوقته فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فترامى في السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا إلا كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى جذروا رأسه وهكذا سنة الله فيما أراد حيث ينصر أولياءه بما لا يخطر ببالهم ولله في كل فعله حكمة تامة ومصلحة شاملة.

واعلم أن الله تعالى كما جعل في أمة موسى من النقباء المختارين المرجوع إليهم عند الضرورة اثني عشر كذلك جعل من كمال عنايته في هذه الأمة من النجباء البدلاء وأعزة الأولياء أربعين رجلاً في كل حال وزمان كما قال النبي عليه السلام: «يكون في الأمة أربعون على خلق إبراهيم وسبعة على خلق عيسى وواحدة على خلقي» فهم على مراتب درجاتهم ومناصب مقاماتهم أمنة هذه الأمة كما قال عليه السلام: «بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم يدفع الله البلاء» قال أبو عثمان المغربي: البدلاء أربعون والأمناء سبعة والخلفاء من الأئمة ثلاثة والواحد هو القطب عارف بهم جميعاً ومشرف عليهم ولا يعرفه أحد ولا يشرف عليه وهو إمام الأولياء الثلاثة الذين هم الخلفاء من الأئمة وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه والخلفاء الثلاثة يعرفون السبعة الذين هم الأمناء ولا يعرفهم أولئك السبعة والسبعة يعرفون الأربعين الذين هم البدلاء ولا يعرفهم البدلاء الأربعون وهم يعرفون سائر الأولياء من الأمة ولا يعرفهم من الأولياء أحد فإذا نقص من الأربعين واحد جعل مكانه واحد من الأولياء وإذا نقص من السبعة واحد جعل مكانه واحد من الأربعين وإذا نقص من الثلاثة واحد جعل مكانه واحد من السبعة وإذا مضى القطب الذي هو الواحد في العدد وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحد من الثلاثة هكذا إلى أن يأذن الله تعالى في قيام الساعة كما في «التأويلات النجمية»، وقال الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: القطب يحفظ المركز والإمام الأيمن يحفظ عالم الأرواح والإمام الأيسر يحفظ عالم الأجساد والأوتاد الأربعة يحفظون الشرق والغرب والجنوب والشمال والأبدال السبعة يحفظون أقاليم الكرة علواً وسفلاً انتهى كلامه في «كتاب العظيمة»، ويقول الفقير جامع هذه المجالس اللطائف: سمعت من حضرة شيخي وسندي الذي بمنزلة روحي في جسدي أن قطب الوجود إذا انتقل إلى الدار الآخرة يكون خليفته في الجانب الأيسر من الأفراد دون الجانب الأيمن وذلك لأن يسار الإمام يمين ويمينه يسار حين الاستقبال إلى القوم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ [الواقعة: ٨، ٩] فإن لفظة ما عند أهل التحقيق نافية وأهل اليسار أهل الجلال والفناء وأهل اليمين أهل الجمال والبقاء فافهم هذا السر البديع وكن ممن ألقى سمعه وهو شهيد فإن المنكر الغافل طريد عن الحق بعيد.

بسر وقت شان خلق كى ره برند   كه چون آب حيوان بظلمت درند

قال الصائب:

سخن عشق باخرد كفتن   بر رك مرده نيشتر زدنست

ثم تحقيق قوله تعالى: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ أن إقامة الصلاة في إدامتها بأن تجعل الصلاة معراجك إلى الحق ونديم العروج بدرجاتها إلى أن تشاهد الحق كما شاهدت يوم الميثاق ودرجاتها أربع: القيام، والركوع، والسجود، والتشهد على حسب دركات نزلت بها من أعلى عليين وجوار رب العالمين إلى أسفل السافلين القالب وهي العناصر الأربعة التي خلق منها قالب الإنسان فالمتولدات منها على أربعة أقسام ولكل قسم منها ظلمة وخاصية تحجبك عن مشاهدة الحق وهي الجمادية وخاصيتها التشهد ثم النباتية وخاصيتها السجود ثم الحيوانية وخاصيتها الركوع ثم الإنسانية وخاصيتها القيام يشير إليك بالتخلص من حجب أوصاف الإنسانية وأعظمها الكبر وهو من خاصية النار والركوع يشير إليك بالتخلص من حجب صفات

الحيوانية وأعظمها الشهوة وهي من خاصية الهواء والسجود يشير إليك بالتخلص من حجب طبع النباتية وأعظمها الحرص على الجذب للشيء والنمو وهو من خاصية الماء والتشهد يشير إليك بالتخلص من حجب طبع الجمادية وأعظمها الجمودية وهي من خاصية التراب ومن هذه الصفات الأربع تنشأ بقية صفات البشرية فإذا تخلصت من هذه الدركات والحجب ورجعت بهذه المدارج الأربعة إلى جوار رب العالمين وقربه فقد أقمت الصلاة مناجياً ربك مشاهداً له كما قال ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه» كذا في «التأويلات النجمية».

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: فبسبب نقض اليهود عهدهم وهو أنهم كذبوا الرسل بعد موسى وقتلوا الأنبياء ونبذوا الكتاب وضيعوا فرائضه وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه في النفس **﴿لعناهم﴾** أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم قردة وخنازير أو أذللناهم بضرب الجزية عليهم **﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾** أي: غليظة شديدة بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر وحجر قاس أي صلب غير لين **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** استئناف لبيان قسوة قلوبهم فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله والافتراء عليه والمراد بالتحريف إما تبديلهم نعت النبي ﷺ وإما تبديلهم بسوء التأويل وقد سبق في سورة البقرة **﴿ونسوا حظا﴾** أي وتركوا نصيباً وافراً **﴿مما ذكروا به﴾** من التوراة أو من اتباع محمد عليه السلام والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه وقيل معناه أنهم حرفوها فتركت بشؤمه أشياء منها عن حفظهم لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية.

ـ روي ـ أن الله تعالى غير العلم على أمية بن أبي الصلت وكان من بلغاء الشعراء كان نائماً فأتاه طائر وأدخل منقاره في فيه فلما استيقظ نسي جميع علومه، قال الحافظ:

نه من زبى عملى درجهان ملولم وبس ملالت علما هم ز علم بى عملست

واعلم أن العلماء العاملين والمشايخ الواصلين لا يزالون يذكرون الناس كل عصر يوم الميثاق ومخاطبة الحق إياهم تشويقاً لهم إلى تلك الأحوال فمن سامع ومن معرض فالسامع لكونه معرضاً عن الدنيا والعقبى وصل إلى جوار المولى فكان مقبولاً مرحوماً والمعرض لكونه مقبلاً على ما سوى المولى لم ينل شيئاً فكان مردوداً ملعوناً لأنه نقض عهده مع الله سبحانه وتعالى، وفي «المثنوي»:

بى وفايى چون سكانرا عاربود بى وفايى چون رو اداری نمود

حق تعالى فخر آورد ازوفا كفت من أوفى بعهد غيرنا

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة على أنها مصدر كاللاغية والكاذبة قال الله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١٠] أي: لغواً والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتمونها فلا تزال ترى ذلك منهم **﴿إلا قليلا منهم﴾** لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وهو استثناء من الضمير المجرور في منهم **﴿فاعف عنهم واصفح﴾** أي: أعرض عنهم ولا تتعرض لهم بالمعاقبة

والمؤاخذة إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق نسخ بآية السيف وهو قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث على الامتثال وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره، قال السعدي:

عدورا بالطاف كردن به بند — كه نتوان بريدن بتيغ وكمند
چود شمن كرم بيند ولطف وجود — نيايد دكر خبث ازو دروجود
وكرخواجه بادشمنان نيك خوست — بسى بر نيايد كه كردند دوست

وكان عليه السلام محسناً له مكارم أخلاق يضيق نطاق بيان الواصفين عنها، ومن حكايات المولوي قدس الله سره في «المثنوي»:

كافران مهمان پيغمبر شدند — وقت شام ايشان بمسجد آمدند
كفت اى ياران من قسمت كنيد — كه شما پر از من وخوى منيد
هريكى يارى يكى مهمان كزيد — درميان يك زفت بود وبى نديد
جسم ضخمي داشت كس اورانبرد — ماندر مسجد چواندر جامه درد
مصطفى بردش چو واماند ازهمه — هفت بز شيرده بر در رمه
كه مقيم خانه بودندى بزان — بهر دوشيدن براى وقت خوان
نان وآش وشيرآن هر هفت بز — خورد آن بوقحط عوج ابن غز
جمله اهل بيت خشم آلوشدند — كه همه درشير بز طامع شدند
معده طبلى خوار همچون طبل كرد — قسم هجده آدمى تنها بخورد
وقت خفتن رفت ودر حجره نشست — پس كنيزك از غضب دررا ببست
از برون زنجير دررا درفكند — كه ازوبد خشمكين ودردمند
كبررا ازنيم شب تاصبحدم — چون تقاضا آمد ودرد شكم
ازفراش خويش سويى درشتافت — دست بردر چونهاد اوبسته يافت
در كشادن حيله كرد آن حيله ساز — نوع نوع وخود نشد آن بند باز
شد تقاضا بر تقاضا خانه تنك — مانداوحيران وبى درمان ودنك
حيله كرد واو بخواب اندر خزيد — خويشتن درخواب ودرويرانه ديد
زانكه ويرانه بد اندر خاطرش — شد بخواب اندر همانجا منظرش
خويش در ويرانه خالى چوديد — او چنان محتاج واندر دم بريد
كشت بيدار وبديد آن جامه خواب — بر حدث ديوانه شد از اضطراب
كفت خوابم بدتر از بيداريم — كه خورم آن سو واين سومى ريم
بانك مى زد واثبورا واثبور — همچنانكه كافر اندر قعر كور
منتظر كه كي شود اين شب بسر — يا برآيد در كشادن بانك در
تاكريزد اوچوتيرى از كمان — تانبينند هيچكس اورا چنان
مصطفى صبح آمد ودررا كشاد — صبح آن كمراه را اوراه داد
جامه خواب پر حدث رايك فضول — قاصدان آورد در پيش رسول
كه چنين كردست مهمانت ببين — خنده زد رحمة للعالمين

كه بيار آن مطهره اينجا به پيش — تابشويم جمله را بادست خويش
اوبجد مى شست آن احداث را — خاص زامر حق نه تقليد وريا
كه دلش مى كفت كين را توبشو — كه درانيجا هست حكمت توبتو
كافرك را هيكلى بد يادكار — ياوه ديد آنرا وكشت اوبى قرار
كفت آن حجره كه شب جاداشتم — هيكل آنجا بى خبر بكذاشتم
كه چه شرمين بودشر مش حرص برد — حرص ازدرهاست بى چيزست خرد
ازپى هيكل شتاب اندر دويد — در وثاق مصطفى وانرا بديد
كان يد الله إن حدث را هم بخود — خوش همى شويدكه دورش چشم بد
هيكلش ازياد رفت وشد بديد — اندر وشورى كريبانرا دريد
مى زد اودو دست را بررو وسر — كله را ميكوفت بر ديوار ودر
انچنانكه خون زبينى وسرش — شد روان ورحم كردان مهترش
چون زحد بيرون بلر زيد وطپيد — مصطفى اش دركنار خود كشيد
ساكنش كرد وبسى بنو اختش — ديده اش بكشاده داد اشناختش
آب بر روزد در آمد درسخن — كى شهيد حق شهادت عرضه كن
كشت مؤمن كفت اورا مصطفى — كامشب هم باش وتو مهمان ما
كفت والله تا ابد ضيف توام — هر كجا باشم بهر جاكه روم
يا رسول الله رسالت راتمام — تونمودى همچو شمع بى غمام

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي: وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم من اليهود ومن متعلقة بأخذنا والتقديم للاهتمام وإنما قال: قالوا إنا نصارى ولم يقل ومن النصارى تنبيهاً على أنهم نصارى بتسميتهم أنفسهم بهذا الاسم ادعاء لنصرة الله بقولهم لعيسى عليه السلام نحن أنصار الله وليسوا موصوفين بأنهم نصارى بتوصيف الله إياهم بذلك ومعنى أخذ الميثاق هو ما أخذ الله عليهم في الإنجيل من العهد المؤكد باتباع محمد ﷺ وبيان صفته ونعته **﴿فنسوا حظا﴾** أي: تركوا نصيباً وافراً **﴿مما ذكروا به﴾** في تضاعيف الميثاق من الإيمان وما يتفرع عليه من أفعال الخير **﴿فأغرينا﴾** أي: ألزمنا وألصقنا من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره **﴿بينهم﴾** ظرف لأغرينا **﴿العداوة﴾** وهي تباعد القلوب والنيات **﴿والبغضاء﴾** أي: البغض **﴿إلى يوم القيامة﴾** غاية للإغراء أو للعداوة والبغضاء أي يتعادون ويتباغضون إلى يوم القيامة **﴿وسوف ينبئهم الله﴾** أي: يخبرهم في الآخرة **﴿بما كانوا يصنعون﴾** وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت أي يجازيهم بما عملوا على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد والتعبير عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم في ذلك، قيل: الذي ألقى العداوة بين النصارى رجل يقال له بولس وكان بينه وبين النصارى قتال قتل منهم خلقاً كثيراً فأراد أن يحتال بحيلة

يلقي بها بينهم القتال فيقتل بعضهم بعضاً فجاء إلى النصارى وجعل نفسه أعور وقال لهم ألا تعرفونني فقالوا: أنت الذي قتلت ما قتلت منا وفعلت ما فعلت فقال: قد فعلت ذلك كله والآن تبت لأني رأيت عيسى عليه الصلاة والسلام في المنام نزل من السماء فلطم وجهي لطمة فقأ عيني فقال: أي شيء تريد من قومي؟ فتبت على يده ثم جئتكم لأكون بين ظهرانيكم وأعلمكم شرائع دينكم كما علمني عيسى عليه السلام في المنام فاتخذوا له غرفة فصعد تلك الغرفة وفتح كوة إلى الناس في الحائط وكان يتعبد في الغرفة وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويجيبهم من تلك الكوة وربما يأمرهم بأن يجتمعوا ويناديهم من تلك الكوة ويقول لهم بقول كان في الظاهر منكراً وينكرون عليه فكان يفسر ذلك القول تفسيراً يعجبهم ذلك فانقادوا كلهم له وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به فقال يوماً من الأيام: اجتمعوا عندي فقد حضرني علم فاجتمعوا فقال لهم: أليس خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا كلها لمنفعة بني آدم قالوا: نعم فقال: لم تحرمون على أنفسكم هذه الأشياء يعني الخمر والخنزير وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ فأخذوا قوله فاستحلوا الخمر والخنزير فلما مضى على ذلك أيام دعاهم وقال: حضرني علم فاجتمعوا فقال لهم: من أي ناحية تطلع الشمس فقالوا من قبل المشرق فقال: ومن أي ناحية يطلع القمر والنجوم فقالوا من قبل المشرق فقال: ومن يرسلهم من قبل المشرق قالوا: الله تعالى فقال: فاعلموا أنه تعالى في قبل المشرق فإن صليتم له فصلوا إليه فحول صلاتهم إلى المشرق فلما مضى على ذلك أيام دعا بطائفة منهم وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة وقال لهم: إني أريد أن أجعل نفسي الليلة قرباناً لأجل عيسى وقد حضرني علم فأريد أن أخبركم في السر لتحفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك بعدي ويقال أيضاً إنه أصبح يوماً وفتح عينه الأخرى ثم دعاهم وقال لهم: جاءني عيسى الليلة وقال: قد رضيت عنك فمسح يده على عيني فبرئت والآن أريد أن أجعل نفسي قرباناً له ثم قال: هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص إلا الله تعالى فقالوا: لا فقال: إن عيسى قد فعل هذه الأشياء فاعلموا أنه هو الله تعالى فخرجوا من عنده ثم دعا بطائفة أخرى فأخبرهم بذلك أيضاً وقال إنه كان ابنه ثم دعا بطائفة ثالثة وأخبرهم بذلك أيضاً وقال: إنه ثالث ثلاثة وأخبرهم أنه يريد أن يجعل نفسه الليلة قرباناً فلما كان بعض الليالي خرج من بين ظهرانيهم فأصبحوا وجعل كل فريق يقول قد علمني كذا وكذا وقال الفريق الآخر أنت كاذب بل علمني كذا وكذا فوقع بينهم القتال فاقتتلوا وقتلوا خلقاً كثيراً وبقيت العداوة بينهم إلى يوم القيامة وهم ثلاث فرق منهم النسطورية قالوا: المسيح ابن الله والثانية الملكانية قالوا: إن الله تعالى ثالث ثلاثة المسيح وأمه والله والفرقة الثالثة اليعقوبية قالوا: إن الله هو المسيح، قال جلال الدين رومي قدس سره:

در تصور ذات اورا كنج كو ... تا در آيد درتصور مثل او
كر بغايت نيك وكربد كفته اند ... هرچه زو كفتند ازخود كفته اند
مى مكن چندين قياس اى حق شناس ... زانكه نايد ذات بيچون درقياس

فعلى المؤمن أن يلاحظ قوله تعالى: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وأن يشتغل بنفسه عن غيره وفي الحديث «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» يعني: من لم يجد شيئاً

يتقي به النار فليتق منها بقول حسن يطيب به قلب المسلم فإن الكلمة الطيبة من الصدقات.

والإشارة في الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق من اليهود والنصارى على التوحيد كما أخذ من هذه الأمة يوم الميثاق ولكنه لما وكل الفريقين إلى أنفسهم نسوا ما ذكروا به فما بقي لهم حظ من ذلك الميثاق بإبطال الاستعداد الفطري لكمال الإنسانية فصاروا كالأنعام بل هم أضل أي بل كالسباع يتحارشون ويتناوشون بالعداوة والبغضاء إلى يوم القيامة فإن أرباب الغفلة لا إلفة بينهم وأن أصحاب الوفاق لا وحشة بينهم وأما هذه الأمة لما أيدت بتأييد الإله إذ كتب في قلوبهم الإيمان بقلم خطاب ألست بربكم يوم الميثاق وأيدهم بروح منه ما نسوا حظاً مما ذكروا به وقيل لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقال تعالى خطاباً لهم إذ لم ينسوا حظهم ولم ينقضوا ميثاقهم ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] على أن ذكره إياهم كان قبل وجودهم وذكرهم إياه حين ذكرهم المحبة وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى والكتاب جنس شامل للتوراة والإنجيل ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ الإضافة للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه ﴿يبين لكم﴾ حال من رسولنا أي حال كونه مبيناً لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ أي: كثيراً كائناً من الذي كنتم تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب أي التوراة والإنجيل الذي أنتم أهله والمتمسكون به كنعت محمد عليه السلام وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام في الإنجيل. ﴿ويعفو عن كثير﴾ مما تخفونه أي لا يظهره ولا يخبره إذا لم يضطر إليه أمر ديني صيانة لكم عن زيادة الافتضاح. ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ المراد بالنور والكتاب هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وإبانة ما خفي على الناس من الحق أو الإعجاز الواضح والعطف المنبىء عن تغاير الطرفين لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات وقيل: المراد بالأول هو الرسول ﷺ وبالثاني القرآن.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿يهدي به الله﴾ وحد الضمير لأن المراد بهما واحد بالذات أو لأنهما في حكم الواحد فإن المقصود منهما دعوة الخلق إلى الحق أحدهما رسول إلَهي والآخر معجزته وبيان ما يدعو إليه من الحق ﴿من اتبع رضوانه﴾ أي: رضاه بالإيمان به ﴿سبل السلام﴾ أي: طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب على أن يكون السلام بمعنى السلامة كاللذاذ واللذاذة والرضاع والرضاعة أو سبيل الله تعالى وهو شريعته التي شرعها للناس على أن يكون السلام هو الله تعالى وانتصاب سبل بنزع الخافض فإن يهدي إنما يتعدى إلى الثاني بإلى أو باللام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿ويخرجهم﴾ الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد في اتبع باعتبار اللفظ ﴿من الظلمات﴾ أي: ظلمات فنون الكفر

والضلال ﴿إلى النور﴾ إلى الإيمان وسمي الإيمان نوراً لأن الإنسان إذا آمن أبصر به طريق نجاته فطلبه وطريق هلاكه فحذره ﴿بإذنه﴾ أي: بتيسيره وإرادته ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي طريق هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ومؤدٍ إليه لا محالة وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل السلام وإنما عطف عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

واعلم أن الله تعالى بعث النبي ﷺ نوراً يبين حقيقة حظ الإنسان من الله تعالى وأنه تعالى سمى نفسه نوراً بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] لأنهما كانتا مخفيتين في ظلمة العدم فالله تعالى أظهرهما بالإيجاد وسمى الرسول نوراً لأن أول شيء أظهره بالحق بنور قدرته من ظلمة العدم كان نور محمد ﷺ كما قال: «أول ما خلق الله نوري» ثم خلق العالم بما فيه من نوره بعضه من بعض فلما ظهرت الموجودات من وجود نوره سماه نوراً وكل ما كان أقرب إلى الاختراع كان أولى باسم النور كما أن عالم الأرواح أقرب إلى الاختراع من عالم الأجسام فلذلك سمي عالم الأنوار والعلويات نورانياً بالنسبة إلى السفليات فأقرب الموجودات إلى الاختراع لما كان نور النبي عليه السلام كان أولى باسم النور ولهذا كان يقول: «أنا من الله والمؤمنون مني» وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾.

ـ وروي ـ عن النبي عليه السلام أنه قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام وكان يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لما خلق الله آدم اهبطني في صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة وقذفني في صلب إبراهيم ثم لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط» قال العرفي في قصيدته النعتية:

اين بس شرف كوهر نومنشى تقدير   آن روز كه بكذا شتى إقليم قدم را
تاحكم نزول تودرين دار نوشته است   صدره بعبث باز تراشيد قلم را

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه أنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اعترف آدم بالخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد أن تغفر لي فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا اسم أحب الخلق إليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي فغفرت لك ولولا محمد لما خلقتك» رواه البيهقي في «دلائله».

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ لا غير كما يقال الكرم هو التقوى نزلت في نصارى نجران وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل في بدن إنسان معين أو في روحه ﴿قل﴾ يا محمد تبكيتاً لهم إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فمن﴾ استفهامية إنكارية

﴿يملك﴾ الملك الضبط والحفظ التام عن حزم أي يمنع ﴿من الله﴾ أي: من قدرته وإرادته ﴿شيئاً﴾ وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئاً منها ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ احتج بذلك على فساد قولهم وتقريره أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية وكيف يكون إلّهاً من لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه ولا عن غيره والمراد بالإهلاك الإماتة والإعدام مطلقاً لا بطريق السخط والغضب ولعل نظم أمه في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه كأنه قيل قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد فكذا حال من عداها من الموجودين. ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي ما بين قطري العالم الجسماني لا بين وجه الأرض ومقعر فلك القمر فقط فيناول ما في السموات من الملائكة وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات وهو تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته إثر الإشارة إلى كون البعض أي من في الأرض كذلك أي له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة لا لأحد سواه استقلالاً ولا اشتراكاً فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عن كل ما سواه ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي: يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والإيجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية لا على المفعولية كأنه قيل يخلق أي خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والأرض وأخرى من أصل كخلق ما بينهما فينشىء من أصل ليس من جنس كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه إما من ذكر وحده كخلق حواء أو أنثى وحدها كخلق عيسى أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى معجزة له وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك فينسب كل إليه تعالى لا إلى أمن أجرى ذلك على يده. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وفي «المثنوي»:

دامن او كير أي يار دلير ... كومنزه باشد از بالا وزير
نى چو عيسى سوى كردون برشود ... نى چو قارون درزمين اندر رود
ربى الاعلاست ورد آن مهان ... رب ادنى در خوراين ابلهان

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي عليه السلام قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»، وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فكأنه أبطأ بهن فأتاه عيسى فقال: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تخبرهم وإما أن أخبرهم فقال: يا أخي لا تفعل فإني أخاف إن سبقتني بهن أن يخسف بي أو أعذب قال: فجمع بني إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات ثم خطبهم فقال: إن الله أوحى إلي بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمر بني إسرائيل أن يعملوا

بهن. أولاهن أن لا تشركوا بالله شيئاً فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه داراً فقال: اعمل وارفع إلي فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت. وآمركم بالصيام ومثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة من مسك كلهم يحب أن يجد ريحها وإن الصيام عند الله أطيب من ريح المسك. وآمركم بالصدقة ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم فجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه. وآمركم بذكر الله كثيراً ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أسره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان الذي هو أكبر الأعداء إلا بذكر الله» قال في «المثنوي»:

ذكر حق كن بانكه غولانرا بسوز ... چشم نركس را ازين كركس بدوز
ذكر حق پاكست چون پاكي رسيد ... رخت بر بندد برون آيد پليد
مى كريزد ضدها از ضدها ... شب كريزد چون برافروزد ضيا
چون در آيد نام پاك اندر دهان ... نى پليدى ماند ونى آندهان

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالسمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع» والربقة بكسر الراء وفتحها وسكون الباء الموحدة واحده الربق وهي عرى في حبل يشد به إليهم وتستعار لغيره.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أي: قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح كما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك أو المعنى نحن من الله بمنزلة الأبناء للآباء وقربنا من الله كقرب الوالد لولده وحبنا إياه كحب الوالد لولده وغضب الله علينا كغضب الرجل على ولده والوالد إذا سخط على ولده في وقت يرضى عنه في وقت آخر وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلاً ومزية عند الله على سائر الخلق فرد عليهم ذلك وقيل لرسول الله ﷺ: **﴿قل﴾** إلزاماً لهم وتبكيتاً **﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾** أي إن صح ما زعمتم فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه سيعذبكم في الآخرة أياماً معدودة بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع **﴿بل﴾** أي: لستم كذلك **﴿أنتم بشر ممن خلق﴾** أي: من جنس ما خلق الله تعالى من غير مزية لكم عليهم **﴿يغفر لمن يشاء﴾** أن يغفر له من أولئكم المخلوقين وهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسله. **﴿ويعذب من يشاء﴾** أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به تعالى وبرسله **﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾** من الموجودات لا ينتمي إليه تعالى شيء منها إلا بالمملوكية والعبودية والكل تحت مملوكيته

يتصرف فيه كيف يشاء إيجاداً وإعداماً وإماتة وإثابة وتعذيباً فأنى لهم ادعاء ما زعموا **﴿وإليه المصير﴾** في الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً فيجازي كلا من المحسن والمسيء بما يستدعيه عمله من غير مانع يمنعه وليست المحبة بالدعوى بل لها علامات ولله در من قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

والله تعالى لا يحب من خالف شيئاً من شريعة النبي عليه السلام من سننها وفروضها وحلالها وحرامها وإنما يحب من أطاع أمره ولا فوق بين الناس من حيث الصورة البشرية وإنما تفاوتهم من حيث العلم والعمل والتقرب إلى الله تعالى، قال السعدي قدس سره:

ره راست بايد نه بالاى راست ... كه كافرهم از روى صورت چو ماست

وإنما يظهر التفاوت في الآخرة لأنها دار الجزاء فطوبى لعبد تفكر في حاله ومصيره فرغب في الزهد والطاعة قبل مضي الوقت، قال في «المثنوي»:

كر ببينى ميل خود سوى سما ... پردولت بر كشا همچون هما
ور ببينى ميل خود سوى زمين ... نوحه ميكن هيچ منشين از حنين
عاقلان خود نوحها پيشين كنند ... جاهلان آخر بسر بر مى زنند
رابتداء كار آخررا ببين ... تانباشى تو پيشيمان روز دين

ـ وحكي ـ أن رجلاً جاء إلى صائغ يسأل منه الميزان ليزن رضاض ذهب له فقال الصائغ: اذهب فإنه ليس لي غربال فقال الرجل لا تسخر بي آت الميزان فقال الصائغ ليس لي مكنسة ثم قال: اطلب منك الميزان أيها الصائغ وأنت تجيبني بما يضحك منه فقال: إنما قلت ما قلت لأنك شيخ مرتعش فعند الوزن يتفرق رضاضك من يدك بسبب ارتعاشك ويسقط إلى التراب فتحتاج إلى المكنسة والغربال للتخليص فبسبب فكري لعاقبة أمرك قلت ما قلت:

من زاول ديدم آخررا تمام ... جاى ديكر رو ازنيجا والسلام

واعلم أن أحباء الله هم أولياء الله على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم، فمنهم عوام، ومنهم خواص، ومنهم أخص ولكل منهم مقام معلوم من المحبة، ورأى بعضهم معروفاً الكرخي تحت العرش وقد قال الله تعالى لملائكته من هذا فقالوا: أنت أعلم يا رب فقال هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يضيق إلا للقائي وكمال الحب إنما يحصل بعد تزكية النفس فإن النفس إذا كانت مغضوبة لا تتم الرحمة في حقها وصاحبها إنما يحب الله تعالى من وراء حجاب اللهم اجعلنا ممن يحبك حباً شديداً ويسلك في محبتك طريقاً سديداً.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ حال كونه **﴿يبين لكم﴾** الشرائع والأحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد. **﴿على فترة﴾** كائنة **﴿من الرسل﴾** مبتدأة من جهتهم وعلى متعلق بجاءكم على الظرفية أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي ومزيد احتياج إلى بيان الشرائع والأحكام الدينية يقال فتر الشيء يفتر فتوراً إذا سكنت حركته وصارت أقل مما

كانت عليه وسميت المدة بين الأنبياء فترة لفتور الدواعي في العمل بتلك الشرائع ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بعث بعد انقطاع الرسل لأن الرسل كانت متواترة بعضها في أثر بعض إلى وقت رفع عيسى عليه السلام ﴿أن تقولوا﴾ تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف أي كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين ﴿ما جاءنا من بشير﴾ يبشرنا بالجنة ﴿ولا نذير﴾ يخوفنا بالنار وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ متعلق بمحذوف تنبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير ونذير أي بشير ونذير أي نذير على أن التنوين للتفخيم، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكون إليه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي وعلى الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما السلام حيث كان بينهما ستمائة سنة وتسع وتسعون سنة أو خمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ما روى الكلبي ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي وقيل: لم يكن بعد عيسى إلا رسول الله ﷺ وهو الأنسب بما في تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث إليهم عند كمال حاجتهم إليه بسبب مضي دهر طويل بعد انقطاع الوحي ليعدوه أعظم نعمة من الله وفتح باب إلى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يتعللوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم كذا في «الإرشاد». وفي الحديث «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فإنه ليس بيني وبينه نبي» قال ابن الملك: بطل بهذا قول من قال: الحواريون كانوا أنبياء بعد عيسى عليه السلام انتهى ومعنى قوله نبي أي نبي داع للخلق إلى الله وشرعه وأما خالد بن سنان فإن أظهر بدعواه الإنباء عن البرزخ الذي بعد الموت وما أظهر نبوته في الدنيا.

وقصته أنه كان مع قومه يسكنون بلاد عدن فخرجت نار عظيمة من مغارة فأهلكت الزرع والضرع فالتجأ إليه قومه فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه حتى رجعت هاربة منه إلى المغارة التي خرجت منها ثم قال لأولاده: إني أدخل المغارة خلف النار لأطفئها وأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة فإنهم إن نادوه قبل ثلاثة أيام فهو يخرج ويموت وإن صبروا ثلاثة أيام يخرج سالماً فلما دخل صبروا يومين واستفزهم الشيطان فلم يصبروا ثلاثة أيام فظنوا أنه هلك فصاحوا به فخرج خالد من المغارة وعلى رأسه ألم حصل من صياحهم فقال: ضيعتموني وأضعتم قولي ووصيتي وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوماً فإنه يأتيهم قطيع من الغنم يتقدمه حمار أبتر مقطوع الذنب فإذا حاذى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فإنه يقوم ويخبرهم بأحوال البرزخ والقبر عن يقين ورؤية فانتظروا أربعين يوماً فجاء القطيع وتقدمه حمار أبتر فوقف حذاء قبره فهمّ مؤمنو قومه أن ينبشوا عليه فأبى أولاده خوفاً من العار لئلا يقال لهم أولاد المنبوش قبره فحملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته وأضاعوه فلما بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جاءته بنت خالد فقال عليه السلام: «مرحباً بابنة نبي أضاعه قومه» وإنما أمر خالد أن ينبش عليه ليسأل ويخبر أن الحكم في البرزخ على صورة الحياة الدنيا فيعلم بذلك الأخبار صدق الرسل كلهم بما أخبروا به في حياتهم الدنيا فكان غرض خالد عليه السلام إيمان العالم كله بما جاءت به الرسل من أحوال القبر والمواطن والمقامات البرزخية ليكون

رحمة للجميع فإنه تشرف بقرب نبوته من نبوة محمد عليه السلام وعلم خالد أن الله أرسله رحمة للعالمين ولم يكن خالد برسول فأراد أن يحصل من هذه الرحمة في الرسالة المحمدية على حظ أوفر ولم يؤمر بالتبليغ فأراد أن يحظى في البرزخ بذلك التبليغ من مقام الرسالة ليكون أقوى في العلم في حق الخلق أي ليعلم قوة علمه بأحوال الخلائق في البرزخ فأضاعه قومه وإنما وصف النبي قومه بأنهم أضاعوا نبيهم أي وصية نبيهم حيث لم يبلغوه مراده من أخباره أحوال القبر كذا في «الفصوص» وشروحه واتفق العلماء على أنه ﷺ ولد بمكة عام الفيل في عاشر شهر ربيع الأول في ليلة يوم الاثنين منه فلما تشرف العالم وجوده الشريف وعنصره اللطيف أضاءت قلوب الخلق واستنارت فهداهم الله به عليه السلام فابصره من أبصر وعمي من عمي وبقي في الكفر والضلال.

دركار خانه عشق از كفرنا كزيرست آتش كرا بسوزد كر بولهب نباشد

وإنما أضاف تعالى الرسول إلى نفسه وقال رسولنا وما أضاف إليهم لأن فائدة رسالته لم تكن راجعة إليهم ولما خاطب هذه الأمة وأخبرهم عن مجيء الرسول ما أضافه إلى نفسه وإنما جعله من أنفسهم فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] لأن فائدة رسالته كانت راجعة إلى أنفسهم كما في «التأويلات النجمية»، فعلى المؤمن أن يقتفي أثر الرسول ﷺ ويتفكر في الوعد والوعيد فقد جاء البشير والنذير بحيث لم يبق للاعتذار مجال أصلاً.

ـ وروي ـ أن جبير بن مطعم قال: كنا مع النبي ﷺ بالجحفة فقال: «أليس تشهدون أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله وأن القرآن جاء من عند الله» فقلنا بلى قال: «فابشروا فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ أي: اذكر يا محمد لأهل الكتاب ما حدث وقت قول موسى لبني إسرائيل ناصحاً لهم. ﴿**يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ أي: إنعامه عليكم﴿**إذ جعل فيكم أنبياء**﴾ في وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث في أمة من الأمم ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء وكثرة الأشراف والأفاضل في القوم شرف وفضل لهم ولا شرف أعظم من النبوة﴿**وجعلكم ملوكا**﴾ أي: جعل فيكم أو منكم ملوكاً كثيرة فإنه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء وجعل الكل في مقام الامتنان عليهم ملوكاً لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك، وقال السعدي وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط في مملكة فرعون بمنزلة أهل الجزية قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني أصحاب خدم وحشم وكانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وقال بعضهم من له امرأة يأوي إليها ومسكن يسكنه وخادم يخدمه فهو من الملوك وكذا من كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جار فهو ملك﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ من البحر وإغراق العدو وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله من الأمور العظام والمراد

بالعالمين الأمم الخالية إلى زمانهم **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾** هي أرض بيت المقدس طهرت من الشرك وجعلت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين **﴿التي كتب الله لكم﴾** أي كتب في اللوح المحفوظ أنها تكون مسكناً لكم إن آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعدما عصوا فإنها محرمة عليهم **﴿ولا ترتدوا﴾** لا ترجعوا **﴿على أدباركم﴾** أي: مدبرين خوفاً من الجبابرة فهو حال من فاعل لا ترتدوا ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل أي: ولا ترجعوا على أعقابكم بخلاف ما أمر الله **﴿فتنقلبوا﴾** فتنصرفوا حال كونكم **﴿خاسرين﴾** أي: مغبونين بفوت ثواب الدارين.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قالوا﴾ أي: بنو إسرائيل عند أمر موسى ونهيه غير ممتثلين لذلك **﴿يا موسى إن فيها قوما جبارين﴾** أي متغلبين لا تتأتى مقاومتهم والجبار العالي الذي يجبر الناس ويكرههم كائناً من كان على ما يريده كائناً ما كان فعال من جبره على الأمر أي: أجبره عليه وذلك أن النقباء الاثني عشر الذين خرجوا لتجسس الأخبار وانتهوا إلى مدينة الجبارين لما رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا من قوتهم وشوكتهم وطول قدودهم وعظم أجسامهم وأن الرجل من بني إسرائيل ليدخل تحت قدمهم لعظمه ووسعته قال لهم موسى: اكتموا شأنهم ولا تخبروا به أحداً من أهل المعسكر فيفشلوا فأخبر كل واحد منهم قريبه وابن عمه إلا رجلين وفيا بما قال لهما موسى أحدهما يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف فتى موسى والآخر كالب بن يوفنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران وكان من سبط يهودا فشاع الخبر بين بني إسرائيل فلذا قالوا إن فيها قوماً جبارين **﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾** من غير صنع من قبلنا فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها **﴿فإن يخرجوا منها﴾** بسبب من الأسباب التي لا تعلق لنا بها **﴿فإنا داخلون﴾** حينئذٍ **﴿قال رجلان﴾** كأنه قيل هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض فقيل: قال رجلان وهما كالب ويوشع **﴿من الذين يخافون﴾** الله تعالى دون العدو ويتقونه في مخالفة أمره ونهيه وهو صفة لرجلان **﴿أنعم الله عليهما﴾** بالتثبيت والوقوف على شؤونه تعالى والثقة بوعده وهو صفة ثانية لرجلان **﴿ادخلوا عليهم الباب﴾** أي باب بلد الجبارين وهو أريحا وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود إنما هو دخول الباب وهم في بلدهم أي باغتوهم وضاغتوهم في المضيق وامنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالاً **﴿فإذا دخلتموه﴾** أي: باب بلدهم وهم فيه **﴿فإنكم غالبون﴾** من غير حاجة إلى القتال فإنا قد رأيناهم وشاهدناهم أن قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق فإنهم لا يقدرون فيها على الكر والفر **﴿وعلى الله﴾** خاصة **﴿فتوكلوا﴾** بعد ترتيب الأسباب ولا تعتمدوا عليها فإنها بمعزل من التأثير وإنما التأثير من عناية العزيز القدير **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتماً.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قالوا﴾ غير مبالين بقول ذينك الرجلين مصرين على القول الأول. ﴿يا موسى إنا لن ندخلها﴾ أي: أرض الجبابرة ﴿أبدا﴾ أي دهراً طويلاً ﴿ما داموا فيها﴾ أي: في أرضهم وهو بدل من أبداً بدل البعض لأن الأبد يعم الزمن المستقبل كله ودوام الجبارين فيها بعض منه. ﴿فاذهب﴾ الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿أنت وربك فقاتلا﴾ أي فقاتلاهم إنما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به تعالى وبرسوله وعدم مبالاة بهما لا أنهم قصدوا ذهابهما حقيقة لأن من هو في صورة الإنسان يستبعد منه أنه يجوز حقيقة الذهاب والمجيء على الله تعالى إلا أن يكون من المجسمة ﴿إنا ههنا قاعدون﴾ أراد بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر ﴿قال﴾ موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي إلا طاعة نفسي وأخي ﴿فافرق بيننا﴾ يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق والدعاء به على ما قبله ﴿وبين القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقون ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فإنها﴾ أي الأرض المقدسة ﴿محرمة عليهم﴾ تحريم منع لا تحريم تعبد وتكليف لا يدخلونها ولا يملكونها لأن كتابتها لهم كانت مشروطة بالإيمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين. ﴿أربعين سنة﴾ ظرف لمحرمة فالتحريم مؤقت بهذه المدة لا مؤبد فلا يكون مخالفاً لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فالمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم في هذه المدة لكن لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم ممن بقي ﴿يتيهون في الأرض﴾ أي يتحيرون في البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن والأسى الحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾.

ـ روي ـ أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل: لا تندم ولا تحزن عليهم فإنهم أحقاء بذلك لفسقهم فلبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ وهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يسيرون كل يوم جادين فإذا امسكوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا منه وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود من نور يضيء لهم وينزل عليهم المن والسلوى. ولا تطول شعورهم وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطوله وماؤهم من الحجر الذي يحملونه وهذه الإنعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق الفرك والتأديب وأصح الأقاويل أن موسى وهارون كانا معهم في التيه ولكن كان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم وملائكة العذاب.

قال في «التأويلات النجمية»: والتعجب في أن موسى وهارون بشؤم معاملة بني إسرائيل بقيا في التيه أربعين سنة وبنو إسرائيل ببركة كرامتهما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى في التيه ليعلم أثر بركة صحبة الصالحين وأثر شؤم صحبة الفاسقين انتهى، قال الحافظ:

ملول همر هان بودن طريق كارداني نيست بكش دشواريء منزل بياد عهد آساني

ـ روي ـ أن موسى عليه السلام خرج من التيه بعد أربعين سنة وسار بمن بقي من بني إسرائيل إلى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدمته فحارب الجبابرة وفتحها وأقام بها ما شاء الله ثم قبضه الله ولا يعلم قبره إلا الله وهذا أصح الأقاويل لاتفاق العلماء على أن عوج بن عنق

قتله موسى عليه السلام، قال السدي في وفاة هارون: إن الله أوحى إلى موسى أني متوفي هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا بشجرة لم ير مثلها فإذا بيت مبني وفيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير قال: فنم عليه فلما نام جاء ملك الموت فقال: يا موسى خدعتني فلما قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده على حب بني إسرائيل إياه فقال لهم موسى: ويحكم كان أخي أفتروني أقتل أخي فلما كثروا عليه صلى ركعتين ثم دعا فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صعد موسى وهارون الجبل فقال بنو إسرائيل: أنت قتلته فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرفت بنو إسرائيل أنه قد مات فبرأه الله مما قالوا ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه فلم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم فجعله الله أصم وأبكم. وقال عمرو بن ميمونة مات هارون وموسى في التيه مات هارون قبل موسى وكانا خرجا إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل فقالوا قتلته لحبنا إياه وكان محبباً في بني إسرائيل فتضرع موسى إلى ربه فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فنادى يا هارون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال: أنا قتلتك فقال: لا ولكنني مت قال: فعد إلى مضجعك وانصرفوا، وأما وفاة موسى عليه الصلاة والسلام قال ابن إسحٰق: كان صفي الله موسى قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب إليه الموت فنبىء يوشع بن نون فكان يعدو ويروح عليه فيقول له موسى: يا نبي الله ما أحدث الله إليك فيقول له يوشع: يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبثه به وتذكره ولا يذكر له شيئاً ولما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت وفي الحديث «جاء ملك الموت إلى موسى فقال له: أجب ربك قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فرجع ملك الموت إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وقد فقأ عيني قال فرد الله إليه عينه وقال ارجع إلى عبدي فقل له الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة قال: ثم ماذا قال: ثم تموت قال فالآن من قريب قال رب ادنني من الأرض المقدسة قدر رمية حجر» قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» قال محمد بن يحيى قد صح حديث ملك الموت وموسى عن رسول الله ﷺ ولا يرده إلا كل مبتدع كذا في «تفسير الثعلبي» وفي حديث آخر «إن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً حتى أتى موسى ليقبضه فلطمه ففقأ عينه فجاء ملك الموت بعد ذلك خفية» وقال وهب خرج موسى لبعض حاجاته فمر برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير شيئاً قط أحسن منه ومثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم: يا ملائكة الله لمن يحفر هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال: إن هذا العبد من الله بمنزل ما رأيت مضجعاً أحسن من هذا؟ قالوا: يا كليم الله أتحب أن يكون لك قال: وددت قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك قال: فاضطجع فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس أسهل نفس قبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب وقيل إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه.

ـ وروي ـ أن يوشع رآه بعد موته في المنام فقال: كيف وجدت الموت؟ قال: كشاة تسلخ وهي حية وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة فلما مات موسى وانقضت الأربعون بعث الله يوشع نبياً فأخبره أن الله قد أمره بقتال الجبابرة فصدقوه وتابعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحا معه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان السابع نفخوا في القرون وضج الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة ودخلوا فقاتلوا الجبارين فهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم البقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال: اللهم اردد الشمس علي وقال للشمس إنك في طاعة الله تعالى وأنا في طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت الشام كلها لبني إسرائيل وفرق عماله في نواحيها وجمع الغنائم فلم تنزل النار فأوحى الله إلى يوشع أن فيها غلولاً فمرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال: هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجواهر وكان قد غله فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ثم مات يوشع ودفن في جبل افرائيم وكان عمره مائة وستاً وعشرين سنة وتدبيره أمر بني إسرائيل بعد موت موسى سبعاً وعشرين سنة:

جهان أي برادر نماند بكس دل اندر جهان آفرين بندوبس

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾

﴿واتل عليهم﴾ أي: على أهل الكتاب **﴿نبأ ابني آدم﴾** أي: خبر ابني أبي البشر وهما قابيل وهابيل **﴿بالحق﴾** أي: تلاوة ملتبسة بالحق والصحة ذكر العلماء أن حواء كانت تلد في كل بطن ولدين ذكراً وأنثى إلا شيثا فإنها ولدته منفرداً فولدت أول بطن قابيل وأخته اقليما ثم ولدت في البطن الثانية هابيل وأخته ليوذا فلما أدركوا أوحى الله إلى آدم أنه يزوج كلاً منهما توأمة الآخر لأنه لم يكن يومئذٍ إلا اختاهما وكانت توأمة قابيل أجمل فحسد عليها أخاه وسخط وزعم أن ذلك ليس من عند الله بل من جهة آدم فقال لهما قربا قرباناً فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نار على قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل فازداد قابيل حسداً وسخطاً وفعل ما فعل **﴿إذ قربا قربانا﴾** ظرف لنبأ والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة وتوحيده لما أنه في الأصل مصدر والتقدير إذ قرب كل منهما قرباناً **﴿فتقبل من أحدهما﴾** هو هابيل وكان صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً أو كبشاً ولبناً وزبداً فنزلت نار من السماء بيضاء لا دخان لها فأكلته بعد دعاء آدم عليه السلام وكانت القرابين إذا كانت مقبولة

نزلت من السماء نار فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلتها الطير والسباع وقيل ما كان في ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرب به إلى الله تعالى فكانت علامة قبوله ما ذكر من مجيء النار والأكل. وروى سعيد بن جبير وغيره نزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ورفع بها إلى الجنة فلم يزل يرعى إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام. ﴿**ولم يتقبل من الآخر**﴾ وهو قابيل كان صاحب زرع وقرب اردأ ما عنده من القمح ولم تتعرض له النار أصلاً لأنه سخط حكم الله ولم يخلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده فنزلا عن الجبل الذي قربا عليه وقد غضب قابيل لرد قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل وهو في غنمه فعند ذلك ﴿**قال**﴾ أي: من لم يتقبل قربانه لأخيه ﴿**لأقتلنك**﴾ أي: والله لأقتلنك قال: ولم قال لأن الله قبل قربانك ورد قرباني وتنكح أختي الحسناء وأنكح الدميمة فيحدث الناس أنك خير مني ويفخر ولدك على ولدي ﴿**قال**﴾ الذي تقبل قربانه وما ذنبي ﴿**إنما يتقبل الله**﴾ أي: القربان ﴿**من المتقين**﴾ لا من غيرهم وإنما تقبل قرباني ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه أي إنما أديت من قبل نفسك لا من قبلي فلم تقتلني والتقوى من صفات القلب لقوله عليه السلام: «التقوى هٰهنا» وأشار إلى القلب وحقيقة التقوى أن يكون العامل على خوف ووجل من تقصير نفسه فيما أتى به من الطاعات وأن يكون في غاية الاحتراز من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوى طلب مرضاة الله وأن يكون فيه شركة لغير الله تعالى ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك**﴾ أي: والله لئن مددت إلي يدك وباشرت قتلي حسبما أوعدتني به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك في وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله: ﴿**إني أخاف الله رب العالمين**﴾ قيل كان هابيل أقوى ولكن تحرّج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله تعالى لأن القتل للدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت، قال البغوي: وفي الشرع جائز لمن أريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلباً للأجر كما فعل عثمان رضي الله عنه ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**﴾ تعليل آخر لامتناعه عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الأول باعث متقدم عليه وإنما لم يعطف تنبيهاً على كفاية كل منهما في العلية والمعنى إني أريد باستسلامي لك وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع بإثمي أي بمثل إثمي لو بسطت يدك إليك وبإثمك ببسط يدك إليّ كما في قوله ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم» أي: على البادىء عين إثم سبه ومثل سبه صاحبه بحكم كونه سبباً له وكلاهما نصب على الحالية أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما ولعل مراده بالذات إنما هو عدم ملابسته للإثم لا ملابسة أخيه له. ﴿**فتكون من أصحاب النار**﴾ في الآخرة ﴿**وذلك**﴾ إشارة إلى كونه من أصحاب النار ﴿**جزاء الظالمين**﴾ أي: عقوبة من لم يرض بحكم الله تعالى ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه**﴾ من طاع له المرتع إذا اتسع أي: وسعته وسهلته أي جعلته سهلاً وهوّنته وتقدير الكلام فصورت له نفسه أن قتل أخيه طوع له سهل عليه ومتسع له لا ضيق فيه ولا حرج فإن قتل النفس بغير حق لا سيما قتل الأخ إذا تصوره الإنسان يجده شيئاً عاصياً نافراً كل النفرة عن دائرة الشرع والعقل بعيداً عن الإطاعة والانقياد ألبتة ثم إن النفس الأمارة إذا استعملت القوة السبعية الغضبية صار لها الفعل أسهل عليها فكأن النفس صيرته كالمطيع لها بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليها ويتم الكلام بدون اللام بأن يقال فطوعته نفسه قتل أخيه إلا أنه جيء باللام لزيادة الربط كما في قولك حفظت لزيد ماله مع تمام الكلام بأن يقال حفظت مال

زيد. ﴿فقتله﴾ قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل إبليس وأخذ طائراً أو حية ووضع رأسه على الحجر ثم شدخها بحجر آخر وقابيل ينظر فتعلم منه فوضع رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصي عليه أو اغتاله وهو نائم وغنمه ترعى وذلك عند جبل ثور أو عقبة حراء أو بالبصرة في موضع المسجد الأعظم وكان لهابيل يوم قتله عشرون سنة وعن بعض الكبار أن آدم لما هبط إلى الأرض تفكر فيما أكل فاستقاء فنبتت شجرة السم من قيئه فأكلت الحية ذلك السم ولذا صارت مؤذية مهلكة وكان قد بقي شيء مما أكل فلما غشي حواء حصل قابيل ولذا كان قاتلاً باعثاً للفساد في وجه الأرض ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ خسر دينه ودنياه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خسر دنياه وآخرته أما الدنيا فإنه أسخط لوالديه وبقي مذموماً إلى يوم القيامة وأما الآخرة فهو العقاب العظيم ﴿فبعث الله غرابا﴾ أرسله ﴿يبحث في الأرض﴾ البحث بالفارسية «بكندن» ﴿ليريه﴾ المستكن إلى الله تعالى أو للغراب واللام على الأول متعلقة ببعث حتماً وعلى الثاني بيبحث ويجوز تعلقها ببعث أيضاً ﴿كيف يواري﴾ يستر ﴿سوءة أخيه﴾ أي جسده الميت فإنه مما يستقبح أنه يرى وقيل عورته لأنه كان قد سلب ثيابه. وكيف حال من ضمير يواري والجملة ثاني مفعولي يرى.

ـ روي ـ أنه لما قتله تركه بالعراء أي الأرض الخالية عن الأشجار ولم يدر ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره أربعين يوماً أو سنة حتى أروح وعفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمى به فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له فمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها وواراه وقابيل ينظر إليه وكأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب؟ فقيل: ﴿قال يا ويلتا﴾ هي كلمة جزع وتحسر والألف بدل من ياء المتكلم والمعنى يا ويلتى احضري فهذا أوانك والنداء وإن كان أصله لمن يتأتى منه الإقبال وهم العقلاء إلا أن العرب تتجوز وتنادي ما لا يعقل إظهاراً للتحسر ومثله يا حسرة على العباد والويل والويلة الهلكة ﴿أعجزت أن أكون﴾ أي: عن أن أكون ﴿مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب وقوله فأواري بالنصب عطف على أكون أي أعجزت عن كوني مشبهاً بالغراب فموارياً ﴿فأصبح من النادمين﴾ أي: على قتله لما كان من التحير في أمره وحمله على رقبته مدة طويلة وغير ذلك فلما كان ندمه لأجل هذه الأسباب لا للخوف من الله بسبب ارتكاب المعصية لم يكن ندمه توبة ولم ينتفع بندمه.

ـ روي ـ أنه لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كشرب الماء فناداه الله أين أخوك هابيل قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنت قتلته فحرم الله تعالى على الأرض يومئذٍ أن تشرب دماً بعده أبداً. قال مقاتل: كان قبل ذلك يستأنس السباع والطيور والوحوش فلما قتل قابيل هابيل نفروا فلحقت الطيور بالهواء والوحوش بالبرية والسباع بالغياض واشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه وأمر الماء واغبرت الأرض فقال آدم: قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل وكان جسد قابيل أبيض قبل ذلك فاسود فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً قال: بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم حزيناً على قتل ولده مائة سنة لا يضحك وأنشأ يقول وهو أول من قال الشعر:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه الصبيح

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من قال إن آدم قال شعراً فقد كذب إن محمداً والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سرياني فلما قال آدم مرثية قال لشيث يا بني إنك وصي احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرق الناس عليه فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط بالعربية وكان يقول الشعر فنظر إلى المرثية فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعراً وزيد فيه أبيات منها:

وما لي لا أجود بسكب دمع وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة علي نقما فهل أنا من حياتي مستريح

ـ وروي ـ عن أنس رضي الله عنه أنه قال: سئل النبي ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال: «يوم الدم فيه حاضت حواء وفيه قتل ابن آدم أخاه» فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حواء شيئاً وتفسيره هبة الله يعني أنه خلف من هابيل علمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وأعلمه عبادة الخلق في كل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصي آدم وولي عهده. وأما قابيل فقيل له اذهب طريداً شريداً فزعاً مرعوباً لا تأمن من تراه فأخذ بيد أخته إقليماً وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال له إنما أكلت النار فانصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار وهو أول من عبد النار وكان لا يمر به أحد إلا رماه فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له فقال للأعمى ابنه هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى أباه بحجارة فقتله فقال ابن الأعمى قتلت أباك فرفع يده فلطم ابنه فمات فقال الأعمى ويل لي قتلت أبي برميتي وقت ابني بلطمتي. قال مجاهد فعقلت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت من يومئذٍ إلى يوم القيامة وجهه إلى الشمس حيثما دارت عليه في الصيف حظيرة من نار وفي الشتاء حظيرة من ثلج وهو أول من عصى الله في الأرض من ولد آدم وهو أول من يساق إلى النار وفي الحديث: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها» لأنه أول من سن القتل وهو أب يأجوج ومأجوج شر أولاد توالدوا من شر والد. قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنى والفواحش حتى غرقهم الله بالطوفان أيام نوح وبقي نسل شيث، وفي التواريخ لما ذهب قابيل إلى سمت اليمن كثروا وخلفوا وطفقوا يتحاربون مع أولاد آدم يسكنون في الجبال والمغارات والغياض إلى زمن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث ففرقهم مهلاييل إلى أقطار الأرض وسكن هو في أرض بابل وكان كيو مرث أخاه الصغير وهو أول السلاطين في العالم فأخذوا يبنون المدن والحصون واستمر الحرب بينهم إلى آخر الزمان.

واعلم أن الكدر لا يرتفع من الدنيا وإنما يرتفع التكدر عن قلوب أهل الله تعالى كالنار والماء لا يرتفعان أبداً لكن يرتفع إحراق النار لبعض كما وقع لإبراهيم عليه السلام وإغراق الماء لبعض كما وقع لموسى عليه السلام والدنيا تذهب على هذا فطوبى لمن رضي وصبر.
قال الحافظ:

درين چمن كل بيخار كس نچيد أرى چراغ مصطفوى باشرار يولهبيست
وله:
مكن زغصه شكايت كه در طريق طلب براحتى نرسيد آنكه زحمتى نكشيد

والإشارة في الآيات أن آدم الروح بازدواجه مع حواء القلب ولد قابيل النفس وتوأمته إقليما الهوى في بطن أولاً ثم ولد هابيل القلب وتوأمته ليوذا العقل وكان إقليما الهوى في غاية الحسن لأن القلب يميل إلى طلب المولى وما عنده وهو محبب إليه وكان ليوذا العقل في نظر هابيل القلب في غاية القبح والدمامة لأن القلب به يعقل عن طلب الحق والفناء في الله ولهذا قيل العقل عقيلة الرجال وفي نظر قابيل النفس أيضاً في غاية القبح لأن النفس به تعقل عن طلب الدنيا والاستهلاك فيها فالله تعالى حرم الازدواج بين التوأمين كليهما وأمر بازدواج توأمة كل واحد منهما إلى توأم الأخرى لئلا يعقل القلب عن طلب الحق بل يحرضه الهوى على الاستهلاك والفناء في الله ولهذا قال بعضهم: لولا الهوى ما سلك أحد طريقاً إلى الله فإن الهوى إذا كان قرين النفس يكون حرصاً فيه تنزل النفس إلى أسفل سافلين الدنيا وبعد المولى وإذا كان قرين القلب يكون عشقاً فيه يصعد القلب إلى أعلى عليين العقبى وقرب المولى ولهذا سمي العشق هوى كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكنا

ولتعقل النفس عن طلب الدنيا بل يحرضها العقل على العبودية وينهاها عن متابعة الهوى فذكر آدم الروح لولديه ما أمر الله به فرضي هابيل القلب وسخط قابيل النفس وقال هي أختي يعني إقليما الهوى ولدت معي في بطن وهي أحسن من أخت هابيل القلب يعني ليوذا العقل وأنا أحق بها ونحن من ولائد جنة الدنيا وهما من ولائد أرض العقبى فأنا أحق بأختي فقال له أبوه إنها لا تحل لك يعني إذ كان الهوى قرينك فتهلك في أودية حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها فأبى أن يقبل قابيل النفس هذا الحكم من آدم الروح وقال الله تعالى لم يأمر به وإنما هذا من رأيه فقال لهما آدم الروح قربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها فخرجا ليقربا وكان قابيل النفس صاحب زرع يعني مدبر النفس النامية وهي القوة النباتية فقرب طعاماً من أردى زرعه وهو القوة الطبيعية وكان هابيل القلب راعياً يعني مواشي الأخلاق الإنسانية والصفات الحيوانية فقرب جملاً يعني الصفة البهيمية وهي أحب الصفات إليه لاحتياجه إليها لضرورة التغذي والبقاء ولسلامتها بالنسبة إلى الصفات السبعية الشيطانية فوضعها قربانهما على جبل البشرية ثم دعا آدم الروح فنزلت نار المحبة من سماء الجبروت فأكلت جمل الصفة البهيمية لأنها حطب هذه النار ولم تأكل من قربان قابيل النفس حبة لأنها ليست من حطبها بل هي من حطب نار الحيوانية فهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿**واتل عليهم**﴾ الآية.

والإشارة في قوله: ﴿**فطوعت له نفسه**﴾ أي: نفس قابيل النفس طوعت له وجوزت ﴿**قتل أخيه**﴾ وهو القلب لأن النفس أعدى عدو القلب ﴿**فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾ يعني: في قتل القلب خسارة النفس في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فتحرم عن الواردات والكشوف والعلوم الغيبية التي منشأها القلب وعن ذوق المشاهدات ولذة المؤانسات فتبقى في خسران جهولية الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ ـ ٢] وأما في الآخرة فتخسر الدخول في جنات النعيم ولقاء الرب الكريم والنجاة من الجحيم والعذاب الأليم

وفي قوله: ﴿فبعث الله﴾ إشارات منها ليعلم أن الله قادر على أن يبعث ﴿غرابا﴾ أو غيره من الحيوان إلى الإنسان ليعلمه ما لم يعلم كما يبعث الملائكة إلى الرسل والرسل إلى الأمم ليعلموهم ما لم يعلموا، ومنها لئلا يعجب الملائكة والرسل أنفسهم باختصاصهم بتعليم الحق فإنه يعلمهم بواسطة الغراب كما يعلمهم بواسطة الملائكة والرسل، ومنها ليعلم الإنسان أنه محتاج في التعلم إلى غراب ويعجز أن يكون مثل غراب في العلم، ومنها أن لله تعالى في كل حيوان بل في كل ذرة آية تدل على وحدانيته واختياره حيث يبدي المعاملات المعقولة من الحيوانات الغير العاقلة، ومنها إظهار لطفه مع عباده في أسباب التعيش حتى إذا أشكل عليهم أمر كيف يرشدهم إلى الاحتيال بلطائف الأسباب لحله كذا في «التأويلات النجمية».

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿من أجل ذلك﴾ شروع فيما هو المقصود بتلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بني إسرائيل ومعاصيهم وذلك إشارة إلى عظم شأن القتل وإفراط قبحه أي من أجل كون القتل على سبيل العدوان مشتملاً على أنواع المفاسد من خسارة جميع الفضائل الدينية والدنيوية وجمع السعادات الأخروية كما هي مندرجة في إجمال قوله: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ ومن الابتلاء بجميع ما يوجب الحسرة والندامة من غير أن يكون لشيء منها ما يدفعه البتة كما هو مندرج في إجمال قوله ﴿فأصبح من النادمين﴾ وأجل في الأصل مصدر أجل شراً إذا جناه وهيجه استعمل في تعليل الجنايات أي في جعل ما جناه الغير علة لأمر يقال فعلته من أجلك أي بسبب أن جنيت ذلك وكسبته ثم اتسع فيه واستعمل في كل تعليل ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى: ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ وتقديمها عليه للقصر أي من ذلك ابتدىء الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر أي قضينا عليهم في التوراة وبينا ﴿أنه من قتل نفسا﴾ واحدة من النفوس ﴿بغير نفس﴾ أي: بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أو فساد في الأرض﴾ أي: فساد يوجب إهدار دمها كالشرك وقطع الطريق وهو عطف على ما أضيف إليه غير بمعنى نفي كلا الأمرين معاً كما في قولك: من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته لا نفي أحدهما كما في قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم وقوله جميعاً حال من الناس أو تأكيد ﴿ومن أحياها﴾ أي: تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة ﴿فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً والمقصود من التشبيه المبالغة في تعظيم أمر القتل بغير حق والترغيب في الاحتراز عنه ﴿ولقد جاءتهم﴾ أي: أهل الكتاب ﴿رسلنا بالبينات﴾ أي: وبالله

لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيداً لوجوب مراعاته وتأييداً لتحتم المحافظة عليهم ﴿**ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك**﴾ أي: بعدما ذكر من الكتب وتأكيد الأمر بإرسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى وثم للتراخي في الرتبة والاستبعاد ﴿**في الأرض لمسرفون**﴾ في القتل غير مبالين به والإسراف في كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به. قوله ﴿**بعد ذلك**﴾ وقوله: ﴿**في الأرض**﴾ يتعلقان بقوله لمسرفون وهو خبر أنّ وبهذا أي بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ [المائدة: ٣٢] اتصلت القصة بما قبلها.

وفي «التأويلات النجمية»: اعلم أن كل شيء ترى فيه آية من الله تعالى فهو في الحقيقة رسول من الله إليك ومعه آية بينة ومعجزة ظاهرة يدعوك بها إلى الله ثم إن كثيراً من الذين شاهدوا الآيات وتحققوا البينات بعد رؤية الآيات في الأرض لمسرفون أي: في أرض البشرية مجاوزون حد الشريعة والطريقة بمخالفة أوامر الله ونواهيه انتهى.

واعلم أن أهل الغفلة يشاهدون الآثار لكنهم غافلون عن الحقيقة فهم كأنهم لا بصر لهم بل غيرة الحق تمنعهم من الرؤية الصحيحة لكونهم أغياراً غير لائقين بالدخول في المجلس الخاص، قال الحافظ:

معشوق عيان ميكذرد برتو وليكن أغيار همى بيند ازان بسته نقابست

وكل ذرة من ذرات الكائنات وإن كانت قائمة بالحق وبنوره في الحقيقة إلا أن الدنيا خيال يحتاج السالك إلى العبور عن مسالكه إلى أن ينتهي إلى الحق، وفي «المثنوي»:

اين جهانرا كه بصورت قائمست كفت پيغمبر كه حلم نائمست
ازره تقليد توكردى قبول سالكان اين ديده پيدا بي رسول
روز درخوابي مكوكين خواب نيست سايه فرعست أصل جز مهتاب نيست
خواب بيداريت آن دان اي عضد كه نبيند خفته كو در خواب شد
او كمان برده كه اين دم خفته ام بي خبر زان كوست درخواب دوم

وهذه أي اليقظة من المنام على الحقيقة لا تتيسر إلا لأرباب المكاشفة الصحيحة وأصحاب المشاهدة الواضحة اللهم أفض علينا من هذا المقام ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله**﴾ أي: يحاربون أولياءهما وهم المسلمون جعل محاربتهم محاربتهما تعظيماً لهم والمراد بالمحاربة قطع الطريق وهو إنما يكون من قوم اجتمعوا في الصحراء وتعرضوا لدماء المسلمين وأموالهم وأزواجهم وإمائهم ولهم قوة وشوكة تمنعهم ممن أرادهم ﴿**ويسعون في الأرض فسادا**﴾ حال من فاعل يسعون أي مفسدين. نزلت في قوم هلال بن عويمر الأسلمي وكان وادعه رسول الله ﷺ عن أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج ومن مر بهلال إلى رسول الله فهو آمن لايهاج فمرقوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذٍ حاضراً فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم، فإن قلت بنفس إرادة الإسلام لا يخرج الشخص عن كونه حربياً والحد لا يجب بقطع الطريق عليه وإن كان مستأمناً، قلت معناه يريدون تعلم أحكام الإسلام فإنهم كانوا مسلمين أو يقال جاؤوا على قصد الإسلام فهم بمنزلة أهل الذمة والحد واجب بالقطع على أهل الذمة ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة ووجوه شتى من القتل بدون أخذ المال ومن القتل مع أخذه ومن

أخذه بدون قتل ومن الإخافة بدون قتل وأخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل ﴿**أن يقتلوا**﴾ أي حداً من غير صلب إن أفردوا القتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت إلى ذلك لأنه حق الشرع ولا فرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أو لا ﴿**أو يصلبوا**﴾ أي: يصلبوا مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح إلى أن يموتوا ولا يصلبوا بعدما قتلوا لأن الصلب حياً أبلغ في الردع والزجر لغيره عن الإقدام على مثل هذه المعصية ﴿**أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف**﴾ أي: أيديهم اليمنى من الرسغ وأرجلهم اليسرى من الكعب إن اقتصروا على أخذ مال من مسلم أو ذمي وكان في المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلاً منهم عشرة دراهم أو ما يساويها قيمة أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلإخافة الطريق بتفويت أمنه ﴿**أو ينفوا من الأرض**﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعي للفساد والمراد بالنفي عندنا هو الحبس فإنه نفي عن وجه الأرض بدفع شرهم عن أهلها ويعزرون أيضاً لمباشرتهم منكر الإخافة وإزالة الأمن. ﴿**ذلك لهم خزي**﴾ كائن ﴿**في الدنيا**﴾ أي: ذل وفضيحة. قوله: ﴿**ذلك**﴾ مبتدأ ولهم خبر مقدم على المبتدأ وهو الخزي والجملة خبر لذلك. ﴿**ولهم في الآخرة**﴾ غير هذا ﴿**عذاب عظيم**﴾ لا يقادر قدره لغاية عظم جنايتهم. فقوله تعالى لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالاً من عذاب لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالاً أي كائناً في الآخرة ﴿**إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم**﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿**فاعلموا أن الله غفور رحيم**﴾ أما ما هو من حقوق الآدميين فإنه لا يسقط بهذه التوبة فإن قطاع الطريق إن قتلوا إنساناً ثم تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بهذه التوبة وجوب قتلهم حداً وكان ولي الدم على حقه في القصاص والعفو وإن أخذوا مالاً ثم تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بهذه التوبة وجوب قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكان حق صاحب المال باقياً في ماله ووجب عليهم رده وأما إذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية أن التوبة لا تنفعه ويقام الحد عليه في الدنيا كما يضمن حقوق العباد وإن سقط عنه العذاب العظيم في العقبى. والآية في قطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها يعني أن المشرك المحارب لو آمن بعد القدرة عليه فلا سبيل عليه بشيء من الحدود ولا يطالب بشيء مما أصاب في حال الكفر من دم أو مال كما لو آمن قبل القدرة عليه. وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليه أي قبل أن يظفر به الإمام سقطت عنه العقوبة التي وجبت حقاً لله ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فإن كان قد قتل في قطع الطريق سقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتم القتل ويبقى عليه القصاص لولي القتل إن شاء عفا عنه وإن شاء استوفاه وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع وإن كان جمع بينهما يسقط عنه تحتم القتل والصلب ويجب ضمان المال. وقال بعضهم إذا جاء تائباً قبل القدرة عليه لا يكون لأحد تبعة في دم ولا مال إلا أن يوجد معه مال بعينه فيرده على صاحبه. روي عن علي رضي الله عنه أن الحارث بن بدر جاءه تائباً بعدما كان يقطع الطريق ويسفك الدماء ويأخذ الأموال فقبل توبته ولم يجعل عليه تبعة أصلاً وأما من تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء من الحقوق.

اعلم أن قطع الطريق وإخافة المسافرين من أقبح السيآت كما أن دفع الأذى عن الطريق من أحسن الصالحات وفي الحديث: «عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في

محاسن أعمالها الأذى يماط على الطريق ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن» وفي الحديث «من أشار إلى أخيه» أي: أخيه المسلم والذمي في حكمه «بحديدة» أي بما هو آلة القتل لأنه جاء في رواية «بسلاح» مكان بحديدة «فإن الملائكة تلعنه» يعني: تدعو عليه بالبعد عن الجنة أول الأمر لأنه خوف مسلماً بإشارته وهو حرام لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحل لمسلم أن يروع المسلم» أو لأنه قد يسبقه السلاح فيقتله كما صرح به في رواية مسلم «لا يشر أحدكم إلى أخيه فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده وإن كان أخاه» أي: المشير أخا المشار إليه «لأبيه وأمه» يعني فإن كان هازلاً ولم يقصد ضربه كنى به عنه لأن الأخ الشقيق لا يقصد قتل أخيه غالباً.

والإشارة في الآية أن محاربة الله ورسوله معاداة أولياء الله فإن في الخبر الصحيح حكاية عن الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لجروه» ألا يرى أن بلعم بن باعوراء في زمن موسى عليه السلام كان بحيث إذا نظر رأى العرش فلما مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة ولم يترك لولي من أوليائه حرمة واحدة سلب الله معرفته وجعله بمنزلة الكلب المطرود فجزاء مثل هذا المحارب أن يقتل بسكين الخذلان أو يصلب بحبل الهجران على جذع الحرمان أو تقطع أيديه عن أذيال الوصال وأرجله من خلاف عن الاختلاف أو ينفى من أرض القربة والائتلاف فله في الدنيا بعد وهوان وفي الآخرة عذاب القطيعة والهجران إلا الذين تابوا إلى الله واستغفروا واعتذروا عن أولياء الله من قبل أن تقدروا عليهم برد الولاية أيها الأولياء فإن ردهم رد الحق وقبولكم قبول الحق وأن مردود الولاية مفقود العناية. قال الحافظ:

كليد كنج سعادت قبول أهل دلست ... مبادكس كه درين نكته شك وريب كند

وفي «المثنوي»:

لا جرم آنراه بر تو بسته شد ... چون دل أهل دل ازتو خسته شد

زود شان درياب واستغفار كن ... همچو ابرى كريها وزار كن

تاكلستان شان سوى توبشكفد ... ميوهاى بخته بر خود واكفد

هم بران در كرد كم ازسك مباش ... باسك كهف ارشد ستى خواجه تاش

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ أي: اخشوا عذابه واحذروا معاصيه. ﴿**وابتغوا**﴾ أي: اطلبوا لأنفسكم ﴿**إليه**﴾ أي إلى ثوابه والزلفى منه ﴿**الوسيلة**﴾ أي: القربة بالأعمال الصالحة. قوله تعالى: ﴿**إليه**﴾ متعلق بالوسيلة قدم عليها للاهتمام وليست بمصدر حتى يمتنع أن يتقدم معمولها عليها بل هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من وسل إلى كذا تقرب إليه والجمع الوسائل. وقال عطاء الوسيلة أفضل درجات الجنة وفي الحديث «سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد وأرجو من الله أن يكون هو أنا» وفي الحديث «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة». قال

المولي الفناري في تفسير الفاتحة: أما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله ﷺ حصلت له بدعاء أمته فعل ذلك الحق سبحانه لحكمة أخفاها فإنا بسببه نلنا السعادة من الله وبه كنا خير أمة أخرجت للناس وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين وهو ﷺ مبشر كما أمر أن يقول ولنا وجه خاص إلى الله تعالى نناجيه منه ويناجينا وكذا كل مخلوق له وجه خاص إلى ربه فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى ينزل فيها بدعاء أمته وهذا من باب الغيرة الإلهية انتهى ﴿**وجاهدوا في سبيله**﴾ بمحاربة الأعداء الظاهرة والباطنة ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ بالوصول إلى الله والفوز بكرامته.

والإشارة في الآية أن الله تعالى جعل الفلاح الحقيقي في أربعة أشياء: أحدها الإيمان وهو إصابة رشاشة النور في بدء الخلقة وبه يخلص العبد من حجب ظلمة الكفر، وثانيها التقوى وهو منشأ الأخلاق المرضية ومنبع الأعمال الشرعية وبه يخلص العبد من ظلمة المعاصي، وثالثها ابتغاء الوسيلة وهو فناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية وبه يتخلص العبد من ظلمة أوصاف الوجود، ورابعها الجهاد في سبيل الله وهو اضمحلال الأنانية في إثبات الهوية وبه يتخلص العبد من ظلمة الوجود ويظفر بنور الشهود فالمعنى الحقيقي ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ بإصابة النور ﴿**اتقوا الله**﴾ بتبديل الأخلاق الذميمة ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾ في إفناء الأوصاف ﴿**وجاهدوا في سبيله**﴾ ببذل الوجود ﴿**لعلكم تفلحون**﴾بنيل المقصود من المعبود كذا في «التأويلات النجمية».

واعلم أن الآية الكريمة صرحت بالأمر بابتغاء الوسيلة ولا بد منها البتة فإن الوصول إلى الله تعالى لا يحصل إلا بالوسيلة وهي علماء الحقيقة ومشايخ الطريقة، قال الحافظ:

قطع اين مرحله بى همرهى خضر مكن ظلماتست بترس از خطر كمراهى

والعمل بالنفس يزيد في وجودها وأما العمل وفق إشارة المرشد ودلالة الأنبياء والأولياء فيخلصها من الوجود ويرفع الحجاب ويوصل الطالب إلى رب الأرباب. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة لطلب الدخول إلى الله وأقمنا فيها ونقول يفتح لنا غداً أو بعد غد فدخل علينا يوماً رجل ذو هيبة وعلمنا أنه من أولياء الله فقلنا له: كيف حالك فقال: كيف يكون حال من يقول يفتح لنا غداً أو بعد غدٍ يا نفس لِمَ لا تعبدين الله؟! فتيقظنا وتبنا إلى الله وبعد ذلك فتح علينا فلا بد من قطع التعلق من كل وجه لينكشف حقيقة الحال.

قال الحافظ:

فداى دوست نكرديم عمر مال دريغ كه كار عشق زما اين قدر نمى آيد

وفي صحبة الأخيار والصلحاء شرف عظيم وسعادة عظمى.

- وحكي - أن خادم الشيخ أبي يزيد البسطامي كان رجلاً مغربياً فجرى الحديث عنده في سؤال منكر ونكير فقال المغربي والله إن يسألاني لأقولن لهما فقالوا له ومن أين يعلم ذلك فقال: اقعدوا على قبري حتى تسمعوني فلما انتقل المغربي جلسوا على قبره فسمعوا المسألة وسمعوه يقول أتسألونني وقد حملت فروة أبي يزيد على عنقي فمضوا وتركوه ولا تستبعد أمثال هذا فإن جواب المجيب المدقق يذهب معه من هنا فحصل مثل هذا الزاد، وفي «المثنوي»:

كنج زرى كه چو خسبى زير ريك باتو باشد آن نباشد مرد ريك

پيش پيش آن جنازت مى رود مونس كور وغريبى ميشود

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إن الذين كفروا لو أن لهم﴾ أي: لكل واحد منهم **﴿ما في الأرض﴾** أي من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها وهو اسم إن ولهم خبرها **﴿جميعا﴾** توكيد للموصول أو حال منه **﴿ومثله﴾** عطف على الموصول أي ضعفه **﴿معه﴾** ظرف وقع حالاً من المعطوف والضمير راجع إلى الموصول. **﴿ليفتدوا به﴾** متعلق بما تعلق به خبر إن أعني: الاستقرار المقدر في لهم وبه متعلق بالافتداء والضمير راجع إلى الموصول ومثله معاً وتوحيده لإجرائه مجرى اسم الإشارة كأنه قيل بذلك **﴿من عذاب يوم القيامة﴾** متعلق بالافتداء أيضاً أي لو أن ما في الأرض ومثله ثابت لهم لجعلوه فدية لأنفسهم من العذاب الواقع يومئذٍ وافتدوا به **﴿ما تقبل منهم﴾** ذلك وهو جواب لو ولو بما في حيزه خبر إن والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وفي الحديث «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم فيقال له: إنك كنت سئلت ما هو الأيسر من ذلك» أي ما هو أسهل من الافتداء المذكور وهو ترك الإشراك بالله تعالى وإتيان كلمة الشهادة **﴿ولهم عذاب أليم﴾** وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم **﴿يريدون﴾** كأنه قيل فكيف يكون حالهم أو ماذا يصنعون فقيل إنهم يريدون **﴿أن يخرجوا من النار﴾** له وجوه الأول أنهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار ويرفعهم إلى فوق فهناك يريدون الخروج ولات حين مناص والثاني أنهم يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها إياهم والثالث أنهم يتمنون ويريدون بقلوبهم **﴿وما هم﴾** أي: يريدون ذلك والحال أنهم ليسوا **﴿بخارجين منها﴾** لأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها **﴿ولهم عذاب مقيم﴾** أي: دائم لا ينقطع وهو تصريح بعدم تناهي مدته بعد بيان شدته وفي الحديث «يقال لأهل الجنة لكم خلود ولا موت ولأهل النار يا أهل النار خلود ولا موت» أي لكم خلود في النار.

ـ روي ـ أن هذين القولين يكونان بعد أن يؤتى بالموت في صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار وإنما يمثل الموت بهذا المثال ليشاهدوا بأعينهم ويستقر في أنفسهم أن الموت ارتفع فيزداد أهل الجنة فرحاً وأهل النار ترحاً وتخصيص صورة الكبش لأنه لما كان فداء عن إسماعيل الذي نبينا عليه السلام من نسله كان في المعنى فداء عن جميع الأحياء في الدنيا لأنهم خلقوا لأجله فناسب أن يكون فداء عنهم في دار الآخرة أيضاً كذا في «شرح المشارق» لابن الملك.

واعلم أن الكفر وجزاءه وهو الخلود في النار أثر إخطاء رشاش النور الإلهي في عالم الأرواح وقد أنعم الله تعالى على المؤمنين بإصابة ذلك النور، وفي «المثنوي»:

مؤمنان كان عسل زنبور وار ... كافران خودكان زهرى همچومار
جنبش خلق ازقضا ووعده است ... تيزىء دندان زسوز معده است
نفس أول راند بر نفس دوم ... ما هي ازسر كنده باشدني زدم
تونميداني كزين دوكيستي ... جهدكن چندانكه بيني چيستي

چون نهی برپشت کشتی باررا — بر توکل میکنی آن کاررا
تو نمیدانی که ازهر دوکیء — غرقه اندر سفر یا ناجی
چونکه بربوکست جمله کارها — کار دین أولی کزین یابی رها

قال بعض الصلحاء: رأيت في منامي كأني واقف على قناطر جهنم فنظرت إلى هول عظيم فجعلت أفكر في نفسي كيف العبور على هذه فإذا قائل يقول: يا عبد الله ضع حملك واعبر قلت ما حملي قال دع الدنيا. قال الحافظ:

تاکی غم دنیای دنی اي دل دانا — حيفست زخوبى كه شود عاشق زشتى

وفي الحديث يؤتى بأنعم أهل الدنيا الباء فيه للتعدية وأنعم أفعل تفضيل من النعمة أي بأكثرهم نعمة «من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة» يعني يغمس فيها مرة أراد من الصبغ الغمس إطلاقاً للملزوم على اللازم لأن الصبغ إنما يكون بالغمس غالباً ثم أراد من غمسه فيها إصابة نفخة من النار به «ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب» شدة العذاب أنسته ما مضى عليه من نعم الدنيا «ويؤتى بأشد الناس بؤساً» أي شدة وبلاء في الدنيا «من أهل الجنة فيصبغ صبغة من الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط» كذا في «شرح المشارق» لابن ملك:

هر چند غرق بحر كناهم زصد جهت — كر آشناى عشق شوم زاهل رحمتم

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿**والسارق والسارقة**﴾ وهو مبتدأ محذوف الخبر أي حكم السارق والسارقة ثابت فيما يتلى عليكم فقوله تعالى: ﴿**فاقطعوا أيديهما**﴾ بيان لذلك الحكم المقدر فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها ولذلك أتى بها فيه لأنه هو المقصود مما قبلها ولو لم يأت بالفاء لتوهم أنه أجنبي وإنما قدر الخبر لأن الأمر إنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل والمراد بأيديهما إيمانهما ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] اكتفاء بتثنية المضاف إليه وتفصيل ما يتعلق بالسرقة سيجيء في آخر المجلس ﴿**جزاء بما كسبا نكالا من الله**﴾ منصوبان على المفعول له والمعنى فاقطعوهما مكافأة لهما على ما فعلا من فعل السرقة وعقوبة رادعة لهما من العود ولغيرهما من الاقتداء بهما وبما متعلق بجزاء ومن الله صفة نكالاً أي نكالاً كائناً منه تعالى، والنكال اسم بمعنى التنكيل مأخوذ من النكول وهو الامتناع ﴿**والله عزيز**﴾ غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿**حكيم**﴾ في شرائعه لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح ﴿**فمن تاب**﴾ من السراق إلى الله تعالى ﴿**من بعد ظلمه**﴾ أي: من بعد أن ظلم غيره بأخذ ماله والتصريح به مع أن التوبة لا تتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته ﴿**وأصلح**﴾ أي: أمره بالتفصي عن تبعات ما باشره والعزم على أن لا يعود إلى

السرقة ﴿**فإن الله يتوب عليه**﴾ أي: يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لأن فيه حق المسروق منه. قال الحدادي لا تقطع يده إذا رد المال قبل المرافعة إلى الحاكم وأما إذا رفع إلى الحاكم ثم تاب فالقطع واجب فإن كانت توبته حقيقة كان ذلك زيادة درجات له كما أن الله تعالى ابتلى الصالحين والأنبياء بالبلايا والمحن والأمراض زيادة لهم في درجاتهم وإن لم تكن توبته حقيقة كان الحد عقوبة له على ذنبه وهو مؤاخذ في الآخرة إن لم يتب ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة ولذلك يقبل التوبة ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به الجميع والاستفهام الإنكاري لتقرير العلم والمراد بذلك الاستشهاد على قدرته تعالى على ما سيأتي من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه أي ألم تعلم أن الله له السلطان القادر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة إلى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته. ﴿**يعذب من يشاء**﴾ أن يعذبه ولو على الذنب الصغير وهو عدل منه. ﴿**ويغفر لمن يشاء**﴾ أن يغفر له ولو كان الذنب عظيماً وهو الفضل منه أي يعذب لمن توجب الحكمة تعذيبه ويغفر لمن توجب الحكمة مغفرته ﴿**والله علىٰ كل شيء قدير**﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة، قال ابن الشيخ: إنه تعالى لما أوجب قطع يد السارق وعقاب الآخرة لمن مات قبل التوبة ثم ذكر أنه يقبل توبته إن تاب أردفه ببيان أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء يحسن منه التعذيب تارة والمغفرة أخرى لأنه مالك جميع المحدثات وربهم وإلٰههم والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف شاء وأراد لا كما زعمت المعتزلة من أن حسن أفعاله تعالى ليس لأجل كونه إلٰهاً للخلق ومالكاً بل لأجل كونها على وفق مصالح الخلق ومتضمنة لرعاية ما هو الأصلح لهم انتهى.

واعلم أن السرقة هي أخذ مكلف خفية قدر عشرة دراهم مضروبة من حرز لا ملك له فيه ولا شبهته فاحترز بالمكلف عن أخذ صبي ومجنون وبالخفية وهو ركن السرقة عن الغصب وقطع الطريق. وقوله قدر عشرة دراهم أي عيناً أو قيمة وهذا نصاب السرقة في حق القطع وأما في حق العيب فأخذ ما دون العشرة يعد سرقة أيضاً شرعاً ويعد عيباً حتى يرد العبد به على بائعه وعند الشافعي نصاب السرقة ربع دينار ولنا قوله عليه السلام: «لا قطع إلا في ربع دينار أو في عشرة دراهم» والأخذ بالأكثر أولى احتيالاً لدرأ الحد والمعتبر في هذه الدراهم ما يكون عشرة منها وزن سبعة مثاقيل واحترز بالمضروبة عما قيمته دونها حتى إذا سرق تبرا عشرة لا يساوي عشرة مضروبة لا يجب القطع وقوله من حرز أي من مال ممنوع من أن يصل إليه يد الغير سواء كان المانع بناء أو حافظاً. قال البغوي: إذا سرق شيئاً من غير حرز كثمر في حائط لا حارس له أو حيوان في برية لا حافظ له أو متاع في بيت منقطع عن البيوت لا قطع عليه وقيد بقوله ولا شبهته لأنه لو كان له شبهة في المسروق كما إذا سرق من بيت المال أوفى الحرز كما إذا سرق من بيت أذن للناس بالدخول فيه كالحمام والرباط لا يقطع لأن القطع يندرىء بالشبهة وكذا لا قطع بسرقة مال سيده لوجود الإذن بالدخول عادة وكذا بسرقة مال زوجته أو زوجها ولو من حرز خاص لآخر لا يسكنان فيه لأن اليد المبسوطة لكل من الزوجين في مال الآخر ثابتة وهو مانع عن القطع وكذا لا قطع بسرقة مال من بينهما قرابة ولاء لجريان الانبساط بين الأصول والفروع بالانتفاع في المال والدخول في الحرز ولا بسرقة من بيت ذي

رحم محرم ولو كان المسروق مال غيره لعدم الحرز ويقطع يمين السارق من زنده وهو مفصل الذراع في الكف ويحسم بأن يدخل في الدهن الحار بعد القطع لقطع الدم لأنه لو لم يحسم لأفضى إلى التلف والحد زاجر لا متلف ولهذا لا يقطع في الحر الشديد والبرد الشديد وإن سرق ثانياً بعدما قطعت يده اليمنى تقطع رجله اليسرى من المفصل وإن سرق ثالثاً لا يقطع بل يحبس حتى يتوب ويظهر عليه سيما الصالحين والتائبين لقول علي رضي الله عنه فيمن سرق ثلاث مرات إني لأستحيي من الله أن لا أدع له يداً يأكل بها ويستنجي ورجلاً يمشي عليها وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وفيه دليل على أن التوبة يعلم أثرها وتثبت السرقة بما يثبت به شرب الخمر أي بالشهادة أو بالإقرار مرة ونصابها رجلان لأن شهادة النساء غير مقبولة في الحدود وطلب المسروق منه شرط القطع لأن الخيانة على ملك الغير لا تظهر إلا بخصومته ولا فرق في القطع بين الشريف والوضيع، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سرقت امرأة مخزومية فأراد النبي ﷺ أن يقطع يدها فاستشفع لها أسامة بن زيد وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه فلم يقبل وقال: «يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» وفي الحديث نهي عن الشفاعة في الحدود بعد بلوغ الإمام ولهذا رد رسول الله ﷺ شفاعة أسامة وأما قبله فالشفاعة من المجني عليه جائزة والستر على الذنب مندوب إذا لم يكن صاحب شر وأذى، قال السعدي:

پس پرده بيند عملهاى بد   هم اوپرده پوشد ببالاى خود

وفي الحديث أيضاً دلالة على وجوب العدل في الرعية وإجراء الحكم على السوية، قال الإمام أبو منصور: فإن قيل ما الحكمة في قطع يد قيمتها ألوف بسرقة عشرة دراهم فكيف يكون قطعها جزاء لفعل السارق وقد قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] قلنا: جزاء الدنيا محنة يمتحن بها المرء ولله تعالى أن يمتحن بما شاء ابتداء أي من غير أن يكون ذلك جزاء على كسب العبد ولأن القطع ليس بجزاء ما أخذ من المال ولكن لما هتك من الحرمة ألا يرى أنه قال جزاء بما كسبا فيجوز أن يبلغ جزاء هتك تلك الحرمة قطع اليد وإن قصر على العشرة علم ذلك لأن مقادير العقوبات إنما يعلمها من يعلم مقادير الجنايات وإذا كان الأمر كذلك فالحق التسليم والانقياد انتهى. ونعم ما قال يونس بن عبيد في باب الترهيب: لا تأمن من قطع في خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون عذابه هكذا غداً كما في «منهاج العابدين»، فعلى العاقل أن يتوب عن الزلل وينقطع عن الحيل ويتوجه إلى الله الأعلى الأجل، وفي «المثنوي»:

حيلها وچارها كر ازدهاست   پيش الا الله آنها جمله لاست

قفل زفتست وكشانيده خدا   دست در تسليم زن اندر رضا

ثم إن الله تعالى إنما بدأ بالسارق في هذه الآية قبل السارقة وفي آية الزنى بدأ بالزانية لأن السرقة تفعل بالقوة والرجل أقوى من المرأة والزنى يفعل بالشهوة والمرأة أكثر شهوة والمرأة أدعى من الرجل إلى نفسها منه إليها ولهذا لو اجتمع جماعة على امرأة لم يقدروا عليها إلا بمرادها ولهذا قيل: قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ولم يقل: وعصت حواء مع أنها أكلت قبل آدم ودعته إلى الأكل وقيل إنما قطعت يد السارق لأنها باشرت ولم يقطع

ذكر الزاني للمباشرة خوفاً لقطع النسل وتحصيل أيضاً لذة الزنى بجميع البدن. قال النيسابوري: قطعت يد السارق لأنها أخذت المال الذي هو يد الغني وعماده كأنه أخذ يد إنسان فجزوا يده لتناولها حق الغير وقيل: قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] فكل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهي اليد المتعدية، ثم إن السرقة كما تكون من المال كذلك تكون من العبادات وفي الحديث «أسوء الناس سرقة الذي يسرق من صلاته» قالوا: يا رسول الله كيف يسرق من صلاته؟ قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها» وفي الحديث «إن الرجل ليصلي ستين سنة وما تقبل له صلاة» لعله يتم الركوع ولا يتم السجود ويتم السجود ولا يتم الركوع كذا في «الترغيب والترهيب» فمثل هذا المصلي يقطع يمينه عن نيل الوصال فلا يصل إلى مراده بل يبقى في الهجران والقطيعة إذ هو أساء الأدب بل قصر فيما أمر الرب سبحانه وتعالى.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يا أيها الرسول﴾ خاطبه ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف ﴿لا يحزنك الذين﴾ أي: صنع الذين فإن الذوات مع قطع النظر عن العوارض لا توجب الحزن والفرح ﴿يسارعون في الكفر﴾ أي: يقعون في الكفر سريعاً في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة والمقصود نهيه عليه السلام عن أن يتحزن بصنيعهم بناء على أنه تعالى ناصره عليهم والمعنى لا تحزن ولا تبال بتهافتهم في الكفر سريعاً ﴿من الذين﴾ بيان للمسارعين في الكفر ﴿قالوا آمنا بأفواههم﴾ متعلق بقالوا والفائدة في بيان تعلقه بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم واللسان الإشارة إلى أن ألسنتهم ليست معبرة عما في قلوبهم وأن ما يجرون على ألسنتهم لا يجاوز أفواههم وإنما نطقوا به غير معتقدين له بقلوبهم ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ جملة حالية من ضمير قالوا جيء بها للتصريح بما أشار إليه بقوله بأفواههم ﴿ومن الذين هادوا﴾ عطف على من الذين قالوا وبه يتم بيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم إلى قسمين: المنافقين واليهود ﴿سماعون﴾ خبر مبتدأ محذوف والتقدير هم أي المنافقون واليهود سماعون ﴿للكذب﴾ اللام إما لتقوية العمل وإما لتضمن السماع معنى القبول وأما لام كي والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون في سماع الكذب أو في قبول ما تفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابهم أو سماعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بالزيادة والنقص والتبديل فإن منهم من يسمع من الرسول عليه السلام ثم يخرج ويقول: سمعت منه كذا وكذا ولم يسمع ذلك منه ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر مقرر

مقرر للأول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين واللام مثل اللام في سمع الله لمن حمده في الرجوع إلى معنى من أي قبل منه حمده والمعنى مبالغون في قبول كلام قوم آخرين **﴿لم يأتوك﴾** صفة أخرى لقوم أي لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظة **﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾** صفة أخرى لقوم أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها إما لفظاً بإهماله أو تغيير وصفه وإما بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مورده **﴿يقولون﴾** صفة أخرى لقوم أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم عند إلقائهم إليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين إلى كلامهم الباطل **﴿إن أوتيتم﴾** من جهة الرسول **﴿هذا﴾** المحرف **﴿فخذوه﴾** واعملوا بموجبه فإنه الحق **﴿وإن لم تؤتوه﴾** بل أوتيتم غيره **﴿فاحذروا﴾** قبوله وإياكم وإياه.

ـ روي ـ أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وكانا محصنين وحدهما الرجم في التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة فقدم الرهط حتى نزلوا على قريظة والنضير فقالوا لهم: إنكم خبير بهذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة فجراً وقد أحصنا فنحب أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه فيه فقالت لهم قريظة والنضير: إذاً والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك فقال: «هل ترضون بقضائي» قالوا: نعم فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال عليه السلام: «هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا» قالوا: نعم فقال: «أي رجل هو فيكم» قالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى في التوراة قال: «فأرسلوا إليه» ففعلوا فأتاهم فقال له عليه السلام: «أنت ابن صوريا» قال: نعم قال: «وأنت أعلم يهودي» قال: كذلك يزعمون قال: «أتجعلونه بيني وبينكم» قالوا: نعم قال له النبي عليه السلام: «أنشدك بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن» قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشيت أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هي في كتابك يا محمد قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم» فقال ابن صوريا والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله في التوراة على موسى فقال له النبي عليه السلام: «فماذا كان أول ما ترخصتم به في أمر الله تعالى» قال: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنى في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملكنا فلم يرجم ثم زنى رجل آخر في أسوة من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه وقالوا: والله لا ترجمه حتى ترجم فلاناً ابن عمك فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين وجوههما من قبل دبر الحمار يطاف بهما فجعلوا هذا مكان الرجم فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن

نغتابك فقال لهم: أنه قد نشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته فأمر بهما النبي ﷺ فرجما عند باب المسجد وقال: «اللهم إني أول من أحيى أمرك إذ أماتوه» فأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها الرسول**﴾ الآية ﴿**ومن**﴾ شرطية ﴿**يرد الله فتنته**﴾ أي: ضلالته أو فضيحته كائناً من كان ﴿**فلن تملك له**﴾ فلن تستطيع له ﴿**من الله شيئا**﴾ في دفعها ﴿**أولئك**﴾ المنافقون واليهود ﴿**الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم**﴾ أي من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما وإصرارهم عليهما وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية ﴿**لهم**﴾ أي: للمنافقين واليهود ﴿**في الدنيا خزي**﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين وأما خزي اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم في كتمان نص التوراة ﴿**ولهم في الآخرة**﴾ أي: مع الخزي الدنيوي ﴿**عذاب عظيم**﴾ هو الخلود في النار ﴿**سماعون للكذب**﴾ تكرير لما قبله ﴿**أكالون للسحت**﴾ أي الحرام كالرشى من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة ﴿**فإن جاؤوك**﴾ الفاء فصيحة أي: وإذا كان حالهم كما شرح فإن جاؤوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿**فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم**﴾ بيان لحال الأمرين أثر التخيير ﴿**فلن يضروك شيئا**﴾ من الضرر بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله يعصمك من الناس ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط**﴾ بالعدل الذي أمرت به كما حكمت بالرجم ﴿**إن الله يحب المقسطين**﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه ومحذور ويعظم شأنهم وفي الحديث «المقسطون عند الله على منابر من نور» ﴿**وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله**﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه والحال أن الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي يدعون الإيمان به وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع وإنما طلبوا به ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم وفيها حكم الله حال من التوراة أو رفعها بالظرف وإن جعلتها مبتدأ فمن ضميرها المستكن فيه ﴿**ثم يتولون**﴾ عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجب وثم للتراخي في الرتبة ﴿**من بعد ذلك**﴾ أي: من بعد ما حكموك وهو تصريح بما علم قطعاً لتأكيد الاستبعاد والتعجب أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعدما رضوا بحكمك ﴿**وما أولئك**﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿**بالمؤمنين**﴾ أي: بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعن حكمك الموافق لكتابهم ثانياً أو بك وبه. وفي الآيات: ذم للظلم ومدح للعدل وقدح في الحرام والرشوة وفي الحديث: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به» وفيه «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش» وأراد بالرائش الذي يمشي بينهما، وفي «المثنوي»:

أى بسا مرغى پرنده دانه جو	كه بريده حلق أوهم حلق أو
أى بسا ماهي درآب دور دست	كشته ازحرص كلو مأخوذ شست
أى بسا مستور درپرده بده	شومى فرج وكلو رسو اشده
أى بسا قاضي حبر نيك خو	از كلوى رشوتى اوزرد رو
بلكه در هاروت وماروت آن شراب	از عروج جر خشان شد سد باب

ذكر في «أدب القاضي» للخصاف: الرشوة على أربعة أوجه: إما أن يرشوه لأنه قد خوفه فيعطيه الرشوة ليدفع الخوف عن نفسه أو يرشوه ليسوي أمره بينه وبين السلطان أو يرشوه ليتقلد القضاء من السلطان أو يرشو القاضي ليقضي له. ففي الوجه الأول لا يحل الأخذ لأن الكف

عن التخويف كف عن الظلم وأنه واجب حقاً للشرع فلا يحل أخذه لذلك ويحل للمعطي الإعطاء لأنه جعل المال وقاية للنفس وهذا جائز موافق للشرع. وفي الوجه الثاني أيضاً لا يحل الأخذ لأن القيام بأمور المسلمين واجب بدون المال فلا يحل له الأخذ. وفي الوجه الثالث: لا يحل له الأخذ والإعطاء وأما الرابع: فحرام الأخذ سواء كان القضاء بحق أو ظلم. أما الظلم فلوجهين: أحدهما أنه رشوة، والثاني: أنه سبب للقضاء بالجور. وأما الحق فلوجه واحد وهو أنه أخذ المال لإقامة الواجب. وأما العطاء فإن كان بجور لا يجوز وإن كان بحق جاز، قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من شفع شفاعة يرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأهدي له فقبل فهو سحت، وفي «نصاب الاحتساب» أن المحتسب أو القاضي إذا أهدي إليه ممن يعلم أنه يهدي لاحتياجه إلى القضاء والحسبة لا يقبل ولو قبل كان رشوة وأما ممن يعرف أنه يهدي للتودد والتحبب لا للقضاء والحسبة فلا بأس به وكان الصحابة رضي الله عنهم يتوسعون في قبول الهداية بينهم وهذا لأن الهدية كانت عادتهم وكانوا لا يلتمسون منهم شيئاً وإنما كانوا يهدون لأجل التودد والتحبب وكانوا يستوحشون برد هداياهم فلا يكون فيه معنى الرشوة فلهذا كانوا يقبلونها، قال قوم: إن صلات السلاطين تحل للغني والفقير إذا لم يتحقق أنها حرام وإنما التبعة على المعطي قالوا لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس ملك الاسكندرية واستقرض من اليهود مع قول الله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢] وأما حال السوق فمتى علمت أن الحرام هو الأكثر فلا تشتر إلا بعد التفتيش وإن كان كثيراً وليس بالأكثر فلك السؤال ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه يشترون من الأسواق مع علمهم بأن فيهم أهل الربا والغصب والغلول. قال الحدادي ومن السحت ثمن الخمر والخنزير والميتة وعسب الفحل وأجرة النائحة والمغنية والساحر وهدية الشفاعة ومهر البغي وحلوان الكاهن هكذا قال عمر وعلي وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قالوا: والمال الذي يأخذه المغني والقوال ونحوهما حكم ذلك أخف من الرشوة فإن صاحب المال أعطاه عن غير اختيار بغير عقد، قال ابن كيسان: سمعت الحسن يقول: إذا كان لك على رجل دين فأكلت في بيته فهو سحت. فعليك أيها المؤمن المتقي بالاحتياط في أمورك حتى لا تقع في الشبهات بل في الحرام وإنما تحصل التصفية للقلب بأكل الغذاء الحلال. قال الحافظ:

صوفى شهر بين كه چون لقمه شبهه ميخورد   پاردمش در ازباد اين حيوان خوش علف

والمقصود من البيت تشبيه الذي لا يحترز عن الشبهات بالحيوان في الأكل من كل ما يجده من غير تفرقة ولأن تناول الشبهات من كمال الحرص لأنه لو لم يكن له حرص لكان له قناعة بالحلال ولو قليلاً والحيوان يعظم من كثرة الأكل والشرب والنوم وهي حكم الطبيعة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾

﴿إنا أنزلنا التوراة﴾ حال كونها **﴿فيها هدى﴾** تهدي شرائعها وأحكامها إلى الحق وترشد الناس إليه **﴿ونور﴾** تكشف ما انبهم من الأحكام وما يتعلق بها من المستورة بظلمات الجهل **﴿يحكم بها النبيون﴾** أي: أنبياء بني إسرائيل أي يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها.

﴿الذين أسلموا﴾، إن قلت: النبيون أعظم من الإسلام فكيف يمدح نبي بأنه رجل مسلم وما الوصف به بعد الوصف بالنبوة إلا تنزل من الأعلى إلى الأدنى، قلت: قد يذكر الوصف مدحاً للوصف ففائدة التوصيف تنويه شأن الصفة والتنبيه على عظم قدرها حيث وصف بها عظيم كما وصف الأنبياء بالصلاح والملائكة بالإيمان وقد قيل أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف، قال:

ما إن مدحت محمداً بمقالتي ... لكن مدحت مقالتي بمحمد

﴿للذين هادوا﴾ متعلق بيحكم أي يحكمون فيما بينهم واللام لبيان اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كأنه قيل لأجل الذين هادوا ﴿والربانيون والأحبار﴾ عطف على النبيون أي هم أيضاً يحكمون بأحكامها وهم الزهاد والعلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي: بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التضييع والتحريف على الإطلاق ولا ريب في أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم في إجراء أحكامها من غير إخلال بشيء منها والباء سببية متعلقة بيحكم أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي: رقباء لا يتركونهم أن يغيروا فهو من الشهود بمعنى الحضور. ﴿فلا تخشوا الناس﴾ كائناً من كان أيها الرؤساء والأحبار واقتدوا في مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم. ﴿واخشون﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء نهوا أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويداهنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير ودلالة الآية تتناول حكام المسلمين ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أي أخذها بدلاً منه ثم استعير لأخذ شيء بدلاً مما كان له عيناً كان أو معنى أخذاً منوطاً بالرغبة فيما أخذ والإعراض عما أعطى ونبذ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ثمنا قليلا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة في نفسها لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها.

آن جهان جيفه است ومردار ورخيص ... بر چنين مردار چون باشم حريص

پس حيات ماست موقوف فطام ... اندك اندك جهد كن تم الكلام

ولما كان الإقدام على التحريف لدفع ضرر كما إذا خشي من ذي سلطان أو لجلب نفع كما إذا طمع في الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحاً. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ مستهيناً به منكراً له كائناً من كان كما يقتضيه ما فعلوه من التحريف. ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ولذلك وصفهم بقوله الظالمون والفاسقون فكفرهم بإنكاره وظلمهم بالحكم على خلافه وفسقهم بالخروج عنه.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وكتبنا﴾ فرضنا عطف على أنزلنا التوراة ﴿عليهم﴾ أي على الذين هادوا ﴿فيها﴾ أي في التوراة ﴿أن النفس بالنفس﴾ أي: تقاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿والعين﴾ تفقأ ﴿بالعين﴾ إذا

فقئت بغير حق ﴿والأنف﴾ تجذم ﴿بالأنف﴾ المقطوعة بغير حق ﴿والأذن﴾ تصلم ﴿بالأذن﴾ المقطوعة ظلماً ﴿والسن﴾ تقلع ﴿بالسن﴾ المقلوعة بغير حقّ ﴿والجروح قصاص﴾ أي: ذات قصاص بحيث تعرف المساواة وأما ما لا يمكن الاقتصاص منه من كسر عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته ففيه ارش أو حكومة ﴿فمن تصدق﴾ أي: من المستحقين ﴿به﴾ أي بالقصاص أي فمن عفا عنه فالتعبير بالتصدق للمبالغة في الترغيب فيه. ﴿فهو﴾ أي: التصدق ﴿كفارة له﴾ أي: للمتصدق يكفر الله تعالى بها ما سلف من ذنبه وأما الكافر إذا عفا فلا يكون عفوه كفارة له مع إقامته على الكفر وفي الحديث «من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفارة له» وفي الحديث «ثلاث من جاء بهن يوم القيامة مع الإيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء وتزوج من الحور العين حيث شاء من عفا عن قاتله ومن قرأ دبر كل صلاة مكتوبة قل هو الله أحد عشر مرات ومن أدى ديناً خفياً» وقال بعضهم: الهاء كناية عن الجارح والقاتل يعني إذا عفا المجني عليه عن الجاني فعفوه كفارة لذنب الجاني لا يؤخذ به في الآخرة كما أن القصاص كفارة له فأما أجر العافي فعلى الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الأحكام والشرائع ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المبالغون في الظلم المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشيء في غير موضعه.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وقفينا على آثارهم﴾ عطف على أنزلنا التوراة أي آثار النبيين المذكورين ﴿بعيسى ابن مريم﴾ أي: أرسلناه عقيبهم وجئنا به بعدهم يقال قفوت أثره قفوا وقُفوا أي اتبعته فهو يتعدى إلى واحد وإذا قلت قفيت على أثره بفلان يكون المعنى اتبعته إياه وحقيقة التقفية الإتيان بالشيء في قفا غيره والتضعيف فيه ليس للتعدية فإن فعل المضعف قد يكون بمعنى فعل المجرد كقدّر وقدر وإنما تعدى إلى الثاني بالباء فمفعوله الأول محذوف أي اتبعنا النبيين الذين ذكرناهم بعيسى وجعلناه ممن يقفوهم فحذف المفعول وجعل على آثارهم كالقائم مقامه ﴿مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ حال من عيسى ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ عطف على قفينا ﴿فيه هدى ونور﴾ كما في التوراة وهو في محل النصب على أنه حال من الإنجيل أي: كائناً فيه ذلك كأنه قيل مشتملاً على هدى ونور ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ عطف عليه داخل في حكم الحالية وتكرير ما بين يديه من التوراة زيادة تقرير. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ عطف على مصدقاً منتظم معه في سلك الحالية جعل كله هدى بعدما جعل مشتملاً عليه حيث قيل فيه هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة للمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه. قال الحافظ:

كرانكشت سليماني نباشد چه خاصيت دهد نقش نكيني

فكما أن الانتفاع بالخاتم إنما يكون لمن كان له مشرب سليماني كذلك الانتفاع بالكتاب إنما يكون لمن له تقوى رجحاني ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: آتيناه الإنجيل وقلنا ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ منكراً له مستهيناً به

﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ المتمردون الخارجون عن الإيمان وفيه دلالة على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلاً بالشرع مأموراً بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة وفيه تهديد عظيم للحكام وفي الحديث «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة العذاب ما يتمنى أنه لم يفصل بين أحد في تمرتين» فإذا كان هذا حال القاضي العدل فما ظنك بالجائر والمرتشي.

بو حنيفه قضا نكرد وبمرد تو بميرى اكر قضانكنى

وفي الحديث «القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة قاضٍ قضى بغير حق وهو يعلم فذاك في النار وقاضٍ قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذاكَ في النار وقاضٍ قضى بحق فذاك في الجنة» كذا في «المقاصد الحسنة» للإمام السخاوي.

ـ حكي ـ أن بني إسرائيل كانوا ينصبون لإجراء الأحكام بينهم حكاماً ثلاثة حتى إذا رفع الخصم الأمر إلى واحد منهم فلم يرض به الآخر ترافعا إلى الثاني ثم إلى الثالث ليطمئن قلبه فذات يوم تصور ملك بصورة إنسان يريد امتحان هؤلاء الحكام فركب على رمكة وقام على رأس بئر فإذا رجل أتى ببقرة له مع عجلها ليسقيهما فلما سقاهما وأراد الرجوع أشار الملك إلى العجل فجاء في جنب الرمكة فكلما نادى صاحبه ودعاه لم يستمع ولم يذهب إلى الأم فجاء الرجل ليسوقه بأي وجه يمكن فقال الملك: يا هذا الرجل إن العجل قد ولدته رمكتي هذه فاذهب وخلني وعجلي فقال الرجل: يا عجباً العجل ملكي قد ولدته بقرتي هذه فتنازعا وترافعا إلى القاضي الأول فسبق الملك الرجل إلى القاضي وقال: إن قضيت لي بالعجل دفعت لك كذا فقبله القاضي فلما تحاكما حكم بالعجل للملك فلم يرض به الرجل فترافعا إلى الثاني فحكم هو أيضاً بالعجل للملك فلم يرض به الرجل أيضاً فترافعا إلى الثالث فلما عرض الملك الرشوة عليه قال: لا أستطيع هذا الحكم فإني قد حضت فقال الملك: أيش تقول هل تحيض الرجال والحيض من خواص النساء فقال القاضي له: تتعجب من كلامي ولا تتعجب من كلامك فكما أن الرجال لا تحيض فكذلك الرمكة لا تلد عجلاً فقال الملك هناك قاضيان في النار وقاض في الجنة وهذا الكلام منقول من لسانه كذا ذكر البعض نقلاً عن فم حضرة الشيخ الشهير بهدائي الاسكداري قدس سره.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وأنزلنا إليك﴾ يا محمد ﴿الكتاب﴾ أي: القرآن حال كونه ملتبساً ﴿بالحق﴾ والصدق حال كونه ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب﴾ أي: مصدقاً لما تقدمه من جنس الكتب المنزلة من حيث إنه نازل حسبما نعت فيه وموافقاً له في التوحيد والعدل وأصول الشرائع. ﴿ومهيمنا عليه﴾ أي: رقيباً على سائر الكتب المحفوظة عن التغير فإنه يشهد لها بالصدق والصحة والثبات وتقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ولا ريب أن تمييز أحكامها الباقية على

المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمناً عليها ﴿**فاحكم بينهم**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا كان شأن القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتاب عند تحاكمهم إليك ﴿**بما أنزل الله**﴾ أي: بما أنزله إليك فإنه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلّهية ﴿**ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه فعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كأنه قيل: لا تعدل عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾ الخطاب بطريق الالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضاً بطريق التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدي لواحد وهو إخبار بجعل ماض لا إنشاء وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل والمعنى لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أي عيناً ووضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التي عينت لها فالأمة من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبي عليهما السلام شرعتهم الإنجيل وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس إلا فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة هي الطريقة إلى الماء شبه بها الدين الذي شرعه الله أي سنه من نحو الصوم والصلاة والحج والنكاح وغير ذلك من وجوه الصلاح لكونه سبيلاً موصلاً إلى ما هو سبب للحياة الأبدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية والمنهاج الطريق الواضح في الدين من نهج الأمر إذا وضح قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلها والتحقيق أنا متعبدون بأحكامها الباقية من حيث إنها أحكام شريعتنا لا من حيث إنها شرعة للأولين ﴿**ولو شاء الله**﴾ أن يجعلكم أمة واحدة ﴿**لجعلكم أمة واحدة**﴾ أي: جماعة واحد متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الأمم في شيء من الأحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل. ﴿**ولكن**﴾ لم يشأ ذلك أي: أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ما عليه السنة الإلهية الجارية فيما بين الأمم ﴿**ليبلوكم**﴾ أي: ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿**فيما آتاكم**﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الإلّهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم في معاشكم ومعادكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدى وفي «المثنوي»:

كربسوزد باغت انكورت دهد ... درميان ماتمى سورت دهد

لا نسلم واعتراض از ما برفت ... چون عوض مى آيداز مفقود زفت

﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين من العقائد الحقية والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة وإحرازاً لمسابقة الفضل ﴿**إلى الله مرجعكم جميعا**﴾ أي: مرجع من آمن ومن لم يؤمن جميعاً حال من ضمير الخطاب. ﴿**فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ أي: فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل لا يبقى لكم معه شائبة شك فيما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من أمر الدين والشريعة وإنما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الأخبار.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه **﴿واحذرهم﴾** مخافة **﴿أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** أي يضلوك ويصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق فالمراد بالفتنة هٰهنا الميل عن الحق والوقوع في الباطل كما في قوله عليه السلام: «أعوذ بك من فتنة المحيا» أي: العدول عن الطريق المستقيم وكل من صرف من الحق إلى الباطل وأميل عن القصد فقد فتن.

ـ روي ـ أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا إليه ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فقالوا: يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فاقض لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله فنزلت، واستدل العلماء بهذه الآية على أن الخطأ والنسيان جائز على الرسل لأنه تعالى قال: **﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسل فلم يبق إلا الخطأ والنسيان **﴿فإن تولوا﴾** أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره **﴿فاعلم أنما يريد الله﴾** أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد **﴿أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾** أي: يعجل لهم العقوبة في الدنيا بأن يسلطك عليهم ويعذبهم في الدنيا بالقتل والجلاء والجزية ويجازيهم بالباقي في الآخرة فالمراد ببعض ذنوبهم ذنب توليهم عن حكم الله تعالى وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة هذا مع عظمه واحد من جملتها **﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾** أي: متمردون في الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة فلذا يتولون عن حكم الله.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية وهي الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي **﴿ومن أحسن من الله حكما﴾** إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساو له وإن كان ظاهر السبك غير متعرض لنفي المساواة وإنكارها يرشدك إليه العرف المطرد والاستعمال الناشىء فإنه إذا قيل: من أكرم من فلان أو الأفضل من فلان فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وحكماً نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن حكمه أحسن من حكم الله. **﴿لقوم يوقنون﴾** أي: عندهم واللام للبيان فيتعلق بمحذوف كما في سقيا لك فإن سقيا دعاء للمخاطب بأن يسقيه الله فيكون لك بياناً له أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم فيعلمون يقيناً أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها وليست اللام متعلقة بقوله: **﴿حكماً﴾** لأن حكم الله لا يخص قوماً دون قوم، فقد دلت الآيات على أن الدين واحد من حيث الأصول مختلف من جهة الفروع ولله أن يحكم في كل عصر وزمان بما أراد ففيه حكم ومصالح فعلينا بالتسليم والانقياد وترك الاعتراض والمسارعة إلى الخيرات قبل الموت والفوت وفي الحديث «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك» لأن الرجل يقدر

على الأعمال في حال شبابه ما لا يقدر عليه في حال هرمه ولأن الشاب إذا تعود في المعصية لا يقدر على الامتناع منها في هرمه «وصحتك قبل سقمك» لأن الصحيح نافذ الأمر في ماله ونفسه لأنه إذا مرض ضعف بدنه عن الطاعة وقصرت يده عن ماله إلا في مقدار ثلثه «وفراغك قبل شغلك» يعني في الليل تكون فارغاً وبالنهار تكون مشغولاً فينبغي أن تصلي بالليل في حال فراغك وتصوم بالنهار في وقت شغلك خصوصاً في أيام الشتاء لأن الصوم في الشتاء غنيمة المؤمن كما قال عليه السلام: «الشتاء غنيمة المؤمن طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه» وفي رواية أخرى «الليل طويل فلا تقصره بمنامك والنهار مضيء فلا تكدره بآثامك» «وغناك قبل فقرك» يعني: إذا كنت راضياً بما أعطاك الله من القوت فاغتنم ذلك ولا تطمع فيما في أيدي الناس «وحياتك قبل مماتك» لأن الرجل ما دام حياً يقدر على العمل فإذا مات انقطع عمله ولهذا تتمنى الموتى أن يعودوا إلى الدنيا فيتهللوا مرة أو يصلوا ركعة فالفرصة غنيمة والعمر قليل، قال الحافظ:

بكذشتن فرصت أى برادر — دركرم روى چوميغ باشد
درياب كه عمر بس عزيز ست — كر فوت شود دريغ باشد

وقال السيد الشريف لابنه:

نصيحت همينست جان پدر — كه عمرت عزيز ست ضايع مكن

فينبغي للعاقل أن لا يضيع أيامه، قال الحكيم: بكودكى بازى. بجوان مستى. به پيرى سسنى. خدارا كى پرستى. فإذا تم شغلك بالشريعة فاجتهد في الطريقة وهي باطن الشريعة واقتد بأولي الألباب فإنه كما أن لكل نبي شرعة ومنهاجاً كذلك لكل ولي طريقة مسلوكة مخصوصة وقد ضل من ضل منارهم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وإن كان سبب وروده بعضاً منهم إذ روي أن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ إن لي موالي من اليهود كثيراً عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية مواليّ وهم يهود بني قينقاع فقال تعالى: **﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾** أي لا تتخذوا أحداً منهم ولياً بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فإنه أمر ممتنع في نفسه لا يتعلق به النهي. **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** أي: بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر لأنه لا موالاة بين فريقي اليهود والنصارى رأساً والكل متفقون على الكفر مجمعون على مضارتكم ومضاركم فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة **﴿ومن يتولهم منكم﴾** أي: من يتخذهم أولياء **﴿فإنه منهم﴾** أي: هو على دينهم ومعهم في النار وهذا إذا تولاهم لدينهم وأما الصحبة لمعاملة شراء شيء منهم أو طلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمور الدينية فليس فيه هذا الوعيد، قال المولى أبو السعود: وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في

الحقيقة ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم أي لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين وبموالاة أعداء الله بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، قال الحافظ:

دره عشق ازان سوى فناصد خطرست تانكوى كه چو عمرم بسر آمدرستم

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿فترى﴾ يا محمد أو كل من له أهلية للخطاب رؤية بصرية ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: مرض النفاق ورخاوة العقد في الدين. ﴿يسارعون فيهم﴾ حال من الموصول أي مسارعين في موالاتهم ومعاونتهم وإيثار في على إلى للدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة وإنما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها والمراد بهم عبد الله بن أبي وأضرابه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يؤمنون أن تصيبهم صروف الزمان كما قال تعالى: ﴿يقولون﴾ معتذرين ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها أي يدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار وقيل: نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض ولعلهم كانوا يظهرون للمؤمنين أنهم يريدون بالدوائر المعنى الأخير ويضمرون في أنفسهم المعنى الأول. ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لأطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فإن عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أن الكريم إذا أطمع أطعم لا محالة فما ظنك بأكرم الأكرمين. والمراد بالفتح فتح مكة أو فتح قرى اليهود من خيبر وفدك أو هو القضاء الفصل بنصره عليه السلام على من خالفه وإعزاز الدين. قال الحدادي: وسمي النصر فتحاً لأن فيه فتح الأمر المغلق ﴿أو أمر من عنده﴾ بقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء. والشأفة: قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى وتذهب يقال في المثل: استأصل الله شأفته أي أذهبه الله كما ذهب تلك القرحة بالكي ﴿فيصبحوا﴾ أي أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر ﴿على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ وهو ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشك في أمره ﷺ ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ عند ظهور ندامة المنافقين وهو كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة أي ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة في السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقريرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقبون ويتعللون به تعجيباً للمخاطبين من حالهم وتعريضاً بهم. ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: بالنصرة والمعونة كما قالوا فيما حكي عنهم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] فاسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبره والمعنى إنكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم في ذلك والخطاب في معكم لليهود من جهة المؤمنين. وجهد الأيمان أغلظها وهو في الأصل مصدر ونصبه على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد إيمانهم فحذف الفعل وأقيم

المصدر مقامه ولا يبالى بتعريفه لفظاً لأنه مأول بنكرة أي مجتهدين في أيمانهم أو على المصدر أي أقسموا إقسام اجتهاد في اليمين. ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ جملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعوه من ادعاء الولاية والإقسام على المعية في المنشط والمكره أثر الإشارة إلى بطلانه بالاستفهام الإنكاري أي بطلت أعمالهم التي عملوها في شأن الموالاة وسعوا في ذلك سعياً بليغاً حيث لم يكن لليهود دولة فغبنوا بما صنعوا من المساعي وتحملوا من مكاره المشاق، قال الحافظ:

اسم أعظم بكند كار خود اي دل خوش باش — كه بتلبيس وحيل ديو سليمان نشود

واعلم أن للحق دولة وللباطل صولة والباطل يفور ثم يغور. فعلى المؤمن أن لا يميل إلى جانب الباطل وأهله أصلاً كائناً من كان.

ـ روي ـ عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن لي كاتباً نصرانياً فقال: ما لك؟ قاتلك الله ألا اتخذت حنيفاً أما سمعت قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ [المائدة: ٥١] قلت له دينه ولي كتابه قال: لا تكرموهم إذ أهانهم الله ولا تأتمنوهم إذ خونهم الله ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله.

ـ وروي ـ أنه قال لا قوام للبصرة إلا به فقال: مات النصراني والسلام يعني هب أنه مات فما كنت تكون صانعاً حينئذٍ فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره، قال الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر: شاهدت في دمشق أن الرجال والنساء كانوا يوالون النصارى ويسامحون في المعاملة ويذهبون بأطفالهم وصغارهم إلى الكنائس ويرشون عليهم بطريق التبرك من ماء المعمودية وهذا كفر والعياذ بالله والمعمودية ماء للنصارى أصفر كانوا يغمسون فيه أولادهم ويعتقدون أنه تطهير للمولود كالختان لغيرهم وقس عليه تعظيم نوروز النصارى وإهداء شيء في ذلك اليوم إليهم والمشاركة معهم ويلزم الحسبة في بعض الأمور قطعاً لعرق الموالاة، وفي «ملتقطة الناصري» ولا أدع المشرك يضرب البربط، قال محمد: كل شيء أمنع من المسلم فإني أمنع من المشرك إلا الخمر والخنزير ولكن يمنع أهل الكفر من إدخال الخمور والخنازير في الأسواق على سبيل الشهرة لأن فيها استخفافاً للمسلمين وما صالحناهم ليستخفوا بالمؤمنين وإن حضر لهم عيد لا يخرجون فيه صليبهم ويمنعون من إظهار بيع المزامير والطنبور وإظهار الغناء وغير ذلك مما منع منه المسلم ويمنعون من إحداث الكنيسة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا خصاء في الإسلام ولا كنيسة» والمراد بالخصاء خصاء بني آدم فيجوز خصاء البهائم وبه نقول فكما يجوز ذبح الحيوان لحاجة الناس إلى لحمه فكذلك يجوز خصاء الحيوان إذا كان في ذلك منفعة للناس، فإن قلت لم لا يجوز خصاء بني آدم وفيه منفعة أيضاً، قيل: لا منفعة فيه لأنه لا يجوز للخصي أن ينظر إلى النساء كما لا يجوز للفحل كذا في «بستان العارفين»، ثم اعلم أن النفس والشيطان والقوى الشريرة في وجود الإنسان كاليهود والنصارى فكما أنه يلزم مجانبتهم وعدم موالاتهم لأن الله تعالى عاداهم وأمر بمعاداتهم فكذلك ما ذكر من النفس وغيرها لا يجوز موالاتها والحمل على هواها لأنها تسوق إلى النار نار جهنم ونار القطيعة فالمؤمن مأمور بالمعاداة لمن عادى الله تعالى مطلقاً وإلا لم يصح إيمانه، وفي «المثنوي»:

آنچه در فرعون بود اندر توهست — ليك ازدرهات محبوس چهست

چه خرابت ميكند نفس لعين — دور مى اندازدت سخت اين قرين

آتـشــت را هــيـزم فــرعــون نــيــســت زانكـه چـون فـرعـون اوراعـون نـيـست

يعني: أن فرعون ساعده أسباب الدعوى والهوى ولذلك قال ما قال وفعل ما فعل وأما أنت فليس لك الأسباب مساعدة ولا تجد عوناً في هواك ولذا لا تظهر صورة ما أظهره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ هذا من الكائنات التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها.

ـ روي ـ أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة ثلاث في عهد رسول الله ﷺ بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو أسود العنسي كان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده حتى أخرج عمال رسول الله ﷺ مثل معاذ بن جبل وسادات اليمن فكتب عليه السلام إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم وعلى النهوض إلى حرب الأسود فقتله فيروز الديلمي على فراشه قال ابن عمر فأتى الخبر النبي عليه السلام من السماء الليلة التي قتل فيها فقال عليه الصلاة والسلام: «قتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك» قيل ومن هو قال: «فيروز» فبشر عليه السلام أصحابه بهلاك الأسود وقبض عليه السلام من الغد وأتى خبر مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول وكان ذلك أول فتح جاء أبا بكر رضي الله عنه والفرقة الثانية من المرتدين بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب وكان قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ في آخر سنة عشر من الهجرة زعم أنه أشرك مع رسول الله في النبوة وكتب إلى النبي عليه السلام من مسلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك وبعث بذلك الكتاب رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله عليه السلام: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» ثم أجاب «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فمرض عليه السلام وتوفي فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي غلام مطعم بن عدي قاتل حمزة بن عبد المطلب بعد حرب شديد وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام يريد في جاهليتي وإسلامي. والفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد وكان طليحة آخر من ارتد وادعى النبوة في حياة رسول الله عليه السلام وأول من قوتل بعد وفاته عليه السلام من أهل الردة فبعث أبو بكر خالد بن الوليد فهزمهم خالد بعد قتال شديد وأفلت طليحة فمر على وجهه هارباً نحو الشام ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ثم إن الله تعالى لما قبض نبيه عليه السلام ارتد عامة العرب إلا أهل مكة وأهل المدينة وأهل البحرين من عبد القيس فقال المرتدون أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فلا نغصب أموالنا فكلم أبو بكر في ذلك فقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله تعالى بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] والله لو منعوني عتوداً مما أدوا إلى رسول الله لقاتلتهم عليه فبعث الله عز وجل عصائب مع أبي بكر رضي الله عنه فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله حتى أقروا بالزكاة المفروضة. قال أنس بن مالك: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة

قالوا: هم أهل القبلة فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بداً من الخروج على أثره، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه في الانتهاء وقيل ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر لقد قام مقام نبي في قتال أهل الردة، قال الشيخ العطار في نعت أبي بكر رضي الله عنه:

هرچه بود از بارکاه کبریا ريخت در صدر شريف مصطفا
آن همه درسينه صديق ريخت لا جرم تابود ازو تحقيق ريخت

وقال الحسن: لولا ما فعل أبو بكر لألحد الناس في الزكاة إلى يوم القيامة، قال في «الأشباه»: المعتمد في المذهب عدم الأخذ كرهاً، قال في «المحيط» ومن امتنع عن أداء الزكاة فالساعي لا يأخذ منه كرهاً ولو أخذ لا يقع المأخوذ عن الزكاة لكونها بلا اختيار ولكن يجبره بالحبس ليؤدي بنفسه. ﴿فسوف يأتي الله﴾ مكانهم بعد إهلاكهم ﴿بقوم يحبهم﴾ أي: يريد بهم خير الدنيا والآخرة ﴿ويحبونه﴾ أي: يريدون إطاعته ويتحرزون عن معاصيه قيل هم أهل اليمن قال عليه السلام: «الإيمان يمان والحكمة يمانية» وإنما نسب الإيمان إليهم إشعاراً بكماله فيهم لأن من اتصف بشيء وقوي قيامه به نسب ذلك الشيء إليه لا أن يكون في ذلك نفي له عن غيرهم فلا منافاة بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمان في أهل الحجاز» ثم إن المراد بذلك الموجودون منهم في ذلك الزمان لا كل أهل اليمن في كل الأحيان كذا في «شرح المشارق» لابن الملك، وقيل هم الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ، وقيل هم أهل فارس وفي الحديث «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله أبناء فارس» وفيه فضيلة لهذه القبيلة ﴿أذلة على المؤمنين﴾ جمع ذليل أي أرقاء ورحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى لتضمين معنى العطف والحنو. ﴿أعزة على الكافرين﴾ أي: أشداء متغلبين عليهم من عزه إذا غلبه ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ صفة أخرى لقوم مترتبة على ما قبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية عزتهم. ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة في سبيل الله وبين التصلب في الدين. وفيه تعريض بالمنافقين فإنهم إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم واللومة المرة من اللوم وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان كأنه قيل لا يخافون من شيء من اللومات الواقعة من أي لائم كان فالمبالغة الأولى انتفاء الخوف من جميع اللومات والثانية انتفاء الخوف من جميع اللوام كل ذلك لأن النكرة في سياق النفي تعم. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف الجليلة التي وصف بها القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة في سبيل الله وانتفاء خوف اللوم من كل واحد. ﴿فضل الله﴾ أي لطفه وإحسانه لا أنهم مستقلون في الاتصاف بها ﴿يؤتيه من يشاء﴾ إيتاءه إياه ويوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿والله واسع﴾ كثر الفواضل والألطاف ﴿عليم﴾ مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها من هو أهل للفضل والتوفيق، قال الحافظ:

سكندررا نمى بخشند آبى بزور وزر ميسر نيست اين كار

واعلم أن من السالكين من يقطع العقبات ويحرق الحجب في سبعين سنة ومنهم من يقطعها في عشرين سنة ومنهم من يحصل له في سنة ومنهم من يقطعها في شهر بل في جمعة بل في ساعة حتى أن منهم من تحصل له في لحظة بتوفيق خاص وعناية سابقة أما تذكر سحرة

فرعون ما كان مدتهم إلا لحظة حيث رأوا معجزة موسى قالوا: آمنا برب العالمين فأبصروا الطريق وقطعوه حقه فصاروا من ساعة إلى ساعة بل أقل من العارفين بالله.

ـ وحكي ـ أن إبراهيم بن أدهم كان على ما كان عليه من أمر الدنيا فعدل عن ذلك وقصد الطريق الحق فلم يكن إلا مقدار سيره من بلخ إلى مرو الروذ حتى صار بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة في الماء الكثير هنالك أن قف فوقف الرجل مكانه في الهواء فتخلص، وأن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة يطاف بها في سوق البصرة لا يرغب فيها أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم فأعتقها فاختارت الطريق الحق فأقبلت على العبادة فما تمت لها سنة حتى زارها قراء البصرة وعلماؤها لعظم منزلتها. وأما الذي لم تسبق له العناية ولا توجهت له ولم يعامل بالفضل فيوكل إلى نفسه فربما يبقى في شعب من عقبة واحدة من العقبات سبعين سنة ولا يقطعها وكم يصيح وكم يصرخ ما أظلم هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الأمر وأعضله، فإن قلت لم اختص هذا بالتوفيق الخاص وحرم هذا وكلاهما مشتركان في ربقة العبودية فعند هذا السؤال تنادي من سرادق الجلال أن ألزم الأدب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية فإنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ذلك تقدير العزيز العليم وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

رضا بداده بده وزجبين كره بكشاي   كه بر من وتودر اختيار نكشادست

اللهم اجعلنا ممن سبقت له العناية وتقدم في حقه التوفيق الخاص والهداية آمين يا رب العالمين.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تخطئوهم إلى الغير.

قال في «التأويلات النجمية»: فموالاة الله في معاداة ما سوى الله كما قال الخليل عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧] وموالاة الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» وموالاة المؤمنين في مؤاخاتهم في الدين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» **﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾** بدل من الذين آمنوا **﴿وهم راكعون﴾** حال من فاعل الفعلين أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى والمقصود تمييز المؤمن المخلص ممن يدعي الإيمان ويكون منافقاً لأن الإخلاص إنما يعرف بكونه مواظباً على الصلاة والزكاة في حال الركوع أي في حال الخشوع والإخبات لله تعالى **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾** أي ومن يتخذهم أولياء **﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾** أي فإنهم الغالبون ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه وكأنه قيل ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله

وحزب الله هم الغالبون وتشريفاً لهم بإضافتهم إليه تعالى وتعريضاً بمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان وحزب الرجل أصحابه والحزب الطائفة يجتمعون لأمر حزبهم أي أصابهم.

واعلم أن الغلبة على أعداء الله الظاهرة والباطنة كالهوى والنفس والشيطان إنما تحصل بنصرة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وليست النصرة والغلبة إلا بتأثير الله تعالى وهو المعز وكل العزة منه تعالى.

ـ وروي ـ أن الله تعالى شكا من هذه الأمة ليلة المعراج شكايات:

الأولى: أني لم أكلفهم عمل الغد وهم يطلبون مني رزق الغد.

والثانية: أني لا أرفع أرزاقهم إلى غيرهم وهم يرفعون عملهم إلى غيري.

والثالثة: أنهم يأكلون رزقي ويشكرون غيري ويخونون معي ويصالحون خلقي.

والرابعة: أن العزة لي وأنا المعز وهم يطلبون العزة من سواي.

والخامسة: أني خلقت النار لكل كافر وهم يجتهدون أن يوقعوا أنفسهم فيها فمن اتبع هوى النفس ولم يهتم لتزكيتها فقد سعى في إلحاق نفسه بزمرة الأعداء فلم يكن منصوراً البتة إذ لا يحصل من الجسارة إلا الخسارة والهوى مقتضى النفس والنفس ظلمانية ولا يتولد من الظلماني إلا الظلمة، قال في «المثنوي»:

عكس نوراني همه روشن بود عكس ظلماني همه كلخن بود

عكس هركس رابدان اي دور بين پهلوى جنسى كه خواهى مى نشين

فعلى المؤمن أن يجتهد بالصوم والصلاة ووجوه العبادات إلى أن يزكي نفسه عن سفساف الأخلاق ويغلب الأعداء الباطنة والغلبة عليها مفتاح الغلبة على الأعداء الظاهرة ولذا ترى الأنبياء والأولياء منصورين مظفرين على كل حال وهذه النصرة والولاية من آثار عناية الله السابقة فكما أن من رش عليه من نور الأزل لم ير ظلمة أبداً كذلك من لم يهتد بذلك النور في بداية الأمر لم يصل إلى المراد إلى آخر العمر، قال الحافظ:

بآب زمزم وكوثر سفيد نتوان كرد كليم بخت كسى راكه بافتند سياه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ ـ روي ـ أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهاهم الله تعالى عن الموالاة وقال: ﴿**لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا**﴾ قوله الذين اتخذوا مفعول أول لقوله لا تتخذوا ومفعوله الثاني قوله أولياء ودينكم مفعول أول لقوله اتخذوا وهزؤاً مفعوله الثاني. والهزؤ السخرية والاستهزاء واللعب بالفارسية [بازى] ومعنى اتخاذهم دين المسلمين مهزواً به وتلاعبهم به إظهارهم ذلك باللسان مع الإصرار على الكفر في القلب وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزؤاً ولعباً إيماء إلى العلة وتنبيهاً على أن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة ﴿**من الذين أوتوا الكتاب في قبلكم**﴾ بيان للمستهزئين ومن قبلكم متعلق بأوتوا ﴿**والكفار**﴾ بالنصب عطف على الموصول الأول والمراد المشركون خصوا به لتضاعف كفرهم فالنهي عن موالاة من

ليس على الحق رأساً سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين ﴿أولياء﴾ وجانبوهم كل المجانبة ﴿واتقوا الله﴾ في ذلك بترك موالاتهم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: حقاً لأن الإيمان يقتضي الاتقاء ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها﴾ أي الصلاة والمناداة ﴿هزوا ولعبا﴾ كان المؤذنون إذا أذنوا للصلاة تضاحكت اليهود فيما بينهم وتغامزوا سفهاً واستهزاء بالصلاة وتجهيلاً لأهلها وتنفيراً للناس عنها وعن الداعي إليها ﴿ذلك﴾ أي: الاستهزاء المذكور المستقر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي بسبب عدم عقلهم فإن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترأوا على تلك العظيمة، وفي «المثنوي»:

كشتى بى لنكر آمد مردشر — كه زباد كژ نيابد أو حذر
لنكر عقلست عاقل را أمان — لنكرى دريوزه كن ازعاقلان

قال العلماء ثبوت الأذان ليس بالمنام وحده بل هو ثابت بنص هذه الآية فإن المعنى إذا دعوتم الناس إلى الصلاة بالأذان والنداء الدعاء بأرفع الصوت. وفي الأذان حكم منها إظهار شعائر الإسلام وكلمة التوحيد والإعلام بدخول وقت الصلاة وبمكانها والدعاء إلى الجماعة إلى غير ذلك ولو وجد مؤذن حسن الصوت يطلب على أذانه الأجر والرزق وآخر يتبرع بالأذان لكن غير حسن الصوت فأيهما يؤخذ ففيه وجهان: أصحهما أنه يرزق حسن الصوت فإن لحسن الصوت تأثيراً كما أن لقبحه تغييراً وتنفيراً، وفي «المثنوي»:

يك مؤذن داشت بس او آزبد — در ميان كافرستان بانك زد
چند كفتندش مكو بانك نمار — كه شود جنك وعداوتها دراز
اوستيزه كرد وبس بى احتراز — كفت در كافرستان بانك نماز
خلق خائف شد زفتنه عامه — خود بيامد كافرى باجامه
شمع وحلوا باچنان جامه لطيف — هديه آورد وبيامد چون أليف
پرس پرسان كين مؤذن كوكجاست — كه صلا وبانك او راحت فزاست
دخترى دارم لطيف وبس سنى — آرزو مى بود اورا مؤمنى
هيچ اين سود انمى رفت ازسرش — پندها مى داد چندين كافرش
هيچ چاره مى ندانستم دران — تافر وخواند اين مؤذن آن أذان
كفت دختر چيست اين مكروه بانك — كه بكوشم آمداين دوچار دانك
من همه عمر اين چنين آواز زشت — هيچ نشنيدم درين ديرو كنشت
خواهرش كفتا كه اين بانك أذان — هست اعلام درشعار مؤمنان
باورش نامد بپرسيد ازدكر — آن ديكرهم كفت آرى اى پدر
چون يقين كشتش رخ اوزرد شد — از مسلمانى دل او سرد شد
بازرستم من زتشويش وعذاب — دوش خوش خفتم دران بى خوف خواب
راحتم اين بود از آواز او — هديه آوردم بشكر آن مردكو
چون بديدش كفت اين هديه پذير — كه مراكشتى مجيرو دستكير
كربمال ملك وثروت فردمى — من دهانت را پراززر كردمى

ورد في التأذين فضائل وفي الحديث «أول الناس دخولاً الجنة الأنبياء ثم الشهداء ثم

بلال» مع مؤذني الكعبة ثم مؤذنو بيت المقدس ثم مؤذنو مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم سائر المؤذنين على قدر أعمالهم وفي الحديث «ثلاثة لا يكترثون من الحساب ولا تفزعهم الصيحة ولا يحزنهم الفزع الأكبر حامل القرآن العامل بما فيه يقدم على الله سيداً شريفاً ومؤذن أذن سبع سنين لا يأخذ على أذانه طعماً وعبد مملوك أحسن عبادة ربه وأدى حق مولاه» وإذا اجتمع الأذان والإمامة في شخص فالإمامة أفضل لمواظبة النبي عليه السلام عليها وإنما أمَّ ولم يؤذن لأنه عليه السلام لو أذن لكان كل من تخلف عن الإجابة كافراً ولأنه لو كان داعياً لم يجز أن يشهد لنفسه ولأنه لو أذن وقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لتوهم أن ثمة نبياً غيره ولأن الأذان رآه غيره في المنام فولاه إلى غيره وأيضاً أنه عليه السلام كان إذا عمل عملاً أثبته أي جعله ديمة وكان لا يتفرغ لذلك لاشتغاله بتبليغ الرسالة وهذا كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه لولا الخليفي لأذنت، وكره اللحن في الأذان لما روي أن رجلاً جاء إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: إني أحبك فقال: إني أبغضك في الله فقال: لِمَ؟ فقال: لأنه بلغني أنك تغني في أذانك يعني تلحن وذلك مثل أن يقول آلله بمد الألف الأولى لأنه استفهام وشك وأن يقول أكبار بمد الباء لأنه اسم الشيطان وغير ذلك إلى آخر كلمات الأذان، وإجابة المؤذن واجبة على كل من سمعه وإن كان جنباً أو حائضاً إذ لم يكن في الخلاء أو في الجماع، وذكر تاج الشريعة أن إجابة المؤذن سنة، وقال النووي مستحبة فيقول بمثل ما يقول المؤذن وضعف تقبيل ظفري إبهاميه مع مسبحتيه والمسح على عينيه عند قوله محمد رسول الله لأنه لم يثبت في الحديث المرفوع لكن المحدثين اتفقوا على أن الحديث الضعيف يجوز العمل به في الترغيب والترهيب فقط ويقول عند حي على الصلاة «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعند حي على الفلاح «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وعند قوله الصلاة خير من النوم «صدقت وبالخير نطقت» وفي قوله قد قامت الصلاة «أقامها الله وأدامها» وحين ينتهي إلى قوله قد قامت الصلاة يجيب بالفعل دون القول.

- وروي - عن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قام بين صف الرجال والنساء فقال: «يا معشر النساء إذا سمعتن أذان هذا الحبشي وإقامته فقلن كما يقول فإن لكن بكل حرف ألف درجة» قال عمر - رضي الله عنه -: هذا في النساء فما للرجال قال: «ضعفان يا عمر» قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: حبذا الكلام ونعم النداء الأذان فعند قوله الله أكبر الله أكبر «لو انكشف وتجلى عظمة الله تعالى وكبرياؤه» وعند قوله أشهد أن لا إله إلا الله «لو انكشف وحدانيته» وعند أشهد أن محمداً رسول الله «لو انكشف حقانيته» وعند الحيعلتين «لو ظهر الطلب من الطالب إلى المطلوب» وعند الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله «لو تجلى الذات لتم المقصود وحصل المراد» انتهى.

ومن فضائل الأذان أنه لو أذن خلف المسافر فإنه يكون في أمان إلى أن يرجع. وإن أذن في أذن الصبي وأقيم في أذنه الأخرى إذا ولد فإنه أمان من أم الصبيان وإذا وقع هذا المرض أيضاً وكذا إذا وقع حريق أو هجم سيل أو برد أو خاف من شيء كما في «الأسرار المحمدية» والأذان إشارة إلى الدعوة إلى الله حقيقة والداعي هو الوارث المحمدي يدعو أهل الغفلة والحجاب إلى مقام القرب ومحل الخطاب فمن كان أصم عن استماع الحق استهزأ بالداعي ودعوته لكمال جهالته وضلالته ومن كان ممن ألقى السمع وهو شهيد يقبل إلى دعوة الله العزيز

الحميد وينجذب إلى حضرة العزة ويدرك لذات شهود الجمال ويغتنم مغانم أسرار الوصال:

جوانا سرمتات ازپند پيران   كه رأى پيرت ازبخت جوان به

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ ـ روي ـ أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال عليه السلام: «أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا: لا نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله هذه الآية أي قل لهؤلاء اليهود الفجرة **﴿هل تنقمون منا﴾** من نقم منه كذا إذا عابه وأنكره وكرهه أي ما تعيبون وما تنكرون منا ديننا لعلة من العلل **﴿إلا أن آمنا بالله﴾** أي: إلا لأن آمنا بالله فهو مفعول له لتنقمون على حذف المفعول به الذي هو الدين **﴿وما أنزل إلينا﴾** من القرآن المجيد **﴿وما أنزل من قبل﴾** إنزاله من التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية **﴿وأن أكثركم فاسقون﴾** عطف على أن آمنا أي ولان أكثركم متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم مع أن كلهم فاسقون لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والفساد وقيل هو عطف على أن آمنا على أنه مفعول به لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبجميع كتبه المنزلة وإلا مخالفتكم حيث دخلنا الإيمان وأنتم خارجون منه **﴿قل هل أنبئكم﴾** الخطاب لليهود **﴿بشر من ذلك﴾** الإشارة إلى المنقوم وهو الإيمان والمنقوم منهم المؤمنون أي هل أخبركم بما هو شر في الحقيقة لا ما تعتقدونه شراً وإن كان في نفسه خيراً محضاً، قال ابن الشيخ: ومن المعلوم قطعاً أنه لا شر في دين الإسلام فالمراد الزيادة المطلقة **﴿مثوبة عند الله﴾** أي: جزاء ثابتاً في حكمه تعالى والمثوبة مختصة بالخير كالعقوبة مختصة بالشر فوضعت هٰهنا موضعها على طريق التهكم ونصبها على التمييز من بشر. **﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾** خبر لمبتدأ محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير إليه بكلمة ذلك أي هو دين من لعنه الله وهو اليهود وأبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات. **﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾** أي: مسخ بعضهم قردة في زمن داود عليه السلام بدعائه عليهم حين اعتدوا في السبت واستخلوه ومسخ بعضهم خنازير في زمن عيسى عليه السلام بعد أكلهم من المائدة وحين كفروا بعد ما رأوا الآيات البينة، وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لليهود يا إخوة القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم وافتضحوا. **﴿وعبد الطاغوت﴾** عطف على صلة من وضميره المستكن يعود إلى من أي أطاع الشيطان فيما سول له **﴿أولئك﴾** الموصوفون بتلك القبائح والفضائح **﴿شر مكانا﴾** جعل مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم **﴿وأضل عن سواء السبيل﴾** عطف على شر مقرر له أي أكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم. وفيه دلالة على كون دينهم شراً

محضاً بعيداً عن الحق لأن ما يسلكونه من الطريق دينهم فإذا كانوا أضل كان دينهم ضلالاً مبيناً لا غاية وراءه وصيغة التفضيل في الموضعين للزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى من يشاركهم في أصل الشرارة والضلال.

واعلم أن كل صنف من الناس يفرح بما لديه ويبغض الآخر بما هو عليه ولكن الحق أحق أن يتبع فالمؤمن يحب المؤمن فإن المحبة من الأخلاق الحسنة والأوصاف الشريفة وفي الحديث «إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء وشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطون فوالله إن وجوههم أنوار وأنهم يعلون منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس». وسئل عبد الله السالمي بأي شيء يعرف أولياء الله من بين عباده؟ فقال: بلطافة اللسان وحسن الخلق وبشاشة الوجه وسخاوة النفس وقلة الاعتراض وقبول الاعتذار وكمال الشفقة على عامة الخلق، قال الحافظ:

تاج شاهى طلبى كوهر ذاتى بنماى ورخوداز كوهر جمشيد وفريدون باشى

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي: لا تزال البغضاء بين البيراميين وبين الخلوتية وكذا بينهم وبين أتباع السيد البخاري مع أن البغضاء لا تليق بأهل الحق ألا يرى أنا لم نسمع من دور آدم إلى خاتم النبيين عليهم السلام نوع بغض بين نبيين أصلاً مع أنه قد يتفق في بعض الأوقات أن يجتمع ثلاثة وأربعة من الأنبياء وكذا أتباعهم لا يطعنون في واحد منهم، قال السعدي:

دلـم خـانـه مـهـر يـارسـت وبـس ازان مـى نـكـنـجـد دروكـيـن كـس

قال بعضهم: القلوب ثلاثة: قلب يطير في الدنيا حول الشهوات، وقلب يطير في العقبى حول الكرامات، وقلب يطير في سدرة المنتهى حول المناجاة، قال الحافظ:

غـلام هـمـت رنـدان بـى سـروپـايـم كه هردو كون نير زد به پيش شان يك كاه

فعلى العاقل أن يشتغل بالتوحيد كي يتخلص من ظلمات النفس وهواها والشيطان ووساوسه، نظر عمر بن الخطاب إلى شاب فقال: يا شاب إن وقيت شر ثلاثة فقد وقيت شر الشيطان، إن وقيت لقلقك وقبقبك وذبذبك. قال الأصمعي اللقلق اللسان والقبقب البطن والذبذب الفرج.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿**وإذا جاؤوكم قالوا آمنا**﴾ نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً فالخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم أوله مع من عنده من المسلمين أي إذا جاؤوكم أظهروا الإسلام. ﴿**وقد**﴾ أي: والحال أنهم قد ﴿**دخلوا**﴾ ملتبسين ﴿**بالكفر وهم قد خرجوا**﴾ من عندك ملتبسين ﴿**به**﴾ أي بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾ من الكفر وصيغة التفضيل لأن رسول الله ﷺ كان يظن نفاقهم من إماراته اللائحة عليهم ويتوقع أنه يظهره الله، وفي «المثنوي»:

نـيـسـت بـازى بـامـمـيـز خـاصـه او كـه بـود تـمـيـيـز عـقـلـش غـيـب كـو
هـيـچ سـحـر وهـيـچ تـلـبـيـس ودغـل مـى نـبـنـدد پـرده بـر اهـل دول

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ

ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وترى﴾ يا محمد رؤية بصرية ﴿كثيراً منهم﴾ أي من اليهود والمنافقين حال كونهم ﴿يسارعون في الإثم﴾ أي الكذب على الإطلاق وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على أنهم مستقرون في الإثم وإنما مسارعتهم من بعض مراتبه إلى بعض آخر منها كقوله تعالى ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١] لا أنهم خارجون منه متوجهون إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿والعدوان﴾ أي الظلم المتعدي إلى الغير ﴿وأكلهم السحت﴾ أي الحرام ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي لبئس شيئا كانوا يعملونه والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار ﴿لولا﴾ حرف تحضيض ﴿ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ المراد بهم العلماء إلا أن الرباني الزاهد العارف الواصل والحبر العالم العامل المقبول ﴿عن قولهم الإثم﴾ وهو قولهم آمنا وليسوا بمؤمنين ﴿وأكلهم السحت﴾ مع علمهم بقبحها ومشاهدتهم لمباشرتهم لها ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ هو أبلغ من قوله لبئس ما كانوا يعملون لأن الصنع أقوى من العمل فإن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً فجعل جرم من عمل الإثم والعدوان وأكل السحت ذنباً غير راسخ وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً وفي الآية مما ينعي على العلماء من توانيهم في النهي عن المنكرات ما لا يخفى، قال الشيخ السعدي:

كرت نهي منكر بر آيد زدست نشايد چوبى دست وپايان نشست
چو دست وزبانرا نماند مجال بهمت نمانيد مردى رجال

قال عمر بن عبد العزيز: إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ولكن إذا أظهروا المعاصي فلم ينكروا استحق القوم جميعاً للعقوبة ولولا حقيقة هذا المعنى في التوبيخ على المشايخ والعلماء في ترك النصيحة لما اشتغل المحققون بدعوة الخلق وتربيتهم لاستغراقهم في مشاهدة الحق ومؤانستهم به. قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: السالك إذا وصل إلى الحقيقة إما أن يرسل للإرشاد أو يبقى في حضور الوصلة ولا يريد الفرقة كالشيخ أبي يزيد البسطامي فإنه لا يختر الإرشاد ولكن الإرشاد طريقة الأنبياء عليهم السلام فإنه ما من نبي إلا وهو قد بعث وأرسل لإرشاد الخلق ولم يبق في عالم الحضور، قال في «المثنوي» خطاباً من قبل الله تعالى إلى حضرة النبي عليه السلام:

هين بمكذار اي شفا رنجوررا تو زخشم كور عصاي كوررا
نى توكفتى قائد أعمى براه صد ثواب واجر يابد ازاله
هركه أو چل كام كورى راكشد كشت آمر زيده ويابد رشد
پس بكش توزين جهان بى قرار چوق كورانرا قطار اندر قطار
كار هادى اين بود توهادىء ماتم آخر زمانرا شادىء
هين روان كن أي إمام المتقين اين خيال انديشكانرا تايقين
خيز دردم توبصور سهمناك تاهزاران مرده بررويد زخاك

وأهل الحقيقة والعلماء العاملون المتجردون عن الغرض سوى إعلاء كلمة الله تعالى محفوظون في أقوالهم وأفعالهم.

ـ وحكي ـ أن زاهداً من التابعين كسر ملاهي مروان بن الحكم الخليفة فأتي له به فأمر بأن يلقي بين يدي الأسد فألقي فلما دخل ذلك الموضع افتتح الصلاة فجاءت الأسد وجعلت تحرك ذنبها حتى اجتمع عليه ما كان في ذلك الموضع من الأسد فجعلت تلحسه بألسنتها وهو يصلي ولا يبالي فلما أصبح مروان قال: ما فعل بزاهدنا قيل: ألقي بين يدي الأسد قال: انظروا هل أكلته فجاؤوا فوجدوا الأسد قد استأنست به فتعجبوا من ذلك فأخرجوه وحملوه إلى الخليفة فقال له أما كنت تخاف منها قال لا كنت مشغولاً متفكراً طول الليل لم أتفرغ إلى خوفهم فقال له فيماذا تتفكر؟ قال: في هذه الأسد حيث جاءتني تلحسني بألسنتها فكنت أتفكر ألعابها طاهر أم نجس فتفكري في هذا منعني عن الخوف منها فتعجب منه فخلى سبيله كذا في «نصاب الاحتساب».

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وقالت اليهود﴾ قال المفسرون: إن الله تعالى قد بسط النعمة على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في شأن رسول الله ﷺ وكذبوه كف الله عنهم ما بسط عليهم من النعمة فعند ذلك قالت اليهود **﴿يد الله مغلولة﴾** أي: مقبوضة ممسكة عن العطاء. وغل اليد وبسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد في ذلك إلى إثبات يد وغل أو بسط قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] أي: لا تمسكها عن الإنفاق **﴿غلت أيديهم﴾** دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكة أي أمسكت أيديهم عن الإنفاق في الخير وجعلوا بخلاء واليهود أبخل الناس ولا أمة أبخل منهم. **﴿ولعنوا﴾** أي: أبعدوا وطردوا من رحمة الله تعالى **﴿بما قالوا﴾** أي: بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وهذا الدعاء عليهم تعليم للعباد وإلا فهو أثر العجز تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً **﴿بل يداه مبسوطتان﴾** أي: ليس شأنه عز وجل كما وصفتموه بل هو موصوف بغاية الجود ونهاية الفضل والإحسان وهذا المعنى إنما يستفاد من تثنية اليد فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيديه جميعاً ويد الله من المتشابهات وهي صفة من صفات الله تعالى كالسمع والبصر والوجه ويداه في الحقيقة عبارة عن صفاته الجمالية والجلالية وفي الحديث: «كلتا يديه يمين»:

اديم زمين سفره عام اوست — برين خوان يغما چه دشمن چه دوست

﴿ينفق كيف يشاء﴾ أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيق عليهم، وفي «المثنوي»:

چو نكه بد كردى بترس ايمن مباش — زانكه تخمست وبروياند خداش
چند كاهى او بپوشاند كه تا — آيدت زان بدپشيمان وحيا
بارها پوشد پى إظهار فضل — باز كيرد ازپى إظهار عدل
تاكه اين هر دوصفت ظاهر شود — آن مبشر كردد اين منذر شود

﴿وليزيدن كثيرا منهم﴾ وهو علماؤهم ورؤساؤهم. قوله كثيراً مفعول أول ليزيدن **﴿ما أنزل إليك من ربك﴾** وهو القرآن وما فيه من الأحكام وهو فاعل يزيدن. **﴿طغيانا وكفرا﴾**

مفعول ثان للزيادة أي ليزيدنهم طغياناً على طغيانهم وكفراً على كفرهم القديمين، إما من حيث الشدة والغلو وإما من حيث الكم والكثرة إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما أن الطعام الصالح للأصحاء يزيد المرضى مرضاً ﴿**وألقينا بينهم**﴾ أي بين اليهود فإن بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة أما الجبرية فهم الذين ينسبون فعل العبد إلى الله تعالى ويقولون لافعل للعبد أصلاً ولا اختيار وحركته بمنزلة حركة الجمادات. وأما القدرية فهم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله. وأما المرجئة فهم الذين لا يقطعون على أهل الكبائر بشيء من عفو أو عقوبة بل يرجعون الحكم في ذلك أي يؤخرونه إلى يوم القيامة وأما المشبهة: فهم الذين شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالمحدثات. ﴿**العداوة والبغضاء**﴾ أي: جعلناهم مختلفين في دينهم متباغضين كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] فلا تكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم والجملة مبتدأة مسوقة لإزاحة ما عسى يتوهم في ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدي إلى الإضرار بالمسلمين. قيل: العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض بلا عكس كلي ﴿**إلى يوم القيامة**﴾ متعلق بألقينا ﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب**﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ وإثارة شر عليه ﴿**أطفأها الله**﴾ أي: ردهم الله وقهرهم بأن أوقع بينهم منازعة كف بها عنه شرهم، وفي «المثنوي» خطاباً من قبل الله تعالى إلى حضرة صاحب الرسالة عليه السلام:

هركه درمكر تودارد دل كرو ... كردنش را من زنم توشاد شو
بر سر كوريش كوريها نهم ... أو شكر بندارد وزهرش دهم
چيست خود آلاجق آن تركمان ... پيش پاي نره پيلان جهان
آن چراغ أو به پيش صرصرم ... خودچه باشد أي مهين پيغمبرم

﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله وإثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ما عبر عنه بإيقاد نار الحرب. وفساداً إما مفعول له أو في موضع المصدر أي يسعون للفساد أو يسعون سعي فساد ﴿**والله لا يحب المفسدين**﴾ ولذلك أطفأ نائرة إفسادهم ولا يجازيهم إلا شراً.

واعلم أن الله تعالى مهما وكل الإنسان إلى خساسة طبعه وركاكة نظره وعقله فلا يترشح منه إلا ما فيه من الأقوال الشنيعة والأفعال الرذيلة ولذلك قالت اليهود ﴿**يد الله مغلولة**﴾ ، ونعم ما قال في «المثنوي»:

درزمين كرنيشكر ورخودني است ... ترجمان هر زمين نبت وى است

وأهل الحسد يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولكن لا يزيدهم الحسد إلا الطغيان فكما أن مصائب قوم عند قوم فوائد كذلك فوائد قوم عند قوم مصائب.

قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: إن جماعة السيد البخاري حسدوا لنا حتى قصدوا القتل بالسلاح واشتغلوا بالأسماء القهرية على حسب طريقهم فلم أقاتل دفعاً للفتنة ثم رأيت في موضع قرب جامع السيد البخاري قد أخذ طريقي ماء عظيم فلم يبق إلا طريق ضيق فلما قربت منه لم يبق أثر من الماء ثم إنه مات كثير من تلك الجماعة ولكن لم أباشر أنا في حقهم شيئاً قال: كيف أميل إلى مشيختهم وتصرف ثمانية عشر ألف عالم بيدي بقدرة

الله تعالى في الباطن وإن كنت عاجزاً في الظاهر.

ـ وحكي ـ أن مولانا جلال الدين اشتغل عند صلاح الدين شركوه بعد المفارقة من شمس الدين التبريزي فلما سمعه بعض أتباع مولانا أرادوا قتله فأرسل إليه مولانا ابنه السلطان ولد فقال الشيخ صلاح الدين: إن الله تعالى أعطاني قدرة على قلب السماء إلى الأرض فلو أردت أهلكتهم بقدرة الله تعالى لكن الأولى أن ندعو لإصلاحهم فدعا الشيخ فأمن السلطان ولد فلانت قلوبهم واستغفروا اللهم بحق أصفيائك خلصنا من رذائل الأوصاف وسفساف الأخلاق إنك أنت القادر الخلاق.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿**ولو أن أهل الكتاب**﴾ أي اليهود والنصارى ﴿**آمنوا**﴾ بما يجب به الإيمان ﴿**واتقوا**﴾ من المعاصي مثل الكذب وأكل السحت ونحو ذلك ﴿**لكفرنا عنهم سيآتهم**﴾ أي: لعفونا عنهم وسترنا عليهم ذنوبهم وهو الخلاص من العذاب ﴿**ولأدخلناهم جنات النعيم**﴾ أي ولجعلناهم خالدين فيها وهو الظفر بالثواب. وفيه تنبيه على أن الإسلام يجب ما قبله وإن جل وإن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم. ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل**﴾ أي: عملوا بما فيهما من التصديق بسيد المرسلين والوفاء لله تعالى بما عاهدوا فيهما وإقامة الشيء عبارة عن رعاية حقوقه وأحكامه كإقامة الصلاة ﴿**وما أنزل إليهم من ربهم**﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وإيراده بهذا العنوان للتصريح ببطلان ما كانوا يدعون من عدم نزوله إلى بني إسرائيل. ﴿**لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ أي: لوسع الله عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض بإنزال المطر وإخراج النبات. وفيه تنبيه على أن ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا لقصور في فيض الفياض، وفي «المثنوي»:

هين مراقب باش كردل بايدت كزپى هر فعل چيزى زايدت

اين بلا از كودنى آيدترا كه نكردى فهم نكته ورمزها

وكأنه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الإيمان والتقوى والإقامة فقيل: ﴿**منهم أمة مقتصدة**﴾ أي طائفة عادلة غير غالية ولا مقصرة كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن آمن من اليهود وثمانية وأربعين ممن آمن من النصارى. والاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير ﴿**وكثير منهم**﴾ مقول في حقهم ﴿**ساء ما**﴾ كانوا ﴿**يعملون**﴾ وفيه تعجب بحسب المقام أي ما أسوء عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والإعراض عنه. وفي الآية بيان أن التقوى سبب لتوسعة الرزق واستقامة الأمر في الدنيا والآخرة. قال عبد الله القلانسي ركبت سفينة في بعض أسفاري فبدت ريح شديدة فاشتغل أهل السفينة بالدعاء والنذور وأشاروا إليّ بالنذر أيضاً فقلت إني مجرد عن الدنيا فألحوا عليّ فقلت إن خلصني الله لا آكل لحم الفيل فقالوا من يأكل لحم الفيل حتى تكفه عن نفسك فقلت: هكذا خطر ببالي فخلصني الله بجماعة ورمانا إلى ساحل البحر فمضى أيام لم نجد ما نأكل فبينا نحن جياع إذ ظهر جرو فيل فقتلوه وأكلوا لحمه ولم آكل رعاية لنذري وعهدي فألحوا عليّ فقالوا: إنه مقام الاضطرار فلم أقبل

قولهم ثم ناموا فجاءت أم الجرو ورأت عظام ولدها وشمت الجماعة فرداً فرداً فكل من وجدت رائحته أهلكته ثم جاءتني فلما لم تجد الرائحة وجهت إليّ ظهرها وأشارت إليّ بالركوب فركبت فحملتني وأوصلتني تلك الليلة إلى موضع وأشارت إليّ بالنزول فنزلت ولقيت وقت السحر جماعة فأخذوني إلى البيت وأضافوني فأخبرتهم قصتي على لسان ترجمان فقالوا: من ذلك الموضع إلى هنا مسيرة ثمانية أيام وقد قطعتها في ليلة واحدة فظهر من هذه الحكاية أنه برعاية جانب التقوى والوفاء بالعهد يستقيم أمر المرء من جهة الدين والدنيا وأن شهوة واحدة من شهوات الدنيا لها حزن طويل وكيد عظيم بل هلاك كما وقع لتلك الجماعة التي أكلوا جرو الفيل [وقتى زنبورى موريرا ديدكه بهزار حيله دانه بخانه ميكشد ودران رنج بسيارمى ديداورا كفت أي مور أين چه رنجست كه برخود نهادة بياكه مطعم ومشرب من ببين كه هر طعامكه لطيف ولذيذ ترست تا ازمن زياده نيايد بپادشاهان نرسد هرانجاكه خواهم نشينم وآنچه خواهم كزينم وخورم ودرين سخن بودكه بريريد وبدكان قصابي برمسلوخى نشست قصاب كه كارد دردست داشت بران زنبور مغرور زدد وپاره كرد برزمين انداخت ومور بيامد وپاى كشان اورا مى بردو كفت «رب شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً» زنبور كفت مرابجايي مبركه نخواهم مور كفت هركه از روى حرص وشهوت جايى نشيندكه خواهد بجايى كشندش كه نخواهد].

واعلم أن قوله تعالى: **﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** إشارة إلى ما يحصل بالوهب الرحماني وما يحصل بالكسب الإنساني فمن عمل بما عمل واجتهد في طريق الحق كل الاجتهاد ينال مراتب الأذواق والمشاهدات فيحصل له جنتان جنّة العمل وجنة الفضل وهذا الرزق المعنوي هو المقبول، وفي «المثنوي»:

اين دهان بستى دهانى بازشد	كه خورنده لقمهاى رازشد
كر زشيرو ديوتن را وابرى	در فطام او بسى نعمت خورى

اللهم أمدنا بفيض فضلك وإحسانك.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾

﴿يا أيها الرسول بلغ﴾ جميع **﴿ما أنزل إليك من ربك﴾** مما يتعلق بمصالح العباد فلا يرد أن بعض الأسرار الإلّهية يحرم إفشاؤه. قال أبو هريرة: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم فأما أحدهما فقد بثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم والتحقيق أن ما يتعلق بالشريعة عام تبليغه وما يتعلق بالمعرفة والحقيقة خاص ولكل منهما أهل فهو كالأمانة عند المبلغ يلزم دفعها إلى أربابها **﴿وإن لم تفعل﴾** أي: إن لم تبلغ جميعه خوفاً من أن ينالك مكروه **﴿فما بلغت رسالته﴾** لأن كتمان بعضها ككتمان الكل والرسالة لا سبيل لها أن يبلغها إلا باللسان فلذلك لم يرخص له في تركها وإن خاف فهذا دليل لقولنا في المكره على الطلاق والعتاق إذا تكلم به وقع لأن تعلق ذلك باللسان لا بالقلب والإكراه لا يمنع فعل اللسان فلا يمنع النفاذ كذا في «التيسير». **﴿والله يعصمك من الناس﴾** أمانة من الله تعالى للنبي عليه السلام

كيلا يخاف ولا يحذر كما روي في الخبر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما دخل المدينة قالت اليهود: يا محمد إنا ذوو عدد وبأس فإن لم ترجع قتلناك وإن رجعت ذودناك وأكرمناك فكان عليه السلام يحرسه مائة من المهاجرين والأنصار يبيتون عنده ويخرجون معه خوفاً من اليهود فلما نزل قوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ علم أن الله تعالى يحفظه من كيد اليهود وغيرهم فقال للمهاجرين والأنصار «انصرفوا إلى رحالكم فإن الله قد عصمني من اليهود» فكان ﷺ بعد ذلك يخرج وحده في أول الليل وعند السحر إلى أودية المدينة وحيث ما شاء يعصمه الله مع كثرة أعدائه وقلة أعوانه وكان الشج والرباعية قبل ذلك أو لأن المراد العصمة من القتل وقد حفظه من ذلك وأما سائر البلايا والمحن فذلك مما كان يجري على سائر الأنبياء والأولياء. قال الكرماني: ما وقع من الابتلاء والسقم في الأنبياء عليهم السلام لنيل جزيل الأجر وليعلم أنهم بشر تصيبهم محن الدنيا وما يطرأ على الأجسام وأنهم مخلوقون فلا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات انتهى ﴿**إن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ تعليل لعصمته عليه السلام أي لا يمكنهم مما يريدون لك من الأضرار. وفيه إشارة إلى أن من سنة الله تعالى أن لا يهدي إلى حضرته قوماً جحدوا نبوة الأنبياء وما قبلوا رسالة الرسل ليبلغوا إليهم من ربهم أو أنكروا على الأولياء وما استمسكوا بعروة ولايتهم ليوصلوهم إلى الله تعالى سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً وفي الآية أيضاً إشارة إلى أن من امتثل لأمر الخالق يعصمه من مضرة المخلوق كما عصم النبي عليه السلام وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار حين الهجرة فإذا عصم الله من امتثل لأمره يعصم أيضاً من يستشفع برسوله عليه السلام ويهديه إلى سواء الصراط.

ـ حكي ـ أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم وأسر فانطلق هارباً يلتمس الجيش فإذا بالأسد فقال: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله فكان مرادي كيت وكيت فأقبل الأسد يتبصبص حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوتاً أهوى إليه فلم يزل كذلك حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد، قال السعدي في «البستان».

يكى ديدم از عرصه رودبار ... كه پيش آمدم برپلنكي سوار
چنان هول ازان حال برمن نشست ... كه ترسيدنم پاي رفتن ببست
تبسم كنان دست برلب كرفت ... كه سعدى مدار انچه آيد شكفت
توهم كردن از حكم داور مپيچ ... كه كردن نپيچد زحكم توهيچ
محالست چون دوست داردترا ... كه دردست دشمن كذارد ترا

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في بعض الغزوات فنزل مع قومه في واد فتفرق الناس يستظلون بالأشجار وينامون واستظل عليه السلام بشجرة معلقاً سيفه بغصنها فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فلما حضرنا رأينا أعرابياً فقال عليه السلام: «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا فقال من يمنعك مني فقلت الله» يعني: يمنعني الله منك «فسقط السيف من يده فأخذته فقلت من يمنعك مني فقال: كن خير آخذ» قال الراوي: قال له النبي عليه السلام: أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله قال: لا ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى عليه السلام سبيله وفي الحديث كمال توكل النبي عليه السلام وتصديق قوله: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ واستحباب مقابلة السيئة بالحسنة كذا

في «شرح المشارق» لابن الملك ـ رحمه الله تعالى ـ ﴿قل﴾ يا محمد مخاطباً اليهود والنصارى ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ أي دين يعتد به ويليق بأن يسمى شيئاً لظهور بطلانه ووضوح فساده ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ ومن إقامتهما الإيمان بمحمد والإذعان لحكمه فإن الكتب الإلّهية بأسرها آمرة بالإيمان بما صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له والمراد إقامة أصولهما وما لم ينسخ من فروعهما. ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: القرآن المجيد بالإيمان به ونسب الإنزال إليهم لأنهم كانوا يدعون عدم نزوله إلى بني إسرائيل ﴿وليزيدن كثيرا منهم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ما أنزل إليك من ربك﴾ أي القرآن ﴿طغيانا وكفرا﴾ على طغيانهم وكفرهم القديمين وهو مفعول ثان ليزيدن ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي: فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم. وفي الآية إشارة إلى أن حقيقة الدين إنما هي أحكام ظاهرة وباطنة والتزين بالأعمال ظاهراً وبالأحوال باطناً وهذا لا يتصور إلا بمقدمتين ونتائج أربع فأما المقدمتان فأولاهما الجذبة الإلّهية وثانيتهما التربية الشيخية وأما النتائج فأولاها الإعراض عن الدنيا وما يتعلق بها كلها وثانيتها التوجه إلى الحق يصدق الطلب وهما من نتائج الجذبة ثم تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة وتحلية القلب بالأخلاق الإلّهية وهما من نتائج التربية الشيخية باستمداد القوة النبوة والقوم الكافرون هم أهل الإنكار يتعلقون بظاهر الدين ولا يعرفون وراءه غاية وليس الأمر كذلك فإن لكل ظاهر باطناً، وفي «المثنوي»:

فائده هر ظاهرى خود باطنست   همچو نفع اندر دواها كامنست
هيچ خطاطى نويسد خط بفن   بهر عين خط نه بهر خواندن
كند بينش مى نبيند غير اين   عقل أو بى سيرچون نبت زمين
نبت راچه خوانده چه ناخوانده   هست پاى او بكل درمانده
كرسرش جنبد بسير بادرو   توبسر جنبا نيش غره مشو
آن سرش كويد سمعنا أى صبا   پاى او كويد عصينا خلنا

والحامل على الإنكار هو الحسد كما كان لطائفة اليهود والنصارى فلا بد من تزكية النفس من مثل هذا القبيح.

ـ حكي ـ أن تلميذاً للفضيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس فقال: يا أستاذ لا تقرأ هذه ثم سكت ثم لقنه فقال: لا إله إلا الله فقال: لا أقولها لأني بريء منها ومات على ذلك فدخل الفضيل منزله وجعل يبكي أربعين يوماً لم يخرج من البيت ثم رآه في النوم وهو يسحب إلى جهنم فقال: بأي شيء نزع الله المعرفة عنك وكنت أعلم تلاميذي فقال بثلاثة: أولها بالنميمة فإني قلت لأصحابي بخلاف ما قلت لك، والثاني بالحسد حسدت أصحابي، والثالث كان لي علة فجئت إلى الطبيب وسألته عنها فقال: تشرب في كل سنة قدحاً من الشراب فإن لم تفعل بقيت بك العلة فكنت أشربه نعوذ بالله من سخطه الذي لا طاقة لنا به كذا في «منهاج العابدين».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ أي: بألسنتهم فقط وهم المنافقون ﴿والذين هادوا﴾ أي دخلوا في اليهودية ﴿والصابئون﴾ أي: الذين صبت قلوبهم ومالت إلى الجهل وهم صنف من النصارى يقال لهم السائحون يحلقون أوساط رؤوسهم وقد سبق في سورة البقرة ﴿والنصارى﴾ جمع نصران وهو معطوف على الذين هادوا. وقوله والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ الخ والتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك وإنما لم يعطف على ما قبله بل جعل مع خبره المحذوف جملة مستقلة أتى بها في خلال الجملة الأولى على نية التأخير للدلالة على أن الصابئين مع كونهم أشد الفرق المذكورين في هذه الآية ضلالاً إذا قبل توبتهم وغفر ذنوبهم على تقدير الإيمان الصحيح والعمل الصالح فقبول توبة باقي الفرق أولى وأخرى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: من أحدث من هذه الطوائف إيماناً خالصاً بالمبدأ والمعاد ﴿وعمل صالحا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان بهما. قوله من في محل الرفع بالابتداء وخبره فلا خوف الخ والجملة خبر إن ﴿فلا خوف عليهم﴾ حين يخاف الكفار العقاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما.
قال الحدادي في تفسيره: أما نفي الحزن عن المؤمنين هٰهنا فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يكون عليهم حزن في الآخرة ولا خوف ونظيره قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] وقال بعضهم: إن المؤمنين يخافون ويحزنون لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ [عبس: ٣٤ـ ٣٥] وقال ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة» فقالت عائشة واسوءتاه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أما سمعت قول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧] قالوا وإنما نفى الله تعالى في هذه الآية الحزن عن المؤمنين لأن حزنهم لما كان في معرض الزوال ولم يكن له بقاء معهم لم يعتد بذلك انتهى، وفي «المثنوي»:

هركه ترسد مرورا أيمن كنند ... مردل ترسنده راساكن كنند
لا تخافوا هست نزل خائفان ... هست درخور از براي خائف آن
آنكه خوفش نيست چون كويى مترس ... درس چه دهى نيست أو محتاج درس

واعلم أن أولياء الله لا خوف عليهم فيما لا يكون على شيء لأنهم يقيمون القرآن عملاً بالظاهر والباطن ولا هم يحزنون على ما يقاسون من شدائد الرياضات والمجاهدات ومخالفات النفس في ترك الدنيا وقمع الهوى ولا على ما أصابهم من البلاء والمحن والمصيبات والآفات لأنهم تخلصوا من التقليد وفازوا بالتحقيق وارتفع عنهم تعب التكاليف فهم مع الله في جميع أحوالهم فعلى المؤمن معالجة مرضه القلبي من الأوصاف الرذيلة والتخلص من النفاق واللحاق بأهل الاتفاق. قال إبراهيم الخواص قدس سره دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع إلى الله عند السحر، ومجالسة الصالحين. قال حضرة الشيخ الشهير بالهدائي قدس سره: ونحن نقول المصلح في الحقيقة هو الله ولكن أشد الأشياء تأثيراً هو الذكر قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال علي رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه يعمرون مساجدهم

وهي خراب من ذكر الله شر أهل ذلك الزمان علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود»، قال السعدي:

علم چند انكه بيشتر خوانى چون عمل در تونيست نادانى
نه محقق بود نه دانشمند چارپايى برو كتابي چند
آن تهى مغزراً چه علم وخبر كه بروهيز مست ويا دفتر

واعلم أن زبدة العلوم هي العلم بالله وما سواه فمن محسناته ومن علم فهو كامل في نفسه إلا أن العمل هو المقصود ومجرد القراءة لا يغني شيئاً ولا يجلب نفعاً فطوبى لمن صاحب رفيق التوفيق.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: بالله قد أخذنا عهدهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة. **﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾** ذوي عدد كثير وأولى شأن خطير ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم **﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾** جواب شرط محذوف كأنه قيل فماذا فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف عصوه وعادوه كأنه قيل: كيف عصوهم فقيل: **﴿فريقاً كذبوا﴾** أي: فريقاً منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشيء آخر من المضار **﴿وفريقاً يقتلون﴾** أي: فريقاً آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضاً كزكريا ويحيى عليهما السلام.

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي: حسب بنو إسرائيل وظنوا أن لا يصيبهم من الله تعالى بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم وجه حسبانهم أنهم وإن اعتقدوا في أنفسهم أنهم مخطئون في ذلك التكذيب والقتل إلا أنهم كانوا يقولون نحن أبناؤه وأحباؤه وكانوا يعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العذاب الذي يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب **﴿فعموا﴾** عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها أي آمنوا بأس الله تعالى فتمادوا في فنون الغي والفساد وعموا عن الدين بعدما هداهم الرسل إلى المعاملة الظاهرة وبينوا لهم مناهجة الواضحة أي عملوا معاملة الأعمى الذي لا يبصر **﴿وصموا﴾** عن استماع الحق الذي ألقوه عليهم أي عملوا معاملةِ الأصم الذي لا يسمع ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا. قال المولى أبو السعود وهذا إشارة إلى المرة الأولى من مرتي إفساد بني إسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعيباً وقيل: حبسوا أرمياء عليه السلام. **﴿ثم تاب الله عليهم﴾** حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد وبعدما كانوا ببابل دهراً طويلاً تحت قهر بخت نصر أسارى في غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكاً عظيماً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمره وينجي بقايا بني إسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكهم وردهم إلى وطنهم وتراجع من تفرق منهم في الأكناف فعمروه في ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ما

كانوا عليه ﴿ثم عموا وصموا﴾ وهو إشارة إلى المرة الأخرى من مرتي إفسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير في الفعلين. قال الحدادي: قوله ﴿كثير منهم﴾ يقتضي في المرة الثانية أنهم لم يكفروا كلهم وإنما كفر أكثرهم كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك في المرة الأولى حيث سلط الله عليهم بخت نصر فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد إلى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وعلا إلى ما حكي عنهم من حسن الحال ثم عادوا إلى المرة الأخرى من الإفساد فبعث الله عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ففعل بهم ما فعل. قيل: دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال: ما صدقتموني فقتل عليه الوفا منهم ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله منكم ثم قال: يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقي أحداً منهم فهدأ.

واعلم أن من مقتضى النفس نسيان العهد بينها وبين الله ونسيان نعمه بالكفران وكيف الكفران والإنسان غريق في بحر كرمه ولطفه فيجب عليه شكر ذلك وإرسال الرسل وتوضيح السبل ونزول المطر وإنبات الأرض وصحة البدن وقوة القلب واندفاع الموانع ومساعدة الأسباب كل ذلك من النعم الجليلة.

ـ وحكي ـ أن دانيال عليه السلام وجد خاتمه في عهد عمر رضي الله عنه وكان على فصه أسدان وبينهما رجل يلحسانه وذلك أن بخت نصر لما تتبع الصبيان وقتلهم وولد هو ألقته أمه في غيضة رجاء أن ينجو منه فقيض الله سبحانه أسداً يحفظه ولبوة ترضعه وهما يلحسانه فلما كبر صور ذلك في خاتمه حتى لا ينسى نعمة الله عليه ولا بد في قطع طريق الآخرة من تحمل المشاق والقيام بالحقوق الواجبة بينه وبين الخلاق. ذكر عن الفضيل أنه قال: من عزم على طريق الآخرة فيلجعل في نفسه أربعة ألوان من الموت الأبيض والأحمر والأسود والأخضر، فالموت الأبيض الجوع، والأسود ذم الناس، والأحمر مخالفة الشيطان، والأخضر الوقائع بعضها على بعض أي المصائب والأوجاع وإذا كان المرء أعمى وأصم في هذا الطريق فلا جرم يضل ولا يهتدي، قال في «المثنوي»:

كوررا هر كام باشد ترس چاه ... باهزاران ترس مى آيد براه
مرد بينا ديده عرض راه را ... پس بداند او مغاك وچاه را
ماهيانرا بحر نكذارد برون ... خاكيانرا بحر نكذارد درون
أصل ما هى آب وحيوان از كلست ... حيله وتدبير اينجا باطلست
قفل زفتست وكشاينده خدا ... دست درتسليم زن اندر رضا

والعصيان وإن كان سبباً للنسيان ورين العمى والصمم إلا أن ما قضاه الله وقدره لا يتغير فليبك على نفسه من ضاع عمره في الهوى وتتبع الشهوات فلم يجد إلى طلب الحق سبيلاً وإلى طريق الرشد دليلاً اللهم إنك أنت الهادي.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ نزلت في نصارى نجران السيد والعاقب ومن معهما وهم المار يعقوبية قالوا: إن الله حل في ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. **﴿وقال المسيح﴾** أي: قالوا ذلك والحال قد قال المسيح مخاطباً لهم **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾** فإني عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم **﴿إنه﴾** أي: الشان **﴿من يشرك بالله﴾** أي: شيئاً في عبادته أو فيما يخص به من الصفات والأفعال **﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾** فلن يدخلها أبداً كما لا يصل المحرم عليه إلى المحرم فإنها دار الموحدين **﴿ومأواه النار﴾** فإنها هي المعدة للمشركين **﴿وما للظالمين﴾** بالإشراك **﴿من أنصار﴾** أي: من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة وهو من تمام كلام عيسى، ثم حكى ما قاله النسطورية والملكانية من النصارى فقال: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾** أي: أحد ثلاثة آلهة والإلهية مشتركة بينهم وهم الله وعيسى ومريم **﴿وما من إله إلا إله واحد﴾** أي: والحال ليس في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدأ جميع الموجودات الإلٓهية موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة **﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾** عن مقالتهم الأولى والثانية ولم يوحدوا. **﴿ليمسن الذين كفروا منهم﴾** أي: والله ليمسنهم ووضع الموصول موضع الضمير لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن بيانية حال من الذين **﴿عذاب أليم﴾** نوع شديد الألم من العذاب يخلص وجعه إلى قلوبهم **﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾** أي: أيصرون فلا يتوبون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطنة وهمزة الاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده لا لإنكار الوقوع وفيه تعجيب من إصرارهم وتحضيض على التوبة **﴿ويستغفرونه﴾** بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول **﴿والله غفور رحيم﴾** أي: والحال أنه تعالى مبالغ في المغفرة يغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي ما هو إلا مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها كالرسل الماضية من قبله خصه الله تعالى بآيات كما خصهم بها فإن أحيى الموتى على يده فقد أحيى العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب وإن خلقه من غير أب فقد خلق الله آدم من غير أب وأم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شؤونه وأفعاله **﴿وأمه صديقة﴾** أي: ما أمه أيضاً إلا كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أي صدق الأقوال في المعاملة مع الخلق وصدق الأفعال والأحوال في المعاملة مع الخالق لا يصدر منهن ما يكذب دعوى العبودية والطاعة **﴿كانا يأكلان الطعام﴾** ويفتقران إليه افتقار الحيوانات فكيف يكون إلٓهاً من لا يقيمه إلا أكل الطعام **﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾** الباهرة

المنادية ببطلان ما تقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال **﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾** أي كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها. وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي أن بياننا الآيات أمر بديع في بابه وإعراضهم عنها مع تعاضد ما يوجب قبولها أبدع.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد الزاماً لهؤلاء النصارى ومن سلك طريقتهم من اتخاذ غير الله إلّهاً **﴿أتعبدون من دون الله﴾** أي متجاوزين إياه **﴿ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾** يعني عيسى وهو وإن ملك ذلك بتمليك الله إياه لكنه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر الله به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة وإنما قال: ما مع أن أصله أن يطلق على غير العاقل نظراً إلى ما هو عليه في ذاته فإنه عليه الصلاة والسلام في أول أحواله لا يوصف بعقل ولا بشيء من الفضائل فكيف يكون إلّهاً **﴿والله هو السميع العليم﴾** بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وهو حال من فاعل تعبدون **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾** أي: غلواً باطلاً فترفعوا عيسى إلى أن تدعوا له الألوهية كما ادعته النصارى أو تضعوه فتزعموا أنه لغير رشدة كما زعمته اليهود **﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾** يعني: أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد عليه السلام في شريعته **﴿وأضلوا كثيرا﴾** أي من تابعهم على بدعهم وضلالهم. **﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾** عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه لما كذبوه وبغوا عليه وحسدوه. قال الشيخ نجم الدين في «تأويلاته»: إن النصارى لما أرادوا أن يسلكوا طريق الحق بقدم الفعل وينظروا إلى أحوال الأنبياء بنظر العقل تاهوا في أودية الشبهات وانقطعوا في بوادي الهلكات جل جناب القدس عن إدراك عقول الإنس هيهات هيهات وهذا حال من يحذو حذوهم ويقفو أثرهم فأطرت النصارى عيسى عليه السلام إذ نظروا بالعقل في أمره فوجدوه مولوداً من أم بلا أب فحكم عقلهم أن لا يكون مولود بلا أب فينبغي أن يكون هو ابن الله واستدلوا على ذلك بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويخبر عما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون وهذا من صفات الله تعالى ولو لم يكن المسيح ابن الله لما أمكنه هذا وإنما أمكنه لأن الولد سر أبيه وقال بعضهم: إن المسيح لما استكمل تزكية النفس عن صفات الناسوتية حل لاهوتية الحق في مكان ناسوتيته فصار هو الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم اعلم أن أمة محمد لما سلكوا طريق الحق بإقدام جذبات الألوهية على وفق المتابعة الحبيبية أسقط عنهم كلفة الاستدلال ببراهين الوصول والوصال كما كان حال الشبلي حين غسل كتبه بالماء وكان يقول: نعم الدليل أنتم ولكن اشتغالي بالدليل بعد الوصول إلى المدلول محال، وفي «المثنوي»:

چون شدى بر بامهاى آسمان سرد باشد جست وجوى نردبان
آينه روشن كه شد صاف وجلي جهل باشد بر نهادن صيقلى
پيش سلطان خوش نشسته در قبول جهل باشد جستن نامه ورسول

فهؤلاء القوم بعدما وصلوا إلى سرادقات حضرة الجلال شاهدوا بأنوار صفات الجمال أن الإنسان هو الذي حمل أمانة الحق من بين سائر المخلوقات وهي نور فيض الألوهية بواسطة الأنبياء فهم مخصوصون بأحسن التقويم في قبول هذا الكمال فتحقق لهم أن عيسى عليه السلام صار قابلاً بعد التزكية للتخلية بفيض الخالقية والمحبية كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ويبرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله لا بإذنه أعني كان صورة الفعل منه ومنشأ صفة الخالقية حضرة الألوهية وهذا كما أن الكرة البلور المخروط استعداداً في قبول فيض الشمس إذا كانت في محاذاتها فتقبل الفيض وتحرق المحلوج المحاذي لها بذلك الفيض فمصدر الفعل المحرق من الكرة ظاهراً ومنشأ الصفة المحرقية حضرة الشمس حقيقة فصار للكرة بحسن الاستعداد قابلية لفيض الشمس وظهر منها صفات الشمس وما حلت الشمس في كرة البلور تفهم إن شاء الله وتغتنم فكذلك حال الأنبياء في المعجزات وكبار الأولياء في الكرامات والفرق أن الأنبياء مستقلون بهذا المقام والأولياء متبعون. قال الإمام الغزالي في قول أبي يزيد انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو إذ من انسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها لا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله وإذا لم يحل في القلب إلا جلال الله وجماله صار مستغرقاً كأنه هو لا أنه هو تحقيقاً. وقوله أيضاً سبحاني ما أعظم شأني يحمل على أنه قد شاهد كمال حظه من صفة القدس فقال سبحاني ورأى عظيم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق فقال: ما أعظم شأني وهو مع ذلك يعلم قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق ولا نسبة له إلى قدس الرب وعظم شأنه وقول من قال من الصوفية: أنا الحق فوارد على سبيل التجوز أيضاً كما قال الشاعر:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا وذلك متأول عند الشاعر فإنه لا يعني به أنه هو تحقيقاً بل كأنه هو فإنه مستغرق بالهم به كما يكون مستغرق الهم بنفسه فيعتبر هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز. قال الشيخ أبو القاسم الجرجاني: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل، فإن قلت: ما معنى الوصول؟ قلت: معنى السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن والعبد في جميع ذلك مشغول بنفسه عن ربه إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول وإنما الوصول هو أن ينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولاً لا بكله مشاهدة وهما لا يلتفت في ذلك إلى نفسه ليعمر ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداءة وأما النهاية فأن ينسلخ عن نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو وذلك هو الوصول، وفي «المثنوي»:

كار كاه كنج حق در نيستيست ... غره هستى چه دانى نيست چيست

آب كوزه چون در آب جو شود ... محو كردد دروى وجو او شود

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن

سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿لعن الذين كفروا﴾ حال كونهم ﴿من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا من رحمة الله تعالى ﴿على لسان داود﴾ متعلق بلعن يعني أهل ايلة لما اعتدوا في السبت قال داود عليه الصلاة والسلام: اللهم العنهم واجعلهم آية ومثلاً لخلقك فمسخوا قردة ﴿وعيسى ابن مريم﴾ أي: على لسان عيسى ابن مريم يعني كفار أصحاب المائدة لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت واجعلهم آية فمسخوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي كأنه قيل بأي سبب وقع ذلك فقيل: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ استئناف أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح يعملونه واصطلحوا على الكف عن نهي المنكر ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تعجيب من سوى فعلهم مؤكداً بالقسم ﴿ترى كثيراً منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه حيث خرجوا إلى مشركي مكة ليتفقوا على محاربة النبي عليه السلام والرؤية بصرية ﴿يتولون الذين كفروا﴾ حال من كثيراً لكونه موصوفاً أي يوالون المشركين بعضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ أي لبئس شيئاً قدموا ليردوا عليه يوم القيامة ﴿أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾ هو المخصوص بالذم بتقدير المضاف أي موجب سخط الله والخلود في العذاب لأن نفس السخط المضاف إلى الباري تعالى لا يقال له إنه المخصوص بالذم إنما المخصوص بالذم هو الأسباب الموجبة له ﴿ولو كانوا﴾ أي: الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يؤمنون بالله والنبي﴾ أي: نبيهم ﴿وما أنزل إليه﴾ أي: إلى ذلك النبي من التوراة والإنجيل ﴿ما اتخذوهم﴾ أي: المشركين ﴿أولياء﴾ لأن تحريم ذلك مصرح في شريعة ذلك النبي وفي الكتاب المنزل إليه فالإيمان يمنع من التولي قطعاً ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيهم وكتابهم.

وفي الآيات أمور:

الأول: أن الإنسان الكامل الذي يصلح لخلافة الحق هو مظهر صفات لطف الحق وقهره فقبولهم قبول الحق وردهم رد الحق ولعنهم لعن الحق وصلاتهم صلاة الحق فمن لعنوه فقد لعنه الحق ومن صلوا عليه فقد صلى الحق عليه لقوله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فمظهر اللعن كان لسان داود وعيسى وكانت اللعنة من الله حقيقة لقوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧] وهم الذين لعنهم داود وصرح هٰهنا أن اللعن كان منه تعالى وإن كان على لسان داود عليه السلام، في «المثنوي»:

اين نكردى توكه من كردم يقين — أي صفاتت در صفات مادفين
ما رميت إذ رميت كشته — خويشتن درموج چون كف هشته

وفي محل آخر:

كه ترا ازتوبكل خالى كند — توشوى پست او سخن عالى كند

كرچه قرآن ازلب پيغمبر است هركه كويد حق نكفت او كافرست

والثاني أن الله تعالى سمى العصيان منكراً لأنه يوجب النكرة كما سمى الطاعة معروفاً لأنها توجب المعرفة والإقدام على الفعل المنكر معصية والإصرار على المعصية كالكفر في كونه سبباً للرين المحيط بجوانب القلب ومن ذلك ترك النهي عن المنكر وفي الحديث «يحشر يوم القيامة أناس من أمتي من قبورهم إلى الله تعالى على صورة القردة والخنازير؟ بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون» فالمداهنة من أعمال الكفار والدعوة إلى الله من أخلاق الأخيار، وفي «المثنوي»:

هركسى كواز صف دين سركش است ميرود سوى صفى كان واپس است
توز كتار تعالوا كم مكن كيمياى پس شكر فست آن سخن
كرمسى كردد ز كفتارت نفير كيميارا هيچ ازوى وامكير
اين زمان كربست نفس ساحرش كفت توسودش دهددر آخرش
قل تعالوا قل تعالوا أي غلام هين كه ان الله يدعو بالسلام

والثالث: أن المؤمن والكافر ليسا من جنس واحد وتولي الكافر موجب لسخط الله لأن موالاة الأعداء توجب معاداة الأولياء فينبغي للمؤمن الكامل أن ينقطع عن صحبة الكفار والفجار وأهل البدع والأهواء وأرباب الغفلة والإنكار، وفي «المثنوي»:

ميل مجنون پيش آن ليلى روان ميل ناقه پس پى طفلش دوان
كفت أى ناقه چوهردو عاشقيم مادو ضد پس همره نا لا يقيم
نيستت بروفق من مهر ومهار كرد بايد ازتو صحبت اختيار
جان زهجر عرش اندر فاقه تن زعشق خاربن چون ناقة
جان كشايد سوى بالا بالها درزده تن درزمين چنكالها

اللهم خلصنا من خلاف الجنس مطلقاً.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿لتجدن﴾ يا محمد **﴿أشد الناس﴾** مفعول أول للوجدان **﴿عداوة﴾** تمييز **﴿للذين آمنوا﴾** متعلق بعداوة **﴿اليهود﴾** مفعول ثان للوجدان **﴿والذين أشركوا﴾** يعني: مشركي العرب معطوف على اليهود **﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾** إعرابه كإعراب ما سبق. أما عداوة اليهود والمشركين المنكرين للمعاد فلشدة حرصهم الذي هو معدن الأخلاق الذميمة فإن من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا وأقدم على كل محظور ومنكر فلا جرم تشتد عداوته مع كل من نال جاهاً أو مالاً. وأما مودة النصارى فلأنهم في أكثر الأمر معرضون عن الدنيا مقبلون على العبادة وترك طلب الرياسة والكبر والترفع وكل من كان كذلك فإنه لا يحسد الناس ولا يؤذيهم بل يكون لين العريكة في طلب الحق سهل الانقياد له انظر إلى كفر النصارى مع كونه أغلظ من كفر اليهود لأن كفر النصارى في الألوهية وكفر اليهود في النبوة وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فإنما قاله طائفة منهم ومع

ذلك خص اليهود بمزيد اللعنة دونهم وما ذاك إلا بسبب حرصهم على الدنيا ويؤيده قوله عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، قال البغوي لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم لا مودة ولا كرامة لهم بل الآية نزلت فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه وكان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً قبل ظهور الإسلام ثم أسلم هو وأصحابه قبل الفتح ومات قبله أيضاً، وقال أهل التفسير: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثب كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب فلما رأى رسول الله ﷺ ما حل بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة وقال: «إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً» وأراد به النجاشي واسمه أصحمة بالمهملتين وهو بالحبشية عطية وإنما النجاشي اسم الملك كقولهم قيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس فخرج إليها سراً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ وهذه هي الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون إليها فكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان:

سعديا حب وطن كرچه حد يثست صحيح نتوان مرد بسختى كه من اينجازادم

فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردوهم إليهم فعصمهم الله فلما انصرفا خائبين وأقام المسلمون هناك بخير دار وحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله وعلا أمره وذلك في سنة ست من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها فأرسل النجاشي إلى أم حبيبة جارية يقال لها نزهة تخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إياها فأعطتها أوضاحاً لها سروراً بذلك وأمرها أن توكل من يزوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فأنكحها على صداق أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله النجاشي فأنفذ إليها على يد نزهة أربعمائة دينار فلما جاءتها بها أعطتها خمسين ديناراً فردتها وقالت: أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمداً ﷺ وآمنت به فحاجتي منك أن تقرئيه مني السلام قالت: نعم ثم أمر الملك نساءه أن يبعثن إلى أم حبيبة بما عندهن من عود وعنبر وكان عليه السلام يراه عليها وعندها فلا ينكر قالت أم حبيبة فخرجنا في سفينتين وبعث معنا النجاشي الملاحين فلما خرجنا من البحر ركبنا الظهر إلى المدينة ورسول الله عليه السلام بخيبر فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم النبي عليه السلام فدخلت عليه فكان يسألني عن النجاشي فقرأت عليه من نزهة السلام فرد عليها السلام فأنزل الله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ [الممتحنة: ٧] يعني: أبا سفيان ﴿مودة﴾ يعني تزويج أم حبيبة ولما جاء أبا سفيان تزويج أم حبيبة برسول الله عليه الصلاة والسلام قال: ذاك الفحل لا يقرع انفه ثم قال عليه السلام: «لا أدري أنا بفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر» وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ابنه أزهر بن أصحمة بن الحر في

ستين رجلاً من الحبشة وكتب إليه يا رسول الله أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت ابني أزهر وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه فلما بلغوا أواسط البحر غرقوا وكان جعفر يوم وصل المدينة إلى رسول الله ﷺ وصل في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام منهم بحيراً الراهب فقرأ عليهم رسول الله سورة يس إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن فآمنوا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾ يعني وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا أصحاب الصوامع ﴿**ذلك**﴾ أي: كونهم أقرب مودة للمؤمنين. ﴿**بأن منهم**﴾ أي بسبب أن منهم ﴿**قسيسين**﴾ وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم. والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم في تتبع العلم قاله الراغب. وقال قطرب القسيس العالم بلغة الروم. وعن عروة بن الزبير أنه قال: ضيعت النصارى الإنجيل وادخلوا فيه ما ليس منه وبقي واحد من علمائهم على الحق والدين وكان اسمه قسيساً فمن كان على مذهبه ودينه فهو قسيس ﴿**ورهباناً**﴾ هو جمع راهب كراكب وركبان وقيل إنه يطلق على الواحد وعلى الجمع. والترهب التعبد مع الرهبة في صومعة والتنكير لإفادة الكثرة ولا بد من اعتبارها في القسيسين أيضاً إذ هي التي تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فإن اتصاف أفراد كثيرة بجنس الخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها وإلا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون ألا يرى إلى عبد الله بن سلام وأضرابه قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] الخ لكنهم لما لم يكونوا في الكثرة كالذين من النصارى لم يتعد حكمهم إلى جنس اليهود ﴿**وأنهم لا يستكبرون**﴾ عطف على أن منهم أي وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كانت في كافر. أقول ذكر عند حضرة شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة رجولية بعض أهل الذمم ومروته فقال: إنه من آثار السعادة الأزلية ويرجى أن ذلك يدعوه إلى الإيمان والتوحيد ويصير عاقبته إلى الفلاح، قال الحافظ:

كارى كنيم ورنه خجالت بر آورد روزى كه رخت جان بجهان دكر كشيم

ـ تم الجزء السادس ـ

الجزء السابع من الأجزاء الثلاثين

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ عطف على لا يستكبرون أي ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا عند سماع القرآن وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأنفهم عنه **﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾** أي: تملأ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الإنصباب من الامتلاء مبالغة ومن الدمع متعلق بتفيض ومن لابتداء الغاية والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول **﴿مما عرفوا من الحق﴾** من الأولى لابتداء الغاية متعلق بمحذوف على أنها حال من الدمع والثانية لبيان الموصول في قوله ما عرفوا أي حال كونه ناشئاً ومبتدأ من معرفة الحق حاصلاً من أجله وبسببه كأنه قيل: ماذا يقولون عند سماع القرآن فقيل: **﴿يقولون ربنا آمنا﴾** بهذا القرآن **﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾** أي اجعلنا في جملة الذين شهدوا بأنه حق **﴿وما لنا﴾** أي: أيُّ شيء حصل لنا **﴿لا نؤمن بالله﴾** حال من الضمير في لنا أي غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب والمسبب جميعاً **﴿وما جاءنا من الحق﴾** عطف على الجلالة أي بالله وما جاءنا من الحق حال من فاعل جاءنا أي جاءنا في حال كونه من جنس الحق أو من لابتداء الغاية متعلقة بجاءنا ويكون المراد بالحق الباري تعالى **﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾** حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدأ أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع في صحبة الصالحين وإنما قدر المبتدأ ليكون الحال هو الجملة الاسمية لأن المضارع المثبت لا يقع حالاً بالواو إلا بتأويل تقدير المبتدأ **﴿فأثابهم الله﴾** أي: أعطاهم وجازاهم **﴿بما قالوا﴾** أي: عن اعتقادهم بدليل قوله مما عرفوا من الحق **﴿جنات﴾** أي: بساتين **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** أي: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن **﴿خالدين فيها وذلك﴾** الثواب **﴿جزاء المحسنين﴾** أي: الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ فماتوا على ذلك عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد إلى بيان حال المكذبين **﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾** أهل النار الشديدة الوقود وهم الذين استتروا بحجب أوصاف البهيمة والسبعية والشيطانية فأصمهم الله وأعمى أبصارهم سمعوا ولم يستمعوا وشاهدوا ولم يبصروا بخلاف من قال لهم الله ألست بربكم فأسمعهم كلامه ووفقهم للجواب حتى شهدوا ربوبيته فقالوا: بلى شهدنا فكذلك هٰهنا أسمعهم كلامه وعرفهم حقيقة كلامه فاشتاقوا إليه وتذكر قلوبهم ما شاهدوا عند الميثاق من تلك المشاهدة فبكوا بكاء الشوق وبكاء المعرفة، وفي «المثنوي»:

خوى بدذر ذات تواصلى نبود | كزبد أصلى مى نيابد جز جحود
آن بدى عاريتى باشد كه او | آرد اقرار وشود أو توبه جو
همچو آدم ذلتش عاريه بود | لا جرم اندر زمان توبه نمود
چونكه اصلى بودجرم آن بليس | ره نبودش جانب توبه نفيس

ـ حكي ـ أن سلطاناً زار قبر أبي يزيد قدس سره فسأل عن حاله من بعض أصحاب أبي يزيد فقال: من رآه لم يدخل النار فقال السلطان: إن أبا جهل رأى النبي عليه السلام ومع ذلك يدخل النار وليس شيخك فوق النبي عليه السلام فقال: أيها السلطان إن أبا جهل لم ير النبي ﷺ بل رأى يتيم أبي طالب فلو رأى أنه رسول الله لآمن به وخلص من النار وبنور العرفان آمنت بلقيس فإنها لما رأت كتاب سليمان شاورت قومها فقالوا: نقاتله فقالت: إنه يدعي النبوة والأنبياء عباد الله المكرمون لا يقاتلهم أحد فبعد الامتحان آمنت به، قال المولوي قدس سره:

چون سليمان سوى مرغان سبا | يك صفيرى كرد بست آن جمله را
جزمكر مرغى كه بدبي جان وپر | يا چو ما هى كنك بود از اصل كر
نى غلط كفتم كه كر كرسر نهد | پيش وحى كبريا شمعش دهد
چونكه بلقيس ازدل وجان عزم كرد | بر زمان رفته هم افسوس خورد
ترك مال وملك كرد او آنچنان | كه بترك نام وننك آن عاشقان
آن غلامان وآن كنيزان بناز | پيش چشمش همچو پوسيده پياز
باغهاو قصرهاو آب رود | پيش چشم ازعشق او كلخن نمود
عشق درهنكام استيلا وخشم | زشت كر داند لطيفاً نرا بچشم
هر زمردرا نمايد كندنا | غيرت عشق اين بود معنى لا
لا إله إلا هو اينست اي پناه | كه نمايد دمه تراويك سياه

واعلم أنه في العالم العلمي وفق من وفق فجرى على ذلك التوفيق في هذا العالم العيني الشهادي ثم لا يزال على ذلك في جانب الأبد حتى يدخل الجنة الصورية الحسية مع أذواق الروحانية المعنوية خالداً فيها فهذا هو ثمرة ذلك البذر ومحصول ذلك الزرع والحرث كما قال الله تعالى: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا**﴾ الخ فعلى المؤمن أن يجتهد في تحصيل اليقين ويدخل الجنة العاجلة التي هي المعرفة الإلهية كما قال مما عرفوا من الحق ويتخلص من نار البعد والفراق كما قال: ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**﴾ أي لا تمنعوا ما طاب ولذ منه أنفسكم كمنع التحريم ﴿**ولا تعتدوا**﴾ أي لا تتجاوزوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم فإن محرم ما أحل الله يحل ما حرم الله أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات فإن الإسراف تجاوز إلى الحرام كتناول المحرمات ﴿**إن الله لا يحب المعتدين**﴾ أي لا يرضى عمل المعتدين على أنفسهم المتجاوزين حدود الله ﴿**وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً**﴾ أي ما أحل لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالاً مفعول كلوا ومما رزقكم الله حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة، قال عبد

الله بن المبارك الحلال ما أخذته من وجهه والطيب ما غذي ونمى فأما الجوامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ تأكيد للوصية بما أمر به فإن قوله: ﴿كلوا حلالا﴾ وإن كان المراد به هٰهنا الإباحة والتحليل إلا أنه إنما أباح أكل الحلال فيفيد تحريم ضده فأكد التحريم المستفاد منه بقوله: ﴿واتقوا الله﴾ وزاده تأكيداً بقوله: ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن الإيمان يوجب التقوى بالانتهاء عما نهى عنه وعدم التجاوز عما حد له. قال الإمام قوله تعالى: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ يدل على أنه تعالى قد تكفل برزق كل أحد فإنه لو لم يتكفل برزقه لما قال: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ وإذا تكفل برزقه وجب أن لا يبالغ في الطلب وأن يعول على وعده وإحسانه فإنه أكرم من أن يخلف الوعد ولذلك قال عليه السلام: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»، قال الحافظ:

ما ابروى فقر وقناعت نمى بريم ... باپادشه بكوى كه روزى مقدرست

وقال الصائب:

رزق اكر بر آدمي عاشق نمى باشد چرا ... از زمين كندم كريبان چاك مى آيدچرا

قال أهل التفسير: ذكر النبي عليه السلام يوماً النار ووصف القيامة وبالغ في الإنذار فرق له الناس وبكوا فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا في الأرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه فقال لامرأته أم حكيم بنت أمية واسمها خولة وكانت عطارة «أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه فكرهت أن تكذب على رسول الله وكرهت أن تبدي خبر زوجها» فقالت: يا رسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق فرجع رسول الله فلما جاء عثمان أخبرته زوجته بذلك فمضى إلى رسول الله فسأله النبي عليه السلام عن ذلك فقال: نعم فقال عليه السلام: «أما إني لم آمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» ثم جمع الناس وخطبهم وقال: «ما بال قوم حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما أني لا آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً فإنه ليس من ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الاجتهاد فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من هلك قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع» فأنزل الله هذه الآية.

- وروي - أن عثمان بن مظعون جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن نفسي تحدثني بأن اختصي فائذن لي في الاختصاء قال: «مهلاً يا عثمان فإن اختصاء أمتي الصيام»، وفي «المثنوي»:

هين مكن خودرا خصى رهبان مشو ... زانكه عفت هست شهوت را كرو
بى هوا نهى از هوا ممكن نبود ... غازى بر مردكان نتوان نمود
پس كلو از بهر دام شهوتست ... بعد ازان لا تسرفوا آن عفتست
چونكه رنج صبر نبود مرترا ... شرط نبود پس فرو نايد چرا

حـبـذا آن شـرط وشـادا آن جـزا آن جـزاى دلـنـواز حـان فـزا

قال يا رسول الله إن نفسي تحدثني بأن أترهب في رؤوس الجبال قال: «مهلاً يا عثمان فإن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة» قال: يا رسول الله إن نفسي تحدثني أن أخرج من مالي كله قال: «مهلاً يا عثمان فإن صدقتكم يوماً بيوم وتعف نفسك وعيالك وترحم المساكين واليتيم فتعطيها أفضل من ذلك» قال: يا رسول الله إن نفسي تحدثني أن أطلق امرأتي خولة قال: «مهلاً يا عثمان فإن الهجرة في أمتي من هجر ما حرم الله عليه أو هاجر إلي في حياتي أو زار قبري بعد وفاتي أو مات وله امرأة أو امرأتان أو ثلاث أو أربع» قال: يا رسول الله فإن نهيتني أن لا أطلقها فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها قال: «مهلاً يا عثمان فإن المسلم إذا غشي امرأته أو ما ملكت يمينه فلم يكن له من وقعته تلك ولد كان له وصيف في الجنة وإن كان له من وقعته تلك ولد فمات قبله كان له فرطاً وشفيعاً يوم القيامة وإن مات بعده كان له نوراً يوم القيامة» قال: يا رسول الله إن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم قال: مهلاً يا عثمان فإني أحب اللحم وآكله إذا وجدته ولو سألت ربي أن يطعمنيه في كل يوم لأطعمنيه قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب قال: «مهلاً يا عثمان فإن جبرائيل عليه السلام أمرني بالطيب غبا وقال يوم الجمعة لا مترك له يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة»، وعن أبي موسى الأشعري قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل لحم الدجاج ورأيته يأكل الرطب والبطيخ. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام كان يأكل الدجاج والفالوذج وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة» قال: «إن في بطن المؤمن زاوية لا يملأها إلا الحلو» وجاء رجل إلى الحسن فقال له إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج قال: ولم؟ قال: لئلا يؤدي شكره قال: أفيشرب الماء البارد قال: نعم قال: إن جارك هذا جاهل إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته في الفالوذج، وسئل فضيل عن ترك الطيبات من الحواري واللحم والخبيص للزهد وقال لمن قال: لا آكل الخبيص ليتك تأكل وتتقي إن الله لا يكره أن تأكل الحلال الصرف كيف برك لوالديك وصلتك للرحم؟ كيف عطفك على الجار؟ كيف رحمتك للمسلمين؟ كيف كظمك للغيظ؟ كيف عفوك عمن ظلمك؟ كيف إحسانك إلى من أساء إليك؟ كيف صبرك واحتمالك للأذى؟ أنت إلى أحكام هذا أحوج منك إلى ترك الخبيص، والحاصل أن الإفراط في الرهبانية والاحتراز التام عن الذات والطيبات مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة التي هي القلب والدماغ وإذا وقع الضعف فيها اختلت الفكرة وباختلالها تفوت عنها الكمالات المتعلقة بالقوة النظرية رأساً وينتقص كمالاتها المتعلقة بالقوة العملية فإن تمامها وكمالها يبني على كمال القوة النظرية، وأيضاً الرهبانية التامة توجب خرابية الدنيا وانقطاع الحرث والنسل فلما كانت عمارة الدنيا والآخرة منوطة بترك تلك الرهبانية والمواظبة على المعرفة والمحبة والطاعة اقتضت الحكمة أن لا يحرم الإنسان ما طاب ولذ مما أحل الله كما نطقت الآية به، ولكن إشارة الآية أيضاً إلى الاعتدال كما قال: ﴿ولا تعتدوا﴾ فالاعتدال في التناول وكذا في الرياضة ممدوح جداً ولذا ترى المرشد الكامل يأمر في ابتداء أمره بترك اللحم والدسم والجماع وغيرها ولكن على الاعتدال بحسب مزاجه فإن للرياضات تأثيراً عظيماً في إصلاح الطبيعة وهو أمر مهم في باب السلوك جداً فلا متمسك لأرباب الظاهر في ترك الرياضة

مطلقاً وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام في وصاياه لعثمان بن مظعون إلى جملة من الأمر فافهم وارشد إلى طريق الصواب ولا تفريط ولا إفراط في كل باب.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾

﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ اليمين تقوية أحد الطرفين بالمقسم به واللغو في اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم وهو عند الإمام الأعظم أن يحلف على شيء يظن أنه كذلك وليس كما يظن مثل أن يرى الشيء من بعيد فيظن أنه كذا فيقول والله إنه كذا فإذا هو بخلافه فلا مؤاخذة في هذا اليمين بإثم ولا كفارة وأما الغموس وهي حلفه على أمر ماض أو حال كذباً عمداً مثل قوله والله لقد فعلت كذا وهو لم يفعله وعكسه ومثل والله ما لهذا علي دين وهو يعلم أن له عليه ديناً فحكمها الإثم لأنها كبيرة قال عليه السلام: «من حلف كاذباً أدخله الله النار» ولا كفارة فيها إلا التوبة قوله في أيمانكم صلة يؤاخذكم كما أن باللغو صلة له أي لا يؤاخذكم في حق أيمانكم بسبب ما كان لغواً منها بأن لا يتعلق بها حكم دنيوي ولا أخروي ﴿**ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾ أي بتقيدكم الأيمان وتوثيقاً بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموها إذا حنثتم أو بنكث أي نقض ما عقدتم فحذف للعلم به وهذا اليمين هي اليمين المنعقدة وهي الحلف على فعل أمر أو تركه في المستقبل ﴿**فكفارته**﴾ أي الفعلة التي تذهب إثمه وتستره وعند الإمام لا يجوز التكفير قبل الحنث لقوله عليه السلام: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً فليأت بالذي هو خير ثم ليكفر عن يمينه» ﴿**إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم**﴾ محل من أوسط النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً كائناً من أوسط ما تطعمون من في عيالكم من الزوجة والأولاد والخدم أي من أقصده في النوع أو المقدار وهو نصف صاع من بر لكل مسكين كالفطرة ولو أطعم فقيراً واحداً عشرة أيام أجزأه ولو أعطاه دفعة لا يجوز إلا عن يوم واحد ﴿**أو كسوتهم**﴾ عطف على إطعام فيكسو كل واحد من العشرة ثوباً يستر عامة بدنه وهو الصحيح ولا يجزىء السراويل لأن لابسه يسمى عرياناً عرفاً ﴿**أو تحرير رقبة**﴾ أي: أو إعتاق إنسان كيف ما كان مؤمناً كان أو كافراً ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً ولا يجوز الأعمى والأصم الذي لا يسمع أصلاً والأخرس لفوات جنس المنفعة ومقطوع اليدين أو إبهاميهما أو الرجلين أو يد ورجل من جانب واحد ومجنون مطبق لأن الانتفاع ليس إلا بالعقل ومدبر وأم ولد لاستحقاقهما الحرية بجهة فكان الرق فيهما ناقصاً ومكاتب أدى بعضاً لأنه تحرير بعوض فيكون تجارة والكفارة عبادة فلا بد أن تكون خالصة لله تعالى وكذا لا يجوز معتق بعضه لأنه ليس برقبة كاملة. ومعنى أو في الآية إيجاب إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وخيار التعيين للمكلف أي لا يجب عليه الإتيان بكل واحد من هذه الأمور الثلاثة ولا يجوز له تركها جميعاً ومتى أتى بواحدة منها فإنه يخرج عن العهدة فإذا اجتمعت هذه القيود الثلاثة فذاك هو الواجب المخير ﴿**فمن لم يجد**﴾ أي: شيئاً من الأمور المذكورة ﴿**فصيام**﴾ أي: فكفارته صيام ﴿**ثلاثة أيام**﴾ متتابعات عند الإمام الأعظم

﴿ذلك﴾ أي الذي ذكرت لكم وأمرتكم به **﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾** وحنثتم **﴿واحفظوا أيمانكم﴾** بأن تضنوا بها ولا تبذلوها لكل أمر وبأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير فإن عجز عن البرّ أو رأى غير المحلوف عليه خيراً منه فله حينئذٍ أن يحنث ويكفر كما قال الفقهاء: من اليمين المنعقدة ما يجب فيه البر كفعل الفرائض وترك المعاصي لأن ذلك فرض عليه فيتأكد باليمين. ومنها ما يجب فيه الحنث كفعل المعاصي وترك الواجبات وفي الحديث: «من حلف أن يطيع الله فليطعه ومن حلف أن يعصيه فلا يعصه». ومنها ما يفضل فيه الحنث كهجران المسلم ونحوه وما عدا هذه الأقسام الثلاثة من الأيمان التي يستوي فيها الحنث والبر يفضل فيه البر حفظاً لليمين ولا فرق في وجوب الكفارة بين العامد والناسي والمكره في الحلف والحنث لقوله عليه السلام: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق واليمين» **﴿كذلك﴾** إشارة إلى مصدر الفعل الآتي لا إلى تبيين آخر مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحله في الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير يبين الله تبييناً كائناً مثل ذلك التبيين فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة أي مثل ذلك البيان البديع **﴿يبين الله لكم آياته﴾** إعلام شريعته وأحكامه لا بياناً أدنى منه **﴿لعلكم تشكرون﴾** نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج.

والإشارة أن من عقد اليمين على الهجران من الله تعالى فكفارته إطعامه عشرة مساكين وهم الحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة فإنها مدخل الآفات وموئل الفترات **﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾** وهم القلب والروح والسر والخفي وطعامهم الشوق والمحبة والصدق والإخلاص والتفويض والتسليم والرضى والأنس والهيبة والشهود والكشوف وأوسطه الذكر والتذكر والفكر والتفكر والتشوق والتوكل والتعبد والخوف والرجاء فإطعام الحواس الظاهرة والقوى الباطنة هذه الأطعمة باستعمالها في التعبد بها والتحفظ عما ينافيها أو كسوتهم وهي إلباس الحواس والقوى بلباس التقوى أو تحرير رقبة النفس عن عبودية الهوى والحرص على الدنيا، فمن لم يجد السبيل إلى هذه الأشياء فصيام ثلاثة أيام وذلك لأن الأيام لا تخلو عن ثلاثة إما يوم مضى أو يوم حضر أو يوم قد بقي فصيام اليوم الذي قد مضى بالإمساك عما عقد عليه أو قصد إليه أو بالصبر على التوبة عنه وصيام الذي قد حضر بالإمساك عن التغافل عن الأهم وبالصبر على الجد والاجتهاد ببذل الجهد في طلب المراد وصيام اليوم الذي قد بقي بالإمساك عن فسخ العزيمة في ترك الجريمة ونسخ الإخلاص في طلب الخلاص وبالصبر على قدم الثبات في تقديم الطاعات والمبرات وصدق التوجه إلى حضرة الربوبية بمساعي العبودية:

مكن وقت ضايع بافسوس وحيف   كه فرصت عزيز ست والوقت سيف

قال ابن الفارض قدس سره:

وكن صارماً كالوقت فالمقت في عيسى   وإياك علّ فهي أخطر علة

وفي «المثنوي»:

أي كه صبرت نيست از دنياى دون   چونت صبرست ازخداى دوست چون

چونكه بى اين شرب كم دارى سكون   چون زابرارى خدا وزيشرون

اعلم أن الطالب الصادق عند غلبات الشوق ووجدان الذوق يقسم عليه بجماله وجلاله أن يرزقه شظية من إقباله ووصاله وذلك في شريعة الرضى لغو وفي مذهب التسليم سهو فيعفو عنه

رحمة عليه لضعف حاله ولا يؤاخذه بمقاله وأن الأولى الذوبان والجمود بحسن الرضى بحسب جريان أحكام المولى في القبول والرد والإقبال والصدّ إيثار الاستقامة في أداء حقوقه على الكرامة وعلى لذة تقريبه وإقباله وشهوده ووصوله ووصاله كما قال قائلهم:

أريد وصاله ويريد هجري — فاترك ما أريد لما يريد

كذا في «التأويلات النجمية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾ هذه هي الآية الرابعة من الآيات الأربع التي نزلت في الخمر وقد سبق التفصيل في سورة البقرة ويدخل في الخمر كل مسكر **﴿والميسر﴾** أي: القمار كله فيدخل فيه النرد والشطرنج والأربعة عشر والكعب والبيضة وغير ذلك مما يقامرون به **﴿والأنصاب﴾** أي الأصنام المنصوبة للعبادة واحدها نصب بفتح النون وسكون الصاد **﴿والأزلام﴾** هي سهام مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي يطلبون بها علم ما قسم من الخير والشر، قال المفسرون كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو تجارة أو غير ذلك طلب علم أنه خير أو شر من الأزلام وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي وبعضها غفل لا كتابة عليها ولا علامة فإن خرج السهم الآمر مضوا على ذلك وإن خرج الناهي يجتنبون عنه وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم وهي جمع زلم **﴿رجس﴾** قذر يعاف عند العقول أي تكرهه وتنفر منه العقول السليمة. والرجس بمعنى النجس إلا أن النجس يقال في المستقذر طبعاً والرجس أكثر ما يقال في المستقذر عقلاً وسميت هذه المعاصي رجساً لوجوب اجتنابها كما يجب اجتناب الشيء المستقذر **﴿من عمل الشيطان﴾** صفة لرجس أي رجس كائن من عمله أي من تزيينه لأنه هو الداعي إليه والمرغب فيه والمزين له في قلوب فاعليه **﴿فاجتنبوه﴾** أي: الرجس **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: راجين فلاحكم أمر بالاجتناب وهو تركه جانباً وظاهر الأمر على الوجوب. **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾** وهو إشارة إلى المفاسد الدنيوية، أما العداوة في الخمر فهي أن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا كما فعل الأنصاري الذي شج سعد بن أبي وقاص بلحي الجمل. وأما العداوة في الميسر فهي أن الرجل كان يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على حرفائه والفرق بين العداوة والبغضاء أن كل عدو مبغض بلا عكس كلي. وقوله تعالى في الخمر متعلق بيوقع على أن تكون كلمة في هنا لإفادة معنى السببية كما في قوله عليه السلام: «إن امرأة دخلت النار في هرة» أي: يوقع بينكم هذين الشيئين في الخمر بسبب شربها وتخصيص الخمر والميسر تنبيهاً على أنهما المقصودان بالبيان لأن هذه الآية خطاب مع المؤمنين والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر وإنما ضم الأنصاب والأزلام إليهما مع أن تعاطيهما مختص بأهل الجاهلية تأكيداً لقبح الخمر والميسر وإظهاراً

لكون هذه الأربعة متقاربة في المفسدة. ﴿**ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة**﴾ أي: يمنعكم عنهما وهو إشارة إلى المفاسد الدينية فإن شرب الخمر يورث الطرب واللذة الجسمانية والنفس إذا استغرقت في اللذة غفلت عن ذكر الله وعن الصلاة وكذا من يقامر بالميسر إن كان غالباً صار استغراقه في لذة الغلبة يورثه الغفلة عن العبادة وإن صار مغلوباً صار شدة اهتمامه بأن يحتال بحيلة يصير بها غالباً مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه وتخصيص الصلاة بالافراد مع دخولها في الذكر للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان لما أنها عماده ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي انتهوا وهذا نهي بألطف الوجوه ليكون أدعى إلى الانتهاء فلما سمعها عمر رضي الله عنه قال: انتهينا يا رب وحرمت الخمر في سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة أحد ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ فيما أمرا به وهو عطف على اجتنبوه ﴿**واحذروا**﴾ عما نهيا عنه ﴿**فإن توليتم**﴾ أي أعرضتم عن الامتثال والطاعة ﴿**فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ وقد فعل ذلك بما لا مزيدة عليه وخرج عن عهدة الرسالة أي خروج وقامت عليكم الحجة انتهت الأعذار وانقطعت العلل وما بقي بعد ذلك إلا العقاب.

اعلم أن الله تعالى قرن الخمر والميسر بالأصنام ففيه تحريم بليغ لهما ولعل قوله عليه السلام: «شارب الخمر كعابد الوثن» مستفاد من هذه الآية وفي الحديث «من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سم الأساود وسم العقارب إذا شربه تساقط لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها فإذا شربها تفسخ لحمه كالجيفة يتأذى به أهل الموقف ومن مات قبل أن يتوب من شرب الخمر كان حقاً على الله أن يسقيه بكل جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد جهنم» وفي الحديث: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» وفي الحديث: «من شرب الخمر بعد أن حرمها الله على لساني فليس له أن يزوج إذا خطب ولا يصدق إذا حدث ولا يشفع إذا تشفع ولا يؤمن على أمانة فمن ائتمنه على أمانته فاستهلكها فحق على الله أن لا يخلف عليه»، قال الحسين الواعظ الكاشفي في تفسيره:

بى نمكى دان جكر آميخته بر جكر بى نمكان ريخته
بي خبر آن مردكه چيزى چشيد كش قلم بى خبرى دركشيد

والإشارة ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إيماناً حقيقياً مستفاداً من كتابة الحق بقلم العناية في قلوبهم ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام**﴾ فأما الخمر فإنها تخمر العقل وهو نور روحاني علوي من أوليات المخلوقات ومن طبعه الطاعة والانقياد والتواضع لربه كالملك وضده الهوى وهو ظلماني نفساني سفلي من أخريات المخلوقات ومن طبعه التمرد والمخالفة والإباء والاستكبار عن عبادة ربه كالشيطان فإذا خمر الخمر نور العقل صار مغلوباً لا يهتدي إلى الحق وطريقه ثم يغلب ظلمة الهوى فتكون النفس أمارة بالسوء وتستمد من الهوى فتتبع بالهوى السفلي جميع شهواتها النفسانية ومستلذاتها الحيوانية السفلية فيظفر بها الشيطان فيوقعها في مهالك المخالفات كلها ولهذا قال عليه السلام: «الخمر أم الخبائث» لأن هذه الخبائث كلها تولدت منها، وأما الميسر فإن فيه تهيج أكثر الصفات الذميمة وهي الحرص والبخل والكبر والغضب والعداوة والبغض والحقد والحسد وأشباهها وبها يضل العبد عن سواء السبيل، وأما الأنصاب فهي تعبد من دون الله فهي تصير العبد مشركاً بالله، وأما الأزلام فما يلتفت إليه عند

توقع الخير والشر والنفع والضر من دون الله تعالى من المضلات فإن الله هو الضار والنافع ثم قال تعالى: ﴿**رجس من عمل الشيطان**﴾ يعني: هذه الأشياء أخبث شيء من أعمال الشيطان التي يغوي بها العباد ويضلهم عن صراط الحق وطريق الرشاد ﴿**فاجتنبوه**﴾ أي: اجتنبوا الشيطان ولا تقبلوا وساوسه واتركوا هذه الأعمال الخبيثة ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ تخلصون من مكايد الشيطان وخباثة هذه الأعمال كذا في «التأويلات النجمية».

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح**﴾ أي إثم وحرج ﴿**فيما طعموا**﴾ أي: تناولوا أكلاً أو شرباً فيتناول شرب الخمر وأكل مال الميسر فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿**إذا ما اتقوا**﴾ أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿**وآمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي: واستمروا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿**ثم اتقوا**﴾ عطف على اتقوا داخل معه في حيز الشرط أي اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما سبق ﴿**وآمنوا**﴾ أي: بتحريمه ﴿**ثم اتقوا**﴾ أي: ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحاً من قبل على أن الشروط بالاتقاء في كل مرة إباحة كل ما طعموه في ذلك الوقت لا إباحة كل ما طعموه قبله لانتساخ إباحة بعضه حينئذٍ ﴿**وأحسنوا**﴾ أي: عملوا الأعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الأعمال القلبية والقالبية ﴿**والله يحب المحسنين**﴾ فلا يؤاخذهم بشيء وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً ومقام المحبوبية فوق جميع المراتب ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله وقد فسر الإحسان «بأن تعبد الله كأنك تراه» يعني: أن الإحسان مرتبة المشاهدة فإذا ترقى العبد من الإيمان الغيبي إلى الإيمان الشهودي ثم فني عن كل قيد حتى عن الإطلاق فقد تم أمره وكان طعمه وشربه وتصرفه في المكونات مما لا يضره لأنه قد استوفى الشرائط كلها فلا يقاس عليه غيره ثم إن المحسن مطلقاً يتناول كل أهل ويستحق المدح والثناء:

وفي «المثنوي»:

محسنان مردندو إحسانها بماند … أي خنك آن راكه اين مركب براند
ظالمان مردندو ماند آن ظلمها … وأي جاني كوكند مكرودهان
كفت پيغمبر خنك آنراكه او … شد زدنيا ماندازو فعل نكو
مرد محسن ليك احسانش نمرد … نزد يزدان دين وإحسان نيست خرد
وأي آن كو مرد وعصيانش نمرد … تاپنداري بمرك أو جان ببرد

وورد في فضائل عشر ذي الحجة «أن من تصدق في هذه الأيام بصدقة على مسكين فكأنما تصدق على رسل الله وأنبيائه ومن عاد فيه مريضاً فكأنما عاد أولياء الله وبدلاءه ومن شيع جنازة فكأنما شيع جنائز شهداء بدر ومن كسا مؤمناً كساه الله تعالى من حلل الجنة ومن ألطف يتيماً أظله الله في القيامة تحت عرشه ومن حضر مجلساً من مجالس العلم فكأنما حضر مجالس أنبياء الله ورسوله» كذا في «روضة العلماء»، قال السعدي قدس سره:

بإحساني آسوده كردن دلى … به ازالف ركعت بهر منزلى

ـ حكي ـ أنه وقع القحط في بني إسرائيل فدخل فقير سكة من السكك وكان فيها بيت

غني فقال: تصدقوا علي لأجل الله فأخرجت إليه بنت الغني خبزاً حاراً فاستقبله الغني فقال: من دفع إليك هذا الخبز؟ فقال: ابنة من هذا البيت فدخل وقطع يد ابنته اليمنى فحول الله حاله فافتقر ومات فقيراً ثم إن شاباً غنياً استحسن الابنة لكونها حسناء فتزوجها وأدخلها داره فلما جن الليل أحضرت مائدة فمدت اليد اليسرى فقال الفتى: سمعت أن الفقراء يكونون قليلي الأدب فقال: مدي يدك اليمنى فمدت اليسرى ثانياً وثالثاً فهتف بالبيت هاتف أخرجي يدك اليمنى فالرب الذي أعطيت الخبز لأجله رد عليك يدك اليمنى فأخرجت يدها اليمنى بأمر الله تعالى وأكلت معه كذا في «الروضة»:

تونيكى كن بآب انداز اي شاه اكر ما هى ندانـد داند الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نزلت عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة. والحديبية بتخفيف الياء الأخيرة وقد تشدد موضع قريب من مكة أراد عليه السلام زيارة الكعبة فسار مع أصحابه من المدينة وهم ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً فنزلوا بالحديبية فابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم فهموا بأخذها فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾** يقال بلوته بلواً جربته واختبرته واللام جواب قسم محذوف أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم **﴿بشيء من الصيد﴾** أي بتحريم شيء حقير هو الصيد بمعنى المصيد كضرب الأمير فمن بيانية قطعاً والمراد صيد البر مأكولاً وغير مأكول ما عدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد وفي الحديث: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والعقرب والغراب والفأرة والكلب العقور» وأراد بالكلب العقور الذئب على ما ورد في بعض الروايات **﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾** أي تصل إليه أيديكم ورماحكم بحيث تأخذون بأيديكم وتطعنون برماحكم فالتأكيد القسمي في ليبلونكم إنما هو لتحقيق ما وقع من أن عدم توحش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شيء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال وإنما هو من قبيل ما ابتلي به أهل أيلة من صيد السمك يوم السبت وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت في مثل هذا كيف يثبت عند ما هو أشد منه من المحن **﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾** الخوف من الله بمعنى الخوف من عقابه وبالغيب حال من مفعول يخافه وهو عقاب الله أي ليتميز الخائف من عقابه الأخروي وهو غائب مترقب لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد ممن لا يخاف كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه فعلم الله تعالى لما كان مقتضى ذاته وامتنع عليه التجدد والتغير كما امتنع ذلك على ذاته جعل هٰهنا مجازاً عن تميز المعلوم وظهوره على طريق إطلاق السبب على المسبب حيث قال القاضي ذكر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره وأبو السعود إنما عبر عن ذلك بعلم الله اللازم له إيذاناً بمدار الجزاء ثواباً وعقاباً فإنه أدخل في حملهم على الخوف **﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾** أي بعد بيان أن ما وقع ابتلاء من جهته تعالى بما ذكر من الحكمة والمعنى فمن تعرض للصيد بعدما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم

ابتلاء مؤدّ إلى تميز المطيع من العاصي ﴿فله عذاب أليم﴾ لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية والمراد عذاب الآخرة إن مات قبل التوبة والتعزير والكفارة في الدنيا بنزع ثيابه فيضرب ضرباً وجيعاً مفرقاً في أعضائه كلها ما خلا الوجه والرأس والفرج ويؤمر بالكفارة.

والإشارة في الآية أن الله تعالى جعل البلاء للولاء كاللهب للذهب فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إيمان المحبين الذين تجردوا عن ملاذ الدنيا وشهواتها من الحلال وأحرموا بحج الوصول وعمرة الوصال ﴿ليبلونكم الله﴾ في أثناء السلوك ﴿بشيء من الصيد﴾ وهو ما سنح من المطالب النفسانية الحيوانية والمقاصد الشهوانية الدنيوية ﴿تناله أيديكم﴾ أي: ما يتعلق بشهوات نفوسكم ولذات أبدانكم ﴿ورماحكم﴾ أي: ما يتعلق بالمال والجاه ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وهو يعلم ويرى أي ليظهر الله ويميز بترك المطالب والمقاصد في طلب الحق من يخافه بالغيبة والانقطاع عنه ويحترز عن الالتفات لغيره ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي: تعلق بالمطالب بعد الطلب ﴿فله عذاب أليم﴾ من الرد والصد والانقطاع عن الله كذا في «التأويلات النجمية». قال أوحد المشايخ في وقته أبو عبد الله الشيرازي قدس سره رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول من عرف طريقاً إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله بعذاب لم يعذب به أحداً من العالمين، يقول الفقير سمي الذبيح الحقي غفر الله ذنوبه إنما كان عذابه أشد لأنه رجع عن طريقه بعد معرفته أنه الحق الموصل إلى الله تعالى وليس من يعلم كمن لا يعلم وسبب الرجوع الامتحانات في الطريق، قال في «المثنوي»:

قلب چون آمد سيه شد در زمان زر در آمد شد زرىء اوعيان

دست ويا انداخت زر دربوته خش در رخ آتش همى خندد رخش

قال الحافظ:

ترسم كزين چمن نبرى آستين كل كز كلشنش تحمل خارى نميكنى

فينبغي للطالب الصادق أن يتحمل مشاق الرياضات ويزكي نفسه عن الشهوات ويحترز عن أكل ما يجده من الحلال فضلاً عما حرم الله الملك المتعال فإن إصلاح الطبيعة والنفس وإن كان بفضل الله وعنايته لكن الصوم وتقليل الطعام من الأسباب القوية في هذا الباب.

ـ يحكى ـ أن سالكاً خاطب نفسه بعد رياضات شديدة فقال: من أنت ومن أنا؟ فقالت له نفسه: أنت أنت وأنا أنا فاشتغل بالتزكية ثانياً حتى حج ماشياً مرات فسأل أيضاً فأجابت بما أجابت به أولاً، فاشتغل أشد من الأول وعالج بتقليل الطعام حتى أمات نفسه فسأل من أنت فقالت: أنت أنت وأنا صرت فانية ولم يبق من وجودي أثر فاستراح بعون الله تعالى. وسئل حضرة المولوي هل يعصي الصوفي قال: لا إلا أن يأكل طعاماً قبل الاشتهاء فإنه سم له وداء اللهم أعنا على إصلاح هذه النفس الأمارة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد﴾ وهو عند أبي حنيفة اسم لكل ممتنع متوحش من

الحيوانات سواء كان مأكول اللحم أو لم يكن والمراد ما عدا الفواسق وهي العقرب والحية والغراب والفارة والكلب العقور فإنها تقتل في الحل والحرم ﴿وأنتم حرم﴾ جمع حرام وهو المحرم وإن كان في الحل وفي حكمه من في الحرم وإن كان حلالاً أي لابس حله فالمحرم لا يتصيد أصلاً سواء كان في الحل أو في الحرم بالسلاح أو بالجوارح من الكلاب والطير والحلال يتصيد في الحل دون الحرام أي حرم مكة ومقداره من قبل المشرق ستة أميال ومن الجانب الثاني اثنا عشر ميلاً ومن الجانب الثالث ثمانية عشر ميلاً ومن الجانب الرابع أربعة وعشرون ميلاً هكذا قال الفقيه أبو جعفر. وإنما ذكر القتل دون الذبح للإيذان بكونه في حكم الميتة فكل ما يقتله المحرم من الصيد لا يكون مذكى وغير المذكى لا يجوز أكله والمعنى لا تقتلوه والحال أنتم محرمون ﴿ومن﴾ شرطية ﴿قتله﴾ أي: الصيد المعهود البري مأكولاً كان أو غير مأكول حال كون القاتل كائناً ﴿منكم﴾ أي من المؤمنين ولعل المقصود من التقييد بالحال توبيخ المؤمن على عدم جريانه على مقتضى إيمانه ﴿متعمدا﴾ حال أيضاً من فاعل قتله أي ذاكراً لإحرامه عالماً بحرمة قتل ما يقتله والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الإحرام يستوي فيها الخطأ والعمد لأن الأصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه جزاء وفدية ﴿مثل ما قتل﴾ أي: مماثل لما قتل فهو صفة الجزاء والمراد به عند أبي حنيفة وأبي يوسف المثل باعتبار القيمة لا باعتبار الخلقة والهيئة فيتقوم الصيد حيث صيد أو في أقرب الأماكن إليه إن قتل في بر لا يباع ولا يشتري فيه فإن بلغت قيمته قيمة هدي تخير الجاني بأن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من تمر وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوماً كاملاً لأن الصوم مما لا يتبعض فيكون قوله تعالى: ﴿من النعم﴾ بياناً للهدي المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فإن فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ما قتل من النعم والنعم في اللغة من الإبل والبقر والغنم فإذا انفردت الإبل قيل إنها نعم وإذا انفردت البقر والغنم لم تسم نعماً ﴿يحكم به﴾ أي: بمثل ما قتل صفة لجزاء ﴿ذوا عدل منكم﴾ أي رجلان عدلان من المسلمين ﴿هديا﴾ الهدي ما يهدي إلى البيت تقرباً إلى الله تعالى من النعم أيسره شاة وأوسطه بقرة وأعلاه بدنة أي ناقة وهو حال مقدرة من الضمير في به والمعنى مقدراً أنه يهدي ﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لهديا لأن الإضافة لفظية والأصل بالغاً الكعبة ومعنى بلوغه الكعبة ذبحه بالحرم حتى لو دفع الهدي المماثل للمقتول إلى فقراء الحرم لم يجز بالاتفاق بل يجب عليه ذبحه في الحرم وله أن يتصدق به بعد ذبحه في الحرم حيث شاء عند أبي حنيفة ﴿أو كفارة﴾ عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة صفة ثانية الجزاء ﴿طعام مساكين﴾ عطف بيان لكفارة عند من لا يخصصه بالمعارف ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم فحينئذٍ تكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء يقدر به الهدي والطعام والصيام. أما الأولان فبلا واسطة، وأما الثالث فبواسطة الثاني فيختار الجاني كلاً منها بدلاً من الآخرين، قال الفراء العدل بالكسر المثل من جنسه والعدل بالفتح المثل من غير جنسه فعدل الشيء ما عادله من جنسه كالصوم والإطعام وعدله ما عدل به في المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك إشارة إلى الطعام وصياماً تمييز للعدل والخيار

في ذلك للجاني عند أبي حنيفة وأبي يوسف وللحكمين عند محمد ﴿ليذوق﴾ متعلق بالاستقرار في الجار والمجرور أي فعليه جزاء ليذوق قاتل الصيد ﴿وبال أمره﴾ أي: سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام والوبال في الأصل المكروه والضرر الذي ينال في العاقبة من عمل سولته نفسه ﴿عفا الله عما سلف﴾ من قتل الصيد محرماً قبل التحريم ﴿ومن عاد﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرم ومن شرطية ﴿فينتقم الله منه﴾ أي فهو ممن ينتقم الله منه لأن الفعل إذا وقع جزاء لا يحتاج إلى الحرف بخلاف الجملة الاسمية فقدر المبتدأ لئلا تصير الفاء الجزائية لغواً والمراد بالانتقام التعذيب في الآخرة وأما الكفارة فعن بعضهم أنها واجبة على العائد وعن بعضهم أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر وأصل الانتقام الانتصار والانتصاف وإذا أضيف إلى الله تعالى أريد به المعاقبة والمجازاة ﴿والله عزيز﴾ غالب لا يغالب ﴿ذو انتقام﴾ شديد ممن أصر على العصيان والاعتداء قال الله تعالى مخاطباً لخليله [يا إبراهيم خف مني كما تخاف من السبع الضاري] يعني إن الله تعالى إذا أراد إجراء قضائه على أحد لا يفرق بين نبي وولي وعدو كما لا يفرق السبع المفترس بين نفاع وضرار فهو تعالى شديد البطش فكيف يتخلص المجرمون من يد قهره وانتقامه فليحذر العاقل من المخالفة والعصيان بقدر الاستطاعة والإمكان أينما كان فإن الإنسان لا يحصد إلا ما يزرع، قال في «المثنوي»:

جمله دانند اين اكر تونكروى هرچه مى كاريش روزى بدروى

والعجب أن الإنسان الضعيف كيف يعصي الله القوي وليس إلا من الانهماك في الشهوات والغفلة عن الله تعالى والنكتة في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أنه أباح الصيد لمن كان حلالاً وهم أهل السلو من العوام الذين رضوا من الكمالات الدينية بالأعمال البدنية من قصور هممهم الدنية وحرم الصيد على من كان حراماً وهم أهل المحبة المحرمون من الدنيا لزيارة كعبة الوصلة يعني من قصدنا فعليه بحسم الاطماع جملة ولا ينبغي أن يكون له مطالبة بحال من الأحوال إلا طلب الوصال ويقال العارف صيد الحق ولا يكون للصيد صيد ﴿ومن قتله منكم﴾ أي من الطلاب إذا التفت لشيء من الدنيا ﴿متعمدا﴾ وهو واقف على مضرته وعالم بما فيه فيغلب عليه الهوى ويقع فيه بحرص النفس ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ يجازي نفسه برياضة ومجاهدة ويماثل ألمها تلك اللذة والشهوة ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ وهو القلب والروح يحكمان على مقدار الإيمان وعلى أنواع الرياضات بتقليل الطعام والشراب أو ببذل المال أو بترك الجام أو بالعزلة والخلوة وضبط الحواس ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ أي خالصاً لله تعالى فيما يعمل بحيث يصلح لقبول الحق من غير ملاحظة الخلق ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ وهم العقل والقلب والسر والروح والخفي فإنهم كانوا محرمين من أغذيتهم الروحانية من صدق التوجه إلى الحق وخلوص الاعراض عن الخلق وتجرع الصبر على المكروهات والفطام عن المألوفات والشكر على الموهوبات والرضى بالمقدرات والتسليم للأحكام الأزليات ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ والصيام هو الإمساك عن ملاحظة الأغيار وطلب الاختيار والركون إلى غير الملك الجبار ﴿ليذوق﴾ النفس الأمارة ﴿وبال أمره﴾ أي: تتألم بألم هذه المعاملات التي على خلاف طبعها جزاء وكفارة لما نالت من لذائذ الشهوات وحلاوة الغفلات ﴿عفا الله عما سلف﴾ من الطالبين قبل إقدامهم على الطلب ﴿ومن عاد﴾ إلى تعلق شيء من الدنيا بعد الخروج عنها بقدم الصدق ﴿فينتقم الله منه﴾ بالخذلان في

الدنيا والخسران في العقبى ﴿والله عزيز﴾ لا يوجد لمن تعلق بالكونين حتى يتجرد الطالب عن القليل والكثير والصغير والكبير ﴿ذو انتقام﴾ ينتقم من أحبائه باحتجاب التعزز بالكبرياء والعظمة على قدر التفاتهم إلى غيره وملاحظتهم ما سواه وينتقم من أعدائه بما قاله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية من «التأويلات النجمية» وفي «المثنوي»:

عاشق صنع توام درشكر وصبر عاشق مصنوع كى باشم چوكبر

عاشق صنع خدا بافر بود عاشق مصنوع او كافر بود

فعلى الطالب الصادق أن ينقطع عن الالتفات إلى الغير ويتصل إلى من بيده الخير والله الموفق والمعين.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿أحل لكم﴾ الخطاب للمحرمين ﴿صيد البحر﴾ أي: ما يصاد في المياه كلها بحراً كان أو نهراً أو غديراً وهو ما لا يعيش إلا في الماء مأكولاً كان أو غير مأكول، فما يعيش في البر والبحر كالبط والضفدع والسرطان والسلحفاة وجميع طيور الماء لا يسمى صيد البحر بل ذلك صيد البر ويجب الجزاء على قاتله. قال الإمام جميع ما يصطاد في البحر ثلاثة أجناس: السمك وجميع أنواعه حلال، والضفادع وجميع أنواعها حرام، واختلفوا فيما سوى هذين الجنسين. فقال أبو حنيفة: إنه حرام، وقال الأكثرون إنه حلال لعموم هذه الآية وقال محيي السنة جملة حيوانات الماء على قسمين سمك وغيره. أما السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أحلت لنا ميتتان السمك والجراد» ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب وعند أبي حنيفة يحل إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو انحسار الماء عنه ونحو ذلك. وأما غير السمك فقسمان قسم يعيش في البر كالضفدع والسرطان ولا يحل أكله وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البر إلا عيش المذبوح فاختلف فيه فذهب قوم إلى أن لا يحل شيء منها إلا السمك وهو قول أبي حنيفة وذهب قوم إلى أن ميتة الكل حلال لأن كلها سمك وإن اختلف صورها كالجريث يقال له حية الماء لكونه على شكل الحية وأكله مباح بالاتفاق ﴿وطعامه﴾ أي: طعام البحر وهو ما قذفه البحر ولفظه أو نضب عنه الماء أي غار وبقي هو في أرض يابسة فيؤخذ من غير معالجة في أخذه. وقال المولى أبو السعود: وطعامه أي: ما يطعم من صيده وهو تخصيص بعد التعميم والمعنى أحل لكم التعرض لجميع ما يصاد في المياه والانتفاع به انتهى ﴿متاعا لكم﴾ نصب على أنه مفعول له. قال المولى أبو السعود مختص بالطعام كما أن نافلة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] حال مختصة بيعقوب أي: أحل لكم طعامه تمتعاً للمقيمين يأكلونه طرياً ﴿وللسيارة﴾ منكم يتزودونه قديداً ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء ﴿ما دمتم حرما﴾ ما مصدرية ظرفية أي: مدة دوامكم محرمين لا خلاف في الاصطياد أنه حرام على المحرم في البر فأما عين الصيد فظاهر الآية يوجب حرمة ما صاد الحلال على المحرم وإن لم يكن له مدخل فيه لكن مذهب أبي حنيفة أنه يحل له ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يشر إليه ولم يدل عليه وكذا ما ذبحه قبل

إحرامه لأن الخطاب للمحرمين وكأنه قيل حرم عليكم ما صدتم في البر فيخرج منه مصيد غيرهم ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه من جميع المعاصي التي من حملتها أخذ الصيد في الإحرام ﴿الذي إليه تحشرون﴾ لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء إليه كما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٣٠] أي: المنتهى والمرجع بسوق الملائكة إلى حيث أمرهم الله إما إلى الجنة وإما إلى السعير وفي الحديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن أشفق من عذاب جهنم كف نفسه عن المحرمات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات» ومن أراد سهولة الموت فليبادر إلى الخيرات فمن لم يترك شهوة لم يرض عنه ربه بطاعته ومن لم يتق الله في سره لم ينتفع بما أبداه من علامة التقوى، وفي «المثنوي»:

كافرم من كرزيان كردست كس   درره ايمان وطاعت يكنفس

كار تقوى دارد ودين وصلاح   كه بدان باشد بد وعالم فلاح

والإشارة في الآية ﴿أحل لكم﴾ أيها المستغرقون في بحر الحقائق ﴿صيد البحر﴾ ما تصيدون من بحر المعرفة بالمشاهدات والكشوف ﴿وطعامه متاعا لكم وللسيارة﴾ يعني تشبعون بما يرد عليكم من وارد الحق وتجلي الصفات كما قال عليه السلام: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وتطعمون منه السائرين إلى الله من أهل الإرادة كقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] وهذا حال المشايخ وأهل التربية من العلماء الراسخين ﴿وحرم عليكم﴾ أيها الطلاب ﴿صيد البر﴾ وهو ما سنح في أثناء السير إلى الله من مطالب الدنيا والآخرة، كماقاله عليه السلام: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وكلتاهما حرامان على أهل الله» ﴿ما دمتم حرماً﴾ أي ما دمتم محرمين إلى كعبة الوصول متوجهين إلى حضرة الوصال، فإن حكم المتوجه ينافي حكم الواصل الكامل لأن من وصل صار محواً والمتوجه صاح وبون بين الصاحي والماحي، فإن أفعال الصاحي به ومنه وأحوال الماحي ليست به ولا منه والله غالب على أمره، فبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢] أي إذا فرغتم من مناسك الوصول وسلكتم مسالك الأصول سقط عنكم كلف المحرمين ومؤونات المسافرين وثبت لكم لزوم العاكفين وأحكام الطائفين كما قال: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ يعني اتقوا بالله الذي إليه تجمعون وتصلون عما سواه لكيلا تحوروا بعد ما تكوروا نعوذ بالله من الحور بعد الكور، كذا في «التأويلات النجمية» المسماة ببحر الحقائق، اللهم أفض علينا من بركات أوليائك وأدر علينا من كاسات أحبائك وأودائك.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿جعل الله الكعبة﴾ أي صيرها وإنما سمي البيت كعبة لتكعبه أي لتربعه والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة تشبيهاً له بكعب الرجل الذي عند ملتقى الساق والقدم في كونه على هيئته في التربيع. وقيل سميت كعبة لارتفاعها عن الأرض وأصلها من الخروج والارتفاع وسمي الكعب كعباً لنتوه وخروجه من جانبي القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثدياها كاعب والكعبة لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم ولذلك

أنهم يقولون لمن عظم قدره وارتفع شأنه فلان علا كعبه.

قال صاحب أسئلة الحكم جعل الله لبيته العتيق أربعة أركان وهي في الحقيقة ثلاثة أركان لأنه شكل مكعب، ولذلك سميت بالكعبة تشبيهاً بالكعب فسرّ كونه على أربعة أركان بالوضع الحادث إشارة إلى قلوب المؤمنين، لأن قلب المؤمن لا يخلو من أربعة خواطر إلَهي وملكي ونفساني وشيطاني فركن الحجر بمنزلة الخاطر الإلهي واليماني بمنزلة الملكي والشامي بمنزلة النفساني والركن العراقي بمنزلة الشيطاني لأن الشرع شرع أن يقال عنده أعوذ بالله من الشقاق والنفاق وبالذكر المشروع تعرف مراتب الأركان.

وأما سر كونه مثلث الشكل المكعب فإشارة إلى قلوب الأنبياء عليهم السلام ليميز الله رسله وأنبياءه بالعصمة التي أعطاهم وألبسهم إياها فليس لنبي إلا ثلاثة خواطر إلهي وملكي ونفسي ولغيرهم هذه وزيادة الخاطر الشيطاني فمنهم من ظهر حكمه عليه في الظاهر وهم عامة الخلق ومنهم من يخطر له ولا يؤثر في ظاهره وهم المحفوظون من أوليائه بالعصمة الوجوبية للأنبياء والحفظ الجوازي للأولياء. ﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجيء الصفة كذلك وسمي البيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظم حرمته فالحرام بمعنى المحرم وفي الحديث «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض»، قال ابن ملك اعلم أن مكة شرفها الله حرمها إبراهيم عليه السلام لما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة» وما روي أنه عليه السلام قال: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات» فالمراد به كتابته في اللوح المحفوظ أن إبراهيم سيحرمه انتهى كلامه.

يقول الفقير إن حرمته العرضية وإن كانت حادثة لكن حرمته الذاتية قديمة وتلك الكتابة من الحرمة الذاتية عند الحقيقة. وقد جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أنه لم يجبه بهذه المقالة من الأرض إلا أرض الحرم فلذلك حرمها فصارت حرمتها كحرمة المؤمن إنما حرم دمه وعرضه وماله بطاعته لربه فارض الحرم لما قالت أتينا طائعين حرم صيدها وشجرها وخلاها فلا حرمة إلا لذي طاعة وفي الخبر: لم يأكل الحيتان الكبار صغارها في أرض الحرم في الطوفان لحرمتها.

﴿قياما للناس﴾ مفعول ثان للجعل ومعنى كونه قياماً لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم. أما الأول فلأنه يتوجه إليه الحجاج والعمار فيكون ما في البيت من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة سبباً لحط الخطيآت وارتفاع الدرجات ونيل الكرامات. وأما الثاني فلأنه يجبي إلى الحرم ثمرات كل شيء يربح فيه التجار وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة ولا يتعرض لهم أحد بسوء في الحرم حتى أن الرجل إذا أصاب ذنباً في الجاهلية والإسلام أو قتل قتيلاً لجأ إلى الحرم ويأمن فيه، قال المحيي في فتوح الحرمين مدحاً لحضرة الكعبة:

هيج نبي هيج ولي هم نبود ... كه اونه برين دررخ اميد سود
هادىء ره نيست بجز لطف دوست ... آمدنت را طلب از نزد اوست
تا نزند سر ز چمن نو كلي ... نغمه سرا يى نكند بلبلى

﴿والشهر الحرام﴾ أي: وجعل الشهر الحرام الذي يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة قياماً لهم أيضاً فالمفعول الثاني محذوف ثقة بما مر ووجه كون الشهر الحرام سبباً لقيام الناس أن العرب كان يتعرض بعضهم لبعض بالقتل والغارة في سائر الأشهر فإذا دخل الشهر الحرام زال

الخوف وقدروا على سفر الحج والتجارات آمنين على أنفسهم وأموالهم فكان سبباً لاكتساب منافع الدين والدنيا ومصالح المعاش والمعاد، وقد فضل الله الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض لتبادر النفوس وتسارع القلوب إلى إدراكها واحترامها وتتشوق الأرواح إلى إحيائها بالتعبد فيها ويرغب الخلق في فضائلها. قال الإمام النيسابوري عشر ذي الحجة أفضل الأيام وأحبها عند الله تعالى بعد شهر رمضان لأنها هي التي ناجى فيها كليم الله موسى ربه وفيها أحرم جميع الخلق بالحج ووجد آدم التوبة في أيام العشر وإسماعيل الفداء وهود النجاة ونوح الانجاء ومحمد الرسالة وأصحابه الرضوان في البيعة وبشارة خيبر وفتح الحديبية ونزول المغفرة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وغير ذلك من الآيات والكرامات وصيام يوم من العشر كصيام ألف يوم وقيام ليلة منها كعبادة من حج واعتمر طول سنته فصوم هذا العشر مستحب استحباباً شديداً لا سيما التاسع وهو يوم عرفة لكن يستحب الفطر يوم عرفة للحجاج لئلا يلحقهم فتور عن أداء الطاعات المشروعة في ذلك اليوم ويؤدوها على الحضور والكمال وفي الحديث «خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» **﴿والهدي﴾** أي: وجعل الهدي أيضاً قياماً لهم وهو ما يهدى إلى البيت ويذبح هناك ويفرق لحمه بين الفقراء فإنه نسك المهدي وقوام لمعيشة الفقراء فكان سبباً لقيام أمر الدين والدنيا، يقول الفقير: ومنه يعرف أن المقصود من القربان دفع حاجة الفقراء ولذا يستحب للمضحي أن يتصدق بأكثر أضحيته بل بكلها:

هر كسى از همت والاى خويش سود برد اودر خور كالاى خويش

وللحجاج يوم عيد القربان مناسك الذهاب من منى إلى المسجد الحرام فلغيرهم الذهاب إلى المصلى موافقة لهم والطواف فلغيرهم صلاة العيد لقوله عليه السلام: «الطواف بالبيت صلاة» وإقامة السنن من الحلق وقص الأظفار ونحوها فلغيرهم إزالة البدعة وإقامة السنة والقربان فلغيرهم أيضاً ذلك ولكن ليس كل مال يصلح لخزانة الرب ولا كل قلب يصلح لمعرفة الرب ولا كل نفس تصلح لخدمة الرب، وفي «المثنوي»:

آن تو كل كو خليلان ترا تا نبرد تيغت اسماعيل را
آن كرامت چون كليمت ازكجا تاكنى شهراه قعر نيل را

﴿والقلائد﴾ أي: وجعل الله القلائد أيضاً قياماً للناس وهي جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي من نعل أو لحاء شجر ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له بركوب أو حمل والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن وهي الناقة والبقرة مما يجوز في الهدي والأضاحي وخصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر ولذا ضحى عمر رضي الله عنه بنجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ووجه كون القلائد سبباً لقيام الناس أن من قلد هدياً لم يتعرض له أحد وربما كانوا يقلدون رواحلهم إذا رجعوا من مكة من لحاء شجر الحرم فيأمنون بذلك وكان أهل الجاهلية يأكل الواحد منهم القضيب والشجر من الجوع وهو يرى الهدي والقلائد فلا يتعرض له تعظيماً له **﴿ذلك﴾** إشارة إلى الجعل منصوب بفعل مقدر أي: شرع الله ذلك وبين **﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾** فإن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها

وجلب المنافع الأولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وعلى عدم خروج شيء من علمه المحيط ﴿**وأن الله بكل شيء عليم**﴾ تعميم بعد تخصيص للتأكيد ﴿**اعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ وعيد لمن انتهك محارمه وآصر على ذلك﴿**وأن الله غفور رحيم**﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو انقطع عن الانتهاك بعد تعاطيه.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾ أي: تبليغ الرسالة في أمر الثواب والعقاب وهو تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي: الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لا مزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد في التفريط ﴿**والله يعلم ما تبدون وما تكتمون**﴾ أي: ما تظهرون من القول والعمل وما تخفون فيؤاخذكم بذلك نقيراً وقطميراً، قال السعدي قدس سره:

برو علم يك ذره پوشيده نيست   كه پنهان وپيدا بنزدش يكيست

والإشارة في الآية أن الله تعالى كما جعل الكعبة في الظاهر قياماً للعوام والخواص يلوذون به ويستنجحون بالتضرع والابتهال هناك حاجاتهم الدنيوية والأخروية كذلك جعل كعبة القلب في الباطن قياماً للخواص وخواص الخواص ليلوذوا به بطريق دوام الذكر ونفي الخواطر بالكلية وإثبات الحق بالربوبية والواحدية بأن لا موجود إلا هو ولا وجود إلا له ولا مطلوب ولا محبوب إلا هو وسماه البيت الحرام ليعلم أنه بيت الله على الحقيقة وحرام أن يسكن فيه غيره فيراقبه عن ذكر ما سوى الحق وحبه وطلبه إلى أن يفتح الله أبواب فضله ورحمته والشهر الحرام هو أيام الطلب والسير إلى الله حرام على الطالب فيها مخالطة الخلق وملاحظة ما سوى الحق والهدي هو النفس البهيمية تساق إلى كعبة القلب مع القلائد وهي أركان الشريعة فتذبح على عتبة القلب بسكين آداب الطريقة عن شهواتها ولذاتها الحيوانية وفي قوله تعالى: ﴿**ذلك لتعلموا**﴾ الآية إشارة إلى أن العبد إذا وصل إلى كعبة القلب فيرى بيت الله ويشاهد أنوار الجمال والجلال فبتلك الأنوار يشاهد ما في السموات وما في الأرض لأنه ينظر بنور الله فيعلم على التحقيق ﴿**أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم * اعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ يسدل الحجاب لغير الأحباب ممن ركنوا إلى الدنيا واغتروا بزينتها وشهواتها ﴿**وأن الله غفور رحيم**﴾ لطالبيه وقاصدي حضرته بفتح الأبواب ورفع الحجاب ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾ بالقال والحال ﴿**والله يعلم ما تبدون**﴾ من الإيمان بأقدار اللسان وعمل الأركان ﴿**وما تكتمون**﴾ من تصديق الجنان أو التكذيب وصدق التوجه وخلوص النية في طلب الحق كذا في «التأويلات النجمية».

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب**﴾ نزلت في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يوقعوا بهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم وقد أتى المدينة في السنة السابقة واستاق سرح المدينة فخرج في العام القابل وهو عام عمرة القضاء حاجاً فبلغ ذلك أصحاب السرح فقالوا للنبي عليه السلام

هذا الحطيم خرج حاجاً مع حجاج اليمامة فخل بيننا وبينه فقال عليه السلام: «إنه قلد الهدي» ولم يأذن لهم في ذلك بسبب استحقاقهم الأمن بتقليد الهدايا فنزلت الآية تصديقاً له عليه السلام في نهيه إياهم عن تعرض الحجاج وإن كانوا مشركين وقد مضت هذه القصة في أول السورة عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] الآية وبقي حكم هذه الآية إلى أن نزلت سورة البراءة فنسخ بنزولها لأنه قد كان فيها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وفيها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فنسخ حكم الهدي والقلائد والشهر الحرام والإحرام وأمنهم بها بدون الإسلام وسبب النزول وإن كان خاصاً لكن حكمه عام في نفي المساواة عند الله بين الردى وبين الجيد ففيه ترغيب في الجيد وتحذير عن الدرى ويتناول الخبيث والطيب أموراً كثيرة: منها الحرام والحلال فمثقال حبة من الحلال أرجح عند الله من ملىء الدنيا من الحرام لأن الحرام خبيث مردود والحلال طيب مقبول فهما لا يستويان أبداً كما أن طالبهما كذلك إذ طالب الخبيث خبيث وطالب الطيب طيب والله تعالى يسوق الطيب إلى الطيب كما أنه يسوق الخبيث إلى الخبيث كما قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦] والطيب عند سادات الصوفية قدس الله أسرارهم ما كان بلا فكر وحركة نفسانية سواء سيق من طرف صالح أو فاسق لأنه رزق من حيث لا يحتسب وهو مقبول وخلافه مردود ولا بعد في هذا لأن حسنات الأبرار سيآت المقربين وبينهما بون بعيد وأيضاً الخبيث من الأموال ما لم يخرج منها حق الله والطيب ما أخرجت منه الحقوق والخبيث ما أنفق في وجوه الفساد والطيب ما أنفق في وجوه الطاعات والطيب من الأموال ما وافق نفع الفقراء في أوقات الضرورات والخبيث ما دخل عليهم في وقت استغنائهم فاشتغلت خواطرهم بها. ومنها المؤمن والكافر والعادل والفاسق فالمؤمن كالعسل والكافر كالسم والعادل كشجرة الثمرة والفاسق كشجرة الشوك فلا يستويان على كل حال. ومنها الأخلاق الطيبة والأخلاق الخبيثة فمثل التواضع والقناعة والتسليم والشكر مقبول ومثل الكبر والحرص والجزع والكفران مردود لأن الأول من صفات الروح والثاني من صفات النفس والروح طيب علوي والنفس خلافه، وفي «المثنوي»:

هين مروانـدر پى نفسى چوزاغ كو بكورستان برد نه سوى باغ
نفس اكرچه زيركست وخرده دان قبلـه اش دنياست اورامرده دان

ومن أخلاق النفس حب المال والكبار قد عدوا المال الطيب حجاباً فما ظنك بالخبيث منه فلا بد من تصفية الباطن وتخليته عن حب ما سوى الله تعالى. ومنها العلوم النافعة والعلوم الغير النافعة فالنافعة كعلوم الشريعة وغير النافعة كعلوم الفلاسفة، وفي «المثنوي»:

علم دين فقهست وتفسير وحديث هركه خواند غير ازين كردد خبيث

ومنها الأعمال الصالحة والأعمال الغير الصالحة فما أريد به وجه الله تعالى فهو صالح وما أريد به الرياء والسمعة فهو غير صالح:

عبادت بإخلاص نيت نكوست وكرنه چه آيد زبى مغز پوست

قال في «التأويلات النجمية» الخبيث ما يشغلك عن الله والطيب ما يوصلك إلى الله. وأيضاً الطيب هو الله الواحد والخبيث ما سواه وفيه كثرة **﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾** الواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر أي: لو لم يعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك وكلتاهما في

موضع الحال من فاعل لا يستوي أي: لا يستويان كائنين على كل حال مفروض وجواب لو محذوف والمعنى والتقدير أن الخبيث ولو أعجبتك كثرته يمتنع أن يكون مساوياً للطيب فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث ومعنى الإعجاب السرور بما يتعجب منه يقال: يعجبني أمر كذا أي: يسرني والخطاب في أعجبك لكل واحد من الذين أمر النبي عليه السلام بخطابهم **﴿فاتقوا الله﴾** في تحري الخبيث وإن كثروا وآثروا الطيب وإن قل **﴿يا أولي الألباب﴾** يا ذوي العقول الصافية وهم في الحقيقة من تخلصت قلوبهم وأرواحهم من قشور الأبدان والنفوس **﴿لعلكم تفلحون﴾** راجين أن تنالوا الفلاح وهو سعادة الآخرة، ثم إن التقوى على مراتب، قال ابن عطاء: التقوى في الظاهر مخالفة الحدود وفي الباطن النية والإخلاص وقال في قوله تعالى: **﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾** [آل عمران: ١٠٢] وهو صدق قولك لا إله إلا الله وليس في قلبك شيء سواه، ومن وصايا حضرة المولوي قبيل وفاته [أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية وبقلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام وهجر المعاصي والآثام وترك الشهوات على الدوام واحتمال الجفاء من جميع الأنام وترك مجالسة السفهاء والعوام ودوام مصاحبة الصالحين الكرام فإن خير الناس من ينفع الناس وخير الكلام ما قل ودل].

واعلم أن النافع هو التقوى والسبب المنجي هو الإيمان والعمل الصالح دون الحسب والنسب فلا يغرنك الشيطان بكثرة أموالك وأولادك ووفرة مفاخر آبائك وأجدادك فأصل البول الماء الطيب والصافي والله تعالى يخرج الميت من الحي **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾**.

ـ روي ـ أنه لما نزلت **﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾** [آل عمران: ٩٧] قال سراقة بن مالك أكل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» فنزلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام كان يخطب ذات يوم غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم فقال: لا أسأل عن شيء إلا أجبت فقال رجل: أين أبي فقال: «في النار» وقال آخر من أبي فقال: «حذافة» وكان يدعي لغيره فنزلت **﴿إن تبد لكم﴾** الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمساءة معلقة بالإبداء والإبداء معلق بالسؤال. فالمعنى لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم وإن تظهر لكم تغمكم والعاقل لا يفعل ما يغمه. قال البغوي: فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يأمر به في كل عام فيسوؤه ومن سأل عن نسبه لم يؤمن أن يلحقه بغيره فيفتضح **﴿عفا الله عنها﴾** استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها وفيه من حثهم على الجد في الانتهاء عنها ما لا يخفى وضمير عنها للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا أي: عفا الله عن مسألتكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء بمسألتكم وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسبب مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها **﴿والله غفور حليم﴾** أي: مبالغ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم فالجملة اعتراض تذييلي مقرر لعفوه تعالى.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قد سألها قوم﴾ أي: سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للبالغة في التحذير ﴿من قبلكم﴾ متعلق بسألها ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أي: بسببها ﴿كافرين﴾ فإن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أمروا تركوها فهلكوا كما سأل قوم ثمود صالحاً الناقة وسأل قوم عيسى مائدة، قال أبو ثعلبة: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها. قال الحسين الواعظ الكاشفي في تفسيره: [پس نيكبخت آنست كه از حال ديكران عبرت كيرد بقول وفعل فضولي اشتغال ننمايد ودرين باب كفته اند]:

بكوى آنچه كفتن ضرورت شود ... دكر كفته هارا فروبندر

بجاي آر فعلى كه لازم بود ... زافعال بى حاصل اندر كذر

وكان رجل يحضر مجلس أبي يوسف كثيراً ويطيل السكوت فقال له يوماً ما لك لا تتكلم ولا تسأل عن مسألة قال: أخبرني أيها القاضي متى يفطر الصائم؟ قال إذا غابت الشمس قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل فتبسم وتمثل ببيت جرير:

وفي الصمت زين للخلي وإنما ... صحيفة لب المرء أن يتكلما

وفي الحديث: «عجبت من بني آدم وملكاه على نابيه فلسانه قلمهما وريقه مدادهما كيف يتكلم فيما لا يعنيه».

والإشارة في الآيتين أن الله تعالى نهى أهل الإيمان أن يتعلموا العلوم اللدنية وحقائق الأشياء بطريق السؤال لأنها ليست من علوم القال وإنما هي من علوم الحال فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ أي: عن حقائق أشياء ﴿إن تبد لكم﴾ بيانها بطريق القال ﴿تسؤكم﴾ إذ لم تهتدوا إلى الحقائق ببيان القال فتقع عقولكم المشوبة بآفات الهوى والوهم والخيال في الشبهات فتتهالكوا في أوديتها كما كان حال طوائف الفلاسفة إذ طلبوا علوم حقائق الأشياء بطريق القال والبراهين المعقولة فما كانت منها مندرجة تحت نظر العقول المجردة عن شوائب الوهم والخيال أصابوها وما ضاق نطاق العقول عن دركها استزلهم الشيطان عند البحث عن الصراط المستقيم وأوقعهم في أودية الشبهات وبوادي الهلكات فهلكوا وأهلكوا خلقاً عظيماً بتصانيفهم في العلوم الإلهية وبعضهم خلطوها بعلم الأصول وقرروا شبهاتهم فيها فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وما علموا أن تعلم علوم الحقائق بالقال محال وأن تعلمها إنما يحصل بالحال كما كان حال الأنبياء مع الله فقد علمهم علوم الحقائق بالإراءة لا بالرواية فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال في حق النبي عليه السلام: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨] وقال عليه السلام: «أرنا الأشياء كما هي» وكما كان حال الأمة مع النبي عليه السلام كان يعلمهم الكتاب بالقال والحكمة بالحال بطريق الصحة وتزكية نفوسهم عن شوائب آفات النفس وأخلاقها كقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى فيمن تحقق له فوائد الصحة على موائد المتابعة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ثم قال: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي:

وإن كان لا بد لكم من السؤال عن حقائق الأشياء فاسألوا عنها بعد نزول القرآن أي: من القرآن ليخبركم عن حقائقها على قدر عقولكم. أما العوام منكم فيؤمنون بمتشابهات القرآن فإنها بيان حقائق الأشياء ويقولون كل من عند ربنا ولا يتصرفون فيها بقولهم طلباً للتأويل فإنه لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وهم الخواص. وأما أخص الخواص فيفهمون مما يشير القرآن إليه من حقائق الأشياء بالرموز والإشارات والمتشابهات ما لا يفهم غيرهم كما أشار بقصة موسى والخضر إلى أن تعلم العلم اللدني إنما يكون بالحال في الصحة والمتابعة والتسليم وترك الاعتراض على الصاحب المعلم لا بالقال ولا بالسؤال لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف: ٦٦- ٦٧] يعني في المتابعة وترك الاعتراض. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [الكهف: ٦٩- ٧٠] يعني إن من شرط المتابعة ترك السؤال عن أفعال المعلم وغيرها فلما لم يستطع موسى معه صبراً ليتعلم بالحال وفتح باب القال والسؤال فقال: أخرقتها لتغرق أهلها أقتلت نفساً زكية فما واساه الخضر وقال: ﴿۞ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥] يعني: موسى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكهف: ٧٦] يشير إلى أن تعلم العلم اللدني بالحال في الصحبة والمتابعة والتسليم لا بالقال والسؤال وفي السؤال الانقطاع عن الصحبة فافهم جداً فلما عاد في الثالثة إلى السؤال وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٧- ٧٨] ثم قال: **﴿عفا الله عنها﴾** أي: عما سألتم وطلبتم من علوم الحقائق بالقال قبل نزول هذه الآية **﴿والله غفور﴾** لمن تاب ورجع إلى الله في طلب علوم الحقائق بالقال والسؤال **﴿حليم﴾** لمن يطلب بالحال يحلم عنهم في أثناء ما يصدر منهم مما ينافي أمر الطلب إلى أن يوفقهم لما يوافق الطلب ثم قال: **﴿قد سألها قوم من قبلكم﴾** يعني من مقدمي الفلاسفة فقد شرعوا في طلب العلوم الإلٓهية بالقال ونظر العقل فوقعوا في أودية الشبهات **﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾** أي: بسبب الشبهات التي وقعوا فيها بتتبع القيل والقال وكثرة السؤال وترك متابعة الأنبياء عليهم السلام كذا في «التأويلات النجمية».

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ما جعل الله﴾ هو الجعل التشريعي ويتعدى إلى واحد أي: ما شرع وما وضع وما سن **﴿من﴾** مزيدة لتأكيد النفي **﴿بحيرة﴾** كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي: شقوا وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد عن ماء ولا مرعى فهي فعيلة من البحر وهو الشق بمعنى المفعولة **﴿ولا سائبة﴾** كان الرجل منهم يقول إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها فهي فاعلة من قولهم ساب الماء يسيب سيباً إذا جرى على وجه الأرض ويقال أيضاً سابت الحية فالسائبة هي التي تركت حتى تسيب حيث شاءت **﴿ولا وصيلة﴾** كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر من أجل الأنثى فلا يذبح لآلهتهم. فمعنى الآية ما جعل الله أنثى تحلل ذكراً محرماً عند الانفراد فهي فعيلة بمعنى فاعلة **﴿ولا حام﴾** كانوا إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب

ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى فهو اسم فاعل من حمى يحمي أي: منع يقال حماه يحميه إذا حفظه ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ أي: يكذبون عمداً حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون الله أمرنا بهذا وإمامهم عمرو بن لحي الخزاعي فإنه كان أقدم من ملك مكة وكان أول من غير دين إسماعيل فاتخذ الأصنام ونصب الأوثان وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

ـ روي ـ أنه عليه السلام قال في حقه: «رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه» والقصب المعى هذا شأن رؤسائهم وكبارهم ﴿وأكثرهم﴾ وهم أراذلهم الذين يوقعونهم في معاصي رسول الله ﷺ ﴿لا يعقلون﴾ أنه افتراء باطل حتى يخالفون ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم فيبقون في أسر التقليد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي: للأكثر على سبيل الهداية والإرشاد. ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وإلى الرسول﴾ الذي أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي إلى الحق وانقيادهم للداعي إلى الضلال. وحسبنا مبتدأ وما وجدنا خبره وهو في الأصل مصدر والمراد به اسم الفاعل أي: كافينا الذي وجدنا عليه آباءنا. ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ الواو للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها والتقدير أيحسبهم ذلك أي أيكفيهم وجدان آبائهم على هذا المقال أو أيقولون هذا القول ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب والمعنى أن الاقتداء إنما يكون بمن علم أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة. قال الحسين الواعظ في تفسيره: [يعني ايشان جاهل وكمراه بودند تقليد إيشان نافع نيست بلكه تقليد عالم مى بايد تاكار بتحقيق آنجامد] قال جلال الدين رومي قدس سره في المثنوي:

از مقلد تا محقق فرقها ست ... اين يكى كوهست وإن ديكر صداست
دست در بينا زنى آيى براه ... دست در كورى زنى افتى بچاه

قال الشيخ علي دده في «أسئلة الحكم»: أما ما ورد في الأحاديث النبوية في حق الدجاجلة وظهورها بين الأمة فلا شك عند أهل العلم أن الدجاجلة هم الأئمة المضلون لا سيما من متصوفة الزمان أو متشيخيهم وقد شاهدناهم في عصرنا هذا قاتلهم الله حيثما كانوا انتهى. قال بعضهم قلت لمتشبه بالصوفية ظاهراً بعني جبتك لما علم من أحواله فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يتصيد:

بروى ريا خرقه سهلست دوخت ... كرش باخدا در تواني فروخت
بنزديك من شبرو راهزن ... به از فاسق يا رسا وپيرهن

والإشارة أن الشيطان كلما سلط على قوم أغراهم على التصرف في إنعام أجسامهم ونفوسهم مبتدعين غير متبعين وهم يزعمون أن هذه التصرفات لله وفي الله وفي قوله ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ إشارة إلى من يتصرف بما لم يؤمر به كمن يشق أذنه أو يثقبها ويجعل فيها

الحلقة من الحديد أو يثقب صدره أو ذكره ويجعل عليه القفل أو يجعل في عنقه الغل أو يحلق لحيته مثل ما يفعل هؤلاء القلندرية قال الحافظ قدس سره:

قلندرى نه بريشست وموى يا ابرو — حساب راه قلندر بدانكه موى بموست

كذشتن از سرمو در قلندرى سهلست — چو حافظ آنكه زسر بكذرد قلندراوست

﴿ولا سائبة﴾ وهم الذين يدورون في البلاد مسيبين خليعي العذار يرتعون في مراتع البهيمية والحيوانية بلا لجام الشريعة وقيد الطريقة وهم يدعون أنهم أهل الحق قد لعب الشيطان بهم فاتخذوا إلههم هواهم ﴿ولا وصيلة﴾ وهم الذين يبيحون المحرمات ويستحلون الحرمات ويتصلون بالأجانب من طريق الأخوة والأبوة كالإباحية والزنادقة فيغتر به ويظن أنه بلغ مقام الوحدة وأنه محمي عن النقصان بكل حال ولا يضره مخالفات الشريعة إذ هو بلغ مقام الحقيقة فهذا كله من وساوس الشيطان وهواجس النفس ما أمر الله بشيء من ذلك ولا رخص لأحد فيه فهؤلاء الذين وضعوا هذه الطريقة وابتدعوها لا يعلمون شيئاً من الشريعة والطريقة ولا يهتدون إلى الحقيقة فإنهم أهل الطبيعة وأرباب الخديعة ولقد شاعت في الآفاق فتنهم وكملت فيهم غرتهم وما لهم من دافع ولا مانع ولا وازع على أن الخرق قد اتسع على الراقع:

أرى ألف بأن لا يقوم بهادم — فكيف بيان خلفه ألف هادم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي: الزموا إصلاح أنفسكم وحفظها مما يوجب سخط الله وعذاب الآخرة ﴿لا يضركم﴾ ضلال ﴿من ضل﴾ بالفارسي [زيانى نرساند شمارا بى راهىء آنكس كه كمراه شد] ﴿إذا اهتديتم﴾ إذا كنتم مهتدين. والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم وفيهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالأمر والنهي ﴿إلى الله﴾ لا لأحد سواه ﴿مرجعكم﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جميعا﴾ الضلال والمهتدي ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال أي: فيجازيكم على ذلك فهو وعد ووعيد للفريقين المهتدين والضالين وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره ولا يتوهمنّ أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسب الطاقة:

اكر بينى كه نابينا وچاهست — اكر خاموش بنشينى كناهست

وفي الحديث «من رأى منكم منكراً إن استطاع أن يغيره فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه» وقد روي أن الصديق قال يوماً على المنبر يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي وإنما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه عمهم الله بعقاب» فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين﴾ الآية فيقول أحدكم عليّ نفسي والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعن خياركم فلا يستجاب لهم. ولو قيل لرجل لم لا تأمر بالمعروف قال: [مراچه كارست] أو قيل لرجل [فلا نرا أمر معروف كن] فقال: [مرا اوچه كرده است] أو قال: [من عافيت كزيده أم] أو قال:

[مرا با اين فضولى چه كار] يخاف عليه الكفر في هذه الصور، قال المولوي قدس سره:

تــوز كــفــتــار تــعــالــوا كــم مــكــن　　كــيــمــياى بس شكر فست اين سخن

كــرمــسى كــردد ز كــفــتــارت نــفــيــر　　كــيــمــيــارا هــيــچ ازوى وامــكــيــر

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض لا يسقط إلا عند العجز عن ذلك وكان السلف معذورين في بعض الأزمان في ترك الإنكار باليد واللسان:

چـو دسـت وزبـانـرا نـمـانـد مـجـال　　بـهـمـت نـمـايـنـد مـردى رجـال

والحاصل أن هذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأوقات فعلى المحب أن لا يتجاوز عن الحد ويراعي حكم الوقت فإن لكل زمان دولة ورجالاً.

والإشارة ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ أي إيمان الطالبين الموقنين بأن الوجدان في الطلب كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني» ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ فاشتغلوا بتزكيتها فإنه قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فلا تشتغلوا قبل تزكيتها بتزكية نفوس الخلق ولا تغتروا بإرادة الخلق وبقولهم وحسن ظنهم فيكم وتقربهم إليكم فإنها للطالب سم الساعة وإن مثل السالك المحتاج إلى المسلك والذي يدعي إرادته ويتمسك به كمثل غريق في البحر محتاج إلى سابح كامل في صنعته لينجيه من الغرق فيتشبث به غريق آخر في البحر وهو يأخذ بيده لينجيه فيهلكان جميعاً فالواجب على الطالب المحق أن يتمسك بذيل إرادة صاحب دولة في هذا الشأن مسلك كامل ويستسلم للأحكام ولا يلتفت إلى كثرة الهالكين فإنه لا يهلك على الله إلا هالك ﴿**لا يضركم**﴾ أيها الطالبون ﴿**من ضل**﴾ من المغرقين ﴿**إذا اهتديتم**﴾ إلى الحق به ﴿**إلى الله مرجعكم جميعا**﴾ أيها الطالبون بجذبات العناية على طريق الهداية والمضلون بسلاسل القهر والخذلان على طريق المكر والعصيان ﴿**فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ أي: فيذيقكم لذة ثواب أعمالكم أو ألم عقوبة أعمالكم والمعنى ليس للطالب أن يلتفت في أثناء سلوكه إلى أحد من أهل الصدق والإرادة بأن يقبله ليربيه ويغتر بأنه شيخ يقتدي به إلى أن يتم أمر سلوكه بتسليك مسلك كامل واصل ثم أن يرى شيخه أن له رتبة الشيخوخة فيثبته بإشارة التحقق في مقام التربية ودعوة الخلق فحينئذٍ يجوز له أن يكون هادياً مرشداً للمريدين باحتياط وافر فقد قال تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] فأما في زماننا هذا فقد آل الأمر إلى أن من لم يكن مريداً قط يدعي الشيخوخة ويخبر بالشيخوخة الجهال والضلال من جهالته وضلالته حرصاً لانتشار ذكره وشهرته وكثرة مريديه وقد جعلوا هذا الشأن العظيم والثناء الجسيم لعب الصبيان وضحكة الشيطان حتى يتوارثونه كلما مات واحد منهم كانوا يجلسون ابنه مقامه صغيراً كان أو كبيراً ويلبسون منه الخرق ويتبركون به وينزلونه منازل المشايخ فهذه مصيبة قد عمت ولعل هذه طريقة قد تمت فاندرست آثارها والله أعلم بأخبارها إلى هٰهنا من الإشارة من «التأويلات النجمية».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ
ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ

أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ تصديره بحرف النداء والتنبيه لإظهار كمال العناية بمضمونه.

ـ روي ـ أن تميم بن أوس الداري وعدي بن زيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذٍ نصرانيين ومعهما بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً فلما قدما إلى الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه أسماء جميع ما معه وطرحه في درج الثياب ولم يخبرهما بذلك وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشاه فوجدا فيه إناء من فضة وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه ودفعا المتاع إلى أهله فأصابوا فيه الكتاب فقالوا لهما هل باع صاحبكما شيئاً من متاعه؟ قالا: لا قالوا فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه قالا لا إنما مرض حين قدم البلد فلم يلبث أن مات قالوا: فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية متاعه وفيها إناء منقوش مموّه بالذهب وزنه ثلاثمائة مثقال قالا ما ندري إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ففعلنا وما لنا بالإناء من علم فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى ﷺ سبيلهما ثم إنه وجد الإناء في مكة فقال من بيده: اشتريته من تميم وعدي وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بني سهل أولياء بديل فطلبوه منهما فقالا: كنا اشتريناه من بديل فقالوا: ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيئاً فقلتما لا قالا ما كان لنا بينة فكرهنا أن نقربه فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ [المائدة: ١٠٧] الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا فدفع الإناء إليهما. واتفق العلماء على أن هذه الآية أشكل ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً ﴿**شهادة بينكم**﴾ أي: شهادة الخصومات الجارية بينكم فبين ظرف أضيف إليه شهادة على طريق الاتساع في الظروف بأن يجعل الظرف كأنه مفعول للفعل الواقع فيه فيضاف ذلك الفعل إليه على طريق إضافته إلى المفعول نحو يا سارق الليلة أي: يا سارق في الليلة وارتفاع الشهادة على أنها مبتدأ ﴿**إذا حضر أحدكم الموت**﴾ أي: شارفه وظهرت علائمه ظرف للشهادة ﴿**حين الوصية**﴾ بدل من الظرف وفي إبداله منه تنبيه على أن الوصية من المهمات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها ﴿**اثنان**﴾ خبر للمبتدأ بتقدير المضاف لئلا يلزم حمل العين على المعنى أي: شهادة بينكم حينئذٍ شهادة اثنين أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أي: فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان. واختلفوا في هذين الاثنين. فقال قوم هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي. وقال آخرون هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان ولا يلزم الشاهدين الإيصاء وإن صح إلى واحد إلا أنه ورد في الآية الإيصاء إلى اثنين احتياطاً واعتضاداً لأحدهما بالآخر. فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك شهدت وصية فلان بمعنى حضرت والشهيد الذي حضرته الوفاة في الغزو حتى لو مضى عليه وقت صلاة وهو حي لا يسمى شهيداً لأن الوفاة لم تحضره في الغزو ﴿**ذوا عدل منكم**﴾ هما صفتان للاثنان أي: صاحبا أمانة وعقل من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب إلى تحري ما

هو أصلح له أو من أهل دينكم يا معشر المؤمنين وهذه جملة تامة تتناول حكم الشهادة على الوصية في الحضر والسفر ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ عطف على اثنان أو شهادة عدلين آخرين من غيركم أي: من الأجانب أو من غير أهل دينكم أي: من أهل الذمة وقد كان ذلك في بدء الإسلام لعزة وجود المسلمين لا سيما في السفر ثم نسخ بقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فلا يقبل شهادة الذمي على المسلم لعدم ولايته عليه والشهادة من باب الولاية وتقبل شهادة الذمي على الذمي لأن أهل الذمة بعضهم أولياء بعض ﴿**إن أنتم ضربتم في الأرض**﴾ أي: سرتم وسافرتم فيها ﴿**فأصابتكم مصيبة الموت**﴾ عطف على الشرط وجوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن سافرتم فقاربكم الأجل حينئذٍ وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى لأمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد في الأسفار فشهادة بينكم شهادة آخرين أو فإنه يشهد آخران فقوله تعالى: ﴿**إن أنتم ضربتم**﴾ تقييد لقوله ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ ﴿**تحبسونهما**﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل فكيف نصنع إن ارتبنا بالشاهدين فقيل تحبسونهما أي: تقفونهما وتصيرونهما للتحليف ﴿**من بعد الصلاة**﴾ من صلة واللام للعهد الخارجي أي: بعد صلاة العصر لتعينها عندهم للتحليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولأن جمع أهل الإيمان يعظمون ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روي أن النبي عليه السلام وقتئذٍ حلف من حلف. قال الشافعي: الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر بمكة بين الركن والمقام وفي المدينة عند المنبر وفي بيت المقدس عند الصخرة وفي سائر البلدان في أشرف المساجد وقال أبو حنيفة لا يختص الحلف بزمان ولا مكان. ﴿**فيقسمان بالله**﴾ عطف على تحبسونهما ﴿**إن ارتبتم**﴾ شرطية محذوفة الجواب لدلالة ما سبق من الحبس والإقسام عليه سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب أي: إن ارتاب فيهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله ﴿**لا نشتري به ثمنا**﴾ جواب القسم أي مقسم عليه فإن قوله فيقسمان يتضمن قسماً مضمراً فيه. والاشتراء استبدال السلعة بالثمن أي: أخذها بدلاً منه ثم استعير لأخذ شيء بإزالة ما عنده عيناً كان أو معنى على وجه الرغبة في المأخوذ والإعراض عن الزائل كما هو المعتبر في المستعار منه والضمير في به لله. والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من الله أي: من حرمته عرضاً من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال وطمع الدنيا ﴿**ولو كان**﴾ أي: المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام وهو الميت ﴿**ذا قربى**﴾ أي: قريباً منا في الرحم تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذباً ومبالغة في التنزه كأنهما قالا لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من حرمة اسمه تعالى مالاً ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء فقد انضم إليها ما هو أقوى منها وأدعى إلى الحلف كاذباً وهي صيانة حظ أنفسهما فلا يتحقق ما قصداه من المبالغة في التنزه عنه والتبري منه. قلت: صيانة أنفسهما وإن كانت أهم من رعاية الأقرباء لكنها ليست ضميمة للمال بل راجعة إليه ﴿**ولا نكتم شهادة الله**﴾ معطوف على لا نشتري به داخل معه في حكم القسم وشهادة الله منصوب على أنها مفعول بها أضيفت إليه تعالى لأنه هو الآمر بها وبحفظها وعدم كتمانها وتضييعها ﴿**إنا إذاً**﴾ إذ كتمناها ﴿**لمن الآثمين**﴾ أي: العاصين ﴿**فإن عثر**﴾ أي: اطلع بعد التحليف ﴿**على أنهما استحقا إثما**﴾ أي: فعلاً ما

يوجب إثماً من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه **﴿فآخران﴾** أي: رجلان آخران وهو مبتدأ خبره **﴿يقومان مقامهما﴾** أي: مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التي توليا ولم يؤدياها كما هي بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لإظهار الحق **﴿من الذين﴾** حال من فاعل يقومان أي: من أهل الميت الذين **﴿استحق عليهم الأوليان﴾** من بينهم أي: الأقربان إلى الميت الوارثان له الأحقان بالشهادة أي: باليمين ومفعول استحق محذوف أي: استحق عليهم أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام الأولين على وضع المظهر مقام المضمر فاستحق مبني للفاعل والأوليان فاعله وهو تثنية الأولى بالفتح بمعنى الأقرب. وقرىء على البناء للمفعول وهو الأظهر أي: من الذين استحق عليهم الإثم أي: جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته فالأوليان مرفوع على أنه خبر لمحذوف كأنه قيل ومن هم فقيل الأوليان **﴿فيقسمان بالله﴾** عطف على يقومان **﴿لشهادتنا﴾** المراد بالشهادة اليمين كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] أي: ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة في نفسها **﴿أحق﴾** بالقبول **﴿من شهادتهما﴾** أي: من يمينهما مع كونها كاذبة في نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة فصيغة التفضيل مع أنه لا حقيقة في يمينهما رأساً إنما هي لإمكان قبولها في الجملة باعتبار احتمال صدقهما في ادعاء تملكهما لما ظهر في أيديهما **﴿وما اعتدينا﴾** عطف على جواب القسم أي: ما تجاوزنا فيها شهادة الحق وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما **﴿إنا إذاً﴾** أي: إذا اعتدينا في يميننا **﴿لمن الظالمين﴾** أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى أو لمن الواضعين الحق في غير موضعه ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغي أن يشهد على وصيته عدلين من ذوي نسبه أو دينه فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين من غيرهم ثم إن وقع ارتياب بهما اقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئاً بالتغليظ في الوقت فإن اطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بأيمانهم وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادعيا إنهما ابتاعاه والوصي إذا أخذ شيئاً من مال الميت وقال إنه أوصى به حلف الوارث إذا أنكر ذلك وتحليف المنكر ليس بمنسوخ **﴿ذلك﴾** أي: الحكم الذي تقدم تفصيله **﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾** أي: أقرب إلى أن تؤدي الشهود الشهادة على وجهها الذي تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفاً من العذاب الأخروي هذا كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور **﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾** بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبىء عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه فأي الخوفين وقع حصل المقصود الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها **﴿واتقوا الله﴾** في شهادتكم فلا تحرفوها وفي أيمانكم فلا تحلفوا أيماناً كاذبة وفي أماناتكم فلا تخونوها وفيما بينه الله من الأحكام فلا تخالفوا حكمه **﴿واسمعوا﴾** ما توعظون به كائناً ما كان سمع طاعة وقبول **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** الخارجين عن الطاعة أي: فإن لم تتقوا ولم

تسمعوا كنتم فاسقين والله لا يهدي القوم الفاسقين أي: إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم.

واعلم أن الشهادة في الشرع الإخبار عن أمر حضره الشهود وشاهدوه إما معاينة كالأفعال نحو القتل والزنى أو سماعاً كالعقود والإقرارات فلا يجوز له أن يشهد إلا بما حضره وعلمه وسمعه ولهذا لا يجوز له أداء الشهادة حتى تذكر الحادثة وفي الحديث: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع» وفي الشهادة إحياء حقوق الناس وصون العقود عن التجاحد وحفظ الأموال على أربابها وفي الحديث: «أكرموا شهودكم فإن الله يستخرج بهم الحقوق» ومن تعين للتحمل لا يسعه أن يمتنع إذا طلب لما فيه من تضييع الحقوق إلا أن يقوم الحق بغيره بأن يكون في الصك سواه ممن يقوم الحق به فيجوز له الامتناع لأن الحق لا يضيع بامتناعه وهو مخير في الحدود بين الشهادة والستر لأن إقامة الحدود حسبة والستر على المسلم حسبة والستر أفضل وفي الحديث «من ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة».

ثم اعلم أن اليمين الفاجرة تبقي الديار بلاقع فينبغي لطالب الآخرة أن يجتنب عن الكذب لطمع الدنيا وأن يختار الصدق في كل قول وفعل، قال الحافظ:

طريق صدق بياموز ازآب صافى دل براستى طلب آزادكى چو سروچمن

والأمانة من الأوصاف الجميلة والله تعالى يأمر بأداء الأمانات وإن قل أصحابه في هذا الزمان ولله در القائل:

أمين مجوى ومكوباً كسى أمانت عشق درين زمانه مكر جبرئيل أمين باشد

وعاقبة الخيانة الافتضاح، كما قال الصائب:

خيانتهاى پنهان ميكشد آخر برسوايى كه دزد خانكى را شحنه دربازار ميكردد

فلا بد من التقوى وسماع الأحكام الأزلية والله لا يهدي إلى حضرته القوم الفاسقين يعني الذين كانوا خارجين عند رشاش النور وإصابته كما قال عليه السلام: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل» عصمنا الله وإياكم من مخالفة أمره ولا يجعلنا ممن ضاع أنفاس عمره إنه هو الموفق والمرشد والوهاب.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ أي: اذكروا يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة والمراد جمعهم وجمع أممهم وإنما لم يذكر الأمم لأنهم أتباع لهم **﴿فيقول﴾** أي: الله تعالى للرسل **﴿ماذا أجبتم﴾** أي: أي إجابة أجبتم من جهة الأمم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي إجابة إقرار وتصديق أم إجابة إنكار وتكذيب؟ فماذا في محل النصب على أنه مفعول مطلق للفعل المذكور بعده. وفيه إشارة إلى خروجهم من عهدة الرسالة كما ينبغي وإلا لصدر الخطاب بأن يقال هل بلغتم رسالتي ولم يقل ماذا أجابوا بناء على كمال تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم. فإن قلت ما وجه السؤال مع أنه تعالى لا يخفى عليه شيء. قلت توبيخ القوم كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩] المقصود منه توبيخ من فعل ذلك الفعل بها **﴿قالوا﴾** كأنه قيل فماذا يقول الرسل هنالك فقيل يقولون **﴿لا علم لنا﴾** بما كنت أنت تعلم **﴿إنك أنت علام الغيوب﴾** تعليل لذلك أي: لأنك تعلم ما أضمروه وما أظهروه ونحن لا نعلم إلا ما أظهروه فعلمنا في علمك كالمعدوم وهذا الجواب يتضمن التشكي من

الأمم كأنه قيل علمك محيط بجميع المعلومات فتعلم بما ابتلينا من قبلهم وكابدنا من سوء إجابتهم فنلتجىء إليك في الانتقام منهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الجواب إنما يكون في بعض مواطن القيامة وذلك عند زفرة جهنم وجثّوا الأمم على الركب لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا قال نفسي نفسي فعند ذلك تطير القلوب من أماكنها فيقول الرسل من شدة هول المسألة وهول الموطن ﴿لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ وترجع إليهم عقولهم فيشهدون على قومهم أنهم بلغوهم الرسالة وأن قومهم كيف ردوا عليهم فإن قيل كيف يصح ذهول العقل مع قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] قيل: إن الفزع الأكبر دخول جهنم، قال السعدي قدس سره:

دران روزكز فعل پرسند وقول — أولو العزم را تن بلرزد زهول
بجايى كه دهشت خورد أنبياء — تو عذر كنه را چه دارى بيا
برادر زكار بدان شرم دار — كه دررو ى نيكان شوى شر مسار
سراز جيب غفلت بر آور كنون — كه فرداً نماند بخجلت نكون

وقيل قولهم ﴿لا علم لنا﴾ ليس المقصود منه نفي العلم بجوابهم حال التبليغ ولا وقت حياة الأنبياء بل المقصود نفي علمهم بما كان من الأمم بعد وفاة الأنبياء في العاقبة وآخر الأمر الذي به الاعتبار لأن الثواب والعقاب إنما يدوران على الخاتمة وذلك غير معلوم لهم فلهذا المعنى قالوا ﴿لا علم لنا﴾ وفي الحديث: «إني على الحوض أنظر من يرد عليّ منكم والله ليقطعن دوني رجال فلأقولن أي ربي مني ومن أمتي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ما زالوا يرجعون على أعقابهم» وهو عبارة عن ارتدادهم أعم من أن يكون من الأعمال الصالحة إلى السيئة أو من الإسلام إلى الكفر وفي الحديث «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ» فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] إنما شهد محمد وأمته بذلك مع أنهم بعد نوح لعلمهم بالقرآن أن الأنبياء كلهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به وقد جاء في الرواية «ثم يؤتى بمحمد فيسأل عن حالة أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم» فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فعلى العاقل أن يجيب إلى دعوة الحق وينتصح بنصيحة الناصح الصدق:

امروز قدر پند عزيزان شناختم — يا رب روان ناصح ما ازتو شادباد

واعلم أن القيامة يوم يتجلى الحق فيه بالصفة القهارية قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. قال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة هذا ترتيب أنيق فإن الذات الأحدي يدفع بوحدته الكثرة وبقهره الآثار فيضمحل الكل فلا يبقى سواه تعالى وقيامة العارفين دائمة لأنهم يكاشفون الأمور ويشاهدون الأحوال في كل موطن على ما هي عليه وهي القيامة الكبرى وحشر الخواص بل الأخص اللهم اجعلنا ممن مات بالاختيار قبل الموت بالاضطرار.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ

ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت قول الله تعالى لعيسى ابن مريم وهو يوم القيامة ﴿اذكر نعمتي﴾ أي: إنعامي ﴿عليك وعلى والدتك﴾ وليس المراد بأمره عليه السلام يومئذٍ بذكر النعم تكليف الشكر إذ قد مضى وقته في الدنيا بل ليكون حجة على من كفر حيث أظهر الله على يده معجزات كثيرة فكذبته طائفة وسموه ساحراً وغلا آخرون فاتخذوه إلّهاً فيكون ذلك حسرة وندامة عليهم يوم القيامة والفائدة في ذكر أمه أن الناس تكلموا فيها ما تكلموا ثم عد الله تعالى عليه نعمة نعمة فقال: ﴿إذ أيدتك﴾ ظرف لنعمتي أي اذكر إنعامي عليكما وقت تأييدي لك ﴿بروح القدس﴾ أي بجبريل الطاهر على أن القدس الطهور وأضيف إليه الروح مدحاً له بكمال اختصاصه بالطهر كما في رجل صدق ومعنى تأييده به أن جبريل عليه السلام يجعل حجته ثابتة مقررة ﴿تكلم الناس في المهد وكهلا﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء أي: من غير أن يوجد تفاوت بين كلامه طفلاً وبين كلامه كهلاً في كونه صادراً عن كمال العقل وموافقاً لكمال الأنبياء والحكماء فإنه تكلم حال كونه في المهد أي: في حجر الأم والذي يربى فيه الطفل بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠ـ ٣١] وتكلم كهلاً بالوحي والنبوة فتكلمه في تينك الحالتين على حد واحد وصفة واحدة من غير تفاوت معجزة عظيمة حصلت له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده وكل معجزة ظهرت منه كما أنها نعمة في حقه فكذلك هي نعمة في حق أمه لأنها تدل على براءة ساحتها مما نسبوها إليه واتهموها به وحمل مريم ما كان من الرجال كسائر النساء وإنما كان بروح منه كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فهذه نعمة خاصة بمريم وكذلك ولادة عيسى وخلقته ما كان من نطف الرجال وإنما كانت كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فهذه نعمة خاصة بعيسى. والكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين ووخطه الشيب أي: خالطه وقيل المراد بتكلمه كهلاً أن يكلم الناس بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان بناء على أنه رفع قبل أن أكهل فيكون قوله تعالى: ﴿وكهلا﴾ دليلاً على نزوله.

ـ وروي ـ أن الله تعالى أرسله وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله تعالى إليه وينزل على هذا السن ثم يكهل ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ أي: اذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان بالذكر مع دخولهما في الجنس إظهاراً لشرفهما والمراد بالحكمة العلم والفهم لمعاني الكتب المنزلة وأسرارها وقيل هي استكمال النفس بالعلم بها وبالعمل بمقتضاها ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أي: تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير ﴿بإذني﴾ أن بتسهيلي وتيسيري ﴿فتنفخ فيها﴾ أي: في الهيئة المصورة ﴿فتكون﴾ أي: تلك الهيئة ﴿طيرا بإذني﴾ فالخلق حقيقة لله تعالى ظاهر على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب كما أن النفخ في مريم كان من جبريل

والخلق من الله تعالى سألوا منه عليه السلام على وجه التعنت فقالوا له اخلق لنا خفاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالتك فأخذ طيناً وجعل منه خفاشاً ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض وإنما طلبوا منه خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور وله ضرع يخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جداً ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة فلما رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا هذا سحر **﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾** الأكمه الذي ولد أعمى والأبرص هو الذي به برص أي: بياض في الجلد ولو كان بحيث إذا غرز بإبرة لا يخرج منه الدم لا يقبل العلاج ولذا خصا بالذكر وكلاهما مما أعيى الأطباء، وفي «المثنوي»:

صومعه عيسى است خوان أهل دل ... هان وهان اى مبتلا اين درمهل
جمع كشتندى زهر أطراف خلق ... از ضرير وشل ولنك واهل دلق
او چو فارغ كشتى از اوراد خويش ... چاكشتكه بيرون شدى آن خوب كيش
پس دعا كردي وكفتى ازخدا ... حاجت ومقصود جمله شدروا
خوش روان وشادمانه سوى خان ... از دعاى او شدندى پاروان
آز مودى توبسى آفات خويش ... يا فتى صحت ازين شاهان كيش
چند آن لنكىء تورهوار شد ... چند جانت بى عم وآزار شد

﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ أي: تحيي الموتى وتخرجهم من قبورهم أحياء قيل اخرج سام بن نوح ورجلين وجارية كما سبق تفصيله في سورة آل عمران. قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الموتى بيا حي ويا قيوم وهو الاسم الأعظم عند العلماء المحققين **﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾** أي: منعت اليهود الذي أرادوا لك السوء عن التعرض لك **﴿إذ جئتهم بالبينات﴾** بالمعجزات الواضحة ظرف لكففت **﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر ظاهر رداً وإنكاراً فبقوا على مرض الكفر ولم يعالجوا بعلاج الإيمان على يد الحكيم الإلهي الحاذق.

ـ حكي ـ عن الشبلي أنه اعتل فحمل إلى البيمارستان وكتب علي بن عيسى الوزير إلى الخليفة في ذلك فأرسل الخليفة إليه مقدم الأطباء ليداويه فما أنجحت مداواته قال الطبيب للشبلي والله لو علمت أن مداواتك في قطعة لحم من جسدي ما عسر على ذلك قال الشبلي دوائي فيما دون ذلك قال الطبيب وما هو قال بقطعك الزنار فقال الطبيب أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال نفذنا طبيباً إلى مريض وما علمنا أنا نفذنا مريضاً إلى طبيب، قال اليافعي هذا هو الطبيب الحاذق وحكمته من الحكمة التي بها العلل تزول وفيه أقول:

إذا ما طبيب القلب أصبح جسمه ... عليلاً فمن ذا للطبيب طبيب
فقل هم أولو علم لدني وحكمة ... إلٰهية يشفي بذاك قلوب

وكل مرشد كامل فهو عيسى وقته، فإن قلت إن أولياء الله هم الأطباء حقيقة ومن شأن الطبيب أن يعالج ويبرىء دون أن يهلك ويمرض فما شأن إبراهيم الخواص أشار بإصبعيه إلى

عيني رجل في برية أراد أن يسلب منه ثيابه فسقطتا، قلت: إنما دعا إبراهيم على اللص بالحمى ودعا إبراهيم بن أدهم على الذي ضربه بالجنة لأن الخواص شهد من اللص أنه لا يتوب إلا بعد العقوبة فرأى العقوبة أصلح له وابن أدهم لم يشهد توبة الظالم في عقوبته فتفضل عليه بالدعاء فتوة منه وكرماً فحصلت البركة والخير بدعائه للظالم فجاءه مستغفراً معتذراً فقال له إبراهيم الرأس الذي يحتاج إلى الاعتذار تركته ببلخ وقد كان الأنبياء يدعون مطلقاً بحسب الأحوال والمصالح وكل ذلك بإذن الله تعالى فهم في دعائهم فانون عن أنانيات وجودهم لا يصدر من لسانهم إلا حق مطابق للواقع والحكمة والأولياء تلو لهم في ذلك ولكن الناس لا يعلمون، وفي «المثنوي»:

چون بباطن بنكرى دعوى كجاست ... او ودعوى پيش آن سلطان فناست
مات زيد زيد اكر فاعل بود ... ليك فاعل نيست كوعاطل بود
اوز روى لفظ نحوى فاعلست ... ورنه أو مفعول وموتش قاتلست

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ جمع حواري يقال فلان حواري فلان أي: صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص سمي به أصحاب عيسى عليه السلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم وكان بعضهم من الملوك وبعضهم من صيادي السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين اذكر يا محمد وقت أن أمرتهم على ألسنة رسلي أو ألهمت إياهم وألقيت في قلوبهم **﴿أن﴾** مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول **﴿آمنوا بي﴾** أي: بوحدانيتي في الربوبية والألوهية **﴿وبرسولي﴾** أي: وبرسالة رسولي ولا تزيلوه عن حيزه حطاً ولا رفعاً **﴿قالوا﴾** كأنه قيل فماذا قال حين أوحى إليهم ذلك فقيل قالوا: **﴿آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** أي: مخلصون في إيماننا من أسلم وجهه لله أي: أخلص.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿إذ قال الحواريون﴾ منصوب باذكر **﴿يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾** هذا السؤال كان في ابتداء أمرهم قبل أن يستحكم معرفتهم بالله ولذلك أساؤوا الأدب مع عيسى عليه الصلاة والسلام حيث لم يقولوا يا رسول الله أو يا روح الله وخاطبوه باسمه ونسبوه إلى أمه ولو وفقوا للأدب لقالوا يا روح الله ونسبوه إلى الله ثم رفضوا الأدب مع الله وقالوا هل يستطيع ربك كالمتشكك في استطاعته وكمال قدرته على ما يشاء كيف يشاء ثم أظهروا دناءة همتهم وخساسة نهمتهم إذ طلبوا بواسطة مثل عيسى من الله تعالى مائدة دنيوية فانية وما رغبوا في فائدة دينية باقية ولو رغبوا في الفائدة الدينية لنالوا المائدة الدنيوية أيضاً قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠] والمائدة الخوان الذي عليه الطعام من

ماده إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليها ونظيره قولهم شجرة مطعمة، قال في «الشرعة»: وضع الطعام على الأرض أحب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم على السفرة وهي على الأرض والأكل على الخوان فعل الملوك أي: آداب الجبارين لئلا يتطأطأ عند الأكل وعلى المنديل فعل العجم أي: أهل فارس من المتكبرين وعلى السفرة فعل العرب وهي في الأصل طعام يتخذه المسافر للسفر ثم سمي بها الجلد المستدير المحمول هو فيه **﴿قال﴾** كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال: **﴿اتقوا الله﴾** أي: من أمثال هذا السؤال **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي: بكمال قدرته تعالى أو بصحة نبوتي **﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾** تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال لا نريد بالسؤال إزالة شبهتنا في قدرته تعالى على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى بل نريد أن نأكل منها أي: أكل تبرك يتشفى بسببها مرضانا ويتقوى بها أصحاؤنا ويستغني بها فقراؤنا وقيل مرادهم أكل احتياج لأنهم قالوا ذلك في زمن المجاعة والقحط **﴿وتطمئن قلوبنا﴾** لكمال قدرته تعالى بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال **﴿ونعلم﴾** علماً يقيناً **﴿أن﴾** مخففة أي: أنه **﴿قد صدقتنا﴾** في دعوى النبوة وأن الله يجب دعوتنا وإن كنا عالمين بذلك من قبل **﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾** نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر **﴿قال عيسى ابن مريم﴾** لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها **﴿اللهم﴾** أي يا الله والميم عوض عن حرف النداء وهي كلمة عظيمة من قالها فقد ذكر الله تعالى بجميع أسمائه وفي الميم سبعون اسماً من أسمائه تعالى قد اندرجت فيها **﴿ربنا﴾** ناداه سبحانه مرتين إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء **﴿أنزل علينا مائدة من السماء﴾** متعلق بأنزل **﴿تكون لنا عيدا﴾** صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها عيداً ولنا حال منه أي: يكون يوم نزولها عيداً نعظمه وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستفاد من شرفها وقيل العيد: السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً **﴿لأولنا وآخرنا﴾** بدل من لنا بإعادة العامل أي: عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا.

ـ روي ـ أنها نزلت يوم الأحد ولذلك اتخذه النصارى عيداً **﴿وآية﴾** كائنة **﴿منك﴾** دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي **﴿وارزقنا﴾** أي: المائدة والشكر عليها **﴿وأنت خير الرازقين﴾** تذييل جار مجرى التعليل أي: خير من يرزق لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض **﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾** إجابة إلى سؤالكم **﴿فمن يكفر بعد﴾** أي: بعد تنزيلها **﴿منكم﴾** حال من فاعل يكفر **﴿فإني أعذبه﴾** بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة **﴿عذابا﴾** اسم مصدر بمعنى التعذيب أي: تعذيباً **﴿لا أعذبه﴾** صفة لعذاباً والضمير له أي: أعذبه تعذيباً لا أعذب ذلك التعذيب أي: مثل ذلك التعذيب **﴿أحدا من العالمين﴾** أي: من عالمي زمانهم أو من العالمين جميعاً فإنهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذب مثل ذلك غيرهم.

ـ روي ـ أن عيسى عليه السلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم دعا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا

تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل الذي عليها وقال: بسم الله خير الرازقين فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوكة يسيل دسمها وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكنه اخترعه الله بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال: يا سمكة أحيي بإذن الله فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية فلبث المائدة يوماً واحداً فأكل من أكل منها ثم طارت ولم تنزل بعد ذلك اليوم وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً أي: تنزل يوماً ولا تنزل يوماً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً ثم أوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء الأصحاء فاضطرب الناس بذلك أي: تعاظم على الأغنياء والأصحاء حتى شكوا وشككوا الناس في شأن المائدة ونزولها من السماء حقيقة فمسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحداً بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤوسهم فلا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا وكذلك كل ممسوخ.

والإشارة أن الله تعالى سلخ صورة الإنسانية عن حقائق صفات الحيوانية وألبسوا الصور من حقائق صفاتهم فمسخوا خنازير ليعتبر الخلق ويتحقق لهم أن الناس يحشرون على صور صفاتهم يوم تبلى السرائر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه كما قال عليه السلام: «يموت الناس على ما عاشوا فيه ويحشرون على ما ماتوا عليه» يعني يحشرون على صورة صفاتهم التي ماتوا عليها، وفي «المثنوي»:

هر خيالى كوكند در دل وطن	روز محشر صورتى خواهد شدن
زانكه حشر حاسدان روز كزند	بى كمان بر صورت كركان كنند
حشر پر حرص وخس ومردار خوار	صورت خوكى بود روز شمار
زانيانرا كنده اندام نهان	خمر خوارانرا همه كنده دهان
سيرتى كاندر وجودت غالبست	هم بران تصوير حشرت واجبست

قال القاضي في تفسيره: وعن بعض الصوفية المائدة عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها وقال لهم عيسى: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها فلم يقلعوا عن السؤال والجواب فيها فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله تعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يتحمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً انتهى كلام القاضي. قال حضرة الشيخ الشهير بافتاده أفندي قدس سره: إن قوم عيسى عليه السلام عصوا مرة فرفعت المائدة وأنا نعصي في كل وقت مع أن نعم الله تعالى مترادفة وذلك لأن المائدة التي نزلت عليهم من مرتبة الصفة

والنعم الفائضة علينا مرتبة الذات وما هو من الذات لا يتغير ولا يتبدل وإنما التغير في الصفة وقد بقي هنا شيء وهو أن الأعياد أربعة لأربعة أقوام: أحدها عيد قوم إبراهيم كسر الأصنام حين خرج قومه إلى عيد لهم، والعيد الثاني عيد قوم موسى وإليه الإشارة بقوله تعالى في سورة طه ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]، والعيد الثالث عيد قوم عيسى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ربنا أنزل علينا مائدة﴾ الآية، والعيد الرابع عيد أمة محمد عليه السلام وهو ثلاثة: عيد يتكرر كل أسبوع وعيدان يأتيان في كل عام مرة من غير تكرر في السنة فأما العيد المتكرر فهو يوم الجمعة وهو عيد الأسبوع وهو مرتب على إكمال الصلوات المكتوبات لأن الله فرض على المؤمنين في اليوم والليلة خمس صلوات وأن الدنيا تدور على سبعة أيام فكلما كمل دور أسبوع من أيام الدنيا واستكمل المسلمون صلواتهم شرع لهم في يوم استكمالهم يوم الجمعة وهو اليوم الذي كمل فيه الخلق وفيه خلق آدم وأدخل الجنة وأخرج منها وفيه ينتهي أمر الدنيا فتزول وتقوم الساعة فيه وفيه الاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة وجعل ذلك لهم عيداً ولذلك نهى عن إفراده بالصوم وفي شهود الجمعة شبه من الحج ويروى أنها حج المساكين. وقال سعيد بن المسيب شهود الجمعة أحب إلي من حجة نافلة والتكبير فيها يقوم مقام الهدى على قدر السبق والشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الأخرى إذا سلم ما بين الجمعتين من الكبائر كما أن الحج المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجة الأخرى، وقد روي إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام. وأما العيدان اللذان يتكرران في كل عام إنما يأتي كل واحد منهما مرة واحدة فأحدهما عيد الفطر من صوم رمضان وهو مرتب على إكمال الصيام وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم المفروض عليهم استوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب وآخره عتق من النار والعيد الثاني عيد النحر وهو أكبر العيدين وأفضلهما وهو مترتب على إكمال الحج وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه فإذا أكمل المسلمون حجتهم غفر لهم وإنما يكمل الحج يوم عرفة والوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم.

- وروى - أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قدم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما الفطر والأضحى»، واجتمعت الأمة على هذا من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا بلا نكير منكر فهذه أعياد الدنيا تذكر أعياد الآخرة وقد قيل كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فهو عيد لهم في الجنة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه فيوم الجمعة في الجنة. يدعى يوم المزيد ويوم الفطر والأضحى يجتمع أهل الجمعة فيهما للزيارة هذا لعوام أهل الجنة وأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بكرة وعشيا والخواص كانت أيام الدنيا كلها لهم أعياداً فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعياداً. وأما أخص الخواص فكل نفس عيد لهم.

قال في «التأويلات النجمية» ﴿ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ أي: مائدة الأسرار والحقائق التي تنزلها من سماء العناية عليها أطعمة الهداية ﴿تكون لنا﴾ يعني لأهل الحق وأرباب الصدق ﴿عيدا﴾ نفرح بها ﴿لأولنا وآخرنا﴾ أي: لأول أنفاسنا وآخرها فإن أرباب الحقيقة يراقبون الأنفاس أولها وآخرها لتصعد مع الله وتهوى مع الله ففي صعود النفس مع الله يكون عيداً لهم وفي هويه مع الله عيداً لهم، كما قال بالفارسية: [صوفيان دردمى دوعيد كنند].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم**﴾ أي: اذكر يا محمد للناس وقت قول الله تعالى لعيسى عليه السلام في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه السلام على رؤوس الاشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته تعالى ﴿**ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٓهين**﴾ مفعول ثاني للاتخاذ ﴿**من دون الله**﴾ حال من فاعل اتخذوني كأنه قيل صيروني وأمي إلٓهين أي: معبودين متجاوزين عن ألوهية الله تعالى ومعبوديته والمراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] لأن أحداً منهم لم يذهب إلى القول بإلٓهية عيسى ومريم مع القول بنفي إلٓهية الله تعالى ولما لم يكن المقصود إنكار نفس القول بل قصد توبيخ من قال به ولي حرف الاستفهام المبتدأ ولم يقل كذا لأنه يفيد إنكار نفس القول. قال المولى أبو السعود رحمه الله ليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال الفاشي وعليه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢] وتظاهره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] انتهى.

قال في «التأويلات النجمية»: الإثبات بعد الاستفهام نفي كما أن النفي بعد الاستفهام إثبات كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أنا ربكم ونظير النفي في الإثبات قوله تعالى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠] أي: ليس مع الله إلٓه فمعناه ما قلت أنت للناس اتخذوني وأمي إلٓهين من دون الله ولكنهم بجهلهم قد بالغوا في تعظيمك حتى أطروك وجاوزوا حدك في المدح ولهذا قال النبي عليه السلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم» انتهى. فإن قيل ما وجه هذا السؤال مع علمه تعالى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يقله، قيل ذلك لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة. قال أبو روق إذا سمع عيسى هذا الخطاب ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم وهذا الخطاب وإن كان ظاهره مع عيسى ولكن كان حقيقة مع الأمة لأن سنة الله أن لا يكلم الكفار يوم القيامة ولا ينظر إليهم ﴿**قال**﴾ كأنه قيل فماذا يقول عيسى حينئذٍ فقيل يقول: ﴿**سبحانك**﴾ علم للتسبيح أي: أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال في حقك ذلك ﴿**ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**﴾ أي: ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿**إن كنت قلته**﴾ أي: هذا القول ﴿**فقد علمته**﴾ لأني لا أقدر على هذا القول إلا بأن توجده فيّ وتكونه بقولك كن فصدوره عني مستلزم لعلمك به قطعاً فحيث انتفى العلم انتفى الصدور حتماً ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم ﴿**تعلم ما في نفسي**﴾ أي: ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿**ولا أعلم ما في نفسك**﴾ أي: ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك فعبر عما يخفيه الله من معلوماته بقوله ما في نفسك للمشاكلة لوقوعه في صحبة قوله تعلم ما في نفسي فإن معلومات الإنسان مختفية في نفسه بمعنى كون صورها مرتسمة فيها بخلاف معلومات الله تعالى فإن علمه

تعالى حضوري لا تنقطع صورة شيء منها في ذاته فلا يصح أن يحمل النفس على المعنى المتبادر ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ ما كان وما يكون.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه أي: ما أمرتهم إلا ما أمرتني به وإنما قيل ما قلت لهم نزولاً على قضية حسن الأدب ومراعاة لما ورد في الاستفهام ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ تفسير للضمير في به وفي أمرت معنى القول وليس تفسيراً لما في قوله ما أمرتني لأنه مفعول لصريح القول والتقدير إلا ما أمرتني به بلفظ هو قولك أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴿وكنت عليهم شهيدا﴾ رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿ما دمت فيهم﴾ أي: مدة دوامي فيما بينهم ﴿فلما توفيتني﴾ أي: قبضتني إليك من بينهم ورفعتني إلى السماء ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: أنت لا غيرك كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب لها فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسول وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ مطلع عليه مراقب له فعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ أي: فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه. وفيه تنبيه على أنهم استحقوا التعذيب حيث عبدوا غيره تعالى ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر والقوي على الثواب والعقاب الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل. فإن قلت مغفرة المشرك قطعية الانتفاء بحسب الوجود وتعذيبه قطعي الوجود فما معنى أن المستعمل فيما كان كل واحد من جانبي وجوده وعدمه جائزاً محتمل الوقوع، قلت كون غفران المشرك قطعي الانتفاء بحسب الوجود لا ينافي كونه جائز الوجود بحسب العقل فصح استعمال كلمة إن فيهما لأنه يكفي في صحة استعمالها مجرد الإمكان الذاتي والجواز وقيل الترديد بالنسبة إلى فرقتين والمعنى إن تعذبهم أي من كفر منهم وإن تغفر لهم أي من آمن منهم.

ـ روي ـ أنه لما نزلت هذه الآية أحيى رسول الله ﷺ بها ليلته وكان بها يقوم وبها يقعد وبها يسجد ثم قال: «أمتي أمتي يا رب» فبكى فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: الله يقرئك السلام ويقول لك إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قال الله﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيراً إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم ﴿هذا﴾ أي: يوم القيامة وهو مبتدأ وخبره ما بعده ﴿يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ المراد الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه اعترافه وصدقه وكذا الجاني المعترف في

الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذٍ اعترافه وصدقه فإنه ليس المراد كل من صدق في أي: شيء كان بل في الأمور الدينية التي معظمها التوحيد الذي نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به والصادقون الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك والأمم المصدقون لهم المعتقدون بهم عقداً وعملاً ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا**﴾ كأنه قيل ما لهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وهو الفوز الكبير. قوله أبداً أي: إلى الأبد تأكيد للخلود يعني بالفارسية [زمان بود ايشان نهايت ندارد] ﴿**رضي الله عنهم**﴾ بالطاعة ﴿**ورضوا عنه**﴾ بنيل الكرامة والرضوان فيض زائد على الجنات لا غاية وراءه ولذلك قال تعالى: ﴿**ذلك**﴾ أي: نيل الرضوان ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ أي: النجاة الوافرة وحقيقة الفوز نيل المراد وإنما عظم الفوز لعظم شأن المطلوب الذي تعلق به الفوز وهو الرضى الذي لا مطلب وراءه أصلاً ﴿**لله ملك السموات والأرض وما فيهن**﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه أي: له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء إيجاداً وإعداماً وإماتة وإحياء وأمراً ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ بالغ في القدرة منزه عن العجز والضعف ومقدس تبارك وتعالى وتقدس:

نيست خلقش را دكركس مالكى   شركتش دعوى كندجز هالكى
واحد اندر ملك واورا يارنى   بندكانش را جزاو سالارنى

واعلم أن الآية نطقت بنفع الصدق يوم القيامة فلا ينفع الكذب والرياء بوجه من الوجوه أصلاً.

دلا دلالت خيرت كنم براه نجات   مكن بفسق مباهات وزهد هم مفروش

فعلى العاقل أن يجتهد في طريق الصدق فإن الصدق بعد الإيمان يجر إلى الإحسان وقبل الإيمان إلى الإيمان.

ـ كما حكي ـ عن إبراهيم الخواص قدس سره أنه كان إذا أراد سفراً لم يعلم أحداً ولم يذكره وإنما يأخذ ركوته ويمشي قال حامد الأسود فبينما نحن معه في مسجد إذ تناول ركوته ومشى فاتبعته فلما وافيا القادسية قال لي يا حامد إلى أين؟ قلت: يا سيدي خرجت بخروجك قال: أنا أريد مكة إن شاء الله تعالى قلت: وأنا أريد مكة إن شاء الله تعالى فلما كان بعد أيام إذا بشاب قد انضم إلينا فمشى يوماً وليلة معنا لا يسجد لله تعالى سجدة فقربت من إبراهيم وقلت: إن هذا الغلام لا يصلي فجلس وقال: يا غلام ما لك لا تصلي والصلاة أوجب عليك من الحج فقال: يا شيخ ما علي صلاة قلت ألست بمسلم قال: لا قلت فأي شيء أنت قال نصراني ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكل وادعت نفسي أنها أحكمت حال التوكل فلم أصدقها فيما ادعت حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة التي ليس فيها موجود غير المعبود أثير ساكني وامتحن خاطري فقام إبراهيم ومشى وقال: دعه معك فلم يزل سائراً معنا حتى وافينا بطن مرو فقام إبراهيم ونزع خلقانه فطهرها بالماء ثم جلس وقال له: ما اسمك قال: عبد المسيح فقال: يا عبد المسيح هذا دهليز مكة يعني الحرم وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] والذي أردت أن تكشف من نفسك قد بان لك فاحذر أن تدخل مكة فإن رأيناك بمكة انكرنا عليك قال حامد:

فتركناه ودخلنا مكة وخرجنا إلى الموقف فبينما نحن جلوس بعرفات إذا به قد أقبل عليه ثوبان وهو محرم يتصفح وجوه الناس حتى وقف علينا فأكب على إبراهيم فقبل رأسه فقال له ما وراءك يا عبد المسيح فقال له هيهات أنا اليوم عبد من المسيح عبده فقال له إبراهيم حدثني حديثك قال: جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحجاج فقمت وتنكرت في زي المسلمين كأني محرم فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحل عندي كل دين سوى دين الإسلام فأسلمت فاغتسلت وأحرمت وها أنا أطلبك يومي فالتفت إلي إبراهيم وقال: يا حامد انظر إلى بركة الصدق في النصرانية كيف هداه إلى الإسلام ثم صحبناه حتى مات بين الفقراء رحمه الله سبحانه وتعالى:

سلام على السادات من كل صادق ... سلام على ذي الوجد من كل عاشق
سلام على ذي الصحو من سكر غفلة ... سلام على الناجين من كل كلفة
سلام على من مات من قبل موته ... سلام على من فات من قبل فوته

اللهم اجعلنا من الناجين فإننا من زمرة المحتاجين آمين يا معين.

تمت سورة المائدة مع ما فيها من الفائدة والحمد لله على نعمه المتوافرة والصلاة على رسوله وآله صلاة متكاثرة وذلك في اليوم الثالث من شهر الله المحرم المنتظم في سلك سنة ألف ومائة ويتلوها سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.

- تم المجلد الثاني من تفسير روح البيان -

فهرس السور والآيات

سورة النساء